

نيكوس كازانتزاكيس

تأليف: نيكوس كازانتزاكيس



تأليف: نيكوس كازانتزاكيس

نيكوس كازانتزاكيس

الطبعة الأولى: ١٩٥٠

الطبعة الأولى: ١٩٥٠ - طبع في المطبعات - طبع في المطبعات - طبع في المطبعات
الطبعة الأولى: ١٩٥٠ - طبع في المطبعات - طبع في المطبعات - طبع في المطبعات
الطبعة الأولى: ١٩٥٠ - طبع في المطبعات - طبع في المطبعات - طبع في المطبعات

في داخلي تكمن القوى المظلمة السحيقة القرم للظلم
للشرب. الانساني وعقل الانساني، وفي داخلي أيضاً القوي
المسيحية، الإنسانية وعقل الإنسانية - لله - وكانت رحي -
تعددها عليها عذرا الجسد وتكاد.

لكن ألام مريحة، لقد أحببت جسدي ولم - - - - -
وأحببت رحي ولم أريد أن أكون. جاهدت. وأصبحت بين عالمين
القويين الأساميون الشديدي الشافين. لأجعلوا شركان
لهم أيضاً عيونهم وأنا رقيقتا عمل. أملاً في أن ألتهم في
الشماعهما - وأملأ في أن ألتهم معهما.

كازانتزاكيس

أمدى للثقافة والنشر

٨

٨

٨

٨

نيكوس كاوانتزاكيس

الاعواء الأخير للمسيح



اسم المؤلف : نيكوس كاوانتزاكيس
عنوان الكتاب : الاعواء الأخير للمسيح
ترجمة : أسامة مزملجي
قاربع الطبع : الطبعة الثانية ١٩٩٥
المصمم : محمد سعيد الصكار - باريس
الناشر : دار المدى للثقافة والنشر

دار المدى للثقافة والنشر

دمشق - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ - ٧٢٦٦ - ٢٢٠٣٩
لبنان - بيروت : ٧٧٢٠١٩ - ٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٢٨٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١ فاكس : ٤٦٦٢٥٢ - ٩٦١١

Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus, P.O.Box : 7025
Damascus - Syria, P.O.Box : 8272 - 7366 - 44139
P.O. Box : 11 - 3181, Beirut - Lebanon, Fax : 9614 - 436252

لعلنا مثل جوهر المسيح المزودج - توفى الانسان، التوفى الشديد الانسانية، الخارق في انسانته، ليبلغ الله أو ، بعبارة أدق، ليعود الى الله ويتطابق معه - مثل لغزاً مبهماً عويصاً بالنسبة الي. هذا الحنين الى الله، وهو في وقت واحد غامض وحقيقي تماماً، نكا داخلي جروحاً كبيرة وفجر أيضاً يتابع متدفقة .

كان مصدر المي الأساسي ومتبع كل اقراحي واحزاني يدماً من طفولتي فصاعداً صراع متواصل لا يعرف، الرحمة بين الروح والجسد.

في داخلي تكمن القوى المظلمة المسيئة القديم للجانب الشرير، الانساني وماقبل الانساني ، وفي داخلي أيضاً القوى المضيفة، انسانية وماقبل انسانية، لله- وكانت روحي ساحة تصادم عليها هذان الجيشان وتقاتلا.

كان الألم مبرحاً، لقد احببت جسدي ولم أرد له أن يفنى، واحببت روحي ولم أرد لها أن تبلى. جاهدت لأصالح بين هاتين القوتين الأساسيتين الشديديتي التناقض، لأجعلهما تدركان انهما ليستا عدوتين وإنما رفيقتا عمل، أملأ في أن يتنهجا في انسجامهما - وأملأ في أن أبتهج معهما .



إن كل إنسان يشارك مع روحه وجسده في الطبيعة القدسية. لهذا فإن الحق المسيحي ليس مجرد أمر فسيحة معينة. إن الصراع بين الله والإنسان يتفجر في كل فرد. في جانب الروح لأحداث مصالحة. وفي أغلب الأحيان يكون هذا الصراع لا واعياً وفهم الأعداء. إن الروح الضعيفة لا تقوى على مقاومة الجسد إذا طويلاً. فبعد شيلة، تسبح هي نفسها جسداً، وينتهي النزاع. لكن بين الروح والحق يتجلى المسؤول، الذين يبقون أعينهم مشبته ليل نهار على الواجب الديني، يتجلى الصراع بين الجسد والروح دون هوادة وقد يدوم حتى الموت.

لماذا خرب الروح كان الصراع مثيراً والانسجام النهائي أقوى. الله لا يحب الأرواح الضعيفة والأحاسد الرخوة. الروح تريد أن تتصارع مع الجسد القوي والغهم والادامة. إنها طائر لاحم جائع على الدوام. تاكل اللحم وتجعله يفتقر بدمية.

صراع بين الجسد والروح. تمرد ومقاومة. مصالحة واستسلام. وأخيراً - الهدف الأسمى من الصراع - الاتحاد في الله. هذا هو الارتقاء الذي أتبعه المسيح. الارتقاء الذي يدعو أيضاً لاتباعه. مقتدين في ذلك آثاره الميمنة.

هذا هو الواجب الأسمى للإنسان الذي يناضل - أن ينطلق بيبقي الذروة الشاهقة التي وصل إليها المسيح. أول ابن للخلص. فكيف يمكننا أن نبدأ ؟ إننا نعلم جيداً أن نتبع خطاه علينا أن نحصل معرفة عميقة بصراعه. يجب أن يعيش من جديد بلواء انتصاره على الأحياء المنتشرة في الأرض ونساعدهم بدمع البشر الكبيرة منها والصغيرة وارتقاؤه من تضحية إلى تضحية. من مائدة إلى مائدة حتى بلوغه ذروة الشهادة. الصليب.



لقد أتبع مدبر رحلة المسيح المنضبة بالدم إلى الجلجلة بمثل ذلك الرغبة. لم أعش من جديد. حبلته والامه بمثل تلك الكفاة. وذلك التهك والحب. كما حدث خلال الأيام والليالي التي كتبت فيها بالأغواء الأخير للمسيح. وبينما

أنا أقرأ هذا الاعتراف بكرى الجنس البشري وأمله العظيم أحسست بتأثر شديد حتى أن عيني امتلأت بالدموع. لم أكن قد شعرت بدم المسيح يستقط قطرة قطرة في قلبي بمثل كل ذلك القدر من الحلاوة والألم.

لكني يرتقي إلى الصليب. قمة التضحية. ومنه إلى الله. قمة اللامادية. مرّ المسيح خلال كل المراحل التي يمرّ خلالها كل من يصارع. لهذا نرى أن معاناته مألوفة لدينا. لهذا نرانا نشارك فيها. ولهذا يبدو انتصاره النهائي لنا خليقاً تماماً بأن يكون هو انتصارنا في المستقبل. ذلك الجانب من طبيعة المسيح والذي كان إنسانياً يعمق يساعدنا على فهمه وحيه وعلى اتباعه دور الامه وكأنها الأمانة نحن. ولو لم يكن في داخله هذا العنصر الإنساني الدافئ لما تمكن من أن يغدو نموذجاً لحياتنا. نكافح. نرأى يكافح أيضاً. فنكتسب القوة. نرى أننا لسنا وحدنا في العالم: فهو يقاتل إلى جانبنا.

إن كل لحظة من حياة المسيح هي صراع وانتصار. لقد ظهر الفتنة القاهرة لوجبات الإنسان البسيط. ظهر الأعرامات. وعمل دون هوادة على إحالة اللحم إلى روح. ثم ارتقى. وحين وصل إلى قمة الجلجلة صعد إلى الصليب.

ولكن حتى وهو هناك لم ينته صراعه. فالأغراء - الأغراء الأخير - كان بانتظاره على الصليب. وأمام عيني المصلوب كشفت روح الشر. في لح البصر. الرؤى الخادعة للهيبة المعيدة الوادعة. وبدا للمسيح أنه سلك سبيل البشر الممهد السهل. وتزوج وأنجب أطفالاً. وأحبه الناس واحترموه. والآن. بعد أن أصبح عجوزاً. جلس على عتبة داره يبتسم برضى وهو يتذكر أشواق شبابه. ما أروع. وما أعظمه باختياره سبيل البشر! أي جتو في إرادة انقاذ العالم لأي فزع بالأفلات من ظروف الحرمان. ومصادر العذاب. ومن الصليب !



كان ذلك هو الأغراء الأخير الذي جاء كلعن الهرق ليعكر صفو اللحظات الأخيرة من حياة المخلص.

لكن المسيح هز رأسه بعنف على الفور، وفتح عينيه ، ورأى . لا، لم يكن
 غلاماً . لقد التوراة ولا كان أبشاً . لقد أنجز المهمة التي وكلها الله اليه . انه لم
 يأخذ له زوجة . ولم يعيش حياة سعيدة . لقد وصل الى ذروة التضحية : سُمِرَ
 على الصليب .

أعسى عينيه رأسياً . ومن ثم تعالت صرخة الانتصار عظيمة : لقد أنجز
 العزل !

بالمئات أخرى : لقد أدت واجبي ، وعاهد صُليت ، ولم أستسلم للفوابة...
 لقد كُتب هذا الكتاب لأنني أردت أن أقدم نموذجاً سامياً للإنسان المقاوم .
 أردت أن أبين له أن عليه أن لا يخشى الألم ، أو الفوابة أو الموت - لأن الثلاثة
 يمكن فهمهم . وأن الثلاثة قد قهروا فعلاً . لقد عانى المسيح الألم ، ومنذ ذلك
 الحين تَقَدَّسَ الألم . وجاهدت الفوابة حتى آخر لحظة لتضله ، وهزمت الفوابة .
 مات المسيح على الصليب . وفي تلك اللحظة تلاشي الموت الى الأبد .
 أصبحت كل عقبة ظهرت أثناء رحلته علامة على الطريق ، وقوساً
 لاحرار مزيد من النصر . أمامنا الآن نموذج ، نموذج يضيء دربنا بتألقه ويهيمنا
 القوة .

هذا الكتاب ليس سيرة حياة . انه اعتراف كل انسان يكافح . وأنا بنشري
 أباه أكون قد أدت واجبي ، واجبه انسان كافح كثيراً ، وذاق الأمرين في حياته ،
 وانطوى على أسال كشيرة . أنا واثق من أن كل انسان حر يقرأ هذا الكتاب ،
 المتزعج بالحجب ، سوف يحب ، أكثر من أي وقت مضى ، المسيح

ن . كازانتراكيس

الفصل الأول

هَبْ تَسِيمٍ قَدَسِي مَلَكٌ عَلَيْهِ كِيَانُهُ .
 فوقه ، تفتحت أبواب السماوات المزدهرة عن حشد كثيف من
 النجوم ، وفي الأسفل ، على الأرض ، كانت الحجارة تتبخّر ، وماتزال
 ملتهبة بحرّ النهار القاطط . وشملت السماء والأرض سكوناً وعذوبة
 معلومتان بالصمت العميق لأصوات الليل السرمدية . صمت أعمق
 حتى من الصمت نفسه . كان الليل حالكاً ، لعله وصل الى منتصفه ،
 وعينا الرب ، الشمس والقمر ، مغمضتين غافيتين ، والشاب يتأمل
 سعيداً ، مفتوناً بالنسيم الرقيق . وتعجب في نفسه ، ولكن ما أروع
 العزلة ! ما أروع الفردوس ! وفجأة تبدلت الريح واحتقن الجو ، لم
 يعد نسيماً قدسياً بل هبات قوية من الرياح الثقيلة للزجة ، وكأنما
 هناك في دغلة كثيفة أو بستان متبع رطب الى الأسفل منه حيوان
 يلهث ، أو قرية ، يكافح عيشاً ليغفو . أصبح الهواء ثقيلاً مضطرباً .
 وتصاعدت أنفاس الرجال ، والحيوانات والأقزام الفائرة وامتزجت
 مع العيق الحاد للمرقق الانساني الكريه ، وعبير الخبز الطازج
 المستخرج توأ من الفرن . وزيت القار الذي تستخدمه النسوة لدهن

شعورهن. نشم، نشمر، تخمن- لكنك لا ترى شيئاً. وشيئاً فشيئاً نعداد عينك على الظلام وتتمكنان من تمييز شجرة سرو مستقيمة الجزء حالكة وأشد حلكة من الليل نفسه، وأجمة من شجر النخيل مضموم معاً كثافورة، وأشجار زيتون تحف أوراقها القليلة في وجه الريح وتلمع كما النفضة في الظلام. وهناك على بقعة خضراء من الأرض ترى أكواخاً بأثمة أقيمت باهمال تارة ضمن مجموعات، وأخرى منفردة، بنيت من الليل والطين والأجر، وقد لطخت جميعاً ببياض ماء الكلس، وتستدل من الرائحة والقذارة أن الأشكال الانسانية، بعضها متدثر بملاءات بيضاء، وأخرى مكشوفة، نائمة على الأسطح.

وتلاشى الصمت، وامتألاً الليل المبهج غير المأهول بالأسى. تلوث الأيدي الانسانية وتقلبت عيباً تبغي الراحة. وتهتد القلوب الانسانية، وانطلقت صرخات يائسة عنيدة من مئات الأهواء كافحت وسط هذا العماء الأخرس الذي وطأه الليل لتتحد، جاهدت لتعبر عما تنوق لقوله لكنها لم تتمكن، وتشتتت وضاعت في نويات هذيان مفككة.

وفجأة تصاعدت صرخة زاعقة تمزق القلب من أعلى سطح، في وسط القرية. كان هناك صدر يفشق عن : «يا رب اسرائيل، يا رب اسرائيل، أدوناي، الى متى؟»، لم يكن صوت رجل، بل كانت القرية يكملها تحلم وتصرخ معاً. تراب اسرائيل كله بكل ما فيه من عظام الموتى وجذور أشجاره، كان تراب اسرائيل في حالة مخاض، غير قادر على وضع مولوده، ويصرخ.

وبعد صمت طويل عادت الصرخة من جديد تمزق الجو من الأرض الى السماء، إلا أنها هذه المرة بمزيد من الغضب والاضيم : «الى متى؟ الى متى؟»، استيقظت كلاب القرية وأخذت تنبح.

وأقحمت النسوة الخائفات وهن على الأسطح المستوية رؤوسهن تحت آباط أزواجهن.

كان الشاب يحلم، وقد سمع الصرخة في منامه فانتبه. لقد فزع الحلم، فلملم أذياله وفرّ هارباً، وتخلخل الجبل، وبانت دواخله. لم يكن مكوثاً من صخور، بل من نوم ودوار. وجماعة الرجال الضخام الهمجيين الذين كانوا يرتقونه بغضب يخطئ هائلة- تغطيهم شوارب، ولحي، وحواجب وأيد كبيرة وطويلة - هم أيضاً تخلخلوا، تطاولوا، وتضخموا، طرا عليهم تحول كامل، ثم استحالوا فجأة خيوطاً رفيعة، أشبه بغيوم تذررها ربح عاتية. وبعد قليل اختفوا من ذهن النائم.

ولكن قيل أن يحدث هذا ثقل رأسه واستغرق ثانية في سبات عميق، ومن جديد تكثف شكل الجبل وعاد صخراً، وتكثت الغيوم فصارت لحمأ وعظماً. وسمع أحدهم يلهث، ثم سمع وقع خطى سريعة، وعاد ذو اللحية الحمراء الى الظهور فوق ذروة الجبل. كان قميصه مفتوحاً، وقدماه حافيتين، ووجهه أحمر، ويتفصّد عرقاً. وكان تابعوه العديديون اللاهثون خلفه، مايزالون مختفين بين صخور الجبل الوعرة. وفي الأعالي شكلت قبة السماء من جديد سقفاً حسن التكوين. أما الآن فلم يبق غير نجمة وحيدة، كبيرة، شبيهة بقم معلو بالنار معلقة من الشرق. إنه الصبح ينبلج.

كان الشاب متمدداً على سريريه المصنوع من قشارة الخشب، يتنفس بعمق، يأخذ قسطاً من الراحة بعد العمل الشاق الذي أداه في أثناء النهار. تباعدت جفونه برهة وكان نور نجمة الصبح أصابها، إلا أنه لم يستيقظ : لقد أحاط به الحلم من كل جانب. حلم بأن ذا اللحية الحمراء توقف، والعرق يتصبب من إبطيه، وساقيه ومن جبينه بتجاعيده الضيقة العميقة، وأخذ يصب سبأاً

وفيه يطلق بخاراً من الاجهاد والغضب، لكنه كبح جماح نفسه،
وابتلع لعنته واكتفى بالدمدمة غمماً، «الى متى، يا أدولاي، الى
متى؟» لكن غضبه لم يخذل، ثم استدار بسرعة البرق، وهباً دافع
السير الطويل داخله.

غابت الجبال مبتعدة، وتلاشى الرجال، وتحول الحلم الى موقع
جديد ورأى النائم أرض كنعان مبسوطة فوقه على سقف بيته
الواطن المغطى بأعواد الخيزران - أرض كنعان، كالأثير المطرّز،
متعددة الألوان، غنية بالزخارف، وترتعش. وإلى الجنوب صحراء
أدومية تهتز متغيرة كظھر نمر، وأبعد منها البحر الميت، كثيف
وسام، يفرق الضوء ويبتلع. ويعدّه تهضّ اورشليم الفوق بشرية،
يكتنفها خندق من كل جانب بأمر يهوه. وعلى بلاط شوارعها تجري
دماء ضحايا الرب، دماء الحملان والأنبياء. بعد ذلك تأتي السامرة،
قدرة، يعيش فيها الوثنيون، في وسطها بشر تسحب منها امرأة
متبرجة الماء، وأخيراً، في أقصى الشمال، الجليل - المشمس،
التواضعة، المخضوضرة، ومن أحد طرفي الحلم الى الطرف الآخر
جري نهر الأردن، شريان الرب الملكي، قاطعاً قفاراً رملية وبساتين
خصبة، ويمر بيوحنا المعمدان وبالهرطقة السامريين، وبغاهرات
وصيادي بحيرة جينيسارت، يرويهام جميعاً دون تحيّر.

ابتهج الشاب في منامه لأنه رأى الماء والتراب المقدسين. ومدّ
يده يبغى لمسهما لكن الأرض الموعودة المكونة من قطرات الندى
والريح والرغبات الانسانية القديمة قدم الدهر، والمضاعة كوردية في
نور المسبح، خفق نورها فجأة وسط الظلام الخفيف وتلاشى.
ولدى تلاشيهِ سمع مباباً وأصواتاً تجار ورأى مجموعة الرجال
الفقيرة تعود للظهور من خلف السخور الوعرة والتين الشوكي، إلا
أنهم تغيروا الآن ولم تعد ملامحهم واضحة. كم انكمش العمالقّة

وذبلوا، كم تقزّموا! أصبحوا لاهثين متلاحقي الأنفاس، ولحاهم
تتجرّ على الأرض. كل منهم يحمل أداة تعذيب غريبة الشكل. كان
بعضهم يحمل أحزمة جلدية مفزعة مرصعة بالحديد، والبعض
الأخر يقبض على خناجر ومهاميز للشيران، ومنهم من يحمل
مسامير ثقيلة رؤوسها عريضة. وكان ثلاثة من الأقزام بمؤخرات
تكاد تحف الأرض يحملون صليباً ضخماً صعب المأخذ، وأخيراً جاء
أقبح الجميع، وهو قزم أحول يحمل تاجاً من الشوك.

مال ذو اللحية الحمراء وحقق اليهم ثم هز رأسه بعظامه
البارزة ازديراً. سمع النائم أفكاره: أنهم لا يؤمنون. ولهذا انحطوا
، ولهذا أنا أعذب: أنهم لا يؤمنون.

مدّ يده الضخمة المشعرة وقال «انظروا» مشيراً الى السهل
المنيسط في الأسفل، الفارق تحت شيب صنيع الصباح.
«اننا لا نرى شيئاً يا رئيس، الدنيا ظلام».

«ألا ترون أي شيء؟ لماذا، إذن، لا تؤمنون؟»
«اننا مؤمنون يا رئيس، مؤمنون، ولهذا نرانا نتبعك. لكننا لا نرى
شيئاً»

«انظروا ثانية»

أنزل يده كما السيف، ونفذ من خلال شيب الصنيع وكشف
عن السهل الهاجع تحته. واستيقظت بحيرة زرقاء، ابتسمت وتلاّلات
وهي تزيع جانباً ملأه الصنيع التي تغطيها، لمعت أعشاش عظيمة
من البيض - هي قرى كبيرة وصغيرة - بيضاء تتلألأ تحت أشجار
التخيل، تتناثر حول شواطئها ووسط حقول القمح.

قال القائد، مشيراً الى قرية كبيرة تحيط بها مروج خضر «انه
هناك». وكانت ثلاث من طواحين الهواء التي تشرف عليها قد
نشرت أجنحتها في الصباح الباكر وباشرت دورانها.

وهجأة غمر الرعب وجه النائم الأسمر ذي البشرة القمحية. واستقر الحلم على جفنيه في سكونه. ذلك عينيه بيده ليتخلص منه، محاولاً يكل ما أوتي من جهد أن يستيقظ. قال في نفسه، انه حلم، يجب أن أستيقظ وأنقذ نفسي منه. لكن الرجال الأقزام أخذوا يدورون حوله في عناد غير راغبين في تركه وشأنه. والآن بدأ ذو اللحية الحمراء بوجهه الهمجي يخاطبهم، وهو يهز أصبعه مهدداً باتجاه القرية الكبيرة في الأسفل الى السهل.

«انه هناك يعيش هناك مختبئاً، حافي القدمين، بأسمال رثة، يقوم بدور النجار، يتظاهر بأنه ليس المختار. انه يريد أن ينقذ نفسه، لكنه لن يفلت منا : ان عيني الله قد رآته عليكم به يا رجال».

رفع قدمه ليعطي اشارته ، لكن الأقزام تشبثوا بذراعيه وساقيه، فأنزل قدمه ثانية.

«هناك كثير من الناس يرتدون الأسمال يا رئيس، وكثيرون يتجولون حفاة، وهناك العديد من النجارين. أعطنا مايكشف عن شخصه، ماهو شكله وأين يسكن، لكي نتعرف عليه. والا فلن نتزحزح من مكاننا. اعلم هذا يا رئيس : لن نتزحزح: إننا متعبون».

«سوف أضمه الى صدري وأقبله، ستكون تلك اشارتي ، تقدموا الآن . أسرعوا! ولكن بهدوء ، ولا ترفعوا أصواتكم. إنه نائم الآن. انتبهوا لثلا يستيقظ وينفلت منا . عليكم به يا رجال باسم الرب».

صرخ الأقزام بصوت واحد «سننال منه يا رئيس»، ورفضوا اقدامهم الكبيرة استعداداً للانطلاق.

لكن أحدهم، وكان أحذب أحوال وضامراً يحمل تاج الشوك ، تشبث بشجرة شوكية ورفض أن يتحرك.

صرخ قائلاً «لن اذهب الى أي مكان، لقد سمعت اكم ليلة

امضيتنا ونحن نتمعقه! كم بلداً وقرية اقتحمنا؟ احسبوا : في صحراء ايديوميا فتشنا أديرة الأسينيين واحداً بعد آخر، واقتحمنا قرية بيت عتيا وهناك اغتلتنا اليعازر دون فائدة، ثم وصلنا الى الأردن ، لكن الممعداني طردنا قائلاً «لست الذي تبحثون عنه، فارحلوا»، فرحلنا ودخلنا اورشليم، وفتشنا الهيكل، وقصور حنان وقيافاً، وأكواخ الكتبة والفريسيين: ولم نجد أحداً لا أحد غير الأنذال، والكذابين، واللصوص، والعاهرات، والقنلة فغادرننا من جديد. وهرعنا الى السامرة المحرومة كسبياً ووصلنا الى الجليل، ودفعة واحدة شعلنا المجدل وقانا، وكفر ناحوم وبركة بيت حسدا. فتشناها كوخاً كوخاً، وزورقاً فزورق بحثاً عن أعظم الناس قضية وأشدهم مخافة لله. وكلما عثرنا عليه نهتف «أنت المختار، فلم تختبئ؟ انهض وانقذ أرض اسرائيل»، لكنه ما إذ يرى الأدوات التي نحملها يتجمد الدم في عروقه، فيرفس، ويضرب قدمه في الأرض ويزعق «انه ليس أنا، ليس أنا»، وينغمس في حياة ملؤها الخمر، والمقامرة، والتساء انقاداً لنفسه، فيصبح سكيراً، مجدباً وهاسقاً- فقط ليبين لنا أنه خاطئ وليس المختار الذي نبحث عنه ... أنا آسف يا رئيس. لكننا سيقابلنا الشيء نفسه هنا. إن بحثنا عنه غير مجد ولن نجد: إنه لم يولد بعد».

قبض عليه ذو اللحية الحمراء من مؤخر عنقه ورفع حتى تدلى فوق الأرض فترة طويلة، وقال ضاحكاً «يا توما الشكاك، يا توما الشكاك. أنت تعجبني»، ثم استدار نحو الآخرين «إنه مهماز الثور، ونحن الحيوانات الكادحة. فليكن حافزاً لنا، ليكن حافزاً لنا لكي لا نعرف السكينة».

صرخ توما الأصمغ من الألم، فأنزله ذو اللحية الحمراء الى الأرض. وعاد يضحك، وراح يمر ببصره على المجموعة المتنافرة،

وسالكم عددكم ٩ اشأ عذر - واحد من كل قبيلة في اسرائيل.
شياملين، ملائكة، عفاريت، أقزام: من كل مخلوقات الرب السوءة
والجهنمية، اختاروا من تشيرون».

كان مزاجه راقعاً، ولعمت عيناه المستديرتان كعيني صقر، ثم
مدّ يده الضخمة وبدأ يمش على رفاقه، بغضب رهيق، من
اكتافهم، يرفعهم واحداً إثر آخر في الهواء ويأخذ يتفحصهم من
قمة رؤوسهم الى أخمصهم صامكاً. وكلما انتهى من أحدهم بأشر
مع واحد آخر.

مفرحى يا ابن ابراهيم، تها الخسيس، الحاقق، المجنون أبدأ
بالريح... وأنت، أيها المنهج، مهذار، الجشع... وأنت يا شارب
الحليب الورع: أنت لا تقتل أو تسرق أو تزني - لأنك جبان - كل
فضائلك هي نبات جيفك... وأنت، أيها الحمار المغفل الذي ينكسر
ظهورك من كثرة الضرب: أنت تحت السير، وتحت السيف بالرغم
من الجوع، والعطش، والبرد، والسر، كاذب، غير آبه باحترام ذاته،
وتكتفي بلعق أسفل القدر، وكل مسلك هي نيدة فقرك... وأنت،
أيها الشعب الماكر: أنت تقف خارج باب عرين الأسد، عرين يهوه،
ولا تفكر بالدخول... وأنت، أيها معروف الأحق: إنك تشغو وتتبع
رباً ينوي أن يأكلك... وأنت، يا بر ثوي: دجال، تساجر بالرب،
تبيعه بالتقسيت، صاحب نزل يهوه الرب للرجال وكأنه مشروب
حتى يسكروا ويفتحوا لك أكيار قلوبهم وقديهم - أنت يا أوعد
الأوغاد... وأنت أيها الزاهد الغيب، تعصب، تخبيث: تنظر الى
وجهك وتشتاق إلهاً خبيثاً، متعصب، يعتيداً، ثم تسجد وتعبده لأنه
يشبهك... وأنت يا من اهتذت ردة الخالدة محللاً للصيرفة:
تجلس على العتبة، وتدخل يدك في أجراب وتفتح الصدقات
المقراة، وتقرض الرب، تحتفظ بقر حسابات وتنبؤ: أعطيت

الكثير من الفلورينات حسنة الى فلان وفلان في يوم كذا وكذا، في
الساعة كذا وكذا وتوصي أن يوضع دفتر حساباتك معك في الكفن
لكي تقسحه أمام الرب، وتقدم له فساتورك وتجمع ملائيك
الخالدة... وأنت، أيها الكذاب، المدعي: إنك تطأ بقدميك كل وصايا
الرب، فتقتل، وتسرقة، وترتكب الزنا، وبعد ذلك تنفجر باكياً،
تضرب على صدرك، وتتاول فيثارتك وتحول خطيئتك الى أغنية.
أيها الشيطان الداهية، أنت تعلم علم اليقين أن الرب يسمع المقين
مهما يفعلون، لأنه ببساطة يمكن أن يموت اثنيافاً لسماع أغنية...
وأنت، يا توما، يا مهماز الثور الحاد الذي يخز أرواحنا... وأنا: أنا:
أحمق مجنون لا يشعر بالمسؤولية، مغرور تركت زوجتي وأولادي
لأبحث عن المسيح! إننا جميعاً - شياطين وملائكة وعفاريت وأقزام -
لازمون لانجاز قضيتنا العظيمة! ... عليكم به، يا رجال!»
ضحك، ويصق في كفيه وحرك قدمه الكبيرة.

عاد يصرخ عليكم به، يا رجال! وانطلق على الطريق المنحدرة
المؤدية الى الناصرة.

* * *

تحولت الجبال والرجال الى دخان وتلاشوا. واعتلأت عينا
النائم بظلمة خالية من الأحلام. وهامو الآن، أخيراً، لم يعد يسمع
أشياء تومه المتواصل غير وقع الأقدام الضخمة الثقيلة وهي تتحدر
أسفل الجبل.

خفق قلبه بقوة، وسع صرخة ثقابة تتصاعد من أعماقه: انهم
قادمون! انهم قادمون! انتفض مجتلاً (هذا ما بدا له أثناء نومه)،
وأوصد الباب بتضد عمله وكندس فوقه كل ماله من أدوات -

مناشير، وراضة وخشبة السحج، وقُدُم، ومطارق، ومفكات براغي-
وايضاً صليباً ضخماً كان يصنعه في ذلك الوقت. ثم عاد من جديد
يقطع بالناجارة ويقطع من الخشب وينتظر.

خيم هدوء غريب، مثير للقلق، كثيف، خائف. لم يسمع أي
شيء، ولا حتى صوت أنفاس القرويين، ناهيك عن أنفاس الرب. كان
كل شيء، حتى الشيطان اليقظ، قد غرق في بئر مظلمة، لا قراره
أها! أكان ذلك نوماً؟ أم الموت، أم الخلود، أم الرب؟ استولى الدرع
على الشاب، رأى الخطر يأم عينه، وبذل أقصى جهده ليصل إلى
غله الفارق لينقذ نفسه. ثم استيقظ.

كان منقوعاً بعمقه. لم يتذكر شيئاً من الحلم. فيما عدا مايلي
أى شيء من كان يتعبه. من هو؟... أكان واحداً؟ أم عدة رجالاً؟ أم
شيطانين؟ لم يتذكر. نصب أذنيه وأصاح سمعه. أصبح تنفس
القرويين مسموعاً الآن وسط سكون الليل: تنفس وحوش كثيرة،
والكثير من الأرواح. نبح كلب بيرة حزين، وبين الحين والحين تحف
أوراق إحدى الأشجار في وجه الريح. وفي أطراف القرية هدهدت
أم وأبها لينام. بيمته، وبصوت مؤثر... كان الليل مملوفاً بالمفعفات
والتهديدات التي يعرفها ويحبها. إن الأرض تتكلم، والرب يتكلم،
وهذهات غلواء الشاب. وقبل قليل كان يتملكه خوف من كونه وحيداً
في العالم.

سمع أنفاس والده المعجوز قادمة من الغرفة التي ينام فيها
والداه والمجاورة لغرفته. ولم يتمكن الرجل التعميس من النوم. كان
جاوي فمه ويبدل جهداً في فتح شفتيه وأغلاقيهما في محاولة
للإكلام. منذ سنين عديدة وهو يعذب نفسه هكذا، يكافح لإصدار
صوت إنساني، لكنه جلس على طرف سريريه كالمشلول، عاجزاً عن
التكلم، في لسانه. كذب، وعرق، وأصدر من فمه تمتمات غير

واضحة، وبين الحين والآخر وبعد صراع رهيب كان ينجح في تكوين
كلمة لفظة كل مقطع على حدة، ويجهد يائس- هي كلمة واحدة،
واحدة لاغير. وهي نفسها دائماً: أ-دون-سي، أدوناي ولاشيء آخر،
فقط أدوناي... وبعد أن ينتهي من لفظة كامل هذه الكلمة يبقى
ساكناً ساعة أو ساعتين من الوقت وإلى أن يستحوذ عليه دافع
الكفاح ويبدأ مرة أخرى يفتح فمه وأغلاقيه.

غمغم الشاب، وعيناه تفتتان بالدموع «إنها غلطتي...
غلطتي».

ووسط صمت الليل سمع الابن تألم والده وبدأ هو بدوره لا
ارادياً، وقد تقلب عليه، الأسى، يتعرق ويباعد ما بين شفتيه
ويغلقهما، أغمض عينيه، وأخذ نصت إلى مايفعله والده لكي يفعل
مثله: يتهد مع الرجل المعجوز ويجتهد يئاس ليخرج صرخات
يائسة، غير مفهومه وبينما هو يفعل ذلك استغرق في النوم مرة
أخرى.

ولكن حلماً غلبه النوم من جديد اهتز المنزل بعنف، ووقع تضد
العمل، وتدحرجت الأدوات والصليب على الأرض، وانفتح الباب وإذا
بذي اللحية الحمراء يقف شامخاً على العتبة، هائلاً، يضحك
بوحشية وذراعاه مفتوحتان واسعاً.
أطلق الشاب صرخة، ثم استفاق.

الفصل الثاني

اعتدل جالماً على نجارة الخشب واستند بظهره إلى الجدار.
كان يتدلى فوق رأسه حزام مرصع بمصقين من المسامير المدببة.
وكان في كل مساء قبل أن يأوى إلى الممرير يسوط جسمه بالحزام
حتى يدمى لكي يبقى هادئاً أثناء الليل ولا يتصرف بوقاحة، وهزته
ارتعاشة خفيفة. لم يتمكن من تذكر القوايات التي عادت تراوده في
مناامه، إلا أنه شعر أنه نجا من خطر عظيم. وغسغف، وهو يرفع
بصره إلى السماء ويتهدد، لم أعد أحتفل، لقد نالني مايكفي،
انزلق نور النهار من جديد، المتردد والباهت، متسلاً من شقوق
الباب وأضفى على اللون الأصفر الرقيق للسقف المصنوع من
الخيزران، عذوبة غريبة وضاءة، ونفيسة كالعاج. وعاد يغمغم «لم
أعد أحتفل، لقد نلت مايكفي، لقد نلت مايكفي» وصرف بأسنانه
ناقماً، ثبت عينيه في الفضاء، فجأة مر شريط حياته كلها أمامه :
عكاز والد الذي أزهى يوم خطبته ثم ومض البرق الذي ضرب
الخطيب فأقعده، وبعد ذلك كيف حملت أمه، حملت إليه، ولم
تفه بكلمة، لكنه سمع شكواها الخرساء - لقد كانت على حق! كانت

اثامه سكاكين تطعن في قلبه ليل نهار. جاهد عيشاً طوال السنين الثقيلة الأخيرة ليستقلب على شيطان الخوف، الشيطان الوحيد الباقي. أما الآخرون فقد قهرهم : الفقر، واشتهاء النساء، ومتع الشباب، والسعادة اليبستية. قهرهم جميعاً - كلهم ماعداً شيطان الخوف. ليته يتمكن من التغلب عليه أيضاً، ليته يقدر... لقد غدا رجلاً الآن، لقد حانت الساعة.

غمغم «لقد شئٌ والدي بسببي. ويسببي انحدرت المجدلية الى حمأة البغاء، ويسببي مازالت أرض اسرائيل تنث تحت ثقل العبودية...»

صفق ديك - لايد أنه من المنزل المجاور حيث يعيش عمه الحبير - بجناحيه وهو على السطح وصاح مراراً، ويقضب. كان واضحاً أنه قد ملّ الليل، الذي طال أكثر مما ينبغي، وأخذ أخيراً ينادي الشمس كي تبرغ.

مال الشاب مستنداً الى الجدار وأنصت. كان الضوء قد صفع البيوت، ففتحت الأبواب، وديت الحياة في الشوارع. وشيئاً فشيئاً تساعدت الهمهمة الصباحية من الأرض والأشجار، وانزلت متسرية من الشقوق التي في المنازل، كانت الناصرة تستيقظ، وفجأة سُمعت أنه عميقة من المنزل المجاور، تبعتها على الفور صرخة الحبير الوحشية. كان يوقظ الرب، يذكره بالوعد الذي قطعه لبني اسرائيل. هتف الحبير : يا رب اسرائيل، يا رب اسرائيل، الى متى؟ وسمع الشاب صوت ارتطام ركبتيه جلياً سريعاً، بخشب الأرضية.

هز رأسه، وتعمت «انه يصلي، يسجد ويخاطب الرب. والآن سوف يقرع على الجدار ويطلب مني أن أباشر سجودي»، وعبس غامضاً «يكفيني سوماً أنتي مضطر للتعامل مع الرب دون أن أكون

مضطراً للصبر على الناس»، ولمرق يعنف على الجدار الفاصل

بقيضته ليبين للحبر الهائج أنه مستيقظ، ويصلي.

ثم قفز واقفاً على قدميه، وكشف ثوبه المرقع مراراً وتكراراً، بانزلاقه عن كتفيه، عن جسمه - نحيل، لوحته الشمس، عليه آثار الضرب الحمراء والسوداء. فشمع بالخجل وأسرع بلم الثوب ولفه حول جسمه العاري.

تسلل نور الصباح الواهن من خلال الكوة وسقط عليه، مضيقاً برقة وجهه الذي كان كتلة من الغناد، والكبرياء، والتألم... وإذا بكثرة الزغب المحيطة بذقنه ووجنتيه تغدو احية جمعة سوداء بلون الفحم. وأصبح أنفه معقوفاً، وثخنت شفاته، وبما أنهما كانتا متباعدتين قليلاً سطع بياض أسنانه براقاً بفعل الضوء. لم يكن وجهه وجهاً جميلاً، ولكن كان ينطوي على فتنة خفية، مثيرة للقلق. أكان اللوم يقع على رموشه؟ فهي غزيرة الشعر وطويلة جداً، تفرش ظلاً أزرق غريباً على كامل وجهه. أم المسؤول عيناه؟ فقد كانتا كبيرتين وسوداوين، مغممتين بالضياء، غارقتين في الظلمة - كليهما رعب وعذوبة. تحدقان إليك من بين رموشهما الطويلة، وتبرقان كعيني أفعى، ويصيبك دوار.

نفخ عنه النجارة التي علقت بأبطيه وبلحيته. وكانت أذنائه قد التقطنا صوت وقع الأقدام الثقيلة : إنهم يقتربون، كما لاحظ. وصرّ اشمشازاً وهو يقول : «انه هو، هاقد عاد من جديد. ماذا يريد مني؟» واقترب متسللاً من الباب ليستصت، لكنه توقف فجأة، وقد تملكه الرعب. من وضع نضد العمل خلف الباب وكؤم الصليب والأدوات عليه؟ من؟ متى؟ الليل مملوء بالأرواح الشريرة، مملوء بالأحلام. اتنا فنام، فيجدون الأبواب مفتوحة ويدخلون ويخرجون على هواهم وينبشون منازلنا وعقولنا رأساً على عقب.

وغمغم من بين أسنانه «ثمة من جاء ليلة أمس أثناء نومي»
 وكأنه كان يخشى أن يكون الزائر ما يزال موجوداً فيسمعه «لقد جاء
 أحدهم. لاشك بأنه الرب، الرب... أم هل كان الشيطان؟ فمن
 المستطیع أن يميز بينهما؟ انهما يتبادلان وجهيهما، أحياناً يصبح
 الرب مسريلاً بالسواد، ويشع الضياء من الشيطان، ويتبلبل عقل
 الإنسان. وأصابته الرعدة، انهما يمثلان دريين. فأيهما يسلك، وأي
 درب يختار؟

تابعت الخطى الثقيلة اقتراحيها، تلتفت الشاب ينظر حوله في
 قلق، وكأنه يبحث عن مكان يختبئ فيه؛ عن مهرب. أنه يخشى هذا
 الرجل ولا يريد أن يأتي، ففي أعماقه ثمة جرح قديم لا يريد أن
 يندمل، وذات مرة وهما وطفلان كانا يلعبان معاً، فأطاح به الآخر،
 الذي كان يكبره بثلاث سنوات، أرضاً وجلده. فلملم نفسه ونهض
 واقفاً دون أن ينبس بكلمة، لكنه لم يعد قط بعدها إلى اللعب مع بقية
 الأولاد. لقد سيطر عليه الخجل، والخوف. فالتفت حول نفسه جالساً
 في فناء منزله ينسج في عقله الطريقة التي سيعمل بها ذات يوم على
 غسل عاره، ويبرهن على أنه كان أفضل منهم، ويزههم جميعاً. وبعد
 مرور سنين كثيرة مازال الجرح مفتوحاً ولم يكف قط عن النزف.
 غمغم «أما زال يلاحقني. أما زال؟ ماذا يريد مني؟ لن أدعه
 يدخل».

تلقى الباب رفسة فارتج، واندفع الشاب كالسهم إلى الأمام
 واستجمع كل قواه ثم أزاح النضد وفتح الباب. وعلى عتبة الباب
 رأى مارداً ذا لحية حمراء جعدة واقفاً، مفتوح القميص، حافي
 القدمين، أحمر الوجه، والعرق يتصبب منه راح يمسح أرجاء
 الورشة بنظره وهو يعضغ كوزاً من الذرة المشوية كان يحمله بيده،
 ورأى الصليب مُستنداً إلى الجدار، فعبس. ثم مد قدمه ودخل.

ودون أن ينطق بكلمة جلس ملتقاً حول نفسه في الركن وهو
 يقضم بعنف في الذرة. ظل الشاب، وكان ما يزال واقفاً، متقادياً
 النظر إلى وجه الآخر وأرسل بصره إلى الخارج عبر الباب المفتوح
 إلى الشارع الضيق، اليقظ في غير أوانه. لم يكن الغبار قد
 تصاعد بعد، والتربة ما تزال رطبة ويشوح عبيرها. وتدلى ندى
 الصباح ونور الفجر من أوراق شجرة الزيتون المقابلة له، وكان
 الشجرة كلها تضحك. أحس الشاب بنشوة عارمة وراح يستشق
 دنيا الصباح.

لكن ذا اللحية الحمراء التفت إليه وهزّ قائلاً: «أغلق الباب.
 لدي ما أقوله لك»
 ارتجف الشاب حين سمع الصوت الضاري شاغلق الباب، ثم
 جلس على حافة النضد، وأخذ ينتظر.
 قال ذو اللحية الحمراء «هاقد أتيت. كل شيء جاهز»
 رمى كوز الذرة وهو يرفع عينيه بزرقتهم العميقة وثبتهما على
 الشاب ثم مد عنقه النضخم، الكثير التضعض إلى الأمام: «وماذا
 عنك. هل أنت أيضاً جاهز؟»

كان الضوء قد ازداد، وبات بإمكان الشاب الآن أن يرى وجه
 ذي اللحية الحمراء، الخشن التضاميع، القلق بوضوح. لم يكن وجهاً
 واحداً، بل وجهين. حين يضحك نصفه يتوعد النصف الآخر، وحين
 يتألق نصفه يظل الآخر صارماً جامداً، بل حتى حين يتصالح
 التصفان برهة من الزمن، تشعر أن الرب والشيطان يتصارعان
 ويتخاصمان من تحت المظهر المتصالح.
 لم يعط الشاب جواباً، فرماه ذو اللحية الحمراء بنظرة حائقة،
 سألته من جديد «هل أنت جاهز؟» وكان قد استعد للنهوض
 لكي يمسك به من ذراعه ويهزه كي يستيقظ ويعطيه جواباً، ولكن

قبل أن يتمكن من فعل ذلك دوى صوت نقيير واندفع خيالة الى الشارع الضيق تبعهم خطو ثقل، منتظم للجنود الرومان. شد ذو اللحية الحمراء على قبضته ورفعها نحو السقف. جاز قائلًا يا رب اسرائيل، لقد حان الوقت اليوم وليس غداً اليوم.

التفت ثانية الى الشاب.

سأله مرة أخرى «هل أنت مستعد؟». ولكنه تابع دون أن ينتظر منه جواباً «لا، لا، لن تحضر الصليب معك - هذا أمر الناس مجتمعون. لقد هبط باراباس من الجبال مع رجاله، سوف تقتحم السجن وتخرج عضو الزيلوت، ثم ستحدث - لا تهز رأسك - عندئذ ستحدث المعجزة. أسأل عمك الحبيب، بالأمس جمعنا كلنا في الكنيس - لماذا لم تحضر فخامتك أيضاً؟ ووقف بيننا وخطب فينا. قال «ان المسيح لن يأتي مادمنا نقف مكتوفي الأيدي. على الرب والناس أن يحاربوا معاً إذا أرادوا للمسيح أن يأتي «هذا ما قاله لنا، لمعلوماتك. الرب ليس كافياً، والانسان ليس كافياً. عليهما أن يقاتلا معاً - معاً أنسمعني».

قبض على الشاب من ذراعه وهزه «اتسمعني؟ أين عقلك؟ كان يجب أن تحضر معنا لتتصت الى عمك - ربما كنت عدت الى مساويك أيها المسكين! لقد قال ان عنصر الزيلوت نعم، ذاك الزيلوت نفسه الذي سيصلبه الرومان للعدو في هذا اليوم - قد يكون هو المختار الذي تنتظرون منذ اجيال عديدة جداً. فإذا لم تقدم له يد العون، إذا قعدنا عن الانطلاق لانتقاذه فسوف يموت دون أن يكشف لنا عن هويته. ولكن إذا هرعنا لانتقاذه فستحدث المعجزة. أي معجزة؟ انه سيخلع عنه أسعاله وسوف ترى تاج داوود الملكي بدلاً فوق رأسه! هذا ما أنبأنا به، لمعلوماتك. وحين سمعناه أخذنا

فيكي. ورفع الحبر العجوز يديه الى السماء وصرخ «يا رب اسرائيل، اليوم، وليس غداً، اليوم! قرعنا كلنا، كل واحد منا، أيدينا، ونظرنا الى السماء، وصرخنا، وتوعدنا، ويكينا «اليوم! ليس غداً، اليوم! اتسمعني، يا ابن التجار، أم أنتي أنكلم مع الجدار الأصم؟». كان الشاب، الذي كانت عيناه نصف المغمضتين مثبتتين على الحزام بما عليه من مسامير مدببة والمعلق على الجدار المقابل، ينصت بانتباه الى شيء ما. فقد كان يسمع من تحت صوت ذي اللحية الحمراء الخشن المتوعد حشرجات والده العجوز الأجشة المكتومة في الغرفة المجاورة وهو يحاول عيشاً أن يفتح شفثيه ويفلقهما ليتكلم. واجتمع الصوتان في قلب الشاب، وفجأة أحس أن كفاح البشر برمته مثير للسخرية.

وقبض عليه ذو اللحية الحمراء من كتفيه ودفعه.

«أين عقلك أيها المستبصر؟ ألم تسمع ما قاله لنا عمك شمعون؟»

تمتم الشاب «المسيح لن يأتي من هذا الدرب»، وكانت عيناه قد استقرتا على الصليب المصنوع حديثاً، الذي يفتسل بنور الصباح الوردى الباهت، وأردف «لا، المسيح لن يأتي من هذا الدرب، ولن يتخلي عن أسعاله أو يضع تاجاً ملكياً على رأسه. ولن يهرع الناس ولا الرب لتجسده، لأنه لا يمكن انتقاذه - سوف يموت، يموت، مرتدياً أسعاله وسوف يتخلي عنه الجميع - حتى أشد الناس اخلاصاً له. سوف يموت وحيداً فوق قمة جبل قاحل، يتوج رأسه تاج من الشوك».

التفت ذو اللحية الحمراء وحقق اليه مندهشاً، وقد تلالأ نصف وجهه بالضياء، وظل النصف الآخر معتماً تماماً. سأله «كيف عرفت ذلك؟ من أخبرك؟»

لكن الشاب لم يعط جواباً. وكان الضياء قد عم الدنيا الآن. فصر عن النضد وأخذ حقنة من المسامير وتناول مطرقة واقترب من الصليب. لكن ذا اللحية الحمراء سبقه إليه ووصله بفشخة عظيمة واحدة. وراح يلكمه بضربات سريعة ويصق عليه وكأنه إنسان. ثم استدار فوخزت لحيته وشاربه وشعر حاجبيه وجه الشاب.

صرخ «ألا تتجمل؟ إن كل التجارين في الناصرة، وقانا، وكفر ناحوم رفضوا أن يصنعوا صليباً لصلب الزيلوت، وأنت - ألا تتجمل، ألا تخاف؟ ماذا لو أتى المسيح ووجدك تصنع صليباً، ماذا لو أن هذا الزيلوت، الذي صلب اليوم، يكون هو المسيح... لماذا لا تتجلى بالشجاعة كالآخرين وتقول للقائد الروماني «أنا لا أصنع صليباناً لأبطال إسرائيل؟ فيم تحق؟»

وبحركة سريعة الصققه بالجدار، ثم راح يصب عليه جام ازدرائه «جبان، جبان - هذا رأيي فيك. إن حياتك كلها ليست إلا هباءاً».

مرق صوت زاعق القضاء. فحرر ذو اللحية الحمراء الشاب والتفت نحو الباب وأخذ ينصت. كان هناك صخب هائل في الخارج: رجال ونساء، وحشد غفير، يهتفون: منادى البلدة

منادي البلدة مرة أخرى اجتاحت الصوت الزاعق القضاء: «يا أبناء وبنات إبراهيم، واسحق ويعقوب، أمر ملكي: اسمعوا وعوا! أغلقوا ورش عملكم وحاناتكم، ولا تذهبوا إلى حقولكم. وعلى الأمهات أن يحملن أطفالهن، وعلى العجائز أن يحملوا عصيهم - وتعالوا أيها العرج، والصم، والمشلولين - تعالوا لتشهدوا الذين رفعوا أيديهم ضد سيدنا الامبراطور - أطال الرب عمره - وهم يعاقبون، لتروا هذا المتمرد الحقيق، الزيلوت، كيف سيموت».

فتح ذو اللحية الحمراء الباب فرأى الحشد الهائج وقد خيم عليه الصمت الآن وبدأ ينصت. ورأى منادي البلدة معانياً صخرت وكان رجلاً نحيلاً، مكشوف الرأس، ذا عنق طويل وساقين طويلتين نحيلتين - فبصق، ثم جأ قائلاً «ملعون أنت حتى الجحيم، أيها الخائن!» وصفق الباب بغضب، ثم استدار نحو الشاب. كان واضحاً أن غضبه قد تصاعد حتى عينيه.

هر قائلاً «يمكنك أن تقهر بأخيك سمعان الخائن!» قال الشاب بنبرة أسف عميق «إنها ليست غلطته، أنها غلطتي، غلطتي أنا».

وصمت برهة، ثم قال «لقد طردته أمي من المنزل بسببي» بسببي. وهما الآن...»
رق نصف وجه ذي اللحية الحمراء وشع بالضياء هنيهة وكأنه تعاطف مع الشاب. وسأله «وكيف ستكفر عن كل تلك الذنوب يا مسكين؟»

ظل الشاب على صمته فترة طويلة. تحركت شفتاه، لكنه كان معقود اللسان. وأخيراً نجح في قول «بحياتي، يا يهوذا، يا أخي، وليس لدي غيرها».

اجفل ذو اللحية الحمراء. كان الضوء قد دخل الآن إلى الورشة من خلال المنور ومن شقوق الباب. وبرقت عينا الشاب الكبيرتان الشديديتا السواد، وكان صوته مملوءاً بالمرارة والخوف.
قال ذو اللحية الحمراء «بحياتك؟»، ثم أمسك بذقن الآخر قائلاً «لا تشع بوجهك عني. أنت رجل الآن، انظر في عيني... اتقول بحياتك؟ ماذا تقصد؟»

«لاشيء».

أطرق رأسه ولزم الصمت، لكنه قال فجأة «لا تسألني، لا

يا الهي يا يهوذا يا اخي

فيمس يهوذا على وجه الفتى بين كفيه، ورهقه ونظر اليه مدة طويلة دون أن يتكلم. ثم حرره يهوذا ومشى الى الباب. لقد تنبه قلبه فجأة.

كان المنحج يتعاطف أكثر فأكثر، وتعالى حفيف الأقدام الحافية وربت الصنادل في الجو، الذي صلصل مع الأساور البرونزية وأطواق الكاحل التي تضعها النسوة، وقف ذو اللحية الحمراء متصبهاً على عتبة المنزل يراقب الحشود التي كانت تتدفق دون انقطاع من الأزقة، وكان الجميع يتوجهون الى الطرف المقابل من القرية، الى التل البغيض حيث سيقع الصلب. لم يكن الرجال متكلمون، كانوا يضيئون السباب من بين أسنانهم ويضربون عصيهم على نعالهم الطريق، وكان بعضهم يعمل سكيناً بيده، وتحت قميصه. وكانت النسوة تصرخ، وعديد منهن رقعن حجبهن وحللن شعورهن ورحن برتلن تونيمه جنائزية.

كان على رأس هذا المربب شمعون حبر الناصرة العجوز - مسكناً، مجني الظهر تحت وطأة السنين، وقد التوى وتشوه بفعل المرض الخبيث السل؛ أصبح تركيبة من العظام الجافة تحافظ روحه الضليلة على صيانتته من الانهيار. وكانت اليدان التحيلتان خدأً بمخاليتهما الكبيرة الشبيهة بمخالب الطير تقبضان على السوولجان الكهنوتي الذي توجه حيثان متضافرتان وتضريان به حجارة الطريق. وكان هذا الجثة الحية يفوح برائحة مدينة تحترق. تكاد ترى اللهب يتلظى في عينيهِ وتشعر أن لحمه وعظامه وشعره - وأل جسمه المتداعي - يتلظى ناراً، وحين كان يفتح فيه ويصرخ، يا رب اسرائيل! كان الدخان يتصاعد من قمة رأسه. ومن خلفه سار العساكر أرتلاً يظهرهم المحنية، وعظامهم الضخمة، بعضهم،

وحواجيتهم الكتنة ولحيهم المديبة الشعر، ومن خلفهم الرجال الأشداء بأجسامهم ومن ثم النساء، وفي المؤخرة تبعهم الأطفال، وكل منهم يحمل حجراً بيده، وبعضهم يعلق مقلاعاً على كتفه. تقدموا جميعاً معاً، يهدرون يهود دون ضجيج، كما البحر. بينما يهوذا يتكئ على قائمة الباب ويراقب الرجال والنساء، التمش قلبه، وفكر قائلاً، وقد اندفع الدم الى رأسه، هؤلاء هم هؤلاء هم الذين سيحققون المعجزة بمعونة الرب، اليوم، وليس غداً، اليوم!

انفصلت امرأة ضخمة الجسم، عالية الرقبة، تشبه الرجل، عن الحشد، كانت هائجة ومموسة، وقد انزلت ملابسها عن كتفها. انحنت وقبضت على حجر وطلوحت بقوة الى باب التجار. صرخت «ملعون يا صانع الصليب» وعلى الفور تعالت الصرخات والسباب من كل أرجاء الشارع. وتناول الأولاد المقالع من أكفاهم، فصفق ذو اللحية الحمراء الباب بقوة.

ترددت صيحات الاستكثار من كل صوب «يا صانع الصليب! يا صانع الصليب» وعدم الباب تحت وأبل الحجارة. رقع الشاب أمام الصليب وراح يضرب المسامير بضربات مباشرة بالمطرقة، بطرق قوي وكأنه يريد بذلك أن يغطي على صيحات الاستكثار واللغات الآتية من الشارع. كان صدره يغلي، والشر يتطاير عبر جسر أنفه، أخذ يطرق بهياج، والعرق ينصب من جبينه، رقع ذو اللحية الحمراء، وقبض على ذراعه وانتزع المطرقة بعنف من قبضته. ثم وجه للصليب ضربة واحدة طرحت أرضاً. «هل ستحضره؟»

«نعم»
«ألا تتحجل؟»
«لا»

«إن أدعك تفعل. سوف أهشمه إلى قطع صغيرة»
نظر فيما حوله ومد ذراعه بحثاً عن قدوم.

قال الشاب ببطء، متضرعاً «يهوذا، يهوذا، أخي، لا تقف في الطريق». وكان صوته قد أصبح فجأة أشد عمقاً، أصبح غامضاً، سهماً. واضطرب ذو اللحية الحمراء.

سأله يهود «أي طريق؟» وانتظر، وهو يحمل يلقى إلى الشاب. عندما كان الضوء يسقط مباشرة على وجه النجار وعلى جزعه العاري، الصغير العظام. التوت شفتاه، وانضمتا بقوة وكانتهما متاضلتان لكبح صرخة عظيمة. ورأى ذو اللحية الحمراء مبلغ عزائه، وشعوبه، وشعر قلبه الكاره للبشر بالشفقة عليه. لقد كان يذوي، في كل يوم تقوص وجنتاه أكثر. كم مضى من الوقت منذ أن رآه آخر مرة؟ أنها فقط بضعة أيام كان قد غادر ليقيم بجولاته على الشرى المجاورة لجنيسمارت. وبما أنه حداد فقد كان يطرق الحديد ويشكله، ويصنع نعال الخيل، والمعاول، وشفرات المحارث، والمناجل، إلا أنه سارع بالعودة إلى الناصرة ليرث تلقيه رسالة تقول أن الزيلوت سيصلب. تذكر كيف كان قد ترك صديقه القديم، الآن، انظر كيف وجدوا ما أشد انتفاخ عينيه، وما أشد غور صدغيه! ثم ساسب تعبير المرارة الذي يحيط بقمه؟

سأله «ماذا أتم بك؟ لماذا ذبت هكذا؟ ما الذي يضنيك؟»
ضحك الشاب بوهن وكاد يجيب بالقول أنه الرب ولكنه أحجم. هذا ما كان يضع في داخله. ولم يكن يريد له أن ينطلق من بين شفتيه.

أجاب «أنتي أتصارع»
«مع من؟»

«لا أدري. أنتي أتصارع»

ثبت ذو اللحية الحمراء عينيه في عيني الشاب، وراح يستجويهما، يناشدهما، ويهددهما، لكن العينين السوداوين كحفرتين، المملوءتين بالدمع، لم تدليا بجواب.

وفجأة تحركت عيناه. فبينما هو يميل نحو العينين السوداوين الصامتتين خيل إليه أنه يرى أشجاراً مزهرة، ومياهاً زرقاء صافية، وحشوداً من الرجال، وفي الداخل، عميقاً عميقاً في البؤى البراق، خلف الأشجار المزهرة والمياه والرجال، رأى صليبا أسود كبيراً، مرتسماً على كامل قزحية العين.

قفز منتصباً، وقد جحطت عيناه في رأسه. أراد أن يتكلم، أن يسأل، أيعقل أن تكون ... أنت؟ لكن شفتيه جمدتا. أراد أن يضم الشاب بقوة إلى صدره وأن يقبله، لكن ذراعيه، الممدودتين في الفراغ تصلبتا فجأة، اخشوشنتا.

ثم لما رآه الشاب على هذا الحال، بذراعيه المفتوحتين وأسمعاً، وعينيه الجاحظتين، وشعر رأسه المنتصب، أطلق صرخة. لقد قفز الكاينوس المربع من باب سحري في رأسه - الأقزام الرعاع بأكملهم، بما يحملون من أدوات للصلب وبصرخانهم: عليكم به يا شباب! مرة أخرى هاهو يتعرف على رئيسهم ذي اللحية الحمراء: إنه يهوذا، يهوذا الحداد. وكان ينطلق في المقدمة. ويضحك بضراوة.

تحركت شفتا ذي اللحية الحمراء، وتعمم «أيمكن أن تكون ...»

أنت...؟

«أنا ؟ من؟»

ثم يجب الآخر : راح يرمقه وهو يعض شاربيه، ومرة أخرى
 ابتداءً، تنقأ وجهه بسطوخ، وقاص النصف الآخر في الظلمة.
 وأخيراً، تتدافع في ذهنه الاشارات والمعجزات التي أحاطت بهذا
 الشاب منذ مولده، وحتى قبل ذلك: كيف حدث، حين اجتمع
 المرحلون للزواج، أن كانت عصا يوسف - من بين عدد كبير منها -
 الوحيدة التي أزهزت. ولهذا السبب منحه الحبر مريم، مريم
 الممارة، الكرسي لعبادة الرب. ثم كيف ضربت صاعقة العريس
 وأقعدته في يوم زفافه، وقبل أن يتاح له أن يلمس عروسه. وكيف
 شمت العريس فيما بعد، وكما أشيع، زنيقة بيضاء وحملت صبياً في
 رحمها. وكيف حلت في الليلة التي سبقت مولده بأن السماء قد
 انشقت، وهبطت الملائكة واصططقت رثلاً كالصافير التي تصطف
 على السطح المتواضع لمنزلها، تبني أعشاشها وتبدأ بالرقرة،
 فوق، بعضها حارساً على عتبة دارها، ودخل بعضها غرفتها،
 فاشعل النار وسخن ماءً لتحميم الطفل المنتظر، وطبخ بعضها مرقاً
 لتجسيه المرأة الحامل...

اقنوت ذو النحية الحمراء ببطء، وتردد، ومال على الشاب. كان
 صوته الآن قد نفاً مملوءاً بالتوق، والتضرع، والخوف. وسأله مرة
 أخرى: «أيمكن أن تكون... أنت...؟»، إلا أنه من جديد لم يجرؤ على
 اكمال السؤال.

ارتعش الشاب من الخوف، قال «أنا؟»، وهو يحاول أن يضحك
 منه فكما «ولكن لا تراني؟ انني لمست فصيح الكلام، ولا اتحلى
 بالشجاعة لدخول كنيسة. وكلما رأيت الناس أسرع إلى الانزواء..
 اني أحمس دون وازع وصايا الرب. وأنا أعمل في يوم السبت...»
 حمل الصليب، وجعله قائماً من جديد وقبض على مطرقته.

«والآن، انظر لها أنا أصنع صليباناً وأصلب.. ومرة أخرى
 جامد ليضحك.

انتاب الحق ذا اللحية الحمراء ولم يتكلم. فتع الباب، فظهر
 في آخر الشارع حشد مندفع جديد من القرويين الهائجين - نساء
 عجائز شعشات الشعر، ورجال عجائز رقيقو الصحة، من عرج
 وعمي، ومجذومين - وكلهم من حثالة الناصرة. هم أيضاً كانوا
 يصعدون، مقطوعي الأنفاس، هم أيضاً كانوا يزحفون نحو موقع
 الصلب العالي... اقتربت ساعة التنفيذ حان الوقت لأرجل وأنضم
 إلى الناس، هذا ما قاله ذو اللحية الحمراء لنفسه، حان الوقت
 لننطلق كلنا دفعة واحدة ونخطف عضو الزيلوت. وعندئذ سيتبين
 إن كان هو المخلص أم لا... ثم فكر، لا، هذا الرجل الذي سيصلب
 اليوم لن يكون المختار الذي طالما انتظره العبرانيون قرون عديدة.
 غداً غداً لغداً لكم من السنين جعلتنا نحت خطانا، يا رب
 ابراهيم، يحدونا هذا الغدا الغدا الحسن - قمى إذا؟ نحن
 بشر، لقد صعدنا كفاية!

كان قد أصبح ضارباً. ورعى نظرة ملؤها الغيظ إلى الشاب
 الذي انكب على الصليب يسفر، وتساءل وقد انتابته رعدة، أيمكن
 أن يكون المختار. أيمكن أن يكون المختار - صانع الصليان هذا؟ أن
 أساليب الرب، غامضة وملتوية... أيمكن أن يكون المختار؟
 من خلف النساء العجائز والمعوقين، ظهرت الآن دورية من
 الجنود الرومان بدروعهم، وملاحهم، وخوذهم البرونزية. ساقوا
 قطع البشر أمامهم، لامبالين وصامتين، تعبيراً عن ازدراءهم
 للعبرانيين.

شيعهم ذو اللحية الحمراء بتطرات متوحشة، ودمه يغلي، ثم التفت
 إلى الشاب. لم يعد يرغب برؤيته: كان يشعر بأنه هو علة كل هذا.

صرخ. وهو يشد على قبضته «أنا راحل! أما أنت - أنت فافعل
«أجعلو الله يا صانع الصليب! أنت جبان خائن تافه مثل أخيك
«ماذي البلدة! لكن الرب سيصلبك ناراً كما أصلى أباك،
وسيعرقك. هذا قلبي - احفظه لكي يذكرك بي»

الفصل الثالث

بقي الشاب وحيداً. انكأ على الصليب وأخذ يجففه العرق عن
جبينه. اختبعت أنفاسه في حنجرته، وبدأ يلهث. شعر برهة أن
الدنيا تدور من حوله، إلا أنها عادت فسكنت حركتها. وسمع أمه
تضرم النار لتطبخ عليها الوجبة باكراً لكي يشاح لها أن تلحق
بالآخرين وتشاهد عملية الصلب. كان جيرانها جميعاً قد ذهبوا،
وزوجها ما يزال يئن، يجاهد كي يحرك لسانه، ولكن لم يكن فيه غير
حنجرته حية، ولم يكن يصدر إلا أصواتاً مقرقة. وفي الخارج خلا
الشارع من الخلق مرة أخرى.
ولكن بينما كان الشاب متكئاً على الصليب، مغمض العينين، لا
يفكر في شيء ولا يسمع شيئاً خلاص وجيب قلبه، إذا به فجأة يرتج
من صدمة ألم. ومرة أخرى بمغلب صغر خفي تنغرز عميقاً في
فروة رأسه. غمغم «لقد جاء ثانية، جاء ثانية...» وبدأ يرتجف. أحس
بالمخالب تنغرز أعمق، وتقلق جمجمته، وتلمس مخه. شد على
أسنانه حتى لا يصرخ. لم يكن يريد أن يخيف أمه من جديد
ويدفعها للصراخ. أمسك رأسه براحتي يديه بقوة وثبته بإحكام

وكانه يخشى أن يهرب منه. وضعف وهو يرمش «لقد جاء من جديد، جاء من جديد...»

في المرة الأولى، الأولى على الإطلاق - كان في الثانية شوشوكان جالساً مع الكبار اللاهثين المتعرقين في الكنيس ينصت إليهم، يوضحون كلمة الرب - استشعر وخزاً خفيفاً طويلاً في قمة رأسه. رقيقاً جداً، كما المداعبة. وأغمض عينيه. أي نعيم غمره حين أمسكت به تلك الأجنحة الخفيفة وحملته إلى السماء السابعة! وفال في نفسه، لا بد أنها الجنة! وتدفتت من تحت جفونه المسدلة ابتسامة عميقة سرمدية، وارتسعت على فمه السعيد، ونصف المشوح، ابتسامة ومشتت جسد برغبة عارمة حتى أن معالم وجهه كلها اختفت. ورأى العجايز هذه الابتسامة الغامضة مفترسة الرجال وحسدوا أن الرب قد انتزع الفتي ورفع عاليًا بمخالبه. فوضعا أصابعهم على شفاههم ولزموا الصمت.

ومرت السنون. وهو ينتظر وينتظر، لكن المداعبة لم تعاوده، ومن ثم، ذات يوم - يوم عيد فصح اليهود، والدنيا ربيع، والطقس رائع - توجه إلى قانا، القرية التي تنتمي إليها أمه، ليختار لنفسه زوجة. وكانت أمه قد دفعته إلى ذلك، أرادت أن تراه متزوجاً. كان قد بلغ العشرين من العمر، واكتسب وجنته طبقة سمينة من الرغب الجعد وأصبح دمه يغلي بعنف بحيث منعه من النوم ليلاً. واستغلت أمه بلوغه ذروة شبابه هذه، وأقنعت، بعد الحاج، بالذهاب إلى قانا، فريتها، لينتقي عروساً.

وهكذا وقف، ووردة حمراء في يده، يحرق في فتيات القرية. دهن يرقصن تحت شجرة حور كبيرة نبتت أوزاقها حديثاً. وبينما هو ينظرهن ويقارنهن - رغب فيهن جميعاً، ولكن لم تكن لديه الشجاعة لينتقي - سمع فجأة ضحكة مفرقة خلفه: كأنها نافورة

باردة برغت من أحشاء الأرض. استدار، وإذا بالمجدلية تهبط عليه بمندلها الأحمر، وشعرها المرسل ويكامل أسلحتها من أريطة الكلل، وأساور، وأقراط، ابنة عمه الحبر الوحيدة. أصيب عقل الشاب بصدمة عنيفة. وهتف «إنها هي من أريد أريدها هي!»، ومد يده يبغى إعطاها الوردة. لكنه حين فعل ذلك أنغرزت عشرة مخالب كالمسامير في رأسه وخفق جناحان بحركة هائجة فوقه، وهيمتا بإحكام على صدغيه. أطلق صرخة وانطرح على وجهه، والزبد يخرج من فمه. وكان على أمه التعمسة، يسربلها العار، أن تغطي رأسه بمندلها، وأن تحمله بين ذراعيها وتبتعد. ومنذ ذلك الحين وهو تائه تماماً، وكانت الحالة تاتيه حين يكون القمر بديراً أثناء تجواله بين الحقول، أو أثناء نومه وسط صمت الليل، والأغلب أن تاتيه في الربيع، والعالم كله في أبهى حله ويفوح بالعطر. كان عليه في كل مناسبة أن يكون سعيداً، أن يتذوق أبسط المتع الانسانية - أن يأكل، وينام، وأن يختلط مع أصدقائه، ويضحك، أن يقابل فتاة في الطريق ويقول في نفسه، إنها تعجبنى - وعلى الفور تنغرز المخالب العشرة عميقاً وتتلاشى رغبته. ولكن لم يحدث من قبل أن انبلج عليه الصبح بمثل تلك الضراوة، فتكؤم تحت نضد العمل ودفن رأسه في صدره. وظل على تلك الحال فترة طويلة. وغاص العالم بالنسبة له، لم يعد يسمع غير همهمة داخله، ووقوه خفق الأجنحة العنيفة. غير همهمة داخله، انفكت وحررت - ببطة، ومغلياً وشيثناً فشيئاً تراخت المخالب، انفكت وجلده. وفجأة شعر بارتياح فمغلب - عقله أولاً، ثم عظام رأسه وجلده. وفجأة شعر بارتياح عظيم، ويتعب شديد. خرج من تحت النضد ووضع يده على رأسه وبحركة سريعة مرر أصابعه خلال شعره ليطمئن على فروة رأسه. فقد خيل إليه أنها قد خرقت، لكن أصابعه المتقصية لم تعثر على

خرج واحد، وهذا اضطرابه. ولكن حين أخرج يده ونظر إليها في الضوء أصابته رعشة؛ لقد كانت أصابعه تقطر دماً.

عزمي «الرب غاضب، غاضب... لقد بدأ الدم يتدفق».

وربنا في الجو- وقال لنفسه وقد تملكه الرب، هادئ عاد، انه
يوجد في من كل جانب وهو تحت قدمي وفوق رأسي....

أحسني رأسه وانتظر. كان الصمت والسكون يخيمان، والضوء -
الذي بدأ يوضوح ساذجاً ومسالماً - كان يلهم على الجدار المقابل له،
وعلى السقف المكسو بعيدان الخيزران، وقرر بيته وبين نفسه أن لا
يبتلع فيه، إن أفوه بكلمة. قريباً تأخذ الرأفة بي ويرحل.

حين توصلت الى هذا القرار بعد ما بين شفثيه وتكلم، وكان صوته ملؤه الأسى، «لماذا تثير حفيظتي؟ لماذا أنت غاضبة الى متى تستظل تلاحقني؟»

توقف. مال، فمه مفتوح، وشعر رأسه منتصب والخوف يملأ عينيه، وأخذ يفتت...

عينيّه، وأخذت تبست...
 في أول الأمر لم يسمع شيئاً، كان السكون والصمت يسودان
 الجو. ومن ثم، فجأة، خاطبه صوت من فوقه. أصاح سمعه وسمع-
 سمع، وهز رأسه بحركة عنيفة، متواصلة، وكأنه يقول، لا لا لا لا لا
 لا

سميح، وهز رأسه بحركة عنيفه، متواثماً، وصرخ:
وأخيراً فتح بدوره فمه ونطق. لم يعد صوته يرتفع «لا
أستطيع! أنا أمي، لا تفزع مني، وأخاف من كل شيء». أنا أحب الطعام
الجيد، والخمر، والضحك، وأريد أن أتزوج. وأن أنجب أطفالاً...
فدعني وشأني!»

وعاد الى هديوته وأنصت.

«ماذا تقول؟ لا أسمعك؟»

فجأة اضطر الى أن يضع يديه على أذنيه ليخفف من وطأة

الصوت الوحشي عليهما وضغط بكل تقاطيع وجهه، وهو يحس
أنفاسه، وأصبح يسمع الآن، وأجاب: «نعم، نعم، أنا خائف...
أطلب مني أن أنهض وأتكلّم؟ وماذا أقول، وكيف أفعل ذلك؟ أقول
لك اني لا أستطيع (أنا أمي) ... ماذا قلت؟ ... مملكة السماء؟ ... لا
تهمني مملكة السماء. أنا أحب الأرض. وأعلم اني أريد أن أتزوج
أريد المجدلية، حتى وإن كانت مومساً. لقد أصبحت كذلك بسببي
بسببي، وسوف أنقذها، هي وليس الأرض. ليس مملكة هذا
العالم - أريد أن أنقذ المجدلية، هذا يكفيني! ... أخفض صوتك،
انني لا أفهمك»

للعالم - أريد أن أقتد المجتهد
 انني لا أفهمك
 ظلل عيني بكنه : كان الضوء الخفيف الذي تسرب من خلال
 ضياء السماء يبهـر بصره. ثبت عينيـه على السقف فوقه، وراح
 ينتظر. أنصت، وهو يحبس أنفاسه، فكان كلما سمع أكثر اقتد
 وجهه أكثر بخبث ورضا. استشعرت شفتاه الغليظتان التضمرتان
 ٢٥ نعم، عن عمد، فعلته
 أنجح بالصنعة.

وجهه أكثر بغيث ورضا. أنت خدراً، وفجأة انجر بالضحك. غمغم نعم، نعم، أنت تفهمني بدقة. نعم، عن عمد، فعلته عمدًا. أريدك أن تبغضني، أن تنهب وتفتش عن شخص آخر! أريد

«نعم، نعم، عن عمد، وسأظل أصنع الصليبان طوال حياتي، لكي
أرسلهم من مكانه على
أرضهم»

نعم، نعم، عن عمد، ونسب
 صلب عليها كل مسيح تختاره
 قال هذا ثم فك الحزام المرصع بالمسامير من مكانه على
 الجدار وربطه حوله. نظر إلى ضياء السماء. أخيراً أشرقت
 الشمس وعلت. وكانت السماء من فوقه قاسية وزرقاء، كأنها فولاذ.
 عليه أن يسرع، فعملية الصلب ستقع عند الظهيرة. تحت لظى
 الشمس في أوجها.

ركع وأسند الصليب الى كتفه وقبض عليه بذراعيه. ثم رفع
الحدى ركبيته، واستجمع قواه- شعر أن ثقله هائل بالنسبة له،
وباستحيل رفعه- وتقدم يترنح نحو الباب. مشى خطوتين وهو
بهائم، ثم خطوة ثالثة وأخيراً وصل الى الباب، لكن ركبيته خذلته،
وأصيب بدوار، وسقط منهراً على العتبة، تحت وطأة ثقل الصليب.
اهتز المنزل الصغير، وسمعت صرخة نسائية ثاقبة من الداخل،
فتحت باب وظهرت أمه كانت طويلة القامة؛ عيناها كبيرتين
وسوداوين، وبشرتها قمحية اللون؛ وقد تجاوزت لتوها المرحلة
الأولى من الشباب ودخلت الى مرحلة الخريف بمرارتها الحلوة
المحفوظة بالقلق. وكانت هالتان رزقاوان تحيطان بعينيها؛ وفيها
بدل على الحزم كغم ابتها، غير أن ذقتها كانت أشد دلالة على القوة
من ذقت ابنتها وأشد صلابة، كانت تضع وشاحاً من الكتان
البنفسجي؛ ويتدلى من أذنيها قرطان فضيان طويلان، هما حلقتها
الوحيدة.

حليماً فتحت الباب ظهر الأب المعجوز من خلفها، كان جالساً
على خشية، الجزء العلوي من جسمه عارياً، وجلده الرخو أصفر
شاحباً، وعيانه كامدتين وجامدتين. وكانت قد انتهت لتوها من
الانعام، وما يزال يعضض بهمة وجبته من الخبز والزيتون والبصل.
وكان شعر صدره الأبيض الجعد مملوءاً باللغاب وفتات الخبز. والى
حوار سريره أسند عصاه الشهيرة التي قدر لها أن تزهر في يوم
خمينته. أما الآن فهي جافة وذابلة.

حين دخلت الأم ورأت ابنتها واقفاً يتخبط تحت وطأة الصليب
عزرت أظافرها في وجنتيها وهي تحرق اليه دون أن تهز الى رفعه
ليقبل. لقد تعبت من كثرة مابانت ترى شخصاً يدخل عليها وهو
يحمل بين ذراعيه مفسياً عليه، ومن رؤيتها ايام يرحل ليجوب

الحقول أو أماكن مقفرة، ومن بقائه ليلاً ونهاراً دون طعام، ومن
رفضه العمل، ومن اكتفائه بالجلوس ساعات طويلة وعيانه مثبتهان
في الهواء، يحلم في اليقظة ويقضي الليل سائراً وحياته خالية من
أي إنجاز. ولم ينكب على العمل بكل ما أوتي من نشاط إلا عندما
طلب منه صنع صليب لغرض الصلب وراح يكذب بجنون نهاراً وليلاً.
ولم يعد يؤم الكنيس، ولم يعد يريد أن يطأ أرض قرية قانا، أو أن
يحضر أياً من الاحتفالات. وحين يكتمل القمر بداراً بضرب عقله،
وتسمعه الأم البائسة يهذي ويصرخ في هياج وكأنه يصارع أحد
الشياطين.

كم من مرة سجدت أمام شقيق زوجها الحبر المعجوز الذي كان
ضليعاً في طرد الشياطين. فقد كان المبتلون يأتون اليه من أطراف
الدنيا ليشفيهم. وقيل أيام قليلة خرت على قدميه وأبدت شكواها:
«إنك تشفي الغرباء وترفض أن تشفي ابني».

هز الحبر رأسه. قال «يا مريم، إن ابنك لا يعذبه شيطان، ليس
الشيطان، بل الرب- فماذا يعني أن أفعل له؟»

سألت الأم البائسة «أما من دواء؟»

«قلت لك أن السبب هو الرب، لا، لا دواء»

«ولم يعذبه؟»

تهدد طارد الأرواح الشريرة المعجوز ولم يدل بجواب.

عادت الأم تصال «لم يعذبه؟»

أخيراً أجاب الحبر المعجوز «لأنه يحبه»

نظرت اليه مريم مرتاعة. فتحت فمها تبغي أن تسترسل في
سؤاله، لكن الحبر أسكتها.

قال لها «لا تسألي. ذاك هو قانون الرب»، وهو يقطب سابغ
حاجبيه، ثم أومأ لها أن ارحلي.

استمر مرضه سنوات طويلة. وأخيراً غلبها التعب والضجر، على الرغم من كونها أمًا. وهماي الآن تراه منظرًا على عتبة الباب. والدم ينز من جبينه، ولا تحرك ساكنًا. اكتفت بإطلاق تهيدة من أعماق قلبها - إلا أنها لم تتهد تعاطفًا مع ابنها بل من سوء حظها. لقد كانت سيئة الحظ في حياتها، وفي زوجها، وفي ابنها. فقد تزلزلت قبل أن تتزوج، وأصبحت أمًا دون أن تحمل بوليد. وهماي تتقدم في السن - شعرها الأبيض يتضاعف عدده في كل يوم. ومع ذلك لم تعرف دهرها معنى أن تكون شابة، لم تشعر بدفء زوجها، ولا تشوقت لحلاوة كونها زوجة وأمًا أو شعرت باعتزاز بذلك. وأخيراً نصب الدمع من عينيها. لقد سقطت كل الدموع التي قسمها الرب لها، وأصبحت تنظر إلى ابنها وزوجها بعينين جافتين. وإن كانت أحيانًا تبكي فذلك يحدث في الربيع حين تجلس وحدها تحديق إلى الحقول الخضراء وتتشق العبير الآتي اليها من الأشجار المزهرة. في تلك الأوقات لم تكن تبكي حسرة على زوجها أو ابنها وإنما حسرة على حياتها الضائعة.

كان الشاب قد نهض واقفًا وأخذ يجفف الدم بطرف ثوبه. التفت فرأى أمه تتأمله بنظرة قاسية، فتملكه الغضب. لقد كان يعرف تلك النظرة التي لم تكن تفسر له أي شيء، ويعرف تلك الشفتين المضغوطتين المغممتين بالمرارة. ولم يعد بإمكانه أن يتحمل ذلك. هو أيضًا أصابه التعب والتعب في هذا البيت، بوجود ذلك المشلول المتداعي. والأم التي لاشيء يعزيها والأوامر اليومية المذلة: كل! اعمل! تزوج! كل! اعمل! تزوج!

باعدت الأم مابين شفيتها المضغوطتين وقالت بلهجة ثانيب «مع من عدت تشاجر في هذا الصباح اليأكر يا يسوع؟»
عص الابن على شفيتها حتى لا تقلت من بينهما كلمة فظة. ثم

فتح الباب، فدخلت أشعة الشمس ومعها دخلت ريح لاسعة محملة بالتراب، قادمة من الصحراء. ودون أن ينطق بكلمة راح يمسح العرق والدم عن جبينه، ومرة أخرى دعم الصليب بكفيه ورقفه. كان شعر أمه منسدلاً على عظمتي كتفها، مررت يديها عليه ثم جمعته معاً تحت منديلها، وتقدمت خطوة نحو ابنها. ولكن حالما رآته بوضوح في النور انتابتها رعشة دهشة، كم يتغير وجهه باستمرار! وكيف يتدفق - كالماء! كل يوم تراه وكأنما للمرة الأولى. تجد نوراً غامضاً ينبعث من جبينه، ومن عينيها وقفه، ترى ابتسامه تارة تكون سعيدة، وأخرى تكون مضغمة بالألم، وبريقاً نهماً يلحق جبينه، وذقنه، وعنقه. ثم يلتهمه.

اليوم، كان هناك لهب أسود عظيم يتلظى في عينيها. تملكها الخوف، وخطر لها لحظة أن تسأله، من أنت؟ لكنها أحجمت. ثم قالت بصوت مرتعش «يا بني!»، ولزمت الصمت، بانتظار أن ترى أن كان هذا الرجل الناضج هو بحق ابنها. هل سيالتفت إليها، هل سيخاطبها؟ لم يفعل. أطلق تهيدة، وعدل وضع الصليب على كتفه وخطا خارجاً من المنزل. هذه المرة يغطي ثابته.

انكأت الأم على قائمة الباب وراحت تراقبه يخطو بخفة من بلاطة على الطريق إلى أخرى وهو يرتقي المنحدر. الرب وحده يعلم من أين له مثل تلك القوة! لم يكن ما يحمله على كتفيه صليباً بل جناحين يدفعانه إلى الأمام!

همست الأم المضطربة «يا رب، يا إلهي، من يكون؟ ابن من هو؟ إنه لا يشبه أباه، لا يشبه أحداً، إنه في كل يوم يتغير. إنه ليس شخصاً واحداً، بل عدة... آخ، لقد تشوش عقلي».
وتذكرت ماحدث بعد ظهيرة أحد الأيام حين كانت في الفناء المجاور للبئر. وكانت تضمه إلى صدرها. كان الفصل صيفاً -

والعزيرة العنب التي تحميم فوقها مثقلة بالثمار. وبينما وليدها
يرجع غرفت في نوم عميق، ولكن سرعان ما تراءى لها - في غضون
لحظة من الزمن - حلم بلا حدود: تراءى لها ممالك في السماء
يحمل نجمة تتدلى من يده، نجمة تشبه مصباحاً، ثم تقدم وأثار
الأرض من تحته. وكان هناك درب وسط الظلام، كثير التعاريج،
يتوهج بالبريق، كوميض البريق. امتد باتجاهها، وصار يتلاشى عند
قدميها. وبينما هي تحقق مذهولة وتتساءل من أين بدأ هذا الدرب
ولماذا انتهى عند قدميها، رفعت بصرها - فماذا رأت: رأت النجم
وقد توقف فوق رأسها، وظهر من آخر الدرب الحضاء بتور النجم
ثلاثة خيالة، وثلاثة تيجان تتلألأ فوق رؤوسهم. توقفوا برهة من
الزمن، نظروا إلى السماء، فالكفو النجم قد سكن، ثم حثوا خيولهم
وخبثوا متقدمين منها. ولم تتمكن الأم من تمييز ملامحهم بوضوح.
كان أوسطهم أشبه بوردة بيضاء، شاب مليح أشقر بوجنتين مائز
طيفة من الرغب تغطيها. وإلى يمينه انتصب رجل أصفر بلعية
سوداء مديبة وعينين مائلتين، وإلى يساره وقف زنجي، كان شعره
أبيض جعداً، وفي أذنيه قرطان ذهبيان؛ ولعان أسنانه مبهراً. ولكن
قبل أن تتمكن الأم من تمييزهم بشكل أفضل أو أن تغطي عيني
ملامها حتى لا يبهرة النور المساطع، وصل الخيالة الثلاثة، وترجلوا
وركعوا أمامها.

كان الأمير الأبيض هو أول المتقدمين. وكان الطفل عندئذ قد
غادر حضن أمه وانتصب واقفاً على ركبتيها. خلع الأمير تاجه
ووضعه بخضوع عند قدمي الطفل، بعده جاء الزنجي وخثر على
ركبتيه وأخذ حفنة من الزمرد والياقوت من تحت قميصه ونثرها
بكل رقة على الرأس الصغير. أخيراً مد الأصغر يده ووضع ملء
ذراع من ريش الطاووس الطويل عند قدمي الطفل ليلعب بها...

نظر الطفل إلى كل من الرجال الثلاثة وهو يبتسم لهم، لكنه لم يمد
يديه الصغيرتين ليلمس الهدايا.
فجأة اختفى الملوك الثلاثة وظهر راع شاب، يرتدي جلد
خروف ويحمل بيديه سلطانية مملوءة بالحليب الدافئ. وحالما رأى
الطفل الحليب شرع يرقص وهو على ركبتي أمه، وأمال وجهه
الصغير إلى السلطانية وأخذ يشرب الحليب بنهم وحبور...
تذكرت الأم الحلم السرمدى وهي تتكى على قائمة الباب،
وتتهددت.

كم من أمل أعطاها هذا الابن الوحيد، كم من أعجوبة تبتأ له
بها السحرة! ألم يحق الحير العجوز نفسه إليه، وفتح الكتب
المنزلة، وقرأ ماجاء به الرسل فوق الرأس الصغير ونقب في صدر
الطفل، أجل، وحتى في أخمص قدميه، بحثاً عن علامة؟ ولكن، يا
للأسف، مع مرور الوقت ذوت آمالها وتساقطت. لقد اختار ابنها
طريق الشر، طريقاً حاداً به أكثر فاكسر عن مسالك البشر؛
أحكمت لفاً وشاحها وأرتجت الباب. ومن ثم أخذت بدورها ترتقي
الثل، متوجهة لتشاهد عملية الصلب - تزجية للوقت.

الفصل الرابع

عشت الأم ومشت، وأسرعت في سيرها لتتسلل بين الحشد وتختفي. وسمعت صراخ النسوة في المقدمة، ومن خلفهن كان الرجال الغاضبون اللاهثون، حفاة شعلي الشعور، متسخي الأجساد، خناجرهم مخبأة عميقاً داخل قمصانهم. وبعدهم كان العجائز، وأبعد منهم تبع العرج، والعمي، والمشوهون. تفتت الأرض تحت أقدام الناس، وتضاعدت سحب الغبار، وتعكر صفو الهواء. وهي الأعالي كانت الشمس قد بدأت تتلظى بغضب.

تلفتت امرأة عجوز فيما حولها فرأت مريم، وأطلقت سباً، وأشاح اثنان من الجيران بوجهيهما بعيداً عنها وبصفا لأبعاد نذير الشؤم، وارتعشت عروس حديثة العهد ولممت أطراف ثوبها خشية أن تلمسها أم صانع الصليبان أثناء مرورها. أطلقت مريم تهيدة وأحكمت لف وشاحها البنفسجي اللون حولها، فلم يعد يظهر عنها غير عينيها اللوزيتين المملوحتين باللوم، وقمها المغلق بشكل ينم عن احساس بالمرارة. وراحت تتقدم وحدها، وهي تتعثر بالصخور، تسرع إلى الاختباء، وإلى الاختفاء داخل الحشد، وكان الهمس يضح

في كل مكان حولها، لكنها حشّنت قلبها وحشّنت خطاها. كانت تقول في نفسها، أي حضيض انحط إليه ابني، يا بني، يا بني، يا مبيي... تابعت سيرها وهي تعض على طرف وشاحها لكي تمنع دموعها من الانفجار.

وصلت إلى تجمع الناس، مخلفة وراءها الرجال، منزلقة بين النسوة لتختبئ، وكانت قد غطت فيها بكف يدها - ولم يعد يظهر منها الآن غير عينيها. وقالت في نفسها، لن يتعرف أي من جيراني عليّ، وهذا بالها.

فجأة سمعت خلفها جلبة عظيمة. كان الرجال قد شكلوا قوة دفع كبيرة، وأخذوا يتدافعون خلال جموع النساء ليكوتوا في المقدمة. وكانت الثكئة التي حبس فيها الزيولوت قد أضحت مزدحمة، وكانوا يتحرقون لتهشيم الباب وتحرير الأسير. تلعت مريم جانباً، وتوارت في أحد المداخل المستترة، وراحت تنظر: رأت إحدى ملويلة مزينة، وشعراً طويلاً مزيناً، وأقواهاً مزينة، ورأت الحبر بعناني كتفي عملاق ذي ملامح وحشية، يلوح بذراعيه نحو السماء ويسرخ، بماذا يصرخ؟ نصبت مريم أذنيها وسمعت:

« يا أبائتي، ضعوا ثقتكم في شعب إسرائيل. تقدموا - جميعاً! لا تخافوا. ماروسا غير دخان. وسوف ينفخ الرب عليها وينزورها! نذكروا المكابيين. نذكروا كيف طردوا الأغريق، حكام العالم، وكيف سببوا لهم الخزي وبالطريقة نفسها سنطرد الرومان، وسنلبسهم ثوب الخزي، لا اله الا رب القرايين، ربنا!»

رقص الحبر العجوز، وقد تملكته النشوة العلوية، ورقص وهو على كتفي العملاق العريضين. كان قد تقدم في السن، واستهلكه السوم المتواصل. وكثرة السجود وما يحمله من آمال عظمى، ولم يعد فيه قوة لتعبته. وكان سكان الجبال ذوو الأجساد الضخمة قد

أمسكوا به وأخذوا يركضون معه في مقدمة الناس، وهم يلوحونه أماماً وخلفاً كأنه راية.

هتف الناس «هيه، سوف توقعه يا باراباس»، لكن باراباس تقدم دون أن يبدي أدنى قدر من القلق، وهو يتقاذف العجوز ويؤرجعه على كتفيه.

كان الناس يبتهلون للرب، وكانت السماء من فوقهم تشتعل ناراً، واللهب يتصاعد ويصل السماء بالأرض. وترنحت رؤوسهم: بهت عالم الحجارة والعشب واللحم هذا، أصبح شاقاً، وتبدى العالم الآخر من خلفه، مكوناً من لهب وملائكة.

اشتعل الحماس في يهودا، فمد ذراعيه بالندفاع وانتزع الحبر العجوز من على كتفي باراباس، ودفعه ليتقدمه وبدأ يجار «اليوم لا غداً، اليوم»، ودب الحماس في الحبر بدوره فأخذ يرتل مزموّر النصر بصوته العالي، صوت رجل يضع قدماً في القبر، وفي الحال ردد الناس:

كل الأمم أحاطوا بي، باسم الرب أبيدهم

أحاطوا بي واكتفتني، باسم الرب أبيدهم

أحاطوا بي مثل النحل، انطفأوا كنار الشوك، باسم الرب أبيدهم^(١)

ولكن بينما هم يرتلون، ويبعدون الأمم في أذهانهم، لاح فجأة حصن العدو أمامهم يشمخ في قلب الناصرة: مربع الشكل، حصيناً، بأربع زوايا، وأربعة أبراج، تعلوها أربعة نُسور ضخمة. وكان الشيطان يسكن كل أنش من هذه الثكنات. وفوق كل هذا كله، أعلى

١ - المزمور ١١٨، الأرقام ١٠، ١١، ١٢ من الانجيل.

من الأبراج تشمخ أعمدة رومانية تحمل نسرًا ذا لونين أصفر وأسود، وتحتها يقف روقوس، قائد المائة الناصري المتعطر لسفك الدماء، مع جيشه، وإلى أسفل أكثر ثمة الأحصنة، والكلاب، والجمال، والعبيد، وأمسفل أكثر يقف الزيولوت، المحشور عميقاً في بئر جافة، شعره شعث لم يقره مقص، وشفتاه لم يقرههما الخمر، وجسده لم يقرب النساء. هذا المتعبد لن يتمكن إلا من رفع رأسه، وكل الطبقات الملعونة التي فوقه - من رجال، وعبيد، وخيول، وأبراج - سوف تنهار عليه. هكذا دائماً يفعل الرب، فعميقاً في أسس الخطأ يدين صرخة العدل الصغيرة المحترقة.

هذا الزيولوت كان آخر سلالة طويلة من المكابيين. وكان رب اسرائيل ظلل على رأسه بيده وحفظ البذرة المقدسة من الفناء. وذات ليلة قام هيرودس ملك اليهودية العجوز - الخائن الملعون، الشرير - بتلطيخ أربعين من الفتيان بالقطران وأشعلهم كما المشاعل لأنهم حطموا النسر الذهبي الذي كان قد ثبته على أسكنة المعبد الطاهرة، ولم تكن من قبل قد تعرضت للتلدنيس. ولم يتم القبض الا على أربعين شخصاً من بين المتأمرين الواحد والأربعين، وفر قائدهم. فقد أمسك به رب اسرائيل من شعره وأنقذه، وكان ذلك هو الزيولوت، الحفيد الأكبر للمكابيين، وكان في ذلك الوقت فتى وسيقاً، بوجنتين ما يزال الزغب يغطيها.

أمضى سنين عديدة بعد ذلك يتجول بين الجبال، يحارب ليحرر الأرض المقدسة التي أهداها لرب اسرائيل. وكان كثيراً ما يصرخ «ليس لنا غير سيد واحد - هو أدوناي، لا تدفعوا ضريبة الرؤوس للحكام الأرضيين، لا تخضعوا لأوثانهم التي تحمل صورة النسر فتدنسوا معبد الرب، لا تقدموا الثيران والخرفان كأضاحي للإمبراطور الطاغية، ليس هناك غير رب واحد، هو ربنا، وليس

هناك غير شعب واحد، هو شعب اسرائيل، وليس هناك غير ثمرة واحدة على شجرة الأرض كلها - هي المسيح»

ولكن فجأة أبعد رب اسرائيل يده عنه وقبض عليه روقوس، قائد المائة الناصري، وانطلق الفلاحون، والعمال، وأصحاب الأملاك حشوداً من كل القرى المجاورة، وجاء الصيادون من بحيرة جنيسارت. والآن ومنذ أيام طويلة هناك رسالة غامضة، غير واضحة، مزدوجة المعنى تنتقل من منزل الى منزل، من قارب صيد الى آخر، بل كانت تصل حتى الى عابر المييل في الطريق: «انهم يصلون الزيولوت، هو أيضاً انتهى أمره - انتهى»، لكن الرسالة كانت في أوقات أخرى تقول: «أحييكم، يا أخوتي، وأبلغكم بمجيء المخلص فليحمل كل منكم سعة نجيل كبيرة وتقدموا، جميعاً - سيروا الى الناصرة لترحبوا بمقدمه»

وقف الحبر العجوز وعلى ركبتيه معتلياً كتفي ذي اللحية الحمراء، وأشار الى التكنة ومرة أخرى أخذ يصرخ: «لقد أتى! لقد أتى! إن الواقف في تلك البئر الجافة هو المسيح - منتصباً وينتظر. ينتظر من؟ ينتظرونا، نحن شعب اسرائيل الى الأمام، حطمو الباب، وحرروا المحرر، لكي يحررنا»

هتف باراباس بصوت وحشي «يا رب اسرائيل! ورفع الفأس التي يحملها بيده،

تعالى صراخ الناس، وبرزت السكاكين المخبأة تحت قمصانهم، وعباً الأولاد مقاليعهم وقام الجميع - بقودهم باراباس - بهجوم مفاجئ على الباب الحديدي. لكن نور الرب الساطع بهر كل العيون، فلم ير أحد منهم باباً صغيراً للتكنة قريباً من الأرض فتح فقط بمقدار شقة، مظهر المجدلية شاحبة كالموتى وتجف عينيها المترعتين بالدموع. كان الرجل المدان قد أثار الشفقة في روحها

فهلزلت ليلاً إلى الحفرة لتمنحه المتعة الكبرى، أعذب ما يمكن للعالم أن يتمتع به. لكنه كان أحد جنود الزيلوت العنيفين وقد أقسم على أنه، وإلى أن يتم تحرير أرض إسرائيل، لن يقص شعره، ولن تذوق شفتاه الخمر، ولن يضاجع امرأة. أمضت المجذلية الليل بطوله حالسة قبالتها، لكن عينيها كانتا تنظران إلى أورشليم، هناك بعيداً بعيداً في المدى خلف شعر المرأة الفاسح، ليس إلى أورشليم الخاضعة للثكنة تلك الأيام، وإنما إلى أورشليم المستقبل المقدسة، ببوابات حصنها المنتصر السبعة، بملائكتها الحارسة المسبح وشعوب الأرض السبعة والمبشرين ساجدين تحت قدميها. لمس الرجل المدان المصدر الباردي لأورشليم المستقبل، فتلاشى الموت وأصبح العالم المحيط به أكثر خلوة، أصبح مدوراً، وأصبح ملء قيضته. أغمض عيني، وضم ثدي أورشليم بكفه ولم يفكر إلا بشيء واحد - برب إسرائيل، الرب الذي لم يلمس شعره قط، مقص. ولم تلمس الخمر شفتيه، ولم يقرب جسده النساء. الزيلوت أجلس أورشليم على ركبتيه طوال الليل وبني مملكة السماء عميقاً في أحشائه، ليس من الملائكة والسحب، وإنما كما أرادها، دافئة في الشتاء، باردة في الصيف، قوامها الرجال والتراب.

رأى الحبير العجوز ابنته السيئة السمعة تخرج من الثكنة، فأشاح بوجهه عنها. لقد كانت المصدر الوحيد لذل حياته الأعظم. كيف خرجت هذه العاهرة من صلبه الطاهر، الذي يخشى الرب؟ أي شيطان تلبسها أو آية آلام عصية أصابتها حتى جعلتها تسير في درب المعاصي؟ في أحد الأيام، لدى عودتها من احتفال أقيم في قانا، جلست تبكي وأعلنت أنها تريد أن تقتل نفسها. وبعد ذلك انتجرت في نويات من الضحك، ثم لوئت وجنتيها ولبست كل مألدها من حلي وزاخر تتجول في الشوارع. بعد ذلك غادرت بيت

أبويها وفتحت محلاً في مجدلة - عند تقاطع الطرق، حيث نقطة عبور كل القوافل...

تقدمت وصدارة ثوبها مازال محلوله نحو الحشد، غير هيابة، كانت قد أزالته الحمرة عن شفتيها وجنتيها، وكانت عيناها كليتين تغشاهما غمامة من مراقبتها للرجل طوال الليل والبيكاه. وحين رأت والدها يشيح بوجهه عنها خزيًا ابتسمت ابتسامة مريرة: كانت قد نفضت عنها كل إحساس بالعار، وكذلك خشيتها من الرب، وحيها لوالدها، واهتمامها بأراء الناس. وكانت ثمة غيبة تقول إنها ممسوسة بسبعة شياطين، لكن قلبها لم يكن يحتوي على سبعة شياطين، بل على سبع سكاكين.

عاد الحبير العجوز يصرخ، طالباً من الناس أن يلتفتوا نحوه وينظروا إليه مباشرة وذلك حتى لا يقع بصبرهم على ابنته. لقد رآها الرب، وهذا كاف - وهو الذي سيحاكمها.

هتف قائلاً، وهو متمركز على كتفي ذي اللحية الحمراء، «افتحوا عيون أرواحكم وتأملوا السموات. الرب فوقنا، وأبواب السموات مفتوحة، وجيوش الملائكة تتقدم، والهواء امتلاً بأجنحة حمراء وزرقاء».

صارت السماء لهباً. ورفع الناس أبصارهم، ونظروا فوقهم قرأوا الرب - مدججاً بالسلاح ويهبط. رفع باراباس فأسه، وصرخ «اليوم لا غداً، اليوم»، فاندفع الفوجاء إلى الثكنة، ارتموا على البوابة الحديدية، أحضروا عتلات، وأسندوا سلاط على الجدران، وأحضروا جمرأ ملتهباً ليضرموا النار بالمكان. ولكن فجأة فتح الباب الحديدي وظهر منه فارسان مصفحان بالبرونز، مدججان بالسلاح حتى أسنانهما، لوحتهما الشمس، حَسَنًا التغذية، واثنان من نفسيهما. حثا حصانيهما على المسير وعلى وجهيهما أمارات جامدة،

سمع هذا الحوار اثنان أو ثلاثة من الصيادين وضحكوا، ورفع راع تقو ح من رائحة الماعز عصاه وقال «ياك أن توبخه يا يعقوب حتى ولو كان متقلباً. انه أفضلنا، ولديه قلب من ذهب».

ووافق الجميع «معك حق يا فيلبس - قلب من ذهب»، ومدوا أيديهم ليداعبوا بطرس ويطيّبوا خاطره، وهو ينفث غضباً. كان يقول في نفسه، فليقولوا ما يحلو لهم، كل ما يحلو لهم - الا ان يصفوني بالمتقلب. قد أكون وحيداً، قد أكون عرضة لكل هبة ريح، ولكن ذلك ليس لأنني خائف، لا، بل بسبب قلبي الطيب.

رأى يعقوب تعبير وجه بطرس المتجهّم شعراً بالانقباض، وندم لأنه تكلم بطيش شديد مع الرجل الأكبر سناً، ولكي يغير الموضوع سأل «كيف حال أخيك أندراوس يا بطرس؟ أمازال في الصحراء الأردنية؟»

أجاب بطرس وهو يتهدّد «نعم، أمازال هناك. يقال انه قد عُمد فعلاً وبدأ يأكل الجراد والعسل البري، على قدم المساواة مع معلمه، قد يثبت الرب كذبي، لكنني أراهم على أننا سنراه قريباً يقرم بجسولات في القسري وهو يصرخ «توبوا! توبوا! لقد حلت مملكة السماء»، مثلما فعل الباقون، أي مملكة هي - أهذه التي تحيط بنا؟ ألا نخجل من أنفسنا؟ اتساءل»

هزّ يعقوب رأسه وقطع ما بين حاجبيه الكثّين. قال «رأيت المشهد نفسه يحدث لأخي العارف بكل شيء، يوحنا. لقد رحل ليصبح راهباً في الدير في صحراء جنيسمارت. يبدو أنه لم يخلق ليكون صياد سمك، وهكذا تركني وحدي مع عجوزين وخمسة قوارب لأضرب رأسي في الجدار»

سأله فيلبس، الراعي «ولكن ما الذي كان ينقص الفتى المبارك؟ لقد كان يحظى بكل ما يمكن للرب أن يهبه ما الذي دعاه وهو

مازال في زهرة شبابه؟». سأل هذا الا أنه من داخله كان يبتهج سراً لأن الأغنياء من الناس أيضاً في داخلهم دودة تخترهم.

أجاب يعقوب «لقد أصبح فجأة مضطرب النفس، وبدأ يتقلب في سريره طوال الليل كفتى محتاج الى امرأة»

«ولمّ لم يتزوج؟ هناك عرائس لمن يريد»

«قال انه لا يريد أن يتزوج امرأة»

«ماذا كان يريد اذا؟»

«يريد أن يحظى بمملكة السماء - مثل اندراوس»

وانفجر الرجال ضاحكين.

هتف صياد عجوز «ويميشان في ثبات ونبات»، وهو يفرك يديه الخشنتين معاً بخث.

فتح بطرس فمه ليتكلم، ولكن قبل أن يفوه بكلمة امتلأ القضاء بصراخ أجش «انظروا! هاهو صانع الصليبان، صانع الصليبان» في اللحظة نفسها، التفتوا تملأهم الحيرة فشاهدوا أسفل الدرب ابن التجار يرتقي التل بخطى متقلقلة، وهو يلهث تحت وطأة ثقل الصليب.

هدر الحشد «صانع الصليبان صانع الصليبان! الخائن!»

نظر الفجريان الواقفان في أعلى التل الى أسفل، وحين رأيا الصليب يقترب راحا يقفزان فرحاً، فقد كانت أشعة الشمس تشويهما. بصقاً في أكفهما وتناولوا معلوليهما وأخذوا يحفران حفرة. كانا قد وضعا المسامير الضخمة ذات الرؤوس المسطحة على حجر قريب. وكانا قد أمرا باحضار ثلاثة منها، فطرهما خمسة.

تماسك الرجال والنساء بالأيدي مشكّلين سلسلة لتعيق تقدم صانع الصليبان. خرجت المجادلة من بين الحشد وألقت نظرة ثابتة على ابن مريم الذي كان يتابع ارتقاءه ففاض قلبها أسى وهي تتذكر

الألعاب التي كانا يلعبانها معاً وهما مازالان طفلين صغيرين. كان هو في الثالثة، وهي في الرابعة. كم كان فرحهما عميقاً، عصبياً على البوح، وأي عنوية تعقد اللسان، وأدركا للمرة الأولى الحقيقة العميقة المظلمة أن أحدهما رجلاً والآخر امرأة: جسدان خيل إليهما في وقت من الأوقات أنهما جسد واحد، لكن أنها لا يعرف الرحمة فُرقتهما، ومن ثم تلاقت القطعتان من جديد، وحاولتا أن تندسما معاً، أن تتحدوا من جديد. وكانا كلما تقدما في العمر يزداد وشوح أحساسهما بمعجزة أن يكون أحدهما رجل والآخر امرأة، وكانا يتبادلان النظرات يحيط بهما رعب أخرس، ينتظران كوحشين فئارين أن يتفاهم جوعهما وأن تحين الساعة التي يندفع كل منهما نحو الآخر ليعيدا جمع ما فرقه الرب. ولكن، وذات أمسية أثناء احتفال أقيم في قانا، حين مد حبيبها يده ليتناولها وردة تكريساً لخطوبتهما، انقضَّ الإله عديم الرحمة عليهما، وفرق عابئتهما مرة أخرى. ومنذ ذلك الحين...

فاضت عيننا المجدلية بالدمع، وخطت خطوة إلى الأمام. كان حامل الصليب يمرُّ من أمامها مباشرة.

مالته عليه، ولألمس شعرها المعطر كنفية العاريين الداميين. عوت بصوت أجش، مخنوق «يا صانع الصليبان» وكانت ترتعش. انفتحت الشاب وثبتت عينيه الكبيرتين العليلتين عليها لجزء من اللحظة، وعبثت ارتعاشات عنيفة بشفتيه، وتلوى فمه، لكنه أخفض رأسه على الفور، ولم يتح للمجدلية وقت كاف لتعرف أن كان هذا الالتواء هو يفعل الألم، أم الخوف، أم هو ابتسامة.

قالت، وهي ماتزال تميل عليه، وبعد أن التفتحت أنفاسها «أليست لديك كبرياء؟ ألا تذكر؟ كيف ترضخ لهذا؟»

وبعد برهة صرخت، وكأنها سمعت منه جواباً «لا، لا، أيها

البائس المسكين، انها ليست مشيئة الرب، بل مشيئة الشيطان !» في تلك الأثناء كان الحشد قد اندفع مسرعاً إلى الأمام ليبدأ طريقته. رفع رجل عجوز عصاه وضربه بها، وقام اثنان من رعاة البقر كانا قد انحذرا من أعلى جبل الطور للانضمام إلى الآخرين لرصد المعجزة، قاما بتثبيته في مكانه بمهمازيهما. وشعر ياراباس بالفأس القصيرة تتحرك إلى أعلى وإلى أسفل في قبضته. ولكن حالما رأى الحبر العجوز الخطر يتفاهم، انزلق عن عنق ذي اللحية الحمراء وحفَّ للدفاع عن ابن أخيه.

صرخ وكفى، يا أولادي، انها لخطيئة فادحة أن نسد درب الرب، فلا تفعلوا ذلك، إن ما قُدِّر يجب أن يتم، لا تقضوا في طريقه. دعوا الصليب يمر - فالرب هو الذي أرسله، دعوا العجورين يعمداً مساميرهما، وليسعد رسول أدوناي إلى الصليب، لا تخافوا! تمسكوا بأيامكم! إن ناموس الرب من الصرامة بحيث لا مناص من أن تصل السكين مباشرة إلى العظام. بغير ذلك لن تقع المعجزة! أنصتوا إلى جدكم العجوز، يا أولادي، فأننا أقول لكم الحقيقة. لا يمكن للإنسان أن ينعي جناحين إلا إذا وصل أولاً إلى شفا الهاوية، أبعد رعاة البقر مهميزهم، وسقطت الحجارة من القبضات المشدودة، وتبعَّى الناس جانباً لاختلاء درب الرب، وواصل ابن مريم خطاه المتعثرة متكبِّاً الصليب، وسمعت أصوات الجنادب قادمة من كرم الزيتون البعيد كأنها تنتشر الجوى، وعلى قمة التل راح كلب جائع يخضن أحد اللحامين يتبح فرحاً. وأبعد أكثر، وبين تكتل البشر، أطلقت امرأة، متلذعة بوشاح بنفسجي اللون، صرخة ثم أغمى عليها.

وقفت بطرس فاغراً فاه جاحظ العينين، يراقب ابن مريم. انه يعرفه. لقد كان منزل أهل مريم في قانا قبالة منزلهم، والداها

المجوزان، يواكيم وحنه، كانا صديقين حميمين لوالدي بطرس. كانت تجلبهما القداسة. وكانت الملائكة تتردد على كوخهما المتواضع بانتظام. وذات مساء شاهد الجيران الرب ذاته يجتاز عتبة منزلهما مستخفياً بزي رجل متسول. لقد عرفوا أنه الرب، لأن البيت اهتز وكانما ضربه زلزال، ويعد ذلك بتسعة أشهر حدثت المعجزة: وضعت حنه، وهي في سثينات عمرها، ابنها مريم. في ذلك الوقت لابد أن بطرس كان يبلغ أقل من خمس سنين، لكنه كان يتذكر كل الاحتفالات التي تلت ذلك، وكيف دبّت الحركة في أرجاء القرية كلها، وكيف هرع الرجال والنساء ليقدموا التهاني. فحمل البعض معه دقيقاً وحليباً، وحمل البعض الآخر تمرأ وعسلأ، وحمل آخرون ملابس ولبد صغير؛ بمثابة هدايا للمرأة إبان ولادتها ولطفلتها. وكانت والدة بطرس هي القابلة، فسخت ماء، وأضافت إليه الملح ثم حشمت الطفلة المنتحبة حديثة الولادة. والآن، هاهو ابن مريم يمر من أمامه يبرز تحت ثقل الصليب، والكل يصبق عليه ويرشقه بالحجارة، وبينما بطرس ينظر ويطيل النظر شعر بقلبه يبور. أحس أن قدره بائس، لقد انتقى رب اسرائيل بلا رحمة ابن مريم ليصنع صليباناً ليصلب عليها الأنبياء. وقال بطرس في نفسه وقد مستأ، الرجفة، انه كلف القدرة، كان يمكن ان ينتقيني للقيام بالعمل نفسه، الا انه انتقى ابن مريم ونجوت أنا... وفجأة هدأت غلواء قلب بطرس المائثر، وشعر على الفور بامتنان عميق لابن مريم، لأنه قبل حمل الخطيئة على كتفيه.

بينما كل هذا يتلاطم في ذهنه، توقف حامل الصليب عن المسير وهو يلهث تعباً.

غمغم «أنا تعب، تعب» وراح ينظر فيما حوله بحثاً عن صخرة أو رجل يتكئ عليه، لكنه لم ير غير قبضات أيد مرفوعة في وجهه

والآف العيون تحقن اليه ملؤها الكراهية. ثم سمع ماخيل اليه انه خفق أجنحة في الجو، فانتفض قلبه، لعل الرب اخذته الرافة به في اللحظة الأخيرة فبعث اليه ملائكته، رفع ناظره. نعم، ثمة أجنحة فوقه: لغويان! فأخذة الغضب، وتملكه العناد فرفع قدمه بتصميم يبغي متابعة المسير وارقتاء التل. لكن الأحجار غاصت تحت قدميه، فتعثر وبدأ يتكئ الى الأمام. اندفع بطرس في الوقت المناسب ليمنعه من السقوط، ثم تناول الصليب منه ورفع على كتفه.

قال «دعني أساعدك، أنت متعب»

التفت ابن مريم وحقد الى صياد السمك لكنه لم يتعرف عليه. بدت له هذه الرحلة برمتها حلمأ، لقد أزعج العيب عن كاهليه، وهاهو يطير في الجو، تماماً كما يطير المرء في أحلامه، وقال لنفسه، لا يمكن أن يكون صليبا، لابد أنه زوج من الأجنحة ومشى خلف بطرس يخطى واثقة وهو يجفف العرق والدم عن وجهه.

كان الجو يلتهب بنار تلسع الحجارة. وكانت كلاب حراسة قطعان الغنم التي أحضرها الفجريان لتلعق الدم قد مددت أجسادها جيدة التغذية عند أسفل صخرة، عند حافة حفرة حفرها أسبادهما. كانت تلهث، والعرق يتفصد من أسننها المتدلية. وكان بالامكان سماع قرع الطبول الذي يهدير في رؤوس الناس وسط هذا الفرن المستعر، وضوت غليان عقولهم. وسط هذه الحرارة كل التخوم تغيرت - الحسن السليم والحماقة، الصليب والأجنحة، الرب والانسان: كل شيء انتقل من موضعه.

قامت عدة تسوة من ذوات القلوب الرقيقة بانعاش مريم. فتحت عينيها فرأت ابنتها الهزيل، الحافي القدمين وقد شارف أخيراً على الوصول الى الذروة، يتقدمه رجل آخر يحمل الصليب.

علمت فيما حولها متلهفة وكأنها تطلب المساعدة. وحين رأت أهل
قريتها وضيادي السفك اقتربت منهم ملتزمة العون - لكن الألوان
كان قد مات! دوى نفير البوق عالياً من الثكنة، وظهر خيالة جدد،
وتساعدت سحب الغبار، وعاد الناس إلى التزامهم، وقبل أن يتاح
الوقت لمريم لتصعد إلى إحدى الصخرات وتنتظر، كان الخيالة قد
بانوا قوتهم، بخوذاتهم البرونزية، وأرديتهم الحمراء، وخيولهم
المتكبرة الجيدة التغذية التي كانت تدوس العبرانيين بحوافرها.

تقدم الزيلوت المتمرد، ذراعاه مشدودتا الوثاق خلف ظهره عند
المرفقين، ملابسه ممزقة وملطخة بالدم، وقد الصق الدم والعرق
شعره بكتفيه، ولحيته الشائبة الشوكية كثة وعيناه الجامدتان
تحدقان مباشرة أمامه.

فرغ الناس لهذا المشهد. هل هذا رجل، أم أنه يخفي عميقاً
تحت أسماله ملاكاً أو شيطاناً تصون شفتاه المشدودتان سرّاً رهيباً
لا يمكن البوح به؟ وكان الحبر العجوز والناس قد وافقوا على أنه
من أجل منع الزيلوت الشجاعة، سوف يشتركون معاً، حالما يظهر،
وبأعلى أصواتهم، في ترتيل مزمور الحرب: «ربّ بدّد أعدائي».
لكن الكلمات هذه المرة اختفت في حناجرهم. وشعر كل واحد
منهم أن هذا الرجل لم يكن يقتصر إلى الشجاعة، بل كان فوق
الشجاعة، لا يقهر، لا يُذل - كان يضم الحرية بين اليدين الموقفتين
خلف ظهره. كلهم نظروا إليه يملأهم الرعب وظل الصمت يلثمهم.

كان قائد المئة يسير أمام المتمرد متمطياً حصانه ويجره خلفه
بحبل مربوط إلى مؤخر سرجه، يشرته القاسية ملوحة بأشعة
الشمس الشرقية. كان يمقت اليهود منذ زمن طويل. منذ عشر
سنوات وهو ينصب لهم الصليبان ويصلبهم، منذ عشر سنوات وهو
يحشر أفواههم بالحجارة والأقذار ليخرسهم - ولكن عبثاً فما إن

ينتهي من صلب أحدهم حتى ينهض بدلاً منه ألف رجل ينتظرون
بشوق أن يحين دورهم، يرتلون مزمور التحدي الذي يخس أحد
ملوكهم الأقدمين، لا يخشون الموت، كان لديهم ربهم المتعطش
للدماء الذي يلحق دماء الأطفال الذكور المولودين حديثاً، ولديهم
قانونهم الخاص، الوحش أكل الرجال ذو القرون العشرة. فكيف
يستطيع أن يسيطر عليهم؟ كيف يستطيع أن يستعبدهم؟ فهم لا
يخشون الموت، ومن لا يخشى الموت - ولطالما تذكر قائد المئة في
هذه الفكرة وهو موجود هنا في الشرق - من لا يخشى الموت يخلد.
شد الزمام وأوقف حصانه ومسح العبرانيين ببصره؛ وجوه
متأكلة، عيون ملتعبة، لحى متسخة، وكتل مزينة كثة من الشعر -
بصق تعبيراً عن استعزازهم، ليته يستطيع أن يرحل، يرحل، ليته
فقط يستطيع أن يعود من جديد إلى روما بحماماتها العديدة،
ومسارحها، ومدرجاتها ونسانها التنظيفات لا كم يمقت الشرق -
بروائحه، وقذاراته، ويهوده!

كان الفجريان بنفضان عرقهما على الأحجار. كانا قد أقاما
الصليب في حفرة في أعلى التل، وقد جلس ابن مريم على إحدى
الصخرات وراح ينظر إليهما، وإلى الصليب، وإلى الناس، وإلى قائد
المئة الذي ترجل أمام الناس، نظر وأطال النظر، لكنه لم ير غير
بحر من الجماجم تحت السماء المستمرة تاراً، اقترب بطرس ومال
ليكلمه وتكلم، لكن هدير بحر مزيد صمّ أذني الشاب، فلم يسمع
شيئاً.

بإمارة من رأس قائد المئة حرر الزيلوت، فأخذ يريح إحدى
ذراعيه لكي يخلصها من الخدر، ومن ثم بدأ يتجرد من ملابسه.
تسللت المجدلية من بين قوائم الخيل وأخذت تقترب منه، وذراعاهما
مفتوحتان واسعاً، لكنه صدها بتلويح من يده. وشقت امرأة عجوز

تسلك بعضا وعليها سيماء الارستقراطية طريقها خلال الحشد دون أن تقوم بكلمة وضمته بين ذراعيها. أخفض رأسه، وقبل يديها الاثنتين مدة طويلة، وتشبث بها بقوة الى صدره ومن ثم أشاح بوجهه عنها. لزمت العجوز مكانها بعض الوقت، صامته دون دموع، وهي تملئ بصبرها عنه.

أخيراً همهمت «اني أباركك»، ثم ابتعدت وانتكأت على الصخرة المشالة، جنباً الى جنب مع كلاب قطعان الغجر التي كانت متمددة في العنل الضئيل، تلهث.

دق قائد المئة قدمه على الأرض وقفز عائداً الى السرج لكي يتمكن كل شخص من رؤيته وسماعه. قال، وهو يلوح بسوطه مهدداً فوق الحشد الغفير أمراً بالصمت: «انصتوا الى كلامي أيها العبرانيون. إن روما تتكلم، اهدأوا»

أشار يابهامه الى الزيوت الذي كان قد خلع عنه أسماؤه ووقف معرضاً للشمس، ينتظر.

«هذا الرجل الواقف عارياً أمام الامبراطورية الرومانية تحدّي روما. وبما أنه مازال شاباً قوياً فقد أسقط الصقور شعار الامبراطورية ثم لجأ الى الجبال وناشدكم أن تلحقوا به الى هناك وأن ترفعوا الراية، قائلاً لكم إن اليوم الموعود الذي سيظهر فيه المسيح من بينكم قد حان وسيهدم روما... اصمتوا، أنتم هناك، وكشاكم صراخاً.. التمرد، والقتل، والخيانة: هذه هي جرائمه. والآن، أيها العبرانيون، انصتوا الى ما سأطلبه منكم - أريدكم أنتم أن تصدروا الحكم عليه. ماهي العقوبة التي يستحقها؟»

راح يستعرض بيصره الحشد الممتد تحته وينتظر. كان الناس في حالة هياج، جأروا، تدافعوا، وتركوا البقعة المخصصة لهم واندفعوا نحو قائد المئة، والى أسفل قوائم حصانه، لكنهم سرعان

ما نكصوا رعباً وارتدوا في الاتجاه المعاكس، كموجة في بحر. استشاط غضب قائد المئة، فتقدم من الجمع الفقير حائاً حصانه.

هذر قائلاً «إنني أسألكم، ماهي العقوبة التي تقترحونها للمتعدد، القاتل، الخائن - ماهي العقوبة؟»

اندفع ذو اللحية الحمراء الى الأمام وهو مهتاج، ولم يعد بوسعه أن يتحكم في قلبه. أراد أن يصرخ «تعيش الحرية»، وكاد يباعد مابين شفثيه، لكن رفيقه باراباس أمسك به ووضع يده على فمه.

مرت هنيهة بدت طويلة لم يسمع خلالها أي صوت خلاف هدير شبيه بهدير البحر. لم يجرؤ أحد على الكلام، لكن كلاً منهم كان يش بصمت، ويتهدد، ويأخذ أنفاسه لهاثاً. وفجأة سُمع صوت زاعق يعلو فوق كل هذه الجلبة المضطربة، فالتفت الجميع، ابتهاجاً وخوفاً معاً. كان الحبر العجوز قد عاد فاعتلى كتفي ذي اللحية الحمراء، ثم رفع كلتا يديه الشبيهتين بالهيكل العظمي وكأنه يعني أن يصلي أو أن ينزل لعنته، وهتف بحرارة «أي عقوبة؟ ضع له التاج الملكي»

أخذت الناس الشفقة به فاثاروا جلبة في محاولة للتعطية على صوته، ولم يسمع قائد المئة ماقال.

هتف، وهو يرهف سمعه بواسطة كفه ويحث حصانه على التقدم «ماذا قلت أيها الحبر؟»

كرر الحبر ماقاله بكل ما أوتي من قوة «ضع له التاج الملكي». أضاء وجهه، وكان جسمه كله كأنما أضرمت فيه النار، كان يهتز، ويقفز، ويرقص، وهو قابع على كتفي الحداد: بدا كأنه يريد أن ينطلق في الهواء ويطير.

عاد يصرخ «ضع له التاج الملكي»، وقد ابتهج لأنه غدا المتحدث
باللسان شعبية ورده، ثم مدّ ذراعيه على كلا جانبيه وكأنه مصلوب في
الهواء.

استشاط قائد المئة غضباً، فترجل عن سهوة جواده وتناول
السوط من مكانه على قرن السرج، وتقدم نحو الحشد بخطى
ثقيلة، تقدم بصمت، وهو يبعد الحجارة من طريقه، كوحش ضخم،
أو ثور أو خنزير بري. سكن الجمهور في مكانه لا يأتي بحركة،
حائساً أنفاسه. ومرة أخرى خلا الجو إلا من أصوات الجنادب آتية
من كرم الزيتون، والغريان العصبية.

تقدم خطوتين، ثم خطوة أخرى، وتوقف. كانت الروائح النتنة
المنبعثة من الأفواه الفاغرة ومن الأجساد المتعرقة القذرة تلغحه.
يهود منحطون! تقدم أكثر حتى أصبح أمام الحبر. كان العجوز
ينظر إليه من أعلى من مكانه وهو ينتظر هذه اللحظة، وهاهي قد
أنت! لحظة يحين دوره للموت، مية الأنبياء.

نظر إليه قائد المئة بعينين نصف مفتوحتين، وغو يبذل جهداً
جباراً للتحكم بذراعه، وكانت قد ارتفعت لتطيح بالراس المتمرد
العجوز بضربة واحدة. لكنه لجم حنقه، إذ لم يكن يهم روما أن تقتل
رجلاً عجوزاً، ثم إن هؤلاء الناس البغيضين العنيدسين سيذهبون
على أقدامهم من جديد ويباشرون حرب عصابات، ولا يهم روما أن
تقحم يدها مرة أخرى في عش الدبابير العبرانيين. لذا، ضبط
أعصابه ولفّ السوط حول ذراعه ثم التفت إلى الحبر. كان صوته
قد اضحى أجشاً وهو يقول:

«أيها الحبر، أن وجهك يوحى بالاحترام فقط لأنني أنا
أحترمه، أنا وحدي، ممثل روما، أرغب في أن أضفي عليه التبريل
- أما وحده فلا يتصف بشيء. لهذا السبب لن أرفع سوطي في

وجهك. لقد سمعت ماقلت، لقد أصدرت حكمك. والآن سأحتدي
بك»

التفت إلى الفجرين الواقفين عند الطرف الآخر للصليب
ينتظران، وجار «اصليو!»

قال الحبر بصوت هادئ «أنا أصدرت حكمي، وكذا فعلت أنت
يا قائد المئة. ولكن يبقى هناك طرف واحد، أهم منا جميعاً، وعليه
أن يصدر حكمه»

«الامبراطور؟»

«لا... الرب»

ضحك قائد المئة وقال «أنا المتحدث بلسان الامبراطور في
الناصره، والامبراطور هو المتحدث بلسان الرب على الأرض،
والامبراطور وروفس أصدرنا حكمهما»

قال هذا ثم فك السوط عن ذراعه وتوجه إلى قمة التل وهو
يسوط بعنف الحجارة والأشواك من تحته.

رفع العجوز ذراعيه نحو السماء وقال «فليراكم الرب الائم على
رأسك، أيها الشيطان، وعلى رؤوس أولادك وأولاد أولادك»

في تلك الأثناء كان الخيالة البرونزيون قد شكّلوا دائرة حول
الصليب، وفي الأسفل كان الناس يفتشون من الغضب ويتطاولون
على رؤوس أصابع أرجلهم لنتاح لهم الرؤية. كانوا يرتجفون من عزم
كريمهم: هل ستقع المعجزة أم لا؟ وكثير منهم راحوا يفتشون في
السماء بانتظار أن تتفتح أبواب السماوات. بل أن النساء قلن أنهن
تبين أجنحة متعددة الألوان في الجو. وكافح الحبر الراكع على
كتفي الحداد العريضين ليتمكن من الرؤية من خلال حوافر
الأحسنة وأردية الخيالة الحمراء. أراد أن يكتشف ماكان يحدث
فوق، حول الصليب. نظر إلى ذروة الأمل، إلى ذروة اليأس - نظر،

ولم يتكلم. وانتظر. ان الحبر العجوز يعرفه، يعرفه حق المعرفة، رب اسرائيل هذا. انه عديم الرحمة وله قوانينه الخاصة به، ووصاياه العشر الخاصة. نعم، كان يعطي كلمته وأوفى بها، لكنه لم يكن في عجلة من أمره: انه يقيس الزمن بمقياسه الخاص. كانت كلمته تنشئ على مدى أجيال وأجيال معلقة في الجو عديمة الأثر ولا تحل على الأرض، وحين كانت تهبط في آخر الأمر، فالويل للويل للرجل الذي يعهد بها إليه! كم من مرة، وعلى امتداد الكتاب المقدس، قتل من اختارهم الرب - ولكن هل عمل الرب أي شيء لانقاذهم؟ لماذا؟ ألم يتبعوا ارادته؟ أم هل كان من صلب ارادته ربما أن يقتلوا؟ طرح الحبر العجوز هذه الأسئلة على نفسه لكنه لم يجزئ أن يتعادي في أفكاره لأبعد من ذلك. وقال في نفسه، ان الرب هوة سحيقة، هوة سحيقة. وأفضل أن لا أقترب منه!

كان ابن مريم مايزال جالساً منزوياً على حجره، يضم ركبتيه المرتعشتين بقوة بكلتا يديه، ويراقب مايجري. وكان الفجريان قد أمسكا بالزيلوت، وتقدم حراس رومان أيضاً، وعملوا جميعاً بعد شد وجذب، وسط سيل اللعنات والضحكات، وجاهدوا لرفع المتمرّد على الصليب. وحين رأت كلاب الرعي هذا الصراع فهمت وبدأت تقفز على قوائمها.

ابتعدت الأم العجوز النبيلة عن الصخرة التي كانت تتكن عليها، وتقدمت، وهتفت «تشجع بابني، لا تثن، لا تجعلنا نشعر بالخزي منك!»

تمتم الحبر العجوز «انها أم الزيلوت، أمه النبيلة، المتحدرة من سلالة المكابيين»

مرروا حبلين ثخينين من تحت ابطي المتمرّد. وثبت الفجريان سلاسل على ذراعي الصليب وبدءا برفعه ببطء. كان جسمه ضخماً.

ثقيلاً. وفجأة مال الصليب وكاد يسقط. رفض قائد المئة ابن مريم، الذي نهض ليقف على قدمين مزعزعتين، وتناول الفأس وذهب للعمل في تثبيت الصليب بالحجارة والأوتاد لكي لا يسقط.

هذا المشهد كان أقسى على مريم، أمه، من أن تشهده. شعرت بالخزي من رؤية ابنها الحبيب بين الصالحين، فشددت من عزم قلبها وراحت تشق طريقها بين الحشود. رثى صيادو جنيسارت لحالها وتظاهروا بأنهم لا يرونها. أخذت تندفع متسللة بين الخيل لكي تمسك بابنها وتبعده، لكن جارة عجوزاً لها أخذتها الشفقة عليها فامسكت بها من ذراعها. وقالت «مريم» لا تقعلي ذلك، الى أين أنت ذاهبة؟ سوف يقتلونك!»

أجابتها مريم «أريد أن أخرج ابني من هناك» وأجهشت بالبكاء.

قالت المرأة العجوز «لا تبكي يا مريم. انظري الى الأم الأخرى، انها تقف بثبات وتتابعهم وهم يصلبون ابنها. انظري اليها واستمدي منها الشجاعة.

«انني لا أبكي فقط من أجل ابني وحده، يا جارة. إنني أبكي أيضاً على تلك الأم» هزت المرأة العجوز، التي كانت بلاشك قد عانت كثيراً في حياتها، رأسها الذي أخذ يصلع. غمغمت «أفضل لك ان تكوني أم الصالح، على أن تكوني أم المصلوب»

لكن مريم كانت في عجلة من أمرها فلم تسمعها. انطلقت توترقي التل، وعينها الفاضلتان بالدموع تبحثان في كل مكان عن ابنها. كان العالم كله يبيكي. أصبح معتماً، ومن خلال الفسادة الكثيفة بينت الأم أحسنه ودراً برونزياً وصليباً هائل الحجم صنع حديثاً يمتد من الأرض الى السماء.

التفت أحد الخيالة ورآها. رفع رمحاً وهزه باتجاهها ان

ارجعي. توقفت الأم، ومالت الى أسفل وراحت تنظر من تحت بطون الخيول فرأت ابنها. كان راکعاً على ركبتيه، يحفر بالفأس ببراعة ويثبت الصليب بالحجارة.
هتفت «ولدي، يسوع»

كانت صرخة الأم تمزق نياط القلب حتى أنها علت على ضجيج الرجال والخيول، والكلاب المجوعة العاوية جميعاً. التفت الابن فرأى أمه، فأظلم وجهه وعاود الطرق بعنف أكثر من ذي قبل. كان الفجريان قد ارتقيا سلم الحبال وعددا الزيلوت على الصليب، محافظين عليه مربوطاً بالحبال حتى لا ينزلق فيسقط، ثم سعدا بالمسامير وأخذوا يسفران يديه. لطخت قطرات كبيرة من الدم وجه اليسوع. فترك فأسه ونكس الى الخلف فزعاً، انسحب متراجعاً خلف الخيول فالتقى نفسه بجوار أم الرجل الذي سيموت قريباً. أصابته الرعدة، وانتظر ان يسمع صوت لحم يتمزق. تكثف دمه كله متمركزاً في يديه، وانتفضت الأوردة وراحت تفيض بعنف. كأنها توشك أن تتفجر. شعر في كفيه نقطة مؤلمة، مدورة كراس مسمار.

تردد صدى صوت أمه من جديد «يسوع، ولدي»
هدر من أعلى الصليب صراخ عميق مدو، صراخ وحشي صادر ليس من حشا الرجل بل من باطن الأرض : «أدوناي»
سمعه الناس - وتمزقت أحشاؤهم. أكانوا هم، أنفسهم، الذين أطلقوا الصرخة؟ أم هي الأرض؟ أم الرجل المصلوب بعد أن دق أول مسمار فيه؟ لقد كان الكل في واحد. لقد صلب الجميع، كان الكل - الناس والأرض والزيلوت - يصرخون، انجس الدم وانتشر رذاذاً على الخيول، وسقطت قطرة كبيرة من الدم على شفتي يسوع. وكانت ساخنة ومالحة المذاق. ترنح صانع الصليبان، لكن أمه عجلت

نحوه في الوقت المناسب وأمسكت به بين ذراعيها، فلم يقع.
غمغمت مرة أخرى «ولدي، يسوع...»
لكن عينيه كانتا مغمضتين، فقد أحس بالأم لا يحتمل في يديه، وقدميه وقلبه.

ثبتت العجوز النبيلة في مكانها لا تأتي حراكاً وتراقب تشنجات ابنها المسمر على لوح الخشب المتصاليين. كانت تمض على شفتيها في صمت، ثم سمعت خلفها ابن التجار وأمه، فاضرم الغضب فيها والتفتت. إنه العبراني المرتد الذي صنع صليب ابنها، وهذه هي الأم التي حملت به. لماذا يبقى مثل هذا الابن، الخائن، على قيد الحياة بينما ابنها يتلوى المأ ويطلق الصراخ وهو على الصليب! مدت كلتا يديها، مدفوعة ببلوها، نحو ابن التجار، فرقع بصره ورأها. كانت شاحبة الوجه، مهتاجة، وبلا رحمة. رآها، وأخفض رأسه، وتحركت شفتاها:
قالت بضراوة، وفظاظة «إنني ألعنك، ألعنك، يا ابن التجار. أدعو عليك، بعد أن تسببت بصلب رجل آخر، أن تصلب أنت نفسك»

والثفتت الى الأم «وأنت، يا مريم، فلتعاني من الآلام التي عانيتها»

حالما قالت هذا أدارت رأسها مرة أخرى وثبتت بصرها على ابنها. عندئذ كانت الجدلية تعانق أسفل الصليب وترتل الترنيمة الجنائزية للزيلوت، ويدها تلمسان قدميه، وشعره وذراعيه الملتصخين بالدماء.

تتاوّل الفجريان سكينيهما ويدها بتقطيع ملابس المصلوب ليتقاسما القطع. ثم اقتسما أسماه بعد اجراء القرعة. ولم يبق غير غطاء رأسه الأبيض، المبقع بقطرات كبيرة من الدم.

قالا «هيا تعطيها لابن التجار. مسكين، هو أيضاً اتقن عمله»
عشرا عليه جالسا تحت أشعة الشمس، ملتفأ حول نفسه
وبرقعش.

هتف أحدهما، وهو يرمي له بالمنديل الملطخ بالدم «هذه
...سندك، يا تجار. وأتمنى لك المزيد من عمليات الصليب الآتية»
وقال الفجري الآخر، ضاحكاً «العقبى لك، أيها التجار!» ثم
نبت بتعجب على ظهوره.

الفصل الخامس

هتف الحبر العجوز، فاتحاً واسعاً ذراعيه ليجمع الجمهور
المتبايل من رجال ونساء يائسين «هيا بنا يا أولادي، هيا بنا ! لدي
سر عظيم أكشفه لكم. تشجعوا!»
انطلقوا يهرعون في الأزقة الضيقة، ومن خلفهم خبأ الخيالة
يسوقونهم. زعقت ربات البيوت وأغلقت أبوابهن - هناك دماء أخرى
ستسبلك - وقع الحبر العجوز مرتين على الأرض وهو يركض وعاد
يسعل ويصق دماً. فحمله يهوذا وباراباس بين أذرعهما، وتوافد
الناس زرافات وتغلفوا داخل الكنائس يلهثون. وانحشروا جميعاً
فيها، وملأوا أيضاً القناء، ثم أرتجوا البوابة المؤدية الى الشارع.
انتظروا، وانظارهم متعلقة بشفتي الحبر، أي سر، وسط كل
هذه المراقبة، يمكن للعجوز أن يفشي به اليهم ليفرح قلوبهم؟ لقد
مرت عليهم حتى الآن سنون بعدها سنين وهم يمانون الكرب بعد
الكرب، والصليب بعد الصليب. ظل رسل الرب ينبشون من أرض
أورشليم، والأردن، والصحراء، أو يهبطون من الجبال مسرلين
بالأسمال والأصفاد وأقواهم تزيد - وكان كل منهم يصلب.

تصاعد هرج غاضب. إن أغصان الأشجار وسعف النخيل التي
 تزين الجدران، والنجوم الخماسية، والرقاع المقدسة الموضوعة على
 المشرأ بما تحويه من كلمات نفاجة: الشعب المختار، الأرض الموعودة،
 مملكة السماء، المسيح - كلها لم تعد تواسيهم. لقد بدأ الأمل الذي
 طال أمده، يتحول إلى يأس. إن الرب ليس في عجلة من أمره، لكن
 الإنسان مستعجل، ولم يعد يوسعه أن ينتظر. لم يعد يوسع حتى
 الآمال المرسومة التي تحتل جداري الكنيس معاً أن تخدعهم الآن.
 وذات مرة بينما كان الحبر يقرأ سفر النبي حزقيال غمره حب
 الرب، فقفز، وصرخ، وبكى ورقص، لكنه لم يجد الراحة. لقد
 أصبحت كلمات النبي جزءاً من لحمه، ولكي يحظى بالراحة أخذ
 مجموعة من الفراشي ودهاناً، ثم أقفل على نفسه في الكنيس وبدأ
 يغطي الجدار في احتياج علوي برؤي النبي: الصحراء اللامتناهية،
 وجماجم وعظام، وجبال من الهياكل العظمية البشرية، وتخيم على
 كل ذلك سماء حمراء متوهجة، كحمرة الحديد الحامي، ويد
 عملاقة تبرز من قلب السموات، وتقبض على حزقيال من مؤخر
 عنقه وتبقيه معلقاً في الفضاء. لكن الرؤيا تستمر أيضاً على
 الجدار الآخر. هنا يقف حزقيال غائصاً حتى ركبتيه وسط العظام.
 فمه مفتوح وأخضر اللون ويخرج منه شريط مكتوب عليه بحروف
 حمراء: «يا شعب إسرائيل، يا شعب إسرائيل، لقد جاء المسيح»،
 ثم تتضمن العظام كلها معاً، وتنهض الجماجم مزودة بأسنان ومغطاة
 بالطين، وتظهر اليد المخيفة من قلب السماء وهي تحمل في كفها
 أورشليم الجديدة - أورشليم الجديدة، المبنية من جديد، تكتشفها
 أضواء ساطعة، ويرصع جنباتها الزمرد والياقوت!
 كان الناس ينظرون إلى هذه الرسومات ويهزون رؤوسهم
 ويغمغمون ببعض الكلمات، مما كان يثير غضب الحبر العجوز.

وكان يصرخ بهم قائلاً: «لماذا تغمغمون؟ ألا تؤمنون برب آباؤنا؟
 لقد صلب شخص آخر: إذا فقد اقترب المخلص منا خطوة أخرى،
 وهذا هو معنى الصلب، يا ضعفاء الإيمان»
 انتزع الرقعة عن المقرأ وفرشها بحركة عنيفة. كانت الشمس
 قد تسربت من النافذة، وهبط طائر لقلق من السماء وحط على
 سطح المنزل المقابل، وكأنه هو بدوره أراد أن يسمع ماسيقوله، ومن
 الصدر المنهك قفزت صرخة النصر السعيدة «انفخوا من على قمة
 جبل صهيون بوق النصر! انشروا في أرجاء أورشليم الخبر البهيج!
 اهتفوا! لقد جاء يهوه إلى شعبه، انهضي يا أورشليم، ارفعي عاليًا
 قلوبك! انظري! الرب يسوق من الشرق ومن الغرب أبناءك، الجبال
 سوتت، والتلال هربت، والأشجار كلها أطلقت عبقها العطر، ارتدي
 زخارف النصر يا أورشليم. لقد جاءت السعادة إلى شعب إسرائيل
 لتلازمهم أبد الأبدين»
 وسمع صوت من بين الحشد يقول «متى، متى؟»، والتفت
 الجميع فإذا برجل عجوز ضئيل الجسم، نحيل، مجعد كما الزبيب،
 يقف على أطراف أصابع قدميه، ويهتف «متى، يا أبت، متى؟»
 لف الحبر رقعة التبوءات بغضب، وسأل «أأنت في عجلة من
 أمرك يا منسى؟»
 أجاب العجوز الضئيل «نعم»، وكانت الدموع تقمل وجهه
 «وليس لدي وقت، انني أوشك أن أموت»
 مد الحبر ذراعيه وأشار إلى حزقيال المطمور بين العظام.
 «انظر، يا منسى سوف تبعث»
 «وأقول لك انني عجوز وضئير: لا أرى»
 هنا تدخل بطرس، كان النهار يقترب من نهايته، وهو أشاء
 الليل يصطاد في بحيرة جنيسارت، وكان متعجلاً. قال «يا أبت، لقد

وعدتنا بإشياء سر يريح قلوبنا. ماهو هذا السر؟

تحلقوا جميعاً حول الحجر العجوز ، وجسوا أنفاسهم ، وجاء من الفناء أكبر عدد منهم. كان الحر شديداً وقد عبت رائحة عرق انساني كثيفة، وكان القندلفت يرمي في المبخرة حبيبات بشكل الدموع من نسغ خشب الأرز ليعطر الجو.

وأعلى الحجر أحد مرابيط الخيول تجنباً للاختناق.

قال ، وهو يجفف عرقه «يا أولادي، ان قلوبنا قد امتلأت بالصليان. لحيتي السوداء غزاها المشيب منذ زمن طويل، ولحيتي التي كانت شائبة غدت بيضاء، وأسنانني سقطت على الأرض وماهتف به منسى العجوز هتفت أنا به طوال سنين. كنت أقول «الى متى، يا رب، الى متى؟ هل ساموت قبل أن أرى المسيح؟». هذا هو السؤال الذي طرحته مراراً وتكراراً، وذات ليلة تحققت المعجزة وأجابني الرب، لا، لم تكن تلك هي المعجزة، ان الرب يجيبنا كلما سألناه، لكن لحننا ملوث ويكاد يكون أضغاً: اننا لا نسمعه. لكن في تلك الليلة سمعته . وكانت تلك هي المعجزة»

هتف بطرس «وماذا سمعته؟ أخبرنا بكل شيء يا أبت». شق طريقه خلال الحشد حتى وقف أمام الحجر. مال الحجر العجوز على بطرس، ونظر اليه ثم ابتسم.

«الرب، يا بطرس، صياد سمك مثلك. هو أيضاً يخرج ليصطاد ليلاً حين يكون القمر بديراً أو شبه بدر، وفي تلك الليلة كان بديراً . كان يمخر عباب السماء أبيض بياض الحليب، مترعاً بالرحمة والاحسان حتى لقد عجزت عن اغماض عيني دونه. شعرت كان المنزل يعصرني. فخرجت أتمشى بين الأزقة الضيقة ومن ثم غادرت الناصرة، ورحت أصعد المرتفعات حتى استقرت على صخرة وأرسلت ناظري صوب الجنوب - صوب اورشليم المقدسة. مال

القمر نحوي ونظر اليّ وكأنه كائن بشري، وابتسم، نظرت اليه - الى فمه، ووجنتيه، الى زاويتي عينيه - وتهدت، شعرت وكأنه يكلمني ، يكلمني وسط سكون الليل: مع ذلك لم أسمع... لم تأت أي ورقة خضراء على سطح الأرض بحركة، وكانت رائحة السهل غير المجزوز أشبه برائحة الخيز، وكان الحليب يتساقط شلالات من الجبال المحيطة بي، ومن جبل الطور، ومن جلبوع والكرمل... قلت في نفسي هذه ليلة الرب، لابد أن هذا البدر هو وجه الرب الحزين. ان ليالي اورشليم المستقبل ستكون مثل هذه.

«حالما خطرت هذه الفكرة على بالي فاضت عيناى بالدمع. وتملكني الحزن والخوف، وصرخت «لقد أصبحت عجوزاً، فهل ساموت دون أن يكحل عيني مرأى المسيح؟»

«قفزت واقفاً على قدمي. ومرة أخرى تلبسني الحنق المقدس. فحللت حزامي وخلعت عني ملابسني، ووقفت. كما ولدتني أمي معرضاً لنظر الرب. أردته أن يرى كيف أتى شخت، وذبلت وصرت ارتعش كورقة في شجرة تين في الخريف، كساق مدلاة عارية من كل شيء، عدا عنقود من العنب نهيته العصافير. أردته أن يراني، ان يشفق عليّ، وأن يسرع في التصرف!

«وبينما كنت واقفاً هناك عارياً تماماً أمام الرب، شعرت بضوء القمر يحرق لحمي. لقد أصبحت كلي روحاً : مندمجة في الرب. سمعت صوته ليس من الخارج بل من داخلي، داخلي (ان صوت الرب الحقيقي يأتي من الداخل. سمعته يقول «يا شمعون، يا شمعون، لن أدعك تموت قبل أن ترى المسيح، وتسمعه، وتمسكه بيديك»

«هتفت «يارب، قل هذا ثانية!»

«يا شمعون، يا شمعون، لن أدعك تموت قبل أن ترى المسيح، وتسمعه، وتمسكه بيديك»

«وكم كان فرحي عظيماً، حتى كدت أفقد عقلي. وبدأت أرقص وأنا عار تماماً، تحت ضوء القمر، وأصفق بيدي وأضرب قدمي في الأرض، لا أدري أن كانت تلك الرقصعة قد دامت جزءاً من الثانية أم ألف عام، لكنني على أية حال اكتفيت في آخر الأمر - وجدت الراحة فارتديت ملابسني وعقدت حزامي، وانحدرت عائداً إلى الناصرة. وما أن رأيتني الديوك من مجاثمها عالياً فوق الأسطح حتى بدأت تصيح. وضحكت السماء، واستيقظت العصافير، وفتحت الأبواب وراحت تتمنى لي صباحاً طيباً. وكان كوخني المتداعي يسطع بالضياء من أسفله إلى أعلاه - الأبواب، والنوافذ وكل شيء: كان كله مرصعاً بالياقوت. الخشب، الصخور، النسر، الطيور: كلها أحست بالرب يحيط بي. حتى قائد المئة نفسه، بالرغم من كونه متعطشاً للدماء، سمرته الدهشة في مكانه. سألتني «مابك، أيها الحبر؟ أنك تضيء كالمشعل. انتبه، إياك أن تضرم النار في الناصرة»، لكنني لم أفه بكلمة: لم أكن أرغب في أن أدعه يدفعني إلى تلويث أنفاسي».

لقد أخفيت هذا السر تحت جلدي لسنين وسنين. كنت أستمع به وحدي، بغيرة وفخر - وانتظرت. أما اليوم، في هذا اليوم الأسود الذي شهد صليباً جديداً يسمر في قلوبنا، فلم أعد قادراً على صيانتته. انني أشفق على شعب إسرائيل، لذا أقضي اليكم بالخير البهيج: انه قادم، ولم يعد بعيداً، لعله توقف ليشرّب جرعة ماء من بئر قريبة، أو ليتناول كسرة خبز أخرج لتوه من التور. ولكن أينما يكون، فسوف يظهر - لأن هذا ماقاله الرب، وما يقوله الرب لا ينقضه: «يا سمعون، لن تموت قبل أن ترى المسيح، وتسمعه، وتمسكه بيديك»... أشعر يوماً بعد يوم أن قواي تخذلني، لكن سرعة نقادها تساوي سرعة اقتراب المخلص. انني في الخامسة

والثمانين من عمري، ولا يمكنه أن يتأخر أكثر من ذلك! هنا ففز رجل أصلع أحول العينين، ذو أنف مدبب ضامر، وكان أحدهم نسي أن يضيف الخميرة حين عجنه. قال مقاطعاً «ولكن ماذا لو أنك عشت ألف عام، يا أبت؟ ماذا لو أنك لم تمت قط؟ لقد رأينا هذا يحدث من قبل. ان حنوك^١ وإيليا^٢ لا يزالان حيين»، وتقلبت عيناه الصغيرتان العنيدتان بحركة سريعة مأكرة من طرف إلى طرف.

تظاهر الحبر بأنه لم يسمع، لكن كلمات الرجل الأحول الهاسّة كانت كالسكاكين تمزق قلبه. ثم رفع يده بحركة أمرة وقال «أريد أن أكون وحدي مع الرب. اذهبوا - جميعكم!» خلا المكان، وتفرق الجمع، وظل العجوز وحيداً. أوصد الباب المطل على الشارع واستغرق في تأمله، متكئاً على الجدار حيث رسم النبي حزقيال معلقاً في الهواء. قال في نفسه، انه نبي الرب، وقادر على كل شيء: انه يفعل مايشاء. أيمن أن يكون ذلك الوغد توما على حق؟ الويل لي اذا قرر الرب أن أعيش ألف عام واذا قرر أن أكون خالداً - اذن فالمسيح... هل ستنهب كل الآمال المعطية التي عقدها بنو إسرائيل أدراج الرياح؟ لقد حملت أرض اسرائيل كلمة الرب في رحمها على مدى آلاف السنين، تغذيها كما تغذي الأم بذرتها، لقد نهش لحمنا وعظامنا: ذبنا، وبقنا لا نعيش الا من أجل هذا الابن. لكن هذه السلالة استنفدت قواها، وبذرة ابراهيم تصرخ تبغي الخروج. حررها يارب، حررها بعد تأخر طويل! أنت الرب، ويمكنك أن تصبر - أما نحن فلا نستطيع. الرحمة!

١ - حنوك: ابن قايين (أو قابيل) ابن آدم عليه السلام.

٢ - إيليا: نبي عاش في القرن التاسع قبل الميلاد.

راح يقطع الكنيس جيئةً وذهاباً. وأخيراً انصرم النهار وأطفت
الظلال الرسومات وأبلمت حرقال. نظر الحبر العجوز الى أشباه
الظلال التي هبطت وأحاطت به، وإذا بكل ماراء وعاناه في حياته
يندفع فجأة للظهور في مخيلته، كم من مرة هرع يملؤه الشوق من
الجليل الى اورشليم، ثم من اورشليم الى الصحراء بحثاً عن
المسيح! لكن الصليب لم يكن يفشل في وضع حد لآماله وكان يعود
الى الناصرة يسريته الشعور بالخزي. أما اليوم...
وضغمت رأسه بين يديه.

غمغم برعب «لا، لا، لا، مستحيل»

لقد مرت عليه أيام طويلة وليال ورأسه يدمدم وكأنه يوشك أن
ينشط. وراوده أمل جديد، أمل أكبر من أن يستوعبه عقله - انه
جنون، شيطان يهشه ولكن تلك ليست المرة الأولى. هذا الجنون
يحضر بمخاليه عقله منذ سنين. كان يبعده عنه، وكان يعاوده. لكنه
لم يجبره قط على الظهور أثناء النهار، كان دائماً يأتيه في ظلمة
الليل، أو في أحلامه. أما اليوم، اليوم - قيامته عند الظهيرة، في
وضع النهار... أيكون هو المختار؟

انكأ على الجدار وأغمض عينيه. هاهو، يمر مرة أخرى من
أمامه يلهث، والصليب على ظهره، والهواء يرتعش من حوله، تماماً
كما يرتعش حول ملائكة الدرجة الأولى... انظروا ووقع بصره. لم يكن
الحبر العجوز قد رأى دهره كل هذا القدر من السماء بعيني إنسان
أيكون هو المختار؟ غمغم الحبر «رب، رب، لم تعذبني؟ لم لا تجيب؟»
كانت التنبؤات تتمزق كشمع البرق في مخيلته. في لحظة يمتلئ
رأسه العجوز بالضياء، وفي اللحظة التالية يغوص في الظلام فاقداً
كل أمل. انفتحت أحشائه وخرج منها الآباء الأجلاء. في داخله
ياشر شعبه، برجاله الأشداء المثابرين، المتخثرين بالجراح يقودهم

موسى، رؤوسهم مدججة بقرون ملتوية، انطلاقته من جديد في
رحلة أبدية من أرض العبودية الى أرض كنعان، ثم تتواصل الرحلة
من أرض كنعان الى اورشليم المستقبل. ولكن في المسيرة الحالية لم
يكن الأب الجليل موسى هو الذي يبيت الحماس في الزحف، وإنما
شخص آخر - ونيس عقل الحبر بقوة - آخر، يحمل صليباً على
كتفه.

وصل الى باب الدار بشقزة واحدة وفتحها. لمطمت الريح وجهه،
فاستنشقا بعمق. كلفت الشمس قد غربت، والظهور تعود الى
أعشاشها لتأوي الى النوم. وكانت الشوارع مملأ بالظلال، والأرض
تبرد - أوصد الباب ووسد المفتاح الثقيل تحت حزامه. خانته شجاعته
لبعض الوقت، لكنه فجأة عقد عزمه. وانطلق، خافض الرأس،
يبقي منزل مريم.

كانت مريم جالسة على كرسي بلا ظهر في الفناء الصغير
لمنزلها، تغزل. كان الضوء مايزال سائداً في الخارج؛ ان ضوء
الصيف ينسحب ببطء عن وجه الأرض وعلى مضض. وكان الرجال
والشيران عائدين من عملهم في الحقول؛ وزيات البيوت تضرم
مواقدها لاعداد وجبات العشاء؛ وقد عم عبق الخشب المحترق
هواء المساء. كانت مريم تغزل، وعقلها يبرم مع المغزل، تارة الى هذه
الجهة وطوراً الى تلك، وتضافرت ذاكرتها مع مخيلتها: تراهي لها
أن نصف حياتها حقيقة ونصفها الآخر خرافة. ان دوران المهام
اليومية الصغيرة متواصل منذ ستين عديدة، ومن ثم فجأة جاء
الطاووس المذهل - المعجزة - بدون دعوة، وظلل على وجودها المعبث
يجتاحه الطويلين الذهبيين.

«خذني أين تشاء، يا رب؛ افعل بي ما تشاء. أنت اخترت لي
زوجي، ومنحتني ولداً، وزودتني بعذابي. أمرتني أن أصرخ

فصخرخت، وأمرتني أن ألزم الصمت فلزمته. فمن أكون، يارب؟
قبضة من طين في يديك، تجيلني كهغما تشاء. أفعل ماتريد، انتي
لا التمس منك غير شيء واحد: رب، ارفق بولدي!

طارت حمامة وضأة البياض من سطح متابل، ورفرفت
بجناحيها برهة فوق رأسها ومن ثم حلت بفخامة على حصياء
الفناء وأخذت تسير بخطى منتظمة وتدور مراراً حول قدمي مريم.
وتفشرت ريشها، ثم التفتت، ونظرت الى مريم، ولمعت عيناها
المستديرتان وسط ضوء المساء كياقوتتين. نظرت اليها، وكلمتها.
قالت هي نفسها، لا بد أنها تريد أن تقضي اليّ بسر ما. أم، ليت
الحبر العجوز يأتي، انه عليم بلغة الطيور ويمكنه أن يفسر لي ...
نظرت الى الحمامة وشعرت بالشفقة عليها. تخلت عن مغزئها
وراحت تنادي على الطائر بصوت غاية في الرقة، ابتهجت الحمامة
وقفزت قفزة واحدة الى ركبتيها المضمومتين. وهناك، وكان سرها
كله انما كان ثوقها للوصول الى تلك الركبتين، جثمت، وضمت
جناحيها، وسكنت لا تاتي بحركة.

شعرت مريم بوزنها المريح وابتسمت. أم، ليت كان من الممكن أن
يهبط الرب دائماً على البشر بهذه الخفة! وبينما هي تفكر بهذا،
تذكرت ذاك الصباح الذي ارتقت فيه مع خطيبها يوسف قمة النبي
إيليا، الى جبل الكرمل الذي تقبّله السماء. أراد أن يناشد النبي
السريع الغضب كي يتوسط لهما عند الرب لكي يمنحهما ولداً، فإذا
حصل فانهما يكرسانه لخدمة النبي. وكانا يتويان أن يتزوجا في تلك
الليلة بالذات وكانا قد انطلقا قبيل الفجر ليتلقيا تبريك هذا النبي
العنيف الذي كانت متعته العظمى أن يحدث صاعقة. لم يكن يعكر
صفو السماء أية سحابة، كان فصل خريف جميل، كان النمل
البشري قد جمع محاصيله؛ والخمر الفطير يغلي في الجرار؛ والتين

يجف، وهو معلق على العوارض الخشبية. في ذلك الوقت كانت مريم
تبلغ الخامسة عشرة من العمر، وكان عريسها عجوزاً أشيب الشعر،
لكنه كان يمسك بيده عصا الارتكاز مقدراً لها أن تزهر.

وصلا الى القمة المقدسة عند منتصف الظهيرة، وركعا ولما
حجر الغرائيت الحاد، المطّخ بالدم، بأطراف أصابعهما وهما
يرتجفان. تطايرت شرارة من الصخر وجرحت يد مريم فتح يوسف
فمه لينادي على ساكن القمة العنيف، لكنه قبل أن يتمكن من اخراج
أي صوت اندفعت غيوم هابطة بغضب وهي تزار مثقلة بالبرد من
أعماق السماء وشكلت قسماً مدوماً فوق حجر الغرائيت الحاد. حين
اندفع يوسف بسرعة الى الأمام لكي يمسك بخطيبته ويأخذها الى
ملاجأ في أحد الكهوف، قذف الرب ومضاً مخيفاً من البرق،
فانطبقت السماء على الأرض ووقعت مريم الى الخلف مغمياً
عليها. وحين استعادت وعيها وفتحت عينيها نظرت حولها، فرأت
يوسف منبطحاً على الغرائيت الأسود - مشلولاً...

وضعت مريم يدها على الحمامة الجالسة على ركبتيها،
وأخذت تداعبها برفق لكي لا تخيفها. ثمتمت قائلة «لقد هبط
الرب بصورة وحشية على قمة الجبل وحدثي بنبرة فظة. فماذا
قال لي؟»

طلما استجوبها الخبر حول هذا الموضوع، وكان محتاراً بسبب
تكرار حدوث المعجزات معها.

كان يقول «حاولي أن تتذكري يا مريم. عادة هذه هي الطريقة
التي يحدث بها الرب أحياناً البشر - بواسطة الصاعقة. جاهدي
لتتذكري حتى تكشف ماهو مقدّر لابنك»

«لقد أرعدت يا ابنت، انتقض الرعد من السماء وكأنه عربة
يجرها ثور»

«وماذا جاء خلف الرعد يا مريم؟»
 «نعم، أنت على حق يا أبت. لقد تكلم الرب بعد مرور الرعد،
 لكني لم أتمكن من كشف كنه كلماته. سامحتي».
 جاهدت، وهي تداعب الحمامة، كي تستعيد ذكرى مشهد
 البرق بعد مرور ثلاثين سنة وكي تكشف عن معناها الخفي.
 أغمضت عينيها، وتحسست بباطن كفها جسم الحمامة
 الصغير الدافئ ونبض قلبها. وفجأة - دون أن تدري كيف حصل
 ذلك، ولا سببه - أصبحت الحمامة والرعد شيئاً واحداً، كانت واقفة
 من ذلك: نبضات القلب تلك وقصف الرعد - كلها كانت تمثل الرب
 أطلقت صيحة وقفزت واقفة من فرط رعبها. الآن، وللمرة الأولى،
 باتت قادرة على فهم مغزى الكلمات الكامنة خلف قصف الرعد
 الكامنة في هديل الحمامة : «سلام لك يا مريم... سلام لك يا
 مريم...»، لاشك بأن هذا ما هتفت به الرب «سلام لك يا مريم...»
 استدارت، فرأت زوجها مستنداً إلى الجدار، وما يزال يفتح فمه
 ويفلقه. ومع أن الظلام كان قد عمّ إلا أنه كان ما يزال يحاول بكل
 جهده. سارت نحو الباب، مارة من أمامه دون أن تكلمه. أرادت أن
 ترى إن كان ولدها قادمًا بالصدفة. كانت قد راقبته وهو يربط
 منديل الرجل المصلوب المطبخ بالدم حول شعره، وينحدر هابطاً
 الدرب نحو السهل، إلى أين ذهب؟ لماذا تأخر؟ هل سيبقى في
 الحقول مرة أخرى حتى بزوغ الفجر؟
 بينما كانت واقفة على عتبة الدار رأت الحبر المعجوز يقترب
 كان يلهث وهو يعيل بثقله على صولجانه. كانت خصلات شعره
 الأبيض عند صدغيه ترفرف في وجه نسيم المساء الذي بدأ يهب
 منحدرًا من جبل الكرمل.
 تتعنت مريم جانباً احتراماً، ودخل الحبر. أمسك بيد أخيه

وربت عليها، لكنه لم يكلمه - ماذا في وسعه أن يقول؟ إن عقله
 غائض في محنة شديدة. التفت إلى مريم.
 قال «عينك تلتمعان يا مريم. ما الأمر؟ هل جاءك الرب من
 جديد؟» قالت مريم. ولم يعد بإمكانها أن تكبح نفسها «أبت، لقد
 فهمت»
 «فهمت؟ ما الذي فهمته، باسم الرب؟»
 «الكلمات الكامنة خلف البرق»
 أجفل الحبر. ثم هتف، رافعاً عاليًا ذراعيه «يا رب إسرائيل ما
 أعظمك، هذا بالضبط ماجئت لأجله يا مريم، لكي أستجوبك من
 جديد. كما تعلمين، اليوم صلب أحد آمائنا، وقلبي...»
 كررت مريم «لقد فهمت يا أبت. فبينما كنت جالسة هذا المساء
 أغزل وأعيد التفكير في حادث البرق، أحسست بالبرق يبدأ داخلي
 وللمرة الأولى، وبعد خفوته سمعت صوتاً صافياً، واضحاً، صوت
 الرب يقول : «ليكن سلام لك يا مريم»
 تداعى الحبر متهاكاً على كرسي بلا ظهر. ضغط صدغيه بين
 يديه، واستغرق في التفكير. وبعد فترة طويلة من الوقت رفع رأسه.
 «لا شيء آخر يا مريم؟ غوصي أكثر داخلك فلعنك تسمعين».
 ربما يعتمد مصير إسرائيل على ما تقولين»
 حين سمعت مريم كلمات الحبر ارتعيت وأخذ صدرها يخفق،
 ومرة أخرى جهد عقلها ليكتشف المعنى الكامن خلف البرق.
 أخيراً، غمضت، وقد أجهدت «لا، لا يا أبت. لقد قال أكثر من
 هذا، أكثر بكثير، لكني لا أستطيع أن أسمع. إنني أجتهد في
 المحاولة قدر استطاعتي، لكني لا أسمع ما قال»
 وضع الحبر يده على قمة رأسها، فوق عينيها الكبيرتين.
 «صومي يا مريم وصلي، لا تشغتي تفكيرك في المهام اليومية.

أحياناً أرى حالة وضاعة كومض البرق تحيط بوجهك كله. ترى، أهو ضوء حقيقي؟ لا يمكنني التيقن. صومي، وصلي، وسوف تسمعين ان رسالة الرب تبدأ بمنته: «سلام لك يا مريم...». جاهدي كي تسمعي مايليه»

في محاولة لاختفاء فرحها الشديد توجهت مريم الى رف تضع عليه الأباريق. تناولت كوباً نحاسياً عن كلابه، وملأته بالماء البارد، وأحضرت معه أيضاً حفنة من الثمر، ومالت لتعطيها للعجوز. قال «لست جائعاً أو ظمآن يا مريم، شكراً لك. اجلسي، لدي ما أقوله لك».

أخذت مريم أخفض كرسي بلا ظهر، وجلست عند قدمي الحبر، وراحت تنتظر وهي تميل برأسها.

تفحص العجوز الكلمات كلمة فكلمة في عقله. ان مايعااول التعبير عنه صعب: انه أمل فائق الدقة ومراوغ وهو عاجز عن العثور على كلمات فائقة الدقة ومراوغة بشكل مناسب لكي يتجنب ان يحمل الأمل ثقلًا زائداً فيتحول الى يقين. انه لم يكن يرغب في أن يبيت الربيع في قلب الأم.

أخيراً قال «يا مريم، هناك سر يحوم خارج هذا المنزل، يشبه أسد الصحراء. انك لست كبقية النساء يا مريم. ألا تشعرين بهذا؟ غمغمت «لا، لا أشعر يا أبت، انني مثل كل النساء. أحب كل ماتهتم به النساء وتستمتع به. أحب أن أغسل، وأطبخ، وأن أذهب الى النبع لاحتضار الماء، وأن أثرت برمح مع الجارات، وأحب في الأمسيات أن أجلس عند مدخل داري وأراقب المارة، وقلبي، يا أبت، مثل قلوب كل النساء، مترع بالألم».

كرر الحبر بصوت وقور، رافعاً يده وكأنه يريد أن يمنع أي اعتراض على كلامه «أنت لست كبقية النساء يا مريم، واينك...»

هنا توقف الحبر عن المتابعة. كيف يجد الكلمات التي تعبر عن هذا، عن أصعب جزء من الأمر كله. رفع بصره الى السماوات وأخذ ينصت. بعض الطيور الكامنة في الأشجار تتأهب للأيواء الى النوم، والبعض الآخر للاستيقاظ. إن الدولاب يدور، ويغوص النهار تحت أقدام الانسان.

تهدد الحبر. ما أغرب اندفاع الأيام، ما أسرع مايتبع أحدها الآخر الفجر، الغسق، مرور الشمس، مرور قمر بعد قمر، الأولاد يصبحون رجالاً، والشعر الأسود يفدو أبيض. والبحر يأكل من اليابسة، والجبال تتعري - ومع ذلك فاليوم المنتظر لم يأت.

قالت مريم، بصوت يرتجف «ابني؟ أتقول ابني يا أبت؟»

أجاب الحبر بجساسة «انه ليس كبقية الأبناء يا مريم»

وزن كلماته مرة أخرى، ثم تابع بعد هنيهة «أحياناً يكون وحده أشاء الليل ويظن أن لا أحد يراقبه، يشع النور من كامل وجهه في الظلام. فليسامحني الرب يا مريم، ولكني أحدثت ثقباً صغيراً عالياً في الجدار، وأنا أصعد أراقبه من هناك، انني أستطلع سرّاً مايفعله. لماذا؟ لأنني - وأعترف بهذا - مضطرب الذهن تماماً، وعلمي لا يقدم لي أي عون: انني لا أملك من فتح الكتب المقدسة لكلي لا أفهم ماذا يكون أو من يكون. لذا تراني أراقبه سرّاً فأتبين في الظلام هذا النور الذي يلعبه ويلتهم وجهه. ولهذا فهو يزداد شحوباً يوماً بعد يوم ويذوي. ليس ذلك بسبب المرض، أو الصيام أو الصلاة، لا، بل بسبب التهام ذاك النور له»

تهددت مريم، وقالت في نفسها، ان الأسى هو نصيب الأم التي تحبل بابن يختلف عن كل الآخرين. لكنها لم تصرح بذلك هنا مال العجوز عليها وأخفض صوته، لقد كانت شفتاه تحترقان.

قال «سلام لك يا مريم، ان الرب قادر على كل شيء»، ان
«رأيت مريم، وقد يكون ابنك...»

اكن الأم البائسة أطلقت صرخة: «ارحميني يا ابنتي؟ لا، لا
واذا كان الرب قد دون ذلك، فليسمحه اريد ابني رجلاً كأي رجل
آخر. لا أكثر، ولا أقل. كأي رجل آخر... فليصنع أجراً، مهوداً،
مخاريت، وأواني منزلية كما كان يفعل والده، وليس كما يصنع الآن،
سلباً لصلب البشر. فليتزوج صبية جميلة من أسرة محترمة -
تملك ثلثة، فليعمل بالتجارة الحرة، ولينجب أطفالاً، عندئذ سوف
نخرج جميعاً كل يوم سبت للتنزه - الجدة، والأولاد والأحفاد...
وهكذا نعطى بأعجاب الجميع».

مال العجوز بثقله على صولجانه ونهض واقفاً. قال بعبدة «يا
مريم، لو أن الرب ينصت الى كل ماتقوله الأمهات لتعفننا جميعاً في
مستنقع الأمان والعيش الرغيد ... حين تنفردين بنفسك فكري بكل
ما تحدثنا به»

التفت الى أخيه لكي يلقي عليه تحية المساء. كان يوسف،
بعميقه الكامنتين تلوهما غشاوة ولسانه متدلياً الى الخارج، يحرق
في الفراغ، ويجاهد ليتكلم.

هزت مريم رأسها، قالت «إنه يكافح منذ الصباح وحتى الآن
لم يطلق مألديه»، ثم ذهبت اليه وبللت له قمه الملتوي الذي ينز
لعاباً.

ولكن حالما مد الخبر يده ليقول عمت مساماً لمريم أيضاً، فُتح
الباب بعنف وظهر الابن على العتبة، ووجهه يومض وسط الظلمة.
كان المنديل الملمع بالدم ملتصقاً بشعره، لكن الليل أخفى قطرات
الدمع الكبيرة التي كانت مازال تحفر طريقها على وجنتيه، والفبار
والدماء التي كانت تلوث قدميه.

اجتاز العتبة، وراح ينظر فيما حوله على عجل، فاكثرت رجود
أمه والخبر، وميز أيضاً، وسط الظلام، بالقرب من الجدار، عيني
والده الكامنتين.

همت مريم لتشعل المصباح، لكن الخبر منعها.
غمغم «انتظري، سوف أكلمه» ثم استحضر جراته وتقدم منه.
قال برفق، مخفضاً صوته حتى لا تسمعه الأم «يسوع، يسوع،
ولدي، الى متى ستظل تقاومه؟»

هنا اهتز الكوخ كله اهتزازة عنيفة حين قال «حتى الموت»
وفجأة، وكأنه استنقذ طاقته حتى آخرها، انهار ابن مريم على
الأرض وانكأ على الجدار يلتقط أنفاسه. أراد الخبر مرة أخرى أن
يحدثه، فمال عليه لكنه سرعان ما تراجع كمن أصيب بصدمة. لقد
شعر وكأنه اقترب من نار عظيمة فأحترقت وجهه، وقال في نفسه،
ان الرب يكتشفه من كل جانب، نعم الرب هو الذي يحيط به، ولا
يدع أحداً يقترب منه. الأفضل لي أن أرحل!

ورحل، غارقاً في التفكير. أغلق الباب، لكن مريم لم تجرؤ على
إنارة المصباح: ففي الظلام كان يكمن بانتظارها وحش كاسر. وقفت
في وسط البيت وأخذت تنصت الى قرقر زوجها اليأس والى ابنها
الذي انهار كالكومة على الأرض وهو يلهث من الرعب كمن يخشع.
ثمة من يخشعه. ولكن من هو؟ غرزت الأم التعمسة أظفارها في
وجنتيها وهي تسأل الرب سراراً، وتشكو، صارخة: «أنا أم، ألا
تشفق علي؟» ولكن مامن مجيب.

أثناء وقوفها هكذا، مسمرة، تنصت الى ارتعاشة كل شريان في
جسدها، سمعت صرخة انتصار وحشية. لقد انفكت عقدة لسان
الرجل المشلول وخرجت أخيراً الكلمة كاملة من فمه الملتوي، مقطعة
فمقطع، تتردد أصداءه في أرجاء المنزل. أبدو غاي! لكن حالما

لفظ العجوز هذه الكلمة غاص من فور، كقطعة من الرصاص ، في أعماق النوم.

شدت مريم من عزمها وأنارت المصباح. كان الطعام يغلي، فاقتربت من الموقد، ثم ركعت وكشفت غطاء القدر الخزفي لترى أن كان الطعام يحتاج الى المزيد من الماء، أو ربما الى ذرة ملح.

الفصل السادس

أضيئت السماء بلون أبيض مائل للزرقة. كانت الناصرة هاجعة تحلم، وكوكب نجم الصبح يقرع أجراس الوقت فوق مضاجعها وأشجار الليمون والتخيل ماتزال ملفعة بغلالة زرقاء وردية. الصمت عميق... لا يسمع حتى صياح الديك الأسود. فتح ابن مريم الباب. كانت تحيط بعينيها حلقتان زرقاوان داكنتان، لكن يده لم ترتعش. فتح الباب، ودون أن يقلقه ثانية، دون أن ينظر خلفه لالقاء نظرة على أمه أو أبيه، هجر منزل أبويه والى الأبد. خطا خطوتين، ثم ثلاثا، وتوقف. خيل اليه أنه سمع وقع خطوتين ثقيلتين تلاحقانه، تنظر خلفه: لا أحد. أحكم وضع الحزام الجلدي المدجج بالمسامير، وشد المنديل المبيع باللون الأحمر على شعره وراح يهبط الأزقة الضيقة المتعرجة. نبحه كلب بشرة حزينة، وشعر يوم باقتراب ضوء النهار فتملكه الفزع وطار بصمت مبتعداً ماراً من فوق رأسه. غادر على عجل مخلفاً وراءه الأبواب المرتجة وخرج الى الحدائق والبساتين. كانت العصافير تشدو بأول لحن لها. وفي حديقة أحد المطابخ كان رجل عجوز يقوم بعمله الروتيني، يدير عتلة فوق بئر تستخدم للري. لقد بدأ النهار. لم يكن يحمل حقيبة سفر، أو عصا أو يتعل خفاً، والطريق طويلة. سيتوجب عليه أن يجتاز قانا، وطبرية، ومجدلة وكفرناحوم، ثم يلتف

حول بحيرة جنيسارت ويلج الصحراء. فقد كان قد سمع أن ثمة ديراً هناك مخبئاً للناس البسطاء، الوريثين، هناك يرتدون جميعاً أردية بيضاء، ولا يأكلون اللحم، ولا يشربون الخمر، ولا يقربون النساء. لا يفعلون أي شيء غير عبادة الرب، هم ضليعون في علم الأعشاب ويعالجون أمراض الجسد بها، وضليعون أيضاً بأساليب سحرية يخلصون بها الروح من الشياطين، كم من مرة حدثت عنه الحبر، وهو لا يني يتشهد، عن هذا الدير المقدس! كان قد أمضى إحدى عشرة سنة هناك كراهب، يمتح بحمد الرب ويشفي الناس. ولكن وأسفاه! فقد قلب عليه شيطان الغواية ذات يوم (وطبعاً هو أيضاً قادر): رأى امرأة، فتخلي عن حياة القداسة، وخلع عنه غمارته البيضاء، وتزوج. وأنجب المجدلية. يستاهل مآثله! لقد أعطى الرب المرتد ما يستحقه...

غمغم ابن مريم، وهو يحث خطاه «سأذهب إلى هناك. وهناك، داخل الدير سأختبئ تحت أجنحته،»

ما أشد فرحه لهذا! كم مرّة عليه من وقت - منذ ربيع عمره الثاني عشر - وهو يتوق للتخلي عن بيته وأبيه، لنسيان الماضي، ليفر من نصائح أمه، ومن جوار أبيه ومن هموم العمل اليومي الحقةرة التي تقترب الروح، كم تاق إلى أن ينفذ الإنسان عن كاهله وكأنه طليقة من الغبار الكثيف ليهرب ويلجأ إلى الصحراء! واليوم - أخيراً - هاهو قد رمى كل شيء وراءه بحركة واحدة، وتحرر من نير الإنسان وتثبت جسداً وروحاً، بنير الرب، لقد تم له الخلاص!

فجأة أضاع وجهه الشاب، الترع بالمرارة، لعل مغالب الرب كانت طوال كل تلك السنين تثبت به لكي تعمل بالضبط على جره إلى حيث يتجه الآن بملء إرادته، متحرراً من المخالب. هل هذا يعني أن رغباته قد بدأت تتطابق مع رغبات الرب؟ أليس هذا هو أعظم واجبات الإنسان وأصعبها؟ أليس هذا هو معنى السعادة؟

شعر بارتياح في قلبه. لا مغالب يعد الآن، ولا صراع ولا صراخ. هذا الصباح عند الفجر زاره الرب مملوءاً بالحب، جاء كالنسيم الرقيق المنعش وقال له «هيا بنا»، وفتح له الباب، والآن - أي شعور لذيق المصالحة، أية سعادة تغمره! غمغم قائلاً «هذا كثير عليّ، سوف أشمع برأسي عالياً، وأرسل مزموه الخلاص «أنت مأواي وعلاذي، يا رب...». مستحيل حبس نبع الفرح في قلبه، انه يفيض. وتابع طريقه على ضوء الفجر الساحر، محاطاً بخير الرب الوافر - أشجار زيتون، كروم العنب، حقول القمح، ومزموه الفرح ينطلق من صلبه، يبغى أن يشق عنان السماء، ورفع رأسه عالياً وفتح فمه، لكن قلبه وخزه فجأة - لقد سمع بوضوح وقع قدسين تجريان خلفه، فأبطأ خطوه وزاح يرهف سمعه. أوقفت القدمان سيرهما، فهانهرت ركبتاه وتوقف. وتوقفت القدمان بدورهما.

همس بصوت مرتعش «أنا أعرف من تكون، أعرف...»

لكنه استجمع شجاعته وقام بدورة سريعة إلى الخلف لكي يقع بصره عليها قبل أن تتلاشى... لا أحد!

أصبح لون الجهة الشرقية من قبة السماء كرزياً داكناً. كانت سنابل القمح في كامل نضجها، والعديدان تحني رؤوسها في الجو الساكن الهواء تنتظر المنجل. لم يكن هناك أي شيء على السهل: لا حيوان، ولا إنسان، فقط في الناصرة، خلفه، توجد دلائل الحياة. كان الدخان قد بدأ يتصاعد من منزل أو اثنين. وكانت النسوة تستيقظ.

شعر بشيء من الطمأنينة، وقال في نفسه، من الأفضل أن لا أضيق الوقت، فلاندفع وبكل طاقتي وألتف إلى الجانب الآخر من ذلك التل، لأقمت من ملاحظتها، وانطلق يركض.

على الجانب الآخر من مكان وجوده كان طول عيدان القمح يصل حتى قامة الإنسان. هنا في هذا السهل من الجليل كان أصل

زراعة القمح، والكرمة أيضاً، والكرمة البرية ماتزال تنمو زاحفة على سفوح الجبال، وعن بعد حرقعت عرية يجرها ثور. وهزت الحمير نفسها وهي تنهض عن مرقدها على الأرض، وشمت الهواء، وهزت أذيالها وأخذت تنهق، وسمع صوت ضحك وثرثرة. ولعت المناجل المشحونة، وظهت بواذر الحصادات، رأتهم الشمس فسقطت على سواعدهم، وأعناقهم وذقونهم الجميلة. حين وقع نظره على ابن مريم عن بعد وهو يركض انفجروا يضحكون، ونادوا عليه، قائلين «أنت يا هذا، من تلاحق، أو من يلاحقك؟» لكنه حين اقترب منهم وتعرفوا عليه بشكل أفضل، عرفوا من يكون، فكفوا جميعاً عن هذرهم وانضموا بعضهم إلى بعض. وتهامسوا «صانع الصليبان! اللعنة عليه! بالأمس رأيت يصلب...» «انظروا إلى المنديل المدمى الذي يعصيه!» «إنه نصيبه من ملابس المصلوب. ليت دم الأبرياء يسقط على رأسه!»

وتابعوا على عجل مواصلة طريقهم، لكن الضحك كان الآن قد التصق في حناجرهم ولغهم الصمت. مر ابن مريم بهم وتجاوزهم، خلفهم وراءه، وغير حقول القمح ووصل إلى كروم العنب التي تغطي المنحدرات الانسيابية للجبل. وحين شاهد شجرة تين أخذ يبطئ في سيره ليحطف ورقة منها ويشمها. لقد كان يحب رائحة أوراق التين كثيراً؛ كانت تذكره برائحة تحت الأبط الانساني، حين كان صغيراً اعتاد أن يغمض عينيه ويشم رائحة الأوراق، وتخيل نفسه من جديد مضموماً إلى دفة صدر أمه، يرضع... لكنه حالما توقف ومد يده ليحطف الورقة، شعر بعرق بارد يتفصد من كل جسمه، وأيضاً كفت القدمان فجأة عن ملاحقته.

وكانتا تركضان خلفه، انتصب شعر رأسه حتى آخره، وجمدت ذراعه في الهواء، وأخذ ينظر فيما حوله، إنها العزلة، لاشيء غير الرب. كانت التربة رطبة، والأوراق تقطر ماءً، وفي تجويف إحدى الشجيرات كانت هناك فراشة تكافح لتتشر جناحيها الرطبين لتطير، وقرر قائلاً سأخرج، سأصرخ لأجد الراحة.

ما الذي كان يشعر به يغمره، كلما انفرد بنفسه فوق الجبل أو في السهل المقفر عند الظهيرة - أهو الفرح؟ أهو مرارة؟ أم هو، قبل أي شيء، خوف؟ كان دائماً يشعر أن الرب يكتشفه من كل جانب، فتطلق منه صرخة عنيفة، وكأنه يرغب بالقيام بمحاولة يائسة للهروب. أحياناً كان يصبح كما الديك، وتارة يعوي كابن أوى جائع، وحيناً يغدو ككلب ضرب بالسوط، لكنه الآن حالما فتح فمه ليطلق صرخة وقع بصره على فراشة تكافح لتتشر جناحيها ضمال عليها، ورفعها برفق ووضعها عالياً على إحدى أوراق شجرة التين، حين كانت الشمس قد بدأت تسطع عليها بقوة.

غمغم «أختاه، أختاه»، ونظر إليها بحنو.

وانطلق من جديد، مخلفاً وراءه الفراشة لتدق، وسرعان ما سمع صوت وقع قدمين مكتوم على التربة الرطبة، خلفه يبضع خطوات. في البدء، أول مغادرته للناصرة، كان صوته خافتاً جداً؛ كأنه قادم من مكان بعيد جداً، وشيئاً فشيئاً اكتسبت القدمان شجاعة وأخذتا تقتريان. قال ابن مريم في نفسه وهو يرتعش: ستدركانني بعد قليل، وغمغم «رب، آه يا ربي، أنعم علي بأن أصل إلى الدير بسرعة، قبل أن تثب علي»

في ذلك الوقت كانت الشمس قد غزت السهل، تسطع قوية على الطيور، والحيوانات، والبشر. وتصاعدت من التربة دمدمة غريبة المنشأ، وبدأ الماعز والخراف على سفوح الجبال بالتحرك وبدأ

الربعان بالنفخ في مزاميرهم : وأصبح العالم مروضاً ومتحضراً . وفي
... من لحظات ، وحالما يصل الى شجرة الحور الياسفة الشامخة
امامه الى اليسار ، سوف يشاهد قائنا ، القرية المرحلة التي كان مدلهأ
وعينها . وحين كان مايزال غلاماً لم تثبت لحيته . قبل أن يغفر الرب
مخالبه فيه . كم من مرة جاء هو وامه الى هنا لحضور الاحتفالات
المناسخية لكم من مرة شارك الآخرين في ابداء اعجابهم بالفتيات
اللاتي قدمن من كل القرى المجاورة وهن يرقصن تحت شجرة الحور
الياسفة هذه السريعة الانبات وتهتز الأرض السعيدة تحت وطأة
اقدامهن . ولكن ذات مرة ، حين كان في العشرين من عمره وقف ليلتقط
انفساه تحت شجرة الحور هذه ، وهو يحمل وردة بيده ...
ارتعش . فجأة رأى ذات الألف قبلة تمثل مرة أخرى امامه ،
تخنيش الشمس والقمر في صدرها ، واحداً الى اليمين ، والآخر الى
اليسار ، ويطلع النهار ويعل الليل من خلف صدر ثوبها الشفاف .
هتف « دعيني وشأني ، دعيني وشأني ا انتي مكرس للرب ، وأنا
في طريقى لمقابلته في الصعراء » وتابع سيره مسرعاً ، متجاوزاً
شجرة الحور . وفجأة برزت قائنا أمام ناظره : المنازل الواطئة
التربعة ، كلها مبيضة ، والأرصعة المربعة تجف ، يحف بها نبات ذهبي
متلائي من الزرة وثمار اليتطين الضخمة المتعددة تحت أشعة
الشمس . وفتيات صغيرات ، اقدامهن الحافية تتدلى من الحواف ،
يلقن ظفلاً احمر في خيط قطني ، لتزيين منازلهن .
غض بصره ، وانطلق متجاوزاً فخ الشيطان بأسرع ما أمكنه . لم
يكن يريد أن يرى أحداً أو أن يراه أي انسان . أصبح وقع القدمين
الحافيتين على حجارة رصف الطريق مسموعاً بوضوح ، هما أيضاً
كانتا تسرعان .
كانت الشمس قد ارتفعت ، وغطت وجه الأرض . وكان الحاصدون

يغنون بمرح وهم يلوحون بمناجلهم وحاصداً لهم . وسرعان ماغدت
الحفن ملء الأذرع ، ثم حمزاً ، ثم أكواماً تعلو في البيادر . وبينما ابن
مريم يتابع مسيره راح يتمنى على عجل حصداً طيباً لأصحاب
الأراضي ، قائلاً « فلتكبر كل منبلة حتى تملا كيساً »
غابت قائنا خلف كروم الزيتون ، وتجمعت ظلال الأشجار بالقرب
من جذورها ، فالوقت يقترب من منتصف الظهيرة . وبينما ابن مريم
يبتهج بكل مايحيط به ، وعقله لا يني بفكر بالرب ، ملأت فجأة رائحة
الخبز حديث النضج اللذيذة أنفه . وشعر فجأة بالجوع ، وعلى الاثر
توثب جسعه كله فرحاً . كم من مرة شعر بالجوع على مدى السنين الا
انه لم يمر قط بتجربة مثل هذا الاشتياق القدسي للخبز ! اما الآن ...
راح أنفه يشم الهواء . وتبع منبع الشذا ، فعبير خندقاً ، وتسلق
سياجاً ، وتوغل في كرمة عنب فاكتشف كوخاً صغيراً قابعاً تحت شجرة
زيتون مجوفة ، كان الدخان يتصاعد غير متعرج أثناء ارتفاعه عن
السطح القشي للكوخ . كانت هناك عجوز منحنية تعالج موقداً صغيراً
من الأجر قائماً عند مدخل الكوخ . كانت سريعة الحركة ، ذات أنف أشبه
بالسفود وعينين بلا رموش . وكان الى جوارها كلب أسود ومنقط بنقاط
صفراء . وقد وضع مخالبه الامامية على الفرن وفتح فماً واسعاً عميقاً
جائعاً مملوءاً بالأسنان . وحالما سمع صوت وقع اقدام في كرمة العنب
نبج وهجم على الدخيل . فالتفت العجوز وقد انتابتها الدهشة . حين
رأت الشاب ومضت عينها الصغيرتان . توقفت عن العمل وقد ابتهجت
لأن شاباً قطع عليها عزلتها ، والمجرفة الخشبية في يدها .
قالت « أهلاً بك . انت جائع؟ من اين قدومك ، بفضل الرب؟ »
« من الناصرة »
سألته ثانية ، وهي تضعك « الست جائعاً؟ إن منخريك يتحركان
كمنخري كلب »

«نعم ، أنا جائع ، سامحيني»

لكن المرأة العجوز كانت صماء فلم تسمعه .

قالت «ماذا ؟ ارفع صوتك»

«أنا جائع . سامحيني»

«أسامحك - لماذا ؟ ليس في الجوع ما يستدعي الخجل منه ، يا ولدي الرائع ، ولا في العطش ، ولا الحب . انها جميعاً من عند الرب . فاقرب ولا نخجل»

ضحكت ثانية ، كاشفة عن سننها الوحيدة الغالية عليها .

«ستجد عندي خبزاً وماءاً . أما الحب - فهو هناك أبعد ، في

مجدلة»

أمسكت برغيف كانت تضعه مع الآخرين على مقعد حجري بجوار الفرن : «انظر ، هذا الرغيف تخصصه لعابري السبيل في كل مرة تفرغ فيها الفرن . نسميه رأس الجندب . إنه ليس لي ، إنه لك . اقتطع شريحة وكلها»

عادت سكيبة ابن مريم ، جلس عند أسفل شجرة زيتون عتيقة وياشر الأكل . كم كان ذاك الخبز لذيذاً ، وكم الماء منعشاً ، وما ألد حبتي الزيتون اللتين أعطتهما العجوز ليتناولهما مع الخبز . كانت نواتهما صغيرتين وكانتا سميتين لحميتين كما التفاح راح بعضغ بهدوء ، ويأكل ، شاعراً أن جسمه وروحه قد اتحدا وأصبحا كياناً واحداً بحيث كانا يتلقيان الخبز ، والزيتون والماء بقم واحد ، ويتهجان معاً ، ويتغذيان .

انكأت العجوز على الفرن وراحت تملئ نظرها من الشاب اعجاباً . قالت وهي تضحك «لقد كنت جائعاً دون شك . كل . أنت شاب ، ولا تزال الطريق أمامك طويلة ، ولا نهاية للمستاعب . كل . تزود بالطاقة لتتمكن من التحمل»

قطعت جانباً من رغيف آخر وأعطته حبتي زيتون أخريين . انزلق منديلها عن رأسها ، كاشفاً عن فروة رأس تصلع ، فسارعت الى اعادة شدّه .

سألته «الى أين أنت ذاهب ، بفضل الرب؟»

«الى الصحراء»

«أين ؟ ارفع صوتك؟»

«الى الصحراء»

لوت العجوز ضمها الأذرد ، أصبح التعبير في عينيها ضارياً ، وصرخت بغضب غير متوقع «الى الديرة لماذا ؟ أي عمل لديك هناك ؟ ألا تشفق على شبابلك؟»

ثم يجب . حرزت العجوز رأسها الأصلع وهست كالأفعى . وسالت ساخرة «تريد أن تبحث عن الرب ، اليس كذلك؟»

قال الشاب ، وكان صوته رهيقاً جداً «نعم»

رفست العجوز الكلب الذي كان ملتصقاً بساقيهما الشبيهتين بقصبتين ، واقتربت من الشاب .

صرخت «أووو ، أيها الشيطان التعس ، ألا تعلم أن الرب لا يوجد في الأديرة بل في منازل البشر؟ انك حيثما تجد زوجاً وزوجة ، تجد هناك الرب ، حيثما يوجد الأطفال والهجوم الصغيرة والطبخ والمناقشات والمصالحات ، يوجد أيضاً الرب . لا تنصت الى أولئك الخصيان ، انهم غيب حامض . الرب الذي أعنيه هو الأليف ، وليس الديري : هذا هو الرب الحقيقي . انه هو الجدير بعبادتك . دع الرب الآخر لأولئك البلهاء الكسالي ، العقيمين القابعين في الصحراء»

كانت العجوز كلما استطردت في كلامها ازداد غضبها . تكلمت وصرخت ، وراحت تهدد بالانتقام ، ثم هدأت .

قالت ، وهي تلمس كتف الشاب «اعذرني يا ولدي الشجاع . لقد

كان لي ولد، ولد رائع مثلك. وذات صباح فقد صوابه، فتفتح باب الدار وخرج يبغي الدبر في الصحراء الى الشاقيين - اللعنة عليهم، ليتهم لا يتوصلون الى شفاء أي انسان طوال حياتهم! حسن، لقد فقدته، وها انا الآن املأ القرن واخرغه - ولكن لأطعم من؟ أطفالتي؟ أم احفادي؟ انني شجرة ذاوية، عقيمة»

سكنت برهة لتمسح عينيها، ومن ثم باشرت من جديد تقول «من سنين وأنا ارفع يدي وابتهل الى الرب، وأصرخ «لماذا ولدت لقد كان لي ابن واحد، فلم حرمته منه؟ صرخت، ولكن مامن مستمع! مرة واحدة فقط رايت أبواب السماء تنفتح. حدث ذلك عند منتصف الليل، فوق قمة جبل النبي ايليا، سمعت صوتاً هادراً يقول «اصرخي حتى يبع صوتك، لن أهتم»، ثم أغلقت أبواب السماء من جديد، وكان ذلك آخر عهدي بالابتهال الى الرب»

نهض ابن مريم واقفاً، ومد يده ليودع المرأة العجوز، لكنها سحبت يديها. ومرة أخرى أخذت تهسّ كما لأففى «اذن فبغيتك الصحراء! أنت أيضاً شهيتك مفتوحة لسفّ الرمال، أليس كذلك؟ ولكن ليست لك عينا، يا ولدي الرائع! لا ترى كروم العنب، والشمس، والنساء؟ هيا، اسرع كلامي، هيا الى مجدلة هناك مكانك الصحيح! ألم تقرأ مرة الكتب المقدسة. الرب يقول «لا أريد صوماً وصلاة. أريد لحماء»، بعبارة أخرى، انه يريد منك أن تتجلب له أطفالاً».

قال الشاب «وداعاً، فليكا فثك الرب على الخبز الذي أطعمتني» قالت العجوز، وقد هدأت ثورتها «فليكا فثك الرب أنت أيضاً، ليكا فثك على الخبث الذي قدمته لي، فلم يتوقف انسان على باب كوخى المتداعي منذ سنين، فإذا ما مرّ أحدهم، كان دائماً عجوزاً...» مشى عائداً عبر كرم العنب، وقفز فوق السياج فأصبح على الدرب الرئيسية.

غمغم «لا أحمل رؤية البشر، لا أريد أن أراهم، حتى الخبز الذي يمنحونك اياه مسموم. ليس هنالك غير درب واحد يؤدي الى الرب: الدرب الذي اخترته هذا اليوم. انه يمر من خلال الناس دون أن يلعبهم، ويدخل الى قلب الصحراء. أه، متى أصل؟»

لم يكن صدى كلماته قد تلاشى بعد حين فرقع ضحك خلفه. استدار، وقد تملكه الذهول. توتر الجو بضحك دون قم، ضحك هاس، موسوم بالحق، والغل.

أقلت من حنجرته المتقلصة صرخة «أدونايا! أدونايا». انتصب شعر رأسه حتى آخره، وراح يحرق في الفراغ، ثم انطلق، في طرفة من الذعر المفرط، يركض، وعلى الفور سمع وقع خطى القدمين الحافيتين اللتين كانتا تلاحقانه.

غمغم «لا يهم أين هما، فسرعان ما ستلحقا بي، لا يهم أين هما فسرعان ما ستلحقا بي» وهو يركض.

كانت التمسوة ماتزال تحصد، والرجال يحملون الحزم الى البليدار. وكان آخرون، على مسافة أبعد، قد بدأوا يذرون. كان النسيم الذهبي يلتقط التبن وينثره على الأرض في شكل غبار ذهبي. تاركاً الحنطة الثقيلة تتراكم على البليدار. وكان عابروا السبيل يأخذون حفنة من القمح، ويتكلمونه ويتمنون لأصحاب الأراضى أن يحظوا بحصاد مماثل في الموسم القادم.

هاهي طبرية، المعبودة، قائمة بين تلتين على البعد، مهيبية، حديثة البناء، ملأى بالنصب، والمسارح ورسوم النساء. ملأ مرأها ابن مريم بالرجب. ذات مرة، حين كان ما يزال طفلاً، قدم مع عمه الحبر الى هنا، وكان هذا الأخير استدعي ليخلص سيدة رومانية كريمة الأصل من شياطينها. كان واضعاً أن الشيطان الذي تلبسها كان شيطان الحفام، فقد كات تندفع الى الشوارع وهي عارية تماماً وتهاجم المرأة.

دخل الحبر وابن أخيه إلى قصرها في الوقت الذي كانت السيدة معسوسة مرة أخرى بشياطينها. كانت هائجة راضية تبغي باب الخروج إلى الشارع، والخدم يجذون في إثرها. مد الحبر عصاه وأوقفها، لكنها حالما رأت الصبي، وثبت عليه، فصرخ ابن مريم وفقد وعيه. ومثل ذلك الحين كلما تذكر ذلك المكان المشين تأخذه الرعدة. كان الحبر يقول له «إن الرب صلبٌ لعنته على المدينة. حين تمر من هذا الطريق، أسرع خطاك، وغض بصرك إلى الأرض وركز تفكيرك في الموت، أو ارفع بصرك إلى السماء وركز تفكيرك في الرب. وإذا أردت أن تحظى ببركتي، فكلما رملت إلى كفرناحوم، اتخذ دبراً آخر».

هاهي الفاجرة الآن تضعك في وضع النهار، يتدفق الناس داخلين خارجين من بواباتها، راجلين وعلى ظهور الخيل، والأعلام التي تحمل شعار التمرد الراسين ترفرف فوق أبراجها، والأسلحة البرونزية تلمع. وذات مرة شاهد ابن مريم جيقة فرس متعددة وسط مستنقع أخضر خارج الناصرة. كانت قد انتفخت، وقد شد الجلد ومُط وأصبح كالطيل. وكانت حشود السرطانات وخنائس الروث كأنها في استعراض، تدخل وتخرج من جوفها المفتوح، المملوء بالأحشاء والقذارة، وحوّمت سحابة من ذباب الخيل الضخم بلونيه الذهبي والأخضر وملا طينته الجو، وأقع غرابان متقاربهما الحادين في العينين الكبيرتين تحت الرموش الطويلة مباشرة واستغرقا في المص. كانت الجيقة عتالفة، بدت، وقد كثر ساكنوها، وكأنها عادت إلى الحياة: كنت تحسب أنها تتدحرج مبتهجة على العشب الربيعي، راضية تماماً، وحوافرها المنتعلة الأربعة ممدودة نحو السماء.

غمغم ابن مريم. وهو عاجز عن إبعاد عينيه عن المدينة البراقة «كذلك هي مثل جيقة الفرس - كذلك هي طيرية. وكذلك هي

أيضاً سدوم وعمورة، وكذا هي روح الانسان الآئمة» عزّ به عجوز نشيط، ما يزال يحتفظ بعافيته، يمتطي متن حمار. ورأى اليسوع فتوقف.

سأله «لأم تنظر مشدوهاً، يا فتى؟ ألا تعرفها؟ إنها أميرتنا الجديدة: طبرية المومس. يمتطيها يونانيسون، ورومان، وبدو، وكلدانيون، وغجر ويهود، وهي دائماً مستعدة لاستقبال المزيد. هي دائماً مستعدة للمزيد - أسمع ما أقول؟ اثنان واثنان يساوي أربعة! أخذ مقدار حفنة من الجوز من عدل خرج واستضاف بها يسوع قائلاً «تبدو شاباً رائعاً مستقيماً وفقيراً. خذ هذه لتأكلها أثناء المسير ولا تنس أن تقول، بارك يا رب العجوز زبدي من كفرناحوم».

كانت لحيته المدببة بيضاء تماماً، وشفتاه غليظتين تلمعان عن الشر، وكان عنقه قصيراً ضخماً وأسود اللون، وعيناه سريعتي الحركة ضاربة النظرة. هذا الجسد القصير الضخم قد نال حظه من الطعام والشراب والقبل بوفرة، ولا يزال أبعد ما يكون عن الشبع!

اقترب منهما عملاق عظيم كثر الشعر. كان قميصه مفتوحاً كله من الأمام، وركبته عاريتين، ويمسك بيده عصا راع معقوفة ثوقف، وهو في هياج تام، ودون أن يحي الرجل العجوز التفت إلى ابن مريم «لا أظن أن سيادتكم هو ابن التجار، من الناصرة؟ لا أظنك الشخص الذي يصنع الصليبان ويصلبنا؟»

كانت هناك امرأتان عجوزتان تحصدان في الحقل المقابل وسمعنا الحديث فاقتربتا.

قال ابن مريم «أنا... أنا...»، وتحرك لينصرف. صرخ العملاق «أو تظن أنك ستصرف؟»، وقبض عليه من ذراعه «لن تفلت مني بهذه السهولة يا صانع الصليبان، يا خائن - سأقتلك»

لكن العجوز المملئ حيوية قبض على عصا الراعي وانتزعها

من يده.

قال «على رسلك يا فليب، وانصت الى رأي رجل عجوز. هل لك ان تجيب عن هذا السؤال: ألا ترى أن كل ما يجري في هذا العالم يتم بإرادة الرب؟»

«نعم، يا زيدي، كل شيء»

«حسن، إذن : إرادة الرب شامت أن يصنع هذا الانسان صليباناً، هدفه وشأنه والحكيم من يتبع هذه النصيحة : من الأفضل عدم التدخل في شؤون الرب. اثنان واثنان يساوي أربعة»

في تلك الأثناء كان ابن مريم قد تخلص من كلائي الرجل الحلف وانطلق يركض. وهرعت الحاصدتان العجوزان في اثره فسرخان، وتهزان عصايتهما بحركة هستيرية.

قال العملاق «هيا بنا معاً يا زيدي نغسل أيدينا، لأنها لمست سنان الصليبان، هيا بنا نغسل فمينا أيضاً، لأننا تحدثنا معه»

قال العجوز «لا تقلق، وهيا بنا من هنا، هيا، رافقتي - انني في عجلة من أمري. ولداي غائبان. واحد ذهب الى الفاصرة ليشهد الصلب، أو هذا ما قاله، ويبدو أن الآخر رحل الى الصحراء ليصبح قديساً. وهما أنا ذا وحيد مع قوارب صيدي هيا، ساعدني في جذب الشباك، لعلها تكون الآن قد امتلأت بالسماك، سوف أعطيك منه ملء مقلاة»

وانطلقا. كان مزاج العجوز مرحاً، فقال وهو يضحك «يا إلهي، تصور الحيرة التي لابد أن الرب المسكين يمر بها بدوره. لاشك أنه نورط في خلق العالم. ان السمك يصرخ، لا تعمني يا رب، لا تجعلني أدخل الشباك! ويصرخ الصياد، اعم السمك يا رب، اجعله يلج الشباك! فالى أي منهما يجب أن ينصت؟ أحياناً يلبي طلب السمك، وطوراً يلبي رغبة الصياد - بهذه الطريقة يسير العالم»

في تلك الأثناء كان ابن مريم قد سلك الدرب الضيق المنحدر لكي يتجنب المرور بمجدلة. لم يكن يريد أن يتلوث بهذه القرية الجبيلة الفاتحة، المفتحة، ولكن الخيطة الهاجعة بين أشجار النخيل عند تقاطع طرق الثروات التي تمر فيها القوافل نهاراً وليلاً، بعضها قادم من أرض الفرات أو من الجزيرة العربية، متوجهاً الى البحر العظيم، وبعضها الآخر قادم من دمشق أو من فينيقية، وجهته الحوض الأخضر الزاهي للنيل. وعند مدخل القرية ثمة بئر مياهها باردة، رُسمت على حافتها صورة امرأة بصدر عار، تبتسم للتجار، أو، لو يهرب، لو يغير دريه، لو يختصر المسافة الى البحيرة ويصل الى الصحراء! فهناك، في بئر جافة يجلس الرب، بانتظاره.

عمر ذكر الرب قلبه، فحث خطاه. رافت الشمس أخيراً بالفتيات اللواتي كن يقمن بالحصاد، وبدأت تقرب. وأصبح الهواء أكثر برودة. وتمددت الحاصدات على ظهورهن على أكداس التبن ليلتقطن أنفاسهن ويلقن نكتة أو أكثر غير محتشمة لينشطن أذهانهن. كانت أجسادهن تضطرم بالحرارة، بعد نهار طويل من العمل والتعرق تحت أشعة الشمس بصدور مكشوفة، جنباً الى جنب مع الرجال الذين كانوا يتقصدون عرقاً بدورهم. كانت الحرارة تضطرم في أجسادهم، والآن، وبمساعدة النكات والضحك، بردت. سمع ابن مريم ضحكهم ومعاكساتهم، فاحمر وجهه خجلاً، وزاح يجبر أفكاره، ومدفوعاً بلهفته للوقت الذي يغيب فيه عن سمعه أي صوت بشري، لاتخاذ منحى آخر. وبدأ يقلب التفكير في كلمات فليب، الراعي الصغاب.

تتم وهو يتهد «لا أحد يدرك مدى معاناتي، ولا أحد يفهم لماذا أصنع الصليبان أو مع من أنصارع»
أمام أحد الأكواخ وقف مزارعان ينفضان طبقة من غبار التبن

الناعم عن لحيتهما وشعرهما، ويفسلان. لا يد انهما أخان. وكانت
أههما العجوز تمد وجبة عشاء أبيهما على الرف الصخري المجاور
للنور. كانت الذرة تشوى على الفحم المشتعل، والشذا يملأ الجو.
راى المزارعان ابن مريم، وكان مرهقاً والغبار يغطيها، فأنشفا
عليه.

هنا «هيه أنت، الى أين تركض. يبدو أنك قادم من مكان بعيد
جداً، لكلك لا تحمل كيساً. توقف قليلاً وانضم إلينا وتناول لقمة»
قالت الأم «ولنأكل بعض الذرة أيضاً»
«واشرب قليلاً من الخمر لتعيد النضارة الى وجنتيك»
أجاب ابن ريم، متابعاً طريقه «لست جائعاً، ولا أحتاج الى أي
شيء، شكراً لكم». وكان يقول في نفسه انهم حالما يكتشفون من أنا
سيشعرون بالخزي لأنهم لمسوني وتحدثوا إلي.
ناداه أحد الأخوين «ثلاثة هتافات لحماقتك، نعتقد أننا لا نليق
بك، أليس كذلك؟»

كاد يسوع أن يجيب قائلاً، أنا صانع الصليبان، لكن الجبن غلبه،
فأطرق رأسه، وواصل سيره.

هبط المساء كما السيف، وقبل أن يتاح الوقت لللال أن تتوهج
باللون الأحمر الوردي تحول لون التربة الى الأرجواني ومن ثم تحول
مباشرة الى الأسود، ونور الشمس الذي كان قد صعد الى قمم
الأشجار، قفز الى غنان السماء ومن ثم اختفى، أدركت الظلمة ابن
مريم فوق قمة أحد التلال، حيث ضربت شجرة أرز معثرة
جنورها، وعلى الرغم من سوط الرياح لها وتغذيتها على الدوام،
فإنها ظلت صامدة: لقد حفرت جذورها في الصخر. كان شذا
القمح والخشب المحروق ينبعث من السهل، ومن الأكواخ المبعثرة
ارتفع دخان اعداد وجبة العشاء.

كان ابن مريم جائعاً وطمأنناً. وأحس لوهلة أنه يحسد أولئك
العمال الذين أنهوا عمل يومهم، وعادوا الى أكواخهم متعبين حتى
الارهاق وجائعين، ورأى عن بعد النار المشتعلة، والدخان المنبعث
وزوجاتهم تعد لهم العشاء.

أحس فجة بأنه أشد عزلة حتى من الثعالب واليوم، فهذه على
الأهل لديها عش أو وجار ومخلوقات حبيبة دافئة بانتظارها. أما
هو فليس له أحد ولا حتى أمه. جلس القرفصاء عند أسفل شجرة
الأرز وتكوّر كما الكرة، وكان يرتعش.

غمغم «شكراً لك يا رب على كل شيء، على العزلة، والجوع،
والبرد. لم يعد ينقصني شيء»

الا انه حالما قال هذا بدا وكأنه يشعر بالظلم الذي ارتكب في
حقه. وراح يتلفت فيما حوله كحيوان وقع في الفخ، وأخذ صدغاه
يقرعان غضباً وخوفاً. نهض متكئاً على ركبتيه وثبت بصره على
الدرب المظلم. لازال بالامكان سماع وقع خطى القدمين الحافيتين.
انهما تزيجان الحجارة وترتقيان التل. وأخيراً وصلتا الى القمة وإذا
بابن مريم، لا ارادياً - حتى أنه هو نفسه أجفل لدى سماعه صوته -
يصرخ بقوة «اقتربي، يا سيدتي. لا تختبئي. الوقت ليل الآن، ولا
أحد سيراك. اكشفي عن نفسك»
حبس أنفاسه وانتظر.

لم يجب أي مخلوق. لم يسمع غير الأصوات الليلية الأبدية
ترجع بعيدة، وهدوء، في الجو: صرير الجنادب، وتهدد طيور الصنوع، ومن مسافة بعيدة نبحت كلاب اكتشفت في
الظلام أشياء لا يراها الناس... واشرب برأسه الى الأمام. كان
متيقناً من أن ثمة شخصاً يقف تحت شجرة الأرز، أمامه مباشرة.
هنا همس بصوت خفيض، متضرع، محاولاً استدراج الشخص

الخفي لتكلم «سيدتي ... سيدتي». انتظر. كان قد كف عن الارتجاف، وبدأ العرق يتصبب من تحت ابطيه ومن حاجبيه. حديق، وأرهف سمعه. خيل اليه لبرهة من الزمن أنه سمع مرة أخرى رنين ضحكة، خارجة بهدوء من قلب الظلمة، وخلال برهة أخرى خيل اليه أنه رأى الهواء يدوم، ومن ثم يتكثف ويصير جسداً ما ان اتخذ شكلاً حتى عاد فتلاشى واختفى.

جاهد ابن مريم، وقد أذواه الجهد الذي يبذله، لينفذ أكثر داخل الظلمة. الآن لم يعد يصرخ، ولا يتضرع، بل ظل ببساطة راکماً ورأسه مشرب تحت شجرة الأرز، ينتظر، وينوب...

جرحت الصخور ركبتيه، فغيّر من وضعه، استند الى جذع شجرة الأرز وأغمض عينيه ومن ثم، ودون أن يفقد سكينته أو أن تلبث منه صرخة، رآها - داخل عينيه، لكنها لم تأت بالطريقة التي توقعها. لقد كان يتوقع أن يرى أمه المحرومة من ولدها وقد وضعت كلتا يديها على رأسها تنزل لعنتها عليه. أما الآن فقد فتح عينيه بالتدريج، وكان يرتجف. وأمام ناظره راح يسلم جسد همجي لامرأة مغطاة من رأسها الى قدميها بدرع مصفح معشق سميك من البرونز. لكن الرأس لم يكن رأساً إنسانياً، كان رأس نسر، ذا عيين صفراوين ومنقار معقوف يقبض على لقمة من اللحم، كانت تلقي على ابن مريم نظرة ثابتة، لا رحمة فيها.

غمغم «لم تتبدي كسا توقعتك. أنت لمت الأم... ارحميني وقولي لي. من أنت؟»

سألها، وانتظر، وكرر السؤال. لاشيء. لاشيء غير البريق الأسفر للعيتين المستديرتين وسط الظلام.

لكن فجأة فهم ابن مريم.

هتف «إنها اللعنة»، وانطرح منبطحاً على الأرض.

الفصل السابع

أرسلت السماوات لألها من فوقه. بينما في الأسفل جرحته الأرض بحجارتها وأشواكها. مدّ ذراعيه، وجاهد بقوة وأنّ كان الأرض بكاملها غدت صليباً صلباً عليه.

مرّ الظلام من فوقه مع مرافقيه الضخام منهم والصغار - من نجوم الليل وطيوّره، والكلاب الخاضعة للانسان راحت تتيج من كل حذب وصوب على البيادر، تحرس ثروات سادتها، كان الجو يارداً، وأخذ يسوع يرتجف. غلبه النوم بعض الوقت وصحبه في نومه بهيجة الى أراض دافئة، نائية لكنه عاد من جديد ورمى به مباشرة الى الأرض، فوق الحجارة.

قرباية منتصف الليل سمع رنين أجراس مرحة مارة من أسفل التل، وخلف الأجراس صدحت أغنية حزينة يشدو بها حادي جمل. وسمع صدى محاذثة، وشخصاً يطلق تهديده بصوت امرأة واضح رشيق، انبثقت من قلب الليل، لكن سرعان ما ساد الصمت الدرب من جديد... وإذا بالمجدلية تمر من أمامه غي منتصف الليل، وهي على متن جمل ذي سرج ذهبي، وجهها مخدّن من طول البكاء، وقد

وبات المساحيق على وجنتيها الى طين، اذ لما وصل التجار
المسرون من جهات الدنيا الاربعة، فلم يجدوها عند البئر ولا في
منازلها، اختاروا الجمل ذا الطقم الافخم، والموشى أكثر بالذهب،
وارسلوه مع سائق لجلبها بأقصى سرعة، لقد كانت طريقهم طويلة
ومحفوفة بالمخاطر، لكنهم كانوا يملكون أنفسهم بجسد
مبارهم في مجادلة، فتقوّر فيهم القوة، لكنهم لم يجدوه، لذا بعثوا
بديلتهم واصطفوا في فناء بيت المجادلة، وهم جالسون الآن هناك
مضني العيون، ينتظرون.

شيئاً فشيئاً خفت رنين الأجراس وسط الليل، وأصبح أكثر
عدوية. بات ابن مريم يسمعه الآن وكأنه رنين ضحك رقيق، وكأنه
بواكير ماء مخرخر تندفع بقوة الى بستان عميق وتنادى اسمه
بدلال، وهكذا عاد ينزلق برهق، وهو يتابع الرنين المغوي لأجراس
الجمل، عائداً الى النوم.

ورأى حلماً، تهباً له العالم مرجاً أخضر، تغطيه الأزاهير،
والرب متمثل في شكل فتى راع زيقوني البشرة له قرنان ملتويان،
حديثاً النمو ولازلاً رقيقين، جالس بالقرب من حوض ماء يعزف
على مزماره. ولم يكن قد سبق لابن مريم أن سمع مرة في حياته
مثل ذلك العزف العذب، الساحر، وبينما تابع الرب المتمثل في
الفتى الراعي عزفه كانت كل حفنة من التراب ترتعش وتتشبي،
وتتكور، وتذب فيها الحياة، وفجأة امتلأ المرج بالغزلان الجميلة ذات
القرون المشعبة الشبيهة بالأكاليل. مال الرب ونظر في الماء، فامتلاً
الحوض بالسماك، ورفع بصره الى الأشجار، فإذا بلون أوراقها
يتبدل، وتحولت الى عصافير تغرد، واستجمع قوته، فأصبح عزف
المازف أقوى، وظهرت حشرتان ضخمتان بحجم الانسان من تحت
الأرض على الفور وأخذتا تعانقان على العشب الربيعي. راحتا

تتدحرجان في طول المرج وعرضه، تجتمعان، وتفترقان، وتجتمعان
من جديد، وهما تضاحكان بلا احتشام، وتهزآن من الفتى الراعي،
وتسدران هسيساً. أنزل الفتى المزمار وأخذ يتأمل الحشرتين
الوقحتين البهيتتين، وفجأة نفذ صبره، وبضربة واحدة هشم
مزماره تحت عقبه، وعلى الفور اختفت الغزلان، والعصافير،
والأشجار، والمياه والرجل والمرأة اللتصقان.

أطلق ابن مريم صرخة واستمق من نومه، ولكن ليس قبل أن
تلح عينه، عند لحظة الاستيقاظ بالضبط، جسدي الرجل والمرأة
الملتصقين يفوصان مندفعين خلال الباب الخفي المظلم لأحشائه،
فانتفض واقفاً على قدميه من الرب.

«أذن، فهذا هو الوحل الكامن داخلي، هذه هي القذاراة
حلّ الحزام الجلدي المرصع بالمسامير وبدأ يدوس على الملابس
التي كان يرتديها بقدمه، ودون أن يتكلم بدأ يجلد فخذه وظهره
ووجهه، وانجس الدم وتطاير عليه. تحمسه فشمع بالارتياح.
طلع الفجر... خفت بريق النجوم، ووخزت الرياح الصقيعية
عظامه. كانت شجرة الأرز التي تطله مزدخمة بالألحجة وبالفناء.
تلفت فيما حوله، الفضاء خال، وعلى ضوء النهار تراءت من جديد
اللعة ذات رأس النسر البرونزي.

قال في نفسه، يجب أن أرحل، يجب أن أهرب، يجب أن لا أظا
أرض مجادلة - اللعة على المكان ولن أتوقف حتى أصل الى الصحراء
وأدهن نفسي في الدبر، هناك سوف أقتل لحمي وأحوّله الى روح.
وضع كفه على جذع الشجرة المعترّة العتيق وداعبه. شعر بروح
الشجرة ترتفع من جذورها وتتوزع على أعلى وأرقّ غصين.
تعمت «وداعاً يا اختاء. ليلة أمس جلبت العار على نفسي تحت
ظلالك. سامحيني»

تتدلى نحو الأسفل حتى تصل إلى الأرض. وحيث الفتيات اللواتي
يعصبن المنايل البيضاء وهن بصحبة عجولهن المكتنزة التي لوحتها
الشمس بعنوبة: شالوم! السلام عليكم!

أحياناً - حين لا يلوح مخلوق على الدرب، كان يسمع وقع خطى
ثقيلة خلفه من جديد، ويسطع نور برونزي في الفضاء ومن ثم
يختفي، ويضرق الضحك الشرير مرة أخرى فوق رأسه. لكن ابن
مريم أجبر نفسه على الصبر، هاهو يقترب من الانعقاد، قريباً
سيهري البحيرة قبائله، وخلف المياه الزرقاء، ينتصب الدير معلقاً
كعش الباز بين الصخور الحمراء.

تبع الدرب وفكره يتقدمه، لكنه توقف فجأة مجفلاً هامى
مجدلة، هاجعة في تجويف مستتر، تمتد تحت أشجار نخيل التمر.
استدار بعقله، استدار ليعتد، لكن قدميه، على رغم إرادته، قادتاه،
يخطى وثقة إلى صومعة ابنة عمه المجدلية المعطرة، إلى المنزل
الذي استترت عليه تار جهنم.

تمتم وقد تلبس الرعب، لا، لا أريد أن أذهب، لا أريد أن
أذهب، وحاول أن يعكس اتجاه سيره، لكن جسده رفض أن
يستجيب، ولزم مكانه وأخذ يشم الهواء ككلب صيد.

سوف أبتعد! هكذا قرر مرة أخرى بينه وبين نفسه، لكنه لم
يتزحزح. رأى المنازل النظيفة المبيضة بماء الكس والبشر القديمة
بحافتها الرخامية. كانت الكلاب تتبع، والدجاجات تقوق، والنسوة
يضعكن، وجمال مثقلة بأحمالها باركة حول البشر، تجتر... وسمع
صوتاً غديباً داخله يقول، يجب أن أقابلها، يجب أن أقابلها. هذا
ضروري. لقد قاد الرب خدمي - الرب، وليس بمحض إرادتي -
لأنني يجب أن أقابلها، وأركع عند قدميها، وأناشدها الغفران. انه
خطاي، خطاي أنا! قيل أن أدخل الدير وأليس الرداء الأبيض يجب

قال هذا ثم انطلق يهبط التل مضئاً ومحملاً بالنثر المشؤومة.
وصل إلى الدرب الرئيسي. كان الوادي يستيقظ، فأول أشعة
الشمس قد سقطت عليه وملأت الينابيع بالقمح، بالذهب.
ونعاد نتمتع من جديد يجب أن لا أمر من مجدلة، أنا خائف، ثم
توقف ليختار الطريق التي سيسلكها ليصل إلى البحيرة، فاختار
أول درب ضيق وجده إلى يمينه. كان يعرف أن مجدلة تقع جهة
اليسار، وأن البحيرة في جهة اليمين، وتقدم بخطى وثقة.

سار طويلاً، وكان يتساءل - انه هارب من المجدلية، المومس،
إلى الرب: من الصليب إلى الفردوس، من أمه وأبيه إلى أراض
وبحار نائية، إلى رجال بوجوه عديدة لا تحصى، بيضاء، وصفراء،
وسوداء. وعلى الرغم من أنه لم يتخط حدود أرض إسرائيل، ومنذ
أيام طفولته الأولى وعيناه مغلقتان دون كل ما يجري خارج كوخ
والده المتواضع وعقله، كصقر مدرب مزود بأجراس صقور ذهبية،
كان يتدفع منتقلاً من يابسة إلى يابسة، ومن بحر محيط إلى بحر
محيط، يصرخ من البهجة، على أية حال فعقله الشبيه بعقل
الصقور لم يكن يصطاد، لقد نسي متطلبات الجسد. كان يهرب من
حاجات البدن، ويرتقي إلى السماء - كان ذلك هو كل ما يمكن أن
يصبو إليه.

وسار وسار. كان الدرب يلتوي ويدور عبر كروم العنب، ثم
يصعد مرة أخرى، ويصل إلى كروم الزيتون. وكان ابن مريم يتبعه
كما يتبع المرء ماءً جارياً أو الغناء الحزين الرتيب لحادي جمال.
كانت تلك الرحلة يجعلها تبدو له أشبه بعلم. كان بالكاد يلمس
الأرض، وتترك قدماء خنثهما الانساني، العقب والأصابع الخمسة،
بخفة على التربة. وكانت أشجار الزيتون تلوح بأغصانها المحملة
مرحبة به. وكانت حبات العنب قد بدأت تنبع، والعناقيد المثقلة

إن التمس منها الغفران، والا لا يمكنني أن أنال الخلاص. شكراً لك
يا رب، لأنك أحضرتني إلى حيث لم أكن أريد أن آتي!
شعرت بالسعادة. شد الحزام عليه، وانطلق يهبط التل إلى
مجدلة.

كان قطع الجمال باركاً على بطونه متعلقاً حول البشر، وقد
أنهى تناول طعامه وهامو الآن، مازال محملاً، يمشي جرته بيده،
وسير. لابد أنه قدم من أصقاع نائية يفوح منها الأريج، لأن البقعة
التي كانت تعيق بواطن البهارات.

توقف يسوع عند البشر. قدّمت امرأة عجوز كانت تسحب الماء
جرتها له، فشرب. أراد أن يسأل إن كانت مريم في المنزل، لكن
الخجل كان يغمره. وفكر، لقد دفعني الرب إلى منزلها، وأنا متيقن
من أنها في الداخل.

وطرق زقافاً كثير الظلال. كان في البلدة العديد من الغراء،
بعضهم يرتدي جلاب البدو الطويل الأبيض، والبعض الآخر يرفل
بشال الكشمير الهندي النقيس. فتّح باب صغير، وظهرت منه عقيلة
ضخمة المؤخرة لها شارب أسود وحالما رآته انفجرت بالضحك.

هتفت «أهلاً، أهلاً بك أيها النجار، إذن أنت أيضاً تنوي أن
تتعبد في المزار، هه؟ وأغلقت الباب وسط جلجلات ضحكها.
أصبح لون وجه ابن مريم قرمزياً من الخجل، لكنه استجمع
شئنا شجاعته. وفكر، يجب أن أفعل، يجب أن أركع عند قدميها
وألتمس منها الغفران.

وحث خطاه. كان منزلها يقع في الجهة المقابلة من القرية،
ومحاطاً ببستان صغير من شجيرات الرمان. أنه يتذكره جيداً: يابه
بمصراع واحد أخضر اللون مزين برسم ثعبانين متضاضرين،
واحد أسود اللون والثاني أبيض، وهو من تفضيد أحد عشاقها، وهو

بدوي، وفوق الباب سحلية كبيرة صفراء، أطرافها معطوطة على
الجانبين وكأنها مصلوبة.

أضاع ذريته، فعاد أدراجه إلى حيث كان - وخجل أن يسأل من
يبدله على الطريق. وكان الوقت ظهيرة، فتوقف واستظل بضيء
شجرة زيتون ليلتقط أنفاسه، ومز به تاجر ثري، ذو لحية قصيرة
سوداء جمدة، وعينين سوداوين لوزيتين، ويضع العديد من الخواتيم،
ويتلّس هيئة أرستقراطية، فتبعه ابن مريم.

لابد أنه أحد ملائكة الرب، هكذا حدث نفسه وهو يسير خلفه
ويعجب بالتكوين النبيل لجسده الغض، وبشال الكشمير النقيس،
المزركش برسوم طيور وأزهار مذهلة، الذي يغطي كتفيه. لابد أنه
أحد ملائكة الرب، وقد هبط ليدلني على الطريق.

مضى الرجل النبيل الأجنبي في طريقه يطرق دون أي خطا
في الأزقة المتعرجة. وسرعان ما تراءى الباب الأخضر ذو الثعبانين
المتضاضرين. وكانت هناك عجوز شعثاء تجلس في الخارج على
مقعد بلا ظهر. كان لديها منصب مملوء بالفحم المشتعل وتطبخ
عليه سرطانات، وإلى جانب ذلك بذور القرع المشوية، وكرات
صغيرة من اللحم موضوعة في صحاف خشبية كانت تبيعها متبلة
بالفلفل.

مال الشاب النبيل على المرأة العجوز ونفحها قطعة نقد فضية،
ثم دخل، فتبعه ابن مريم.

كان هناك أربعة من التجار يصطفون واحداً خلف الآخر
جالسين القرفصاء على الأرض في الفناء: رجلان عجوزان برموش
عيون وأظافر مصبوغة، وشابان بلحيتين وشاربين سود اللون، وكلهم
يثبتون أنظارهم على باب غرفة مريم الصغير المربع. كان مغلقاً.
وبين الحين والآخر كانت تصدر من الداخل صرخة، أو ضحكة، أو

صوت شخص يدغدغ، أو صرير سرير - وعلى الفور يقطع العبادة
أحاديثهم التي كانوا قد باشروها ويفيرون مواقعهم وهم يلهثون.
والبدوي الذي كان قد دخل قبل وقت طويل جداً تأخر في الخروج،
وكان جميع من في القناء، شباباً وشباباً، متلهفين. اتخذ الشاب
الهندي النبيل مجلسه في الرتل، وإلى الخلف منه جلس ابن مريم.
في وسط القناء كانت هناك شجرة رمان ضخمة مثقلة
بثمارها، وعلى جانبي باب الدار يسقت شجرتا سرو مهيتان،
وأحدة مذكرة ولها جذع مستقيم كالعميق، والثانية مؤنثة بأغصان
مفتوحة واسعاً ومنتشرة. وكان يتدلى من شجرة الرمان قفص من
أماليد مجدولة يضم طائر حجل غني الألوان يتقافز، ينقر على
الأشلاك ويرقصها ويقوق.

كان العبادة يقضمون التمر الذي يتناولونه من أحزمته، أو
يقطعون بذور جوز الطيب ليعطروا أنفاسهم. كانوا منهمكين في
أحاديث لتجزية الوقت. التقىوا وحياً الشاب النبيل وألقوا نظرة
ازدراء على ابن مريم ذي الملابس الرثة الجالس خلفه. وتهدد
العجوز الذي كان الأول في الرتل، قال «لا استشهد أعظم من
استشهادي، ها أنا ذا واقف أمام الفردوس، والباب موصد في
وجهي».

ضحك شاب يعصب شريطين ذهبيين حول كاحليه وقال «اني
أصبر التوايل من منطقة الفرات الى البحر العظيم. أترون هذا
الحجل ذا المخالب الحمراء هنا الجاثم أمامنا؟ سوف أبتاع مريم
يحمولة سفينة من القرفة والفلل، وأضعها مثله في قفص ذهبي
وأرحل بها. لذا، يا أصدقائي الشيقين، أسرعوا في اتمام ماتتوون
عمله : ستكون تلك هي قبلكم الأخيرة»
هنا قاطعه العجوز الآخر «شكراً لك، يا صاحبي القوي

الوسيم»، وكان ذا لحية بيضاء كالثلج ومعطرة ويدين أرسقراطيتين
نحيلتي العظام، وكفين مضبوعين بصباغ لحاء الكينا، «إن ماقلته
الآن سوف يزيد أكثر فأكثر من حلاوة قبله هذا اليوم»

كان الشاب النبيل قد أغضى جفنيه المثقلين، وأخذ القسم
الأعلى من جسمه يهتز ببطء الى الخلف وإلى الأمام، وشفتاه
ترتجفان، وكأنه يتلو صلاته. كان، حتى قبل أن يلج الفردوس، قد
بدأ يغيب في غبطة سرمدية. لقد سمع قوقاة طائر الحجل، وسمع
صوت الدغدغة والصرير الصادر من داخل الغرفة الموصدة، وسمع
المرأة العجوز القابعة عند البوابة وهي تملأ منصبتها بالسرطانات
الحية، التي تتقافز بعدئذ على الجمر.

أخذ يتفكر، وقد غلبه احساس رهيب بالتعب، هذه هي الجنة،
هي هذا النوم العميق الذي ندعوه الحياة، النوم الذي نحلم خلاله
بالجنة. لا وجود لجنة أخرى. يمكنني الآن أن أنهض وأرحل، فلا
حاجة لي الى مزيد من المتعة.

لكزه رجل ضخم الجنة يعتمر عمامة خضراء، يجثم أمامه،
بركبيته، وضحك، قال «ماقول ربك في كل هذا، يا أمير الهند؟»

فتح الشاب عينيه، وسأله «كل ماذا؟»

«هنا، مايجري أمامك: رجال، نساء، سرطانات، حب»

«إن كل هذا حلم»

قاطعه العجوز ذو اللحية الناصعة البياض، وكان يعد حبات
سبعة طويلة من الكهرمان «اذن، يا أولادي الشجعان - احذروا،
احذروا لئلا تستيقظوا»

فتح الباب الصغير وظهر منه البدوي. تقدم بغطى بطيئة،
عيناه متورمتان، ويلعق فمه، وعلى الفور قفز الرجل العجوز الذي
كان دوره هو التالي برشاقة فتى قوي في العشرين.

هتف الثلاثة الذين كانت أدوارهم هي التالية: «باي باي أيها الجد، ارحمنا وأنجز عملك بسرعة!»
كان الرجل العجوز قد باشر لتوه بحل حزامه وهو يقترب من الغرفة، فليس ذلك وقت الثرثرة، ثم دخل وصفق الباب من خلفه.
كانوا جميعاً يراقبون البدوي في حسد، ولا يجرؤ أحد على الكلام. شعروا وكأنه يخوض في مياه عميقة في مكان بعيد جداً،
والحقيقة هي أنه لم تكن به أي رغبة في الالتفات إليهم. ترنح وهو يجتاز الفناء حتى وصل إلى باب الخروج، وكاد يتعثر بمنصب الحيزيون وأخطأ بمقدار جزء من الانش، وأخيراً اختفى داخل الأزقة المتعرجة. عندئذ باشر الرجل السمين الضخم ذو العمامة الخضراء، من باب إعادة لفت انتباههم، بالتحدث، دون مقدمات، عن أسود ويحار، وعن جزر مرجانية نائية.
ومر الوقت. وبين الحين والآخر كانت تُسمع طرطقة حبات المسبحة الكهربائية بطيئة رقيقة، ومن جديد تسمت كل العيون على الباب الصغير الواسع. العجوز تأخر، تأخر كثيراً، في الخروج. نهض الشاب الهندي منتصباً، فالتفت الآخرون نحوه دهشين. لماذا نهض؟ ألن يتكلم؟ هل ينوي أن يغادر؟... كان سعيداً، متألق الوجه، وقد ضمخ وجنتيه تورّد خفيف، شد وشاح الكشمير حوله بقوة، ووضع يده على قلبه وعلى شفثيه واستأذن بالرحيل، واجتاز ظله يهدوء عتبة الباب.

قال الشاب الذي يربط كاحليه بشرطين ذهبيين «لقد صحاء، حاول أن يضحك، لكن خوفاً غريباً سيطر فجأة عليهم جميعاً، وبدأوا بسرعة مثلهة يناقشون تقدير الريح والخسارة، والأسعار السائدة في أسواق العبيد في الاسكندرية ودمشق. إلا أنهم سرعان ما ارتدوا إلى حديثهم السافر عن النساء والعلماء، وأبرزوا السننهم

ولمقوا أفواههم.

غمغم ابن مريم «يا رب، آه يا رب، أين رهيت نبي؟ أي فناء هذا؟ أي نوع من الرجال أجالس! إن هذا، يا رب، هو أسفل السافلين، امنعني القوة على احتماله!»

كان الحجيج جاثمين. هتف أحدهم، فدخلت الحيزيون ووزعت على الرجال الأربعة خبزاً، وسرطاناً، وفطائر اللحم الصغيرة، وأحضرت معها إبريقاً من خمر التمر. جلسوا القرفصاء، ووضعوا الوجبة في حجورهم وياشروا بطرطقة أحناكهم. وكان أحدهم في مزاج حسن فرمى بصدفة سرطان كبير إلى الباب وصرخ «هيه، أيها الجد، عجل، لا تأخذ النهار كله»، وانفجروا جميعاً في قصف من الضحك.

مرة أخرى غمغم ابن مريم قائلاً «رب، آه يا رب، امنعني القوة لأبقى حتى يأتي دوري»

شعر العجوز ذو اللحية المعطرة بالشفقة عليه، فالتفت إليه وقال «هيه، أنت، أيها الفتى الطيب، ألست جائعاً أو ظمآن؟ تعال إلى هنا وتناول لقمة، سوف تمنحك القوة أضاف العملاق ذو العمامة الخضراء ضاحكاً «نعم، أيها المسكين، يجب أن تأكل. عندما سيحين دورك وتدخل لا تريدك أن تلحق العار بنا نحن معشر الرجال»

اشتد احمرار ابن مريم حتى صار قرمزيّاً، وأطرق رأسه ولم يتكلم.

قال العجوز، وهو ينفخ قطعاً من السرطان كانت قد علقت بلحيته «هذا الفتى أيضاً يحلم. نعم، وحق القديس بعلزيب، هو يحلم. وسوف ينهض الآن كما فعل الآخر وسيرحل. انتظروا وسترون»

تلقت ابن مريم حوله وهو مرتعّب. أيمن أن يكون الهندي
التبيل على حق؟ أيمن أن يكون كل هذا - الفناء، والرمان، ومنصب
الذار، وطائر الحجل، والرجال - حلماً؟ لعله مازال جالساً تحت
شجرة الأرز، يحلم.

استدار نحو باب الخروج وكأنه يبحث عن نجدة، فرأى رفيقة
تروحاله ذات الرأس الشبيه برأس النسور واقفة بلا حراك بجوار
شجرة السرو المذكورة مدججة بالبرونز حتى أسنانها. ولأول مرة بث
«راها الارتياح والطمأنينة في نفسه.

خرج المعجوز لاهثاً، وولج الضخم ذو العمامة الخضراء. وبعد
مرور بضعة ساعات جاء دور الشاب ذي العصابتين الذهبيتين حول
كاحليه. ثم دور المعجوز بالسبحة الكهرمانية. والآن لم يبق غير ابن
مريم وحيداً في الفناء، ينتظر.

أوشكت الشمس أن تغيب، وكانت هناك سحابتان تعيران
السماء، ثم توقفتا، مثقلتان بحمل من الذهب. وغطت الأشجار
والثربة ووجوه الناس طبقة رقيقة من الصقيع الذهبي.

وخرج المعجوز ذو السبحة الكهرمانية. توقف برهة على العتبة
وراح يمسح عينيه الدامعتين وأثقه الجاري وشفتيه اللتين تتزآن
إعاباً. ثم جرّ قدميه محض الكفتين نحو باب الخروج.

نهض ابن مريم واقفاً واستدار نحو شجرة السرو المذكورة.
رفعت مرافقته قدمها استعداداً للحاق به. أراد أن يكلمها، أن
يتوسل إليها أن تنتظره في الخارج، أن يخبرها بأنه يرغب في أن
يكون وحده، وأنه لن يقر، لكنه كان يعرف أن كلماته ستذهب سدى،
فانتظر صامتاً، شد الحزام حول خصره، ثم رفع بصره ونظر إلى
السماء، تردد في الدخول، لكن صوتاً أجشاً نادى بغضب من داخل
العرفة: «هل بقي أحد؟ ادخل»، كان ذلك صوت المجدلية، فاستجمع

كل قواه وتقدم إلى الداخل. كان الباب نصف مفتوح، فدخل وهو
يرتجف.

كانت المجدلية مستلقية على ظهرها، عارية تماماً، منقوعة
بعرقها، وشعرها الأسود الفاحم مبعثر على الوسادة وذراعاها
معقودان خلف رأسها. كان وجهها ملتقياً نحو الجدار وكانت تتنأب.
لقد أنهكتها تصارعها مع الرجال على هذا السرير منذ الفجر. كان
شعرها وأظافرها وكل أنش من جسدها يفرز روائح كل الأمم،
وذراعاها وعنقها وشدياها مغطاة بالعض.

أغضى ابن مريم بصره، وهو يقف في منتصف الغرفة، عاجزاً
عن التقدم أكثر. انتظرت المجدلية دون أن تأتي بحركة، ووجهها
ملتفت نحو الجدار لكنها لم تسمع صوت نحر ذكوري خلفها، ولا
من ينزع عنه ملابسه، ولا حتى صوت لهاث، انتابها الخوف،
فأدارت وجهها بسرعة لترى - وعلى الأثر أطلقت صرخة، وشدت
الملاءة وتلفعت بها.

صرخت، وهي تغطي شفيتها وعينيها بكفها «أنت ! أنت»

قال «سامحيني يا مريم»

انفجرت المجدلية في نوبة ضحك أجش يفطر القلب، حتى
كنت تحسب أن حبالها الصوتية توشك أن تنقطع إلى آلاف القطع.

كرر قائلاً «سامحيني يا مريم»

ثم فحزت واقفة على ركبتيها وهي متدثرة تماماً بالملاءة،
ورفعت قبضة يدها قائلة: «الهاذا دخلت إلى فناء بيتي، أيها الشاب
الشهم؟ الهاذا اختلطت مع عشاقتي: لكي تتسلل خلسة إلى بيتي
وتحضر الرب العائب التي هنا في مرتعي؟ حسن، لقد تأخرت يا
صديقي، تأخرت كثيراً، أما فيما يخص ريك، فأتانا لا أريد - لقد
سبق له أن حطم قلبي»

كانت تئن وتتكلم في وقت واحد وصدرها المملوء بالحنق يعلو وينخفض من تحت الملاة. مرة أخرى أنت وهي تقول «لقد حطم قلبي». وصعدت دمعتان إلى مقلتيهما وظلتا معلقتين على رموشهما الطويلة.

«لا تكفري يا مريم. أنا الملولم، وليس الرب، ولهذا أتيت : أريد أن تمنحيني غفرانك».

لكن المجدلية انفجرت قائلة «أنت وريك متطابقان، أنتما متشابهان تماماً ولا أستطيع أن أميز بينكما. أحياناً يحدث أن أكرر به في الليل، وإذا بي - اللعنة على تلك الساعة أرى صورتك تبرز من قلب الظلام، وحين يصفد أن أقابلك في الطريق - واللعنة على تلك الساعة! - أشعر أنني ما أزال أرى الرب يندفع مباشرة لينال مني»

ثم رفعت قبضة يدها في الهواء وصرخت «إياك أن تزعجني بالحديث عن الرب، أغرب عن وجهي ولا تدعني أراك ثانية. لم يبق لي غير ملجأ واحد ومصدر سلوى - الوحل! هناك فقط كنيس واحد أدخله لأصلي وأتلط - إنه الوحل!»

«اسمعيني يا مريم، دعيني أتكلم، لا تستسلمي لليأس. إن هذا بالضبط هو ماجئت لأجله: يا اختاه: لأخلصك من الغوص في الطين. لقد ارتكبتُ العديد من الآثام - أنني الآن في طريقي إلى الصحراء لأكفر عنها - إنها كثيرة يا مريم، لكن تكبتك تثقل كاهلي أكثر من أي شيء»

وجهت المجدلية أظافرها الحادة نحو الضيف غير المدعو، بحركة هستيرية، وكأنها تبغي أن تمزق وجنتيه.

زعمت «أي نكبة؟ أنني في أحسن حال، أحسن حال، ولا أحتاج إلى عطف قداستك! أنني أخوض قتالي بنفسني، وحدي، ولا أطلب أي عون من الناس، أو حتى من الآلهة أو الشياطين. أنني أقاتل

لأحقق خلاصي، وسأتجح حتماً»

«ممّ تريدین تخليص نفسك، ممّ؟»

«ليس، كما تظن، من الوحل، باركه الرب! فهناك تكمن آمالي كلها - في الوحل، إنه دربي إلى الخلاص»
«الوحل؟»

«نعم، الوحل : العار، الفحش، هذا السرير، جسدي هذا، بكل ما عليه من عض وما يلطخه من لعاب العالم كله، وعرقه وطينه! لا ترمني بنظرتك المشتبهة الخجلى هكذا. ابق بعيداً، أيها الجبان! لا أريدك أن تبقى هنا. أنت تثير اشمسزاي، لا تلمسني! أنني لكي أنسى رجلاً واحداً، لأخلص نفسي، سلمت جسدي لكل الرجال!» -
أطرق ابن مريم رأسه، وعاد يكرر بصوت مخنوق، وهو يقبض على الحزام المربوط حوله، ولا يزال ملطخاً بالدم «إنها غلطتي، سامحيني يا اختاه. إنها غلطتي، لكنني سوف أسد ديني».

مرة أخرى مزق ضحك وحشي حنجرة المرأة «ها أنت تواصل تغاءك المثير للمشقة: «إنها غلطتي...إنها غلطتي يا اختاه... سوف أخلصك...» لكن لا، أنك لا تجرؤ على رفع رأسك كرجل وتعترف بالحقيقة، أنت تتوق إلى جسدي، ويدل أن تعترف بذلك، وهذا ما لاتجرؤ على فعله، تأخذ بوضع اللوم على روحي وتدعي أنك تريد أن تخلصها. أي روح، أيها العالم؟ إن روح المرأة هي لحمها. أنت تعرف ذلك، تعرفه، لكنك لا تملك الشجاعة على ضم هذه الروح بين ذراعيك كرجل وتقبلها - قبلها وخلصها! أنني أشفق عليك وأمقتك!»

هنا هتف الشاب، وقد أصبح لون وجهه أحمر نارياً من احساسه بالخزي «أنا مفسوسة بسبعة شياطين أيتها العاهرة. سبعة شياطين، نعم، إن أباك العاثر الحظ على حق،

كانت المجذلية ترتجف، فلملمت شعرها بحركة غاضبة وصنعتة على شكل لفة ووربطتها عالياً بشرط من الحرير الأحمر. ظلت فترة طويلة لا تتكلم، لكن شفيتها تحركتا أخيراً: «ليس سبعة شياطين، يا ابن مريم، ليس سبعة شياطين، بل سبعة جروح. أعلم أن المرأة ظبية جريئة، وممتعة تلك المسكينة الوحيدة هي أن تلعق جروحها».

وترغرت عينها بالدموع، فمسحتها بحركة واحدة من كفها، ثم انفجرت قائلة بصوت مسعور: «لم آتيت الى هنا؟ ماذا تريد مني يوقوقك هكذا بجوار سريري؟ أغرب عني!»

اقترب الشاب منها خطوة واحدة، وقال «مريم، حاولي أن تعودتي بذاكرتك الى عهد طفولتنا...»

«انتي لا أذكر شيئاً! أي رجل أنت؟ أما زلت تنفوه بحماقاتك؟ يجب أن تخجل من نفسك! انك لم تتحل يوماً بالشجاعة لتقف وقفة رجل وترفض الاعتماد على أحد. انك ان لم تكن متشبهاً بأذيال أمك، فأنت تشبه بأذيالي، أو بأذيال الرب. انك عاجز عن الوقوف وحدك، لأنك خائف. انك لا تجرؤ على الغوص عميقاً في روحك - أو في جسدك في هذه الحالة - لأنك خائف. وها أنت الآن تهرب الى الصحراء لتختبئ لتغرز أنفك في الرمل - لأنك خائف! خائف، خائف! انني أمقتك، يا مسكين، وأرثي لحالك، وكلما خطرت على بالي ينقطر قلبي لأجلك»

حين لم يعد بمقدورها أن تتابع بدأت تكي. وعلى الرغم من أنها كانت تسرع في مسح عينها، إلا أن دموعها كانت تختلط بمساحيق وجهها وتجري بعنف متزايد وتلوث الملاء.

شعر الشاب بتشنج في قلبه. أه لو يتمكن فقط من التخلص من خشيته من الرب، لو يتمكن فقط من ضمها بقوة بين ذراعيه،

من أن يسمح دموعها، ويمسك على شعرها ويدخل السعادة الى قلبها، ومن ثم يأخذها معه ويرحل!

لو كان رجلاً حقاً، فهذا ماكان عليه أن يفعله. ما شأنها هي بالصيام، وبالصلاة والأديرة؟ لا، ليست هذه الأشياء هي الطريق الصحيح - كيف يمكن لها أن توفر الخلاص لامرأة؟ أن يبعدها عن هذا السرير، أن يرحلها، ويفتح ورشة في قرية نائية، تعينهما على أن يعيشا معاً زوجاً وزوجة، وينجبا أطفالاً، وأن يعانیا ويبتهجا ككل البشر: هذا هو سبيل الخلاص بالنسبة للمرأة، وخلاص الرجل معها - وهو السبيل الوحيد!

كان الليل قد بدأ يغييم. وعلى البعد دمدم الرعد، وتشرب ومض البرق من خلال شق في الباب فأضاء وجه مريم الذي علاه الشحوب، ثم عاد فأعتمه. الآن بات قصف الرعد مسموعاً، وأقرب من ذي قبل، وانخفضت السماء المختنقة بالغيوم حتى كادت تلمس الأرض.

ضجة قلب على الشاب احساس عظيم بالارهاق، وتراخت ركبته، فجلس القرفصاء على الأرض. صدمت أنفه رائحة قذرة مقرزة من مزيج المسك، والعرق، ورائحة الثيوس. فأخذ يمسد على حنجرته بكفه لكي لا يتقيأ.

سمع صوت مريم وسط الظلام يقول له «أدر وجهك الى الناحية الأخرى، أريد أن انهض لأثير المصباح، فانا عارية» قال الشاب برقة «أنا ذاهب»، واستجمع كل ماله من قوة ونهض واقفاً.

لكن مريم تظاهرت بأنها لم تسمعه وقالت «القي نظرة على الفناء، ان كان مايزال هناك أحد اطلب منه أن يرحل».

فتح الشاب الباب ومد رأسه. كان الظلام قد ساد، وقد تدلت بضع قطرات كبيرة متفرقة من المطر من أوراق شجرة الرمان،

الخارج وأرتجت الباب. فتحت السموات محابسها، وإذا بالفضاء يسكب غيثه فيوضاً على فنائها. أطلقت صرخة فرح حادة، تماماً كما كانت تقعل وهي طفلة كلما رأت فاتحة أمطار الخريف. وحين ولجت الى الداخل كان وشاحها قد تشبّع بالماء.

وقف الشاب في وسط الغرفة، عاجزاً عن اتخاذ قرار بشأن البقاء أم الرحيل. أيهما يمثل إرادة الرب؟ المكان هنا مريح، ودافئ، حتى أنه أخذ يعتاد على العبق المثير للتقزز. أما في الخارج: فريح، ومطر، وبرد. انه لا يعرف أحداً في مجدلة، وكفر ناحوم مازالت بعيدة جداً. فهل يرحل أم يبقى؟ وترددت روحه جيئةً وذهاباً كناقوس يقرع.

قالت «المطر ينهمر غزيراً يا يسوع. أراهن على أنك لم تذق شيئاً من الطعام طوال النهار. ساعدني في اضرام النار لنطبخ». كان صوتها رقيقاً وملاطفاً، كصوت أم.

قال الشاب، وهو يستدير نحو الباب «أنا راحل».

أمرته المجدلية «اجلس سنتناول الطعام معاً هل تثير الفكرة في نفسك التقزز؟ تخشى أن تتدنس جراء مشاركة عاهرة الطعام؟»

تناول الشاب بعض أرز ناد الخشب وضمراً من الركن، وانحنى عند العضادة الحجرية للموقد، أمام المنصين، وأشعل النار.

هدأ اضطراب قلبها، وأخذت تملأ القدر بالماء، وهي تبسم الآن، ووضعت على النار. ثم تناولت من كيس معلق على الجدار ملء قبضتين مقمعتين من حيوب الفاصولياء العريضة المنزوعة النضار ورمتها فيه، ثم ركعت أمام النار المضربة وأرهقت سمعها. وفي الخارج كانت محابس فيوض السماء قد فتحت وأسعا.

قالت بهدوء «لقد سألتني يا يسوع إن كنت أذكر عهد طفولتنا ولعبنا معاً...»

والسماء معلقة فوق الأرض، مستعدة للسقوط. كانت الحيزيون العجوز قد حطمت منصب النار المشتعل وحفرت في الفناء ووضعت فيها، وظلت واقفة مسمرة الى جذع شجرة السرو المنكرة. وبدأت القطرات الثقيلة تهطل أغزر فأغزر.

قال الشاب «لا أحد»، وأسرع بإغلاق الباب. وكانت الريح المصحوبة بالمطر قد أضحت تلمع بكل قوتها.

في تلك الأثناء قشزت المجدلية عن سريرها وتذرت بوشاح صوفي دافئ مطرز برسوم الأسود والغزلان، قدّمه لها في ذاك الصباح عاشق أثيوبي. وارتعش كتفها ووركها بهجة من لذة دفء الملابس. تعطّط على رؤوس أصابع قدميها، وأنزلت المصباح عن الجدار.

كرر الشاب، وفي صوته رنة معادة «لا أحد»
«والعجوز؟»

«جالسة تحت شجرة السرو. الجو عاصف تماماً»
هرعت مريم الى الفناء، وحين عثرت على مكان منصب النار اقتربت.

قالت، وهي تشير الى رتاج باب الدار الخارجي «أيتها الجدة نعمي، أحملني منصيبك وسرطاناك وإذهبي الى دارك. سأغلق البوابة. لم يعد هناك أحد هذه الليلة»

قالت العجوز بصوت هاس «عشيقك في الداخل، هه؟» وقد اغتاطت لأنها خسرت زبائن الليل.

أجابتها المجدلية «نعم، هو في الداخل. أرحلي»

نهضت العجوز واقفة، وهي تدمدم متدمرة، وجمعت أغراضها. غمغمت بصوت خافت عبر لثتها الدرداء «صاحبك الرث ذاك جميل حقاً، لكن مريم التي كانت في عجلة من أمرها دفعتها الى

لكن الشاب اكتفى، وهو راكع مثل المجدلية أمام الموقد،
بالتحديق في النار، وعقله شارد بعيداً. شعر وكأنه قد وصل فعلاً
إلى الدبر وسط الصحراء، وكأنه قد ارتدى الثوب الأبيض وبدأ
يتنزه في عزلته، كان قلبه أشبه بسكة ذهبية صغيرة سعيدة تسبح
في سكون أعماق الرب. في الخارج كان العالم يتهاوى، وداخله كان
السلام، والحب والأمان.

كرر الصوت المجاور له «لقد سألتني يا يسوع إن كنت أذكر أيام
طفولتنا ولعبنا معاً...»

توقد وجه المجدلية، عاكساً ضياء اللهب، وكأنه قضيب حام من
الحديد، لكن الشاب، الغارق في رؤيا الصحراء، لم يسمعها.

مرة أخرى قالت المرأة «كنت يا يسوع في الثالثة من عمرك
وكنت أكبر منك بسنة، وكانت هناك ثلاثة درجات تؤدي إلى باب
بيتنا، فأجلس على الدرجة العليا وأراقبك وأنت تجاهد طويلاً، لا
تقدر على ارتقاء الدرجة الأولى، فتقع، وتعود فتنهض، دون أن
أحرك ساكناً لمساعدتك. كنت أريدك أن تأتي إليّ، ولكن ليس قبل
أن تعاني الأمرين... أتذكر؟»

كان ثمة شيطان، أحد شياطينها السبعة، يحثها على التحدث
إلى الرجل وعلى إغرائه.

«بعد فترة طويلة تنجح أخيراً في ارتقاء الدرجة الأولى، ومن
ثم تبدأ بالجهاد لارتقاء الثانية، ومن ثم الثالثة - حيث أجلس أنا،
بلا حراك، أنتظرك. عندئذ...»

انفض الشاب ومد يده، وصرخ «اصمتي، لا تزيد!»
لكن وجه المرأة شع وومض، ولعق اللهب حاجبيها، وشففتها،
وذقتها ونحرها العاري. تناولت حفنة من أوراق الغار، ورمتها في
النار، وأطلقت تهيدة.

«لم أمسكت بيدي - نعم، أمسكت بيدي يا يسوع - ومن ثم
ولجنا إلى الداخل واستلقينا على حصباء الفناء، وألصقنا أخمصي
أقدامنا ببعضها إلى بعض، واستشعرنا دفء جسدنا يمتزج معاً،
يتصاعد من أقدامنا إلى أفخاذنا، ومن أفخاذنا إلى عورتنا، ومن ثم
نغمض عيوننا و - صرخ الشاب مرة أخرى «اصمتي»، ورفع يده
ليغطي بها فمها، لكنه أحجم - كان يخشى أن يلمس شففتها.

هنا تنهدت المرأة، وتابعت كلامها وقد أخفضت صوتها إلى
مرتبة الغمغمة «لم أشعر في كل حياتي بمثل تلك العذوبة». وسمعت،
ومن ثم قالت «تلك العذوبة يا يسوع هي التي أبحث عنها
منذ ذلك الوقت وأنا أنتقل من رجل إلى رجل، لكني لم أعثر عليها،
دفن الشاب وجهه بين ركبتيه، وتمتم «أدوناي، أدوناي، ساعدني»،
كان الصمت يلف الغرفة الساكنة الدافئة، لا يسمع فيها غير
بقبقة قدر الفاصولياء ذي الرائحة الذكية، وهسيس النار وهي
تلتهم الخشب. في الخارج، كانت المياه المذكرة تهمر من السماوات
بهدير والأرض تفتح ما بين فخذيها وتقهقه.

سألته المجدلية، دون أن تجرؤ على مواجهته «بماذا تفكر يا
يسوع؟»

أجاب بصوت مختنق «أفكر بالرب، بالرب، أدوناي...»
بعد أن تكلم ندم لأنه تلفظ بالاسم المقدس في منزل كهذا...
فقزت المجدلية واقفة وراحت تقطع المسافة بين الموقد والباب
جبهة وذهاباً، وعقلها يغلي حنقاً.

كانت تقول في نفسها، الرب هو العدو الأكبر، نعم، الرب، إنه
لا يكف عن التدخل، إنه شرير، غيور، لا يدع أحداً يسعد. توقفت
خلف الباب وأرهفت سمعها، كانت السماء تجار، وقد ارتفعت ريح
دوامية وراحت رمانات الفناء تتلاطم معاً وأوشكت أن تتكسر.

قالت «لقد توقف هطول المطر قليلاً».

أجابها الشاب وهو ينهض واقفاً «سارحل»
«كل أولاً وزود جسمك ببعض الطاقة، إلى أين ستذهب في مثل
هذه الساعة؟ الظلمة حالكة في الخارج وما زالت تمطر»
أنزلت حصيراً مستديراً عن الجدار وفرشته على الأرض. ثم
رفعت الكسرولة عن النار، وفتحت خزانة صغيرة داخل تجويف في
الجدار وأخرجت منها رغيف شعير محمصاً وطبقين من الخبز
للحساء.

قالت «هذه هي وجبة المومس. كل، يا جوهر التقوى، كل لأن
كانت لا تثير التقزز في نفسك».

لم يتردد الشاب الجائع في مد يده. وأخذت المرأة تضحك
ضحكاً مكبوتاً.

قالت بصوت رفيع «هكذا تأكل؟ دون أن تتلو صلاة المائدة؟ أما
ينبغي أن تقدم الشكر للرب لأنه يمنح الخبز، والفاصولياء العريضة
والعاهرات؟»

علقت لقمة يسوع في حلقه.

قال «لماذا تكرهيني يا مريم؟ لماذا تضايقينني؟ انظري، ها أنا
أوشك أن أنقاسم الخبز معك، هافت عنداً أصدقاء. فلنعد الماضي
للماضي، وسامعيني، لهذا تزينني أثيت»
«كل، وكذلك نحياً. إذا لم تمنح الغفران، انتزعها أنت رجل»

رفعت يدها وكسرت الخبز، وهي تضحك «مبارك اسم الذي
يبعث الخبز، والفاصولياء العريضة والعاهرات إلى العالم -
والضيوف الوردعين»

ظلا راكعين متقابلين تحت ضوء المصباح، دون أن يزيدا أي
كلمة أخرى. كلاهما كان جائعاً، وكلاهما كان قد أصابه الكثير من

الأم في ذلك النهار، فأكلتا ليرمما قواهما.

بدأ المطر في الخارج يغف، كانت السماء قد فرجت عن
نفسها، والأرض امتلأت، ولم يكن يسمع أي صوت غير غرغرة
ضحكات الجدول التي تجري فرحة على طرقات القرية المروضة
بالحصي.

فرغاً من تناول الطعام، وكانت الخزانة الصغيرة تحتوي أيضاً
على رشفة من الخمر فقشراها، وعلى عدة حبات ناضجة تماماً من
التمر تناولها كحلوى. لزموا الصمت بعض الوقت ومكثا يراقبان
النار التي كانت توشك أن تخدم. وكان تفكيرهما يعلو وينخفض
ويرقص مع النار الخائبة.

كان الجو بارداً، نهض الشاب الواقف ووضع مزيداً من الحطب
على النار، وتناولت الجدلية حفنة أخرى من أوراق الفار ورمتها
فيها: ملأ العيق الغرفة. ثم توجهت إلى الباب وفتحته: كانت الريح
قد زادت من سرعتها، وتبددت الغيوم، وفوق القناء تلالاً نجمتان
بقوة، وقد اغتسلتا حديثاً وأصبحتا نظيفتين.

سألهما الشاب الذي عاد فوقف في منتصف الغرفة، عاجزاً عن
اتخاذ قرار «أما تزال تمطر؟»

لم تحبّر الجدلية بجواب، لفّت الحصى وتوجهت إلى
صندوقها، وأخرجت منه ملاماً ويطانيات صوفية - هي هدايا من
عشاقها - وصنعت سريراً أمام الموقد.

قالت «مستقام هنا. الجو بارد والريح شديدة في الخارج، وكاد
الليل أن ينتصف، إلى أين يمكن أن تذهب؟ سوف تموت من البرد،
هنا سيكون منامك: بجوار النار»

أصابته الرجفة الشاب «هنا»

«أأنت خائف؟ حسن، اطمئن يا حمامتي البريئة، لن أضايقك.

لا، إن أغويك، لن أمس عذريتك، يا طفلي المدلل - وكان الأمر يستاهل!

عززت النار بمزيد من الحطب وأنزلت فتيل المصباح. قالت «أحلاماً سعيدة. غداً لدينا أنت وأنا عمل كثير نقوم به. أنت ستطلق من جديد لتواصل مسيرك الطويل، تبحث عن خلاصك، وأنا سأمشي في طريق أخرى، طريقي الخاصة. وأنا بدوري سأبحث عن الخلاص. لكل طريقه ولن نتقابل مرة أخرى. يوماً هائلاً»

ارتمت على حشيتها ودقنت رأسها في الوسادة، وأمضت الليل بطوله وهي تعض على الملاء لتكبت صراخها ودموعها. كانت تخشى أن يسمعها الرجل النائم بجوار النار، فيخاف ويرحل. كانت طوال الليل تنصت إليه يتنفس بهدوء، وارتياح، كطفل يرضع من ثدي، وهي تتوح في دخيلتها بصوت خفيض، وتزفر تهديدات رقيقة مطوَّنة، يقظة تهدده لينام كأنها أمه.

في فجر اليوم التالي أرسلت بصرها من خلال عينين نصف مغمضتين فوجدته ينهض، ويشد النطاق الجلدي بإحكام حول خصره، ثم يفتح الباب، وهناك توقف. كان يريد أن يرحل، وفي الوقت نفسه لا يريد أيضاً. التفت، وألقى نظرة على السرير ثم خطا خطوة مترددة باتجاهه. مال عليه - لم يكن الضوء قوياً كثيراً داخل الغرفة - مال وكأنه يرغب في أن يجد المرأة ويلمسها. كانت يده اليسرى مدسوسة تحت النطاق، وكان يغطي بيده اليمنى فمه وذقنه.

ظلت المرأة مستلقية على ظهرها، لا تأتي بحركة، وشعرها يستر ثدييها العاريين، راقبته من بين رموشها، وجسمها كله يرتجف.

حرك شفتيه : «مريم...»

لكنه حالما سمع صوته تملكه الرعب، وبوئية واحدة وصل إلى عتبة الدار، وراح يقطع أرض الفناء على عجل ورفع رتاج البوابة. عندئذ بدأت مريم المجدلية - التي انتزعت نفسها من فراشها ورمت عنها الملاء - تبكي.

الفصل الثامن

كان الدير قابلاً وسط الصحراء بعد بحيرة جنيسارت، مبنياً من حجارة بلون الرماد الأحمر ومحشوراً كالأسقفين ومستتراً بين صخور ضخمة بلون الرماد الأحمر. الوقت منتصف الليل... والسماء تسكب ماءها، ليس على شكل قطرات، ولكن فيوضاً. الضباب والذئباب وأبناء آوى تموي، وزار أسدان عن بُعد - وقد أثارها قصف الرعود المتكرر. كان الدير الفارق في ظلمة لا يتفد خلالها بصر يتعرض باستمرار لسياط وميض البرق: وكان رب سيناء يؤنيه بقسوة. وكان الرهبان منبطحين في صوامعهم، يتضرعون لأدوناي لكي لا يُفترق الأرض مرة أخرى. ألم يقطع لنوح الأب الجليل وعداً بذلك؟ ألم يمد قوس قزح عن الأرض إلى السماء دلالة على الصداقة؟

الضوء الوحيد كان يصدر من صومعة رئيس الدير. فقد كان يواكيم، رئيس الدير، جالساً تحت الشمعدان ذي السبعة فروع على كرسيه الكهنوتي المرتفع المصنوع من خشب السرو بنصت - وهو النخيل، القصير الأنفاس، ولحيته البيضاء أشبه بنهر جار، ومعقود

الذراعين ومغمض العينين - ينصت الى يوحنا، الراهب الشاب المبتدئ، الذي كان واقفاً عند المقرأ يتلو عليه من سفر النبي دانيال: «كنت أرى في رؤياي ليلاً وإذا بآربع رياح السماء هجمت على البحر الكبير. وصعد من البحر أربعة حيوانات عظيمة هذا مخالف ذلك، الأول كالأسد وله جناحا نسر، وكنت انظر حتى انتفتج جناحاه وانتصب على الأرض وأوقف على رجلين كالنسان وأعطي قلب انسان. وإذا بحيوان آخر ثان شبيه بالذئب فارتفع على جنب واحد وفي فمه ثلاث أضلع بين أسنانه فقالوا له هكذا. فم كل لحماً كثيراً. وبعد هذا كنت أرى وإذا بآخر مثل النمر وله على ظهره أربعة أجنحة طائر. وكان للحيوان أربعة رؤوس وأعطي سلطاناً...»^(١)

شعر الراهب المبتدئ بالانزعاج فكف عن القراءة، فلم يعد يسمع رئيس الدير يتشهد أو يفرز أظافره من الاثارة في الكرسي، حتى أنه لم يعد يسمع صوت تنفسه، أليكون قد مات؟ لقد مرت حتى الآن أيام طويلة وهو يرفض أن يضع في فمه أي شيء من الطعام. كان غاضباً من الرب وكان يتمنى الموت. أراد أن يموت - وهذا ما صرح به بوضوح للأخوة - فلعل روحه تتخفف من عبء الجسد، ترتاح من هذا الثقل وتتمكن من السمو الى السماء لتجد الرب. كان يتحرق ليستقر دمه: كان ضرورياً بالنسبة له أن يراه ويحدثه. لكن الجسد كان ثقيلاً كالرصاص، ومنعه من السمو. لذا قرر أن يأمره بالانصراف، أن يؤدعه القهر لكي يتمكن يواكيم الحقيقي من السمو الى السماء ليحكى للرب عن أساءه. هذا هو واجبه. اليس هو أحد آباء بني اسرائيل؟ إن للناس أخواهاً، ولكن ليس لديهم أصوات. إنهم لا يستطيعون أن يمتثلوا أمام الرب ويحكوا له عن آلامهم. أما يواكيم فيستطيع، ولا خيار أمامه!

١ - سفر دانيال، الأصحاح السابع/ ٢ - ٦.

التفت الراهب المبتدئ ونظر، فرأى تحت الشعلات السبع رأس رئيس الدير، منقوراً كخشب عتيق أكلته الديدان، مخشوشاً من طول تعرضه للشمس والصيام: ما أشبهه بالجماجم البدائية التي غسلها المطر للوحوش التي تقابلها أحياناً القوافل في الصحراء كم من رؤيا وردت على ذلك الرأس، وكمن مرة فتحت له أبواب السماء، وكمن مرة تكشفته له أغوار جهنم! إن عقله أشبه بسلم يعقوب^(١) ترتقيه كل هموم بني اسرائيل وآمالهم وتهبط منه.

فتح رئيس الدير عينيه فرأى الراهب المبتدئ واقفاً أمامه، يعلوه شحوب الموت، وعلى ضوء الشمعدان السباعي الفروع توهج الزغب الأشقر الذي يغطي وجنتيه بكل ما فيه من عنذية، وامتلأت عيناه، اللتان سرحهما بعيداً في المدى، بالحب.

رقت ملامح رئيس الدير القاسية. كان يحب هذا الشاب الحسن التكوين الذي انتزع من زبدى العجوز، والده، وجلبه الى هنا ليرفعه الى الرب. كان يحب فيه طاعته، شدته، وشفتيه الصامتتين، وعينيه النهمتين، عذوبته وسرعة يديهته. وكان يقول في نفسه: إن هذا الفتى يتحدث ذات يوم مع الرب، سوف يفعل ما عجزت أنا عن فعله، والجرحان المحفوران على كتفي سوف يعولهما الى جناحين. إنني لم أسم الى السماء خلال فترة حياتي، أما هو فسيُفعل في حياته.

كان الفتى قد قديم الى الدير ذات مرة مع والديه وبذلك للاحتفال بعيد الفصح. ولما كان رئيس الدير على صلة قرابة بعيدة مع عائلة زبدى العجوز فقد استقبلهم هاشأً وأجلسهم على مائدته

١ - سلم يعقوب: ورد ذكره في العهد القديم (سفر التكوين: ١٢/٢٨ - ١٧).

راه يعقوب في منامه، ويؤدي الى السماء.

أهزعت الصرخة الفتى، فسقطت للشفيفة المقدسة على بلاط الأرض فرفعها، ووضعها على شفتيه وقبلها، ومن ثم ذهب ووقف عند الزاوية، ونظره مُثَبَّت على رئيسه. وأخذ رئيس الدير يهتف، وقد تشبَّث أظافر يديه بالكرسي الكهنوتي «يا دانيال، لقد تحققت كل نبوءاتك. الحيوانات الأربعة دامت علينا، والأسد المجنَّح بجناحي نسر انقضَّ علينا ومزَّقنا، والدب الذي اقتات على اللحم العبراني جاء وأكلنا، والنمر ذو الرؤوس الأربعة جاء ومزَّقنا أشتاتاً، شرباً، وغريباً، وشمالاً، وجنوباً. والحيوان المخزي ذو الأسنان الحديدية والقرون العشرة يجمُّ علينا: إنه لم يأت بعد، ولم يفر. إن نبوءتك بالخزي والخوف اللذين سيحلان بنا قد تحققت يا رب - فشكراً لك! لكك تبيات أيضاً بالطيبات. فلم لم ترسلها إلينا؟ لم أنت قابض اليد كثيراً حين يتعلق الأمر بها؟ لقد زودتنا بقدر واسع من المصائب، فكن كريماً معنا الآن في خيراتك أين هو ابن الانسان الذي وعدتنا؟... يوحنا، اقرأ!»

خرج الفتى من الركن الذي كان واقفاً فيه والشفيفة تحت قميصه. اقترب من المقرأ وياشر القراءة من جديد. لكن صوته كان قد غدا كصوت رئيسه ضارياً.

«كنت أرى في رؤى الليل وإذا مع سحب السماء مثل ابن الانسان أتى وجاء إلى القديم الأيام فقربوه قدامه، فأعطي سلطاناً ومجداً وملكوته لتتعبَّد له كل الشعوب والأمم والألسنة. سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملكوته مالا ينقرض»^(١)

لم يعد بإمكان رئيس الدير أن يكبح نفسه أكثر من ذلك، فترك كرسيه الكهنوتي، وخطا خطوة، ثم أخرى، حتى وصل إلى المقرأ

١ - سفر دانيال ٧/ ١٣ - ١٤.

الخاصة. وكان يوحنا عندئذ في السادسة عشرة من عمره. وبينما كان يأكل، وقد مال فوق طعامه، شعر بنظر رئيس الدير مسلطاً على شروقه رأسه.

يزيح العظام جانباً، وينفذ خلال خطوط درز جمجمته إلى مخه. رفع بصره، وقد انتابه الرعب، فتلاقت أنظارهما في منتصف المسافة عبر مائدة احتفال الفصح. ومنذ ذلك اليوم فصاعداً لم تعد قوارب صيد السمك ولا بحيرة جنيسارت تكفي الفتى. أصبح يكثر من إطلاق التهديدات وذوى جسمه حتى وصل القلق بالعجز يزيد إلى حد جعله يصرخ به «أنت لم تعد تفكر بالصيد، بل بالرب. اذهب، اذن، اذهب إلى الدير. لدي ولدان، وقد شاء الرب أن أنقاسهما معه، فلنَجِر القسمة وننته - وليكن ما يشاء»

حذق رئيس الدير بالفتى المائل أمامه، كان قد قرر أن يعتقه، ولكن حين نظر إليه، رقت قسماته. سأل «لماذا توقفت، يا ولدي؟ لقد قطعت الرؤيا من منتصفها. لا يجوز أن تفعل ذلك، إنه نبي، ويجب توفير الأنبياء»

اصطليح وجه الفتى بحمرة قانية، وفتح الشفيفة الجلدية ومدها على المقرأ مرة ثانية، وياشر من جديد بقرا مرثلاً بنبرة صوت لا تتغير «(بعد هذا كنت أرى في رؤى الليل وإذا بحيوان رابع هائل وقوي شديد جداً وله أسنان من حديد كبيرة. أكل وسحق وداس الباقي برجليه. وكان مخالفاً لكل الحيوانات الذين قبله. وله عشرة قرون...»^(٢)

صرخ رئيس الدير «توقف! يكفي هذا!»

١ - سفر دانيال: الاصحاح السابع/ ٧.

وزالت قدمه وكاد يقع، لكنه نجح في الاتكاء بباطن يده بقوة على المخطوط المقدس وثبت نفسه.

«أين ابن الانسان الذي وعدتنا؟ اكان ذلك وعداً منك أم لا؟ لا يمكنك أن تتكره هاهو مكتوب»، وضرب يده بقوة وغضب، وجذل على النبوة، «هاهي هنا مكتوبة! يوحنا، أعد قراءتها»

لكن رئيس الدير لم يصبر على الانتظار، وقبل أن يتاح الوقت للراهب المبتدئ للبدء كان قد قبض على المخطوط، ورفعه عالياً في وجه الضوء وأخذ يقرأ بصوت عال، بنبرة انتصار، ودون أن ينظر فيه «فأعطي سلطاناً ومجداً وملكوته، لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة، سلطانه سلطان أبدي مالم ينزل وملكوته مالا يتفرض»

ترك الليفة مفتوحة على المقرأ ونظر عبر النافذة الى الظلمة في الخارج.

وصرخ وهو يحرق في الظلمة «هأين هو ابن الانسان؟ انه لم يعد يخصك، بما أنك وعدتنا به - إنه ملكنا! هأين هو؟ لماذا لم نعطه سلطاناً ومجداً وملكوته حتى يتمكن شعبك، شعب اسرائيل من حكم العالم كله؟ لقد تبيّنت أعناقنا من طول مراقبة السماء وانتظارها لتفتح أبوابها. فمتى، متى؟ نعم - لماذا تضرب على هذا الوتر - أنت تدرك جيداً أن ثانية واحدة بالنسبة لك هي آلاف السنين بالنسبة للبشر، حسن، ولكن لو كنت عادلاً يا رب لقسست الزمن بمقياس البشر، وليس بمقياسك. هذه هي العدالة» وهمّ بالتوجه الى النافذة، لكن ركبتيه وهنتا فتوقف ومدّ يديه وكأنما أراد أن يتمسك بالهواء. وهرع الصبي لمساعدته، لكن رئيس الدير غضب وأوماً له بأن لا يلمسه، ثم استجمع كل مألديه من قوة حتى وصل الى النافذة، واستند الى الجدار، ومد عنقه قدر

ما استطاع ونظر الى الخارج. ظلام... قلّ ومض البرق الآن، لكن السيول ما تزال تنهمر على الصخور التي تطوق الدير. وفي كل مرة كانت نباتات الصبار تضأ يومض البرق كانت تبدو وكأنها تدور ثم تتحول: تصبح عشيرة من المعاقين أذرعها المقطوعة المجنومة مرفوعة نحو السماء.

راح رئيس الدير ينصت، مشدود الجسم والروح. وعن بعد تهاوى اليه عواء اللعب الضاري الدائر في الصحراء. لم تكن الحيوانات جائعة، بل خائفة. فبالقرب منها، فوقها تقريباً، ثمة وحش متدثر بالنار وجارت دوامة ريح واقتربت تشق الظلام. كان رئيس الدير ينصت الى أصوات الصحراء وبينما هو يفعل ذلك ارتمش فجأة والتفت. ثمة مخلوق خفي دخل صومعته! أمعن النظر. كانت الشعلات السبع للشمعدان تخفق باضطراب وتكاد تتطفئ، والأوتار التسعة للقيثارة، التي كانت موضوعة في الزاوية دون استعمال، تهتز بعنف وكأن يداً خفية شدتها بغضب وتثوي أن تقطعها. وبدأ رئيس الدير يرتجف.

قال بصوت خفيض، وهو ينظر حوله «يوحنا، تعال الى هنا، اقترب مني»

أمصر الفتى بالخروج من زاويته واقترب.

قال «لييك يا أبت»، ووضع ركبتيه على الأرض، استعداداً للسجود.

«أذهب يا يوحنا واستدع الراهبان، لدي ما أخبرهم به قبل أن أرحل»

«قبل أن ترحل يا أبت؟»

أخذ الفتى يرتعش. فقد رأى جناحين أسودين كبيرين يخفقان على ظهر العجوز.

قال رئيس الدير «أنا راحل»، وقد بدا صوته فجأة كأنه أت من الضفة الأخرى، «أنا راحل! ألم تر الشعلات السبع تتمايل وتبتعد عن فتيلها؟ ألم تسمع الأوتار التسعة للقيثارة تهتز بجنون، وتكاد تنقطع؟ أنا راحل يا يوحنا، عجل واستدع الرهبان. أريد أن أتحدث إليهم»
أخفض الفتى رأسه وابتعد. وظل رئيس الدير واقفاً وسط الصومعة تحت الشمعدان السباعي الفروع، أخيراً صار وحيداً مع الرب: بات بوسعه أن يُصرِّح بما يدور في خَلْده بحرية، دون أن يخشى أن يسمعه أحد. فرفع رأسه بهدوء كان يعرف أن الرب واقف أمامه.

قال له «أنا قادم، أنا قادم. لماذا دخلت صومعتي، لماذا تحاول أن تطفئ النور، وأن تهشم القيثارة وتأسرني؟ أنا قادم، ليس فقط تلبية لإرادتك، وإنما لإرادتي أنا، أنا قادم، حاملاً بيدي اللوائح التي تتضمن شكوى الناس مكتوبة. أريد أن أراك وأن أكلمك. أعرف أنك لا تسمع أو هكذا تتظاهر، لكني سأدق بقوة على بابك حتى تستجبه، وإذا لم تفتح (لا أحد هنا الآن ليسمعني، لذا سأتكلم بحرية). إذا لم تفتح لي بابك، سأحطمه! أنت عنيف، وتحب العنيفين - فوحدهم تدعوهم أبناءك. لقد كنا حتى الآن نبكي، ونسجد ونقول: فلنكن إرادتك! ولكن لا يمكننا أن ننظر هكذا إلى الأبد يا رب، إلى متى سننتظر؟ أنت عنيف، وتحب العنيفين - وسوف نصبح عنيفين. فلنكن إرادتنا الآن - إرادتنا نحن!»

بينما كان رئيس الدير يتكلم ظل يصيح سمعه لكي يتمكن من سماع كل ما يصدر عن الهواء. لكن هطول المطر كان قد خف، تراجع الرعد داخل المدى - إذ خَفَّتْ صوت القصف وأصبح يأتي من الشرق، من البعيد عبر الصحراء. وكانت الشعلات السبع تحترق بثبات فوق رأس العجوز الأبيض.

انتظر رئيس الدير بلُفه الصمت، انتظر وقتاً طويلاً اللهب كي يعود فيهتز، والقيثارة كي ترتعش أوتارها مرة أخرى خوفاً...
لا شيء! هز رأسه. غمغم «إن جسد الإنسان ملعون، الجسد هو الذي يتدخل دائماً ويرفض أن يدع الروح ترى وتسمع اللامرئي. اقتلني يا رب، أريد أن أكون قادراً على المثل بين يديك متحرراً من جدار الجسد الفاصل، حتى أسمعك حين تكلمني!»

في تلك الأثناء فتح باب الصومعة دون ضجيج، وملأ الرهبان اليقطين في غير أوانهم المكان، باردتهم البيضاء.. وقفوا عند الجدار كعدد كبير من الأشباح، وانتظروا. كانوا قد سمعوا كلمات رئيس الدير الأخيرة، وعلقت أنفاسهم في حناجرهم. كانوا يقولون لأنفسهم، إنه يكلم الرب، إنه يوبِّخ الرب: الآن ستضربهم الصاعقة! فوقوا ملتصقين بالجدار، يرتجفون.

أرسل رئيس الدير بصره في المدى البعيد. كانت عيناه في مكان آخر، فلم تريا شيئاً. اقترب الراهب المبتدئ منه وسجد.
قال «لقد جاؤوا يا أبت». تكلم بصوت خافت، حتى لا يفزعه.

سمع رئيس الدير صوت تابعه، فالتفت ورأى الآخرين. تحرك من مكانه في وسط الصومعة، بخطى منتظمة، بطيئة، ناصباً جسده المريض قدر استطاعته. وصل إلى كرسيه الكهنوتي، وارتقى المقعد المنخفض الموضوع أمامه، ثم توقف. انحلت التهمة التي تحوي على حكم مقدسة عن مكانها حول ذراعه، فاندفع الراهب المبتدئ إلى الأمام بسرعة في التوقيت المناسب لكي يُحكم ريطها وذلك قبل أن تتلوث بلمس الأرض التي تسير عليها البشر. مد رئيس الدير يده وقبض على صولجانه ذي المقبض العاجي الذي كان بجوار الكرسي الكهنوتي، وحين استعاد قواه، رفع رأسه بشموخ ومرَّ ببصره على الرهبان الذين كانوا يقفون صفّاً واحداً عند الجدار.

المقدس، مصابيح انطفأت. أضئها لكي ندخل الى عمق الأمثلة،
ونبصر»

«في البدء، أيها الأب حبقوق، كان التوق الى الحرية. الحرية لا توجد، ولكن، فجأة، وسط أغوار العبودية، يحرك رجل يديه المغلولتين بسرعة، وعنق. وكأنهما جناحان، ومن ثم رجل آخر، فآخر. وأخيراً الناس جميعاً»

وتعالت أصوات متسائلة بحبور: «تقصّد شعب اسرائيل؟»

«نعم، يا أخوتي، شعب اسرائيل! هذه هي اللحظة العظمى الرهيبة التي نعيشها الآن. لقد أصبح التوق للحرية ضارياً، والأجنحة تخفق بعنف، إن المخلص قادم! نعم، يا أخوتي، المخلص قادم، لأن... انتظروا معاً، حسب ظنكم، خلق ملاك الحرية هذا؟ أمن عطف الرب وأحسانه؟ أم من حبه؟ أم من عدالته؟ لا، هذا الملك خلق من صبر وعناد وكفاح الجنس البشري»

غامر حبقوق العجوز بالاعتراض قائلاً «إنك ترمي بالتزام عظيم، بعبء لا يُحتمل، على كاهل الانسان، أيها الرئيس المقدس. انتق به الى هذا الحد»

لكن رئيس الديبر تجاهل الاعتراض. لقد كان تفكيره منصباً على المسيح، فهتف «انه أحد أبنائنا، ولهذا سمّته مخطوطات ابن الانسان لماذا في ظنكم واضب آلاف من رجال بني اسرائيل ونسائهم على التزاوج، جيلاً بعد جيل؟ لكي تحتك أفعالهم وتتدغدغ أعضاؤهم الجنسية؟ لا إن كل تلك الآلاف والآلاف من القبلات كانت لازمة لانتاج المسيح»

خبط رئيس الديبر بصولجانه بعنف على الكرسي الكهنوتي، وقال «احذروا يا أخوتي! فقد يأتي في وضع النهار، قد يأتي في منتصف الليل. كونوا على استعداد دائماً: كونوا نظيفين، جاثنين

قال «يا أخوتي، لدي بعض الكلمات أقولها لكم - وهي الأخيرة. افتحوا آذانكم، وإذا كان بينكم ناعس، فليغادر! إن ما سأقوله صعب. يجب أن تستيقظ كل آمالك ومخاوفكم وأن تنتصب إذا تمك استعداداً لأعطائي جواباً»

قال الأب حبقوق، وهو أكبر أعضاء بطانة رئيس الديبر سناً «إننا منصتون، أيها الرئيس المقدس»، ثم وضع يده على قلبه.

«هاكم آخر كلماتي يا أخوتي. بما أنكم جميعاً أغبياء فسألكم بلغة الأمثال»

كرر الأب حبقوق قائلاً «إننا منصتون أيها الرئيس المقدس» أشرق الرئيس رأسه وقال بصوت خفيض «أولاً جاء الجناحان ثم الملك»

سكت، ونظر الى الرهبان واحداً بعد الآخر، ثم هز رأسه. قال «يا أخوتي، لماذا تحذقون بي هكذا، فاضري الأقوام؟ أيها الأب حبقوق، أراك رفعت يدك وتحركت شفتاك، أليدك اعتراض؟» وضع الراهب يده على قلبه وقال «لقد قلت (أولاً جاء الجناحان ومن ثم الملك). إننا لم نصادف هذه الكلمات في التوراة أيها الرئيس المقدس»

«كيف كان يمكنك أن تصادفها أيها الأب حبقوق؟ واحسرتاه! إن عقولكم مازالت معتمة. إنكم تتطرون في أقوال الأنبياء فلا ترون غير الأحرف، ولكن ماذا بوسع الحروف أن تقول؟ إنها قضبان السجن الذي تخفق الروح داخله من طول الصراخ. إن الروح تنتقل بحرية بين الحروف والأسطر، وفي أرجاء الهوامش الخالية، وأنتقل أنا معها لأحضر لكم هذه الرسالة العظيمة: يا أخوتي، أولاً جاء الجناحان ومن ثم جاء الملك»

عاد الأب حبقوق ففغر فاه. قال «إن عقولنا، أيها الرئيس

ويقظن. الويل لكم ان هو وجدكم قذرين، مُتَخَمِينَ أو نائمين»

انضمَّ الرهبان بعضهم الى بعض لا يجرؤ أحد على رفع بصره نحو رئيس الدير. كانوا يحسبون بلهب عنيف يتلظى متصاعداً من قمة رأسه ومن ثم يهاجمهم.

نزل المريض عن كرسيه ومشى بخطوات ثابتة باتجاه مجموعة الأخوة الخائفين. مدَّ صولجانه وراح يلمسهم به واحداً بعد آخر. وهتف «احذروا، يا أخوتي! اذا ضعف التوق ولو لحظة، تعود الأجنحة فتصبح سلاسل، ابقوا يقظين، جاهدوا، ابقوا شعلة أرواحكم مضاءة نهاراً وليلاً. اضربوا بشدة! اطرخوا الأجنحة! أنا راحل - انني شديد التوق للتحدث الى الرب. أنا راحل... هاكم كلماتي الأخيرة: اضربوا بشدة! اطرخوا الأجنحة!»

فجأة توقفت أنفاسه، وانزلق الصولجان من يده، وسقط العجوز دون أن يند عنه صوت، وبهدهو، ورفق، على ركبتيه وتدرج بصمت على يلاط الأرضية. أطلق الراهب المبتدئ صرخة وهرع لتجدة سيده. أبتعد الرهبان عن موقعهم عند الجدار، ومالوا ومددوا رئيس الدير على الحجارة، ثم أخفضوا الشمعدان السباعي الشعلة ووضعوه بجوار وجهه المزرق، الجامد الحركة. كانت لحيته تتلألأ، وكان رداؤه الأبيض قد انفتح، كاشفاً عن غفارة خشنة مزودة بكلايات حديدية حادة كانت تلف صدر العجوز وجنبه المدماة.

وضع الأب حبقوق يديه على صدر رئيس الدير. قال «لقد مات»

قال آخر «حان وقت انعقاده»

همس ثالث «لقد اهترق الصديقان وعاد كلُّ الى بيته، عاد اللحم الى التراب والروح الى الرب»
ولكن بينما هم يتحدثون ويعدون الماء لتسخين غسيله، فتح

رئيس الدير عينيه، فتكص الرهبان وقد مستهم الرعب وراحوا يحذقون به. كان وجهه متألّفاً، وتحركت يداه النحيلتان، بأصابعهما الملوية، وتركزت نظرة عينيه بنشوة في الفراغ.

ركع الأب حبقوق ومرة أخرى وضع يده على قلب رئيس الدير، وهمس «إنه يحقق. إنه لم يمت».

التفت الى الراهب المبتدئ الذي كان ساجداً عند قدمي العجوز يقبلهما. قال «انهض يا يوحنا. امتط أسرع جمل وانطلق الى الناصرة لتحضر العجوز شمعون، الخبر، سوف يعمل على شفائه. اسرع، الفجر ييزغ»

كان النهار يطلع، وقد تلاشت السحب، والأرض المشبعة بالماء المفتلة حديثاً تتلألأ وترفع أنظارها نحو السماوات امتناناً. وانطلق طائرا باشق الى السماء وراحا يحلقان في دوائر فوق الدير ليحفاً.

مسح الراهب المبتدئ دموعه وتوجه الى الاسطبل ليختار أسرع الجمال. كان صغيراً، نحيلاً على جبينه نجمة بيضاء، جعله ينخ، ومن ثم امتطاه وأطلق هتافاً عالي النبرة من حنجرته، فانترع الجمل نفسه ناهضاً عن قواعده، وانتصب واقفاً ويخطوات واسعة كبيرة انطلق الى الناصرة يسابق الريح.

كان ضياء الصباح يتلألأ فوق بحيرة جنيسارت، والمياه تومض بأول خيوط النهار، موحلة عند الضفاف من التربة التي جرفها المطر اليها خلال الليل، أما على مسافة أبعد فهي زرقاء مخضرة، وأبعد منها كانت بيضاء كالحليب، وكانت أشرعة قوارب الصيد منشورة لتجف. وكانت بعض القوارب قد وصلت الى عرض المياه؛ وبدأ الصيد، وعلى المياه المتماوجة جثمت طيور الزقزاق ذات الحلقة البيضاء الوردية سعيدة. وعلى الصخور وقفت طيور الغاق

السوداء، وعيونها المدوّرة تنظر بثبات الى البحيرة فلمل سمكة تظهر على السطح لتمرح بحبور وسط الزبد. وبالقرب من الشاطئ كانت قرية كفرناحوم المبللة حتى العظام، تستيقظ: هالدبكة تتفض الماء عن ريشها، والحمير تنهق، والعجول تخور برفق، ومع هذه الأصوات المنكرة تمتزج أحاديث البشر ذات المغزى مضفية الأمان والسعادة على الجو العام.

كان هناك قرابة العشرة صيادين واقفين في كهف منعزل، أقدامهم الكبيرة مثبتة في الحصص، ينفون بصوت هادئ وهم يسحبون ببطء وبراعة الشباك. وفي مكان يعلوهم وقف زبدى العجوز، رئيسهم الثرثار، الذي يفوق دهاؤه دهاؤهم بسبع مرات. كان يتظاهر بأنه يحب كلا منهم كابنه وأنه يشفق عليهم، لكنه لم يكن يدعهم يرتاحون لحظة واحدة. كانوا ينالون أجرهم يومياً، وكان العجوز الشمره المهذار يحرض على أن لا يتيح لهم لحظة للراحة.

دمدمت النواقيص، وتواثبت قطعان الماعز والغنم باتجاه الشاطئ، ونبح الكلاب، وصفر أحدهم، التفت صيادو السمك لينظروا، لكن العجوز زبدى اندفع الى الأمام وقال بغضب «إنه فيليس وأقرباؤه. أما نحن، فسنعود الى عملنا» وقبض بنفسه على الحبل متظاهراً بأنه يساعدهم.

كان صيادو السمك يتوافدون دون انقطاع قادمين من القرية، محمّلين بالشباك تتبعهم زوجاتهم، اللواتي كن يحملن مؤونة يوم بوازنونها على رؤوسهن. ولم يضع الصبية الذين لوحتهم أشعة الشمس الوقت في الامساك بالمجاديف والتجديف. فقد كانوا يتوقفون بعد كل ضربتين أو ثلاث ليقتضمو قضمة من كسرات خبز يابس يحملونها بأيديهم. صعد فيليس الى إحدى الصخرات لكي يصبح مرئياً، وأخذ يصفر. أراد أن يفتح حديثاً، لكن العجوز زبدى

عيس، ثم وضع يديه على شكل بوق على فمه وصرخ «دعنا وشاننا يا فيليس. لدينا عمل نؤديه. اذهب الى مكان آخر له، ثم ادار له ظهره بجفاء، وغمغم «فلينذهب ويشترى مع يونان، انه هناك يرمي شبابه: أما نحن، يا شباب، فلدينا عمل نؤديه». ومرة أخرى أمسك بعقدة في الحبل وأخذ يشد.

واصل الصيادون غناء عملهم الحزين، الرتيب، وعيون الجميع مثبتة على الطوافات المصنوعة من اليقطين الأحمر، التي كانت تقترب باضطراب..

ولكن حين كادوا ينتهون من جر رحم الشبكة المثقل بالسمك الى الشاطئ سمعوا أزيزاً كثيباً عن بعد، يملأ السهل كله، مصحوباً بصرخات حادة كالتي تنطلق من الترنيم الجنائزي. أرهف العجوز زبدى أذنه الكبيرة الشّعيرة لكي يسمع بوضوح، وانتهر رجاله الفرصة وكفوا عن العمل.

سال زبدى «ماذا حدث يا شباب؟ هذه ترنيمة جنازية، إن النسوة يندبن»

أجاب صياد عجوز «ثمة رجل مهم قد مات. أطال الرب عمره، يا رئيس»

لكن العجوز زبدى كان قد ارتقى إحدى الصخرات. ومسحت عيناه الجشعتان السهل، فرأى رجالاً ونساءً يهرعون الى الحقول، يقعون وينهضون من جديد. ويرفعون عقيرتهم بالترتيل الجنائزي. وبدأت الفوضى تدب في أرجاء القرية كلها. كانت النسوة أثناء مرورهن يشددن شعورهن، لكن الرجال من خلفهن كانوا يسرون صامتين، يطأطئون رؤوسهم الى الأرض.

صرخ زبدى نحوهم «ماذا حدث؟ الى أين أنتم ذاهبون؟ لماذا تبكي النساء؟»

لكنهم كانوا مسرعين يتجاوزونه متجهين الى بيادر الحنطة دون ان يجيبوا.

زعم زبدي وهو يلوح بيديه «هيه، الى أين أنتم ذاهبون؟ من مات؟ من مات؟»

توقف رجل قصير القامة ممثلن الجسم، وأجاب لاهئاً «الحنطة!»

«قل كلاماً مفهوماً، أنا زبدي، ولست ممن يمزح معهم الناس، من الذي مات؟»

أجابته الصرخات التي كانت تأتي من كل اتجاه «الحنطة، الشعير، الخبز»

ظل العجوز زبدي واقفاً فاغراً الفم، لكنه فجأة صفع مؤخرته : لشد فهم. وغمغم «إنه الطوفان . لقد جرف المحصول عن بيادره.

حسن، دع المساكين يشتكون، فهذا ليس شأني» أصبح الصراخ الآن يغمر المسهل، وقد خرج كل الناس من منازلهم. وراحت النسوة تقع على البيادر وتتخبط في

الأحوال، تسرع لجمع الكمية الصغيرة التي تبقت من الحنطة والشعير على شكل فضالة مترسبة في التجاويف والأخاديد .

وتراخت أذرع رجال زبدي الى أجنابهم عاجزة : لم يعد بها قوة لسحب الشباك. ولما رآهم زبدي وقد أخذوا يحدقون جميعاً باتجاه

المسهل وأيديهم عاطلة، استشاط غضباً.

صرخ، وهو ينزل عن الصخرة «الى العمل!». ومرة أخرى قبض على الحبل وتظاهر بالسحب «يا للسماء! نحن صيادو سمك، تمجد

اسم الرب، ولسمنا مزارعين. فليأت الطوفان. السمك خبير في المسباحة ولا يفرق. اثنان واثنان تساوي أربعة!»

ترك فيلبس قطيعه وراح يقفز من صخرة الى صخرة. أراد ان

يتكلم. هتف حين وصل اليهم «انه طوفان جديد يا شباب، توقفوا حباً بالرب، ودعونا نتحدث. انها نهاية العالم! فقموا احصوا حجم الكوارث. أول أمس صلبوا أملاًنا العظيم، الزيلوت ، وبالأمر فتح الرب بوابات سيول السماء - بالضبط في الوقت الذي امتلأت فيه البيادر بالحنطة - وضاع خبزنا. وليس قبل زمن بعيد ولدت إحدى غنماتي خَملاً برأسين. إنها نهاية العالم، أوكد لكم حباً بالرب، كفوا عن العمل ودعونا نتحدث!»

لكن العجوز زبدي احتقن غضباً، فزعم، وقد قفز الدم الى رأسه «الآن تغرب عن وجهنا يا فيلبس وتدعنا وشأننا، ألا ترى أن لدينا عملاً نتجزه. نحن صيادو سمك وأنت راع، فليشتك المزارعون

كما يشاؤون - ماهمنا نحن؟ .. يارجال، الى العمل!»

اعترض الراعي «أليس في قلبك رحمة يا زبدي على المزارعين الذين سيموتون جوعاً؟ أنت تعلم أنهم اسرايليون مثلاً، أخوة لنا.

اننا جميعاً من سلالة واحدة،كلنا، ومن الواضح أن المزارعين يمثلون الجذور فماذا جفّت، فسنجف جميعاً. وثمة أمر آخر يا زبدي، اذا

ما أتى المسيح وكنا عندئذ ميتين جميعاً، فمن سيخلص؟ أجبني ان استطعت!»

نفت زبدي العجوز وتأفف، ولو ان أحداً قرص منخريه، لانفجر. «ارحل، حباً بالرب، عُد الى أنسبائك، لقد ملكت سماع

الكلام عن المسحاء^(١)، وسئمته، فما إن يأتي أحدهم حتى يصلب، ويأتي الذي بعده فيصلب أيضاً. ثم ألم تسمع بالرسالة التي

احضرها اندراوس الى والده يوثان : يبدو أنك أنمنا ذهبنا وحيثما وقفت تجد صليباً. ان الزنزانات تفيض بالمسحاء. أوو، لقد طفق

(١) مسحاء : جمع (مسيح).

الكيل! لقد كانت أمورنا جيدة بدون مُسحاه، فلا يأتي من ورائهم غير الازعاج هيا أعطني بعض الجبن فأعطيك ملء مقلاة من السمك. أعطني فأعطيك: هذا هو المسيح»
ضحك واستدار نحو أولاده بالتبني «انشطوا، يا أبنائي الشجعان حتى نضرم النار، ونطهو حساء الشودر^(١) ونأكل. انظروا، هاقد ارتفعت الشمس مقدار ياردة ونحن لم نتجز شيئاً بعد»
ولكن ما إن رفع فيلبس قدمه استعداداً لينضم الى قطيعه حتى عاد فتوقف. فقد ظهر على الدرب الضيق، الذي يعانق شاطئ البحيرة، حمار يكاد يرزح تحت ثقل حمولة وصلت حتى أذنيه، وخلف الحمار سار عملاق حافي القدمين، مفتوح القميص - وذو لحية حمراء. كان يحمل بيده عصا ذات شروخ ينخس بها الحيوان: وكان متعجلاً.

قال الراعي، وقد تسمر في مكانه: انظروا! أظن أنه الشيطان العجوز الكثيف الشعر بذاته، يهوذا الاسخريوطي. لقد باشر مرة أخرى جولاته على القرى يتعل البغال ويصنع المعاول. هيا بنا نرى ماذا لديه ليقوله»

غنغم زبدي العجوز «اللغة عليه! أنا لا أحب شعره. لقد سمعت أن سلفه قاين^(٢) كانت له لحية مثل هذه»
قال فيلبس «لقد ولد المسكين في صحراء ايدوميا، التي لازالت الأسود تجوبها حتى الآن، لذا يحسن أن لا نثير معه نقاشاً» ووضع اصبعين في فمه وأطلق صفيهاً لسائق الحمار.
هتف «مرحباً، يهوذا، سعيد برؤيتك. اقترب من هنا فيلبس حتى نستمتع برؤيتك»

١- حساء يصنع من السمك والبطاطا والبصل.

٢- او قابيل.

بصق ذو اللحية الحمراء وتلفظ بسباب. لم يكن يحب هذا الراعي، ولا زبدي، ذاك الطفيلي - لم يكن يحبهما على الإطلاق. لكنه حداد، ورجل محتاج، فاقترب.

سأله فيلبس «ماذا تحمل لنا من أخبار من القرى التي مررت بها في طريقك الطويلة؟ المأذي يحدث في السهل؟»

أوقف ذو اللحية الحمراء حماره بشد ذيله، وأجاب مع ضحكة جافة «كل شيء على أحسن مايرام. الرب رحيم على الدوام، تمجد! نعم، أنه يحب شعبه! فهو في الناصرة يصلب الأنبياء، وهنا في السهل يبعث الطوفان ويسلب الناس خبرهم. ألا تسمع الندب؟ النساء تولول على فقدان الخبز: وكأنما على فقدان أولادهما»

اعترض زبدي وقد انتابه الغيظ لأن كل هذا الحديث كان يعيق سير عمل النهار، «إن كل مايفعله الرب حق. إنني أثق به مهما فعل، فإذا غرق الجميع ونجوت أنا وحدي، فالرب بهذا انما يحميني، وإذا نجا الجميع وغرقت وحدي فالرب بهذا أيضاً يحميني. انني أثق بالرب، أؤكد لك، وأثنان واثان يساوي أربعة»

حين سمع ذو اللحية الحمراء هذه الكلمات نسي أنه كان عاملاً ميالوماً يعيش ككشاف يومه، وأن اعتماده هو على كل فرد من أولئك الناس لتأمين أسباب رزقه، فاتفعل بتأثير من طبعه الشرير، وأخذ يتكلم دون أن يلطف كلماته «إن ثقتك يا زبدي تعود الى أن الرب يمهّد لك ولأعمالك السبيل، وسيادتك تملك خمسة قوارب صيد في خدمتك، ولديك خمسون صياد سمك تستغلهم كالعبيد، تطعمهم فقط بما يكفي ليزودهم بالقدره على العمل لأجلك وبحيث لا يموتوا جوعاً - وطوال الوقت وسُموك تحشو خزائنك بالتفائس، ومستودعاتك بالمؤن، وبطنك بالطعام. وبعد كل هذا ترفع يديك نحو السماء وتقول «الرب عادل، أنا أثق به! العالم جميل، أمل أن لا

يتبدل... لماذا لا تسال الزيلوت من الذي صُلب في ذلك اليوم
ولماذا كاسخ لتحريرنا، أو اسال الفضاحين، الذين سلبهم الرب
مخزون عام كامل من الحنطة في ليلة واحدة - اسألهم ! انهم
يتخبطون في الوحل الآن يلتقطونه حبة حبة، ويبكون. أو اسألني
أنا. إنني أجوب القري وأرى وأسمع معاناة شعب اسرائيل. الى
متى؟ الى متى؟ ألم تسال نفسك هذا السؤال يا زبدي؟

اجابه العجوز «الحق أقول لك، انني لا أثق بذوي الشعر
الأحمر، أنت من سلالة قايين الذي قتل أخاه، اذهب الى الشيطان
يا صديقي. لا أرغب بالتحدث مع أمثالك»

قال هذا ثم أدار له ظهره.

صفع ذو اللحية الحمراء الحمار بالعصا ذات الفروع، فرفع
الحوان رأسه، ثم ارتد الى نيره، وانطلق كالسهم يركض.

غمغم يهوذا «لا تخف، أيها الطفيلي العجوز، فالمسيح آت ليضع
كل شيء في نصايه»

بعد أن التفت منعطفاً حول الصخور، استدار وهتف «سوف
نتاح لنا الفرصة لنناقش في هذا الأمر ثانية يا زبدي، سيأتي
المسيح ذات يوم، ليس كذلك؟ سيأتي وعندئذ سيضع بنفسه كل
وغد في مكانه الصحيح، لست أنت الوحيد الذي لديه الثقة! الى
لقاء - في يوم الحساب»

اجابه زبدي «الى الجحيم، يا ذا الشعر الأحمر»، أخيراً ظهر
رحم الشبكة للظفر، وكان ملان يمسك الحفار والبوري الأحمر.

كان فيلبس واقفاً بين الاثنين، عاجزاً عن التحيز لأي منهما. إن
ماقاله يهوذا صحيح وينم عن شجاعة، لظالما أحسن الراعي برغبة
بقذف مثل هذا الكلام في وجه العجوز القبيح أو بضربه به على
رأسه، لكنه لم يكن يملك الشجاعة الكافية. لقد كان هذا العنيد

مالكاً واسع السلطة؛ قوياً على اليأس وفي البحر. كان يملك كل
مرج من المروج التي ترعى فيها ماعز فيلبس وغنمه - فكيف يقدر
الراعي على مهاجمته؟ إن هذا الأمر يتطلب إما مجنوناً أو بطلاً،
وفيلبس لا هذا ولاذاك. انه ببساطة متبجح وثرثار، ولم ينتهز قط
أي فرصة مفيدة.

لذا لزم الصمت أثناء شجار الاثنين الآخرين، وظل ساكناً،
يكبله الخجل والتردد. وكان الصيادون حينئذ قد سحبوا الشبابك،
فانحنى معهم وراح يساعدهم بملء السلال الكبيرة. حتى زبدي
غاص حتى وسطه في الماء، ومن هناك كان يوجه حركة الرجال
والأسماك.

ولكن بينما هم يبدون اعجابهم بالسلال التي تفيض بما فيها،
ويملاهم التيه، تنامي الى اسماعهم فجأة صوت ذي اللحية
الحمراء الأجن من الصخرة المقابلة «هيه، زبدي»
تظاهر العجوز زبدي بالصمم.

مرة أخرى هدر الصوت «هيه، زبدي، خذ بنصيحتي واذهب
وابحث عن ابنك يعقوب»

صرخ العجوز مهتاجاً «يعقوب»، لو كان الأمر يتعلق بابنه
الأصغر، فالضرر قد وقع : لقد أضاعه. ولم يكن يرغب بفقدان
هذا أيضاً. ليس لديه ابن آخر، وكان يحتاج اليه في عمله، فخطب
يهودا بصوت قلق «يعقوب! ماذا لديك لتقوله عن يعقوب، يا ذا
الشعر الأحمر اللعين؟»

«لقد رأيته على الطريق يصاحب صانع الصلبان - وكانا
يستمتعان بتبادل الحديث»

«عن أي صانع صلبان تتحدث أيها الكافر؟ أفصح»
«ابن النجار، الابن الذي يصنع الصلبان في الناصرة ويصلب

الأنبياء... لقد فأت الأوان! مسكين أيها العجوز زبدي - لقد ضاع
يعسوب أيضاً. كان لديك ولدان. خطف الرب واحداً منهما وخطف
الشيطان الثاني»

تسمر العجوز زبدي فاغر الفم. قفزت سمكة طائفة من الماء
وحلقت فوق رأسه، ثم عادت ففاصت في البحيرة واختفت.
غمغم العجوز مدحوراً «هذا نذير شؤم، نذير شؤم! أهكذا
سيغادرني ابني، مثل السمكة الطائفة، ويختفي في الأعماق
السحيقة؟»

التفت نحو فيلبس وقال «أرايت السمكة الطائفة؟ لاشيء
يحدث في العالم دون أن يكون له مغزى. قل لي، ما مغزى هذه
السمكة؟ أنتم الرعاة...»

«لو كانت حَمَلًا لأخبرتك، أيها الأب زبدي، حتى وإن لم أُر غير
ظهره. أما السمك فليس من اختصاصي». كان غاضباً لأنه كان
خلاقاً ليهودا، تنقصه الشجاعة ليظهر بما عنده كما يليق برجل.
قال «أنا ذاهب لأرعى قطعاني». قال هذا وهو يضع عصاه على
كتفه، ويقفز من صخرة إلى صخرة حتى لحق بيهودا.

ناداه «انتظر، يا أخي، أريد أن أتحدث معك»
أجابه ذو اللحية الحمراء «اذهب إلى قطيعك، يا جبان» دون أن
يلتفت إليه. اذهب إلى قطيعك، وابتعد أنفك عن شؤون الرجال. ولا
تداني بـ «أخ»، أنا لست ياخ لك»

«أقول لك انتظر. لدي ما أقضي به إليك، لا تغضب»
عندئذ توقف يهودا ونظر إليه بازدراء «لماذا لم تفتح فمك؟ لماذا
تخشاه؟ هل ستظل على خوفك بعد أن تعرف ما يحدث، ومن هو
الآتي، وما هو مصيرنا؟ أم لملك لست مستعداً بعد لمعرفة هذا.
حسن، أيها المسكين، لقد حان الوقت، وملك اليهود يقترب بكل

مجده - والويل للجبنة!»

ناشده فيلبس «زدني، يا يهودا، زدني، جرّني فوق الفحم، ارفع
العصا ذات الشعب التي تحملها واضربني بها لتمنحني بعضاً من
احترام الذات. لقد ملكت من كوني دائم الخوف»

اقترب يهودا منه بخطى بطيئة وقبض على ذراعه. قال «هل
يخرج هذا الكلام من قلبك يا فيلبس، أم أنها مجرد كلمات جوفاء؟»
«لقد ملكت، أؤكد لك. اليوم شعرت بالتمزز من نفسي. تقدّم، يا
يهودا، تقدّم وأرني الطريق. أنا مستعد»

تلقت ذو اللحية الحمراء حوله ومن ثم قال وقد أخفض صوته
«فيلبس، هل أنت قادر على القتل؟»
«رجال؟»

«طبعاً. ماذا كنت تعتقد - غنم؟»
«انتي لم تقتل رجلاً من قبل، لكني قادر على ذلك، نعم، حتماً،
في الشهر الثالث صرعت ثوراً وقتلته وحدي»
«قتل رجل أسهل. تعال معي»

أصابته الرعدة فيلبس. لقد فهم - سأل «هل أنت واحد منهم -
من الزيلوت؟» وكان الرعب يتلبس وجهه. كان قد سمع الكثير من
هذه العصابة الرهيبة، «القتلة القديسون»، كما كانت تسمّى. كانوا
ييثون الرعب في كل إنسان، من جبل حرمون نزولاً حتى البحر الميت،
وحتى أبعد من ذلك إلى الجنوب، إلى صحراء ايدوميا. كانوا يتقلون
وينشرون أفكارهم. مسلحين بعتلات، وحبال وسكاكين، ينادون: لا
تدفعوا الأناوات للكفرة. ليس لنا إلا رب واحد، هو أدوناي. اقتلوا كل
يهودي يعصى الناموس المقدس، وكل من يضحك، أو يتكلم أو يعمل
مع أعداء ربنا، الرومان. اضربوهم، اقتلوههم، مهّدوا الطريق لرو
المسيح! نظفوا العالم، اقتلوا الشوارع: فهو قادم!

كانوا يدخلون القرى والمدن في وضع النهار ليقتلوا، دون استشارة من أحد غير أنفسهم، صدوقيًا^(١) خائناً أو رومانياً متعطشاً لسفك الدماء. وكان ملاك الأراضي، والكهنة يرتجفون أمامهم، يستنزلون عليهم لعنة حرمانهم الكنسي؛ فهم يحرضون على حركات العصيان المسلح، وسببوا خروج الكتائب الرومانية، مما نتج عنه مذابح كانت تقع في فترات منتظمة وسفك أنهار من الدم اليهودي.

كرر فيلبس قوله همساً «أنت واحد منهم - من الزيوت؟»
سأل ذو اللحية الحمراء، ضاحكاً باحتقار «أخائف أنت، يا صديقي الشجاع؟ لا تجزع، لسنا قتلة، نحن نقاتل من أجل نيل الحرية، يا فيلبس، لتحرير أرواحنا. انهض. لقد حانت اللحظة لتبرهن أنت أيضاً للعالم أجمع على أنك رجل. انضم إلينا»
لكن فيلبس ألقى يده في الأرض وندم على الفور لأنه أفرط في التعبير عن مشاعره مع يهودا بشأن هذه المسألة. وقال في نفسه، لا بأس من الثغوة بكلمات تتم عن شجاعة. ومن الممتع أن نجلس مع صديق، أن نأكل معه، ونشرب، ونخرط في نقاشات خطيرة ونقول «سأفعل هذا» أو «سأبرهن على ذلك»، ولكن على رسلك يا فيلبس، لا تتماذى أكثر من ذلك، والا وجدت نفسك في مأزق.

مال عليه يهودا وراح يكلمه بنبرة صوت مختلفة. والآن لمس كفه الثقيل الشبيه بالمخبط كتف فيلبس برق وأخذ يداعبه. قال «مامعنى حياة الرجل؟ ما قيمتها؟ لا شيء، إذا لم تكن حرة. اننا نكافح من أجل الحرية، أؤكد لك. انضم إلينا»

١ - الصدوقي: أحد أفراد طائفة يهودية في زمن المسيح أنكرت الحشر ووجود الملائكة.

لزم فيلبس الصمت. ليته يستطيع أن يبتعد لكن يهودا كان يمسك به بحزم من كتفه.

«انضم إلينا! أنت رجل: قرر! هل معك سكن؟»

«نعم»

«ابقها معك طوال الوقت، تحت قميصك. فقد تحتاجها في أي وقت. اننا نمر بأيام عصيبة يا أخي. ألا تسمع وقع خطى رشيقة تقترب أكثر فأكثر؟ إنه المسيح، ولا يجب أن يجد الطريق أمامه مسدودة. إن المسكين أكثر عوناً في هذا المجال من الخبز. هنا. انظر إلي»

فتح قميصه، فرأى خنجراً بدوياً قصيراً ذا حدين مجرداً يلمع وهو ملتصق على بشرة صدره الحمراء.

لولا ابن زبدي، يعقوب، المشتت الفكر، لغرزته في قلب ذاك الخائن. بالأمس، وقبل أن أغادر الناصرة حكمت عليه العصابة بالموت -

«على من؟»

«... ووقعت القرعة عليّ لتنفيذ القتل»

«على من؟». عاد فيلبس يسأل كان قد أصابه الرعب.

أجابته ذو اللحية الحمراء بسرعة «هذا شائي. أبعد أنفك عن شؤوننا»

«ألا تثق بي؟»

تلفت يهودا حوله، ثم مال وقبض على فيلبس من ذراعه.

«أنصت جيداً إلى ما سأقوله لك يا فيلبس، وإياك أن تبوح بكلمة واحدة منه لأي كان حوالاً قضى عليك! انني الآن في طريقى إلى الصحراء، إلى الدير. لقد أرسل الرهبان في طلبى لأصنع لهم بعض الأدوات. ويعد بضعة أيام - ثلاثة أو أربعة - سامراً ثانية على

مخيمكم . قلب الكلمات التي تبادلناها جيداً في رأسك. الزم الصمت، ولا تقش بالسر لأي كان. قرر بنفسك. ان كنت رجلاً وتوصلت لاتخاذ القرار الصواب، فساكشف لك عن ستضرب»
«من؟ هل أعرفه؟»

«لا تكن متعجلاً، فأنت لم تصبح بعد من أعضاء العصابة، ومدّ له يده الضخمة، «وداعاً يا فيلبس. لقد كنت حتى الآن نكرة، لا يابه أحد إن كنت ميتاً أم حياً. أنا كنتُ مثلك - نكرة - الى ان جاء يوم وانضمت الى العصابة، ومنذ ذلك الحين أصبحت شخصاً مختلفاً: أصبحت رجلاً. لم أعد يهوذا ذا اللحية الحمراء، الحداد الذي يكدُ كالثور لغرض وحيد هو تغذية هاتين القديمتين وهذه البطن واشباع هذا اقم التسبيح. وها انا الآن اعمل من أجل هدف عظيم - اتسمع؟ - من أجل هدف عظيم، وكل من يعمل من أجل هدف عظيم، حتى وان كان من أشد الناس تواضعاً، يصبح عظيماً. انتهم؟ هذا كل ما عندي لأقوله لك. وداعاً»

لكز حماره وانطلق مهرولاً نحو الصحراء.

ظل فيلبس وحيداً. أسند ذقنه على عصاه وراح يراقب يهوذا حتى وصل الى الجانب الآخر من الصخور ومن ثم اختفى .
قال في نفسه، انتظر، ان ذا اللحية الحمراء هذا كلامه حسن، حسن وشبيه بكلام قديس . لعله يتباهى قليلاً، ولكن لا يهم! مادام لا يتجاوز حدود الكلام فكل شيء سيسير على أحسن مايرام، ولكن اذا تجاوز الكلام الى الفعل... فاحذر يا فيلبس، يا مسكين، فكر في قطيعك الصغير، ان هذا العمل يحتاج الى بعض التفكير. الأفضل أن تدع الأمور تسير - انتظر وانظر ماذا سيحدث.

وضع عصاه على كتفيه - بعد أن سمع أجراس ماعزه وغنمه - وانطلق مسرعاً، وهو يصفر.

في تلك الأثناء كان ولدا زبدى المبتنيان قد اضرمنا ناراً ووضعنا عليها الماء لاعداد حساء السمك. وحالما غلى الماء وضعنا فيه سمكاً صخرياً، وبطلينوس، وقنفذ البحر، وسمكة دنتكس أو اثنتين، وحجراً نبت عليه عشب أخضر ليضفي على الطعام نكهة البحر. وبعد قليل أضافا سمك الحفار، والبوري الأحمر، إذ لا يمكن أن يكتفيا بالسمك الصخري والبطلينوس فقط. جلس صيادو السمك الجائعون القرقصاء على شكل دائرة حول القدر وراحوا ينتظرون بلهفة يتكلمون بأصوات خافتة فيما بينهم. مال أكبرهم على جاره وقال «ما أروع أن أرى الحداد يصفه بذلك الكلام : صبراً . سيأتي اليوم الذي ينهض فيه الفقراء الى العلاء ويفوص الأغنياء الى الحضيض. هذا هو معنى العدالة»

أجاب الآخر «أعتقد أن هذا سيحدث أبداً»، وكان قد أذواه الجوع منذ أن كان شاباً، «أظن ان هذا سيحدث أبداً على هذه الأرض»

أجاب العجوز «الرب موجود ، أليس كذلك؟ نعم ، موجود! وهو عادل لذا فسيحدث. كل ما نحتاج اليه يا بني هو الصبر - الصبر» قال زبدى، الذي كان قد سمع طرفاً من الكلام، وساوره الشك «هيه، عمن تتهمهم انتم الاثنان؟ فقط اهتمما بعملكما وانسيا امر الرب، انه يعرف أفضل منك ما يجب أن يفعله. يا اله العالمين، ماذا سيحل بنا بعد!»

على الفور ران الصمت عليهم جميعاً. ونهض الصياد العجوز واقفاً، ثم تناول ملعقة خشبية، وياشر بتحريك الحساء.

الفصل التاسع

ساعة رفع الابنان المتبينان الشباك على أكتافهما وغمر نور الصباح البحيرة، التي بدت شديدة النقاء وكأنها خرجت من جديد من بين يدي الخالق، كان ابن مريم يواصل سفره مع يعقوب، ابن زبدى الأكبر. كانا قد خلفا لثومهما مجدلة وراءهما، وكانا بين حين وآخر يتوقفان برهة لمواساة النساء اللواتي يتدبن فقدان الحنطة، ومن ثم يواصلان الطريق، وهما يتجاذبان أطراف الحديث، وكان يعقوب أيضاً قد أدركته العاصفة، شامضى الليل في مجدلة، ونام في منزل أحد الأصدقاء ونهض قبل الفجر ليواصل رحلته. أخذ يغوص في الوحل على هدى الضوء الأزرق الباهت، يحذوه توفقه للوصول الى بحيرة جنيسارت، وكانت المראה التي سببها كل مآزاه في الناصرة قد بدأت تخف وتهدأ داخله؛ فقد أصبح مراًى الزيلوت المصلوب ذكرى نائية، ومرة أخرى انشغل ذهن يعقوب بقوارب صيد والده وبرجاله : بالهموم اليومية، كان يتجاوز بخطى واسعة الحفر التي تشكلت بفعل المطر. وكانت الأشجار تقطر، شبه مبتسمة، شبه باكية، والسعائات من فوقه تضحك،

واستيقظت الطيور - لقد كان النهار مشرقاً . ولكن مع انتشار الضياء أصبح قادراً على رؤية الخراب الذي أنزلته الفيوض ببليار الحنطة . فسنابل الحنطة والشعير التي كُومت على شكل حُرْم قائمة انجرفت الآن مع المياه في الطريق ، واندفعت طلائع المزارعين وزوجاتهم الى الحقول وأخذوا يندبون . وفجأة شاهد ابن مريم منحنياً مع امرأتين عجوزين فوق أحد البليار المنكوبة .

قبض بقوة على عصاه وتلفظ باللعنة . وفقرزت ذكرى الناصرة من جديد الى ذهنه ، مع صورة الصليب والزيلوت المصلوب - والآن ، ها هو! صانع الصليبان يندب مع النسوة المحصول الضائع! وكانت طبيعة يعقوب خشنة ولا تعرف الجمالة ، صخاباً عنيفاً ، لا يعرف الشفقة ، اكتسب كل صفات والده ولم يكن يحمل أي شبه سواء من أمه سالومه ، المرأة الورعة ، أو من يوحنا ، أخيه العزيز المحبوب ... قبض بشدة على عصاه وتقدم يملأ الغضب نحو البيدر .

في تلك اللحظة استقام ابن مريم وانصب ، ولاتزال الدموع تجري على خديه ، استعداداً لمواصلة سيره . أمسكت كلتا المرأتين بيديه لتقبلاهما وتمنعا من الرحيل . فمن يستطيع أن يبرز عابر السبيل هذا في قول الكلمات المناسبة لمواسمتهما؟

وظل يكرر على مسامعهما «لا تبكيا ، لا تبكيا ، سأعود» ، وهو يحرر يديه بالتدرج من أيديهما الهرمة .

توقف يعقوب عن التقدم ووقف فاغر الفم من الدهشة . لمعت عينا صانع الصليبان من الدموع التي كانت تملأ عينيه ؛ كانتا تارة تنظران عالياً نحو السماء الوضاعة ، المبتهجة ، وطوراً تطرقان نحو الأرض ، الى الناس المنحنين يفتشون في الطمي ويندبون .

غمغم يعقوب «أبعتل أن يكون هذا هو صانع الصليبان - هذا؟» وتتحى جانباً ، مضطرباً ، «إن وجهه يشرق كوجه إيليا النبي»

في ذلك الحين كان ابن مريم قد تجاوز حافة البيدر ، فأبصر يعقوب ، وتعرف عليه ووضع يده على قلبه علامة التحية .

قال ابن زبدي ، مرققاً نبذة صوته «الى أين؟ يا ابن مريم؟» ولكن قبل أن يتاح للأخر أن يجيب ، أضاف «قلّسر معاً ، الطريق طويلة وتتطلب رقيقاً» .

الطريق طويلة وتتطلب رقيقاً ، هكذا ردّد ابن مريم لنفسه ، لكنه لم يتبع بما دار في خَلْده .

قال «هيا بنا» ، وانطلقا معاً على الطريق المعبدة الى كفرناحوم . مرّ بعض الوقت لم يتبادلا خلاله الكلام . لقد كان نذب النسوة ينبعث من كل بيدر يمران به ، وكان العجايز من الرجال مستبدين على عكازاتهم يراقبون الحنطة تتجرف مع المياه . ووقف المزارعون مكشّهي الوجوه لا يأتون بحركة وسط حقولهم المحصودة المنكوبة . وظل بعضهم صامتاً ، في حين راح آخرون يكيلون اللعنات .

تهدد ابن مريم وقال «آه» ، ليت هناك رجل واحد يملك القدرة على أن يجوع حتى الموت لكي لا يموت الناس من الجوع!» رمقه يعقوب بنظرة من زاوية عينه ، وقال هازئاً «لو أمكنك أن تتحول الى حنطة يأكلها الناس وتتقدمهم ، فهل تفعل؟»

قال ابن مريم «ومن لا يفعل؟» خفق بريق عيني يعقوب الصقريتين ، وترجرجت شفّات الغليظتان البارزتان . أجاب «أنا»

صمت ابن مريم . شعر الآخر بالاهانة ، فدمدم قائلاً «ولم أفنى؟ إن الرب هو الذي بعث بالطوفان . ماذا فعل الرب هذا؟ أي اهانة وجهها البشر إليه؟ أنا لا أفهم - هل تفهم أنت يا ابن مريم؟»

«لا تسأل ، يا أخي ؛ هذا خطيئة . حتى قبل أيام قليلة كنت أنا

ايضاً أسأل، أما الآن فانا لا أفهم. إنه الأضمر التي أضسدت
المخلوقات الأولى وجعلت الرب يطردها من الجنة

«ماذا تعني بـ «هذا»؟»

«طرحُ الأسئلة»

قال ابن زبدي «انني لا أفهم»، وحث خطاه.

لقد فقد رغبته في مرافقة صانع الصليبان، لأن وطأة كلماته
كانت ثقيلة عليه، وكانت فترات صمته حتى أشد وطأة كلماته.

ثم وصلا الى مرتفع قليل في السهل. وشاهدا عن بعد مياه
جنيسارت المثلثة. كانت القوارب قد وصلت الى منتصفها، وكان
الصياد قد بدأ. والشمس نهضت من قلب الصحراء، حمراء
متوهجة، وعلى الشاطئ الآخر للبحيرة شع سوق البلدة الوافر
المسريل ببياض شامل.

رأى يعقوب قواربه عن بعد، وامتلأ ذهنه بمشاهد السمك،
فالتفت الى مرافقه المزجج، وسأله «الى أين أنت ذاهب يا ابن
مريم؟ انظر، هاهي كفرناحوم»

طاملاً ابن مريم رأسه ولم يجب. كان يخجل أن يقول انه ذاهب
الى الدير ليصبح قديساً.

رفع يعقوب رأسه بحركة سريعة ورمقه بنظرة. وفجأة خطرت
بباله فكرة شريرة، فقدم قائلاً «أم أنك تفضل أن لا تبوح؟ تريد أن
تبقية سراً»

أمسك بذقن رقيقه ورفع له رأسه «انظر في عيني. قل لي :
من أرسلك؟»

تهد ابن مريم، وتمتم «لا أدري، لا أدري، لعله الرب، ولكن قد
يكون الد...»

ثم تعلم . لقد كان خائفاً جداً، فاخترت الكلمة في حنجرتة .

ماذا لو أنه مُرسل حقاً من قِبَل الشيطان؟

أطلق يعقوب ضحكة جافة، ملؤها الاحتقار، وقبض على ذراعه
بقوة وراح يهزه بعنف، وعوى يهدوء «إنه قائد المئة، صديقك قائد
المئة - ليس هو الذي أرسلك؟»

نعم، هذا صحيح : لا بد أنه قائد المئة أرسله ليتجسس. فقد
ظهر فجأة زيلوت جدد فوق الجبال وفي الصحراء، ونزلوا الى
القرى، والتقوا بالناس سراً وحذوهم عن الانتقام وعن الحرية. فبثَّ
قائد المئة السفاح الناصري في كل قرية جاسوساً يهودياً مرتشياً،
ولا بد أن هذا الشاب، صانع الصليبان هذا، هو بلاشك أحدهم.

عقد يعقوب ما بين حاجبيه ودفع بيسوع بعيداً عنه، قائلاً
بصوت منخفض «اسمعي، يا ابن النجار، هنا يفترق طريقانا. لعلك
لا تعرف وجهتك، أما أنا فأعرف. فارحل الآن، ولكن لن تكون هذه
هي المرة الأخيرة التي ستراني فيها أو تسمع أخباري. فحيثما
تذهب يا مسكين سأتابعك - والويل لك ! هذا كل مالدي لأقوله لك،
ولكن انتبه الى كلامي، ان الطريق التي اخترتها لن تبقيك حياً»

قال هذا ثم، ودون أن يضافحه، انطلق يهبط المتحدر ركضاً.
رفع أولاد زبدي بالتبني الرجل النحاسي عن النار وتحلقوا جلوساً
حوله. كان العجوز نفسه أول من غمس المعلقة الخشبية فيه، واختار
أكبر السمكات وياشر الأكل، لكن أكبر المجموعة سناً مد يده ومنعه.

قال يذكره «نسيتنا أن نثلو صلاة المائدة»

رفع العجوز زبدي المعلقة الخشبية، وهو ما يزال يعض الطعام
الذي يملأ فمه، وأخذ يقدم شكره لرب اسرائيل لأنه يهب السمك،
والقمح، والخمر والزيت لتغذية الأجيال من العبرانيين وكي تعينهم
على التحمل الى أن يحين يوم قدوم الرب - يوم سيتشتت شمل
الأعداء وتخرُّ الأمم كلها تحت أقدام اسرائيل لتتعبدها، وتخرُّ

الآلهة تحت قدمي أدوناي وتعبد، «لهذا نحن ناكل يا رب، لهذا نتزوج ونتجب أطفالاً، لهذا نعيش - كله اكراماً لك»
قال هذا ثم ابتلع السمكة دفعة واحدة.

وبينما السيد والرجال ياكلون ويستمتعون بتناول ثمار جهدهم، وعبودتهم تحنق إلى البحيرة - الأم التي تغذيهم - إذا يعقوب يظهر فجأة أمامهم، يلهث وقد غطاه الوحل. انضم الصيادون معاً ليمسحوا مكاناً له، وهتف المعجوز زیدی، الذي كان مرجحاً طروباً «أهلاً بولدي البكر! أنت محظوظ، اجلس وكل. ما الأخبار؟»

لا جواب. ركع الابن إلى جوار والده لكنه لم يمد يده إلى الرجل الذي يفوح بالروائح الذكية وبالأبخرة.

التفت المعجوز زیدی وقد انتابه الخوف لينظر إليه كان يعرف ابنه هذا، الشكس، الحرون، قلباً وقالياً، وبخشاء. سأله «ألست جائعاً؟ ماهذا الوجه المكفهر؟ مع من كنت تتشاجر هذه المرة؟»
أجابه يعقوب بغضب «مع الرب، والشياطين والناس. لست جائعاً»

قال زیدی في نفسه «أوه، لقد جاء ليفسد استمتاعنا بحسائنا» لكنه اجتهد للاحتفاظ بمزاجه المرح فقهر الموضوع، وصنع ركية ابنه بتحبب ثم قال وهو يغمزه «هيه، مع من كنت تتبادل الحديث طوال الطريق أيها الوغد؟»

أجفل يعقوب «اذن فبيننا جواسيس، أليس كذلك؟ من أخبرك؟... لم أكن أتحدث مع أحده»

نهض واقفاً، واقترب من البحيرة، ثم غمر قدميه حتى الركبتين فيها وراح يفتسل. بعد ذلك عاد لينضم إلى المجموعة، ولكن لما لاحظ مدى سعادتهم وهم ياكلون ويضحكون، انفجر قائلاً «أنتم تاكلون وتشربون، وفي الناصرة آخرون يصلبون من أجلكم»

وانطلق ميمماً وجهه صوب القرية، وهو يبرير متذمراً، فلم يعد يطبق رؤيتهم.

تابعه المعجوز زیدی ببصره وهو يبتعد عن مجلسهم، ثم قال هازأ رأسه الكبير «إن ولدي شوكتان مغرورتان في لحمي. واحد شديد الرقة والتقى، والآخر شديد العناد والحمق: أينما ذهب أو توقف لابد وأن يثير شجاراً. شوكتان... لم يغد أي منهما رجلاً حقيقياً؛ يكون تارة رقيقاً، وطوراً عنيداً، أحياناً لطيفاً، وأحياناً كلباً عضاضاً، نصفه شيطان، ونصف ملاك - باختصار، ان يكون انساناً»

تهدد وأمسك بسمكة حفار لكي يتلع بها احساسه بالمرارة. قال «شكراً للرب لأن لدينا سمك حفار ولدينا أيضاً اليعيريات التي تربيها ولدينا الرب الذي يخلق اليعيريات»

قال أكبر المجموعة سناً «إذا كان هذا ماتقوله أنت، فهاذا عسى يونان أن يقول؟ إن هذا المسكين يجلس في كل مساء على إحدى الصخرات ويسرح ببصره نحو اورشليم ويأخذ بالنوح على ابنه اندراوس، فهو أحد أولئك المستبصرين. ويقال انه اكتشف نبياً وأنه يرافقه في تجواله، ولا ياكل غير الجراد والعسل، ويمسك بالناس يميني اجبارهم على الغطس في مياه نهر الأردن، لكي يغسلوا ذنوبهم على ما يبدو»

قال زیدی «ويقولون لك أنك يجب أن تتجب أولاداً ليواصلوا الكفاح التي باليقطينة يا رجال. أعتقد أنه تبقى فيها بعض الخمر، أليس كذلك؟ ان معنوياتي بحاجة للرفع»

ثم سمعوا وقع خطى ثقيلة، بطيئة الحركة على الحصياء. يبدو أن حيواناً ثقيلاً يقترب وهو غاضب. التفت المعجوز زیدی، وهتف: «أهلاً بيونان، الرجل الطيب»، وجفف بقايا الخمر عن لحيته،

ثم نهض بكل احترام وقدم له مكانه. «كنت أحسنم بعض الأمور
أبنائي أثناء تناول سمك الحفار. هيا، تذوق سمك الحفار واحك
عن أخبار ابنك القديس انداروس»

مثل أمامهم صياد سمك عجوز، قصير القامة ضخم الجثث
حافي القدمين، وقد لفحته أشعة الشمس، عيناه محسورتا
مجهدتان، ورأسه ضخم يغطي شعراً أبيض جعد، وجلده قد غد
أشبه بحراشف السمك، مال إلى الأمام وراح يحدق إليهم واحد
إثر آخر، باحثاً عن شخص ما.

سأله زبدي «من تبحث، أيها الأب يونان؟ هل أعجزك التعب
عن الكلام؟»

أخذ يحدق إلى قدميه، ولحيته، وشعره الذي تشابك جميعاً
وكان يعج بحمك السمك وبالعشب البحري، وإلى شفتيه الغليظتين
المشققتين اللتين كانتا تتباعدان وتتغلقان كسم السمك دون أن يند
عنهما صوت. أراد زبدي أن يضحك، لكن فجأة غلبه شعور
بالخوف. وغير ذهنه سهم أحمر من الريبة. فمد كلتا يديه إلى
الأمام بدافع من رعيه، وكأنه يرغب بمنع العجوز يونان من
الاقتراب.

صرخ، وهو يقفز وأفقاً على قدميه «تكلم! أيعقل أن تكون أنت
النبي يونان؟ أنت موجود بيننا منذ زمن غابر، ومع ذلك كنت
مختبئاً طوال الوقت؟ استحلفك بأدوناي، تكلم! لقد سمعت ذات
مرة رئيس الدير المقدس يتحدث عن سمكة القرش التي ابتلعت
النبي يونان، وكيف تقيت السمكة، بعد ذلك، فقفز يونان خارجاً
من بطنها، سليماً كما كان. عونك يا رب، إن الصفات التي سردها
علينا رئيس الدير تنطبق عليك: أعشاب بحرية عاتقة في شعر
رأسه وفي صدره، ولحيته تعج بصغار السرطانات، لا أقصد

الاساءة اليك يا يونان، لكني اراهن على أنني اذا تحسست تحت
لحيتك فسأعثر هناك على سرطانات»
انفجر الصياد ضاحكاً، لكن زبدى ظل يحملق في صديقه
القديم والرعب يملأ عينيه.

قال له «تكلم، أيها المقدس، هل أنت النبي يونان؟»
هز المجوز يونان رأسه نفياً. انه لا يذكر أن أي سمكة ابتلعتة،
إلا أن ذلك كان ممكناً. فبعد مرور سنتين عديدة على صراعه مع
السمك، كيف كان يمكن أن يتذكر أي شيء؟

غمغم المجوز زبدى، ونظراته تزيغ من زاوية الى أخرى وكأنه
يود أن يهرب «انه هو، انه هو». كان يعرف أن الأنبياء رجال غريبو
الاطوار ولا يمكن الوثوق منهم. انهم يتلاشون في الأثير، في البحر،
أو في النار. وبعد ذلك، ودون سابق انذار، تنظر واذا بهم يظهر
أمامك! ألم يعرج ايليا الى السماء على متن النار؟ ومع ذلك فهو
ما زال حياً ويحكم، ومهما كان علو الجبل الذي يرتقيه المرء، فانه
يلتقيه أمامه هناك، والقياس نفسه يصح على حنوك^١: انه خالد.
والآن، هاهو يونان النبي، قال زبدى في نفسه، انه يدعي الجهل،
يتظاهر بأنه صياد سمك ووالد بطرس واندراوس. الأفضل أن
أعالجه باللين: هؤلاء الأنبياء غريبو الأطوار، عنيدون، واذا لم تنبئه
فسوف تجد نفسك في ورطة.

رقق من نبرة صوته، ويأشر بالقول «يا جاري الحبيب، أيها
الأب يونان، أنت تبحث عن شخص ما - أهو يعقوب؟ لقد عاد من
النامرة لكنه تعب، كما يبدو، وقد توجه الى القرية. اذا كنت تريد
أن تتشمس أخبار ابنك بطرس فهو يقول انه بخير وانه لا داعي

١ - حنوك: ابن قايين ابن آدم عليه السلام.

للقلق عليه: هو بخير. وسيأتي قريباً، ويبحث اليك بأطيب تمنياته.
أتسمعتني يا يونان؟ أعطني إشارة كلمه برقة وريت على كتفيه
الشبيهين بالجلد المدبوغ. من يدري، كل شيء ممكن، فربما يكون
هذا الصياد الأبله هو يونان النبي، لذا، يجب الحذر!
مال العجوز يونان واختطف عشرين بحرياً صغيراً من المرجل،
وحشده كله في قمه وأخذ يعضغه، يعظمه وكل شيء.

غمغم، بعد أن أدار لهم ظهره «أنا ذاهب»، ومرة أخرى سمع
صوت سحق الحصى، ومطار نورس ماراً بسرعة من فوق رأسه.
زهرف جناحيه وتوقف برهة وكان يصره قد وقع على سرطان
بحري موجود في تضاعيف لحية الصياد. لكنه أطلق صرخة أجشة
لعلها من الخوف، ثم حلق بعيداً.

قال زبدى العجوز «انتبهوا يا أولاد، أراهن بعضامي على أنه
النبي يونان. يحسن أن يذهب اثنان منكم لتقديم يد العون له بما أن
يطرس غائب الآن. والا، من يدري ماذا سيحدث لنا؟»
نهض ماردان ضخمان وخاطباه بنبرة نصف مازحة، نصف
خائفة «يا زبدى، اننا نحمك مسؤولية النتائج، الأنبياء حيوانات
متوحشة. أنهم يفتحون أفواههم هكذا فجأة ويبتلعونك حتى آخر
عظمة! حسن، هيا بنا، الوداع!»

تمطى العجوز زبدى دلالة على رضاه - لقد نجح تماماً في
التعامل مع النبي. والآن انتقلت الى أبنائه المتبقين، «انشطوا، يا رجال،
خفوا، املاؤا السلال بالسمك وانتشروا في كل القرى. ولكن احذروا!
الفلاحون ماكرون، أنهم ليسوا مثلنا صيادي سمك - نحن شعب الرب
المختار! اعطوا أقل قدر ممكن من السمك مقابل أكبر قدر ممكن من
الحنطة (حتى وإن كانت من حصاد العام الفائت). ومن الزيت،
والخمر، والدجاج، والأرانب. اتقهمون؟ اثنان واثنان أربعة»

هب الأبناء بالتبني وياشروا ملء السلال.

وعلى البعد، خلف الصخور، ظهر رجل يعتطي ظهره جمل
مسرع. ظلل العجوز زبدى عينيه بيده ونظر.
هتف «هيه، يا رجال، هناك، انظروا - ألا تعتقدون أنه يوحنا،
ولدي؟»

كان الراكب يسير فوق أرض من الرمال الناعمة ويقترب منهم.
هتف الصيادون «أنه هو، أنه هو! أهلاً بابتك!»
ثم مر الراكب من أمامهم متجاوزاً إياهم، وهو يلوح بيده
محبياً.

صرخ الوالد العجوز «يوحنا، لم أنت في عجلة هكذا؟ الى أين
أنت ذاهب؟ توقف برهة ودعني أملي نظري منك»
«رئيس الدبر يحتضر! لا وقت لدي»
«ماذا ألم به؟»

«أنه يرفض أن يأكل؛ إنه يتمنى الموت»
«لماذا لماذا؟»

لكن كلمات الراكب ضاعت في الهواء.
سعل العجوز زبدى، وتفكر برهة من الزمن ومن ثم هز رأسه،
وقال «ربنا يحفظنا من القداسة»

راغب ابن مريم يعقوب وهو يهبط باتجاه كفر ناحوم بخطى
غاضبة ثم انهار الى الأرض، وجلس القرفصاء، وقلبه ملؤه الأسى.
لماذا عمل هو، يامن طالما تاق لأن يُحب ويُحب، على إيقاظ كل ذلك
القدر من الحقد في قلوب الناس؟ إن الذنب ذنبه، لا ذنب الرب،
ولا الناس، وإنما ذنبه هو. لماذا تصرف بجبن شديد، لماذا اختار
طريقاً ليسير فيها ومن ثم جبن عن مواصلة المسير حتى النهاية؟
لقد كان جباناً عاجزاً، يرى له. لماذا لم يجرؤ على اتخاذ المجادلة

زوجة له، وعلى أن يخلصها من العار والموت، وحين أمسك به الرب وأمره أن ينهض لماذا تشبث بالأرض ورفض أن ينهض؟ والآن، لماذا سيطر عليه الخوف وهماو يتوجه الى الصحراء ليختبئ؟ هل ظن أن الرب لن يعثر عليه وهو هناك كما في أي مكان آخر؟ كانت الشمس متوقفة تقريباً فوق رأسه، والندب على الحنطة قد توقف. لقد اعتاد الناس هؤلاء على الكوارث: تذكروا أن عويلهم لم يكن مرة حلاً، فسكتوا. لقد تحملوا على مدى آلاف السنين الظلم، والجوع، وتقاذفتهم قوى مرثية وأخرى غير مرثية. إلا أنهم نجحوا بطريقة ما في مواصلة الحياة بخطى واهنة، وكانوا دائماً ينجحون في الاقتصاد في الانفاق - وهذا علمهم الصبر.

برزت عطاء خضراء اللون من شجيرة قصيرة، خرجت لتشمس، وحين رأت هذا الرجل - الوحش المخيف فوقها تمالك الخوف قلبها وأخذ ينفض يشدة، تحت العنق مباشرة، لكن العطاء تمالكت نفسها والتصقت بجسمها على طولها بالصخرة الدافئة، وراحت تحرك عينها المستديرة السوداء الفاحمة بسرعة وتحقق بثقة بابن مريم، وكأنها ترحب به أو تقول، رأيتُ أنك وحيد فأتيتُ لأنسك. فرح ابن مريم وحيس أنفاسه حتى لا يبت الخوف في الزائرة، ولكن بيتما هو يراقبها، ويشعر بقلبه يخفق مع قلب العطاء، هبطت فراشتان مشوّشان، كلتاهما سوداء اللون مع رذاذ من اللون الأحمر، ترفرفان بأجنحتهما بينهما وتطيران جيئةً وذهاباً من طرف الى طرف، غير راغبتين في الابتعاد. رقصتا بمرح، وتمازجتا تحت أشعة الشمس. وفي آخر المطاف حطتا على منديل الشاب المخضب بالدم ووضعتا خرطوميهما فوق البقع الحمراء، وكأنهما تريدان أن تمتصا الدماء. وحين استشعر دغدغتهما فوق قمة رأسه تذكر مغالب الرب، وتهياً له أن هذه الدغدغة وأجنحة

هاتين الفراشتين تنقل اليه رسالة واحدة متطابقة، أم، لو يهبط الرب دائماً على الانسان، ليس كنزول الصاعقة أو كانهضاض صقر نهّاب، وإنما كفراشة!

حين كان يربط في ذهنه ما بين الفراشة والرب، شعر بشيء يدغدغ أخصص قدميه. نظر الى أسفل فرأى حشدًا من النمل الضخم بلونيه الأصفر والأسود المنهمك يهرع في رتل واحد ماراً من تحته. كان يحمل الحنطة بأشداقه الواسعة، كل حمولة بحبة واحدة، وكان يعمل في جماعات من اثنين أو ثلاثة. كان قد سرّحها من السهل، خطفها من أفواه الناس، وهماو ينقلها الى بيوت النمل، وطوال الوقت يحمّد الرب - النملة العظمى، الجَزَع أبداً على شعبه المختار، النمل، الذي يرسل بالفيوض الى السهل في اللحظة المناسبة بدقة، بالضبط، في الوقت الذي تحرّم فيه الحنطة في البيادر.

تهد ابن مريم. النمل أيضاً خليفة الرب، هكذا راح يفكر، كما البشر، والعطاءات، والجنادب التي أسمعها في كرم الزيتون، وكما أبناء آوى الذين يعوون طوال الليل، وكما الفيوض، وكما الجوع... سمع شخصاً يلهث خلفه، فتملكه الخوف. كان قد نسي أمرها وقتاً طويلاً، لكنها لم تنسه. انه يشعر بها الآن خلفه مباشرة، جالسة القرفصاء مثله وتتفصص بعق.

تمتم «اللغة أيضاً من خلق الرب»

أحسن أنه محاط من كل جانب بأنفاس الرب، تهب عليه، تارة دافئة طيبة، وطوراً عنيفة. بلا رحمة. العطاء والفراش، والنمل، اللغة - كلها من خلق الرب.

لدى سماعه أصواتاً بشرية وقرع أجراس قاعدة على الطريق التفت. كانت قافلة جمال طويلة مثقلة بالبضائع النفيسة تمر من

هناك، بتقديمها حمار متواضع، لابد أن هذه القافلة قد انطلقت من نينوى وبابل، من وادي النهر الوافر الذي سكنه إبراهيم، عابرة الصحراء لتقل الحرير، والتوابل، والعاج، وربما العبيد من ذكور وإناث إلى السفن المتعددة الأجناس الراسية في البحر العظيم.

ومر رتل الموكب، بدا كأن لا نهاية له. وقال ابن مريم في سيرته، كم من النفائس يحمل أولئك القوم، وكم من الأشياء الرائعة! وأخيراً، في نهاية القافلة، ظهر التجار الأثرياء ذوو اللحي السوداء بأقراطهم الذهبية، وعمائم الخضراء وجلابيبهم البيضاء الطويلة الفضفاضة. وهامم الآن يمرّون من أمامه، يهتزون ويتميلون مع تمايل الجمال الوثيد.

دبت الرعدة في أوصال ابن مريم، فقد خطر له فجأة أنهم سوف يتوقفون في مجدلة، وباب بيت المجدلية مفتوح نهراً وسوف يلجونه. هذا ما قاله في سيرته، وقال، يجب أن أخلصك يا مجدلية - آه، لو بإمكانك ذلك! - أنت يا مجدلية لست أمة إسرائيل: فهذه لا طاقة لي على تخليصها. أنا لست نبياً، إذا فتحت فمي، فلا أعرف ماذا أقول. الرب لم يمسح علي شفتي بجمر مشتعل، لم يضرب أحشائي بصاعقته ليضرم فيها النار، لأندفع مهستراً في الشوارع وأصرخ... أريد أن تكون الكلمات كلماته هو، لا كلماتي: لا أريد أن تكون لي علاقة بها، سأكتفي بفتح فمي، وهو سيتكلم، لا، لست نبياً، أنا مجرد رجل عادي، بسيط يخاف من كل شيء: لا قدرة لي على تخليصك من سرير العار يا مجدلية، لذا تربنتي ذاهب إلى الصحراء، إلى النير، لأصلي لأجلك. فالصلاة كلها قوة. يقولون أنه أشاء الحروب طالما ظل موسى رافعاً يديه نحو السماء كان أبناء إسرائيل يتغلبون، وحين يتعب ويغضهما، كانوا يهزمون... يا مجدلية، سأبقي يدي مرهوعتين نحو السماء نهراً وليلاً، لأجلك.

رفع بصره ليرى متى سيحين موعد غروب الشمس. كان يريد أن يواصل السير وسط الظلام لكي يتجاوز كضناحوم دون أن يراه أحد ومن ثم يلتف حول البحيرة ويلج الصحراء. لقد كان توقه يزداد باضطراب للوصول.

تمتم، وهو يتهد من جديد «آه، ليت باستطاعتي أن أسير فوق الماء وأتوجه مباشرة إلى الصحراء! كانت العطاءة ماتزال تتشمس، ملتصقة بالصخرة الدافئة. وكانت الفراشات قد حلقتا عالياً واختفتا داخل النور. وواصل التملّ نقل الحصاد. كان يصبه في مخازنه، ومن ثم يسرع بالعودة إلى البيادر ليرجع بأحمال جديدة. كانت الشمس تستعد للمغيب وأصبح المارة أقل فاقلاً، واستطالت الظلال، وهبط المساء على الأشجار وعلى التربة، ووشّاهها بظل ذهبي. وفي البحيرة كانت المياه في حالة فوضى ثامة: ففي لمح البصر كانت تبدل شكلها - تصيب حمراء، ثم تتحول إلى اللون البنفسجي الخفيف، ثم تظلم، وسطعت نجمة كبيرة في الجهة الغربية من السماء.

قال ابن مريم لنفسه، الآن سيحلّ الليل، الآن ستصل إبنه الرب السوداء مع قافلته من النجوم، وقبل أن يتاح للنجوم أن تبرّغ وتملأ السماء، ملأت رأسه.

كان قد همّ لتوه بالتفويض لمتابعة رحلته حين سمع خلفه نفخ بوق، ثمة عابر سبيل يناديه باسمه. التفت وعلى هدى الضوء الباهت للعمساء ميّز شخصاً يشير إليه ويرتقي المنحدر. مثقلاً بحمل صرة ضخمة. وتسائل، من عساه يكون؟ وجاهد لتمييز ملامح ابن السبيل من تحت الصرة. لقد سبق له أن رأى ذاك الوجه الشاحب واللحية القصيرة الهزيلة وذئبق الساقين النحيلتين المقوستين من قبل. وفجأة هتف «أهذا أنت يا توما؟ هل عاودت تجوالك في القرى؟»

كان البائع المتجول، الأحوال، الماروغ قد بات واقفاً أمامه، يلهث، وضع صرته على الأرض وأخذ يجفف العرق عن جبينه البارز وعينيه الصغيرتين المزمومتين اللتين تجعلك حركتهما الملتبسة غير قادر على تمييز إن كانتا تعبران عن البهجة أم عن السخرية.

كان ابن مريم يحبه كثيراً، وطالما رآه يمر من أمام ورشته في طريق عودته من جولانه، ويوقه مدسوس تحت حزامه، فيرمي بصرته على أحد المقاعد ويبدأ بالتحدث عن كل ما شاهده، يسخر، يضحك، يضائق؛ أنه لا يؤمن برب إسرائيل ولا بأي رب آخر. ويقول: «انهم جميعاً يسخرون منا، يسخرون منا لنضحّي بالأطفال لأجلهم، للحرق لهم بخوراً ذكي الرائحة ونهتف بأصواتنا الأجشة متفتين بحسنتهم... أنصت ابن مريم إليه، وأنبسط قلبه المقبوض قليلاً؛ كان معجباً بهذا العقل الاحتياالي الذي، بالرغم من محدوديته ومن كل ما يعاناه الشعب الذي يحمله من عبودية وبؤس، كان لديه من القوة ما يجعله يقهر العبودية والفقر بالضحك والسخرية.

وكان توما البائع المتجول يحب ابن مريم. كان يرى فيه خروفاً ساذجاً، سقيماً، ينفو، يبحث عن الرب لكي يختبئ خلف ظله. كان لا يفتأ يردد على مسمعه ويكاد ينفجر من الضحك: «أنت خروف يا ابن مريم، ولكن ذئباً يكمن داخلك، وهذا الذئب سينهشك»، ثم يتناول حفنة من التمر أو الرمان أو تفاحيكون قد سرقها من البستان من تحت قميصه ويستضيفه. والأذن، حالما التقط أنفاسه قال «تسرني رؤيتك، الرب يحبك. أتى أين أنت ذاهب؟»

أجابه اليسوع، مشيراً باتجاه البحيرة «إلى الدبر»
«أذن فسروني مضاعف لرؤيتك. عُذ من حيث أتيت»
«لماذا؟ إن الرب -»

لكن توما انفجر قائلاً «اعمل معي معروفاً ولا تباشر من جديد الحديث عن الرب. فعين يأتي ذكره قلن تنتهي. انك لتمضي حياتك كلها سائراً، هذه الحياة والحياة الأخرى، تبحث عنه، لكن هذا المبارك لا نهاية له خائس أمره ولا تخلطه مع شؤوننا. اسمع: هنا علينا أن نهتم بأمر الانسان - بالانسان المخادع، داهية الدواهي، قبل كل شيء، احترس من يهوذا ذي اللحية الحمراء، فقيل أن أغادر الناصرة رأيت يهيس بشيء لوالدة الزيلوت الذي صلب، ثم همس لباراباس ولاشئين أو ثلاثة من رفاقه طارقي الخناجر منذ عهد الطفولة، وسمعتهم يذكرون اسمك، فاحترس يا ابن مريم: لا تذهب، فليعتني الرب»

صرخ توما غاضباً «ستذهب؟ ولكن في هذه اللحظة، في هذه اللحظة بينما نحن نتحدث، يهوذا موجود في الدبر وخنجره مخبئاً تحت قميصه. فهل تحمل أنت خنجراً؟»

ارتجف ابن مريم، قال «لا، وما حاجتي إلى واحد؟»

ضحك توما، وغمغم «خروف... خروف... خروف...»، والتقط صرته وقال «الوداع، اضل ماشئت. أنا أقول لك عُذ من حيث أتيت، وأنت تقول «سأذهب». حسن، اذهب. سيعود ذلك ستعلن نفسك حين يفوت الأوان»

طرفت عيناه المزمومتان قبل أن ينطلق هابطاً أسفل المتحدر، وهو يصفر.

هبط الليل بوقار. فأظلمت الأرض، واختفت البحيرة عن الأنظار، وفي كفرناحوم أضيئت أول المصابيح، وكانت عصافير النهار قد دقت رؤسها تحت أجنحتها لتوها ونامت، أما طيور الليل اليقظة، فأخذت تنطلق بحثاً عن صيد.

تفكر ابن مريم قائلاً، هذه ساعة مباركة، وقت حسن للرحيل.

لن يراني أحد - فلأنطلق فلأسرع بالذهاب، ولأقتل. هذا، على الأقل، ما أستطيع عمله، وسأعمله، واستدار ليلقي نظرة خلفه. قال مخاطباً مراقبته الخفية «هيا بنا»، وانطلق يبغي البحيرة. الليل عذب، دافئ، ندي، هبّت نسمة رقيقة من الجنوب. ومن كثرنا حوم فاحت رائحة السمك والياسمين. جلس زبدى العجوز في قنّاء منزله مع زوجته سالومه تحت شجرة اللوز الكبيرة. كانا قد فرغا من تناول وجبة العشاء، وأخذتا يتسامران. وفي الداخل، كان ابنهما يعقوب يتقلب في فراشه، يشتبك في ذهنه ويبحث في قلبه صورة الزيوت المصبوب، والجور الجديد الذي أنزله الرب بالناس بأخذه حنطتهم، وصورة ابن مريم، الذي باع نفسه لبصيح جاسوساً، هذه الأفكار حالت دونه والنوم، ومما زاد من حنقه حديث والده في الخارج. فقفز واقفاً على قدميه، وهو يغلي من الغضب، وخرج إلى القنّاء ومنه عبر عتبة الدار. نادته أمه بقلق «أين أنت ذاهب؟» صوى «إلى البحيرة لأستنشق شيئاً من الهواء النقي»، واختفى داخل الظلام.

هز العجوز زبدى رأسه وتهدأ. قال «لم يعد العالم كما كان يا زوجتي. اليوم أصبح الشبان أكبر من أن تحتويهم جلودهم. فلا هم طيور ولا أسماك؛ إنهم أسماك طائفة. يضيق بهم البحر فينطلقون محلّقين في الجو. لكنهم لا يقدرّون على المكوث هناك طويلاً، فيندفعون غائمين في عمق البحر ويعيدون العملية من جديد. لقد جنوا. فقط انظري إلى ولدنا يوحنا، العزيز على قلبك، إنه يقول لنا أنه سيهب نفسه للدير. صلوات، وصيام، ورب... إن قارب الصيد يبدو له ضيقاً - لعله لا يسهه. ثم لدينا الابن الآخر، الذي حسبته أنه أكثر تعقلاً.

علمي على كلامي: سيسير في الاتجاه نفسه. ألم ترى هذا المساء كيف بدا وكأنه يغلي، ويوشك أن يتفجر وكيف ضاق عليه المنزل؟ حسن، إن الأمر لا يهمني، ولكن من سيغني بزوارقي ورجالتي؟ هل سيذهب كل مجهودي هباءاً؟ انني في ورطة يا زوجتي، أحضري لي بعض الخمر ووجبة خفيفة من لحم الأخطبوط لأستعيد مزاجي الحسن»

تظاهرت سالومه العجوز بالصمم، فقد كان زوجها العجوز قد شرب قدراً كافياً حتى ذلك الحين. حاولت أن تغير الموضوع، قالت «أنهم شبان، فلا تقلق، سينقضي الأمر»

«وربي أنت على حق يا زوجتي! إنك تحملين رأساً خصباً بين كتفيك. لماذا اجلس هنا وأوجع رأسي؟ هذا صحيح، أنهم شبان، وهذه الفترة ستقضي. فترة الشباب مرض، وستنتهي. انني حين كنت شاباً كانت تمر بي أوقات أكاد أغلي خلالها وأقضي الليل أتقلب في فراشي. كنت أحسب أنني أبحث عن الرب، لكنني في الحقيقة كنت أبحث عن زوجة - عنك يا سالومه! وتزوجت فهدأت سريري، الشيء نفسه سيحدث لولدنا، فلا داعي للتفكير أكثر في الأمر! أنا راض الآن... أحضري وجبة خفيفة من لحم الأخطبوط يا زوجتي، ومعهما قليلاً من الخمر يا عزيزتي سالومه - أريد أن أشرب نخب صحتك!»

وفي مكان مجاور ملاصق، على مسافة قليلة، كان يونان العجوز جالساً وحيداً في كوخه يرمم شبكته على ضوء المصباح. يرمم ويرمم، لكن عقله وأفكاره لم تكن تدور حول زوجته العزيزة التي فارقته: توفيت في مثل ذلك الوقت قبل عام، ولا حول ابنه شبه المعتوه أندراوس، ولا حول ابنه الآخر بطرس، ذاك الفتيمة الأحق المعتوه، الذي كان ما يزال يقوم بجولاته على حانات الناصرة.

بعد أن ترك والده بلا سند ولا معين، وهو العجوز، ليصارع السمك وحيداً . لا، بل كان يفكر بكلام زبدي ويرزح تحت عبء عظيم من القلق . لعله بحق النبي يونان . نظر إلى يديه، إلى قدميه، وإلى فخذه: إنه مغشى بالحراشف . حتى أنفاسه وعرقه تفوح برائحة السمك، وقد تذكر الآن أنه حين زرف الدمع على زوجته قبل أيام كانت لدموعه أيضاً رائحة السمك . وقد كان زبدي العجوز الماكر محقاً فيما يخمن السرطانات: لقد كان يعثر أحياناً على بعض منها... فمن يدري لعله حقاً النبي يونان . آه وهذا يفسر سبب عدم احساسه بأي رغبة في الكلام، وسبب وجواب انتزاع الكلام منه بالكلام، وسبب ثمرته دائماً في مشيه واضطرابه حينما يسير على أرض جافة . لكنه حين يغوص في البحيرة: كم يشعر بالارتياح، والمتعة! أن الماء يضمه إلى صدره، يداعبه، ويلعقه، ويخرخر في أذنه ويكلمه، ويجيبه هو، كالسمك، دون كلمات، وتخرج الفقاعات من فمه!

قال في نفسه، أنا النبي يونان، لأريب في ذلك . لقد بُعثت من جديد . لفظتني سمكة القرش من جديد . ولكن هذه المرة أنا أكثر عقلانية، أنا نبي حقاً، لكنني أتناهر بأني صياد سمك ولا أفوه بكلمة لأي إنسان . لا أريد أن أجد نفسي متورطاً من جديد... وأبتسم ابتسامة رضا لحذقه، وقال في نفسه، لقد عالجت الأمر بشكل جيد . انظر كم من السنين مرت دون أن يلاحظ أحد ذلك، حتى أنا، إلى أن جاء ذاك الشيطان زبدي . حسن ، لقد أحسن صنعاً بتوعيتي .

وضع أدواته على الأرض، وذلك يديه معاً تعبيراً عن رضاه، ثم فتح صواناً، وأخرج ملء يده من الخمر، وأمال حنجرتة القصيرة الخفيفة، المحرشفة، عالياً وأخذ يشرب، مقوفاً .

بينما العجوزان القانعان يشريان في كفرناحوم، كان ابن مريم يواصل مسيره على طول شاطئ البحيرة، وهو مستغرق كل الاستغراق في أفكاره . لم يكن وحيداً : فخلفه سمع صوت انسحاق الرمل، وفي قناء دار الجدلية ترجل تجار جدد وهم جالسون الآن القرفصاء على الحصياء، يتسامرون بهدوء ويمضفون ثمار التمر ويشبون السرطانات بانتظار أن يحين دورهم . وفي الدير مدد الرهبان رئيس الدير في منتصف صومعته وجلسوا يسهرون عليه . كان ما يزال يتنفس ، وعيناه الجاحظتان تحدقان إلى الباب المفتوح، ووجهه المهزول مشدود التقاطيع، وبدا كأنه يجاهد لينصت إلى شيء ما .

نظر إليه الرهبان وأخذوا يتهايمسون فيما بينهم :

«إنه يحاول أن يسمع خبر وصول الخبر من الناصرة ليشفيه»

«إنه يحاول أن يسمع خبر اقتراب جناحي كبير الملائكة

الأسودين»

«إنه يحاول أن يسمع وقع خطى المسيح تقترب»

تهايمسوا وأطالوا النظر إليه، وروح كل منهم متأهبة لمجيء الساعة التي ستقع فيها المعجزة . أرفقوا جميعاً أسماعهم لكنهم لم يسمعوا شيئاً غير ضربات مطرقة عنيفة على السندان، في الزاوية النائية من ساحة الدير كان يهوذا قد أشعل ناره ليقوم بعمله آناء الليل .

الفصل العاشر

بعيداً في الناصرة ، جلست مريم زوجة يوسف في كوخها المتواضع. المصباح مضاء، والباب مفتوح، وهي تلف يمرعة الصوف الذي كانت قد غزلته . وكانت قد قررت أن تهض وتياشر تنقيب القرى بحثاً عن ولدها. غزلت وغزلت ، لكن ذهنها لم يكن منصّباً على عملها، كان يجول وحيداً يائساً بين الحقول، زار مجدلة وكفرناحوم؛ بحث على طول شاطئ بحيرة جيسارت. كانت تبحث عن ابنها الذي فرّ من جديد، مرة أخرى نخسه الرب بمهماز الشيران. وتساءلت ، ألا يرحمه ، ألا يرحمني؟ ماذا فعلنا له؟ أهذه هي بهجة المجد التي وعدنا؟ لماذا يا رب جعلت عصا يوسف بالذات تزهر، وأجبرتني على الزواج من رجل عجوز؟ لماذا أنزلت صاعقتك وزرعت في رحمي هذا الحالم، هذا الابن الوحيد السائر أثناء الليل؟ كان الجيران طوال فترة حملي يبدون أعجابهم بي، قائلين «يا مريم، أنت أقدس نساء الدنيا». وأزهرت؛ كنت شجرة لوز تعطيها الزهور من جذورها وحتى أعلى أغصانها. وكان التجار العابرون يسألون «من شجرة اللوز المزهرة هذه» ويتوقفون مع قوافلهم. ويترجلون

عن جمائهم ويملاؤن حجري بالعطايا. ومن ثم هبت فجأة ريح وإذا بي أجدني عارية تماماً، فضممت ذراعي حول ثديي. يا رب، لقد نمت إرادتك؛ جعلتني أزهر، وتفتحت في فسقطت البتلات. أما من أعمل في أن أزهر مرة أخرى يا رب؟

في صبيحة اليوم التالي تسامل ابنها، أما من أعمل في أن تهدأ غلواء قلبي؟. كان قد دار حول البحيرة وأصبح الآن يرى الدير قبالة، مقحماً بين الصخور ذات اللونين الأخضر والأحمر. أن قلبي يزداد اضطراباً كلما اقتربت أكثر من الدير، لماذا؟ ألم أسلك الدرب الصحيح يا رب؟ ألم تكن تدفعني لأتجه إلى هذا المعتزل المقدس؟ إذن لماذا ترفض أن تمد لي يدك وتفرح قلبي؟

ظهر راهبان برداء أبيض كامل عند باب الدير الكبير، ثم ارتقيا صخرة وراحا يحدقان باتجاه كفرناحوم. قال أحدهما، وكان نصف مجنون أحذب تكاد مؤخرته تلامس الأرض، لم يظهر أي أثر بعد.

قال الآخر، وكان رجلاً ضخماً كالقيل، فمه أشبه يشق سمكة القرش ويصل بالضبط حتى أذنيه «حين سيصلون سيكون قد فارق الحياة. اذهب أنت يا يريعام، ساواصل أنا المراقبة هنا إلى أن يظهر الجمل»

قال الأحذب المبتهج، منزلقاً عن الصخرة «عظيم، سأذهب لأراه وهو يلفظ أنفاسه»

وقف ابن مريم متردداً على عتبة الدير، وقلبه يترنح كلهاة جرس: أيدخل أم لا؟ كان الرواق المسقوف دائري الشكل ومرصوفاً بحجارة لويحة، لم يكن يزين الفناء شجرة خضراء واحدة، أو زهرة، أو عصفور؛ لأشياء غير نبات الأجاص البري الشائك في كل مكان. وعلى طول محيط هذا القصر المستدير، الفوق بشري اصطفت

الصوامع، محفورة في الصخر كالأحداث.

أهذه هي مملكة السماء؟ قال ابن مريم لنفسه، أهنا تهدأ غلواء قلب الإنسان؟

نظر وأطال النظر، غير قادر على اتخاذ قرار تجاوزه العتبة. يبرز كلها رعي أسودان من أحدي الزوايا وأخذاً ينبعانه.

لاحظ الأحذب المقرم الزائر فأسكت الكلبين بصفوة منه، ثم استدار وراح يتفحص الواقد الجديد من قمة رأسه إلى أخمص قدميه. بدت له عينا الشاب مترعتين بالمعانة، والملابس التي يرتديها بالثمة جداً، وكان الدم ينزف من قدميه، وأشفق عليه.

قال «أهلاً بك يا أخي، أي ريح رمت بك إلى هنا من عمق الصحراء؟»

أجاب ابن مريم بصوت عميق يائس «الرب»، تملك الخوف الراهب: لم يكن قد سمع من قبل اسم الرب تلفظه شفقا انسان بمثل ذلك الشكل المرعب. فقد ذراعيه ولم يقل شيئاً.

بعد فترة صمت قصيرة تابع الزائر كلامه «أتيت لأرى رئيس الدير»

«قد تراء أنت، أما هو فلن يراك. ماذا تريد منه؟»

«لا أدري. حلمت حلماً... أنا قادم من الناصرة»

قال الراهب شبه المجنون وهو يضحك «حلم»

«حلم قطع يا أبت. ومنذ ذلك الحين وقلبي لم يعرف السكينة. إن رئيس الدير من القديسين، علمه الرب كيف يفسر لغة الطيور ولغة الأحلام، لهذا جئت»

لم يكن قد خطر بباله أن يأتي إلى هذا الدير ليمسأل رئيس الدير تفسير الحلم الذي رآه ليلة صنع الصليب: تلك المطاردة العنيفة التي جرت في منامه وذو اللحية متدفع في المقدمة والأقزام

الذين يتبعونه حاملين أدوات التعذيب ، أما الآن وهو يقف متردداً على العتبة فقد انبثق الحلم فجأة في ذهنه كومة برق. وهتف من داخله. فهتعت! لقد آتيت من أجل الحلم. أرسله الرب لينير به طريقي، ورئيس الدير سوف يقوم بفك طلسمه.

قال الراهب «رئيس الدير يحتضر، لقد وصلت متأخراً يا أخي. عد من حيث آتيت»

أجاب ابن مريم «لقد أمرني الرب بالمجيء، فهل يخدع أبناء؟»
فوق الراهب. لقد رأى الكثيرين على مدى حياته وليس لديه ثقة بالرب.

«ليس هو رب العالمين؟ إذن فهو يفعل ما يشاء. فإذا لم يكن قادراً على أن يُنزل الجور بالإنسان، فكيف يمكن أن يكون قادراً على كل شيء؟»

صنع الزائر على ظهره، وكان يقصد بذلك المداعبة، لكن مغلبه الضخم كان ثقيلاً وأذى الشاب.

قال «حسن، لا تقلق، هيا، أدخل، أنا المسؤول عن الضيوف».
ولجا الرواق المسقوف. كانت سرعة الريح قد ازدادت، ودوّم الرمل فوق بلاط الأرضية، وطلّقت عاصفة هوائية معتمة وجه الشمس، فساد الظلام.

في وسط الفناء كانت هناك بئر جافة شاغرة فاها، وفي وقت من الأوقات كانت تمتلئ بالماء، أما الآن فقد أضحت مملوءة بالرمال. وبرزت عظمتان لتتشمسا على حافتيها المتآكلة.

كان باب صومعة رئيس الدير مفتوحاً. أمسك الراهب الزائر من ذراعه وقال «انتظر هنا ريثما أطلب الأذن من الأخوة. لا تتزحزح»

عقد ذراعيه على صدره ودخل، وكان الكلبان قد جثعا على

جانبى باب رئيس الدير، يشربان بعنقهيهما، ويشمّان الهواء ويعويان بنبرة حزينة.

كان رئيس الدير معبداً في منتصف الصومعة، وقدماء باتجاه الباب، وحوله الرهبان الساهرون ناعسون، وقد أرفقهم السهر طوال الليل، وكان وجه المريض، الممدد هكذا على فرشته، مشدوداً على الدوام وعيناه مفتوحتين، مثبتتين على ممر الباب المفتوح. وكان الشمعدان السباعي الأقرع ما يزال موضوعاً بجوار وجهه، يضيء التقوس اللامع لجبينه، وعينييه التهمتين، وأنفه الشبيه بمنشار الصقر، والشفتين ذاتي اللون الأزرق الباهت واللحية البيضاء المسترسلة التي تصل حتى خصره وتغطي صدره العاري، البارز العظام. وكان الرهبان قد ألّفوا بخوراً معجوناً بببتلات الورد اليايسة إلى الجمر المتوهج في مبخرة خزفية، وقد غزا العبق الجو.

دخل الراهب، وقد نسي سبب دخوله، وجلس القرفصاء عند العتبة، بين الكلبين.

كانت الشمس الآن قد انتشرت على الباب بكامله وتحاول أن تلمس قدمي رئيس الدير، وكان ابن مريم واقفاً في الخارج ينتظر. ولم يكن يسمع غير صوت عواء الكلبين الناحب، وضريبات بطيئة منتظمة لمطرقة على السندان عن بعد.

انتظر الزائر وطال انتظاره، وانتصف النهار، يبدو أنهم نسوا أمره. لقد كان الليل مصقعاً، أما الآن وهو واقف خارج الصومعة فتشعر بدفء شمس الصباح اللذيذ يتغلغل في عظامه.

فجأة كسر حاجز الصمت صوت الراهب الذي كان يقوم بواجب الحراسة على الصخرة: «هاهما آتيان! هاهما آتيان!»
استيقظ الرهبان الموجودون في صومعة رئيس الدير مجفئين وهرعوا خارجين، تاركين رئيس الدير وحده.

تمالك ابن مريم نفسه وتقدم خطوتين ، في وجل ، ثم توقف عند العتبة ، وكان سكون الموت ، الخلود يخيم في الداخل ، وكانت قدما رئيس الدير الشاحبتان ، التحيلتان تومضان ، تستعمان بأشعة الشمس ، طئت نحلة بالقرب من السقف ، وطارت حشرة سوداء طائفة متقلبة بسرعة بين الشموع السبعة ، تقفز من واحدة الى الأخرى وكأنها تحاول أن تتنقي محرقها .

فجأة تحرك رئيس الدير ، واستجمع كل قواه ، ورفع رأسه ، وعلى الفور حفظت عيناه من مجبريها ، وفقر قام ، وراح منحراة يشمأن الهواء ، وينتفضان نهما ، وضع ابن مريم يده على قلبه «وشفتيه وجبينه ، مقدما التحية .

تحركت شفتا رئيس الدير ، وتمتم بصوت غير واضح ، حتى أن ابن مريم لم يسمع شيئا «لقد أتيت... أتيت... أتيت...» لكن ابتسامة ذات جمال لا يوصف انتشرت على وجه رئيس الدير ، القاسي ، المشيع بالمرارة ، وفي الحال أغمضت عيناه ، وتوقف منحراة عن الحركة ، وأغلق فمه ويدا اللتان كانتا متصلبتين على صدره انحدرتا واحدة الى اليمين والأخرى الى اليسار واستقرتا على الأرض وكفاهما المفتوحان تتجهان الى أعلى .

في تلك الأثناء كان الجمالان قد أناخا في الفناء ، وهرع الرهبان لمساعدة الحبر العجوز على الترحل ، وسأل الراهب المبتدئ بنبرة صوت متألدة «أهو حي ، أما زال حيا» أجاب الأب حبقوق «مازال يتنفس ، إنه يرى ويسمع كل شيء ، لكنه عاجز عن الكلام»

دخل الحبر أولا ، متبوعا بالمبتدئ حاملا الحقيقة النفيسة التي تحتوي على مراهم الداوي ، وأعشابه وتماثمه السحرية . ولم يزعج الكلبان الأسودان ، اللذان وضعا ذيليهما بين هوائيهما ، حتى

بالالتفات نحوه . فقد كان عنقاها ممدودين على الأرض وهما يعويان بنبرة حزينة ، وكأنهما من البشر .

سمعهما الحبر وهز رأسه ، وقال في نفسه ، لقد تأخرت في المجيء ، لكنه لم يتكلم .

ركع بجوار رئيس الدير ، ومال على جسده ووضع يده على قلبه . وكادت شفتاه تلامسان شفتي رئيس الدير .

همس «فات الأوان . تأخرت كثيرا في المجيء... أطلال الرب أعماركم أيها الآباء»

انحنى الرهبان ، وهم ينوحون بصوت عال ، وراحوا يقبلون الجثة . كل حسب طول مدة خدمته ، وفق العرف : يقبل الأب حبقوق العينين ، ويقبى الرهبان الحية والكفين المقلوبين الى أعلى ، والرهبان المبتدئين يقبلون القديسين . وتناول أحدهم صولجان رئيس الدير من المقعد الكنسي الخالي ووضع بجوار الجثمان المقدس .

ركع الحبر العجوز وراح يتأمله ، لا يقوى على ابعاد عينيه عنه . مامعنى تلك الابتسامة التي تتم عن الانتصار ؟ أي معنى يخفيه الضياء الغامض الذي يحيط بالعينين المغمضتين ؟ ثمة شمس ، شمس لا تغرب ، سقطت أشعتها على هذا الوجه واستقرت هناك . فأي شمس هي ؟

تلقت حوله . الرهبان مازالوا راكعين يعبرون عن ولائهم للفقيه ، ويوحنا شفتاه ملصقتان بقدمي رئيس الدير ، يبكي . راح الحبر العجوز ينقل بصره بسرعة من راهب الى آخر وكأنه يستجوبهم ، وفجأة لمحت عيناه ابن مريم واقفا لا يأتي بحركة ، ساكنا في الزاوية الخلفية للصومعة ، وذراعا معقودتان على صدره . ولكن على وجهه كله انتشرت الابتسامة الهادئة المنتصرة ذاتها .

همس الحبر المزعوب «يا رب الجنود ، يا أدوناي ، آئن تكف قط

عن غواية قلبي؟ ساعد عقلي الآن على أن يفهم - ويقرر»
في اليوم التالي برزت شمس غاضبة ، لونها بلون الدم تحيط
بها عاصفة ظلماء تبتق من قلب الرمال. وهبت ريح شرقية ملتهبة
قادمة من الصحراء ، وعمّ الظلام العالم . حاول كلبا الدير
الأبنوسيان أن ينبحا ، لكن فميهما امتلأ بالرمال فلزما الهدوء.
والتصق الجمelan بالأرض ، وأغمضا عيونهما وانتظرا .
تلمس الرهبان طريق تقدمهم ببطء ، وقد اتصلوا معاً كحلقات
سلسلة يجاهدون كي لا يسقطوا . تقدموا ، في طريقهم لدفنه ،
يتزاحمون معاً في رتل واحد ممسكين بجثمان رئيس الدير بحزم
يأذرعهم لكي لا تنتزع الريح منهم . كانت الصحراء تتمايل ، ترتفع
وتتخفض كالبحر .

غمغم يوحنا وهو يميل بكامل جسمه على ابن مريم «انها ريح
الصحراء! أنفاس يهوه . تذب كل ورقة خضراء ، وتتسبب كل الينابيع
، وتملأ فمك بالرمال . إننا ببساطة سنترك الجثمان في إحدى
الحفر ، وستتولى أمواج الرمال أمر دفنه»

حالما تخطوا عتبة الدير اذا بذى اللحية الحمراء ، ومطرقة
على كتفه ، يبرز أسود ضخماً من الضباب العاصف ويلقي عليهم
نظرة سريعة ، لكنه سرعان ما اختفى خلفه غلالة من الرمال . رأى
ابن زبدي هذا القول يظهر من قلب العاصفة الرملية ، فأصابه
الربع وتشبث بذراع رفيقه .

سأله بصوت منخفض «من هذا؟ أرايته؟»

لكن ابن مريم لم يجب ، وقال في نفسه إن الرب يعد كل شيء
بدقة تامة ، وبما يتطابق ومشيئته . انظر كيف جمعنا يهوذا وأنا معاً
- هنا وسط الصحراء ، على أطراف الأرض . حسن يا رب فلتكن
أرادتك .

تقدموا جميعهم معاً ، منحنيي الظهر ، وهم يفرزون أقدامهم
في الرمال اللاهبة . حاولوا أن يغطوا أقدامهم وأنوفهم بأطراف
أرديتهم ، لكن الرمل الناعم كان قد دخل الى حناجرهم وراثتهم ،
وفجأة أطاحت الريح بالأب حبقوق الذي كان يسير في المقدمة .
دوّعت حوله وطرحته أرضاً . ووطأه الرهبان بأقدامهم وقد أعمتهم
سحب الرمال . أطلقت الصحراء صفيرها ، وجلجلت الحجارة ،
وأطلقت من العجوز حبقوق صرخة أجشة ، ولكن أحداً لم يسمعه .

كان ابن مريم يقول في نفسه ، لماذا لا تكون أنفاس يهوه نسائم
منعشة تهب علينا من البحر الكبير؟ ولماذا لا يطرح هذا السؤال على
رفيقه لكنه لم يتمكن من فتح فمه . لماذا لا تملأ رياح يهوه الآبار
الجافة في الصحراء بالمياه؟ لماذا لا يحب الرب الخضرة ويراف
بالبشر؟ أم ، ليت رجلاً واحداً يظهر ويتقدم منه ، ويخر على قدميه
وينجح ، قبل أن يتحول الى رماد ، في أن يحكي له عن آلام البشر ،
وعن آلام الأرض والأوراق الخضراء!

كان يهوذا ما يزال واقفاً في ممر الباب الواطئ للصومعة
المنعزلة التي منحه اياها الرهبان ليستخدمها كورشة عمل . كان
يراقب موكب الجنازة وهو يترنح وتتقاذفه الرياح ، يغيب عن الأنظار
ويختفي في لحظة ، وفي اللحظة التالية يعود للظهور ، وكادت
خاضعته تتفلقان من الضحك . ولح الشخص الذي كان يتصيد ،
وبرقت عيناه من السرور . همس قائلاً «ما أعظم رب اسرائيل ، أنه
يعد كل شيء بشكل رائع . لقد أحضر الخائن حتى رأس خنجرى» .

ولج الى الداخل مداعباً شاربه بابتهاج . كانت الصومعة مظلمة ،
لكن الجمر المشتعل كان يتوهج بقوة في الموقد الصغير الكائن في
الزاوية . وكان الراهب ذو الكفلين القصيرين ، شبه القديس وشبه
المجنون ، ينخس النار ، ومنفأخ في يده .

كان مزاج الحداد رائقاً، فقال «هيه، أيها الأب يربعم، اهذه التي يسمونها رياح الرب؟ انها تعجيني، تعجيني كثيراً. أنا أيضاً كنت سأنفخها، لو كنت مكان الرب»

ضحك الراهب، وقال «أما أنا فما كنتُ نفخت أي شيء - لقد هلكت»، وترك المنفاخ لكي يجفف العرق عن جبينه وعنته.

تقدم منه يهوذا، وسأله «هل تقدم لي معروفاً أيها الأب يربعم؟ بالأمس حلُّ شاب يافع ذو لحية سوداء قصيرة ضيقاً على الدير، تصف معتوه مثل فضيلتكم، وهو حافي القدمين ويعصب رأسه بمنديل منقط بالأحمر»

قال الراهب وهو يتخذ هيئة فخيمة مصطنعة «كنت أنا أول من رآه. ولكن يا عزيزي الحداد انه ليس فقط نصف معتوه، بل مجنون تماماً مثلكم! يقول إنه رأى حليماً وأنه جاء من الناصرة لكي يحلّ له رئيس الدير - أراح الرب روحه - لغزه»

«حسن، إذن، اسمع: أنت المسؤول عن الضيوف، أليس كذلك؟ وكلما حل شخص ضيقاً، ألست من يعد له صومعة، ويرتب له سرير، ويقدم له الطعام؟»

«هذا عملي، دون شك! ويبدو أن لا نفع لي في أي عمل آخر. لذا جعلوا مني مسؤولاً عن الضيوف، فأنا أغسل، وأكنس وأطعم الزوار»

«عظيم! ضع سريريه في صومعتي هذه الليلة، فأنا لا أستطيع أن أنام وحدي، يا يربعم - كيف أشرح الأمر؟ تراودني كوابيس، يأتي شياطين ويغوونني، وأخشى أن تصيبني اللعنة وأذهب إلى الجحيم. لكنني حالماً أشعر بوجود كائن بشري يتنفس بالقرب مني أهدأ - هيا، اقبل. وسوف أقدم لك هدية: مجرة للخرفان لكي تشدّب لحيتك، ويمكنك أيضاً أن تحلق للرهبان، وتقص شعر الجمال

- ولن يقال عنك بعد الآن أنك غير موهوب. أسمع ما أقول؟»

«أحضر لي المجرة»

نقّب الحداد في حقيبته ثم أخرج منها مقصاً ضخماً صدئاً. انتزع الراهب منه وقريه من الضوء، فتحه، وأغلقه. وكان اعجابه به بلا حدود.

همس، وهو مذهول تماماً «ما أعظمك يا رب، وما أجل أعمالك!»

قال يهوذا وهو يهزه بعنف ليوقظه «ماذا قلت؟»

أجابه الراهب «سيكون معك هذه الليلة، وتشدّ قبضته على المجرة وغادر».

كان الآخرون قد عادوا، لم يتمكنوا من الابتعاد كثيراً، فقد دوّمت رياح يهوه حولهم وطوّحت بهم أرضاً، ثم عثروا على حفرة فرموا بالجثة إلى داخلها ونادوا على الأب حبّوق كي يتلو الصلاة، لكنهم لم يعثروا عليه في أي مكان، فمال حبر الناصرة المعجوز فوق الحفرة وهتف للحم الخالي، الفارغ من الروح: «من رماد، وإلى الرماد تعود. غادرتك الروح، ولا حاجة لك بعد الآن، لقد أديت واجبك - أيها اللحم، لقد أديت واجبك: ساعدت الروح على الهبوط إلى منفاها الأرضي؛ على أن تسيّر مدة بضع دورات شمسية وقمرية فوق الرمال والحجارة؛ وعلى أن تأثم؛ وتشعر بالألم؛ وأن تهفو إلى السماء، إلى أرض أبيها، وأن تهفو إلى الرب، أبيها. أيها اللحم، رئيس الدير لم يعد بحاجة إليك: قتلاش!»

حتى أشاء مكان الحبر يتكلم تشكلت طبقة من الرمل الناعم على جثة رئيس الدير: اختفى خلفها الوجه، واللحية واليدان، وهتّ سحب أخرى من الرمال، وعاد الرهبان أدراجهم على عجل. وحالما انتزع المسؤول عن الضيوف نصف المعتوه مجرة الخرفان وغادر

الحداد، أخذ الرهبان، المعميَّون، المشققو الشفاء الذين بليت آباطهم بالاحتكاك، يتسربون إلى داخل الدير، حاملين العجوز حبقوق، الذي كانوا قد عثروا عليه في طريق عودتهم، تصف مدقون في الرمال .
ذلك الحبر العجوز عينية، وقمه وعنقه يقطع قماش مبللة ، وجلس القرفصاء على الأرض أمام كرسي رئيس الدير الخالي .
وكان بإمكانه أن يسمع من خلف الباب المرتج أنفاس يهوه تحمض العالم وتطمس معالمه ، وأخذ يستعرض الأنبياء وهم يمشون في رأسه من صدغ إلى صدغ .

كانوا في مثل هذا الجو المحموم بهتفون منادين الرب، ولابد أنهم شعروا لدى اقتراب رب الجنود باحترق مشابه في شفافهم وغيوبهم، وغمغم «هذا مؤكد! الرب ربح لاسعة، ومضى برق - أعرف ذلك، إنه ليس بستاناً في ذروة تفتحه ، وقلب الانسان ورقة خضراء : يلوي الرب سويتها حتى تنوي، فما عسانا أن نفعل، كيف نتصرف حياله لكي نرقق قسماياته؟ اذا قدمنا له الأضاحي يصرخ «لا أريدها، لا أريد لحماً، إن جوعي لا يشبع إلا بتلاوة المزامير»، وإذا فتحنا أفواهنا وبداناً بتريتيل المزامير، يصرخ «لا أريد كلمات، لاشيء» غير لحم الحمل، الابن ، الابن الوحيد، يشبع جوعي»

أطلق الحبر العجوز تهيدة، لقد أحلقه التفكير في الرب، وأهلكه، ويبحث عن زاوية ليستقي فيها . وكان الرهبان المرحقون من قلة النوم قد توزعوا على صوامعهم ليأبوا إلى أسرتهم وليحلموا برئيس الدير . إن روحه ستظل تحوم في أرجاء الدير مدة أربعين يوماً، وستدخل إلى صوامعهم لترى ما يفعلون، ولتمنحهم النصيحة أو لتقرعهم، لذا استلقوا لينالوا قسطاً من الراحة وليشاهدوه في منامهم، تلفت الحبر العجوز ينظر فيما حوله ، فلم ير أحداً، كانت الصومعة خالية الا من الكليين السودين . كانا قد دخلا، وتعددا

على حجارة الأرضية اللوحية، وكانا يعويان بحزن وهما يشعان الكرسي الكهنوتي . وفي الخارج كانت الرياح السريعة تضرب على الباب : هي أيضاً تريد أن تأوي إلى الداخل .

ولكن حالما استعد الحبر للاستلقاء بجوار الكليين اكتشف وجود ابن مريم واقفاً لا يأتي بحركة في الزاوية ، ويراقبه . وعلى الفور فرَّ النوم من عينيه الناعستين، استقام في جلسته وقد اضطرب حاله، وأوما إلى ابن أخيه، ويبدو أن الشاب كان بانتظار أن يُدعى . تقدم، وأبتسامة مرة ترتعش على شفتيه .

قال الحبر «اجلس يا يسوع، أريد أن أتحدث معك»
أجاب الشاب «أنا متفتت»، وركع قبائله، «أنا أيضاً أريد أن أتحدث معك يا عمي شمعون»

«عمّ تبحث هنا؟ إن أمك تطوف في القرى بحثاً عنك، وتشدب»
أجابه الشاب «هي تبحث عني! وأنا أبحث عن الرب، ولن نلتقي»

«أنت قاسي القلب، أنت لم تكن أي حب لأبيك ولأمك كما يجدر بالبشر أن يفعلوا»
«هذا أفضل، إن قلبي أشبه بجمرة مشتعلة، وهي تحرق كل من يلمسها»

«ماذا ألم بك؟ كيف تقول هذا؟ ماذا ينقصك؟»، قال الحبر هذا مشرباً برأسه ليدقق النظر في ابن مريم . كانت عينا الشاب تكادان تفيضان بالدمع «إن أماً دفينا ينهشك يا ولدي، اعترف لي واسترح، إن الألم المدفون عيقاً ..»

فقاطعه الشاب، وأبتسامة مريّة تنتشر على وجهه كله «ألم واحداً ليس واحداً، بل عديداً»
هذه الصرخة التي تقطر القلب اهزعت الحبر، فوضع يده على

ركبة الشاب ليمنحه الشجاعة، وقال برفقة «أنا منصت يا ولدي، أخرج مالكك الى النور، ادفعها خارج أحشائك. انها تصارع في الظلام، والنور يقتلها. لا تجعل أو تخف - تكلم»

ولكن لم يكن لدى ابن مريم أي فكرة كيف يبدأ أو ماذا يقول : ماذا يُبقي دهنًا في قلبه، وبماذا يعترف ليرتاح. الرب، المجدي، الاتام السبعة، الصليبان، الصلب - كلها كانت تخشعه وتمزق أحشاه.

تأمله الحبر بنظرة توسل أخرس ورمت على ركبته.

أخيراً قال، بصوت خفيض، رقيق «ألا تستطيع يا ولدي؟ ألا تستطيع؟»

«لا يا عمي شمعون، لا أستطيع»

سأله، وقد بات صوته الآن حتى أكثر رقة وحناناً «هل تكتفك غوايات عديدة؟»

أجاب الشاب مرعوباً «العديد منها، العديد»

قال الحبر متهدأ «حين كنت شاباً يا ولدي: أنا أيضاً تعرضت لمعاناة كبيرة. لقد عرّضني الرب للعذاب واختبرني كما يفعل معك: أراد أن يعرف إن كنت سأتحمل، وإلى أي حد. أنا أيضاً تعرضت لغوايات كثيرة. لم أخف من بعضها - تلك التي تحمل وجوهاً همجية - أما الأخرى، الوديعه، المفعمة بالمعذوبة، فتلك التي خشيتها؛ وكما تعلم، أتيت الى هذا الدير بحثاً عن الراحة، كما فعلت أنت. لكن الرب لا يتخلّى عن المتطردة، وهنا، هنا بالذات، سقطت. أرسل اليّ غواية على شكل امرأة للأسف؛ استسلمت أمام هذه الغواية، ومنذ ذلك الحين - لعل هذا ما أراد الرب، وربما لهذا راح يعذبني - منذ ذلك الحين هدأت غلوائي، وكذا الرب: تصالحنا، ونحن الآن أصدقاء، أنت أيضاً يا ولدي ستتصالح مع

الرب بالطريقة ذاتها - وستشفى»

هز ابن مريم رأسه تقياً، وغمغم «لا أعتقد أنني سأشفى بسهولة، ثم لزم الصمت، كما فعل الحبر الجالس بقربه. كانا معاً يتنفسان بسرعة، يلهثان.

قال الشاب «لا أعرف من أين أبداً - إنني لن أبداً أبداً: إنني مسريل بالعار» وهم بالتهوؤ.

لكن الحبر أبقى قبضته القوية على ركبة الشاب، وأمره «لا تنهض، لا ترحل. الشعور بالخجل أيضاً غواية. اقهره - أبقي سوف أطرح عليك بعض الأسئلة، أنا سأسال عليك بالصبر وأجيتي ... لماذا أتيت الى الدير؟»

«لأنّ نفسي»

«لتنقذ نفسك؟ مم؟ مم؟»

«من الرب»

صرخ الحبر مضطرباً «من الرب»

«انه يطاردني، ويفرز أظافره في رأسي، وفي قلبي، وفي عورتي. يريد أن يدفع بي -»

«الى أين؟»

«من فوق الحرف»

«أي حرف؟»

«جرفه. يقول إن عليّ أن أنهض وأتكلم. ولكن ماذا عساي أقول؟ فصرخت في وجهه «دعني وشأني، ليس لدي ما أقوله»، لكنه رفض. فقلت له «أها، إذن فأنت ترفض» أليس كذلك؟ حسن، إذن الآن سأريك - سأجعلك تمقتني، بعدها ستدعني وشأني...» وعلى هذا رحت أقترف كل صنوف الإثم»

هتف الحبر «أقترف كل صنوف الاتم؟»

لكن الشاب لم يسمعه، فقد كان مغلوباً بمشاعر السخط والألم.

«لماذا اختارني أنا؟ ألم يكشف عن مكوني صدري وينظر إليه؟
ان كل أنواع الأفاعي المتضافرة هناك تهس، تهس وتتراقص - تمثل
كل الآثام. وفوق كل هذا...»

علقت الكلمة في حنجرته. سكت. وتقصّد العرق من جذور
شعره.

سأله الحبر برقة «فوق كل هذا؟»

قال يسوع، رافعاً رأسه «المجدلية»
«المجدلية»

أصبح وجه الحبر شاحباً.

«يسبيبي، يسبيبي آلت الى ما آلت اليه. لقد دفعته للانعقاد
في متع الجسد حين كنت ما أزال طفلاً - نعم، أعترف، أسمع أيها
الحبر، إن كنت ترغب في أن تصاب بالرعب. حدث ذلك حين كنت
في حوالي الثالثة من عمري. تسللت الى منزلكم في وقت لم يكن
فيه أحد. أمسكت بيد المجدلية، ثم خلعتنا ملاسنا وتمددنا على
الأرض، ورحنا نضغط أقدامنا الحافية. ماكان أكبر تلك
المتعة بما أمتع ذاك الاثم! ومنذ ذلك الحين سارت المجدلية في
طريق الضياع، ضاعت - لم يعد بإمكانها ان تعيش بلا رجل، بل بلا
رجال»

نظر الى الحبر العجوز، لكن الآخر كان قد وضع رأسه بين
ركبتيه ولزم الصمت.

هتف ابن مريم وهو يضرب على صدره «انها غلطتي، غلطتي
أنا! أنا! ثم تابع بعد برهة «وليت الأمر توقف عند هذا الحد! لكن
منذ فترة طفولتي، أيها الحبر، لم أكتف فقط بالاحتفاظ بشيطان

الفسوق كامناً عميقاً داخلي وانما أيضاً بشيطان الكبير. حتى وأنا
صغير - ولم أكن أقوى على المشي عندئذ، وكنت أسير على طول
الحائط، متمسكاً به لكي لا أقع حتى عندئذ كنت أهتف لنفسي -
أه، آية صفاقة! آية صفاقة! - «يارب اجعلني رباحاً، اجعلني رباحاً
يا رب، اجعلني رباحاً»، وذات يوم كنت أحمل كمية كبيرة من العنب بين
ذراعي، فمرت بي امرأة غجرية. اقتربت مني وجلست القرفصاء،
وتناولت يدي، ثم قالت «أعطني العنب وأخبرك عن حظك»،
فأعطيته إياه. فمالته ونظرت في كفي، وهتفت «أوه، أوه، أرى
صليباً - صليباً ونجوماً»، ثم أخذت تضعك «سوف تصبح ملكاً
على اليهود»، وغادرت. لكنني صدقتها وغلبتني الخيلاء، ومنذ ذلك
الحين يا عمي شمعون لم أعد متمالكا لقواي العقلية. أنت أول
شخص أخبره بهذا، يا عمي شمعون - حتى الآن لم أكن قد اعترفت
به لأي إنسان: منذ ذلك اليوم وأنا لست متمالكا لقواي العقلية».

صمت برهة من الوقت، لكنه صرخ قائلاً «أنا الشيطان! أنا!

أنا»

رفع الحبر رأسه من بين ركبتيه وقبض بيده على فم الشاب.
أمره «اصمت»

قال الشاب المهتاج «لا، لن أصمت مادمت قد بدأت فقد فات
الأوان. لن أصمت أنا كاذب، مرء، انني أخاف من ظلي، ولم أقل
الحق قط - فليمت أتحلى بالشجاعة اللازمة. انني حين أشاهد
امراة مارة أحمر خجلأ وأطرق رأسي. لكن عيني تمثلتان بالشهوة.
انني لم أرفع يدي قط لأسرق أو لأضرب أو لأقتل - ليس لأنني لا
أريد ذلك بل لأنني خائف. خائف!

أريد أن أتمرّد على أمي. وعلى قائد المئة، وعلى الرب - لكنني
خائف، خائف! خائف! لو تمطر داخلي لرأيت الخوف مجسداً،

لرايت ارنبا يرتجف، قابعا في أحشائي - الخوف، ولاشيء غيره .
وهو أبي، وأمي وربي.

تناول الحبر العجوز يدي الشاب وضعهما بين يديه، ليهديني من روعه. لكن جسد يسوع كان ينتفض بعنف.

قال الحبر، مهدئا آياه «لا تخف يا ولدي، كلما زادت الشياطين داخلنا، زادت فرصتنا لخلق الملائكة. «الملاك» هو الاسم الذي نطلقه على الشياطين الثائنين - فكان مؤمناً ... لكني أود أن أسالك سؤالاً واحداً فقط: يسوع، هل سبق لك قط أن مناجعت امرأة؟
أجاب الشاب بركة «لا»

«ألا ترغب بذلك؟»

احمر وجه الشاب خجلاً، ولم يحر بكلمة، لكن الدم كان ينبض بعنف في صدغيه.

عاد العجوز يسأله «ألا ترغب بذلك؟»

أجاب الشاب بصوت خافت جداً حتى بالكاد سمعه الحبر «أرغب».

لكنه على الفور انتفض وكأنه استيقظ لثوه، وصرخ «لا، لا أرغب، لا أرغب»

سأله الحبر «ولم لا؟»، ولم يكن يرى دواماً آخر لشفاء آلام الشاب. لقد كان يعرف من تجربته الخاصة وعن التجارب التي لا تحصى لأولئك المموسسين بالشياطين الذين يأتون اليه يلغنون، ويرغون ويزيدون ويصرخون قائلين إن العالم أصغر من أن يسعهم؛ فيترجون، وإذا بالعالم لا يعود صغيراً جداً، وينجبون أطفالاً، وتهدا غلواؤهم»

قال الشاب بصوت ثابت «لا يكتفيني هذا. احتاج الى شيء أعظم»

هتف الحبر متدهشاً «ألا يكفيك؟ حسن، حسن، مالمذا تريد ان؟»

عبرت المجذلية بخطوتها الواثقة، وردفيها العاليين أمام عين خيال الشاب، مكشوفة الصدر، تغطي المساحيق عينيها، وشفتيها ووجنتيها. ضحككت فلمعت أسنانها في ضوء الشمس، ولكن بينما هي تتلوى رائحة غادية من أمامه، كان جسدها يتبدل، يتضاعف، ثم رأى ابن مريم بحيرة، لا بد أنها بحيرة جنيسارت، وحولها آلاف الرجال والنساء - آلاف من المجذلية - بوجوه سعيدة، ممبشرة، وهبطت الشمس عليها فاشرقت. ولكن لا، لم تكن الشمس هي السبب بل هو نفسه، يسوع الناصري، الذي مال على تلك الوجوه وجعلها تفيض بالضياء، ولم يعرف إن كان السبب في ذلك هو الفرح، أم الرغبة أم الخلاص: كل ما رآه كان سناءً.

سأل الحبر «بم تفكر؟ لماذا لا تجيبني؟»

انفجر الشاب يسأل على عجل «هل تؤمن بالأحلام يا عم شمعون؟ أنا أؤمن. ولا أؤمن بغيرها. ذات ليلة حلمت بأن أعداء غير مرئيين أوثقوني الى شجرة سرو يابسة. وكانت تخترقني سهام حمراء طويلة من رأسي الى قدمي، وكان الدم يتدفق. ووضعوا على رأسي تاجاً من الشوك، وقد انضفرت مع الشوك كلمات من نار تقول «قديس كافر». أنا قديس كافر، أيها الحبر شمعون. فمن الأفضل أن لا تسألني حول أي شيء، والا بدأت أكفر»

قال الحبر مهدئاً، وهو يمسك من جديد بيده «هيا يا ولدي - إبدأ، ابدأ يفكر وأرح نفسك»

«ثمة شيطان داخلي يصرخ «أنت لست ابن التجار، أنت ابن الملك داوود! أنت لست انساناً، أنت ابن الانسان الذي تتبأ بقدمه دانيال. بل أكثر من ذلك: أنت ابن الرب بل أكثر من ذلك: أنت الرب»

أنصت الحبر، وهو يميل إلى الأمام، وسرت رعشة في أعضاء جسده المتداعي وكان الزيد يحف بشفتي الشاب المشققتين، ولسانه ملتصق بحنكه: لم يعد يقوى على الكلام، ثم ماذا عساه يزيد؟ لقد قال كل ما عنده، وشعر بأن قلبه قد استنزف، فخلّص يديه من قبضة الحبر، ونهض واقفاً، ثم استدار نحو العجوز وقال ساخراً «هل من أسئلة أخرى؟»

أجاب العجوز «لا»، وشعر بأن قواه كلها تتسرب منه إلى الأرض وتتلاشى. خلال حياته انتزع العديد من الشياطين من أفواه الرجال. كان المسوسون يأتونه من أطراف الأرض وكان يشفيهم. غير أن شياطينهم كانت صغيرة، سهلة القيادة: شياطين الاغتسال، والغضب، والمرض. أما الآن... كيف يمكنه أن يصارع شيطاناً كهذا؟

في الخارج كانت رياح يهوه مازال تضرب على الباب، تحاول أن تدخل. ولم يكن يسمع صوت آخر. لا يوجد ابن آوى واحد على الأرض. ولا غراب في الجو. كان كل كائن حي يجثم متكمشاً من الخوف، ينتظر أن يهدأ غضب الرب.

الفصل الحادي عشر

اتكا ابن مريم على الجدار وأغمض عينيه، المראה تملأ فمه، مرارة سامة. والحبر الذي حشر رأسه مرة أخرى بين ركبتيه أخذ يتفكر في الجحيم والشياطين وفي قلب الإنسان... لا، الجحيم بشياطينه لا يوجد في حفرة عظيمة تحت الأرض، بل في صدور البشر، في صدر أشدّهم فضيلة وعدالة، الرب لُجّ، والإنسان لُجّ - والحبر العجوز لا يجرؤ على فتح قلبه ليرى ما بداخله.

مرّ بعض الوقت لم يتبادلا خلاله الكلام. كان صمتاً عميقاً... حتى الكليلين الأسودين استغرقا في النوم: تعباً من العويل على الميت. وهجأة انبعث هسيس عذب ثاقب من الفناء. قفز يريعام نصف المعتوه واقفاً، وكان أول من سمعه. كانت رياح يهوه دائماً مصحوبة بمثل هذا الهسيس الجميل الصادر عن الفناء. وكان الراهب يقفز ابتهاجاً كلما وصل هذا الصوت إلى أذنيه. كانت الشمس تغرب، لكن الفناء بكامله كان ما يزال يغتسل بالضياء، وميّزت عينا الراهب على البلاط الحجري المجاور للبئر الجافة حية كهيبة، سوداء مع زخرفات صفراء، ترفع عنقها المنتفخ، وتهز

لسانها، ونفس. لم يكن يربعم قد سمع انعاماً أشد اغواءً من تلك التي تصدر عن خلق الحية. وفي الصيف حين كان بدوره يحلم بين الحين والآخر بامرأة، كانت تظهر له على هذه الصورة، أشبه بحية تتسلل منزلة إلى فراش نومه، وتقرب لسانها من أذنه، ونفس... في هذه الليلة خرج يربعم بخفة مرة أخرى من الصومعة، وحبس أنفاسه واقترب من الحية المحتاجة. كانت تصفر، نظرت إليها، وأخذ هو أيضاً يصفر ويشعر بدفع الحية بتغلغل في جسده، ثم شيئاً فشيئاً، أخذت حيات أخر تخرج من البشر الجافة أو من قلب الرمال، أو من حول نبات الصبار، واحدة بقمة رأس زرقاء، وأخرى خضراء ولها قرنان، وغيرها صفراء اللون، ورقطاء، وسوداء... انزلت بسرعة كجريان الماء متقدمة لتتضم إلى الحية الأولى، الطعم الجاذب، ولتتظم معاً بشكل سلسلة، تحتل أحداها بالأخرى، وتعلق أحداها الأخرى، كعنقود من الحيات معلق في وسط الفناء، ويربعم يتجسم فيه ويسيل لعابه، وكان يقول في نفسه، هذا هو الجنس، هكذا يتزاوج الرجال والنساء، ولهذا طردهم الرب من الجنة... وراح جسمه المحدودب الذي لم يتلق قبلة واحدة من قبل يتمايل إلى الأمام وإلى الخلف مع حركة الحيات.

سمع الحبر الصوت المغوي، فرفع رأسه، وأخذ ينصت. قال في نفسه، تهب رياح الرب الملتبهة ووسط معمعانها تتزاوج الحيات، وتتضاجع! ولبرهة من الزمن استسلم العجوز للقوابة ويبدأ يتلوى، ولكن فجأة سرت فيه رجفة. قال لنفسه، إن كل شيء من الرب، ولكل شيء معنيان، واحد ظاهر، والأخر مستتر. والعامة لا تدرك إلا الظاهر منهما. يقولون «هذه حية»، ولا يذهب عقلهم لأبعد من ذلك، لكن العقل الذي يسكن في الرب يرى ما يكمن خلف الظاهر. يرى المعنى الخفي. إن هذه الحيات التي زحفت خارجة اليوم أمام

أبواب هذه الصومعة وأخذت تهس في هذه اللحظة بالذات، مباشرة بعد ادلاء ابن مريم باعترافه، لاشك أنه يكمن خلفها معنى عميق، مستتر، ولكن ماهو؟

تكور كالكرة على الأرض وكان صدغاه يبيضان بشدة. ماهو المعنى؟ نصيب العرق البارد من وجهه الذي لفتحه أشعة الشمس. أحياناً كان يلقي نظرة من زاوية عينه إلى الشاب الشاحب الجالس قريباً منه، وتارة ينصت بانتباه، ممغم العينين قاغر الفم، إلى الحيات التي في الخارج. ماهو المعنى؟

كان قد تعلم لغة الطير من طائر الأرواح الشريرة العظيم يوشفاط، رئيسه السابق، الذي كان رئيساً لتدير حين جاء إلى الدير ليغدو راهباً. كان بوسعه ترجمة أقوال طيور السنونو، واليمام والنسور. وكان يوشفاط قد وعده أيضاً بتعليمه لغة الحيات، لكنه توفي وأخذ السر معه. هذه الحيات في هذه الليلة تحمل معها دون شك رسالة، ولكن ما فحواها؟

عاد من جديد يتكور ويعصر رأسه بين يديه، وكان عقله يدمدم. أمضى فترة طويلة يتلوى ويشهد وشعر وكان صواعق بيضاء وسوداء تمزق عقله. ما الفحوى؟ ما الرسالة؟ وفجأة أطلق صرخة، ونهض واقفاً، ثم تناول صولجان رئيس الدير وانكأ عليه.

قال بصوت خفيض «يا يسوع، كيف حال قلبك؟»

لكن الشاب لم يسمع. كان غارقاً في جذل يعصى على الوصف. هذه الليلة، وبعد مرور سنين عديدة، هذه الليلة، الليلة التي قرر فيها أن يعترف ويفضي بمكنوناته، تمكن لأول مرة من أن يسبر ظلام قلبه ويميز الحيات التي كانت تهس داخله، واحدة واحدة. أعطاهما أسماء، وبينما هو يفعل ذلك شعر وكأنها تبتقي من أحشائه وتزلق إلى الخارج، وترجعه.

عاد المعجوز يسأل «كيف حال قلبك يا يسوع؟ هل ارتاح؟» ومال عليه وأمسك بيده. قال برقة «تعال»، ووضع أصبعه على شفتيه.

فتح الباب، وأمسك يسوع من يده وعبروا العتبة، فشاهدوا الحيات الوقحة، المتلصقة واحدة مع الأخرى والتي لا تتصل بالأرض إلا بواسطة أذيالها، وقد نهضت وسط دوامة الرمال الملتهية ترفص في رتل واحد، مستسلمة استسلاماً تاماً لرحمة رياح الرب، وبين قينة وأخرى تتبَّس وتتوقف حركتها من الازهاق.

نكس ابن مريم لدى مرآها، لكن الحبر ضغط على يده، ومد الصولجان ولمس طرف عنقود الحيات المدلى.

قال بهدوء «وهو يراقب الشاب ويتشم «هاهي قد فُرت»

قال الشاب مرتبكاً «فُرت؟ من أين؟»

«الا تشعر بأن عبثاً قد انزاح عن قلبك؟ لقد فُرت من قلبك»

حدّق ابن مريم جاحظ العينين أولاً الى الحبر الذي كان يتشم له، ومن ثم الى الحيات التي كانت «وهي متكئة، تتنقل وهي تتراقص الى البشر الجافة». فوضع يده على قلبه وشعر به يختق بسرعة، وابتهاج.

قال الحبر، وهو يمسك بيده من جديد «هيا بنا ندخل»، فولجا الى الداخل وأغلق الحبر الباب.

هتف بحرارة «المجد للرب»، ثم نظر الى ابن مريم فانتسابه اضطراب غريب، خاطب نفسه «هذه معجزة. إن حياة هذا الفتى المائل أمامي ليست غير مجموعة من المعجزات... انتابته لبرهة رغبة في أن يضع كلتا يديه على رأس يسوع ويباركه، ومن ثم أن يخر ويقبل قدميه. لكنه أحجم، ألم يعمد الرب الى خداعه مراراً وتكراراً حتى الآن؟ كم مرة قال، بعد أن يسمع أحد الأنبياء الذين قدموا مؤخراً من سفوح الجبال أو من الصحراء، «هذا هو

المسيح؟»، لكن الرب كان يخدعه في كل مرة، ويبقى قلب الحبر المهيباً للازهار دائماً جذعة عقيمة. لذا، أحجم عن الكلام... وفكر قليلاً، يجب أن اختبره أولاً. تلك كانت الحيات التي كانت تنهشه، وهاقد فُرت وأصبح تقياً. والآن بات قادراً على النهوض - سوف يخطب في الناس - وعندئذ سنرى.

فتح الباب، ودخل يريعام المسؤول عن الضيوف حاملاً عشاء الزائر الهزيل المؤلف من خبز الشعير، والزيتون والحليب. التفت نحو يسوع وقال «فرشت لك حشيتك في صومعة أخرى هذه الليلة لكي تكون في صحة أحدهم»

لكن ذهن الزائر كان شارد بعيداً، فلم يسمعه. كانا يستمعان هسيس الحيات من جديد، أت من قعر البئر كانت تصفر، وتصفر، وتتسارع أنفاسها.

قال الراهب مقهقهاً «إنها تتزواج. تهب رياح الرب، أما هي - اللعنة عليها - فلا يملكها الخوف، بل تتزواج»

ثم نظر الى المعجوز وغمز بعينه، لكن الحبر كان قد باشر بغمس خبزه في الحليب وبدأ يأكل. أراد أن يستعيد قواه، أن يحول الخبز، والزيتون والحليب الى ذكاء يعينه على التحدث مع ابن مريم. ويعد أن تقل الأحذب القزم بصره من أحدهما الى الآخر أصابه الضجر، فغادر.

جلس الاثنان القرفصاء متقابلين، وراحا يتناولان الطعام بصمت. كانت العتمة قد سادت الصومعة. وكانت الكراسي التي بلا مساند ومقعد رئيس الدير والمقرأ، الذي مايزال مفتوحاً عليه سفر دانيال، تلعب لمعاناً غير واضح وسط الظلام. كان هواء الصومعة مايزال تقوح منه رائحة البخور الحلوة. وفي الخارج كانت الرياح قد هدأت.

قال الحبر فجأة «هذات الرياح . جاء الرب وذهب»
 لم يجبه الشاب . وكان يقول في نفسه ، لقد رحلت ، لقد رحلت .
 الأفعاي فرت من داخلي . لعل هذا ما أراد الرب ، لعله لهذا
 أحضرني الى هنا الى الصحراء : لأشفي . نفخ ، فسمعته الأفعاي
 وخرجت من قلبي وفرت . المجد للرب !
 بعد أن انتهى من تناول طعام العشاء ، رفع الحبر يديه وقدم
 الشكر للرب ، ثم استدار الى رفيقه وقال «أين سرحت يا يسوع؟ أنا
 حبر الناصرة ، أسمعني؟»

قال الشاب ، بعد أن خرج من سرحانه في نجمة «أسمعك يا
 عمي شمعون»

«لقد حانت الساعة يا ولدي ، هل أنت مستعد؟»
 سأل يسوع ، وهو يرتجف «مستعد؟ مستعد الى ماذا؟»
 «أنت تعلم جيداً - فلماذا تسألني؟ أقصد مستعد لتنهض وتخطب»
 «أخاطب من؟»
 «البشرية»
 «وماذا أقول؟»

«لا تقلق بهذا الشأن ، فقط افتح فمك ، والرب لا يطلب منك
 أكثر من ذلك . ألا تحب البشرية؟»

«لا أدري . انني أرى البشر قارئني لحالهم . لا أكثر»
 «هذا كاف يا ولدي ، هذا كاف ، انهض وخاطبهم . قد تتضاعف
 أحزانك عندئذ ، ولكن أحزانهم ستخف . ربما لهذا أرسلك الرب
 الى العالم . سوف نرى!»

كرر الشاب بعده «ربما لهذا أرسلني الرب الى العالم؟ كيف لك
 أن تعرف يا أبت؟» وغادرت روحه جسده وتوثر في حالة ترقب ،
 بانتظار الجواب .

«أنا لا أعرف . لم يخبرني أحد ، ولكن مع ذلك ، هذا محتمل .
 لقد رأيت اشارات . ذات مرة وأنت طفل صغير أخذت بعض الغضار
 وشكلته على هيئة عصفور . وبينما أنت تداعبه وتتحدث اليه ، خيل
 الي أن ذلك العصفور الغضاري قد نما له جناحان ومطارقاً من
 قبضتك . من الممكن أن ذاك العصفور كان يمثل روح الانسان ، يا
 يسوع . يا ولدي - إن روح الانسان رهن يديك» .

نهض الشاب واقفاً وفتح الباب بعناية . أخرج رأسه وأخذ ينصت ،
 كانت الحيات قد سكنت تماماً الآن - أخيراً . سرٌ لذلك ، ثم التقى الى
 الحبر العجوز وقال «امتنعني بركتك يا أبت ، ولا تقل أي شيء آخر .
 لقد قلت ما فيه الكفاية ، ولم أعد أحتمل سماع المزيد»

بعد أن صمت برهة ، تابع «أنا نعب يا عمي شمعون وسأوي الي
 السرير . أحياناً يأتي الرب أثناء الليل ويشرح أحداث النهار ... نوماً
 هائلاً يا عمي شمعون»

كان المسؤول عن الضيوف بانتظاره عند الباب من الخارج . قال
 «هيا بنا ، ساريك أين وضعت لك سريرك . ما اسمك أيها الفتى الطيب؟»
 «أنا ابن النجار»

«واسمي يريعام . وأدعي أيضاً بالأخ مخبول . وأيضاً بالأحذب .
 وماذا يهم؟ انني أضع انفي على حجر الشحذ وأحت الطبقة
 اليابسة التي تمنعني اياها الرب»
 «أي طبقة يابسة؟»

ضحك الأحذب . وقال «ألا تفهم أيها الأحمق؟ إنها روحي وحالما
 أنتهي - نوماً هائلاً ، وأحلاماً سارة - يأتي شارون^(١) ويبدأ بنهشي!»

١ - في الأساطير اليونانية : شارون هو حامل أرواح المواتي عبر نهر الموت الى
 العالم الآخر .

هنا توقف وفتح باباً صغيراً قصيراً.

قال «أدخل، هناك - في الزاوية الخلفية، الى اليسار - تجد حشيتك، ودفعه عبر الباب وهو يقهقه «نومأهانتأ، أيها الفتى الطيب، وأحلاماً سارة. ولكن لا تخف، سوف تحلم بالنساء - إن جو الدبر يعبق بهن»

وكاد ينفلق من شدة الضحك وهو يفلق الباب بصفقة مدوية.

لم يأت ابن مريم بأي حركة، الدنيا ظلام... في البدء لم يميز شيئاً، ولكن قليلاً قليلاً بدأت تتبدى له جدران مبيضة غير واضحة بصورة باهنة جداً، والتمع إبريق موجود في مشكاة محفورة على طول الجدار، وفي الزاوية رأى عينيّن ينطلق منهما الشرر تثبّتان عليه نظرتهما.

تلمّس طريقه يبطه الى الأسفل، وذراعاه معدودتان أمامه. تعرّث قدمه بالحشية غير الممدودة، فتوقّف. وتحركت العينان وهما تتابعانه.

حيا ابن مريم رفيقه «عمت مساءً يا صديقي»، ولكن لم يجبه أحد.

كان يهوذا متكئاً على الجدار ويراقبه، ظهره منحنيّاً ومكوراً، ذقنه معتمدة على ركبتيه، وأنفاسه الثقيلة، اللاهثة بتردد صداها في أرجاء الصومعة. كان يردد في نفسه «تعال... تعال... تعال... تعال»، وقبضة يده تشد على الخنجر وهي ملتصقة بصدرة، وغمغم «تعال... تعال... تعال»، وهو يراقب تقدم ابن مريم. وغمغم يستدرجه «تعال... تعال... تعال»

عاد بذهنه الى القرية التي وُلد فيها، كريتوت، الواقعة في صحراء ايدوميه النائية. تذكر ان هذا بالضبط مكان يفعله عمه طارد الأرواح الشريرة لاستدراج أبناء آوى، والأرانب وطيور الحجل

التي يريد أن يقتلها. كان يلبث على الأرض، ويثبّت عينيه بنظرتهما المتقدة على الطريدة ويطلق هسيساً مفعماً بنبرة الاشتياق، والاستعطاف والسيطرة: تعال... تعال... تعال... وعلى الفور يصيب الدوار الحيوان ويبدأ بالزحف، منحني الرأس مقطوع الأنفاس، متجهاً صوب الفم الذي يصدر الهسيس.

فجأة أخذ يهوذا يطلق هسيساً - خافتاً في أول الأمر وشديد الرقة، ولكن الصوت أصبح أقوى على حين فجأة، أضحى عنيفاً ويوحى بالتهديد، فانتفض ابن مريم، الذي كان قد استلقى لينام، من الرعب. من الذي يجلس الى جواره من الذي يهس؟ استشعر في الجو وجود بهيمة ثائرة من الغضب، وفهم.

سال بهدوء «يهوذا، يا أخي، أهذا أنت؟»

دمدم الآخر قائلاً، وهو يضرب بقدمه بغضب على الأرض «أيها الصالب!»

كرر الشاب السؤال «يهوذا، يا أخي، إن الصالب يعاني أكثر من المصلوب»

انفجر ذو اللحية الحمراء قائلاً، بعد أن استدار بحركة سريعة يجسمه كله لكي يواجه ابن مريم:

«لقد أقسمت لأخوتي الزيلوت ولأم المصلوب بأنني سأقتلك. فاهلاً بك، يا صانع الصلبان، أنا همست وأنت أتيت»

وقفز واقفاً على قدميه، وأرتج الباب ومن ثم عاد الى الركن وتكوّر من جديد على شكل كرة، وصوّب وجهه نحو يسوع.

«أسمعت ماقلته؟ اياك أن تباشر نحيبك. استعد!»

«أنا مستعد»

«لا تصرخ الآن! أسرع! أريد أن أنهي مادامت الدنيا ظلام»

«انتي سعيد برؤياك، يا يهوذا، يا أخي، أنا مستعد، لم يكن

أنت من هس، إنه الرب - وأنا أتيت. لقد أعدت كل شيء على أكمل وجه بنعمته الضاحية. لقد أتيت في اللحظة المناسبة تماماً، يا يهوذا، يا أخي. هذه الليلة تخففت قلبي من أعبائه، وتطهرت، ويمكنك الآن أن أمثل أمام الرب. لقد تعبت من طول مقاومته، تعبت من العيش. انني أقدم لك عنقي، يا يهوذا - أنا مستعد

أن الحداد وقطب جبينه. لم يعجبه ذلك، لم يعجبه ذلك على الإطلاق - والحق أنه كان يأنف أن يلمس عنقاً يُقدم له دون مقاومة، كعنق الحمل. إن ماكان يريد هو المقاومة؛ التصارع جسداً بجسد، وإن يأتي القتل في آخر المطاف كما يليق بالرجال الحقيقيين، بعد أن يغلي الدم: كمكافأة عادلة للتصارع.

انتظر ابن مريم، وعنقه ممدود إلى الأمام. لكن الحداد مد يده الضخمة بسرعة ودفعه بعيداً عنه.

دمدم «ماذا لا تقاوم؟ أي نوع من الرجال أنت؟ انهض وقاثل!» «ولكني لا أريد ذلك، يا يهوذا، يا أخي. ولماذا أقاوم؟ إن ماتريد أنت أريده أنا، ولاشك بأن الرب يريد الشيء ذاته - لهذا تراه رتب الأمر بدقة متناهية. ألا ترى لقد خرجت أبني الدبر، وخرجت أنت في اللحظة نفسها، وصلت أنا وعلى الفور تطهر قلبي: بت مستعداً للموت، وأمسكت أنت بختجرك وريضت في هذا الركن وتهيأت للقتل، وفتح الباب، وولجت... أي إشارات أدل من هذه تريد، يا يهوذا يا أخي؟»

لكن الحداد لم ينطق - وراح يمزغ شاربه وهو هائج، ودمه النائر يتدفق بدفقات مضطربة، ويرتفع إلى رأسه فيشتعل دماغه حتى الاحمرار، ثم يهبط بسرعة مرة أخرى تاركاً وجهه شاحباً، ويعود فيصعد من جديد.

وأخيراً هدر قائلاً «ماذا تصنع الصلبان؟»

طامطاً الشاب رأسه. لقد كان ذاك سره الخاص - فكيف يفشيها؟ كيف يمكن للحداد أن يصدق الأحلام التي يرسلها الرب إليه، أو يصدق الأصوات التي يسمعها حين ينفرد بنفسه، أو البرائن التي تتغرز في رأسه وتريد أن ترفعه نحو السماء؟ وكيف أنه قاوم ورفض أن يذهب - كيف يسع يهوذا أن يفهم كل هذا؟ أنه يتشيث بالاثم بيأس، ويستخدمه كوسيلة للبقاء على الأرض.

قال، وفؤاده يكاد ينقطر «لا أستطيع أن أشرح لك يا يهوذا، يا أخي. سامحني، ولكن لا أستطيع»

عدل الحداد من جلسته بحيث يميز وجه الشاب بشكل أفضل وسط الظلام. نظر إليه بنهم. ومن ثم تراجع ببطء وانكأ مرة أخرى على الجدار. وتساءل، أي نوع من الناس هذا؟ انني لا أفهم. ترى سيكون الشيطان من يقوده - أم الرب؟ اللعنة عليه. في كلا الحالتين إنه يقوده بيد واثقة، وهو لا يقاوم، وهذه هي المقاومة الكبرى. انني لا أستطيع أن أذبح حملاناً؛ رجالاً، نعم، ولكن ليس حملان.

انفجر قائلاً «أنت جبان، أيها البائس التعس! أووو - لماذا لا تذهب إلى الجحيم! انك تصفع على أحد خديك، فماذا تفعل، تعتمد على الفور إلى إدارة خدك الآخر، وترى ختجراً، فتسرع إلى مد عنقك. لا يمكن لرجل أن يمسك دون أن يشعر بالامتناع»

تتم ابن مريم بهدوء «الرب يمكنه»

أدار الحداد الخنجر في قبضته، معبراً عن عجزه عن اتخاذ قرار. وخيل إليه لوهلة أنه رأى هالة من النور تخفق في الظلام فوق رأس الشاب المحني، فانتابه الرعب وتراخت مفاصل يديه.

قال لابن مريم «قد أكون بليد الفهم، ولكن تكلم - سوف أفهم. من أنت؟ ماذا تريد؟ من أين أتيت؟ وما تلك القصص التي تروي عنك في كل مكان: عصا تزهو، وبرق وامض، ونويات الاغماء التي

تتشابه وأنت سائر، والأصوات التي يقال أنك تسمعها في الظلام؟
قل لي، ماهو سرّك؟

«إنه الشفقة، يا يهوذا، يا أخي»

«لن؟ على من تشفق؟ على نفسك، على يؤسك وفقرّك؟ أم ربما تشفق على إسرائيل؟ حسن، أفصح! أعلّى إسرائيل؟ هذا ما أريد أن أعرفه، أسمع؟ هذا ولاشيء غيره هل معاناة إسرائيل هي التي تهشك؟»

«بل معاناة الإنسان، يا يهوذا، يا أخي»

«دعك من «الإنسان»، إن اليونانيين الذين ظلوا يذبحوننا طوال سنين عديدة، اللعنة عليهم! - هم من البشر، والرومان من البشر - هم ما زالوا يذبحوننا ويدشّنون الهيكل وريثنا، فلماذا تهتم بهم؟ عليك أن تضع إسرائيل نصب عينيك، فإذا كنت تشعر بالشفقة، فلتكن على إسرائيل. أما الباقون جميعاً فليذهبوا إلى الشيطان!»

«لكني أشعر بالشفقة على أبناء أوى، يا يهوذا، يا أخي، وعلى طيور السنونو، وعلى العشب»

قال ذو اللحية الحمراء ساخراً «ها ها! وعلى النمل؟»

«نعم، وعلى النمل أيضاً. إن كل شيء مُلكٌ للرب. وأنا حين أميل على نملة فأنني أرى داخل عينها السوداء اللامعة وجه الرب»
«ألا تخشى الموت؟»

«ولم أخشاه، يا يهوذا، يا أخي؟ الموت ليس ياباً يُفلق؛ إنه باب يُفتح. إنه يُفتح، وأنت تلجّه»

«ألج إلى أين؟»

«إلى حضن الرب»

تهتد يهوذا من الغيظ. قال في نفسه، هذا الفتى لا يمكن

الايقاع به، لا يمكن الايقاع به لأنه لا يخشى الموت... وأسند رقبته

براحة يده، وراح يملّي بصره من يسوع وجاهد كي يصل إلى قرار.

أخيراً قال «إذا لم أقتلك، فلماذا توي أن تفعل؟»

«لا أدري. ليكن ما يقرره الرب... أود أن أقوم وأخاطب الناس»

«وماذا ستقول لهم؟»

«كيف تتوقع مني أن أعرف، يا يهوذا يا أخي؟ سوف أفتح فمي،

وسيقوم الرب بالكلام»

أصبحت حالة النور التي تحيط برأس الشاب أشد سطوعاً،

وومض وجهه الحزين، الهزيل كما البرق وأغوت عيناه الكبيرتان

السوداوان كالكهرمان يهوذا يعذّبونهما التي لا توصف، فاضطرب

ذو اللحية الحمراء وأغضى بصره. قال في نفسه، لن أقتله إذا

تأكدت من أنه سيخرج ويتكلم ويلهب مشاعر العبرانيين،

ويستهضمهم لمهاجمة الرومان.

سأله الشاب «ماذا تنتظر يا يهوذا، يا أخي؟ أم لعل الرب لم

يرسلك لتقتلني، لعله يريد شيئاً آخر، شيئاً مجهولاً حتى لديك،

وأنت تنظر إليّ وتجاهد كي تخمن ماهو. انني مستعد لأقتل، وأنا

أيضاً مستعد لأعيش. فخذ قرارك»

أجاب الآخر وهو مغموم «لا تكن عجولاً، فما زال الليل طويلاً،

ولدينا الكثير من الوقت»

لكنه بعد هنيهة من الصمت، صرخ هائجاً «إن المرء لا يستطيع

حتى أن يكلمك دون أن يجد نفسه متورطاً. أنا أسألك عن شيء

وأنت تجيب عن شيء آخر: انني عاجز عن محاصرتك، لقد كان

قلبي وعقلي أكثر ثقة قبل أن أقابلك وأستمع اليك مما هما الآن.

دعني وشأني. أدر وجهك إلى الناحية الأخرى واخذ إلى النوم.

أريد أن أنفرد بنفسي حتى أستوعب كل هذا وانظر ماذا سأفعل»

قال هذا واستدار نحو الجدار، وهو يدمدم تذمراً.
استلقى ابن مريم على حشيته وعقد ذراعيه بهدوء.
قال في نفسه، ما يشاء الرب يكون، ثم أغمض عينيه في
اطمئنان.

خرج يوم من مكنه في الصخرة المقابلة لهما، فألقى دوامة
الرب قدمرت، فراح يطير جيئةً وذهاباً بصمت ثم أخذ ينبص بصوت
خافت، منادياً على اليفته، وكان ينادي، الرب غادر، ونجونا مرة
أخرى يا عزيزتي - تعالي! وفي أعلى المنقف كان منور الصومعة قد
امتلاً بالنجوم. فتح ابن مريم عينيه وفرح لرؤيتها. كانت تتحرك
ببطء، ثم تختفي، ثم تظهر غيرها. ومرت الساعات.

كان يهوذا يثوى ويتقلب وهو ما يزال جالساً القرفصاء على
حشيته. وبين الحين والآخر ينهض ويمشي، لاهتاً مغمغماً، حتى
الباب، ثم يعود من جديد. راقبه ابن مريم وعيناه نصف مغمضتين
وانتظر، وفكر، ما يشاء الرب سيكون، وزاح ينتظر. ومرت الساعات.
سهل جمل في الاسطبل المجاور لهما سهيل خوف، يبدو أنه
راى ذئباً أو أسداً في منامه. وسعت نجوم جديدة كبيرة بضراوة
جهة الشرق، وانتظمت انتظام جيش.

فجأة صاح ديك وسط الظلام الحالك الهاجع. قفز يهوذا،
وبخطوة واسعة واحدة وصل الى الباب، فتحه بعنف، ثم عاد فأغلقه
خلفه. وأمكن سماع وقع قدميه الحافيتين الثقيل على الأحجار
اللوحية.

استدار ابن مريم فترأى رفيقة سفره المخلصة؛ واقفة في
الزاوية، منتصبة ويقظة وسط الظلام.
قال لها «اغفري لي يا اختاه، لم تحن الساعة بعد».

الفصل الثاني عشر

هبت في ذاك النهار ريح دافئة رطبة، أثارت أمواجاً عالية في
بحيرة جنيسارت. لقد حلّ الخريف، وشاحت الأرض برائحة أوراق
الكرمة والعنب الشديد النضج. كان الرجال والنساء قد تدفّقوا من
كفرناحوم عند الفجر. وكان محصول الكرمة في قمة نألقه؛
فأغصان العنب ملأى بخمرها الفطير، ملقاة على الأرض تنتظر،
وكانت الفتيات الصغيرات، المتألمات مثل العنب، قد أكلن عناقيد
كاملة ولطخن وجوههن بالعصير. وأخذ الشبان، النابضون بعنفوان
الشباب العارم، يلقون نظرات مأكرة الى الفتيات المقهقهات اللواتي
يقطفن المحصول. وكنت تسمع في كل كرم عنب صرخات ونوبات
ضحك. لقد أصبحت الفتيات أكثر جراءة وأصبحن يضايقن الفتيان
الذين كانوا يزدادون تأججاً أكثر فأكثر ويقتربون منهن ويتجول
شيطان محصول العنب الخبيث هنا وهناك يقرص النسوة ويجعل
خواصرهن تكاد تتفلق من الضحك.

كان منزل العجوز زبدي القروي الفسيح مفتوحاً وتضج في
أرجائه الحركة. وكانت معصرة الخمر، في الجانب الأيسر من

الفناء، ملأى بمحتويات السلال المترعة التي ينقلها الشبان من الكروم. كان أربعة من العمالقة، فيلبس، ويعقوب، وبطرس، ونثنائيل، اسكافي القرية، وهو أشبه بجمل ساذج، يغسلون سيقانهم الكثيفة الشعر ويستعدون لدخول المعصرة لمعالجة العنب. ولا شك بأن كل انسان فقير في كفرناحوم كان يعد كرمته الصغيرة لزيادة مخزون الخمر السنوي، وفي كل عام ينقل محصوله الى هذه المعصرة، فيعصر العنب بقدميه ويستعيد نصيبه من الخمر الفطير. ويملأ زبدى العجوز المحشو بالمال برطماناته وبراميله الخاصة المعدة لهذا العام بالعمولة التي أخذها مقابل استخدام المعصرة. وهكذا، يجلس على منصة مرتفعة ويسك بعضا طويلة بيد وباليدين الأخرى مطواة وباستخدام الأثلام يحدد عدد سلال كل شخص. لكن المالكين أيضاً يحتفظون بسجل في أذهانهم : فهم لا يريدون أن يتعرضوا للفش في اليوم التالي عند تقسيم الخمر الفطير. إن زبدى العجوز نهّاب - ولا يثق أحد به، وكان على كل واحد أن تكون له عينان في خلفية رأسه.

كانت النافذة الداخلية من المنزل المطلّة على الفناء مفتوحة، وسالومه العجوز، سيدة المنزل، متمددة على الأريكة، تراقب مايجري في الخارج وتتمسك الى كل ما يحدث في الفناء، وبهذه الطريقة كانت تتمسك الآلام التي تعض ركبتيها ومفاصلها الأخرى. لابد انها كانت تتمتع بجمال أخاذ في شبابها - فعضامها نحيلة، طويلة القامة، ذات بشرة زيتونية وعينين كبيرتين : خامة جيدة. وكانت ثلاث قرى - هي كفرناحوم ومجدلة وبيت حسدا - تتنافس عليها. فقط انطلق ثلاثة من الخاطمين في وقت واحد يبيعون والدها العجوز، صاحب السفن الثري، بصحبة كل منهم طابور من الأصدقاء الأثرياء، والجمال والسلال الطافحة بمحتوياتها. وأخذ

العجوز الداهية يشيم ويعناية جسد وروح وثروة كل منهم، واختار زبدى، الذي تزوجها، وكانت مصدر سعادة له، أما الآن فالفتاة الرائعة الجمال أصبحت عجوزاً، وجمالها الذي نخره الزمن، اختفى، وبين وقت وآخر، أشاء الاحتفالات الهامة، يقوم زوجها الذي لازالت فيه حياة ونضارة بجولات في الليل ليعبث مع الأراميل.

أما اليوم فوجه العجوز سالومه مستبشر. إن ولدها الأثير، يوحنا، قد وصل بالأمن من الدير المقدس. بدا شاحباً تماماً ونحلاً جداً. استفده طول الصلاة والصوم، أما الآن فستحتفظ به الى جانبها ولن تدعه يرحل ثانية، سوف تغذيه بالطعام والشراب، وسيصبح قوي البدن، وسيعود الرويق الى وجنتيه. قالت في نفسها، الرب طيب، ونحمده على نعمته. نعم، انه طيب - ولكن لا يجب أن يتوق الى شرب دماء أولادنا، ان الصوم باعتدال، والصلاة باعتدال، يفيدان الانسان والرب معاً، ويجب أن يعملوا على تنظيم الأمور بهذه الطريقة - بشكل معقول. راحت تنظر الى الباب بقلق، بانتظار عودة يوحنا، ولدها، من كروم العنب؛ فهو بدوره يقدم يد المساعدة في جمع المحصول.

في منتصف الفناء، تحت شجرة لوز كبيرة، مثقلة بالثمار، كان يهودا ذو اللحية الحمراء منحنياً، صامتاً، يضرب بمطرقة لتثبيت أطواق حديدية حول براميل الخمر. ولو نظرت اليه من اليمين، لرأيت وجهه متجهماً وملؤه الضغينة، ولو نظرت اليه من جهة اليسار، لوجدته مضطرباً وحزيناً. لقد مرت أيام عديدة منذ أن هرب كالصومس من الدير، وخلال تلك الفترة جاب القرى يصلح البراميل لتعبئة الخمر الفطير الجديد. كان يدخل البيوت؛ يعمل، ينصت الى الأحاديث ويسجل في عقله كلام وأفعال كل رجل، لكي يبلغ كل شيء لأعضاء المنظمة. ولكن أين هو ذو اللحية الحمراء

المسابق - المشاكس، مثير المشاكل! منذ اليوم الذي غادر فيه الدير،
لم يعد كما كان.

زعق زبدي في وجهه «اللعنة، يا يهوذا الاسخريوطي، انطق، يا
شعر الشيطان، ما الذي يدور في ذهنك؟ اثنان واثنان يساوي أربعة
- ألم تدرك هذا بعد؟ انطق، أيها الهمجي المبارك، قل شيئاً. هذا
هو المحصول - لا يستهان به. في يوم كهذا الجميع يضحكون، حتى
النفور المتجه»

قاطعه فيلبس قائلاً «لا تقده الى الغواية يا زبدي، لقد ذهب
الى الدير، ويسدو أنه يريد أن يلبس الرداء الكهنوتي. ألم تسمع؟
حين يتقدم العمر بالشيطان يصبح ناسكاً»

التفت يهوذا وألقى نظرة ملؤها الحقد على فيلبس لكنه لم
ينطق. لقد كان يمتقته. إنه ليس رجلاً؛ لا، فهو لا يعرف غير الكلام
بدون فعل؛ إنه ثرثار. لقد أصابه الشلل وملأه الخوف في الدقيقة
الأخيرة ورفض أن ينضم الى التنظيم - وكان عذره «لدي قطع من
الماشية، لدي قطع من الماشية، فكيف أتركه؟»

انفجر العجوز زبدي يضحك والتفت الى ذي اللحية الحمراء،
وهتف به «أحذر أيها البائس، الحياة الرهبانية مرض معد، فاحذر
لئلا تصاب به! لقد نجنا ابني بجلده على آخر رمق، فقد مرضت
زوجتي العجوز، باركها الرب، فعلم ابنها الحبيب بذلك، وكان قد
أنهى لتوه دراسة الأعشاب مع رئيس الدير، فعاد الى المنزل
ليطبخها. ولن يغادر هذا المكان بعد الآن، علم على كلامي. الى أين
ينذهب؟ انه ليس مجنوناً، ليس كذلك؟ هناك في الصحراء الجوع،
والعطش، والمسجود - والرب. أما هنا فالطعام، والخمر، والنساء -
والرب، الرب موجود في كل مكان. فلماذا تذهب لنبعث عنه في
الصحراء؟ مارايك، يا يهوذا الاسخريوطي؟»

لكن ذا اللحية الحمراء واصل الضرب بمطرهته ولم يدل
بجواب. ماذا يسعى ان يقول له؟ إن كل السفن تجري بما يرغب هذا
الكلب القذر ويشتهي. كيف يمكنه أن يشهم مشاكل جواره حتى
الرب، الذي أزال أقواماً أخرى عن وجه الأرض بقضرة برغوث، مدح
هذا الخنزير، هذا الطفيلي. هذا العابد للمال، ودلّه؛ حفظه من
التعرض لأقل أذى، وحطّ عليه كرداء من الصوف في الشتاء،
وكرداء من الكتان يشيع البرودة في الصيف. لماذا؟ ماذا يرى فيه؟
هل يعذب ابن الحرام العجوز هذا قلقاً حول اسرائيل؟ الحق انه لن
يرفع أصبعه الصغير لمساعدة اسرائيل - انه يحب الرومان المجرمين
لأنهم يحرسون له ثروته، وهو يقول، فليحتمهم الرب لأنهم يحفظون
النظام. لولاهم لانتقلب علينا - جموع الدهماء، من الهمجيين والحفاة،
ولكان ذلك ايذاناً بنهاية آملاكنا... ولكن، لا تخشى شيئاً، يا ابن
الحرام العجوز، فالساعة آتية. ان مايتساء الرب ويتركه دون انجاز
سينذكره الزيلوت، باركهم الرب، وسينجزونه. الصبر، يا يهوذا، لا
تتلق بأية كلمة الصبر، فيوم يهوه رب الجنود آت!

رفع عينيه الفيروزيتين لينظر الى زبدي فترأى له إنه في
معصرة الخمر، يطقو على ظهره في دمه، وابتسامة كبيرة تغطي
وجهه.

في تلك الأثناء كان العملاقة الأربعة قد انتهوا من ذلك
سيقانهم وقفزوا الى داخل المعصرة، غرقوا فيها حتى ركبهم
وأخذوا يطأون العنب ويسحقونه، وينعنون ليلتقلوا ملء قبضاتهم
منه، ويأكلونه فتمتلئ لحبيهم بعبادته. أحياناً يرقصون متشابكي
الأيدي، وتارة أخرى يصرخ كل منهم وحده ويقفز. وتُسكّرهم رائحة
الخمر الفطير - وليس فقط الخمر الفطير: فحين يمدون
أيصارهم عبر الباب المفتوح باتجاه كروم العنب يرون الفتيات

منعنيات يقطعن العنب، وجمالهن مكشوف حتى مافوق ركبهن،
وأندائهن كعناقيد العنب، تتأرجح أماماً وخلفاً فوق أوراق الكرمة.
راهم المعاصرون فتشوش أنفانهم. هذه ليست معصرة عنب
وتلك ليست أرضاً أو كرمة عنب، بل هي الفردوس، ويهوه رب
الجنود جالس على المنصة حاملاً عصا طويلة ومطواة يعلم بها
مديونيته الدقيقة لكل منهم: كم من سلال العنب جلب كل منهم وكم
سيعطيهم من أباريق الخمر، بعد غد حين يموتون - كم أباريق من
الخمر، كم خلقتين من الطعام، وكم عدد النسوة؟
قال بطرس قاصفاً «بشرقي لو أن الرب أتى في هذه اللحظة
وقال لي: «هيه، بطرس، يا صغيري بطرس، انتي رائق اليال اليوم،
ضاظلب مني ما تشاء، أي شيء، وسألبيه لك، ماذا تريد؟» - إذا
سألتني ذلك فسأجيبه: «أريد أن أعصر العنب، يا ربي، أريد أن
أقلل أعصر العنب إلى الأبد»
سأله زبدي بفظافة «ولا تريد أن تشرب الخمر، يا أبله؟»
«لا، أقولها من أعماق قلبي: أريد أن أعصر العنب»
لم يضحك، كان وجهه ينم عن جدية واستغراق. كَفَّ عن
العصر برهة من الزمن وتمدد تحت أشعة الشمس. كان الجزء
الأعلى من جسده عارياً، وقد وُثِم فوق قلبه وُثِم سمكة سوداء
كبيرة، وكان صانع ماهر، سجين سابق، قد ضربه له قبل سنين
عديدة بآبرة؛ فعل ذلك بهجارة فائقة حتى لتظن أنها تحرك ذيلها
وتسبح بسعادة، وهي متشابكة بشعر صدر بطرس الجعد. وفوق
السمكة وشم رسم مرساة صغيرة وأربع أذرع متصالية، تحمل كل
منها صنارة صيد.
لكن فيلبس تذكر غنمه ولم يكن يرغب بالعمل بحرارة الأرض،
والعناية بكروم العنب ويعصر العنب.

قال هازناً «يا الهي يا بطرس، يا له من عمل تطلبه لنفسك -
أن تعصر العنب إلى الأبد! لو سألتني الرب لطلبت منه أن يجعل
السماء والأرض مروجاً خضراء تملؤها قطعان الماعز والغنم.
عندئذ أحلبها وأسكب الحليب ليتدفق على سفوح الجبال، ليجري
كالنهر ويشكل بحيرات في السهل حتى يشرب منه الفقراء. وفي كل
مساء تجتمع كلنا - كل الرعاة، مع الرب سيد الرعاة، ونضرم ناراً،
ونشوي لحم الحملان ونروي الحكايات. هذا هو معنى الفردوس»
دمدم يهوذا «اللعة عليك، أيها الأبله»، ورمى فيلبس بنظرة
تتطاير شرراً.
كان الفتية المراهقون يتوافدون على الفناء ويخرجون منه،
عراة، شعورهم طويلة، تمشط عورتهم خرق ملونة. فسمعوا هذه
النقاشات غير المترابطة وضحكوا، فهم أيضاً كان لديهم تصورهم
الخاص عن الفردوس، لكنهم لا يبوحون به، كانوا يرمون بمعنويات
السلال إلى المعصرة ومن ثم بقفزة واحدة يتخطون العتبة وينطلقون
للاضطلاع إلى القاطفات الحسان.
باعد زبدي ما بين شفتيه يبغي أن يضيف ملاحظة حاذقة لكنه
ظل واقفاً فاغر الفم. فقد ظهر زائر غريب عند الباب وكان ينصت
إلى حديثهم: يحيط عنقه بجلد ماعز أسود يتدلّى منه؛ حاف،
وشعره شعث، ووجهه أصفر بلون الكبريت؛ غباء كبيرتان، سوداوان،
وتقدحان شرراً.
كفّت الأقدام عن العصر، وابتلع زبدي كلمته، والتفت الجميع
نحو الباب. من هو صاحب هذه الجثة الحية الواقف عند عتبة
الباب؟ ماتت الضحكات، وظهرت العجوز سالومه عند النافذة،
نظرت، وفجأة هتفت «انه اندراوس!»
هتف زبدي «يا الهي، اندراوس، يا لغرابة مظهرك! أنت

عائد من عالم الموتى؟ أم لملك في طريقك اليه هناك في الأسفل؟
 قفز بطرس خارجاً من معصرة الخمر، وضَمَّ يديَّ أخيه دون أن
 ينطق بكلمة، وراح ينظر اليه بحب وخوف. آخ، يا ربي، هذا
 اندراوس، اندراوس البطل الشاب الريان، الرياضي الشهير، الأول
 في العمل والعبث؟ هذا اندراوس الذي كان خطيباً لراعوث ذات
 الشعر الذهبي الناعم، أجمل فتاة في القرية؟ لقد غرقت مع
 والدها في البحيرة؛ حدث ذلك ليلة أثار الرب رياحاً رهيبة، وفي
 غمرة يأسه رحل اندراوس ليسلم نفسه، موثق اليدين والقدمين،
 للرب. وقال في نفسه، من يدري، لملي إذا ذهبت الى الرب فقد
 أجدها معه. واضح أنه كان يبحث عن خطيبته، وليس عن الرب.
 حذق اليه بطرس بملؤه الرعب. تذكر كيف كان حين سلموه
 للرب، والآن، انظر كيف أعاده الرب اليهم!

صرخ زبدي في بطرس «هيه، هل ستظل تحديق اليه وتتحنسه
 طوال النهار. دعه يدخل، فقد تهب رياح هنا وتطرحه أرضاً! ادخل
 يا اندراوس يا ولدي، تقدم وخذ بعض العنب وكل. لدينا خبز أيضاً،
 المجد للرب. كل وأعد بعض الحيوية الى وجنتيك، لأنه اذا رآك
 والدك العجوز المسكين وأنت في هذه الحالة، فسيصيبه رعب
 شديد وسيعود من قوره الى بطن حوته!»

لكن اندراوس رفع زراعته التحيلة، وهتف بهم جميعاً «ألا
 تخجلون من أنفسكم! ألا تخافون الرب! العالم ينهار، وأنتم هنا
 تعصرون العنب وتضحكون!»

غمغم زبدي «فليحفظنا القديسون، هاكم آخر جاء لينقذ
 علينا حياتنا». ثم استدار نحو اندراوس وقال بغضب «أرى أنك أنت
 أيضاً لن تدعنا وشأننا، هه؟ اعلم إذن أننا معتلون حتى الزبا. هذا
 ماينادي به نبيك المعمدانى؟ حسن، من الأفضل أن تخبره أن يغير

نبرته هذه. يقول إن نهاية العالم قد حانت، وإن القبور ستُفتح
 وسيطلق الموتى خارجها، يقول إن الرب سيهبط - العود الثاني! -
 ويبدأ الحمام، وعتدئ الويل لنا! أكاذيب! لا تنصتوا اليه
 يا شباب. هيا الى العمل! اعصروا العنب!»

عوى ابن يوثان «توبوا! توبوا!»، وانتفض متملصاً من بين
 أحضان أخيه ووقف في وسط الفناء، أمام زبدي العجوز مياشرة،
 وأشار بأصبعه نحو السماء.

«قال زبدي» اجلس يا اندراوس، لصالحك، كل، واشرب شيئاً من
 الخمر وعُد الى وعيك. المسكين، لقد ذهب الجوع بعقله.»

أجابه ابن يوثان «وأنت يا زبدي ذهب العيش الرغيد بعقلك.
 لكن الأرض تتفلق من تحتك، والرب هو الزلزال وسوف يستلع
 معصرة الخمر خاصيتك وقواربك وأنت أيضاً، اللعنة عليك وعلى
 بطنك!»

كان يضطرم كالثار، ينقل عينيه من طرف الى طرف، يثبتهما
 تارة على شخص، ثم على آخر، ويمصرخ «قبل أن يتحول الخمر
 الفطير هذا الى خمر، ستكون نهاية العالم قد حانت ارتدوا قصصنا
 من الشعر، وأنشروا الرماد على رؤوسكم، واضربوا على صدوركم
 واهتفوا «أنا آثم! أنا آثم! الأرض شجرة، وهي تتعفن، والمسيح
 قادم حاملاً قاساً!»

كفَّ يهوذا عن الطرُق. تراجعت شفته العليا فومضت أسنانه
 الحادة تحت أشعة الشمس، لكن زبدي لم يتمكن من ضبط نفسه.

صرخ «حُباً بالرب يا بطرس، خذهُ واخرجنا من هنا، لدينا عمل
 نؤديه. يقول «إنه قادم! إنه قادم!»، تارة حاملاً ناراً، وطوراً دقتر
 المحاسبة والآن - ماذا أيضاً؟ قاساً. لماذا لا تدعوننا وشأننا، أيها
 الدجالون، أيها المحتالون على البشر؟ هذا العالم ضامد، وعلى

أحسن مايرام، أحسن مايرام - هذا هو رأيي... اعصروا العنب يا رجال، واطمئثوا!

ربت بطرس برقة على ظهر أخيه ليهدي من روعه، وقال له برقة «اهدا، اهدا يا أخي، لا تصرخ، أنت تعب من رحلتك، هيا بنا الى المنزل لنأخذ قسطاً من الراحة وليكحل أبونا عينيه بمراكم وليسكن اضطراب قلبه»

أمسك به من يده، وقاده ببطء، وعناية، وكأنه كفيف، وصعدا الطريق الضيقة، ثم اختفيا.

انفجر زبدى العجوز يضحك، قال «أيه، يا ليونان البائس، يا عزيزي المسكين نبي السمكة، ماكنت أتمنى أن أكون مكانك ولو أعطوني العالم كله»

والآن حان دور العجوز سالومه لتفتح فمها. كانت مائزال تشعر بعيني اندراوس الكبيرتين مسلطتين عليها تقدحان شراً، قالت، وهي تهز رأسها ذا الشعر الأبيض «زبدى، انتبه الى ماتقول أيها العجوز الأثم. لا تضحك، ثمة ملاك يقف فوق رؤوسنا ويسجل، وستدفع ثمن استهزاءك»

قال يعقوب، الذي ظل حتى الآن يلزم الصمت «أمي على حق، لقد كنت قيد شعرة من أن تعاني الشيء نفسه مع يوحنا، الأثير لديك، وحسبما أرى فانت مازلت بغير منأى عن الخطر. فهو لا يساعدنا في قطف الكروم، كما قال لي الحاملون، انه يجالس التسوة ويحدثهن حديثاً جيائشاً عن الرب والصوم وعن الأرواح الخالدة. أنا أيضاً لا أتمنى أن أكون مكانك، يا أبت»

وضحك ضحكة جافة، لم يكن يتحمل أخاه الكسول، المدلل، وواصل يحقن عصر العنب بقدميه.

صعد الدم الى رأس زبدى الكبير، وهو أيضاً لا يتحمل ابنه البكر

- انهما متشابهان الى حد كبير. وكان سينشب شجار لو لم تظهر في تلك اللحظة مريم، زوجة يوسف الناصري، عند الباب، وهي تتكئ على ذراع يوحنا. كانت قدماها النحيلتين ملطختين بالدم وغطيهما التراب نتيجة زحلتها الطويلة. فقد تركت منزلها منذ أيام طويلة وراحت تنتقل من قرية الى قرية، تبكي، بحثاً عن ابنها التبعس. لقد سلبه الرب صوابه، وحاد عن سبيل البشر. ثم أخذت الأم تتهد وتروح على ابنها بالرغم من انه حي يرزق، وتسال، سألت في كل مكان، إن كان أحد قد رآه: «إنه طويل القامة، نحيل، حافي القدمين، وكان يرتدي رداءً أزرق ويتسطق بنطاق جلدي أسود، فهل يا ترى لمحتة؟»... لم يره أحد، ولم يتمكن من اقتفاء أثره إلا الآن، والفضل في ذلك يعود الى ابن زبدى الأصغر، انه في دبر وسط الصحراء، وقد لبس الرداء الأبيض وأصبح يسجد منبطحاً على وجهه على الأرض، ويصلي... لقد كشف لها يوحنا عن الأمر كله، مدفوعاً بالشفقة عليها. وهاهي الآن تدخل، متكئة على ذراعه، الى فناء دار زبدى لتأخذ قسطاً من الراحة قبل أن تتطلق تبغي الصحراء.

نهضت سالومه العجوز بحركة تدل على الاحترام الجم، وقالت «أهلاً بك، يا عزيزتي مريم. ادخلي»
أنزلت مريم متديلاً حتى حاجبيها، وأخفضت رأسها وعبرت أرض الفناء وهي تغضي بصرها، وأخذت تبكي وهي تتشبث بيدي صديقتها العجوز.

قالت سالومه العجوز «إنم عظيم منك أن تبكي، يا طفلي، واجلستها على أريكة وجلست الى جوارها «ابنك آمن الآن، انه يستظل الآن بسقف الرب»

أجابتها مريم وهي تتهد «وجع الأم ثقيل يا سالومه. إن الرب لم يهبني غير ولد واحد، وهو ابن عاق»

سمع زبدى شكواها (وهو ليس بالرجل المسيء اذا لم يتدخل أحد في شؤون أربابها)، فنزل عن منصته ليواسيها. قال «إنها قورة شبايه، يا مريم، شبايه. لا تقلقي - وستمر بسلام. إن الشياطين باركة الرب، كالخمر، لكننا سرعان مانستعيد وعينا ونستسلم للنير ونكف عن المقاومة. قريباً سيستعيد ابنك وعيه يا مريم. انتظري الى ولدي، هذا الوقت أمامك: هاهو قد بدأ يستعيد وعيه، المجد للرب»

احمر وجه يوحنا خجلاً لكنه لم ينطق بكلمة. ولج الى الداخل ليحضّر كأساً من الماء البارد وبعض ثمار التين الناضجة ليقدمها للزائرة. وكانت المراتان جالستين جنباً الى جنب يتلاسم رأساهما، وتتحدثان عن الولد الذي خطفه الرب. تحدثتا همساً لكي لا يسمعهما الرجال فيفسدون بتدخلهم المتعة الأنثوية العميقة التي يمنحها لهما الألم.

«إن ابنك يا سالومه يقول انه لا يني يصلي ويصلي، ويكثر من السجود، حتى جسات يداه وركبته. ويقول يوحنا أيضاً إنه لا يأكل، وإنه يذوب باضطراب، وأصبحت تتراءى له أجنحة في الهواء أيضاً. بل يبدو انه يرفض أن يشرب الماء، لكي يتاح له أن يرى الملائكة. إلام يمكن أن تقضي اليه هذه البلوى يا سالومه؟ حتى عمه الحبر يعجز عن شفاؤه، وهو الذي توصل الى تخلص أعداد غفيرة من الناس الذين تلبّسهم الأرواح الشريرة. لماذا أنزل الرب لعنته عليه، يا سالومه، ماذا فعلت له؟»

مالت برأسها على ركبتي صديقتها العجوز وأخذت تبكي. قالت يوحنا حاملاً الكأس المملوء بالماء وخمسة ثمار أو ستة من التين في حجره، «إن ضياعاً قدسياً يحف بكامل وجه ابنك، لايراه الجميع. لكنني رأيته ذات ليلة: رأيته يلحق وجهه ويلتهمه، فانتابني الخوف. وبعد وفاة رئيس الدير أصبح الأب حيقوق يراه

في منامه كل ليلة. ويقول انه يعلم به ممسكاً بيد ابنك وينتقل به من صومعة الى صومعة. وبعد اصبعه ويشير به اليه، دون أن يتكلم، وانما يكتفي بالابتسام وبالإشارة اليه. وأخيراً قفز الأب حيقوق من فراشه وقد تعلكه الرعب وراح يوقظ بقية الرهبان. وجاهدوا جميعاً لحل لغز الحلم. بعداً يريد رئيس الدير أن يلقفهم لماذا كان يشير الى ضيفهم الجديد ويبتسم؟ وفجأة، بالأمس الأول، يوم مغادرتي، أثار الرب طريق الرهبان واستطاعوا أن يحلوا لغز الحلم. لقد كان المتوفي يأمرهم بأن يجعلوا من ابنك رئيساً للدير. وعلى الفور هرع كل من كان في الدير من رهبان يبحثون عن ابنك. وخرجوا تحت قدميه وهتموا قائلين إن مشيئة الرب هي أن يصبح رئيساً للدير لكن ابنك رفض، وقال «لا، لا، ليس هذا هو طريقي. إنني غير جدير به، سوف أغادر» وسمعت صيحات رفضه عند التهيرة، وقت مغادرتي للدير، وكان الرهبان يهددون بحبسه في إحدى الصوامع ويوضع حراس على بابه لمنع من الهرب»

قالت سالومه العجوز ووجهها العجوز يشع «تهاني لك يا مريم، يا لك من أم معظوظة! لقد نفخ الرب في رحلك وأنت حتى لاتدركين ذلك!»

انصتت المرأة التي أحبها الرب وهزت رأسها، دون أن تشعر بالسلى، وتعمت قائلة «لا أريد لابني أن يصبح قديساً، أريد أن ينفذ رجلاً مثل بقية الرجال. أريد أن يتزوج وأن ينجب لي أحفاداً. هذا هو سبيل الرب»

قال يوحنا بصوت رقيق، وكأنه يخجل أن يعترض «بل هو سبيل الإنسان. أما السبيل الآخر فهو سبيل الرب، الذي يسلكه ابنك»

سمعوا أصواتاً وضحكاً صادرة من جهة الكروم، ودخل الفناء شابان من الحاملين يفيضان بالحياة. وهتما، وهما يكادان ينقلقان

من فرط الضحك «خبر سيء» يا سادة، يبدو أن ثورة قامت في مجدلة، فقد أخذ الناس يتناولون الحجارة ويضربون حوريتهم ييغون قتلها،

زعق المعاصرون، وقد كفوا عن الحركة «عن أية حورية تتحدثان أيها الولدان؟ تصدان المجدلية؟»

«نعم، المجدلية، يوركت! لقد نقل لنا الخبر اثنان من راكبي البغال لدى مرورهم بنا، قالوا إن رئيس المجموعة باراباس - أوما كم كان خائفاً ويترعش! - قال إنه غادر الناصرة وأغار على بلدة مجدلة يوم أمس، السبت»

دمدم زبدي بغضب «هاكم واحداً آخر! اللعنة عليه! يقول إنه من الزيولوت وأنه سيخلص أرض اسرائيل، اللعنة عليه وعلى خطمه الكريه، ليت يتعفن في الجحيم، أين الحرام القذر ذاك!... ثم ماذا؟»

«ثم مر في المساء على منزل المجدلية فوجد الفناء ممتلئاً، لقد كانت المفحشوب عليها تعمل في يوم السبت المقدس ولم يستطع تحمل هذا العقوق، فاقترح المكان، وقد استلّ خنجره من تحت قميصه، فشهّر التجار سيوفهم، وتجمع الجيران أيضاً، وتدافعوا، وعلى الفور تحول الفناء إلى كتلة متشابكة من الأذرع والسيقان، وسقط اثنان من رجالنا جريحين، وهرع التجار إلى امتطاء جمالهم ولادوا بالفرار، كسر باراباس الباب بحثاً عن المرأة آنفة الذكر يتوي ذبحها، ولكن أين كانت المجدلية؟ لقد فُتت من خملها، خرجت من الباب الخلفي، خلسة! واشترك أهل القرية كلهم في البحث، لكن الظلام سرعان ما حل، وفقدوا أي فرصة في العثور عليها. وفي الصباح انتشروا في كل الجهات، يبحثون، مقتفين أثرها، ويبدو أنهم عثروا على آثارها في الرمال - كانت متجهة شطر كفرناحوم!»

قال فيليس، وهو يلحق شفتيه البارزتين كشتفتي تيس «ما أسعد حظنا يا شباب لو تأتي إلى هنا! كانت هي الشيء الوحيد الذي ينقص فردوسنا، نعم، نسينا حواء، والآن يسعدنا دون شك أن نقابلها!»

قال نشايل البسيط وهو يتكلف ابتسامة مأكرة من بين لحيته «إن ناعورتها تعمل أيضاً في يوم السبت، يوركت!»، وتذكر أنه في أحد المرات كان قد استحم، ليلة يوم السبت، وارتدى ثياباً نظيفة وحلق ذقنه، ثم جاءت غواية الحمام وقادته من يده وذهباً معاً إلى مجدلة، وسلكا أقرب الدروب المؤدية إلى منزل المجدلية - يوركت! كان الوقت شتاءً، والعمل راكداً، فظل نشايل ملازماً طاحونتها طوال نهار السبت، وحده - وهو يطحن، ابتسم معبراً عن رضاه، قد يقول قائل، إنه إثم، نعم، دون شك، بل هو إثم فادح، لكننا نضع كل ثقتنا في الرب، والرب يغفر... لقد أمضى نشايل الهادئ، المسكين، المنهك، العازب، حياته كلها جالساً أمام طاولة صغيرة في إحدى زوايا شارع القرية يصنع قباقيب للقرويين وصنادل سمكة للرعاة، فأى حياة كانت تلك! لذا أقدم مرة واحدة، مرة واحدة ثمينة في حياته، على الانقلاب على كل شيء ونال متعته كما يجدر برجل - حتى وإن حدث ذلك في يوم السبت، وكما يقال، إن الرب يفهم مثل هذا التصرف، ويغفر...

لكن زبدي العجوز عيس، وغغم «مشاكل! مشاكل! أيجب دائماً أن نسوى الشجارات في فناء بيتي؟ أولاً الأنبياء، ثم المعاصرات أو الصيادون الناثحون، والآن باراباسات - هذا أكثر من كثير!»، والتفت إلى المعاصرين، وقال «وانتم، يا أولادي الرائعين، التزموا بملككم، اعصروا العنب!»

سمعت سالومه العجوز ومريم زوجة يوسف النبا، وهما داخل

المنزل، وتبادلنا النظرات، وعلى الفور، ونون أن تتفوها بأية كلمة،
أطرقنا برأسيهما، وترك يهوذا مطرقته وتوجه إلى باب الخروج،
وهناك انكأ على عضادة الباب. وسمع كل شيء وحفره في عقله،
وأثناء توجهه إلى الباب رمى زبدى العجوز بنظرة متوحشة.

وقف عند الممر وأخذ ينصت، سمع أصوات ورأى سحابة من
الغبار ترتفع؛ ثمة رجال يركضون، ونسوة يصرخن «أمسكوها! أمسكوها!»
وقبل أن يتاح للرجال الوقت للقفز من معصرة الخمر
أو يتاح لصاحب الجيوب المحشوة بالانزلاق عن منصته، دخلت
المجدلية الفناء؛ رثة الثياب ولسانها يتدلى من فمها، وارتعت عند
قدمي سالومة العجوز.

صرخت «اجديني! اجديني! إنهم في إثري،
أشفقت العجوز سالومة على الأثمة، فنهضت واقفة وأغلقت
النافذة وطلبت من ابنها أن يرتج الباب.

قالت للمجدلية «اجلسي القرفصاء على الأرض، اختبئي»
مالت مريم زوجة يوسف وأخذت تنظر إلى المرأة التي ضلت
سواء المسبيل، نظرت إليها بمزيج من العطف والرعب. وحدهن
النساء الشرقيات يعرفن كم أن الشرف مريم وغامض، وأشفقت
عليها. ولكن في الوقت نفسه بدا لها هذا الجسد الآثم أشبه
بوحش كاسر، أشعث، مظلم وخطر. هذا الوحش كاد يخطئ منها
ولدها حين كان في العشرين من عمره، لكنه نجا منها في آخر
لحظة. رددت مريم في سريرتها وهي تتنهد، نعم، نجا من براثن
المرأة، ولكن كيف سينجو من الرب...

وضعت سالومة العجوز يدها على رأس المجدلية الملتهب
وسألته في حنو «لماذا تبكين، يا طفلي؟»

أجابت المجدلية «لا أريد أن أموت، الحياة جميلة، لا أريد أن أموت»

ثم مدت مريم زوجة يوسف يدورها يدها، فلم تعد تشعر بأي
خوف منها، ولا هي شعرت بالامتناع منها. وقالت، وهي تلمسها
«لا تخشي شيئاً يا مريم، انك في حماية الرب، وإن تموتي»
سألته المجدلية، وعيناها تلمعان «وكيف لك أن تعرفي يا
مريم؟»

أجابت أم اليسوع بيقين «إن الرب يمنحنا الوقت يا مجدلية،
وقتما لتتوب»

ولكن بينما النسوة الثلاث يتحدثن وكان يوحدهن الألم،
تصاعدت من كروم العنب صيحات «أنهم قادمون! أنهم قادمون»
هاهم وصلوا، وقبل أن يتمكن زبدى من النزول عن منصته، ظهر
رجال ضخام ينفضون من الغضب عند الباب الخارجي، وتخطى
باراباس، أحمر الوجه ويتصب عرقاً، عتبة الباب، وهو يخور.
صرخ «هيه، زبدى، سوف تدخل، سواء سمحت لنا أم لم تسمح
- باسم رب إسرائيل»

بعد أن قال هذا، وقبل أن يتمكن صاحب المكان العجوز من فتح
فمه، خلع باراباس الباب عن مفاصله بضربة واحدة وقبض على
المجدلية من جرائلها.

زار قائلاً وهو يجرها إلى الفناء «إلى الخارج، يا عاهرة إلى
الخارج». هنا دخل مواطنو مجدلة، وأمسكوا بها، ورفعوها، ونقلوها
وسط صيحات الاستكثار ونوبات الضحك، إلى حفرة بالقرب من
البحيرة، ورموا بها فيها. ومن ثم انتشر الرجال والنساء في المكان
وراحوا يملأون مآزرهم وأرديتهم الطويلة بالحجارة.

في تلك الأثناء كانت العجوز سالومة قد قفزت مغادرة
مضجعتها على الرغم من آلامها التي كانت تمضجها وجرت نفسها
حتى وصلت الفناء تبغي أن توبخ زوجها.

صرخت به قائلة «يجب أن تخجل من نفسك. لقد تركت أولئك المشاكسين ينتهكون حرمة دارك وينتزعون امرأة من بين يديك. امرأة تلمس الرحمة منك»
والتفتت أيضاً إلى ابنها يعقوب، الذي وقف متردداً في وسط الفضاء.

قالت «أنت - أنت تقتفي خطأ والدك. عار عليك ألا تتوي أن تغدو أفضل منه؟ أنت أيضاً تريد أن تجعل من الأرياح رباً لك؟ هيا، سارع! سارع إلى حماية امرأة تريد قرية بأكملها أن تقتلها. قرية بأكملها! خلق بهم أن يخلجوا من أنفسهم».

أجابها ابنها، الذي لم يكن يغشى أحداً في الدنيا كلها غير أمه «اهدئي يا أمي، أنا ذاهب». كان في كل مرة تثور عليه غاضبة يستولي عليه الخوف لأنه كان يشعر أن هذا الصوت العنيف، القاسي، ليس صوتها هي: إنه صوت سلالة بني إسرائيل العنيد، العريق في القدم، الذي خشتته سكنى الصحراء.

التفت يعقوب وأومأ إلى رفيقيه، فيلبس ونثائيل، وقال «هيا بنا، وراح يبعث حول البراميل عن يهودا، لكن الحداد اختفى.

قال زبدي، الذي اضطرب لأنه كان يخاف أن يبقى وحده مع زوجته «أنا أيضاً قادم» وانحنى وتناول هراوته وتبع ابنه.

كانت المجدلية تصرخ مذعورة مستجدة، وقد انهارت في إحدى زوايا الحفرة ورفعت ذراعيها لتقي رأسها، وقد غطت الجروح جسدها. وتحلق الرجال والنساء حول الحافة ينظرون إليها ويضحكون. وكان ناقلو العنب وقاطقوه من كل الكروم في المناطق المجاورة قد تركوا أعمالهم وأخذوا يقتربون، الشبان منهم مثلثفون لرؤية الجسد الشهير وهو شبه عار وملطخ بالدماء، والفتيات مثلثفات بدورهن لأنهن كن يحقدن على هذه المرأة ويحسدنها لأنها

تستمتع بكل الرجال ولأنهن محرومات منهم.
رفع باراباس يده كإشارة للهاقين كي يكفوا. كان يريد أن يعلن القرار ليبدأ بعده الرجم بالحجارة، في تلك اللحظة ظهر يعقوب، وأخذ يقترب من الزبوت رئيس المجموعة، لكن فيلبس أمسك به بقوة من ذراعه.

قال «إلى أين أنت ذاهب؟ إلى أين سيذهب أي منا؟ مانحن غير ثلاثة قليلة، وهم يعدون قرية بأكملها. لن ننجح».

ظل يعقوب يسمع صوت أمه الوحشي يضج داخله، فصرخ «هيه، يا باراباس، هيه، يا قاطع الأعناق. أترك أتيث إلى قريتنا لتقتل الناس؟ حسن، دع المرأة وشأنها، نحن سنحاكمها. سيأتي كبراء مجدلة وكفرناحوم وسيحاكمونها، وسيأتي أيضاً والدها الحبر من الناصرة. هذا هو القانون».

قاطعه العجوز زبدي، الذي كان قد وصل مع هراوته الثقيلة «ابني على حق، إنه على حق، هذا هو القانون».

استدار باراباس بكامل جسمه ووقف ليقابلهم مباشرة، وصرخ «كبراء القرية مرثشون، وكذا زبدي. انني لا أثق بهم. أنا هو القانون، فإذا كان لدى أي منكم أيها الشبان الشجعان الجرة فليقدم وليباريني بقوة».

تجمهر رجال ونساء مجدلة وكفرناحوم حول باراباس، الذي كان حب القتل يلتمع في بؤبؤ عينيه، ووصلت مجموعة من الأولاد قادمين من القرية، ومصلحين بالمقالع.

أمسك فيلبس نثائيل من ذراعه وخطا إلى الخلف. ثم التفت نحو يعقوب، وقال «أذهب أنت يا ابن زبدي، اذهب وحدك إذا شئت - أما نحن، فلن نبارح مكاننا. أظن أننا مجنونان؟»
«ألا تخجلان من نفسيكما، يا جبانان؟»

«لا تسنا خجلين، اذهبا، اذهبا وحدكما»
التفت يعقوب الى والده، لكن زبدي سعل، ثم قال: «أنا رجل عجوز»

هتف باراباس، مهتقها «مارايك؟»
اقتربت سالومه العجوز، متكئة على ذراع ابنها الأصغر. ومن خلفها جاءت مريم زوجة يوسف، وعيناها ممتلئتان بالدموع. التفت يعقوب، رأى أمه، فأصابته الرعدة. أمامه يقف قاطع الأعناق المرعب مع حشد الفلاحين، وخلفه أمه ثائرة وصامته.
جار باراباس من جديد، وهو يرضع كُميه «ماذا قلت؟»
غمغم ابن زبدي «لن أعدمهم ينجلون مني»، ثم تقدم، وعلى الفور اقترب باراباس نحوه مباشرة.
قال الأخ الأصغر «سيقتله»، محاولاً أن يتخلص لكي يهرع لنجدة يعقوب، لكن أمه منعتة.

قالت «اهدا أنت. لا تتدخل»
حين همَّ الخصيمان بالاشتباك سمعت صيحة فرح قادمة من حافة البحيرة: «Maran atha! Maran atha!»، وقفز شاب لفحته أشعة الشمس مثلاً أمامهم، يلهث ويلوح بيديه.
هتف «Maran atha! Maran atha!»، الرب قادم»
هتقوا جميعاً، وهم يدورون حوله «من القادم؟»
أجابهم الشاب «الرب»، وأشار خلفه جهة الصحراء «والرب - هاموا»

التفت الجميع. كانت الشمس عندئذ قد أخذت تقرب، والحرارة بدأت تغف، وأمكن رؤية رجل يرتقي المنح من الشاطئ. كان متلفعاً بالبياض، أشبه براهب من الدير. كانت أزهار الدفلى النامية على ضفة البحيرة في أبهى تفتحها، فمد الرجل ذو الرداء

الأبيض يده وقطف زهرة حمراء ووضعها بين شفتيه. وكان هناك نورسان يسيران على الحصى، تتحيا جانباً ليسمعا له بالمرور.
رفعت سالومه العجوز رأسها المتوج بالشعر الأبيض وأخذت تنشم الهواء. وسألت ابنها «من القادم؟ لقد تبدل اتجاه الريح»
أجابها الفتى «قلبي يكاد يتقطر يا أماء. أعتقد أنه هود»
«من؟»
«هن، لا تتكلمي»
«ومن أولئك الناس الآتين خلفه؟ يا الهي، هناك جيش كامل يهرع خلفه»

«إنهم الفقراء الذين يلتقطون بقايا قطاف الكرم يا أماء. انهم ليسوا جيشاً، فلا تخافي»
الحق يقال، إن الحشد الغفير من الصعاليك الذي بدأ يظهر في إثره كان أشبه بجيش، وعلى الفور تفرق في كل اتجاه في الكروم المقطوفة الثمار - رجال ونساء وأطفال، مزودن بأكياس وسلال - وبدأوا بالبحث. ففي كل عام عند موسم حصاد القمح، وقطاف الكرم والزيتون تندفق هذه الأسراب من الجائعين قادمة من كل مناطق الجليل لتجمع الحنطة والعنب والزيتون التي يتركها أصحاب الأراضي للفقراء، كما ينص قانون إسرائيل.

فجأة توقف الرجل ذو الرداء الأبيض - لقد أضرعه مشهد الحشد الغفير، وقال في نفسه، يجب أن أرحل. وقد تمكن منه الخوف الشديد. هذا هو عالم البشر. يجب أن أرحل، يجب أن أعود الى الصحراء، حيث الرب... مرة أخرى كان قدره معلقاً بخيط رفيع. كيف يتجه الى الأمام أم الى الوراء؟
وقف المتحلقون حول الحفرة لا يبدون حراكاً، ويراقبونه، يعقوب وباراباس مازال أحدهما يواجه الآخر، وأكمامهما مرفوعة. حتى

المجدلية رفعت رأسها وراحت تنصت ، سامعني هذا الصمت؟ أمو الحياة؟ أم الموت؟ كان اتجاه الريح قد تبدل . وفجأة قفزت واقفة ، ورفعت ذراعيها وصرخت «انجدوني!»
سمع الرجل ذو الرداء الأبيض الصوت، وتعرف عليه ، واهتز كل جسمه .

تمتم «انها المجدلية، المجدلية! يجب أن انجدها»، وتقدم مسرعاً نحو الحشد المتجمع، وذراعا مفتوحان واسعاً .
كان كلما اقترب من الناس وميز أكثر الغضب الذي يعلا عيونهم، والعنف القائم، المعبذب في قسومات وجوههم، ازداد اضطراب قلبه، وفاض أكثر التعاطف والحب العميقين في داخله . وقال في نفسه، هؤلاء هم البشر، انهم جميعاً أخوة، كل واحد منهم، لكنهم لا يعون ذلك - ولهذا هم يتعدون . لو أنهم يدركون هذا، اذن لأقيمت الاحتفالات، وتبادلوا العناق والقبلات، ولغمرت السعادة الجميع .

أخيراً وصل واعتلى إحدى الصخرات، ونشر ذراعيه يساراً ويميناً، وأطلق كلمة واحدة، كلمة ملؤها الفرح والانتصار، من أعماقه «يا أخوتي!»
تبادل الناس المدهوشون النظرات . ولم يجب أي منهم .
تردد صدى الهتاف المنتصر من جديد «يا أخوتي - يا أخوتي، انني مسرور لرؤياكم»

أجابه باراباس . وهو يتناول حجراً ثقيلاً عن الأرض «أمانعن فلا تسرنا رؤياك، يا صانع الصليان!»
هتف أحدهم بصوت يقطر القلب «ولدي!»، واندفعت مريم من بينهم وعانقت ابنها . ضحكك، وبكت، وراحت تلامفه: أما هو ، ودون أن ينطق بكلمة، فلن ذراعي أمه المحيطين به وتقدم باتجاه باراباس .

قال «باراباس، يا أخي، أنا سعيد برؤياك . أنا صديق، وأحمل رسالة فرح عظيم»
زار باراباس «اياك أن تقترب أكثر»، ووقف أمام مكان وجود المجدلية لكي يخفيها عن عيني الرجل الآخر . لكنها سمعت الصوت المحب اليها قفزت واقفة على قدميها .
صرخت «يسوع ! انجدني!»

وبخطوة واسعة كان يسوع قد وصل الى حافة الحفرة، وكانت المجدلية قد باشرت بالصعود، وهي تثبث بالصحور بأصابع يديها وقدميها . انحنى يسوع ومد لها يده . فقبضت عليها، وجرها الى الخارج . انهارت واقعة على الأرض، وهي تنشق، وقد غطاها الدم . اندفع باراباس ووطأ قدمه على ظهرها، وجار «إنها لي!»
رافعاً الحجر الذي كان يحمله بيده «سأقتلها - لقد دنت يوم السبت المقدس - الموت لها!»
عوى الناس لتصورهم «الموت! الموت!»، وقد خشوا أن تفلت الضحية منهم .

صرخ زبدي أيضاً عالياً «الموت!»، وذلك حين رأى الصعاليك يحيطون بالقادم الجديد، الذي لابد انه كان يعمل على ملء رؤوسهم بالافتكار الوهمية . الويل لنا اذا سمح للمعدمين بأن يفعلوا ماشاء لهم . فعاد يصرخ من جديد، وهو يضرب بهراوته على الأرض «الموت! الموت!»

كبح يسوع ذراع باراباس المرفوعة ، وقال، بصوت هادئ ملؤه الحزن «ألم يسبق لك يا باراباس أن عصيت إحدى وصايا الرب؟ ألم يسبق لك على مدى حياتك كلها قتل أن سرق، أو قتلت نفساً، أو ارتكبت الزنا أو كذبت؟»
والتفت الى الحشد الهادر وراح ينظر الى كل منهم ببطء،

واحدًا واحدًا، وقال «من كان منكم بلا خطيئة فليكن أول من يرميها».

سادت البلبلة بين الحشد، وأخذ الناس يتراجعون واحدًا إثر آخر، يتدافعون للهرب من تطهرته المزعومة التي كانت تحضر في ذكرياتهم وفي أعضائهم الحية. تذكروا كل الأكاذيب التي تلفظوا بها على مدى حياتهم، والأفعال الجائفة التي ارتكبوها، وزوجات الآخرين اللواتي ضاجعن، وأخفت النسوة مناديلها، وانزلت الحجارة التي كن يحملنها في أيديهن واقعة على الأرض.

حين وجد العجوز زبدي أن الغوغاء على وشك الخروج منتصرين نار وغضب، ومرة أخرى التفت يسوع إلى الناس وراح يحنق إليهم واحدًا بعد آخر، وأطال التحديق حتى وصل إلى أعماق عيونهم، وقال «من كان منكم بلا خطيئة فليكن أول من يرميها» خف زبدي إلى القول «أنا، يا باراباس، أعطني حجرك، إن البراعة لا تعرف الخوف: أنا سأرميه».

فرح باراباس، وأعطاه الحجر وخطا خطوة واحدة جانباً. وقف زبدي فوق المجدلية وهو يقبض على الحجر ويقتدر ثقله، لكي يسدد ضربه بدقة إلى رأسها. وكانت هي قد انكمشت على نفسها، متكورة عند قدمي يسوع بهدوء، لأنها شعرت أنها هنا لا تخشى الموت. نظر الصعاليك الحائقون إلى زبدي العجوز، وقفز أحدهم، وكان أشد الجميع هزلاً، إلى الأمام.

صرخ «هيه، زبدي، أعلم أن هناك رياءً، سوف تُشَلَّ يدك - ألسنت خائفاً؟ راجع نفسك: أنت لم تلتهم مرة في حياتك حقوق الفقراء؟ أنت لم تعتمد مرة في حياتك إلى بيع كرم غيب يخص أحد اليتامى في المزار العتيق؟ أنت لم تدخل بيت أرملة ليلاً؟ بينما كان الأثم العجوز تنصت شعر بثقل الحجر الذي في يده

وتحامل على نفسه أكثر فأكثر. وفجأة أطلق صرخة، وتراخت ذراعه بحركة سريعة وهبطت إلى جانبه عاجزة، وأفلت الحجر الكبير من قبضته واستقر على قدمه، ساحقاً أصابعها.

تصايح الصعاليك فرحاً «معجزة! معجزة! المجدلية بريئة» جن جنون باراباس، وانتفخ وجهه المجذور واشتعل بالاحمرار، اندفع كالمهم إلى ابن مريم، ثم رفع يده وصفعه. لكن يسوع وبكل هدوء أدار له الخد الآخر. قال «اضرب الخد الآخر أيضاً، يا باراباس، يا أخي».

خدّرت يد باراباس، وجحظت عيناه من محجريهما. من يكون هذا الشخص؟ من يكون - أشيعاً أم رجلاً أم شيطان؟ انعقد لسانه فخطا إلى الوراء وهو يحدق إلى يسوع.

عاد يسوع يحثه قائلاً «اضرب الخد الآخر، يا باراباس، يا أخي» هنا خرج يهوذا من ظل شجرة التين حيث جلس متخياً، وكان يراقب ما يجري. رأى كل شيء ولم يتكلم. لم يكن يهيم إن قُتلت المجدلية أم لم تقتل، ولكن أسعده أن يسمع باراباس والصعاليك يقفون في وجه زبدي ويشتهرون بأثامه. وحين رأى يسوع يظهر عند شاطئ البحيرة مسرعاً بردائه الأبيض الجديد، طُهر قلبه، وتعتّم، ناصباً أذنه الكبيرة «الآن سيُتضح أمره، ماذا يريد وماهي الرسالة التي يحملها للبشر». لكن ما بدا إليه، الكلمة الأولى التي تلفظ بها - «يا أخوتي» - أزعجته، وتعتكرت تعابير وجهه، ودمدم «إنه لم يتعقل بعد، لا، لسنا جميعاً أخوة، العبرانيون والرومان ليسوا أخوة، ولا العبرانيون أخوة بين بعضهم بعضاً، ان الصدوقيين^(١) الذين يبيعون

١ - الصدوقي: هو أحد أفراد طائفة يهودية في زمن المسيح، عادت الفريسيين وأنكرت الحشر والملائكة، وصيغة التراث الشفهي.

الفصل الثالث عشر

كادت الشمس أن تلمس أسس السماء، ووهنت حرارة النهار، وهذات الرياح، وتلألأت البحيرة باللونين الوردي والأزرق، ووقف عدد من طيور اللقلق، وما يزال جائعاً، على ساق واحدة على الصخور، وعيونه مثبتة على المياه.

سدد الصعاليك أنظارهم إلى ابن مريم وانتظروا، لا يرغبون بالرحيل، ماذا ينتظرون؟ لقد نسوا أمر جوعهم وعراهم: نسوا خبز مالكي الأرض، الذين ليس في قلوبهم من الخير ما يدفعهم لترك بعض العنب في الكروم ليحلي القُفَر بلعومهم. منذ الصباح وهم يدأبون على الانتقال من كرم إلى كرم، ولكن سلالهم ظلت خاوية.. الشيء نفسه حدث وقت حصاد التمع: شغلوا من حقل إلى حقل، وأكياسهم تتدلى فارغة إلى جانبيهم، وفي كل مساء ينتظروهم أطفالهم بأفواه مفتوحة: أما الآن - دون أن يعرفوا لماذا أو كيف - بدت سلالهم فجأة وكأنها قد امتلأت، راحوا يُملون أبصارهم من الرجل المسريل بالبياض المائل أمامهم ولا يتوون على الرحيل، وانتظروا، انتظروا ماذا؟ هم أنفسهم لم يكونوا يعرفون.

انفسهم لروما، وكبراء القرى - وهم من الكثرة بحيث يشكلون غطاءً لأفعال الطاغية - ليسوا أخوة لنا، لا، لقد بدأت بداية سيئة، يا ابن النجار، فانتبه! ولكن حين شاهد يسوع يقدم خده الآخر، دون أي غضب وبعذوبة إنسانية مذهلة، استولى عليه الخوف، ما تكون هذا الرجل هكذا هتف لنفسه. هذا... هذا العرض للخذ الآخر: لا يمكن إلا لملاك أن يفعل ذلك، فقط ملاك - أو كلب، ويقفزة واحدة سريعة اقترب من باراباس وأمسك به من ذراعه حين هم بالاندفاع نحو ابن مريم.

قال بصوت مكتوم «يا لك أن تلمسه، اذهب إلى بيتك»
نظر باراباس إلى يهوذا في دهشة، لقد كانا معاً عضوين في رابطة الأخوة، وطالما اشتركا جنباً إلى جنب في اقتحام القرى والمدن وفي قتل خونة إسرائيل. وهاهو الآن...
غمغم «أنت، يا يهوذا، أنت؟»

«نعم، أنا، فإذهب»
ظل باراباس ملازماً مكانه. كان يهوذا أعلى مقاماً منه في رابطة الأخوة لذا لا يمكنه أن يعارضه؛ ولكن، من ناحية أخرى، عزة نفسه منعتة من مبارحة مكانه.

أمره ذو اللحية الحمراء مرة أخرى «إذهب»
أطرق رئيس المجموعة برأسه ورعى ابن مريم بنظرة ضارية، وغمغم، وهو يشد على قبضته «لن تقلت مني، سنقابل من جديد»
ثم التفت إلى تابعيه وأمرهم بنصف حماس «هيا بنا»

يادلهم ابن مريم النظر ، هو أيضاً كان ينتظر ، لقد شعر أن كل هذه الأرواح معلق مصيرها في عنقه . ماذا يريدون منه ؟ عمّ يبحثون ؟ ماذا يمكنه أن يمنحهم ، وهو الذي لا يملك شيئاً ؟ نظر إليهم ، وأطال النظر ، وللحظة من الزمن شعر بأنه قد فقد شجاعته وأراد أن يهرب من جديد ، ولكن منعه الاحساس بالعار . ماذا سيحل بالمجدلية ، التي تثبتت بقدميه ؟ وهذه العيون الكثيرة التي تحلق به مشتاقة : كيف يتركها دون مواساة ؟ أيرحل ؟ ولكن إلى أين ؟ الرب يكتفه من كل جانب ، إن روعته توجهه كيفما شاءت - ليست روعته ، بل قوته ، قوته الكلية القادرة . ثم أحس ابن مريم أن هذه الأرض هي موطنه - ولا موطن آخر له ؛ شعر بأن الناس هم صحراؤه - ولا صحراء أخرى غيرهم له .

نعم ، وهو يحني رأسه ويستسلم لرحمة الرب ، «فلتكن مشيتك يا رب» .

نهض رجل عجوز من بين الصعاليك وقال «يا ابن مريم ، نحن جائعون ، لكننا لا ننتظر منك خبزاً ؛ فأنت فقير ، مثلنا . أفصح ، ألق على مسامعنا كلمة طيبة ، وستشبع» .

وغامر شاب بالقول : «يا ابن مريم ، الظلم يخنفنا ، ولم يعد لقلوبنا القدرة على التحمل . لقد قلت أنك تجلب كلمة طيبة . قل لنا هذه الكلمة الطيبة ، اجلب لنا العدالة» .

نظر ابن مريم إليهم . لقد سمع صوت الحرية والجوع ، فابتهج . شعر بأنه إنما كان ينتظر هذا الصوت منذ سنين . هذا الصوت الذي وصله الآن وراح يناديه باسمه . فتوجه إلى الناس بالكلام ، وقد فتح ذراعيه واسعاً «يا أخوتي . هيا بنا» .

وعلى الفور ، وكأنهم بدورهم كانوا بانتظار هذه الدعوة منذ سنين وقد سمعوا اسمهم الحقيقي ينادي به للمرة الأولى ، ابتهج

الناس وصاحوا «هيا بنا باسم الرب»

سار ابن مريم في المقدمة ، وتحرك الباقون ككتلة واحدة . كانت ثمة تلة محفورة مجاورة لشاطئ البحيرة ، وكانت مازال مغطاة بخضرة باهتة بالرغم من حرارة شمس الصيف الحارقة المسطرة عليها طوال النهار ، والآن في غدوة المساء ، أصبحت تقوح بعبق الصعتر والروائح الذكية . ولابد أن قمتها كانت مقاماً لأحد المعابد الوثنية القديمة ، لأنه كانت لا تزال هناك قطع من عدة تيجان منقوشة لأعمدة ملقاة على الأرض . وكان صيادو السمك المستبصرون يرون بانتظام ، أثناء ممارستهم الصيد ليلاً ، شبحاً أبيض جالساً على الحجر الرخامي ، بل إن يونان العجوز سمعه ذات ليلة يبيكي... وكانوا جميعاً يسيرون متجهين نحو هذه التلة كالسلوي الإرادة ، وابن مريم في المقدمة ، ومن خلفه عائلة الفقراء الكبيرة .

التفتت سالومه العجوز إلى ابنها الأصغر وقالت له «أحملني بين ذراعيك ، نحن أيضاً سنذهب» ، ثم أمسكت بيد مريم ، وقالت «لا تبكي يا مريم . ألم تري هالة من النور تحيط بوجه ابنك ؟» .

أجاب الأم ، وقد بدأت تجشش ياكبة يعنف «لا ابن لي ، لا ابن لي . كل هؤلاء الصعاليك لديهم أبناء ، وأنا لا ابن لي» ، وانطلقت صوب التلة ، وهي تتوح وتولول . وقد كانت على حق : لقد غادرتها ابنتها إلى الأبد . حين هرعت لتعانقه وتأخذه معها إلى البيت نظر إليها نظرة دهشة وكأنه لا يعرفها ، وحين قالت له «أنا أمك» ، مدَّ يده وأبعدها عن طريقه .

رأى زبدي العجوز زوجته ترتقي التل مع الحشود ، فقبض على هراوته وهو مكفهر الوجه ، والتفت إلى ابنه يعقوب وإلى رفيقيه ، فيلبس ونثنائيل ، وأشار نحو الغوغاء الضاحجين المحتاجين . قال «إنهم

ذئاب جائعة، اللعنة عليهم جميعاً! يستحسن أن نعوي معهم لكي لا يظنوننا نعاجاً ويأكلوننا! هيا نتبعهم - ولكن تذكروا، مهما قال لهم ابن مريم الواهم ذلك، فسوف نطلق أصوات الاستهجان . أتسمعون؟ لن نسمع بأن تكون له اليد الطولى . هيا بنا، معاً، ولنسرع!

قال هذا وانطلق بدوره يرتقي التل ، ببطء كحمار يعرج . هنا ظهر ابننا يونان . كان بطرس يمسك أخيه من ذراعه ويكلمه بهدوء ، ورفق ، لكي لا يثير حنقه . لكن الآخر كان منزعجاً وعينه لا تحيدان عن النظر الى الحشود التي ترتقي التل . والى الرجل ذي الرداء الأبيض الذي يتقدمهم .

سأل بطرس يهوذا «من هؤلاء؟ والى أين هم ذاهبون؟» وكان يهوذا ما يزال واقفاً في الطريق ، عاجزاً عن اتخاذ قرار .

قال ذو اللحية الحمراء ساخراً «انه ابن مريم»
«والعدد الغفير الذي يتبعه؟»

«انهم الفقراء الذين يلتقطون فضلات العنب بعد قطافه . حالما وقع نظره على لازموه، وأعتقد انه ساعد الى هناك ليكلهم»
«وماذا بوسعه أن يقول ؟ انه لا يحسن حتى قسمة مقدار من التبن بين حمارين»

هز يهوذا كتفيه ، وجأر قائلاً «سوف نرى» ، وانطلق بدوره يرتقي التل .

كانت امرأتان قويتان بظهر رجولي عائدتين من كروم العنب، يبدو عليهما الارهاق وشدة الحر، وكل منهما تحمل سلة مملوءة بالعنب توازنهما على رأسها . ويدافع من حسدهما الآخرين لروح الصداقة الحميمة التي تسود بينهما، قررتا الانضمام اليهم لتزجية الوقت، واتضمتا الى آخر الموكب .

كان يونان ، وشبكته على كتفيه، يجبر نفسه، متجهاً الى كوخه . كان جائعاً ، شديد التوق للوصول . وحين شاهد ولديه والحشد الفقير يرتقون التل، توقف ، فاغر الفم ، وراح يحدق اليهم بعينين مدورتين كعيون السك . لم يفكر في أي شيء، لم يتساءل عن مات، أو تزوج، أو الى أين يذهب كل هذا العدد الكبير من الناس معاً . لم يفكر في أي شيء . واكتفى بالتحديق وهو فاغر الفم .

ناداه زبدي قائلاً «هيا، يا يونان، ابها النبي السمكة، تعال معنا، سيقام حفل! يبدو أن مريم المجدلية مستزوج . هيا، تعال واقض وقتاً ممتعاً!»

حرك يونان شفتيه الغليظتين . كاد يتكلم، لكنه غيّر رايه . ثم نزع كتفه ليعدل وضع الشبكة على ظهره . وانطلق متوجهاً الى حيه، بخطى متثاقلة . وبعد مرور وقت طويل، وحين أخذ يقترب أخيراً من كوخه، تفتق ذهنه أخيراً، بعد جهد مضن، وأعطى نتاجه، فتمتم قائلاً «أذهب الى الشيطان يا زبدي، ابها الأحمق!» ثم فتح الباب برقعة من قدمه، ودخل .

حين وصل زبدي وصعبه الى قبة التل، كان يسوع جالساً القرفصاء على تاج أحد الأعمدة . ولم يكن قد نطق بأية كلمة، وكأنه كان بانتظارهم . كان جمع الفقراء متجمعين أمامه، الرجال جالسين القرفصاء، والنساء واقفات في الخلف ، يرتنون بأبصارهم اليه . كانت الشمس قد أفلت، لكن جبل حبرون^(١)، الى الشمال، كان ما يزال ممسكاً بالضوء عند ذروته ولا يسمح له بالفرار .

راقب يسوع الضوء وهو يصارع الظلام، ويداه معقوبتان على صدره . أحياناً كان يعيد بصره ببطء الى وجوه الناس، التي كانت

مصوبة اليه مباشرة. كانوا ذابلين، حزائي، منكسبين من الجوع، والعيون التي كانت مستقرة عليه كانت تنظر اليه نظرة عتب، وكأنه هو الملول.

حالمًا رأى زبدي ورجاله نهض واقفاً. قال «اهلاً بكم. اقتربوا كلكم. إن صوتي ليس جهورياً كثيراً. أريد أن أكلمكم»

ذهب زبدي إلى المقدمة بوضعه من كبراء القرية واستقر فوق حجر. إلى يمينه جلس ولده وأيضاً فيليث ونثنائيل، وإلى يساره جلس بطرس واندراوس. وكانت سالومه العجوز ومريم زوجة يوسف واقتنيت بين النسوة، بعيداً في المؤخرة. أما مريم الأخرى، مريم المجدلية، فكانت تستكين عند قدمي يسوع، ووجهها مدفون بين كفيها، وكان يهودا ينتظر تحت شجرة صنوبر تهيجها الريح وتشوه شكلها، متجنباً جانباً، وعيناه الزرقاوان القاسيتان توجهاً نظرات قطعنا الخنجر إلى ابن مريم، من خلال وريقات الصنوبر الابرية.

كان يسوع يرتعش سراً ويجاهد ليستجمع شجاعته. هذه هي اللحظة التي كان يخشاها منذ سنين طويلة. وها قد حانت، لقد انتصر الرب، وأحضره بالقوة إلى حيث أراد أن يأتي - أمام الناس ليخاطب فيهم. والآن، ماذا يسهه أن يقول لهم؟ ولدت أفراح حياته القليلة وهي تعبر كالبرق ذاكرته، ومن بعدها أحزانه الغفيرة، ومباراته مع الرب، وكل ماشاهده في تجوالاته وحيداً - الجبال، الأزهار والطيور، والرعيان وهم يعملون بسعادة خروفاً شارداً على أكتافهم ليعيدوه إلى الحظيرة وصيادي السمك وهم يلقون بشباكهم لتصيد السمك، والفلاحين وهم يبنون الحب، ويحصدون، ويذرون الحنطة، ومن ثم ينقلون المحصول إلى بيوتهم. كانت السماء والأرض تتفلسان وتتغلغان بأطوار متكررة في ذاكرته: استرجع كل معجزات الرب - ولم يعرف أيها يختار أولاً؟ أراد أن يعرضها كلها عليهم، كلها

ليواسي من لا يؤامنون. إن هذا العالم الذي تكشف أمامه هو حكاية الرب الخيالية، ملؤها الأميرات والفيلان - تماماً كالحكاية التي كانت ترويها له جدته لكي تتجنب بكاه، والرب يتكئ على حافة السماء ويرويها للبشر.

ابتسم وفتح ذراعيه واسعاً.

قال بصوت مرتعش، ولا يزال متهدجاً «يا أخوتي، يا أخوتي، سامعوني إن أنا استخدمت الأمثولات في حديثي، فلنا رجل بسيط، عامي، وفقير ومحتقر مثلكم. قلبي مترع بما يريد أن يقضي به اليكم، ولكن عقلي عاجز عن الربط فيما بينها. انني أفتح فمي وأذا بالكلمات تخرج منه، ودون أية رغبة مني، على شكل حكاية. سامعوني، يا أخوتي، لكنني سأتكلم بلغة الأمثولات»

هتف الناس «نحن منصتون، يا ابن مريم، منصتون!»

مرة أخرى فتح ابن مريم فمه «خرج البازر ليبذر حقله وبينما هو يفعل وقعت حبة على الأرض فجاءت الطيور فأكلتها، ووقعت أخرى على الحجارة، ولم تجد تربة تتقذى عليها فذهبت وماتت. ووقعت أخرى على الشوك، فلما الشوك وتكاثر حتى خنقها. وأخيراً، وقعت واحدة على تربة خصبة، فخرج منها جذر، وشطأت في الهواء، وألعت قمحاً وأطعمت البشر. فليسمع كل من له أذنان، اسمعوا وعوا!»

لم يتكلم أحد. راحوا يتبادلون النظرات، وقد أخذتهم الحيرة. لكن العجوز زبدي الذي كان يبحث عن أية ذريعة لاثارة شجار، قفز واقفاً، وقال:

«اعذرني، ولكني لا أفهم. أنا لدي أذنان، المجد للرب، أنا لدي أذنان وأنا أسمع - لكني لا أفهم. ماذا تريد أن تقول؟ ألا تستطيع أن تعبر بشكل أشد وضوحاً؟» وأخذ يضحك بهتكم، ويمسد على لحيته البيضاء يزهو.

«أم لعلك أنت الباذر المذكور؟»

أجاب يسوع بتواضع «نعم، أنا هو الباذر»

هتف كبير القوم العجوز، وهو يضرب بهراوته الأرض
«فليحفظنا الرب وحتماً نحن المقصود بنا الحجارة والأشواك
والحقول التي تبذرنا، هه»

أجاب ابن مريم، وما يزال صوته هادئاً «نعم أنتم»

أصاخ اندراوس سمعه، وكان قلبه النائر وهو ينظر الى يسوع
يكاد يطفئ بعنف، وكان قد طفر بالطريقة ذاتها على ضفاف نهر
الأردن حين وقع بصره لأول مرة على يوحنا المعمدان - المثلّع بجلود
الحيوانات، وقد نخره طول التعرض لأشعة الشمس، واستهلكه
التعب حتى آخر رمق، والصلوات المسائية والجوع حتى لم يبق منه
غير عيين هائلتي الحجم - كأنهما جمرتان متوهجتان، وحتجرة
تصرخ «توبوا توبوا»، وحين كان يصرخ كانت تتشكل على سطح
مياه نهر الأردن أمواج عظيمة عالية، وتتوقف القوافل، وتعجز
الجمال عن متابعة سيرها. أما الآن فما هو هذا الرجل المائل أمامه
مبتسماً وصاحب صوت صاف متهادي - إنه أشبه بعصفور أخرج،
يجاهد كي يغرد للمرة الأولى، وعيناه بدل أن تنقدا، تداعبان، كان
قلب اندراوس يرغرف منتقلاً جيئة ونهاياً بين الاثنين، وقد وقع في
خيرة تامة.

وشيثاً فشيئاً، أخذ يوحنا يبتعد عن مكانه بجوار والده ويقترب
من يسوع، حتى كاد يصل عند قدمي المعلم وإذا بزيدي يراه ويزداد
غضباً على غضب. لقد كان قد ملّ وسئم الأنبياء الزائفين. والآن
بات يظهر واحد جديد كل يوم من أيام العام ويضع ثقل العالم كله
على أكتافهم، ويعمل كل منهم، وكأنه قد توصل الى فهم مسبق
للأمور، على مهاجمة الملوك، والكهنة والملوك، وكل ما هو مستقر

وطيب في هذا العالم، يرغبون أن يدعروه، والآن - ماذا بعدد -
هاهنا ابن مريم الحافي! وتمثني زيدي في نفسه، أم، يستحسن أن
أدق عنقه طالما أنه مازال شاباً وعضواً.

وتلفت فيما حوله ليتعرف على رأى الآخرين، وكانما ليستمد
منهم الشجاعة. فرأى يعقوب، ابنه البكر، عطفياً مابين حاجبيه،
لكنه لم يعرف إن كان ذلك من الغم أم من الغضب، ورأى زوجته،
وكانت قد اقتربت أكثر وهي تمسح بعينها، وألقى نظرة سريعة على
الصعاليك فأرعبه أن يراهم جميعاً، جميع أولئك الفقراء الجائعين،
يشخصون بأبصارهم الى ابن مريم وأقوامهم فاغرة، كعصافير
تطمعهم أهم.

دمدم وهو يغوص في مكانه بجوار ابنه «اللغة على
المسؤولين»، ثم قال في نفسه، من الأفضل أن ألزم الهدوء، والا
ورطت نفسي في المتاعب.

ثم سمعوا صوتاً هادئاً، نبرته حزينة. هناك من يجلس عند
قدمي يسوع وقد بدأ يتكلم. والناس الذين كانوا يشعدون في
المؤخرة اعتدلوا في جلستهم ليروا: إنه ابن زيدي الأصغر، فقد
زحف ببطء حتى وصل الى قدمي يسوع وأخذ يكلمه، مطأطأ
الرأس.

«تقول انك الباذر وأنتا الحجارة، والشوك والحقل، ولكن مانوع
البذور التي تحملها؟»

كان وجهه العذري، الذي نما عليه الزغب، قد تصرع لونه،
وعيناه السوداوان، اللوزيتا الشكل تشخصان الى يسوع بنظرة كلها
ألم، وجسمه الأبيض الريان، الذي مسته الرعشة، قد امتد الى
أعلى في وضع انتظار. كان لديه نذير بشر بأن حياته كلها تعتمد
على الجواب الذي سيتلقاه - حياته هذه، والحياة الآخرة.

كان يسوع قد انحنى ليسمعه. ظل صامتاً فترة طويلة، وهو ينصت الى قلبه ويجاهد بحثاً عن الكلمة المناسبة. الكلمة البسيطة، المألوفة، الخالدة، وتندى وجهه بعرق حار.

كرر ابن زبدي سؤاله وقد انتابه القلق «مانوع البذور التي تحملها؟»

وفجأة، انتصيت قامه يسوع بحركة سريعة، وبسط ذراعيه وتوجه الى الجموع قائلاً:

«أحبوا بعضكم بعضاً...» خرجت الصرخة من أعماق أعماقه - «أحبوا بعضكم بعضاً»

بعد أن قال هذا شعر أن قلبه قد أضحي فجأة خاوياً، ثم نهالك على تاج العمود، وقد ناله الإرهاق.

تعالى الهمس، وذب اللشاشات بين الناس. هز كثير منهم رؤوسهم، وبعضهم ضحك.

وسال رجل عجوز ثقيل السمع «ماذا قال؟»

«قال ان علينا أن نحب بعضنا بعضاً»

قال العجوز، متكئاً على شجرة الصنوبر يمسد على لحيته الحمراء وقد تملكه الغيظ، ودمدم قائلاً «هكذا اذن، يا ابن التجار، اهذا ما أتيت لتقوله لنا؟ اهذه هي الرسالة المذهلة التي جلبتها لنا؟ تريدنا أن نحب الرومان، هه؟ هل يفترض بنا أن نقدم أعناقنا كما قدمت أنت خدك، ونقول «يا أخي العزيز، ادبعتني أرجوك؟»

سمع يسوع الهمس، ورأى الوجوه العائسة، والعيون المكتئبة - وفهم دلالتها، وغمر الاحساس بالمرارة وجهه، ثم استجمع كل قواه، ونهض واقفاً.

كرر قائلاً، بصوت ملحاح متوسل، «فليحب بعضنا بعضاً! فليحب بعضنا بعضاً! الرب محبة! أنا أيضاً كنت أظنه متوحشاً، أنا

أيضاً كنت أظن أنه بلمسة منه تتبخز الجبال، ويصرع الرجال. لقد اختبأت في الدير لأهرب، سجدت على وجهي وانتظرت... كنت أقول لنفسي، الآن سيأتي، الآن سيهبط عليّ هبوط الصاعقة. وذات صباح جاءني، هبّ عليّ كهبوب نسيم منعش وقال «قم، يا ولدي، قهضت، وأتيت: وها أنا هنا»

شيك يديه وانحنى بدءاً من وسطه وكأنه يحيي الناس المائتين أمامه.

سعل زبدي العجوز ويصق، وهو يشد قبضته على هراوته، وجار بصوت خفيض حائق «الرب نسيم منعش! اذهب الى الجحيم، أيها الدجال»

تابع ابن مريم كلامه، وقد نزل الآن بين الناس. وراح ينظر اليهم فرداً فرداً، ويناشدهم واحداً واحداً، ويسير جبشة وذهاباً، رافعاً ذراعيه نحو السماء.

قال «انه أبونا. لن يدع المأ دون مواساة، ولا جرحاً دون مداواة. إننا مهما عانينا من ألم وجوع في هذا العالم، بهذا القدر وأكثر، فسنشبع في الجنة، سوف نفرح...»

هنا نال منه التعب، فصعد من جديد الى تاج العمود وجلس عليه.

وهتف صوت «سننال فطيرة في السماء حين نموت»، وضع المكان بالضحك.

لكن يسوع كان مغموراً بروح الرب، فلم يسمع.

وهنا هتف قائلاً «طوبى للجياع والعطاش الى البر»

قاطعه أحد الجائعين «البر وحده لا يكفي، البر وحده لا يكفي، نريد خبزاً»

تهدد يسوع وقال «الخبز أيضاً، الخبز أيضاً... طوبى للجياع

والعطاش الى البر، فسيشبعون، طوبى للحزاني، فالرب سيعزيهم.
طوبى للمساكين، وللودعاء، وللمظلومين، فلاجلهم، لأجلكم، أنتم
المساكين، للودعاء وللمظلومين، أعد الرب مملكة السموات»

تبادلت المرأتان المسترجلتان، اللتان كانتا واقفتين وسلتا العنب
ما تزالان على رأسيهما، تبادلنا نظرة سريعة ودون أن تتقوها بأية
كلمة أنزلنا الصلتين ويداً، واحدة من اليمين والأخرى من اليسار،
توزعان عناقيد العنب على الفقراء، والمجدلية، الجائعة عند قدمي
يسوع، كانت ما تزال لا تجرؤ على رفع رأسها ليرى الناس وجهها
لكنها كانت تلثم قدمي المعلم سراً، وكان شعرها يغطيها.

وصل تحمل يعقوب الى آخر مداه، فقفز واقفاً وغادر المكان.
وتولى الحق اندراوس، فتخلص من قبضة أخيه وتقدم حتى وقف
أمام يسوع، وهتف «لقد جئت لتوي من نهر الأردن في يهودا. ويوجد
هناك نبي ينادي قائلًا: الناس قش وأنا النار. وقد جئت لأحرق
الأرض وأطهرها، لأحرق الروح، وأنقيها نهيديا لحيي المسيح» [ج]
وأنت، يا ابن النجار، أنت تيشرب بالمحبة! لماذا لا تلقي نظرة فيما
حولك؟ وستري في كل مكان: كذابين، وقتلة، ولصوصاً والجميع
مخادعون - أغنياء وفقراء، مظلومون وظالمون، كتبة وفريسون -
كلهم! كلهم! أنا أيضاً كذاب، أنا أيضاً مخادع، وكذا أخي بطرس
الواقف هناك، وكذا زبدي ببطنه الضخم: يسمع كلمة «محبة»
فيفكر في قواربه ورجاله وفي الطريقة المثلى للسرقه قدر
ما يستطيع عن طريق معصرة الخمر»

حين سمع زبدي العجوز هذا الكلام استشاط غضباً، وصار
لون مؤخر عنقه السمين أحمر نارياً، وانتفخت أوردة عنقه، ثم
اندفع الى الأمام راضعاً هراوته، وعلى استعداد للضرب، لكن
سالومه تدخلت في الوقت المناسب وأمسكت ذراعه.

قالت له بصوت خافت «عار عليك، عار عليك، هيا، تعال الى
المنزل».

زعق بأعلى صوته «لن أسمع للمتسولين الحفاة أن تكون لهم
اليدين الطولى هنا في «منطقتي»! حتى أن الجميع سمعه. ثم التفت
الى ابن مريم، وقال وهو يلهث ويفث «وأنت، أيها النجار، لا تعمل
عليّ دور المسيح، إذ لهضي عليك أيها المسكين، لأنه سينتهي بك
الأمر الى الصلب مثل الآخرين - بهذه الطريقة سنتسى مشاكلنا!
لكني لا أشفق عليك أنت، أيها الثاقل، بل أشفق على الأم التعيسة
التي كنت لها ابنها الوحيد»

وأشار الى مريم، التي كانت قد انهارت واقعة على الأرض
كالكومة، وأخذت تضرب رأسها على الحجارة.

لكن غضب الرجل العجوز لم يسكن، وتابع ضرب هراوته على
الأرض وهو يصرخ «يقول «محبة»، وعلى الملأ! أنتم جميعاً أخوة،
فاغرفوا منها قدر ماتشاؤون، وكل شيء على حساب المحل! ولكن
هل يمكنني أن أحب عدوي؟ هل يمكنني أن أحب المتسول الذي
يعجوم حول قناء داري، يتلفه لكسر الباب وسرقتي؟ يقول «المحبة» -
فقط اسمعوا مايقوله المعتوه! أما أنا فأقول، مرحي ثلاثاً
لِلرُومانيين، حتى وإن كانوا وثنيين. مرحي ثلاثاً! فانهم يحفظون
النظام!»

هذا الكلام أثار الفقراء وحزّنهم على الحركة، فاندفعوا نحو
زبدي وتملك الرعب سالومه العجوز، فأسكتت زوجها بوضع يدها
على فمه ومن ثم التفتت الى الحشد المائج المخيف الذي كان
يقترّب.

قالت «لا تأبهوا لكلامه يا أولادي. إن غضبيه يجعله يقول ما لا
يعنيه»

واستدارت نحو العجوز، وقالت بنبرة صوت أمرة «هيا بنا»
وأومأت أيضاً إلى ابنتها المحبوب، الجالس بسكينة وسعادة عند
قدمي يسوع.

قالت «هيا، يا ولدي. لقد حل الظلام»

أجابها الفتى «أنا سابقى يا أمي»

نهضت مريم عن الصغوز التي ارتمت عليها، مسحت عينيها،
ومشت بخطى متقلقلة تريد أن تصحب ولدها إلى البيت. لقد كانت
التميسة تخشى شيئين، الحب الذي أظهره الفقراء له والتهديدات
التي تلقاها من العجوز القروي الثري.

كانت تقول لكل شخص تمر به «استحلفك باسم الرب أن لا
تتصت إلى مايقوله. انه مريض... مريض... مريض...»

ثم اقتربت من ابنتها، وهي ترتعش، وكان عندئذ واقفاً متشابك
اليدين، يحقد بعيداً إلى البحيرة، قالت له برفقة «تعال يا ولدي،
تعال، لنذهب معاً إلى المنزل...»

سمع صوتهما، فالتفت ونظر إليها بدهشة وكأنه يسأل من تراها
تكون.

كررت مريم طلبها «تعال يا ولدي»، وأحاطت به من وسطه،
«لماذا تنظر إلي هكذا؟ ألا تعرفني؟ أنا أمك. تعال، أخوتك
بانتظارك في الناصرة، والدك العجوز...»

هز الابن رأسه، وقال بهدوء «أي أم؟ أي أخوة؟ أمي هنا
وأخوتي»

مد يده وأشار بها إلى الصغاليك وإلى زوجاتهم، وإلى يهوذا ذي
الحمية الحمراء الذي وقف صامتاً أمام شجرة الصنوبر وهو يرميه
بنظرة ملؤها الحنق.

رفع أصبعه مشيراً بها إلى السماء «وأيي - أبي هو الرب»

أخذت عينا هذه الضحية العائرة الحظ لصاعقة الرب تسكب
الدموع، وقالت «هل في العالم كله أم أشد يؤساً مني؟ كان لي ولد
واحد، واحد، والآن...»

سمعت سالومه العجوز البكاء الذي يفطر القلب، فتركت
زوجها، وعادت أدراجها وأمسكت بيد مريم. لكن الأخيرة نفرت
واستدارت مرة أخرى نحو ابنتها.

صرخت به «ألن تأتي؟ سأقولها لك للمرة الأخيرة: تعال معي!»
وانتظرت. ظل ابنتها صامتاً؛ عاد من جديد ينظر إلى البحيرة.
صرخت الأم بصوت يعزق القلوب «ألن تأتي؟»، ورفعت يدها،
«ألا تخشى لعنة الأم؟»

أجاب الابن دون أن يلتفت «انني لا أخشى شيئاً، انني لا أخشى
غير الرب»

أصبحت تعابير وجهها ضارية، ورفعت قبضة يدها بل إنها
فتحت فمها لتصب لعنتها عليه، لكن سالومه العجوز وضعت يدها
في الوقت المناسب على شفتي الأم.

قالت «ياك، اياك»، وأحاطت بها من وسطها وجرتها بالقوة
بعيداً. قالت «تعال يا مريم، يا ابنتي، تعالي، هيا بنا. لدي ما أقوله
لك»

راحت المرأتان تنحدران إلى أسفل التل إلى كفرناحوم،
وتقدمهما العجوز زبدي وهو يزيد من الغضب ويطلق بالأشواك
بهرأوته.

تحدثت سالومه إلى مريم قائلة «لماذا تبكين يا مريم يا ابنتي؟
ألم تريهم؟»

نظرت إليها مريم متدهشة وحبست دموعها، قالت «رأيت
ماذا؟»

«حين كان يتكلم، ألم تري الأجنحة الزرقاء، آلاف الأجنحة الزرقاء خلفه؟ أقسم لك يا مريم أنه كان هناك جيش كامل من الملائكة،

لكن مريم هزت رأسها تعبيراً عن ياسها، وغمغمت «أنا لم أر شيئاً، لم أر شيئاً... أي شيء»، ثم أردفت بعد فترة صمت «ماذا تفيدني الملائكة يا سالومه؟ أنا أريد أن يتبعه أولاده وأحفاده» [أريد أولاداً وأحفاداً، لا ملائكة!]

لكن عينيّ سالومه كانتا مملوءتين برؤيا الملائكة الزرق، فمدت يدها ولمست صدرها وهمست لها قائلة، وكأنها تقضي اليها بسر عظيم «أنت مباركة يا مريم، ومباركة ثمرة رحمك»

ولكن أي شيء لم يكن ليعزي مريم، فهزت رأسها وتبعثها وهي تنزف الدموع.

في تلك الأثناء كان الصعاليك الحائضون قد تحلقوا حول يسوع وهم يتهددون ويتوعدون، ويضربون بعضهم على الأرض، ويلوحون بسلاهم الفارغة في الهواء، ويصرخون:

«الموت للأغنياء! أحسنت القول يا ابن مريم - الموت للأغنياء»

لوح يسوع بنزاعيه في قنوط، وهتف «أنا لم أقل ذلك! أنا لم أقل ذلك! بل قلت «عليكم بالمحبة يا أخوتي»

لكن القراء كان قد هيجهم الجوع: فكيف يمكن أن يسمعون! وزعقوا «اندرأوس على حق، النار والفأس أولاً، ثم المحبة»

سمع اندراوس هذا الكلام، وهو واقف بجانب يسوع، لكنه اطرقت متفكراً، ولم يجب. فكيف كان معلمه يتكلم في الصعراء، وكانت كلمته تقع على الناس كوقوع الحجارة فتحطمهم. لكن هذا الرجل الواقف الى جواره يوزع كلامه على الناس وكأنه خبز... من

المُحِق؟ أي الطريقين يؤدي الى خلاص العالم - العنف أم المحبة؟
بينما كل هذا يغزل في عقله شعر يبدن تلامسان رأسه، كان يسوع قد اقترب منه بهدوء ووضع كفيه على قمة رأس اندراوس. وكانت الأصابع لدنة بشكل محب وطويلة جداً بحيث أنها تعانق كل ما تمسك به - وكانت قد امتدت على كامل رأس اندراوس. ولم يأت اندراوس بحركة، شعر بحدود اتصال عظام جمجمته تتفتح وتمسك فيها حلالة غليظة القوام كالعسل تعصى على الوصف، نزلت الى دماغه، ووصلت الى فمه، وعنقه وقلبه، وواصلت طريقها الى عورته، ومن ثم تفرعت حتى وصلت الى أسفل قدميه، وعمت البهجة كامل جسده، وروحه كلها - وعميقاً حتى وصلت الى جذور كيانه، كشجرة عطشى رويت. لم ينف بكلمة. ليت هاتين اليدين المستقرتين فوقه لا تبارحانه أبداً هاهو بعد صراع مرير بشعر أخيراً بالأمان والسلام الداخلي.

على مبعدة سيرة كان فيلبس ونثنائيل البسيط، الصديقان الحميمان، يتبادلان الحديث.

قال الاسكافي الأخرق «أنا معجب به، كلامه حلو كمذاق العسل. أتصدق: انتي وأنا أنصت اليه كنت في الحقيقة ألتصق شفتي»

أما الراعي فكان له رأي آخر. قال «أنا لم أحبه. ان أقواله تخالف أفعاله، فهو يهتف «المحبة! المحبة! ثم يصنع صلباناً ويساعد على الصلب»

«هذا وضع انقضى وانتهى، أؤكد لك يا فيلبس، لقد كان عليه أن يمر بتلك المرحلة، مرحلة الصلبان. والآن هاقداً اجتازها وسلك درب الرب»

أصر فيلبس على موقفه. قال «أريد أفعالاً، لقد أصيبت

ماشيتي بالحكالك. فليأت أولاً وليمنحها بركته. فإذا شُفيت أو من به، والا فليذهب إلى حيث تعرف أين مع البقية من أمثاله. لماذا تهز لي رأسك؟ إذا كان يريد أن يخلص العالم، فليبدأ بماشيتي»
هبط الليل وشمل البحيرة، وكروم العنب ووجوه النساء. وفي السماء ظهرت عربة داوود^(١)، وتذلت نجمة حمراء من الشرق كقطرة نبيذ فوق الصحراء.

فجأة أحس يسوع بالتعب والجوع. أراد أن ينفرد بنفسه، وشيئاً فشيئاً صار الناس يتذكرون أن أمامهم رحلة طويلة إلى أوطانهم، وإلى منازلهم وأولادهم الصغار الذين ينتظرونهم. ومرة أخرى جثمت الهوم اليومية يثقلها عليهم. إن ما حدث هو وميض برق - لقد تركوا أنفسهم على سجيتهما، أما الآن فقد انتهى الأمر وهما هو دولا ب الحاجات اليومية يأسرهم من جديد، فأخذوا يتسحبون فرادى وأزواجاً - خلصة، كالفارين - وغادروا.

استلقى يسوع على الرخام العتيق وقد غلبته الكآبة. لم يعد أحد منهم يده ليودعه، لا أحد سأل إن كان جائعاً أو إن كان له مكان يبيت فيه الليل. التفت إلى الأرض التي تزداد ظلمة، وكان يسمع الخطوات المستعجلة تتقهقر، تتقهقر... ومن ثم تلاشى. وفجأة شمل السكون كل شيء. رقع رأسه وتظن: لا أحد. وتلفت فيما حوله: ظلام. لقد رحل الناس. لم يكن يحيط به غير النجوم في الأعلى، ودخله لاشيء غير الارهاق والجوع. إلى أين سيذهب؟ على أي باب يدق؟ عاد يتلفت حوله على الأرض، وهو يشعر بتأنيب الضمير وبالظلم. غمغم قائلاً: «حتى الثعالب لديها أوجرة تاوي إليها، أما أنا فليس لدي شيء»، وأغمض عينيه. ومع الليل هبط برد قارس، وأخذ يرتعش.

١ - المقصود بها «الذب الأكبر» في لغة علم الفلك.

وفجأة سمع أنيئاً صادراً من خلف الرخام ومن ثم تبعه بكاء مكبوت. فتح عينيه فميز امرأة تزحف باتجاهه على أطرافها الأربعة وسط الظلام. وحين وصلت إليه حلت ضفائر شعرها وراحت تمسح له قدميه اللتين كانتا قد تأذتا بشكل قاس بسبب الحجارة. وتعرف عليها من رائحتها الذكية.

قال، وهو يضع يده على رأسها الدافئ العطر «مجدلية، يا اختاه، مجدلية، يا اختاه، عودي إلى بيتك وكفي عن الائم»
قالت، وهي تقبل قدميه «يسوع، يا أخي، دعني أستظل بظلك إلى يوم مماتي. الآن بت أعرف ماهي المحبة»
كرر يسوع القول «عودي إلى بيتك. وعندما تحين الساعة سأرسل في طلبك»

«أريد أن أموت هذاه لك، يا ولدي»
«لا تكوني ضيقة الصدر يا مجدلية. ستعين الساعة، لكنها لم تات بعد. وسأرسل في طلبك حين تأتي، والآن اذهبي»
كادت تبدي اعراضها وإذا بها تسمع صوته من جديد، وهذه المرة كان صارماً تماماً «اذهبي!»

راحت المجدلية تنحدر أسفل التل. ظل وطء خطاها مسموعاً لبعض الوقت، ومن ثم، وشيئاً فشيئاً، تلاشى كلياً، ولم تبق غير رائحة جسدها في الجو. لكن نسيم الليل هب وأخذ معه هذه أيضاً.

بقي الآن ابن مريم وحيداً تماماً، من فوقه: الرب، بوجه الليل الأبنوسي الذي يحمله والمرشوش بالنجوم. نصب يسوع أذنه وكأنه أراد أن يمتص إلى صوت متبع من الظلمة المرصعة بالنجوم. انتظر... لاشيء. أراد أن يفتح فاه ويسأل اللامرئي: رب، هل أنت راض عني؟ لكنه لم يجزؤ. أراد أن يقول أشياء كثيرة للامرئي، لكنه

لم يجرؤ. كان مرعوباً من الصمت المفاجئ الذي أطبق عليه. وخطر له فجأة أنه لا بد أن الرب غير راض عني. فهزته الرعدة. ولكن لماذا يقع اللوم عليّ يا رب؟ لقد أخبرتكم، وكم من مرة أخبرتكم: لست بمتكلم! لكنكم حرصت على دفعي مراراً وتكراراً، وأنت تضحك، وتارة وأنت عابس من الغضب. وهذا الصباح في الدير حين لاحقني الرهبان ليجعلوني رئيساً للدير - ولم أكن أهلاً لذلك - وأرتجوا جميع الأبواب ليمنعوني من الهرب، فتحت لي باباً صغيراً خفياً، وغرزت مخاليك في شعري وجردتني للأسفل إلى هنا لأمثل أمام هذا الحشد الغفير، وأمرتني قائلاً «تكلم»، فقد حانت الساعة!، لكنني أحكمت أطباق شفتي ولم أفه بكلمة. وصرخت بي، ولم أفه بكلمة. وأخيراً قد صبرك واندفعت بقوة وفتحت لي فمي. ورفضت أن أفتحه، ففتحت له - بالقوة! ومسحت عليه ليس بالجمر الملتهب كما اعتدت أن تسمع على شفاه الأنبياء، لا، ليس بالجمر المشتعل، بل بالعسل! ونطقت. كان قلبي حانقاً، وأغراني بالهتاف: الرب نار! - نعم، مثل نبيك المعمداني - الرب نار، وهو آت! الناس بلا قانون، بلا عدالة، بلا شرف: فأين ستختبئ؟ انه آت!... هذا ما يحاول قلبي أن يدفعني لأنادي به، لكنك مسحت على شفتي بالعسل وبذل ذلك هتفت «المحبة! المحبة!»

ثم تلمع «رب، آه يا رب، لا يمكنني أن أصارحك: هذه الليلة أنا أسلم لك أسلحتي. فلتكن مشيتك»

حالمًا قال هذا، شعر بالارتياح، فأطرق برأسه حتى وصل إلى صدره وكأنه عصفور ناعس، وأغمض عينيه ونام وعلى الفور، حُيِّل إليه أنه سحب تفاحة من تحت قميصه، وشقها، ثم أخرج منها بذرة زرعها أمامه في الأرض - وحالمًا فعل ذلك أنبتت البذرة، وشقت طريقها خلال سطح التربة، وشكلت سويقاً، شطأت منه

أغصان، وأوراق، وأزهار - ثم أثمرت: مثات من ثمار الشجاف الأحمر...

تبعثرت الحجارة: سمع وقع خطى إنسان، فزع نوم يسوع وتطأير. دفع جفنيه فرأى شخصاً واقفاً أمامه - غمره الفرح لأنه لم يعد وحيداً، فرحب بهدوء، ودون كلام، بحضور الرجل الذي أشاع فيه البهاء.

تقدم زائر الليل وركع. قال «لا بد أنك جائع، أحضرت لك خبزاً وعسلًا وسمكاً»

«ومن أنت يا أخي؟»

«أنا اندراوس، ابن يونان»

«كلهم تخلوا عني ورحلوا، نعم، صحيح أنا جائع. كيف تذكرتني يا أخي حتى أحضرت لي خبزاً وعسلًا وسمكاً، وكلها من خيرات الرب؟ اننا لا ننتقد إلا الكلمة الطيبة»

قال اندراوس «وهذه أيضاً أحضرتها لك»، وقد منحه الطلام الشجاعة. لم ير يسوع يدي الشاب وهما ترتجفان، ولا الدمعتين اللتين تدحرجتا على وجنتيه الشاحبتين.

قال يسوع، وهو يمد له يده ويبتسم «هات تلك أولاً - الكلمة الطيبة أولاً»

همس ابن يونان «يا رابوني، يا سيدي»، وخرّ وقبّل قدميه.

الفصل الرابع عشر

الزمن ليس حقلاً يقاس بالقياسيات، ولا بجرأ يقاس بالأميال.
إنه نبض القلب. كم من الزمن استمرت فترة الخطوبة هذه؟ أياماً؟
شهوراً؟ سنين؟ لقد كان ابن مريم يتقل يملأه الحبور والشفقة من
قرية إلى قرية والبشارة على شفثيه؛ من قرية إلى قرية، ومن جبل
إلى جبل، وأحياناً كان ينتقل بالقارب من أحد شواطئ البحيرة إلى
الطرف الآخر، يردائه الأبيض أشبه بعريس. وكانت الأرض
خطيبته. ما إن يرفع قدمه حتى تمتلئ الأرض التي يطأها بالزهور،
وحين ينظر إلى الأشجار تفتتح براعمها، وحالما يضع قدمه في
قارب السميد تهب ريح موانية وتملأ الشراع. كان الناس ينصبون
إليه فيتحول الطين في داخلهم إلى أجنحة. وطوال فترة الخطوبة
كلها كنت كلما رفعت حجراً تجد الرب تحته، وإذا قرعت باباً يأتي
الرب ليفتحه لك، وإذا نظرت في عين صديقك أو عدوك كنت ترى
الرب متربعاً في البؤبؤ بيتسم لك.

أما الفريسيون الناقمون فويخوه، والشرر يتطاير من عيونهم
الرصاصة قائلين «إن يوحنا المعمدان يصبوم ويبكي. إنه يهدد

ويتوعد ولا يضحك. أما أنت - فحيثما أقيم حفل زفاف سعيد تكون الأول والأسبق إليه. تآكل وتشرب وتضحك مع بقية الناس. وفي ذلك اليوم في عرس أقيم في قرية قانا لم تغفل من الرقص مع الصبايا. من سمع بوجود نبي يضحك ويرقص؟ لكنه ابتسم وقال: «أيها الفريسيون، يا أخوتي، أنا لست نبياً. أنا عريس» -

ويجأ الفريسيون ويكادون أن يمزقوا ملابسهم «عريس»
«نعم، أيها الفريسيون، يا أخوتي، عريس. سامحوني، لكني لا أعرف أسلوباً آخر أصف لكم به الأمر»

ثم يلتفت إلى أصحابه، يوحنا، واندراوس، ويهوذا، وإلى الفلاحين وصيادي السمك الذين تخلوا عن حقولهم وقواربهم لكي يلحقوا به وينصتوا إليه، تجذبهم إليه حلاوة وجهه، وإلى النسوة اللواتي أتين وأطفالهن على أذرعهن.

ويقول لهم: «ابتهجوا وافرحوا مادام العريس مازال بينكم. ستأتي أيام أيضاً تصيحبون فيها أرامل ويتامى، ولكن ضعوا ثقتكم في الأب. انظروا إلى إيمان الطيور في السماء. إنها لا تبذر ولا تحصد، ومع ذلك فالأب يطعمها. تأملوا أزهار الأرض، إنها لا تغزل ولا تنسج، ولكن أي ملك بمقدوره أن يرتدي ثياباً يمثل روعة أشكالها؟ لا تكتروا من الاهتمام بأجسادكم، بما ستأكلون، وما ستشربون وما ستلبسون. ما أجسادكم غير تراب وإلى التراب ستعود. ليكن اهتمامكم منصباً على مملكة السماء وعلى أزواجكم الخالدين»

أنست يهوذا إليه وقد عقد عابن حاجبيه. لم يكن مهتماً بمملكة السماء. كان اهتمامه الأعظم هو بمملكة الأرض - وليس بالأرض كلها حتى، وإنما فقط بأرض إسرائيل، المؤلفة من الناس

والحجارة، وليس بالصلاة وبالسُّحُب. إن الرومان - أولئك البرابرة الوثنيين - يدوسون بأقدامهم هذه الأرض. أولاً يجب أن يُعْطَرِدُوا منها، وبعد ذلك يوسعنا أن نقلق على ممالك السماء. لاحظ يسوع تجهُّم ذي اللحية الحمراء وقرأ في التجاعيد التي غزت جبينه ما يدور في خلد.

قال له وهو يبتسم: «السماء والأرض شيء واحد، يا يهوذا يا أخي، والحجر والقيمة شيء واحد» [مملكة السماء لا توجد في الجو، إنها في دواخلنا، في قلوبنا. وأنا أتحدث عن هذا. عن القلب. يدلُّ ماضي قلبك، وستعانق السماء والأرض، سيتعانق العبرانيون والرومان والكل سيصبح في واحد]

لكن ذا اللحية الحمراء كبت حظه داخله. وأطال التفكير فيه ووطَّن نفسه على الصبر والانتظار. أنه لا يفهم عما يتحدث، ودمدم بينه وبين نفسه، أنه يعيش في عالم وهمي وليس لديه أدنى فكرة عما يدور فيما حوله. لن يتبدل ماضي قلبه إلا إذا تبدل العالم من حوله. ولن أرتاح إلا إذا اختفى الرومان من أرض إسرائيل!

وذاث يوم التفت ابن زبدي الأصغر إلى يسوع وقال «سامحني يا معلم، لكني اكتشفت أنني لا أحب يهوذا. حين اقترب منه أشعر بقوة خفية تبتثق من جسده، أشبه بالآف الابن الصغيرة، الصغيرة، تجرحني، وفي يوم قريب رأيت عند الفسق ملاكاً أسود يهمس بشيء في أذنه. فماذا قال؟

أجاب يسوع بعد أن تهدأ: «استطيع أن أتنبأ بما قال»
«ماذا؟ أنا خائف يا معلم. ماذا قال؟»
«ستعرف عندما يحين الوقت. أنا نفسي لا أزال لا أعرف بدقة»
«لماذا تصحبه معك، لماذا تسمح له بملازمتك ليلاً ونهاراً؟
وحين تكلمه، لماذا يكون صوتك أعذب منه حين تكلمنا؟»

«هكذا يجب أن يكون، يا يوحنا، يا أخي. انه في أعظم حاجة للمحبة»

ظل اندراوس يتبع المعلم الجديد، ويوماً بعد يوم تغير العالم بالنسبة اليه، أضحي أكثر عدوية. ليس العالم: بل قلبه! لم يعد الأكل والشرب من الآثام، والأرض أصبحت أشد ثباتاً تحت قدميه، والسماء تظله بحنو الأب، ولم يعد يوم الرب يوم غضب وحريق عظيم، ولا نهاية العالم- بل هو الحصاد، وقطاف الغناب، والأعراس، والرقص: هو التجديد الأبدى لعذرية الأرض. أصبح كل فجر بحث جديد، وفي كل صباح يجدد الرب وعده في أن يحتوي العالم في كفه المقدس.

مع مرور الأيام غدا اندراوس أكثر طمأنينة. فعقد صداقات مع الضحك والأكل، وأحمرت وجنتاه الشاحبتان. وفي المساء أو عند الظهيرة حين يتمدد تحت شجرة ليأكل، أحيان يحتفي بهم في بيت بعض الأصدقاء، ويقوم يسوع، كما كانت عادته، بمباركة الخبز وتوزيعه، كانت أحشاء اندراوس تتلقى هذا الخبز وعلى الفور تحوله الى محبة وضحك. الا أنه ظل بين حين وآخر يزرع التهديدات حين يتذكر عائلته وأصدقائه.

وذات يوم سأل وعيناه تائهتان في المدى «ماذا سيحل بيوتان ويزيدي؟». لقد كان العجوزان يبدوان له وكأنهما موجودان في آخر الأرض «وماذا عن يعقوب ويطرس؟ أين هما، وفي أي محيط يعانوان الآن؟»

أجاب يسوع وهو يتيسم «سنعثر عليهم جميعاً، وكل واحد منهم سيعثر علينا. لا تحزن يا اندراوس، إن أرض الأب واسعة، وتتسع للجميع»

ذات أمسية دخل يسوع قرية بيت صيدا، فكان الأطفال

يحملون أغصان الزيتون وسعف التخليل ويهرعون لتحييتهم. وفتحت الأبواب، وخرجت سيدات من بيوتهن، تاركات عمل المنزل وزحن يتراكضن خلفه ليسمعن الكلمة الطيبة. وكان الأبناء يحملون آبائهم المشلولين على أكتافهم، والأحفاد يقودون جدودهم الكفيفين من أيديهم. والرجال ذوو العضلات الضخمة كانوا يجرون معهم المسوسين بالأرواح الشريرة ويركضون خلفه ليضع يده على رؤوس أولئك المسوسين ويشفيهم.

وتصادف أن كان ذلك هو اليوم الذي يقوم به توما البائع المتجول بجولات في القرية، يتهاذى تحت حمله من مكبات الخيطان والأمشاط ومساحيق تجميل النسوة التي تصنع المعجزات، والأساور البرونزية والأقراط الفضية، وحين راه يسوع كان ينفخ في بوقه ويتأدى على بضاعته. وهبت نفخة ربح مفاجئة وإذا به لم يعد توما التاجر الأحول، وإذا به يعمل في يده مسواة النجارين، وإذا به محاط بجمهرة من الناس، في بلد بعيد، وعمال ينقلون حجارة واسمنت، وبنّاؤون يبنون هيكلأ كبيراً، هو صرح مهيب ذو أعمدة رخامية، وتوما هو رئيس البنائين يركض هنا وهناك ومعه المسواة، يعاين عملهم... طرقت عيننا يسوع، فطرقت عين توما أيضاً- وفجأة إذا به يجد نفسه مائلاً أمامه من جديد، بنوء مرة أخرى يحمل بضاعته، وعيناه الحولوان الماكتران تتحركان بخث.

وضع يسوع يده على رأس البائع المتجول، وقال «تعال معي يا توما، سوف أغمرك بنوع آخر من البضائع، بتوابل الروح وزخارفها. وسوف تقودك جولاتك غددت حتى أطراف الأرض، وسوف تتأدى على بضائعك الجديدة وتوزعها على الناس»

قال التاجر الدامية، وهو يضحك ضحكاً خافتاً «أفضل أن أبيع هذه أولاً، ومن ثم... حسن، لتنتظر ونرى ما يحدث»، وشحن صوته

العالي النبرة وبدأ من مكانه ينادي على الأمشاط، والخيطان
والمساحيق التجميلية التي تصنع المعجزات.

وقف أحد وجهاء القرية العجائز، فاحش الثراء، وقاسي القلب،
ومعدوم الشرف، على باب بيته، وقد وضع يديه على عضادتي الباب،
وراح يحديق بنظرة فضولية إلى الحشد المقترب، إلى جمع الأطفال
وهم يتراكمون في المقدمة ملوحين بسعف النخيل وأغصان الزيتون،
يدقون على الأبواب ويصيحون «إنه قادم، إنه قادم، ابن داوود قادم».
وكان يتبعهم رجل برداء أبيض، وشعره مسدل على كتفيه؛ ماداً يديه،
تهيمن عليه السكينة وترتسم على شفتيه ابتسامة، إلى اليمين وإلى
اليسار وكأنه يمنح بركته للمنازل؛ وكان الرجال والنساء المهرولون
خلقه يتنافسون لرؤية من سيلمسه ليكتسب القوة والطهارة، وإلى
الخلف أكثر كان يلحق به الكفيفون والمشلولون، واستمرت أبواب
جديدة تفتح وتظهر منها حشود أخرى.

شعر الوجوه المعجوز بالانزعاج، فسال «ومن يكون هذا؟» وكان
يقبض بقوة على عضادتي الباب طلباً للأمان خشية أن يتدفع
الرعا إلى الداخل وينهبوا ثروته.

توقف أحد الناس وأجابه «إنه النبي الجديد يا حنانياً. هذا
الرجل ذو الرداء الأبيض الذي تراه أمامك يحمل الحياة بيد، والموت
باليدين الأخرى. ويوزعهما كما يرغب ويشاء. قل كلمة للحكيم يا
حنانيا: تقرب منه، استنصفه عندك»

حين سمع حنانياً هذا أصابه الهلع. إن لديه مشاكل كثيرة تنقل
على روحه، وأثناء الليل غالباً ما يستيقظ مجفلاً وقد لجم الخوف
لسانه. وكان في كوايبه يرى نفسه يشوى، ويفمر حتى عنقه في
لهيب جهنم. لعل باستطاعة هذا الرجل أن يخلصه. وقال في نفسه،
إن كل ما يجري في العالم هو من قبيل السحر، وهذا الرجل ساحر.

فلأمد له المائدة، ولأنفق على اطعامه مبلغاً صغيراً من المال، فمن
يدري فقد يقوم بمعجزة.

بعد أن حزم أمره خرج إلى منتصف الطريق ووضع كف يده
على قلبه. قال «يا ابن داوود، أنا حنانيا العجوز، خاطئ، وأنت
قديس. ونحن علمت أنك قررت أن تحل في قريتنا. مددت الموائد
لاستضافتك. فادخل، أرجوك، واغمسني بلطفك. كلنا يعلم أن
القديسين يأتون إلى العالم لأجلنا نحن الخطاة، ومنزلي متعطش
للطهارة»

توقف يسوع، وقال «ما تقول يا حنانيا يسرني. ويسعدني أنني
قابلتك»

ولج منزل القروي الشري، ومد العبيد الموائد في فناء الدار،
وجلبوا الوسائد. اضطلع يسوع، وعلى كلا جانبيه اضطجع يوحنا
واندراوس ويهوذا، وأيضاً توما الماكر، الذي تظاهر بأنه أحد
المريدين ليشارك في تناول الطعام. تربع صاحب الدار العجوز
قبائلهم، وأخذ يبحث في عقله عن طريقة حاذقة لتوجيه دفة
الحديث إلى موضوع الأحلام واقناع طارد الأرواح الشريرة بطرد
الكوايب عنه. ثم أحضر الطعام، وأيضاً إبريقان من التبيذ. ووقف
الناس في الخارج يراقبونهم وهم يتناولون الطعام ويتحدثون عن
الرب، والطقس، وكروم العنب. وبعد انتهائهم من تناول الطعام
والشراب أحضر العبيد أباريق الماء الساخن وأحواض الغسل.
فغسلوا أيديهم وتهاووا للرجل، عندئذ وصل احتمال العجوز حنانيا
منتهاء. وقال في نفسه، لقد كلفت نفسي عبء تقديم وجبة له فأكل
وشرب - هو وحاشيته، والآن من حقي عليه أن يدفع الثمن.

قال «يا معلم، انني أرى كوايبسي، وقد علمت أنك تعتبر طارد
أرواح شريرة عظيم. ولقد قدمت لك كل ما باستطاعتي، والآن جاء

دور قداسك لتقدم لي شيئاً بالمقابل : ارفق بي واطرد عني احلامي. يقولون أنك تتكلم وتطرد الأرواح الشريرة بلغة الأمثولة. إذن، ضاحك لي أمثولة. سوف أفهم ماخفي من معناها وسأشفي. ليس كل شيء في العالم يحدث بفعل السحر؟ حسن، إذن، فليعمل السحر عمله..»

ايتسم يسوع ونظر في عيني العجوز. لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها الفكين الجشعين، ومؤخر العنق السمين والعينين السريعتي الحركة لشخص متخم. انهم يشيعون القشعريرة فيه. هؤلاء الناس ياكلون ويشربون ويضحكون، ويحسبون أن العالم برمته ملك يميئتهم، فيسرقون، ويرقصون ويفسقون- دون أن يخطر في بالهم لحظة واحدة أنهم انما يحترقون في نيران جهنم. فقط في أحيان نادرة، أثناء نومهم، يتنحون عيونهم ويرون... نظر يسوع الى الجشع العجوز، نظر الى لحمه، الى عينيته، الى خوفه- ومرة أخرى أصبحت الحقيقة داخله حكاية.

قال «افتح أذنك يا حنانيا. وافتح قلبك، لأنني سأتكلم»

«هاقد فتحت أذني وفتحت قلبي. انني منصت، المجد للرب»
«في يوم من الأيام يا حنانيا، كان هناك رجل غني وكان ظالماً معدوم الشرف، كان يأكل ويشرب، ويرتدي أثواب الحرير وألوان الأرجوان، ولم يكن يتكرم حتى بمقدار ورقة نبات خضراء على جاره اليعازر الذي كان انساناً جائعاً ولا يجد ما يرده البرد عن جسده. وكان اليعازر هذا يزحف تحت الموائد ليلتقط الفتات ويلقظ العظام، لكن العبيد كانوا يطردونه، فيجلس على العتبة وتأتي الكلاب فتلتق جروحه. ثم حل اليوم المقدر ومات الاثنان. ذهب أحدهما ليُصلّى في نار سرمدية، وذهب الآخر ليرتاح بين أحضان سيدنا ابراهيم. وذات يوم، رفع الرجل الغني بصره ليرى جاره اليعازر يضحك وكله

حبور بين أحضان سيدنا ابراهيم، فهتف قائلاً «أيت ابراهيم، أيت ابراهيم. أنزل إلي اليعازر؛ دعه يبال طرف أصبعه لكي يربط لي فمي- إنني أشوى بالنار»، لكن سيدنا ابراهيم أجابه قائلاً «تذكر الأيام التي كنت تأكل خلالها وتشرب وتستمتع بما تنتجه الأرض من خيرات بينما كان هو يتضور جوعاً ويرتجف قرأً. هل أحسنت اليه مرة ولو بمقدار ورقة نبات خضراء؟ والآن حان دوره هو كي يستمتع، وحان دورك أنت لتحترق بالنار الى أبد الأبدين»

تهتد يسوع وسكت. وقف حنانيا فاغر الفم، ينتظر أن يسمع المزيد، وقد جفت شفاته وبيس حلقه. أطلال النظر الى يسوع يتوسل اليه بعينيته.

ثم سأله، وصوته يرتعش «أهذا كل شيء؟ أهذا كل شيء، أما من مزيد؟»

قال يهوذا ضاحكاً «لقد نال ما يستحق! إن من يتغم بالطعام والشراب على الأرض سوف يتقيأ كل شيء هناك في جهنم»
لكن ابن زبدي الأصغر مال على يسوع وقال بصوت خافت «يا معلم، إن كلماتك لم تخفف العبء عن قلبي، كم من مرة أمرت أن نسامح أعداءنا! قلت لنا، يجب أن تحبوا عدوكم، وإذا أخطأ في حقكم سبياً وسبعين مرة سبع مرات فيجب أن تغفروا له سبياً وسمعين مرة سبع مرات، وقلت إن تلك هي الطريقة الوحيدة لتخلص العالم من الحقد. وهذه المرة... ألا يقدر الرب على الغفران؟»
قاطعه ذو اللحية الحمراء، وهو يرمي العجوز حنانيا بنظرة ساخرة «الرب عادل»

اعترض يوحنا «الرب هو الخير المطلق»
قال صاحب الدار متلعثماً «أعني هذا أن لا أمل! أهكذا تنتهي الأمثولة؟»

نهض توما واقفاً، ومشى خطوة نحو الباب الخارجي، ثم توقف وقال هازناً «لا، يا سيدي، لم تنته بعد، لا زال هناك المزيد»

«تكلم، يا ولدي، وسوف أمنحك بركتي»

قال توما «إن اسم الرجل الفني ذاك هو حنائيا»، وقبض على صدره من البضاغة وإذا به فجأة يصبح في وسط الشارع، حيث توقف وراح يتهق مع الجيران.

صعد الدم إلى رأس العجوز الوجيه الكبير، وأظلمت عيناه كالشمس الغاربة.

مد يسوع يده ومسح على الشعر المجعد لرفيقه الحبيب. قال «يا يوحنا، الكل لديهم أذان، وقد سمعوا، والكل لديهم عقول، وقد حكموا. قالوا، الرب عادل، ولم ينهبوا لأبعد من ذلك، ولكن أنت أيضاً لك قلب وقلت نعم، الرب عادل، ولكن هذا غير كاف، إنه أيضاً الخير المطلق. إن الأمثلة لا يمكن أن تقف عند هذا الحد؛ بل يجب أن تكون لها نهاية مختلفة»

قال الشاب «سامحني يا معلم، ولكن هذا ما شعر به قلبي بالضبط، قلت في نفسي، إن الإنسان يفسد، فهل يعقل أن لا يفسد الرب؟ لا، مستحيل، إن الأمثلة كفر فادح ولا يمكن أن تبقى كما هي، يجب أن تنتهي نهاية مختلفة»

قال يسوع مبسماً «إن لها بالفعل نهاية مختلفة، أيها الحبيب يوحنا، اسمع يا حنائيا، سأطملكك، اسمعوا، يا من تتجمعون في الفناء، وأنتم أيها الجيران، يا من تضحكون في الشارع. الرب ليس فقط عادلاً، إنه طيب، وليس فقط طيباً، بل هو أيضاً الأب، حين سمع اليعازر كلمات سيدنا ابراهيم تهتد وخاطب الرب بينه وبين نفسه قائلاً «رب، كيف يمكن لأي إنسان أن يكون سعيداً في الجنة وهو يعلم أن ثمة إنساناً - روحاً - يُشوى إلى أبد الأبدين؟ أرو، يا

رب، حتى أرتوي أنا أيضاً، حرره، يا رب، حتى أتحضر بدوري، والا أصابقتي أنا حرارة اللهب»، سمع الرب تفكيره ففرح. قال «اليعازر، أيها الحبيب، انزل، وأمسك الظمآن من يده. إن يئابي لا تتضب، أحضره إلى هنا لكي يشرب ويرتوي، وترتوي أنت أيضاً... فسأله اليعازر «إلى أبد الأبدين؟» فأجابه الرب «نعم، إلى أبد الأبدين»

نهض يسوع واقفاً دون أن يزيد كلمة واحدة. كان الليل قد شمل الأرض كلها، وتفرق الناس، وعاد الرجال والنساء إلى أكواخهم البائسة، وهم يتهامسون، وقتلهم مترعة. وتساءلوا، أيمن للكلمة أن تغذي؟ نعم، يمكن ذلك - حين حنائيا خر على قدميه.

تمتم «سامحني، يا معلم»، وانفجر بالبكاء. في تلك الليلة عيناها، ذهب يهوذا إلى في أشجار الزيتون التي اضطجعوا تحتها وناموا، فألقى ابن مريم. ولم يكن قد تمكن من الركوب إلى الهدوء، فكان يجب أن يراء ويحدثه لكي يكشف عن أوراقهما كلها ويوضح الأمور بشكل كامل، فحين كانوا في منزل ذلك المجرم حنائيا، وأبتهج يهوذا لنزول العقاب على العجوز الفني في جهنم وصفق يديه وهتف «لقد نال ما يستحق» نظر إليه يسوع من زاوية عينه مطولاً، خلسة، وكأنه يؤنبه، هذه النظرة كانت مازال تعذبه. لذا كان من الضروري أن يصفيا حساباتهما، فلم يكن يهوذا يحب الكلمات غير الواضحة والنظرات المختلطة.

قال يسوع «مرحباً بك، كنت بانتظارك»
بأشر يهوذا كلامه على الفور ودون مقدمات ديا ابن مريم، انني لا أتواءم مع الآخرين، انني لا أتصف بنقاء ومليحة يوحنا، أثيرك، ولا أنا حالم شارد الذهن، مثل اندراوس، الذي يبدل فكره مع كل نسمة هواء تهب. أنا حيوان بري لا يقبل الحلول الوسط. ولدت من زواج غير شرعي وأمي رمقتني في البرية، وهناك رضعت من حليب

ذئبية، فنشأت فقط، صلياً، صادقاً. وحين أحب شخصاً - أصبح غباراً تحت قدميه، وحين أكره - أقتل.]

كان صوته، وهو يتكلم، يزداد خشونة. وكانت عيناه تطلقان الشر إلى الظلمة. وضع يسوع يده على الرأس الرهيب ليُنزل عليه السكينة، لكن ذا الشعر الأحمر نقض عنه اليد المسالمة.

[بعد ذلك تابع كلامه وهو يزن كلماته كلمة كلمة «بل أنتي قادر على قتل من أحب، اذا وجدت أنه يعيد عن الصراط المستقيم»
«وما هو الصراط المستقيم، يا يهوذا، يا أخي؟»

«تحرير أرض اسرائيل»]

أغمض يسوع عينيه ولم يجب. كان متبعاً للهب المصوبان إليه من قلب الظلام يحركانه، وكذا فعلت كلمات يهوذا، ماهي اسرائيل؟ لماذا فقط أرض اسرائيل؟ السنن جميعاً أخوة.

انتظر ذو اللحية الحمراء سماع جوابه لكن ابن مريم لم يتكلم. أمسك به يهوذا من ذراعه وهزه وكأنه يحاول أن يوقظه. وسأله «هل تفهم؟ هل سمعت ماقلته؟»

أجابه يسوع، بعد أن فتح عينيه «نعم، أفهم»

«لقد كلمتك دون مداورة لأنني أريدك أن تعرف من أنا وماذا أريد، ولتعطيني بعد ذلك جواباً. أترغب بأن آتي معك أم لا ترغب؟ أريد أن أعرف»

«أريدك أن تأتي يا يهوذا، يا أخي»

«وستدعني أبوح بما يجول بفكري بكل حرية، وستدعني أعترض وأقول «لا» حين تقول أنت «نعم»؟ لأن - سأشرح لك السبب لكي لا يبقى في ذهنك ظل من الشك - لأن الجميع قد ينصتون إلى كلامك فأعزري الأقواء، [لا أنا! أنا لست عبداً! أنا رجل حر. هكذا هي الأمور، وعليك أن تستغل ذلك أفضل استغلال»

«لكن الحرية يا يهوذا هي بالضبط ما أريده أنا أيضاً»
أجفل ذو اللحية الحمراء، ثم قبض على يسوع من كتفه وهتف بروح متقدة «أتريد أن تحرر اسرائيل من الرومان؟»
«بل إن أحرر النفس من الاثم»

[انتزع يهوذا يده بعيداً عن كتف يسوع في نوبة هياج وضرب قبضته بقوة على جذع شجرة الزيتون، وجار قائللاً، وهو يواجه يسوع ويرميه بنظرة حقد «إلى هنا ويفترق طريقانا. أولاً يجب تحرير الجسد من طغيان الرومان، ومن ثم يأتي تحرير النفس من الاثم. هذا هو الدرب الصحيح. فهل تسلكه؟ إن البيت لا يُبنى بدءاً من السقف ثم إلى أسفل، بل يُبنى بدءاً من الأساس ثم يرتفع»]

«الأساس هو النفس، يا يهوذا»

«بل الأساس هو الجسد - من هنا يجب أن تبدأ. انتبه يا ابن مريم، أنا قتلها مرة ولن أعيدها؛ انتبه، اسلك الدرب الذي أشير إليه. لماذا تظنني أمشي معك؟ أعلم إذن أنه لكي أريك سبيلك»

كان اندراوس مضطجعاً تحت شجرة زيتون مجاورة، وسمع كلاماً أثناء نومه فاستيقظ. أصاخ سمعه فميز صوت المعلم وصوت شخص آخر، أجش ومفعماً بالغضب. أخذ يرتعش كغزال مجفل.

أيمكن أن يكون بعض الناس قد أتوا أثناء الليل لازعاج المعلم؟ وكان اندراوس يعلم أنه أينما حل المعلم يخلف وراءه العديد من النساء والفتيان، وحشوداً من الفقراء، الذين أحبوه، وأيضاً العديد من وجهاء القوم، والعديد من الأثرياء العجائز، الذين كرهوه وتمنوا خذلانه. أيمكن أن يكون هؤلاء المجرمون قد أرسلوا بعض قطاع الطرق لايزائيه؟ فزحف متقدماً في الظلام على أطرافه الأربع، باتجاه الصوتين. لكن ذا اللحية الحمراء سمع صوت الزحف فانتصب على ركبتيه.

وهتف «من هناك؟»

تعرّف اندراوس على صاحب الصوت، فأجاب «يهودا، انه أنا، اندراوس»

«عُد الى فراشك. يا ابن يونان. بيننا شأن خاص»

وقال يسوع أيضاً «اخذ الى النوم يا اندراوس يا بني»

بعد ذلك أصبح يهوذا يخفض صوته، وكان يسوع يشعر بأنماض ذي اللحية الحمراء الثقيلة على وجهه.

«ستتذكر أنني أنا من كشف لك ونحن في الصحراء أن منظمة الأخوة انتدبتني لقتلك. لكنني غيرت رأيي في الدقيقة الأخيرة، وأعدت خنجرى الى غمده وهربت من الدبر عند الشجر، كاللصوص»

«ولماذا غيرت رأيك يا يهوذا، يا أخي؟ لقد كنت مستعداً»

«رغبت في الانتظار»

«انتظار ماذا؟»

لزم يهوذا الصمت برهة، ثم فجأة قال «لأنك من أنك المختار الذي تنتظره اسرائيل»

أصابته الرعدة يهوذا، فأنكا على جذع شجرة الزيتون، وكان جسده كله يرتجف.

صرخ يهوذا، وهو يدلك جبينه الذي أصبح فجأة ينضج بالعرق «لا أريد أن أتهور في عملي وأقتل المخلص، لا لا أريد ذلك، ثم

زق وكان ثمة من يخنقه «أتفهم؟ أتفهم؟ أنا لا أريد ذلك»

وأخذ نفساً عميقاً، ثم تابع «قلت في نفسي، لعله هو نفسه لا يعرف بالأمر. الأفضل أن أتجمل بالصبر وأدعه يعيش بعض الوقت،

فليعيش لنرى أحواله وأفعاله، فإذا لم يكن المختار الذي تنتظره، فسيكون هناك دائماً متسع من الوقت للتخلص منه... هذا ماقلتة

لنفسي، ولهذا أبقيت عليك»

جعل ينفث لبعض الوقت، وهو يجرف التربة باصبع قدمه الكبير. وفجأة قبض على يسوع من ذراعه، وكان صوته أجشاً

ويائساً وهو يقول له «لا أدري بماذا أناديك- يا ابن مريم؟ أم يا ابن النجار؟ أم يا ابن داوود؟ كما ترى، ما أزال لا أعرف من أنت -

ولكن حتى أنت لا تعرف. علينا نحن الاثنين أن نكتشف الجواب، كلانا يجب أن يرتاح! لا، لا يمكن لهذا. الشك أن يستمر. لا تنتظر

الى الآخرين - انهم يتبعونك كخرفان تثغو، لا تنتظر الى النسوة اللواتي لا يحسن غير اطرائك وذرف الدموع. وعلى أية حال، ماهن

الا نسوة! لديهن قلوب ولا عقول، ولا فائدة ترجى منهن لنا، نحن الاثنان اللذان يجب أن نعرف من أنت وما اذا كان هذا اللهب الذي

يحرقك هو من رب اسرائيل أم من الشيطان، يجب! يجب!»

كان يسوع يرتجف من رأسه الى أخمصه «وماذا يسعنا أن نفعل يا يهوذا، يا أخي؟ كيف يمكننا أن نعثر على الجواب؟ ساعدني»

«ثمة طريقة»

«وماهي؟»

«سوف نذهب الى يوحنا المعمدان، وهو الذي سيخبرنا، انه يهتف «انه قادم! انه قادم، اليس كذلك؟ حسن اذن، حالما سيرك

سيدرك ان كنت القادم المنتظر أم لا. هيا بنا: بهذا شهدا غلواؤك، وأنا سأعرف ماعلي أن أفعله»

استغرق يسوع في تأمل عميق. كم من مرة استحوذ عليه هذا القلق، وكم من مرة تمدد منبطحاً على الأرض، يهتز بعنف في

نوبات التشنج ويخرج الزيد من فمه! كان الناس يطلونه مخبولاً، ممسوساً بشيطان، وكانوا يركضون هاربين منه وقد تملكهم

الخوف. أما هو فيكون قد وصل الى السماء السابعة، وانتقلت عقله من سجنه، وارتقى، ودق على باب الرب وسأله، من أكون؟ لماذا

ولدت؟ ماذا أفعل لأخلص العالم؟ ماهي الطريق الأقصر - أكون موتي أنا؟

رفع رأسه. كان جسم يهوذا مائلاً كله فوقه.

قال «يا يهوذا، يا أخي، اضطجع بجواري. سيأتي الرب على هيئة نوم وسيأخذنا. وغداً، بمشيئة الرب، سنطلق في الصباح الباكر للبحث عن نبي اليهودية، وليكن ما يشاؤه الرب، أنا مستعد»

قال يهوذا «أنا أيضاً مستعد»، ثم تمدد، وكانا متجاورين.

كلهما كان تعباً، لذا استغرقا في النوم في وقت واحد، وفي فجر صبيحة اليوم التالي وجدتهما اندراوس، الذي كان أول من استيقظ، مستسلمين لنوم عميق وهما متعانقان.

سطعت الشمس على سطح البحيرة، تبعه يسوع مع رفيقيه المخلصين يوحنا واندراوس. أما توما، الذي كان ما يزال معه بضاعته لبييعها، فتخلف في القرية. وقال البائع المتجول الماكر في عقله، الذي كان يحاول أن يستفيد من الوضع من الناحيتين. قال: «عجبني مايقوله ابن مريم. سيأكل الممساكين ويشربون حتى يشبعون وإلى أبد الأبدين». بعد أن يموتوا. هذا جيد، ولكن حتى ذلك الحين، انظر ما يحدث لنا هنا ونحن تحت انتبه، يا توما أيها البائس، انتبه - اياك أن تقحم نفسك في أي من المكانين، ولكي تكون في الجانب الأسلم، الأفضل أن تملأ سلتك بنوعين من البضائع: ضع في الجزء الأعلى، لكي يراها الجميع، الأمشاط ومسايق التجميل، وتحت، في الأسفل، وخصوصاً لزبائن الدرجة الأولى، مملكة السماء... وأخذ يقهقه، وعاد يرمي بالصخرة على ظهره وعند انبلاج الصباح بدأ ينفخ في بوقه، وينادي بصوته العالي ويأشر جولاته في أزقة بيت صيدا، معلناً عن بضاعته الدنيوية. في كفرناحوم كان بطرس ويعقوب قد استيقظا عند الفجر ليجمعما الشباك. وكانت عيون الشباك ملأى بالسماك المنتفض

اللامع تحت أشعة الشمس. ولو أن هذا حدث في أي وقت آخر لاتبهج الصيادان لشعورهما بوزن شباكهما الثقيلة، أما اليوم فذهنهما شاردان، ولم يتقوها بكلمة. كانا صامتين، ولكن في داخل كل منهما كان يدور شجار، تارة مع القدر، الذي قيدهما إلى هذه البحيرة جيلاً بعد جيل، وطوراً مع عقليهما، اللذين يقومان بالحساب، وإعادة الحساب، ولا يتركان مجالاً لقلبيهما للتخليق. وكانا يصرخان في داخلهما، أي حياة هذه؟ نرسي الشباك، ونصيد الأسماك، ونأكل ونشرب، وعند انبلاج فجر كل يوم جديد نبدأ حياة الكفاف أنفسنا من جديد - على مدار اليوم، على مدار السنة، وطوال حياتنا إلى متى؟ إلى متى؟ وهكذا ستموت؟ ولم يكن هذا قد خطر على بالهما من قبل، لعلما استقرت السكينة في قلوبهما، كانا يعيشان وفق المنوال القديم جداً دون أي شكوى. هكذا عاش أبائهما وأجدادهما من قبلهما، وعلى مدى آلاف السنين - حول هذه البحيرة، يتصارعون مع الأسماك، ثم يأتي يوم يشكون أيديهم المتعبسة ويموتون، ومن ثم يأتي أولادهم وأحفادهم ويسلكون الطريق ذاتها، دون ابداء أي شكوى. وهذان الاثنان، بطرس ويعقوب، كانا يواصلان المسيرة بشكل حسن حتى ذلك الوقت، وهما أيضاً لم يكن لديهما مايشكون منه. الا أنهما مؤخراً أخذا فجأة يشعران أن المكان يضيق بهما وأنهما يختنقان. وبدأت نظرتهما تشرد بعيداً، أبعد من البحيرة. أين؟ نحو ماذا؟ هما نفسيهما لم يكونا يعرفان، كل ماكانا يعرفانه هو أنهما يختنقان.

وكان هذا العذاب لم يكن كافياً، فقد كانا في كل يوم شاهدان المارة يأتون بآباء جديدة: ثمة جثث تعود للحياة، ومشلولون يسيرون، وعمي يبصرون. وكان المارة يسألون الصيادين «من هو ذاك النبي الجديد؟ إن أخويكما يرافقانه، وجب أن تعلمنا ذلك. وقد

سمعنا انه ليس ابن النجار الناصري وانما ابن داوود. اصحيح هذا؟. لكن بطرس ويعقوب كانا يهزان كتيههما وينكبان مرة أخرى للانشغال بشباكهما، وتغاليهما رغبة في البكاء لينفسا عما يخالجهما. وأحياناً كان بطرس يلتفت الى رفيقه، بعد أن يغيب المارة في المدى، ويقول «أتصدق هذه المعجزات يا يعقوب؟»

يجيبه ابن زبدي الصخّاب «اسحب الشباك والزم الصمت»، ومن ثم بحركة سريعة قوية يجر الشبكة المثقلة مسافة طول ذراع، هذا اليوم أيضاً مرّ بهما سائق عربية نقل ومعه مزيد من الأتباء: «يقولون ان التبي الجديد تناول الطعام في بيت صيدا في منزل المعجوز حنانيا القابض اليد. وحلما انتهى من تناول الطعام وأحضرن له العبيد الماء ليغسل يديه، اقترب من حنانيا وهمس له بشيء في أذنه، وعلى الفور انقلب عقل المعجوز رأساً على عقب، وانفجر باكياً وبدأ يوزع بضائعه على الفقراء»

سأله بطرس، وقد زاغت عيناه مرة أخرى في المدى البعيد، وأبعد من البحيرة «وبماذا همس له؟»

قال سائق العربية، ضاحكاً «آه، ليتني عرفت! كنت طرقت به أذن كل رجل غني، لكي يتاح للفقراء أن يتلقوا نفحة حياة... ثم هتف، مواصلاً طريقه «وداعاً، وصيداً موفقاً»

التفت بطرس ليحدث رفيقه لكنه على الفور غير فكره. ماذا يسمعه أن يقول له؟ مزيداً من الكلمات؟ ألم يكتف بما تلقاه منها حتى الآن؟ وشعر برغبة في كسر كل هذه الأعمال على الأرض، برغبة في أن ينهض معبراً عن اشتمزازه ليرحل بعيداً والى الأبد. نعم، سيرحل! ان كوخ يونان لم يمد يده، ولا حوض الماء هذا أيضاً، بحيرة جنيسارت هذه. وغمم «هذه ليست حياة، انها ليست حياة! سوف أرحل!»

التفت اليه يعقوب، وسأله «بماذا تغمغم؟ اهدأ!»
أجابه بطرس «لا شيء، اللعنة، لا شيء!» وأخذ يسحب الشباك بعنف.

في تلك اللحظة ظهرت قامة يهودا وحده فوق قمة النل الأخضر في الموقع الذي كان يسوع قد خاطب الناس منه. كان يمسك عصا معقوفة اقتطعها وراح يقطع مسافة الطريق التي تبدأ من سديانة القرمز البيرة، وكان يضرب بالعصا على الأرض أثناء سيره. وظهر بعده الرفاق الثلاثة الآخرون توقفوا فوق القمة برهة وهم يلهثون ليعاينوا العالم الممتد الى الأسفل منهم. كانت البحيرة تتلألأ فرحاً! والشمس تداعبها وهي تضحك، وكانت قوارب الصيد أشبه بغراشات حمراء وبيضاء فوق صفحة المياه، وفوقهم خلق الصيادون الطائرون، النوارس. وعلى البعد ضجّت كشرناحوم بالحركة. كانت الشمس قد ارتفعت وعلت: لقد بلغ النهار أوجه.

قال انداروس، مشيراً الى الشاطئ، حيث كان أخوه يسحب الشباك «انظروا، هاهو بطرس!»

قال يوحنا وهو يتهدد «يعقوب أيضاً. انهما مازالا عاجزين عن انتزاع نفسيهما بعيداً عن الدنيا»

ابتسم يسوع. قال «لا تتهدد، ايها الرفيق الحبيب، اضبطجعوا هنا كلكم، وارتاحوا. سوف أنزل وأحضرهما»

وأخذ ينحدر بخطوات سريعة نشطة. وفكر يوحنا معجباً به بأنه أشبه بملاك، لا ينقصه إلا جناحان... وتابع يسوع هبوطه منتقلاً من حجر الى حجر. وحين وصل الى الشاطئ أبطل خطاه واقترب من الصيادين اللذين كانا منكبين على جمع شباكهما، وقف خلفهما وامضى وقتاً طويلاً يتأملهما دون أن يأتي بحركة. راقبهما ورأسه خالٍ من الأفكار، لكنه شعر بأنه قد استنزف: ثمة قوة

وذلك، تاركاً والده العجوز وحده لا يجد من يساعده في ترميم الشباك ومصارعة الرياح والقارب اللعين. بالإضافة إلى أعمال الطبخ والعناية بأمور المنزل - إنه يضارع هذه الشياطين المنزلية منذ وفاة زوجته. أما بطرس هنا أخذ يونان بأسياغ بركته عليه - بطرس بساندني ويمنحني القوة... تذوق الطعام. بات جاهزاً. ونظر إلى الشمس. كاد ينتصف النهار. وعدم متذبذباً «أنا جائع، لكنني لن أكل حتى يأتي». ثم شبك يديه معاً وانتظر.

كان منزل زيدي، الذي يبعد مسافة عنه، مفتوحاً. وكان الفناء مثلاً بالسلال والجرار. وفي الزاوية منه كان المقطر. سقياً لأيام كان يستخلص فيها الراكي⁽¹⁾ المقطر من قشور حبات العنب ومن السويقات بعد تركه في معصرة النبيذ، وتضوح رائحة المنزل كله بعيد الكحول. كان زيدي وزوجته يتناولان طعام الغداء على طاولة صغيرة تحت تعريشة عنب منهوية. كان زيدي العجوز يسحق الطعام قدر استطاعته بلثتيه الدردين ويتحدث عن تطوير عمله، منذ وقت طويل وهو يضع عينه على كوخ العجوز ناحوم، جاره المباشر، الذي كان مديناً له ولا يملك المال الكافي لسداد دينه. وكان زيدي قد خطط كي يعرض البيت في الأسبوع التالي، بمشيئة الرب، ليعيه في المزار العلني. منذ سنين وهو يتوق للحصول عليه لكي يهدم الجدار الفاصل ويوسع بذلك مساحة فناء داره. إنه يمتلك معصرة نبيذ، إلا أنه أراد أن يمتلك أيضاً معصرة زيتون. لكي يأتي إليه أهل القرية جعيماً ليحصلوا على زيت الزيتون الذي تعصره، ويمكنه بذلك أن يستقطع نسبة مئوية ويمال جزاره لمؤونة العام. ولكن أين سيضع معصرة النبيذ؟ يجب أن يحصل على منزل ناحوم مهما كلفه الأمر...

1- الراكي : شراب مُسكر قوي، معروف في تركيا وبلاد البلقان.

تسرب من داخله. أصبح كل شيء خفيفاً، طافياً في الهواء، عائماً فوق البحيرة كغمامة؛ حتى الصيادان أصبحا خفيفين وطافا في الهواء. وتمجّدت شبكتهما بما تحتويه : إنها لم تعد شبكة، وتلك لم تعد أسماك - إنها أناس، آلاف من البشر، سعداء يرقصون... فجأة شعر الصيادان بوخز خفيف على قمة رأسيهما، خنز شريب، ممتع. قفزا معتدلين ثم التفتا «زعين، فألفيا خلفهما يسوع واقفاً بلا حراك، صامتاً، يراقبهما.

هتف بطرس، وقد شعر بالخزي «سامحني، يا معلم، لماذا يا بطرس؟ ماذا فعلت حتى أسامحك؟» غغم بطرس «لا شيء»، ثم قال فجأة «أتمني هذه حياة؟ لقد سمعتها»

قال يسوع، ماداً يديه لكليهما «تعالا، تعالا، سوف أجعلكما تصطادان الناس»

أمسك كل منهما بيد وسار بينهما، وقال «هيا بناء سأل بطرس، وقد تذكر العجوز يونان «أليس من الواجب أن أودع والدي؟»

«لا تلتق إلى الوراء حتى نظرة واحدة، يا بطرس. لا وقت لدينا. هيا بناء»

توقف يعقوب، وسأله «إلى أين؟»

«لماذا تسأل؟ كفاك أسئلة يا يعقوب، وهيا»

في تلك الأثناء كان العجوز يونان يطبخ، وقد انكب فوق منص الموقد بانتظار قدوم ولده بطرس لكي يجلسا معاً ويتناولوا الطعام. الآن لم يبق له غير ولد واحد - ليحفظه الرب. ان بطرس فتى عاقل، ومدير جيد للأموال، أما الآخر، اندراوس، فإن الرجل العجوز قد شطبه من حسابه. فهو تارة يتبع هذا المشعوذ، ثم ذاك

سمعت سالومه كلامه، لكن تكبرها كان منصّباً على يوحنا، ولدها الحبيب. أين يمكن أن يكون؟ مامعنى ذلك العسل الذي تنقطر من شفتي النبي الجديد؟ كم كانت تتوق لرؤيته ثانية، لسماعه وهو يتكلم مرة أخرى ويدخل سكينه الرب الى قلوب الناس! وفكرت، لقد أحسن ولدي عملاً، لقد اتخذ السبيل القويم، وأنا أباركه. وتذكرت الحلم الذي رآته قبل بضعة أيام الذي أثبت نفسها فيه تفتح الباب ثم تخرج وتصفقه وراءها، تاركة هذا البيت بما يحتويه من معاصر النبيذ ومخازن اللحوم والأطعمة الطافحة بمحتوياتها لتلحق بالنبي الجديد.

قالت في نفسها، لقد ركضت خلفه، حاقية جائعة، ولأول مرة في حياتي عرفت معنى السعادة.

سأل زبدي زوجته، حين رأى عينيها وقد زاغتا لحظة «هل تنصتين لي؟ أين عقلك؟»

أجابته سالومه «انتي منصّته»، ونظرت اليه وكأنها لم تكن قد رآته من قبل.

في تلك اللحظة سمع العجوز أصواتاً مألوفة قادمة من الطريق. فرغ عينيها.

صرخ «هاقد جاء!»، ولما رأى الرجل ذا الرداء الأبيض يحيط به من الجانبين ولداه اندفع الى الباب الخارجي، وقمعه مايزال مسحوا بالطعام.

صرخ «هيه، يا أولاد، الى أين أنتما ذاهبان؟ أهكذا تعبران من أمام بيتي؟ قفا!»

أجاب بطرس، بينما تابع الآخرون طريقهم: «لدينا مهمة تؤديها، يا زبدي»
«أية مهمة؟»

قال بطرس «مهمة متشابكة ومعقدة جداً»، وانفجر ضاحكاً. جحظت عينا العجوز من رأسه، وهتف، وهو يبتلع ما يملأ فمه دون أن يعضفه «أنت أيضاً يا يعقوب، أنت أيضاً؟»، وولج الى الداخل وهو يكاد يختنق ونظر الى زوجته.

قالت، وهي تهرز رأسها «قل على ولدك السلام يا زبدي. لقد أخذهما منا»

قال العجوز «ويعقوب أيضاً؟»، ولم يدر ماذا يقول «لكنه أكثر تعقلاً. هذا مستحيل!»

لم تتكلم سالومه، ماذا عساها تقول له؟ كيف يمكنه أن يشهد؟ لم تعد تقبل الطعام. فقامت ووقفت في ممر الباب وراحت تشيخ الصحب السعيد بنظرها وهو يسير في الدرب الملكي الذي يتبع نهر الأردن باتجاه اورشليم. رفعت يدها الهرمة وقالت بصوت خافت حتى لا يسمعا زوجها «بوركنم جميعاً».

عند أطراف القرية قابلوا فيلبس. وكان يقود قطيعه الى طرف البحيرة ليرعى. وكان قد ارتقى مكاناً عالياً فوق صخرة حمراء، يميل الى الامام، معتمداً على عصاه، يعجب بخياله، الذي شكّل تموجاً أسود على صفحة مياه البحيرة الزرقاء المخضرة في الأسفل، وحين سمع صوت انسحاق الحصى الى الأسفل منه على الدرب نهض ووقف معتدل القامة.

هتف حين تعرف على المارة «مرحباً هيه، ألا ترونني؟ الى أين أنتم ذاهبون؟»

هتف اندراوس «الى مملكة السماء! ألا تأتي؟»
«اسمع يا اندراوس، قل كلاماً عاقلاً. إن كنتم متوجهين الى مجدلة لحضور مراسم الزفاف، فلانا معكم. في الواقع أن نشائيل أيضاً دعائي. انه يزوج ابن أخيه»

هتف يعقوب قائلاً له «ألا تذهب الى مكان أبعد من مجدلة؟»
اجابه فيلبس «لدي قطيع غنم. أين أتركه؟»
قال يسوع دون أن يلتفت «في رعاية الرب»
«ستاكله الذئاب»

هتف يوحنا «فلتفعل»

أخيراً قال الراعي مستنجعاً، يا الهي لقد جُنَّ الشباب تماماً.
ثم أخذ يصفر ليضم القطيع معاً.

واصل الصعاب مسيرهم. ومرة أخرى سار يهوذا، حاملاً عصاه
المعقوفة، في المقدمة. وكان على عجلة عظمي من أمره للوصول.
وكانت قلوب الآخرين عامرة بالفرح. كانوا يصفرون كشجارير تغرد
وكانوا يضحكون وهم سائرون. اقترب بطرس من يهوذا، القائد،
وكان الوحيد الذي يحمل سحنة حادة، لم يكن يصفر، أو يضحك،
كان يقود الركب، يعدوه توقي للوصول.

قال له بطرس بصوت خافت «أخبرني مرة واحدة ووحيدة يا
يهوذا، الى أين نحن جميعاً ذاهبون؟»

ضحك نصف وجه ذي اللحية الحمراء. قال «الى مملكة
السماء»

«كشاك مزاحاً، اكزماً للرب، وقل لي الى أين نحن ذاهبون،
انني أخاف أن أسأل المعلم».

«الى اورشليم»

قال بطرس، وهو يشد شعره الشائب «أخ» يعني مسيرة ثلاثة
أيام! لو كنت أعرف لأحضرت معي صندوقي، وزغيف خبز، وملء
يقطينة من التبيبذ، وعصاي»

هذه المرة ضحك كامل وجه ذي اللحية الحمراء. قال «آه، يا
بطرس المسكين. الكرة تتدحرج الآن ولا يمكن إيقافها. قل على

صندوقك وعلى خبزك وتبيبذك وعصاك، السلام. ألا تضهم يا
بطرس. لقد خلفنا وراءنا الدنيا، خلفنا اليابسة والبحر، وانطلقنا
في الجول، ثم مال على أذن بطرس وقال «مازال هناك متسع من
الوقت... اذهب»

قال بطرس «كيف يمكنني الآن أن أعود أدراجي؟»، ثم مدَّ
ذراعيه وراح يديرهما في كل اتجاه وكأنه محاصر. ويكاد يختنق،
وقال، مشيراً الى البحيرة، وقوارب الصيد ومنازل كفرناحوم «أصبح
الآن كل هذا بلا معنى بالنسبة لي»

قال ذو اللحية الحمراء، هاراً رأسه الكبير «أوافقك! حسن،
اذن، كف عن تدميرك، وهيا بنا».

الفصل الخامس عشر

كانت كلاب القرية هي أول من اشتتم رائحته فبدأت تنبح.
وسرعان ما ركض بعض الأولاد إلى مجدة لينزفوا النيا «انه قادم!
انه قادم!»

وكان أهالي القرية يسألون بعد أن شرعوا أبوابهم: من، يا
أولاد، من؟

«النيي الجديد!»

امتلات عثبات الدور بالنسوة الصبايا والعجائز، وترك الرجال
أعمالهم، وقفز المرضى مرحاً واستعداداً للزحف إليه ولسمه. وكان
عندئذ قد اكتسب سمعة عظيمة في المنطقة المجاورة لبحيرة
جنيسارت. كانت مواهبه وقدراته ينتشر خبرها من قرية إلى قرية
على لسان المصابين، والعميان والمشلولين الذين كان قد شفاهم:

«لقد لمس عينيّ الكيفيتين قرأت النور»

«حالاً أمرني أن أترك عكازي زحت أسير، بل بدأت أرقص»

«كانت هناك حشود من الشياطين تنهش أحشائي، فرقع يده
وأمرهم قائلاً «اخرجوا، اخرجوا وحلوا في الخنازير»، وعلى الفور

قَبِزُوا خَارِجِينَ مِنْ أَحْشَائِي، يَرْفُسُونَ، وَحَلُّوا فِي الْخَنَازِيرِ الَّتِي كَانَتْ تَرْعَى بِالْقَرَبِ مِنَ الشَّامِطِ. وَجُنْ جُنُونِ هَذِهِ الْحَيَوَانَاتِ. وَأَخَذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا يَمْتَلِي الْآخَرَ، ثُمَّ انْدَفَعَتْ هَافِزَةً إِلَى الْمَاءِ وَغَرِقَتْ»

حِينَ سَمِعَتْ الْمَجْدَلِيَّةُ الْأَخْبَارَ الطَّيِّبَةَ خَرَجَتْ مِنْ كُوْخِهَا، وَلَمْ تَكُنْ قَدْ ظَهَرَتْ عَلَى بَابِ بَيْتِهَا مَعْنَى أَنْ أَمْرَهَا ابْنُ مَرْيَمَ بِالْعُودَةِ إِلَى بَيْتِهَا وَالتَّخَلُّفِ عَنِ ارْتِكَابِ الْإِثْمِ. وَكَانَتْ قَدْ بَكَتْ وَظَهَرَتْ رُوحُهَا بِالْدمُوعِ، وَجَاهَدَتْ كَيْ تَمْحِيَ الْمَاضِي مِنْ ذَاكِرَتِهَا، كَيْ تَمْسِيَ كُلُّ شَيْءٍ - الْعَارُ، الْمَتَاعُ، وَالسَّهَرُ طَوَالَ اللَّيْلِ - لَتَوْلَدَ مِنْ جَدِيدٍ بِجَسَدِ عِزْرَاءَ. فِي الْأَيَّامِ الْقَلِيلَةِ الْأُولَى كَانَتْ تَضْرِبُ رَأْسَهَا عَلَى الْأَرْضِ وَتَعْمَلُ، لَكِنَّمَا مَعَ مَرُورِ الْوَقْتِ هَدَأَتْ، وَخَفَّ أَلْمُهَا، وَالْكَوَابِيسُ الَّتِي كَانَتْ تَعَذِّبُهَا اخْتَفَتْ. وَالْآنَ، فِي كُلِّ لَيْلَةٍ، تَحْلُمُ بِأَنَّ يَسُوعَ قَدْ أَتَى، وَفَتَحَ الْبَابَ وَكَانَهُ صَاحِبُ الدَّارِ وَجَلَسَ فِي الْفَنَاءِ تَحْتَ شَجَرَةِ الرِّمَانِ الْمَزْهَرَةِ. كَانَ قَدْ قَطَعَ مَسَافَةً طَوِيلَةً جَدًّا وَقَدْ هَذَّ الشَّعْبَ، وَغَطَّاهُ الْغُبَارُ، وَنَالَ الْكَثِيرُ مِنْ أَذَى النَّاسِ. وَفِي كُلِّ مَسَاءٍ تَسْخُنُ لَهُ الْمَجْدَلِيَّةُ الْمَاءَ، وَتَغْسِلُ لَهُ قَدَمَيْهِ الطَّاهَرَيْنِ وَمَنْ لَمْ تَفْرَشْ شَعْرَهَا وَتَجْفِفْهُمَا بِهِ. وَيَسْتَرْخِي هُوَ مَبْتَسِمًا وَيَتَسَامَرُ مَعَهَا. وَلَمْ تَكُنْ تَتَذَكَّرُ قَطُّ مَا يَقُولُهُ، لَكِنَّمَا حِينَ تَسْتَيْقِظُ فِي الصَّبَاحِ كَانَتْ تَقْفُزُ مِنَ السَّرِيرِ وَقَدْ امْتَلَأَتْ مَرَحًا وَحُبُورًا؛ وَخِلَالِ الْأَيَّامِ الْقَلِيلَةِ الْآخِرَةِ أَصْبَحَتْ تَغْرُدُ - بِصَوْتِ خَفِيفٍ، حَتَّى لَا يَسْمَعَهَا الْجِيرَانُ - تَغْرِيدًا عَذْبًا وَكَانَهَا طَائِرُ حُسُونٍ. وَالْآنَ، بَعْدَ أَنْ سَمِعَتْ صِيَاحَ الْأَطْفَالِ مَعْلَنِينَ عَنْ قَدُومِهِ، قَفْزَتْ وَاقْفَةً، وَأَرَخَتْ مَتَدِيلَهَا حَتَّى غَطَّى كَامِلَ وَجْهِهَا الَّذِي كَمْ تَلْقَى مِنْ قَبْلَاتٍ، فِيمَا عَدَا عَيْنَيْهَا الْكَبِيرَتَيْنِ، اللَّتَيْنِ يَحِيطُ بِهِمَا الْمَوَادُّ، وَرَفَعَتْ مِزْلَاجَ الْبَابِ وَخَرَجَتْ لَتَسْتَقْبِلَهُ.

فِي هَذَا الْمَسَاءِ كَانَتْ الْحَرَكَةُ تَدْبُ فِي الْقَرْيَةِ كُلِّهَا. فَالْصَّبَابَا بِدَانَ يَضَعْنَ خَلِيهِنَّ وَيَهَيِّئْنَ الْمَصَابِيحَ اسْتِعْدَادًا لِحَفْلِ الزَّهَافِ. كَانَ

ابْنُ أَخُو نَثَانِيَلِ يَسْتَعِدُّ لِلزَّوْاجِ. وَكَانَ اسْتِكَافِيًّا كَعَمَّتِهِ، فَتَى لَحِيمًا، أَسْمَرًا، ضَخْمَ الْجَنَةِ، بَانْفٍ أَشْبَهَ بِالنَّبُوتِ، أَمَّا الْعُرُوسُ، الْمَحْجُوبَةُ بِخُمَارٍ مِنَ السَّمَاعَةِ بَعِثَتْ لَمْ يَكُنْ يَرَى مِنْهَا غَيْرَ عَيْنَيْهَا اللَّتَيْنِ حُفِرَ لِهَمَّا مَكَانٌ فِيهِ، وَهَرَطِيهَا الْقَضِييْنِ الْكَبِيرَيْنِ فِي أَذْنِيهَا، فَكَانَتْ جَالِسَةً عَلَى كُرْسِيٍّ ذِي ذِرَاعَيْنِ مَرْتَفِعٍ فِي وَسْطِ الدَّارِ، تَنْتَظِرُ الْحَبِيرَ كَيْ يَأْتِيَ وَيَنْشُرَ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ وَيَقْرَأَ مِنْهُ الْمُبَارَكَةَ، وَأَخِيرًا تَنْتَظِرُ لِحَلَّةٍ يَغَادِرُ الْجَمِيعَ وَتَبْقَى وَحْدَهَا مَعَ أَنْتَاهَا النَّبُوتِيِّ.

سَمِعَ نَثَانِيَلُ صِيَاحَ الْأَطْفَالِ «أَنَّهُ قَادِمٌ أَنَّهُ قَادِمٌ»، فَخَرَجَ مَسْرِعًا لِيَدْعُو أَصْدِقَاءَهُ إِلَى حَفْلِ الزَّهَافِ. فَالْفَاهِمُ جَالِسِينَ بِجَوَارِ الْبُشْرِ عِنْدَ مَدْخَلِ الْقَرْيَةِ، يَشْرَبُونَ الْمَاءَ لِيَطْفِئُوا ظَمَأَهُمْ. وَكَانَتْ الْمَجْدَلِيَّةُ رَاكِعَةً أَمَامَ يَسُوعَ، وَقَدْ غَسَلَتْ قَدَمَيْهِ وَبَدَأَتْ الْآنَ تَجْفِفُهَا بِشَعْرَهَا.

قَالَ «الَّيْلَةُ حَفْلُ زَهَافِ ابْنِ أَخِي، فَارْجُوا أَنْ تَتَلَطَّفُوا وَتَحْضُرُوا الْعُرْسَ. سَوْفَ نَشْرَبُ النَّبِيذَ الْمُصْنُوعَ مِنَ الْعِنَبِ الَّذِي عَصَرْتَهُ فِي هَذَا دَارِ زَيْدِي هَذَا الصَّيْفِ»

ثُمَّ انْتَفَتَ إِلَى يَسُوعَ «أَنَا تَسْمَعُ الْكَثِيرَ عَنْ قُدَّاسَتِكَ يَا ابْنَ مَرْيَمَ، أَمْنَجَنِي شَرَفَ مَجِيئِكَ لِمُبَارَكَةِ الزَّوْجَيْنِ الْجَدِيدَيْنِ حَتَّى يَنْجِبَا ذَكَرًا، مِنْ أَجْلِ مَجْدِ إِسْرَائِيلَ»

نَهَضَ يَسُوعَ وَاقْفًا، وَأَجَابَ «أَنْ أَفْرَاحَ النَّاسِ تَسْعِدُنَا، أَيُّهَا الرِّفَاقُ، هِيَا بَنَاءَ»

أَمْسَكَ بِيَدِ الْمَجْدَلِيَّةِ وَأَعَانَهَا عَلَى النُّهُوضِ. قَالَ «رَافِقِينَا يَا مَرْيَمَ»

وَسَارَ فِي الْمَقْدَمَةِ وَهُوَ يَشْعُرُ بِالْخِذْلَانِ، فَقَدْ كَانَ يَحِبُّ الْمَشَارَكَةَ فِي الْأَحْتِفَالَاتِ. كَانَ يَحِبُّ وَجُوهَ النَّاسِ الْمَتَوَرَّدَةِ، وَيَحِبُّ أَنْ يَرَى الشَّبَانَ يَتَزَوَّجُونَ وَيَحَافِظُونَ عَلَى النَّارِ مُشْتَغَلَةً فِي الْمَوْفِدِ. كَانَ يَفْكُرُ

وهو متوجه الى موقع العرس بأن الثباتات، والخنافس، والطيور،
والحيوانات، والناس - كلها مقدسة، كلها مخلوقات الرب. لماذا
نعيش؟ انها تعيش لتعبد اسم الرب. إذن، فلتعش الى أبد الأبدين!
كانت الفتيات المستحعات حديثاً واقفات بأروابهن البيضاء
خارج الباب الغني بالخراف، كن يحملن المصابيح المضاء بأيديهن
ويغنين أغاني قديمة خاصة بالأعراس تعدح العروس، وتضابق
العريس ويدعين الرب كي يتلطف ويأتي لينضم الى بقية الصاحب،
شمة حفل زفاف يقام، وشباب اسرائيلي يتزوج، والجسدان اللذان
سيقترنن هذه الليلة قد تنجبا المسيح.. كانت الفتيات تغني للزوجة
الوقت، فقد تأخر العريس، كن بانتظار أن يجي ليفتح الباب بقوة
ولتبدأ مراسم الزفاف.

ولكن بينما هن يغنين ظهر يسوع مع موكبه. التفتت العذارى،
وحالما رأين المجدية انقطع غنائهن فجأة وتراجعن، وهن يحدن
اليها. ما شأن هذه الفاسقة بين العذارى؟ أين كبير القرية العجوز
ليأتي ويحبسها؟ لقد تأوت العرس! والتفتت أيضاً النساء المتزوجات
وألقين عليها نظرة ضارية؛ وصرت ترى موجة بعد موجة من
التحركات بين حشود الضيوف الغمغمين، وبين سيدات البيوت
المحترمات، اللواتي كن يدورن منتظرات خارج الباب المغلق، ومع
ذلك كانت المجدية متألقة، أشبه بمشعل وضاء. كانت واقفة بجوار
يسوع تشعر أن روحها عادت عذراء من جديد وأن شفيتها لم تلقيا
أي قبلة بعد. وفجأة أفسح الحشد السبيل وإذا بكبير القرية
العجوز، الضئيل الجسم، جاف العود، أنفه يقطر سماً، يقترب من
المجدية ويلمسها بطرف عصاه ويومئ اليها أن ارحلي.
شعر يسوع بالنظرات الحقود للناس على يديه، ووجهه وصدره
المكشوف، واشتعلت الحرارة في جسده، وكان أشواكاً لا تحصى

تخزه، وراح ينقل نظره من الرئيس العجوز، الى الزوجات الوفيات،
والرجال العايسين والعذارى المرتبكات، وتنهّد، الى متى سستل
عيون الناس عنياء لا ترى أن الجميع أخوة؟

تعالك الهمهمات، وصارت تتردد في الظلام أصداء التهديدات
الأولى، وتقدم نشائيل ليتحدث الى يسوع، لكن المعلم دفعه بهدوء
جانباً، وبعد أن شق طريقه بين الحشد، تقدم من جمع العذارى،
ترنحت المصابيح في أيديهن وأفسح له طريق للمرور، ثم توقف
وسطهن ورفع يده «يا أخواتي العذارى، إن الرب مسح على قمي
واسر إلي بكلمة طيبة لأقولها لكن في ليلة العرس المقدسة هذه، يا
أخواتي العذارى، اقتحن أذانكن، اقتحن قلوبكن؛ وأنتم يا أخوتي،
هدوءاً، فساكنكم»

التفتوا جميعاً اليه، وهم مضطربون، واستشف الرجال في نبرة
صوته أنه غاضب، أما النسوة فشعرت بحزنه، وسكت الجميع.
وسمع موسيقيان كفيفان واقفان في قناء الدار يدوزنان عوديهما.
رفع يسوع يده، قال «يا أخواتي العذارى، ماذا في ظنكن تشبه
ملكة السماء؟ انها أشبه بحفل زفاف، الرب هو العريس، وروح
الانسان هي العروس. يقام حفل زفاف في السماء، فيدعى اليه
الجنس البشري كله، سامحوني يا أخوتي، لكن الرب هكذا يكلمني،
بلغة الأمثولات، وبلغة الأمثولات سأحدثكم الآن:

«يحكي أن حفل زفاف أقيم في إحدى القرى، وخرجت عشر
من العذارى الحاملات المصابيح لاستقبال العريس، خمس منهن كن
حكيمات فأخذن معهن قوارير مملوءة بالزيت، والخمس الأخريات
كن حمقوات فلم يحملن معهن كمية زائدة من الزيت. ووقفن خارج
منزل العروس ورحن ينتظرن وينتظرن، لكن العريس تأخر فنال
منهن التسع قنمن، وفي منتصف الليل سمع هتاف «انظروا،

العريس قادم! هلموا بسرعة لاستقباله!». وثبت العذارى العشر ملء مصابيحهن التي كادت أن تطفئ. لكن العذارى الخمس الحمقاوات لم يكن لديهن زيت، فقلن للعذارى الحكيمات «أعطينا قليلاً من الزيت يا أخوات، فمصابيحنا تكاد تطفئ»، لكن الحكيمات أجبن «ولكن لم يبق لدينا شيء لكن اذهبن واحضرن بعضه». وبينما كانت العذارى الحمقاوات يهرعن لاحتضار الزيت، وصل العريس، ودخلت العذارى الحكيمات معه، وأغلق الباب.

بعد قليل عادت العذارى الحمقاوات، ومصابيحهن مضأة، وأخذن يقرعن الباب، ويهتفن متاشدات «افتحوا لنا الباب»، لكن العذارى الحكيمات كن يضحكن في الداخل، ويجبنهن «لقد نلت ما تستحقون. والآن لقد أقفل الباب، فارجعن». لكن الأخريات رحن يكيبن ويتوسلن «افتحوا الباب! افتحوا الباب! افتحوا الباب!»، ومن ثم...

هنا توقف يسوع. ومرة أخرى راح ينقل بصره من الرئيس العجوز، إلى الضيوف، وسيدات البيوت المحترمات، والعذارى ذوات المصابيح المضأة. وأبتسم.

قال نشايل «ثم ماذا؟»، وكان ينصت وقمه فاعز، وقد بدأ عقله البسيط، البليد، يتشط، «ثم ماذا، يا معلم، ماذا كانت النتيجة؟» سألته يسوع، وهو يثبت نظره عينيه الكبيرتين الشائنتين عليه «ماذا كنت تفعل يا نشايل لو كنت أنت العريس؟»

لزم نشايل الصمت، فلم يكن قد انضح في ذهنه ما كان يمكن أن يفعله. وخطر له لبرهة من الزمن أنه كان سيصرفهن، فالباب قد أوصد دون شك، وهذا ما يحتمله القانون، لكنه في اللحظة التالية شعر بالاشفاق عليهن وفكر في السماح لهن بالدخول. عاد يسوع يسأله «ماذا كنت ستفعل يا نشايل لو كنت أنت

العريس؟» وكانت عيناه المتوسلتان تداعبان ببطء، والحاح الوجه البسيط والصريح للاسكافي.

أجابته الآخر بصوت خفيض لكي لا يسمعه الرئيس العجوز «كنت فتحت لهن الباب، وكان غير قادر على مواجهة عيني ابن مريم.

قال يسوع بسعادة «تهاني، يا صديقي نشايل»، ومد يده نحوه وكأنه يباركه، «في هذه اللحظة دخلت الجنة، وإن كنت ماتزال حياً تُرزق. لقد فعل العريس تماماً كما قلت: نادى على الخدم وأمرهم بفتح الباب. وهتف «هذا حفل زفاف، فليأكل الجميع، وليشربوا وليمرحوا. افتحوا الباب للعذارى الحمقاوات واغسلوا لهن أقدامهن وانعشوها، فقد ركضن كثيراً،

انهمرت الدموع سخية من بين رموش المجدلية الطويلة. أم، ليت كان بوسعها فقط أن تقبل القم الذي تلفظت بتلك الكلمات! احمرّ نشايل الساذج من رأسه وحتى أطراف أصابع قدميه وكأنه كان بالفعل قد أصبح في الجنة. لكن صاحب الأنف العجوز الذي يقطر سماً كبير القرية، رفع عصاه، وصرخ:

«أنت تنافض القانون يا ابن مريم»

أجاب يسوع بهدوء «القانون يناقض ما في قلبي»

كان مايزال يتكلم حين ظهر العريس، وقد امتحّم، وتطيّب، وتوجّ رأسه الضخم ذا الشعر المجعد اكليل أخضر. وكانت يضع كؤوس من النبيذ قد جعلت مزاجه في أحسن حال، وكان أنفه متالفاً. وبضربة واحدة دفع الباب فانتفتح، وتدفق الضيوف من خلفه، ودخل أيضاً يسوع، ممسكاً المجدلية من يدها.

سأل بطرس يوحنا بصوت منخفض «أيهن العذارى الحمقاوات، وأيهن الحكيمات؟ ماذا فهمت من الأمثلة؟»

أجاب ابن زبدي «أن الرب هو أبونا»

وصل الحبر وأقام المراسم. وبعد ذلك جلست العروس مع العريس في وسط الدار، ومزّ الضيوف عليهما على شكل رتل، يقبلونهما معبرين عن تمنياتهم بأنجاب مولود ذكر حتى يخلص إسرائيل من عبوديتها، ثم بدأت آلات العود تعزف. ورقص الضيوف وشربوا. ورقص يسوع مع صحبه وشربوا معهم، وعمرت الساعات، وحين ظهر القمر نهضوا وواصلوا رحلتهم، كان الوقت خريفاً عندئذ، ولكن لم تكن حرارة الجو قد خفت، وكان من الممتع الترحال وسط رطوبة الليل المنعشة.

تقدموا ميممين وجوههم شطر أورشليم. وكان الشراب قد أدار رؤوسهم وأصبحوا يرون كل شيء على غير هيئته. صارت أجسادهم خفيفة، كالأرواح. كانوا يسيرون بأقدام مجنحة، نهر الأردن على يسارهم، وعلى يمينهم يمتد سهل زابولون، وديعاً وخصباً تحت ضياء القمر، وكان تعباً ومطمئناً هذا العام أيضاً، بعد أن أنجز مرة أخرى المهمة التي عهد بها الرب اليه على مدى قرون لا تحصى: أن يوصل طول نبات القمح حتى قامة الانسان، وأن يثقل الكروم بالعنب وأشجار الزيتون بالزيتون. وهامو مستلق الآن، تعباً ومطمئناً، كأم وضعت لثيها مولودها.

كرر بطرس مرة بعد مرة «أي فرح هذا يا أخوتي»، كان ابتهاجه بهذا المسير الليلي واستمتاعه بالصحية لا يشبعان «هكذا حقيقة؟ أم حلم؟ هل كنا مسحورين؟ انني أشعر، وأنا بحالتي هذه، برغبة في أن أغني، والا سأنفجر»

هتف يسوع «فلنغن كننا معاً، وتقدمهم، شامخاً برأسه، وكان أول البسادين بالغناء. كان صوته ضعيفاً، لكنه عذب ومملوء بالعنفوان. وعلى جانبيه صدح صوتا يوحنا وأندراوس، شجيان

ورقيقان. ظلت هذه الأصوات الثلاثة العالية تغرد وحدها بشماوج جميل. وكان انسيابها شديد الرقة. حتى لتكاد دقات قلبك تنقص دقة: وتقول لنفسك، لن يتمكنوا من الاستمرار: إن شدة الحلاوة سوف تصيبهم دون شك واحداً بعد آخر، بالدوار والغثيان. لكن الأصوات انبجست مندفعة من نبع شديد العمق وكلما أوشكت أن تتداعى، تعود لتثبت من جديد، وفجأة - يا للفرح! يا لها من قوة! - شقت أصوات الباريتون^(١) لبطرس، ويعقوب ويهوذا الجو، قوية، مبهجة بالنصر، وملؤها الرجولة، وصدحت المجموعة معاً، كل بما لديه من جمال صوت وقوة، حتى وصل الصوت الى عنان السماء بترنيمة متהלلة حول الرحلة المقدسة:

أه، لشيء أفضل أو أعذب

من أخوة يرتحلون معاً

انه أشبه بالزيت المقدس الذي

يجري من لحية هارون،

أشبه ببندي حرمون الذي

يسقط على جبال صهيون.

هناك، يمنح الرب بركته، والحياة

الى أيد الأبدين.

وعمرت الساعات، وخبت النجوم، وبزغت الشمس. خفّوا وراءهم تربة الجليل الحمراء، ليطأوا تربة السامرة السوداء.

توقف يهوذا، واقترح قائلاً «فلنغير درينا، هذه أرض مهرطقة ملعونة. فلنغير جسر نهر الأردن ونسير على الضفة الأخرى. من الائم أن نلعب أولئك الذين ينتهكون القانون. إن إلههم ملوث وكذا

١ - الجهير الأول: الصوت الرجالي الوسط ما بين الجهير والصاوح.

مياهم وخبزهم. كانت امي تقول لي إن لقمة من الخبز السامري
لهي لقمة من لحم خنزير... هيا نغير الطريق!»

لكن يسوع أمسك يدهو بيد يهوذا وواصل الطريق معاً، وقال
له «يا يهوذا يا أخي، حين يلمس رجل طاهر رجلاً فاسداً، يصبح
الفاقد طاهراً. لا تعترض. نحن أثينا من أجلهم، من أجل الأثمين.
ماذا يستفيد الصالح منا؟ هنا في السامرة يمكن لكلمة طيبة أن
تخلّص روحاً. كلمة طيبة، يا يهوذا، كلمة طيبة، ابتسامة لسامري
عابر سبيل. اتفهم؟»

أتى يهوذا نظرة مأكرة فيما حوله ليتأكد من أن الآخرين لا
يسمعون، ثم قال بصوت متخفّض «ليست هذه هي الطريق الصحيحة
ولكن سأصبر حتى نصل الى الناسك البري. وهو سيعطي حكمه.
وحتى ذلك الحين، اذهب حيث تشاء. افعل ما تشاء. ولن أتركك»
ثم وضع عصاه المعقوفة على كتفيه وسار في المقدمة، وحده.

كان الآخرون يتسامرون أثناء مسيرهم. وكان يسوع يحدثهم
عن المحبة، والآب، ومملكة السماء، وشرح لهم أي الأرواح تمثل
العذارى الحمقاوات، وأياها يمثل الحكيمات، وعن مغزى المصاييح
والزيت، وماذا يمثل العريس ولماذا لم يكتف بالسماح للعذارى
الحمقاوات بالدخول الى المنزل. كنظيراتهن الحكيمات، بل حظين
وحدن بأن يغسل لهن الخدم أقدامهن المتعبة. وبينما كان الرفاق
الأربعينصتون، اتسع أفق عقولهم، واستوعبوا كل ما قيل لهم، وثبتت
قلوبهم. عندئذ تبدى لهم الائم على صورة عذراء حمقاء واقفة
ومصباحها المطفأ في يدها، تتوسل وتبكي امام بوابة الرب...

ساروا وساروا. ثم اكفهرت السموات من فوقهم بالغيوم، وأظلم
وجه الأرض، وفاح الجو برائحة المطر.

وصلوا الى القرية الأولى. عند سفح جريزيم، الجبل المقدس

عند آياتهم. وعند مدخل القرية، التي تكنفها اشجار التخليل
وعيدان القصب، كان بشر يعقوب القديم العهد. قالى هنا جاء
الشيخ الجليل مع غنمه ليسحب الماء ويشرب، كانت حافة البئر
الحجرية قد تاكلت بفعل الجبال التي حشّت عليها على مدى أجيال
وأجيال.

شعر يسوع بالتعب. لقد جرحت الحجارة قدميه، وأخذتا
تتزعقان. قال «سامكت هنا. أما أنتم فادخلوا القرية واقرعوا على
الأبواب. لايد أنكم ستقابلون انساناً طيباً يمنحنا رغيفاً من الخبز
صدقة، وستأتي احدي النساء الى البئر لتسحب ماءً من اجلنا
لنشرب. كونوا مؤمنين بالرب، وبالناس»

غادر الخمسة، ولكن في الطريق غيّر يهوذا رأيه، وقال «لن
أدخل القرية الملوثة، ولن أكل من الخبز الملوث. سامكت هنا تحت
هذه التينة وانتظركم»

كان يسوع في هذه الأثناء قد اضطجع في ظل عيدان القصب.
كان عطشاً، لكن البئر عميقة: كيف يسعه أن يشرب؟ مال برأسه
واستسلم للأفكار. لقد سار في طريق شاقة، جسمه ضعيف. وناله
التعب، وتراخت ركبتاه. ولم يعد لديه من القوة مايدعم روحه،
فوقع، لكن الرب كان دائماً يرسل اليه على الفور نسيماً لطيفاً،
فيمسح جسمه قواه وينهض ليواصل مسيره. الى متى؟ احتى
الممات؟ حتى ما بعد الموت؟

بينما هو يفكر في الرب، والانسان والموت، تحركت عيدان
القصب وإذا بامرأة شابة تتعلّى بالأساور والأقراط وتحمل جرة على
رأسها وتقترب من البئر ثم تنزل جرتها وتضعها على الحافة. رآها
يسوع من خلال عيدان القصب وهي ترخي الحبل الذي كانت تحمله
وتنزل الدلو، ثم ترفع الماء وتعلأ به الجرة. وزاد احساسه بالعطش.

برز من بين عيدان القصب، وقال «يا امرأة، أعطني لأشرب»

أجفلت المرأة من ظهوره المفاجئ أمامها.

فقال «لا تخافي، أنا رجل شريف. انني ظمآن، أعطني لأشرب»

أجابته «كيف، وأنت جليلي؟ أعرف هذا من ملابسك - تطلب

جرعة ماء مني، أنا السامريّة؟»

«لو عرفت من الذي قال لك «يا امرأة، أعطني جرعة ماء»

لخررت على قدميه وطلبت منه أن يعطيك جرعة من الماء

السرمدى لتشربي»

تحيّرت المرأة. قالت «ليس معك حبل ولا دلو، والبئر عميقة،

فكيف يمكنك أن تسحب ماءً لتعطيني منه جرعة؟»

أجابها يسوع «إن من يشرب من ماء هذه البئر سيعطش من

جديد، أما من يشرب من الماء الذي سأعطيك إياه فلن يعطش إلى

أبد الأبدين»

فقال للمرأة «سيدي، أعطني من هذا الماء حتى لا أعطش ثانية

والى أبد الأبدين أو لكي لا أضطر للمجيء كل يوم هنا إلى البئر»

قال لها يسوع «أذهبي، ونادي على زوجك»

«لا زوج لي، يا سيدي،

أنت محقة في قولك «لا زوج لي»، لأنه كان لك حتى الآن

خمس أزواج، وزوجك الحالي ليس زوجك»

سألتها المرأة، وقد ملأها الإعجاب به «سيدي، هل أنت نبي؟

هل تعرف كل شيء؟»

ابتسم يسوع، وقال «هل تودين سؤالي عن شيء؟ تكلمي ولا

تحجمي»

«نعم، هناك سؤال وأود لو تجيبني عنه، يا سيدي. إن آباءنا

كانوا دائماً يعبدون الرب فوق هذا الجبل المقدس، جريزيم والآن

ها أنتم الأنبياء تقولون إن علينا أن لا نعبد الرب إلا في أورشليم.

فمن منكم على حق؟ أين يوجد الرب؟ اترني»

أطرق يسوع رأسه ولم ينطق. هذه المرأة الخاطئة، التي تتعذب

أيما عذاب بسبب قلقها حول الرب، أهاجت قلبه في عمقه. وجاهد

أكراماً لها، جاهد في دخيلته للعشور على الكلمات المناسبة

ليواسيها. وفجأة رفع رأسه، وكان وجهه يشع.

«يا امرأة، احفظي ما سأقوله لك عميقاً في قلبك. سيأتي يوم

- وقد جاء فعلاً - لن يعبد فيه الناس الرب لا فوق هذا الجبل ولا

في أورشليم. الرب روح، والروح يجب أن لا تعبد إلا في الروح»

تبيل فكر المرأة، فعالت وراحت تنظر بقلق إلى يسوع. ثم

سألته ببطء وبصوت يرتعش «أيمكن أن تكون... أيمكن أن تكون

أنت هو المختار الذي تنتظرون؟»

«من ذا الذي تنتظرونه؟»

«أنت تعرفه. لماذا تريدني أن أنطق اسمه؟ أنت تعرفه. إن

شفعتي آثمتان»

أطرق يسوع رأسه حتى لامس صدره. بدا وكأنه ينصت إلى

وجيب قلبه، ويتوقع منه أن يعطيه الجواب. وانتظرت المرأة، وهي

تميل نحوه، بقلق محموم.

ولكن بينما الاثنان المضطربان واقفان يرين عليهما الصمت،

سمعا أصواتاً فرحة ثم ظهر الحواريون، يلوّحون بحركة انتصار

يرغيف من الخبز. ولما وجدا المعلم مع امرأة غريبة توقفوا. ابتهج

يسوع لرؤيتهم، لأنه بهذا تخلص من عبء الإجابة عن سؤال المرأة

الرهيب. وأوماً إلى رفاقه ليقتربوا.

نادى «تعالوا، هذه المرأة الطيبة جاءت من القرية، أرسلها الرب

لتسحب لنا ماءً ننشربه»

اقترب الرفاق، كلهم ماعدا يهوذا، الذي تنحى جانباً لكي يتجنب التلوث بماء السامرية.

أما لت المرأة جرحها، وشرب الرجال الظمأى. أعادت ملء الجرة، ثم وضعتها بشكل بارع على رأسها وواصلت طريقها إلى القرية، مشغولة البال وصامتة.

سأل بطرس «من تلك المرأة يا معلم؟ كنت تتحدث معها وكأنما يعرف أحدهما الآخر منذ سنين وسنين»

أجاب يسوع «كانت إحدى اخواتي، وطلبت منها جرعة ماء لأطفئ ظمأى، فأطفأت ظمأها»

حكَّ بطرس مجتمه الكبيرة، وقال «أنا لا أفهم»

أجاب يسوع، وهو يريث على رأس صديقه الشاب «لا يهم. لأنك «شيق الصدر. سوف تفهم في الوقت المناسب، شيئاً فشيئاً... أما الآن فنحن جائعون، هيا نأكل!»

اضطجعوا تحت أشجار النخيل، وبدأ اندراوس يحكي كيف دخلوا القرية وأخذوا يطلبون الصدقات «رحنا ندق أبواب المنازل فاستقبلنا بصيحات الاستهزاء والاستهجان وطوردنا من باب إلى باب. وأخيراً، في الطرف الآخر للقرية، فتحت امرأة عجوز باب دارها نصف فتحة وراحت تستكشف بحذر الطريق من الجهتين. لم يكن هناك أحد. فتناولتنا خلسة رغيفاً من الخبز وعلى الفور أغلقت الباب. اختطفناه منها وأسرعنا نلوثاً بالضرار»

قال بطرس «المؤسف أننا لا نعرف اسم السيدة العجوز، يمكننا أن نطلب من الرب أن يذكرها»

ضحك يسوع، وقال «لا تقلق بهذا الشأن يا بطرس، فالرب يعرف اسمها»

تناول يسوع الخبز، وباركه، وقدم شكره للرب لأنه وضع السيدة

العجوز في طريقهم لتتصدق به عليهم، ثم قسمه إلى ست قطع كبيرة، وأعطى واحدة لكل واحد من رفاقه. لكن يهوذا دفع عنه حصته بعيداً بعصاه وأدار وجهه. قال «أنا لا أكل خبزاً سامرياً. أنا لا أكل لحم الخنازير»

لم يجادلته يسوع. كان يعلم أن قلب يهوذا قاس ويحتاج ترفيقه إلى بعض الوقت - إلى وقت ومهارة والكثير من المحبة.

قال للأخريين «سوف نأكل، والخبز السامري سوف يصبح جليلاً حين يأكله الجليليون، ويصبح لحم الخنازير لحمًا بشرياً حين يأكله بشر. إذن، باسم الرب»

باشراً الرفاق الأربعة الأكل وهم يضحكون ويتلذذون. وكان مذاق الخبز السامري لذيذاً، ككل أنواع الخبز، وغمرهم التيه. بعد تناول الطعام شبكوا أيديهم، ومن شدة تعبهم ناموا - جميعهم ماعدا يهوذا، الذي ظل مستيقظاً وأخذ يضرب عصاه على الأرض وكأنه يجادلها. قال في نفسه الجوع أفضل من العار، مما عزاه. بدأت أول قطرات المطر تضرب عيدان القصب، فقفز النائمون واقفين على أقدامهم.

قال يعقوب «انها تباشير المطر. وسوف تطفئ الأرض عطشها» لكن حين بدأوا يفكرون في إيجاد كهف يحتمون فيه، هبت ريح من الشمال وطردت الغيوم، وصفت السماوات، وتابعوا مسيرهم.

التمعت ثمار التين الملتصقة على أشجار التين في وجه الهواء الرطب. وكانت شجيرات الرمان منقلة بالثمار. مد الصاحب أيديهم وقطفوا بعض ثمار الرمان واستمتعوا بأكملها. ورفع المزارعون رؤوسهم عن عملهم في الأرض. وبدأ عليهم الدهول لدى مزاى الجليليين. ماذا يشعلون في السامرة؟ لماذا يختلطون بالسامريين ويأكلون من خبزهم ويقطفون ثماراً من أشجارهم؟ يجب أن يغربوا عن أبصارنا. وبسرعة!

ولم يحتمل أحد الرجال المعجزة مرأهم، فترك بستانه واعترض سبيلهم. صرخ بهم «هيه، أيها الجليليون، إن قانونكم النغل يصب على أرضنا المظاهرة التي تملأونها الآن لعنة الحرم. فعاذا تفعلون على أرضنا؟ اغربوا عن أبصارنا!»

أجابهم بطرس «نحن متوجهون إلى اورشليم المقدسة لتنعبد، ثم وقف أمام المعجزة ونفخ صدره في وجهه.

رعد المعجزة قائلاً «يجب أن تعبدوا هنا، أيها المرتدّون، على قمة جريزيم، الجبل الذي ومّاه الرب. ألم تقرأوا الكتاب المقدس قلم؟ هنا عند سفح جبل جريزيم، تحت أشجار السنديان، ظهر الرب لسيدنا إبراهيم. أراه الجبال والسهول المحيطة به من كل جانب، من جبل حبرون إلى إيدوميه وأرض الميدين، وقال له «انظر إلى الأرض الموعودة، أرض تقيض بالحليب والعسل. لقد قطعت لك عهداً بأن أهديتها إليك، وسوف أهي بعهدي»، ثم تصافحاً وختماً على المعاهدة، اتسمعون، أيها الجليليون؟ هذا مايقوله الكتاب المقدس، لذا، فكل من أراد أن يتعبد فليتعد هاهنا في هذه الأرض المقدسة وليس في اورشليم، التي تقتل الأنبياء!»

قال يسوع بصوت هادئ «كل أرض مقدسة، أيها المعجزة، الرب موجود في كل مكان، أيها المعجزة، ونحن جميعاً أخوة التفت الآخر، وقد تملكته الدهشة، قال «والسامريون والجليليون أيضاً»

«والسامريون والجليليون أيضاً، أيها المعجزة - واليهود، الكل» استغرق المعجزة في تفكير عميق، وهو يمسّد لحيته. وراح يتفحص يسوع من قمة رأسه إلى طرف أصبع قدمه. وأخيراً سأل «والرب والشيطان أيضاً؟»، قال هذا بصوت منخفض حتى لا تسمعه القوى الخفية.

ارتعب يسوع. لم يسأله أحد قط إن كانت رحمة الرب هي من العظم بحيث أنه في يوم ما سيغفر حتى للشيطان ويرحب بعودته إلى مملكة السماء.

أجاب لا أدري، أيها المعجزة، لا أدري. أنا إنسان واهتمامي منصب على الناس، أما مايقع أبعد من هذا فهو من شأن الرب» لم يفهم المعجزة بكلمة. وأخذ، وما يزال يمسّد لحيته وهو مستغرق في تفكير عميق، يراقب عابري السبيل يواصلون مسيرهم، اثنين اثنين، ويتوارون تحت الأشجار.

هبط الليل، وهب هواء بارد. عثروا على كهف فتوغلوا داخله ورضوا معاً على شكل كرة ليظلوا دافئين. وكان قد تبقى لكل منهم قطعة من الخبز فاكلوا. ثم خرج ذو اللحية الحمراء وجمع حطباً وأشعل ناراً مما بعث الحياة في الصخب، وجلسوا على شكل دائرة يراقبون السنة اللهب يخيم عليهم الصمت، يسمعون صفير الريح، وعواء أبناء آوى، وقصص رعود مكتومة بعيدة آتية تتدحرج من أعلى جبل جريزيم. وتمكنوا من أن يروا في فتحة الكهف نجمة كبيرة في السماء تريح النظر، ولكن سرعان ما تجمعت الغيوم وحجبتها، أغمض الرفاق عيونهم وانكأوا برؤوسهم بعضهم على أكتاف بعض. والقي يوحنا سرّاً رداءاً صوفياً كان يرتديه على ظهر يسوع، ونام الجميع، وهم متضمّنون بقوة معاً كالوطاويط.

في اليوم التالي دخلوا اليهودية. ولاحظوا بالتدريج تبدل أنواع الأشجار. فقد أصبحت تحف بالدرب أشجار الحور ذات الأوراق الصفراء وأشجار الخرنوب المثقلة بشمارها، وأشجار الأرز العتيقة كانت المنطقة صخرية، قاحلة، وعرة، حتى الفلاحون الذين ظهروا على الأبواب الواطئة، المعتمة كانوا كأنهم قدوا من حجر الصوان. وبين الحين والآخر كانت تبرز لهم من بين الصخور زهرة

برية زرقاء، بسيطة وجميلة، وأحياناً كانوا يسمعون وسط الوحشة
الخرساء، من عمق وهدوء، فوقاة طائر حجل. وحين يسمعه يسوع
يقول في نفسه، لا بد أنه عثر على رشفة ماء فتزل ليشربها، ويكاد
يستشعر صدر الطائر الدافئ في كفه قببتهج.

حين اقتربوا من اورشليم أخذت طبيعة الأرض تزداد قساوة
باضطراد، إن الرب أيضاً يتبدل، الأرض هنا لا تضحك كما كانت
في الجليل، والرب، ذاته، مثل القرى والناس، كان قد قُد من حجر
الصوان، والسموات، والتي حاولت في السامرة للحظة على الأقل
أن تمطر وتنعش القرية، كانت هنا أشبه بالحديد الحامي حتى
الاحمرار. وتقدم الصنحب لاهثين داخل هذا القرن العميق، وحين
حل الليل من جديد، شاهدوا مجموعة كبيرة من الأجداد حفرت
في الصخور تشع بالضياء بالرغم من سوادها. إن آفاً من
أجدادهم قد تعفّنوا داخلها وعادوا فاستحالوا حجراً. توغلوا داخل
الأحداث الخاوية، واضطجعوا واستسلموا باكراً للنوم، ليكونوا
نشيطين لدى دخولهم المدينة المقدسة في اليوم التالي.

وحده يسوع لم يتم. راح يتجول في أرجاء الأجداد، يرهف
سمعه لصوت الليل كان قلبه مضطرباً، ففي داخله أصوات غامضة
وعويل عظيم، وكان آلاف الرجال المتألمين يصرخون... وقرابة
منتصف الليل هبات الريح وعمّ السكون الليل، ثم شقت صرخة
تقطر القلوب هذا الصمت. في أول الأمر ظن انه ابن أوى جاثج،
لكنه أدرك، وقد مسّه الرب، أنها صادرة عن قلبه.

غمغم قائلاً «رب، من الذي يصرخ داخلي؟ من الذي يبكي؟»
أحس بالتعب، فدخل بدوره الى أحد الأجداد، وشابك يديه ثم
استسلم لرحمة الرب. وعند الفجر راوده حلم، تراءى له انه كان مع
مريم المجدلية، وأنهما معاً يطيران بسلام ودون ضجيج فوق مدينة

كبيرة، بالكاد يلامسان يرفق أسطح المنازل. وحين وصلا الى
أطراف المدينة فتح آخر باب فيها، وخرج منه رجل عجوز ضخم
الجثة. كانت له تحية طويلة منسدلة وعينان زرقاوان تلتمعان
كنجمتين. وكان كماء مرفوعين الى أعلى، ويدها وذراعاها ملطخين
بالطين. وحين رفع ناظره ورأهما طائرَيْن، هتف قائلاً «توقفا، لدي
ما أقوله لكما، توقفا».

«ماذا لديك، أيها العجوز؟ نحن منصتان»

«المسيح هو ذاك الذي يحب العالم كله. المسيح هو ذاك الذي

يموت بسبب حبه للعالم أجمع»

سأله المجدلية «ولاشي آخر؟»

صرخ العجوز بغضب «ألا يكتيكما هذا؟»

سأله المجدلية «أسمح لنا بدخول ورشتك؟»

«لا. ألا تريان أن يديّ ملطختان بالطين؟ انني أكون المسيح في

الداخل»

أفاق يسوع مجفلاً، لقد كان جسمه يحق خفيفاً؛ وشعر بأنه
يطير. لقد انبج ضوء النهار. الصنحب سبقوه بالاستيقاظ،
وأبصارهم تتنقل من صخرة الى صخرة، ومن تل الى تل، تمتد
باتجاه اورشليم.

وانطلقوا، يحدوهم التوق للوصول. وساروا، وساروا، لكن
الجيل الشامخة أمامهم بدت أنها تتقهقر على الدوام وأن الدرب
يطول ويطول.

قال بطرس قائلاً «لا أظننا ننصل أبداً الى اورشليم، يا
أخوتي. ما الذي يحدث لنا؟ ألا ترون - انها تبتأى عنا أكثر فأكثر»
أجابه يسوع «انها تقترب باضطراد. تشجع يا بطرس. فكلمنا
خطونا خطوة نحو اورشليم، تخطو هي خطوة نحونا. مثل المسيح»

سأله يهوذا، ملتفتاً بسرعة نحوه «المسيح»؟

قال يسوع بصوت عميق «المسيح قادم، أنت تعلم هذا علم اليقين يا يهوذا، يا أخي، سواء كنا نمشي بالاتجاه الصحيح نحوه أم لم تكن. فإذا قمنا بعمل طيب أو نبيل، إذا ما تظاهروا بكلمة طيبة، فإن المسيح سيبحث خطأه ويقترب منا. وإذا كنا غير صادقين، وأشراراً، وخائفين من كل شيء، فإن المسيح سيدير لنا ظهره ويبتعد، للمسيح هو اورشليم متقلبة، يا أخوتي. اورشليم في عجلة من أمرها، وكذا نحن. فلنسرع لملاقاتها! ضعوا ثقتكم في الرب وفي روح الانسان الخالدة».

حثوا الخاطئ جميعاً. وقد امتلأوا شجاعة. ومرة أخرى سار يهوذا في المقدمة، وهذه المرة كان وجهه كله يفيض بالسعادة. قال في نفسه وهو يسير، انه يحسن الكلام. نعم، ابن مريم على حق. هذا نفسه ما هتف به الحبر العجوز لنا: الخلاص متوقف علينا. فإذا عقدنا أيدينا على صدورنا فلن نتحرر أرض اسرائيل أبداً. أما إذا رفعنا السلاح فستلوح لنا الحرية.

تابع يهوذا سيره، محدثاً نفسه، ولكن فجأة توقف وقد استبدت به الحيرة، وتتم «من هو المسيح؟ من؟ أترأه يكون الناس أجمع؟» بدأت حبات من العرق تتحدر على جبينه المتقد، أترأه يكون الناس أجمع؟ هذه أول مرة تخطر بباله هذه الفكرة، وانتابه الاضطراب. أيمن أن يكون المسيح هو الناس أجمع؟ سأل نفسه هذا السؤال مرات عديدة. ثم، ما حاجتنا الى كل أولئك الأنبياء الزائفين؟ لم علينا أن نتلمس طريقنا يملؤنا الأسى، محاولين أن نعرف أيهم المسيح؟ هذا هو الجواب: الناس هم المسيح. أنا، أنت، وكل فرد منا، وليس أماننا إلا أن نرفع السلاح!

عاود مسيره، ملوحاً يهراوته في الهواء، وكان أشاء تقدمه يعبت

بسعادة بفكرته الجديدة كعبته يهراوته، وشجاة أطلق صرخة. فناماه لأحت اورشليم المقدسة، ثومض فوق جبل مزبوح القمة، جميلة، بيضاء ومتكبرة. لم يناد على الآخرين. فقد كانوا يقتربون خلفه. لقد أراد أن يستمتع بمرأها وحده أطول مدة ممكنة. كانت القصور، والأبراج وبوابات القلاع، تتلألأ في بؤبؤ عينيهِ الزرقاوين، وفي قلب كل هذا نهض الهيكل، في حمى الرب، يجلله الذهب، وخشب الأرز والرخام.

لحق بقية الصبح به. وأطلقوا يدورهم صيحات الفرح. اقترح بطرس، الليل الصداق، قال «هيا، فلنتغنُ بجمال سيدتنا، استعدوا يا رجال، كلنا معاً الآن» وبدأ الخمسة يرقصون على شكل دائرة حول يسوع، الذي وقف في الوسط لا يأتي بحركة، وراحوا يتشددون الترنيم المقدسة:

فرحت حين قالوا لي،
«انهض، هيا بنا نذهب الى بيت الرب»
وتوقفت قدماي أمام
باحاتك أه يا اورشليم.

اورشليم، يا حصناً منيعاً،
قليل السلام داخل أبراجك القوية،
والسعادة في أرجاء قصورك.
أكراماً لأخوتي وأصحابي،
ليحل سلام، سلام عليك يا اورشليم!

الفصل السادس عشر عشر

كانت أورشليم، بشوارعها، وأسقف منازلها، وساحاتها، وعبادتها، مكتسية بكاملها برداء أخضر. إنه موسم الاحتفال الخريفي الكبير، وقد أقام الأورشليميون آلاف الخيام بأغصان الزيتون والكرمة وسعف النخيل، وفروع الصنوبر والأرز، كما أمر رب إسرائيل أحياءاً لتذكرى السنوات الأربعين التي أمضاها أسلافهم تحت الخيام في البراري. كان موسم الحصاد والقطاف قد انتهى، وانتهى معه العام. وعلق الناس أثامهم كلها من رقية ذكر ماعز أسود اللون معلوف جيداً، وأخذوا يرمونه بالحجارة، وطاردوه حتى توغل في الصحراء. وبعد ذلك شعروا بارتياح جم، فقد تطهرت أرواحهم، وها قد بدأ عام جديد، وفتح الرب دفتره الجديد للحساب، وسوف يمضون ثمانية أيام في الأكل والشرب تحت الخيام الخضراء، مسبحين بأمجاد رب إسرائيل الذي يبارك الحصاد والقطاف وأرسل لهم أيضاً ذكر ماعز ليحمل عنهم خطاياهم. هو أيضاً كان مسيحاً أرسله الرب: حمل عن الناس كل خطاياهم. وهلك جوعاً في الصحراء - ومعه هلك كل خطاياهم.

غرقت ساحات الهيكل الواسعة بالدماء. ففي كل يوم كانت تذبح قطعان من القرايين للحرق. وكانت المدينة المقدسة تثنى من روائح اللحم، والروث، وعرق الشواء. وكان الجو المقدس تشرد فيه أصدااء نخع الأبواق والأنفاس. وكان الناس يغالون في الأكل، وفي الشرب، حتى اكتأبت أرواحهم. اليوم الأول كان كله تلاوة مزامير، وصلوات، وسجود، ثم ولج يهوذا خفياً، يعلوهُ الحبور، إلى خيامهم وراح بدوره يحتفل، فأكَل وشرب بشفتيه، ومسح لحيته. ولكن بدءاً باليومين الثاني والثالث، أخذ الاسراف في الأكل والشرب يؤثر على عقول الناس، وبدأت تُسمع النكات البذيئة والضحكات وأغاني الحانات الداعرة، وتضاجع الرجال والنساء بلاحياء في وضخ النهار، داخل الخيام في أول الأمر، ومن ثم علانية في الطرقات وعلى العشب الأخضر. وظهرت في كل حي أشهر عاهرات اورشليم، ملطخات بمساحيق التجميل ومضمخات بالزيوت المعطرة القوية الرائحة. ووقع المزارعون وصيادو السمك البسطاء الذين قدموا من أطراف أرض كنعان ليعبدوا قدس الأقداس، وقعوا في حبال تلك الأذرع الباربة وقد أصابهم الذهول، فلم يتخيّلوا قط أن تتضمن القبة كل ذلك القدر من المهارة والنكهة الخاصة.

حبس يسوع أنفاسه، وحث خطاه، وقد احتقن بالغضب، مجتازاً الشوارع وأجساد الناس السكارى المتدحرجة على الأرض. وأثارت فيه البروائح القذرة والقهقهات المعيبة الغثيان. وراح يحض رفاقه قائلاً «عجلوا! عجلوا!»، وأحاط بذراعه اليمنى يوحنا وبذراعه اليسرى اندراوس، وتقدم.

لكن بطرس كان يتلكأ باستمرار، ليقابل حجيجاً من الجليل قدّموا له كأساً من النبيذ، ولقمة من طعام، وانخرطوا وياها في حديث، وفكر في أن ينادى على يهوذا، ورأى أن يعقوب أيضاً

سينضم اليه - انهم لا يرغبون في أن يتيحوا لأي من أصدقائهم الذريعة للتذمر منهم. لكن الثلاثة السائرين في المقدمة كانوا في عجلة من أمرهم. وظلّوا لا يتنون ينادون على المتكثّرين لحثهم على الانطلاق من جديد.

غمغم بطرس متذمراً «يا الهي، إن المعلم لا يدعنا نتنفّس بحرية كبقية البشر. أي ورطة هذه التي وقعنا فيها؟»، وكان مزاجه قد اضحى مرحاً.

قال يهوذا، هاراً رأسه «وأيّن كنت طوال هذا الوقت أيها المسكين بطرس؟ أتظن أننا جئنا إلى هنا لنمرح؟ أتظن أننا ذاهبون إلى حفل زفاف؟»

ولكن بينما هم مسرعون سمعوا صوتاً أجشاً صادراً من إحدى الخيام، يقول «هيه، بطرس، يا ابن يوثان، أيها الجليلي القذر - ها أنت تمر مرور الكرام، ويكاد رأسنا يرتطم لك لا تلاحظني. توقف قليلاً واشرب كأساً، عندئذ سيمضو بصرك وستراني!»
ميّز بطرس الصوت فتوقف، وهتف «مرحباً! ما أسعدني بمقابلتك يا سمعان، أيها القيرواني القذر!»

ثم التفت إلى رفيقيه وقال «يا شباب، هذه المرة لا يمكننا الهروب. فلنتوقف لنشرب كأساً. إن سمعان سكير معروف، فهو يدير حانة شهيرة كائنة بجوار بوابة داوود، ويستحق أن يشنق ويُعلّق رأسه فوق عصا، لكنه في كل الأحوال إنسان طيب، ويجب أن نشرّفه بحضورنا»

والحق يقال، كان سمعان إنساناً طيباً. قدّم في شبابه بحراً من قيروان وافتنح حانة. وفي كل مرة يزور فيها بطرس اورشليم كان يحل ضيفاً على منزله. فيأكلان معاً ويشربان، ويتحدثان، ويتبادلان النكات؛ تارة يصدحان بأغنية، وطوراً يتشاجران، ثم يتصالحان من

جديد، ويشريان المزيد، وبعد ذلك يتلّغ بطرس ببطانية ممسكة، ويضمطجع على مقعد طويل ويستغرق في النوم. أما الآن فسمعان جالس في خيمة مجدولة من شروخ الكرمة، ويتأبط أبريقاً ويحمل بيده كأساً من البرونز، ويشرب، وحده.

تعاقد الصديقان، وكان كلاهما ثملاً قليلاً، وكان حب أحدهما للآخر كبيراً لدرجة أن عيونهما امتلأت بالدموع. وبعد مقدمة من الصيحات والعناق وبعد انتهاء تكرار شرب الأنخاب، بدأ سمعان بضحك.

قال «أراهن بعضاً مني على أنك ذاهب لتتلقى المعمودية. أحسنت التصرف، وسوف أمتحك بركتي. قبل أيام تعمدت، ولست نادماً على ذلك. إنه أمر مرض تماماً»

سأله يهوذا «وهل لاحظت أي تحسّن؟»، وكان يأكل، ولا يشرب. وكان ذهنه مليئاً بالأشواق.

«ماذا أقول لك، يا صديقي؟ لقد مرت سنوات كثيرة منذ أن لامس الماء جسدي آخر مرة. إن الماء وأنا طرفا نقيض. لقد خلقت لأشرب النبيذ، أما الماء فهو للشراب، لكنني في ذلك اليوم قلت لنفسي: انظر يا هذا، لماذا لا تذهب وتتعمد؟ إن الناس كلهم يذهبون، ولابد أن أجد بين المستبشرين الجدد من يشرب النبيذ. لا يمكن أن يكونوا جميعاً حقاً، وهكذا سأتعرف على عدد من الناس، وأتصيّد بعض الزبائن. الجميع يعرفون حانتي الكاتبة عند بوابة داوود... حسن، باختصار، ذهبت، كان النبي همجياً، وحشاً ضارياً - كيف أصفه؟ كأنه ينفث لهباً من منخريه - ليحمة الرب! قبض عليّ من عنقي وغمرني في الماء حتى لحيتي. ورحلت أزرق، كان ينوي أن يغرقني، الكافرا لكنني نجوت، وخرجت - وها أنا! كرر يهوذا سؤاله «هل لاحظت أي تحسّن؟»

«أقسم لك بتبيدي أن الاعتسال نفعتني كثيراً، نعم، نفعتني كثيراً وشعرت بالارتياح، وقد قال العميداني أنني تخلصت من أنامي، ولكن، بيني وبينك - أظنني إنما تخلصت من بعض يقع الشحم، لأنني حين خرجت من نهر الأردن وجدت طبقة رقيقة من الزيت طافية على وجه الماء بعمق انش».

انفجر في نوبة ضحك، وملاً كأسه، وشرب، ومن ثم شرب بطرس ويعقوب بدورهما، وأعاد ملء الكأس والتفت إلى يهوذا. قال «وأنت أيها الحداد، ألا تشرب؟ إنه نبيذ، أيها الأحقق الميارك، وليس ماء».

أجابته ذو اللحية الحمراء، دافعاً الكأس عنه «لا أشرب قط» جعظت عينا سمعان، ومائل بصوت منخفض «هل أنت واحد منهم؟»

قال يهوذا «نعم، واحد منهم»، ولوّح بيده مرة واحدة منهياً الحديث.

مرت امرأتان متبرجتان، وتوقفتا برهة وغمزتا للرجال الأربعة. سأل سمعان، محتاراً «ولا نساء؟»

أجابته يهوذا مرة أخرى بجفاف «لا نساء»

صرخ سمعان، وقد نفذ صبره «ماذا تريد إذن، يا مسكين؟ ولم خلق الرب النبيذ والنساء، ألا تخبرني؟ لترجية وقته هو، أم لترجية وقتنا نحن؟»

في تلك اللحظة اقترب اندراوس راكضاً، صرخ «هيا أسرعوا، المعلم في عجلة من أمره»

سأله صاحب الحان «أي معلم؟ ذلك ذو الرداء الأبيض، الخافي القدمين؟»

لكن الرفاق الثلاثة كانوا قد غادروا، ووقف سمعان القيرواني.

مرتبكاً، خارج خيمته، والكأس الفارغة ماتزال في يده والادريق تحت أبطه، وراح يتابعهم ببصره ويهز رأسه، قال «لأبد أنه معمداني آخر، معتوه آخر، ياه، أصبحوا مؤخرأً يثبتون كالقطر، وتابع وهو يملأ كأسه «فلأشرب نخب صحته، ادعو الرب أن يعيده الى صوابه»

في تلك الأثناء، كان يسوع ورفاقه قد وصلوا الى القناء الفسيح للهيكل. توقفوا، وغسلوا أيديهم وأقدامهم وأقواهم استعداداً لولوج الهيكل والتعب، ألقوا نظرة سريعة فيما حولهم فرأوا صفوف مدرج مملوءة كلها برجال وحيوانات، وممرات مقلطرة ظلية، وأعمدة من الرخام الأبيض والأزرق مطوقة بأقصان الكرمة الذهبية وتماثيل العنب، وعلى كلا الجانبين أقيمت سقيفات، وخيام، وعربات حجر، ومواقف للسيارات والحلاقين، وبائعي الخمر، واللحامين. وكان الجو يضح بالهتافات، بالشجار والضحك، وكان منزل الرب ينش برائحة العرق والقذارة.

غطى يسوع بكنه أنفه وقمعه، وجال ببصره في أرجاء المكان، لكنه لم يجد للرب أثراً. «انتي أبغض احتفالاتكم، وأمقتها، أشعر بالفشيان من ثنائية العجول السمينية التي تذبحونها لأجلي. ابعدوا عني جليلة مزاميركم وقيثاراتكم». لم يكن من يتكلم هو النبي. ولا كان الرب، بل قلب يسوع الذي اضطرب وأطلق الصراخ. وفجأة أحس بالأغشاء، اختفى كل شيء من أمامه. وتفتحت أبواب السموات وهبط ملاك بشعر من لهب مندفعاً، وقدماء تسوطان الهواء، وارتقى صخرة سوداء موجودة في وسط القناء، والدخان والهب يتصاعدان من شعر رأسه، وأشار بسيفه الى الهيكل الشامخ المدمج بالذهب.

ترنح يسوع، فدعم نفسه بالاعتماد على ذراع اندراوس. وحين فتح عينيه رأى الهيكل والناس بضجيجهم. وكان الملك قد اختبأ

داخل شفاء عظيم، مد يسوع ذراعيه نحو رفاقه، وقال «اغصروا لي لا استطيع البقاء، سوف أصاب بالأغشاء. هيا بنا» قال يعقوب، وقد صدم «دون أن نتعبدا» قال يسوع «سوف نتعبد في داخلنا، يا يعقوب، إن كل جسد من أجسادنا هيكل»

وغادروا، سار يهوذا في المقدمة، وكان يطرق بعصاه على الأرض، ويقول في نفسه انه لا يحتمل القذارة ومرأى الدماء والصراخ، انه ليس المسيح.

وكان هناك فريسي هايج، يلهث، وقد انبطح على وجهه على الدرجة الأخيرة من الهيكل، وأخذ يقبل الرخام بنهم، ويتنحب. وكان يعلق من عنقه ويدلني من ذراعه خيوطاً سمكية من الطلاس محشوة بنصوص مرعبة من الكتاب المقدس. وكان طول السجود قد جعل ركبتيه تجسان وتصبحان كركبتي جمل، وكان وجهه، وعنقه وصدره مغطاة بجروح مفتوحة وتزق؛ فكلما كانت عاصفة الرب هذه تنزل به كان يقبض على حجارة حادة الحواف ويمثل بنفسه.

سارع اندراوس ويوحنا الى الوقوف أمام يسوع لكي لا يرى الفريسي. وتقدم بطرس من يعقوب، أكبر أبناء يوسف النجار، انه يقوم بجولاته لبيع الطلاس وكل دقيقتين تمسه روحه الشريرة، فيندرج على الأرض ويكاد يقتل نفسه.

سال يعقوب، بعد أن توقف برهة «أهو ذاك الذي يطارد المعلم بضراوة؟»

«نعم، ويقول انه يجلب العار الى منزلهم»

غادروا الهيكل من باب الذهب، ثم اجتازوا وادي قدرون وبدأوا بالسير باتجاه البحر الميت. وعلى اليمين منهم مروا بحديقة وكرم زيتون تدعى جشيمانتي. وكانت السماء من فوقهم بيضاء وملتهبة.

ثم وصلوا الى جبل الزيتون. كان العالم قد أضحى أجمل قليلاً.
وكان النور يتقطر من كل ورقة من أشجار الزيتون، واندفعت أسراب
الغريان واحداً اثر آخر باتجاه أورشليم.

كان اندراؤس متأبطاً ذراع يسوع بعدته عن معلمه السابق.
المعداني. كان كلما اقترب أكثر من عرينه اشتّم أكثر، مرعوباً،
أنفاس النبي الشبيهة بأنفاس الأسد.

«انه ايليا الحقيقي. انحد من جبل الكرمل ليعالج روح الانسان
مرة أخرى بالنار. وذات ليلة رأيت بأم عيني العربة النارية تحوم
مشتعلة ليأكلها، وذات يوم استجمعت شجاعتي وسألته «هل أنت
المسيح؟» فانتفض وكأنما وطأ على حية، وتهد وأجاب «لا، أنا
الثور الذي يجر المحراث. المسيح هو البذرة»

«ولماذا تركت صعبته يا اندراؤس؟»

«أردت أن أعثر على البذرة»

«وهل وجدتها؟»

ضغط اندراؤس يد يسوع على قلبه وعلته حمرة شديدة. أجاب
«نعم»، لكن صوته كان من الخفوت حتى أن يسوع لم يسمعه.

هبطوا يخطى ببطيئة، وهم يلهثون، متجهين الى البحر الميت.
كانت الشمس ترسل لظاها من فوقهم حتى أن رؤوسهم خشخشت.
ثم شمخت أمامهم جبال مواب أعلى فأعلى، أشبه بجدار قاحل،
وخلفها ارتفعت جبال ايديوميه، البيضاء الجيرية، وتلوى الدرب
واخذ يهبط أكثر فأكثر كأنهم كانوا يهبطون بثراً عميقة، فحبسوا
جميعاً أنفاسهم.

شمعوا معاً بأنهم انما يهبطون الى الجحيم، وكانوا يشمون
رائحة القطران والكبريت.

بهرهم الضوء. تقدموا مثل مسميين طريقهم، وأقدامهم تتأذى.

وعيونهم تحترق، ثم سمعوا رنين أجراس: مرّ جملان - لم يكونا
جمالين، بل سرايين وسط الحرارة المتلظية.

همس ابن زبدي الأصغر «أنا خائف، انه الجحيم»

أجابته اندراؤس «تشجع. ألم تسمع بأن الجنة تقع في قلب
الجحيم؟»

«الجنة؟»

«سوف ترى بعد قليل»

أخيراً انحدرت الشمس، وتحول لون جبال مواب الى أرجواني
«اكن، ولون جبال ايديوميه قرنفلي - فارتاحت ابصار الرجال.
وفجأة، عند أحد منعطفات الطريق، انتعشت ابصارهم - ابصارهم
وأجسادهم، وكأنهم خاضوا في مياه باردة، ما تلك المروج غير
المتوقعة التي تبدت أمامهم، وسط الرمال؛ وتلك المياه التي تضحك
ضحكاً خافتاً، وشجيرات الرمان المثقلة بشمارها، والأكوخ البيضاء
الظليلة؟ لقد تعطر الجو فجأة بعبير الياسمين والورد.

هتف اندراؤس بابتهاج «انها أريحا، وفيها أحلى أنواع التمر
مذاقاً في العالم كله، وأشد أنواع الورد اعجازاً: اذا ذبل، كل
ماعليك عمله هو أن تقمسه في الماء فيعود الى الحياة»

سرعان ما هبط الليل. كانت أوائل المصاييح قد اضيئت.

قال يسوع، بعد أن توقف ليستمتع بشكل كامل بهذه اللحظة
القدسية، «ان الترحال، ومزاجية هيوط الظلام، والوصول الى قرية،
ورؤية أوائل المصاييح تضاء، وأن لا يكون لديك ما تأكله أو لا تجد
مكاناً تاوي اليه، وأن تدع كل الأمور لرعاية الرب ولطيبة البشر - ان
هذا، في اعتقادي، هو أحد أعظم مباحج العالم وأنقاه»

شمّت كلاب القرية رائحة الغرياء فبدأت تنبح، وفتحت أبواب
وظهرت منها مصاييح مضاعة، جاست في الظلام ومن ثم عادت

الى الداخل. توجه الصبح الى الأبواب، يدقونها، وكانوا يُمنَحون بكل ودّ قطعة خبز من هنا ورمانة من هناك، أو حفنة من العنب أو الزيتون الأخضر. جمعوا كل هذه الهبات التي أتتهم من عند الرب والانسان، واستلقوا في ركن من بستان، فأكلوا، وسرعان ماغرقوا جميعهم في النوم. وطوال الليل كانوا يسمعون في أحلامهم الصحراء تتحرك، تهددهم ليناموا كما البحر. لكن يسوع أثناء نومه سمع نفع أنصار - وإذا بجدران أريحا تنقوض وتهار.

كان الوقت قد قارب منتصف النهار حين وصل الصبح، وقد علاهم شحوب الموت، وتدلّت ألسنتهم، الى البحر الميت البغيض. كان السمك المنحدر مع تيار نهر الأردن ينقح حالماً يمس مياهه، وكانت الشجيرات القصيرة الموجودة على ضفتيه أشبه بالهياكل العظمية الواقفة. وكانت المياه كما الرصاص، غليظة القوام، ولا حراك بها، فإذا كنت رجلاً ورعاً وملت فوقها لرأيت فيها صورة لعاهرتين عنتين، سدوم وعمورة، تتعانقان في الأعماق المظلمة.

ارتقى يسوع إحدى المصخرات وحدث في المدى : لأشيء غير القصر، الأرض تحترق، والجبال ذابت. أمسك اندراوس من ذراعه وسأله «أين يوحنا المعمدان؟ انني لا أرى أحداً... لا أحد...»

أجاب اندراوس «هناك خلف عيدان القصب وحيث يهدأ اضطراب النهر وتشكل المياه بركة، يقوم النبي بالعماد. هيا بنا نبحث عنه، أنا أعرف الطريق»

«أنت تعب يا اندراوس. ابق مع الآخرين، وسأذهب أنا بنفسى»

«إنه متوحش. سأصحبك يا معلم»

«أريد أن أذهب وحدي يا اندراوس، ابق هنا»

تقدم صوب عيدان القصب، وقلبه ينبض بقوة، فوضع يده عليه وراح يريث ليخفف من غلوائه. وظهر سرب جديد من الغريان قادمًا

من الصحراء طائرًا على عجل باتجاه اورشليم.

فجأة سمع شخصاً يعيش في أثره، استدار، كان يهودا.

قال ذو اللحية الحمراء مبتسماً بسخريّة «نسيت أن تتأدبني، أن هذه هي أصعب الساعات، وأريد أن أكون معك»

قال يسوع «تعال»

وتقدما بصمت، يسوع في المقدمة، ويهوذا خلفه، باعدا مايين عيدان القصب وخاضا بأقدامهما في وحل النهر الخامل، انتفضت حية سوداء، وانزلت داخل صخرة ثم رفعت رأسها وعنقها. وأخذت تنظر اليهما بعينها الصغيرتين الماكرتين ونهس، ونصف جسدها مشبث بالصخرة، وهي شبه منتصبه. توقف يسوع برهة ولوح بيده بود للحية، وكأنه يرحب بها. ورفع يهوذا هراوته السنديان لكن يسوع مد ذراعه ومنعه.

قال «لا تؤذها يا يهوذا، يا أخي، هي أيضاً تؤدي واجبها - بالعض»

كانت الحرارة تهدر، والريح الجنوبية التي هبت من البحر الميت تحمل معها رائحة نثانة ثقيلة لجثث متفسخة. ثم بدأ يسوع يسمع صوتاً أجشاً همجياً. وكان بين الفينة والأخرى يميز بعض الكلمات «نار... فأس... شجرة عقيمة...» ومن ثم بصوت أعلى «توبوا توبوا»، وعلى الفور انفجر جمع غفير بالصراخ والعيول تقدم يسوع بخطى بطيئة، بارعة، وكأنه يقترب من كهف حيوان متوحش. باعد مايين عيدان القصب؛ فزاد الضجيج. وفجأة عض على شفتيه ليمنع نفسه من الصراخ - هاهو ذا، واقف على ساقين أشبه بعودي قصب فوق صخرة ترتفع فوق مستوى مياه نهر الأردن. أهذا رجل، أم جرادة، أم ملاك الجوع، أم رئيس ملائكة الانتقام؟ وكانت أمواج وأمواج من البشر تجارمنهارة على الصخور - من اثيوبيين بأظفار

أسابيع ورموش مصبوعة، وكلدانيين يعلقون أقراطاً نحاسية كبيرة من أنوفهم، وإسرائيليين بسبلات خديّة طويلة ذهبية. وكان المعمداني يصرخ، وفعه يرغي ويتريد، والريح الجنوبية تهزّه وكأنه قصبة «تويوا تويوا» لقد جاء يوم الرب! تدحرجوا على الأرض، غصّوا في التراب، اعصوا! فقد قال رب الجنود: «في هذا اليوم سأمر الشمس فتقرب عند الظهيرة، وسأحطم قرون القمر الجديد وأنشر الظلام على السماء والأرض. سأغير ضحككم فيصير دموعاً، وأغانيتكم فتصبح ندياً. سوف أنفخ فتقع كل حلي أيديكم، وأقدامكم، وأنوفكم، وأذانكم، وشعورك - على الأرض»

خطا يهوذا إلى الأمام وأمسك يسوع من ذراعه. قال «أتسمع؟ أتسمع؟ انظروا هكذا يتكلم المسيح! انه هو المسيح»

أجاب يسوع «لا، يا يهوذا، يا أخي، ان الذي يحمل الناس ويشق الطريق للمسيح هو من يتكلم بهذه الطريقة، أما المسيح فلا يفعل». ثم مال وقطف ورقة خضراء مديبة وسرها من بين أسنانه.

جاء ذو اللحية الحمراء قائلاً «إن من يشق الطريق هو المسيح»، ثم دفع يسوع لكي يبرزه من بين عيذان القصب ليظهر للملأ.

وأمره «تقدم، دعه يراك، وسوف يحكم بنفسه»

خرج يسوع إلى نور الشمس، وخطا خطوتين متردتين، وتعثّر، ثم توقف، وكانت عيناه مثبتتين على النبي. أخذ يحدّق بكل كيانه متحصّلاً النبي، من ساقيه الشبيهتين بعودي قصب وحتى رأسه المتقدّ ومن ثم أعلى إلى كامل هيئته الخفية. فقد كان المعمداني يدير له ظهره، وشعر بنظرته الناقبة المتدقّ في كامل جسده، فاستشاط غضباً واستدار بكل جسمه وأغمض عينيه المستديرتين الشبيهتين بعيني سقر نصف الغمامة لكي يرى بشكل أفضل، من ذاك الشاب

الصامت، الذي لا يأتي بحركة، يتلف برداء أبيض ويحدّق به؟ لقد رآه في مكان ما، في مناسبة ما، ولكن أين؟ متى؟ وبذل جهداً مضنياً ليتذكّر. أيكون قد حدث ذلك في حلم؟ انه كثيراً ما يحلم برجال يرتدون ثياباً بيضاء كاملة بهذا الشكل. لم يكلموه قط لكنهم كانوا يكتفون بالتحديق اليه والتلويح بأيديهم وكأنهم يحيونه أو يودعونه. ثم يصبح الديك معلناً بزوغ الفجر فيتحولون إلى ضياء ويتلاشون.

فجأة أطلق المعمداني صرخة، وهو لا يزال ينظر اليه. لقد تذكر: فذات يوم وعند الظهيرة بالضبط وكان مضطجعاً على ضفة النهر، يقرأ في سفر أشعيا النبي، مخطوطاً على جلد ماعز، وفجأة إذا بالحجارة، والماء، والناس، وعيذان القصب والنهر يختفون عن بصره، وامتلاء الجو بالنيران، وينفخ أنفار وتصفيق اجتحة، وتفتحت كلمات النبي وكأنها أبواب، ودفق منها المسيح. تذكر انه كان يتلفّ كله بالبياض، نحيلاً، نخره، طول التعرض لأشعة الشمس، حافي القدمين، كهذا الرجل، ويحمل بين أسنانه ورقة خضراء.

امتلات عيناه الزاهد بالغبطة والخوف، ففزع نازلاً عن صخرته وتقدم منه، مشرباً بعنقه الكثير العقد.

سأله، وصوته الأجش يتهدج «من أنت؟ من؟»

قال يسوع، وقد تقدم خطوة أخرى «ألا تعرفني؟»، وكان صوته يرتعش: كان يعرف أن مصيره متوقف على اجابة المعمداني.

قال المعمداني لنفسه، انه هو، هو، وأخذ قلبه يخفق بعنف ولم يقدر، بل لم يجزؤ على اتخاذ قرار، ومرة أخرى اشرب بعنقه.

سأله من جديد «من أنت؟»

أجاب يسوع بصوت عذب ولكن متذمر، وكأنه يؤنبه «ألم تقرأ الكتاب المقدس؟ ألم تقرأ أهوال الأنبياء؟ ماذا يقول أشعيا؟ أيها السابق، ألا تذكر؟»

همس الزاهد «أهو انت، أنت»، ووضع كلتا يديه على كتفي يسوع وراح يحدق في عينيه.

قال يسوع بتردد «لقد جئت...»، ثم سكت. فقد شعر بالاختناق ولم يتمكن من المتابعة. وكأنه كان يعد قدمه ومن ثم يتقدم ليعرف إن كان يوسعه أن يتقدم خطوة أخرى دون أن يقع.

مال النبي الهجمي فوقه وراح يتحسسه بصمت. وتساءل إن كان قد سمع الكلمات الرائعة، المرعبة، التي أفلتت من بين شفتي يسوع.

كرر ابن مريم القول «لقد جئت...» بصوت شديد الخفوت حتى إن يهوذا نفسه، الذي كان واقفاً خلفه يقطأ يصيح بأذنه، لم يسمعه. هذه المرة أجفل النبي، لقد فهم.

قال «ماذا؟»، وانتصب شعر رأسه.

مر غراب من فوقهم وأطلق صرخاً أحشأ يشبه صراخ إنسان يفرق كان يمسخر من شيء، أو يضحك. وتملك الغضب الممعداني، انحنى ليلتقط حجراً ويرمي به للطائر. لكن الغراب كان قد طار بعيداً، لكنه ظل ينظر إليه، ويزداد ابتهاجه مع مرور الوقت - فهذه الطريقة هدا اضطراب ذهنه بالتدريج... ثم نهض، وقال يهدوء «اهلاً بك»، وظل ينظر إليه، ولكن لم يكن في عينيه أي حب.

اهتز قلب يسوع. أضي أذنيه شواش أم أنه حقاً سمع النبي يرحب به؟ إن كان هذا صحيح، فكم هو مذهل، ومبهج، ومخيف! تلقت المعمودي فيما حوله، ومر بصره على طول نهر الأردن، وعيدان القصب، والناس الراكعين وسط الطين يعترفون علناً بأثامهم. وعلى عجل عائق مملكته وودعها. ثم التفت إلى يسوع «الآن يوسعي أن أرحل».

«ليس الآن، أيها السابق. أولاً يجب أن تعمّدني». وقد أصبح صوته أكثر ثقة وحزماً.

«أنا أنت الذي يجب أن يعمّدني، أيها الرب»
«لا ترفع صوتك. فقد يسمعوننا. إن ساعتي لم تحن بعد. هيا بنا»

كان يهوذا يصيح سمعه، لكنه لم يسمع غير مهمة، فهمة مرحلة، لعوب وكأنها ناتجة عن اتحاد جدولي ماء جار.

أفصح الحشد المجتمع على الضفة طريقاً. من هذا الحجيج الذي خلع عنه رداءه الأبيض، واكتسى أشعة الشمس؟ من هذا الذي دخل في الماء بكل ذلك النبل والطمأنينة، دون أن يعترف بأثامه؟ شقاً معاً طريقهما داخل الجدول الأزرق، الممعداني في المقدمة، ثم ارتقى الممعداني صخرة كانت نائمة خارج سطح الماء. ووقف يسوع بجواره على حوض النهر الرملي، وكانت المياه تعانق جسده وحتى ذقنه.

ما إن رفع الممعداني يده ليصب الماء على وجه يسوع ويمسحه بركته حتى صرخ الناس احتجاجاً. وإذا بدق نهر الأردن يتوقف، وتطفو أسراب من السمك المتعدد الألوان من كل صوب، وتحيط بيسوع وتأخذ بالرقص، تضم زعانفها وتلتصقها وتهز أذيالها، وبرز جني صغير أشعث على هيئة عجوز بسيط منضفر مع أعشاب الماء، خارجاً من قاع النهر، واتكا على عيدان القصب، وراح يحدق إلى كل ما يجري أمامه، فاغر الفم، جاحظ العينين فرحاً وخوفاً.

لجمت هذه المعجزات السنة الناس. انبطح منهم الكثير على أرض الضفة ليحببوا عيونهم. وأصاب الرعدة آخرين وسط ذلك الحر الشديد وهتف أحدهم، حين رأى العجوز يخرج من الأعماق وقد غطاه الوحل، «إنه روح نهر الأردن!»، ثم أغمى عليه.

ملأ الممعداني صدفة بالماء وبدأ يصبه بيد مرتعشة على وجه يسوع، ويقول «عُمد خادم الرب باسم...»، لكنه سكت: لم يكن يعرف بأي اسم يُعمّده.

الفصل السابع عشر

بزغت الشمس من الصحراء كهوض أسد وسطعت على كل أبواب أرض إسرائيل. وتصاعدت من كل منزل يهودي صلاة الصباح الوحشية إلى رب العبرانيين المتكبر : «سبح باسمك وتمجيدك، يا ربنا ورب أجدادنا، أيها الجبار الرهيب، أنت عوننا وسندنا. المجد لك، أيها السرمدي، المجد لك، يا حامي إبراهيم. من يقدر على مجاراتك في قوتك أيها الملك، أنت يا من تقتل، وتبعث وتحرر؟ المجد لك، يا محرر إسرائيل ! دمر أعداءنا وامحقهم وبعثر أشلائهم، ولكن أسرع، لنشهد ذلك في حياتنا»

وجدت الشمس البازغة يسوع ويوحنا المعمدان جالسين في تجويف صخرة شاهقة تشرف على نهر الأردن. كان الاثنان قد أمضيا الليل بطوله يضمنان العالم بين أيديهما، يتفكران فيما سيفعلان به. فیتناولوه أحدهما، ثم يأخذ الآخر. فترى وجه أحدهما قاسياً وصارماً: ترتفع ذراعاه وتخفضان وكأنه في الواقع يجعل قاسماً ويحطمه به. وترى وجه الآخر وديعاً متردداً وعينيه ملوئهما الحنو.

التفت ليسال يسوع، وتمطى على أطراف أصابع قدميه، وترقب كيقية الناس أن يسمع اسمه، وإذا به يسمع زفرقة أجنحة تهبط من السموات وطائر أبيض الريش - فهل كان طائراً، أم أحد من السيرافيم؟ - يندفع نحوهم ثم يتوازن فوق رأس المَعْمَد. وظل هكذا ساكناً ليضع لحظات، ثم حوّم فجأة فوقه ثلاث مرات. وومضت في الجو ثلاثة أكاليل من النور وزعق الطائر زعقة وكأنه يصرّح باسم خفي، اسم لم يُسمع به من قبل. وكان السموات تجيب عن سؤال المعمدان الآخرس.

طننت آذان الناس، وترنعت رؤوسهم. كانت تصحب زفرقة الأجنحة كلمات. أهو صوت الرب؟ أم صوت الطائر؟ إنها لمعجزة غريبة... شئ يسوع جسمه كله، يحاول أن يسمع. كان لديه حدس بأن هنا يكمن اسمه الحقيقي، لكنه لم يتمكن من تمييزه. كل ماسمعه كان صوت أمواج عديدة تتلاطم داخله، وأجنحة كثيرة، وكلمات عظيمة، مريرة. رفع بصره. كان الطائر قد وثب متطلقاً إلى عنان السموات وأصبح ضوئاً داخل الضياء.

كان المعمدان، الذي مكّته السنوات الطوال التي قضاها في الصحراء وفي عزلة قاسية من التضلع في لغة الرب، كان الوحيد الذي فهم، فهمس بينه وبين نفسه قائلاً، وهو يرتعش، اليوم عُمَد خادم الرب، ابن الرب، أمل البشرية!

أوماً لمياه نهر الأردن لتعاود جريانها، وهكذا انتهى القرين المقدس.

سأله «لا تكفي المحبة؟»
فأجاب المعمداني غاضباً «لا، إن الشجرة نخرة، لقد ناداني
الرب وأعطاني القاس، فوضعتُه عندئذ عند جذور الشجرة. لقد
قمت بواجبي، والآن جاء دورك : خذ القاس واضرب!»
«لو كنت نارا، لأحرقت؛ ولو كنت حطاباً لضربت. لكني قلب،
وأنا أحب»
«أنا أيضاً قلب، لهذا تراني لا أطيق الظلم، أو الخزي أو العار.
كيف يسعك أن تحب الظالم، والشائن والصفيق الوجه؟ اضرب ! إن
أحد أعظم التزامات الإنسان هو الغضب»
قال يسوع، معترضاً على ذلك في قلبه «الغضب؟ ألسنا جميعاً
أخوة؟»

أجاب المعمداني ساخراً «أخوة؟ أنظن أن المحبة هي الطريق
إلى الرب - المحبة؟ انظر هنا -، ومد يده النحيلة، الكثيفة الشعر
وأشار بها إلى البحر الميت، الذي كان ينث كجثة متفسخة، «هل
انحنيت مرة فوقه لتري العاهرتين، سدوم وعمورة، قابعتين في
القاع؟ لقد غضب الرب، ونفث ناره، ووطأ الأرض فتحوّلت اليابسة
إلى بحر ابتلع سدوم وعمورة، هذا هو أسلوب الرب - فاتبعه، ماذا
تقول النبوءات؟ تقول «حين تأتي ساعة الرب سيتدفق الدم من
الخشب، وستنبعث الحياة في حجارة المنازل، فتنهض لتقتل مالكي
المنزل» وما إن ساعة الرب قد بدأت وهي آتية. لقد كنت أول من
تبنيها، صرختُ، وحملت قاس الرب، ووضعتها عند جذور العالم.
ناديتك، وناديتك لنأتي، وها قد آتيت، والآن سأرحل أنا»
قبض على يدي يسوع وكأنه يضع قاساً فيهما. ثم تراجع يسوع
وقد تملكه الخوف. قال «اصبر قليلاً، أتوسل اليك، لا تتعجل، سوف
أذهب وأكلم الرب في الصحراء، هناك يسمع صوته بجلاء أعظم»

«وكذا صوت الغواية، حذار - فالشيطان كامن بانتظارك،
وجيشه في حالة استعداد تام، انه يعلم جيداً أنك تعني بالنسبة له
الحياة أو الموت، سوف ينقض عليك بكل وحشيته وعذوبته، فحذار.
الصحراء ملأى بالأصوات العذبة - وبالموت»
«يا صديقي، لا يمكن للأصوات العذبة والموت أن يخدعوني،
ثق بي»

«ثق بك، والويل لي إن لم أفعل! اذهب، تحدث مع الشيطان،
وتحدث مع الرب، ثم قرر. فإذا كنت النبي المختار الذي طالما
انتظرتنه يكون الرب قد اتخذ قراره، ولا مفر لك. وإذا لم تكن هو،
فما همّي إن اختفيت؟ اذهب، وسوف نرى. ولكن أسرع: لا أريد أن
أغادر العالم وحدي»
«تلك الحمامة البرية التي صفقت بجناحيها فوقي بينما كنت
أعمد: ماذا كانت تقول؟»

«أنا ليست حمامة برية. سيأتي يوم تسمع فيه الكلمات التي
كانت تقولها. ولكن حتى ذلك الحين، ستظل معلقة فوقك كالسيوف
المسلطة»

نهض يسوع واقفاً ومد يده، وقال، وكان صوته يرتعش «أيها
السابق الحبيب، وداعاً - ربما إلى الأبد»

ضغط المعمداني شفثيه على شفثي يسوع وأبقاهما هناك، كان
فمه جمره حية، حرقتها شفثي يسوع، قال، وهو يعصر بقوة يد يسوع
الرفيعة «ها أنا أخيراً أسلم روحي لك، إن كنت أنت المختار الذي
طالما انتظرتنه، فاسمع تعليماتي: لأنني أعتقد أنني لن أراك بعد الآن
على وجه هذه الأرض، لن أراك أبداً»

همس يسوع، وهو يرتعش «أنا منصت، ماهي تعليماتك؟»
«بدل تعابير وجهك، هو ذراعيك، ثبّت قلبك، فحياتك حياة»

ثقيلة. اري دماءاً وشوكاً على جبينك. تحل يا أخي ورئيسي،
وتشجع أمامك طريقان: طريق الانسان، وهي مستوية، وطريق
الرب، وهي صاعدة. اتخذ الطريق الأصعب. وداعاً لا تحزن عند
الفراق. ليس من واجبك أن تبكي، بل أن تضرب، اضرباً وليثبت
الرب يدك! تلك هي طريقك. ان الطريقين هما من عمل الرب، فلا
تتس ذلك. لكن النار خلقت أولاً ومن ثم جاءت المحبة بعدها. لذا
لنبدأ بالنار. الى الامام، وحظاً طيباً!

— كانت الشمس قد ارتفعت وعلت، وظهرت القوافل قادمة من
الصحراء العربية، تحمل معها حجيجاً جنداً بمهمات متعددة
الأنوار يضعونها على رؤوسهم الحليقة، بعضهم كان يعمل تعاويذ
ذات شكل حلالي مصنوع من أسنان الخنازير البرية، تتدلى من
أعناقهم، وآخرون كان معهم تماثيل صغيرة للإلهات - بأرذاف
«شخمة» وغيرهم يحملون قلائد مصنوعة من أسنان أعدائهم. كانوا
حيوانات الشرق الضارية جاؤوا ليتعمدوا حين رآهم المعمدان أطلق
صرخة ثاقبة وأسرع ينزل عن الصخرة. بركت الجمال على طمي
نهر الأردن، وسمع صوت الصحراء يجلجل بلا رحمة «توبوا، توبوا.
ان يوم الرب قادم!»

في تلك الأثناء عشر يسوع على رفاقه فالفاهم جالسين على
صفة النهر، ينتظرونه وقد خيم عليهم الصمت والحزن. كانت قد
مرت حتى ذلك الحين ثلاثة أيام وثلاث ليال لم يظهر خلالها، ثلاثة
أيام وثلاث ليال تخلى فيها المعمدان عن التعميد ليتحدث معه.
كان يتكلم ويتكلم ويسوع منصت اليه خافض الرأس. ماذا كان يقول،
وهو مخيم فوقه كالصقر، ولماذا كان أحدهما هائجاً والآخر حزينا؟
وراح يهودا يسير جيئة وذهاباً، حائقاً يتأفف، وحالماً هبط الليل
اقترب من الصخرة خلسة ليسمعهما. كانا يتحدثان حديثاً حميماً.

اصاح يهودا سمعه لكنه لم يعيّر غير همهمة سريعة، وكأنها خير
مياه جارية. أحدهما كان يعطي، والآخر يتلقى ليمتلئ، وكان ابن
مريم كان ابريقاً مستقراً تحت صتيور. انزلق ذو اللحية الحمراء
هابطاً أسفل الصخرة، وهو في حالة هياج، ومرة أخرى أخذ يمشي
في المكان وسط الظلام، ودمدم «عار علي، عار علي أن أدعهما
يتداولان حول اسرائيل أثناء غيابي! كان على المعمداني أن يعهد
بسرّه اليّ، كان يجب أن يعطي القاس لي. أنا الوحيد الذي يشعر
بآلام اسرائيل. أنا قادر على استخدام القاس، أما هو، المستبصر،
فلا يقدر. انه يعلن بلا خجل اننا جميعاً أخوة، مجروحون
وجارحون، اسرائيليون ورومان ويونان، فلماذا نهم الشيطان جميعاً؟
ثم استلقى عند أسفل الصخرة بعيداً عن رفاقه الآخرين، غير
راغب في رؤيتهم. وغط في النوم برهة من الزمن وخيل اليه انه
يسمع صوت المعمداني وكلمات متفرقة، مبعثرة: «نار»، «سديم
وعمورة»، «اضرب». فانتفض، الا انه حالاً استيقظ لم يعد يسمع
غير طيور الليل وأبناء آوى وغمقة نهر الأردن مع عيدان القصب.
هتزل الى النهر وغمر رأسه الملتهب في الماء ليمطئ ناره. وتتم
«لايد أن ينزل عن الصخرة عاجلاً أو آجلاً، اليس كذلك؟ سيفعل،
وعندئذ سأعرف سره، شاء أم أبى!»

لذا، حين رأى يسوع يقترب، قفز واقفاً كما فعل بقية الرفاق،
وهرعوا مبتغيين للقياء، لمسوا كتفيه، وظهره، وداعبوه، وامتلأت
عيننا يوحنا بالدموع - هذه المرة كان هناك تفنن عميق يشق
منتصف جبين المعلم.

ولم يتمالك بطرس نفسه، فقال «يا معلم، لماذا ظل المعمداني
يتحدث اليك طوال أيام وليال؟ ماذا قال لك حتى أحزنك هكذا؟
لقد اكفهر وجهك»

اجاب يسوع «اصبحت أيامه معدودة، لازموا، جميعكم وتعمدوا، أما أنا فأرحل»
هفت ابن زبدي الأصغر، وهو يتشبه برداء يسوع «إلى أين أنت ذاهب يا معلم؟ سنأتي جميعنا معك»
«سأذهب وحدي إلى الصحراء، حيث لا حاجة إلى رفيق. أنا ذاهب إلى هناك لأكلم الرب»
قال بطرس، وغطى وجهه «مع الرب؟ إذن فلن تعود!»
تهجد يسوع وقال «سوف أعود، يجب أن أعود. إن العالم معلق من خيط واحد. سوف يعطيني الرب تعليماته، ومن ثم سأعود»
هتفوا جميعاً، هم يتشبهون به لمنعه من الذهاب «متى؟ كم يوماً ستعقب مرة أخرى؟ انظر بأي حال ستركنا!»
لكن يهوذا وقف بعيداً، صامتاً، وأخذ يرميهم بنظرة احتقار، وغمغم «غنم... غنم... أشكر رب إسرائيل على أنني ذُئِب»
«سأعود حين يشاء الرب، يا أخوتي، الوداع. ابقوا هنا وانتظروني. وحتى ذلك الحين، إلى اللقاء»
وقف الأخوة كالمتهجرين وراقبوا ابتعاده البطيء داخل الصحراء. لم يعد يسير كما كان يفعل في السابق، حين كان بالكاد يلمس الأرض، بل سار يخطى ثقيلة، مهمومة. اقتطع عود قصب ليتكى عليه، وأخذ يعبر الجسر المُنْتَظَر، وتوقف في منتصفه ونظر إلى أسفل، فرأى في كل مكان حوله حبيجاً مغمورين في تيار النهر الموحل، ووجوههم التي لفتحتها أشعة الشمس حتى اشتدت سميرتها تشع بالسعادة. وقبلهم على الضفة الأخرى كانوا مايزالون يضررون على صدورهم ويعترفون بذنوبهم للهواء، ينتظرون بعيون متقدة قدوم المعلم الذي ليُشِير بيده دورهم بالغوص في الماء المقدس. وغاص الزاهد الهمجي حتى وركيه في مياه نهر الأردن وأخذ يعمد

الناس جماعات، ومن ثم وبحركة غاضبة، ودون ابداء أي ود، دفعهم بعيداً باتجاه الضفة الأخرى لأن أسراباً أخرى منهم تنتظر خلفهم، كانت لحيته السوداء الفاحمة المديبة تلمع تحت أشعة الشمس، وكذا حال شعره الشعث، الذي لم يُقَص قط، وكانت الهتافات المتواصلة تخرج من فمه الواسع المضمخ المفتوح دائماً.
مسح يسوع بعينيه النهر، والناس، والبحر الميت عبر المدى، وجبال الجزيرة العربية، والصحراء بومال فرأى ظله المتماوج مع تماوج التيار المتجه صوب البحر الميت.

قال في نفسه، ما أجمل الجلوس على حافة النهر ومراقبة المياه تجري بغني البحر، والأشجار، والطيور، والغيوم، والنجوم في الليل كلها تنعكس فيه وتتدفق بدورها؛ حبذا لو أستطيع أن أتدفق أيضاً بدل أن ينهشني اهتمامي بالعالم.

لكنه انتفض، وطرد عنه الغواية، وابتعد عن الجسر هابطاً بخطى سريعة، مخفياً خلف الصخور الجرداء. وقف ذو اللحية الحمراء على الضفة يراقبه بنظرة ثابتة. رآه يختفي، وخاف أن يهرب، فرفع كُمّيه وتبعه، وأدركه قبيل أن يلج بحر الرمال اللامتناهي.

ناداه «يا ابن داوود، توقف! ماذا تتركني هكذا؟»

التفت يسوع، وقال بنية توسل «يهودا، يا أخي، لا تتبعني أكثر يجب أن أكون وحدي»

قال يهوذا، متقدماً «أريد أن أعرف سرّك»

«لا تكن متعجلاً. سوف تعرفه عندما يحين الوقت. ولكن سأقول لك مايلي، يا يهوذا، يا أخي؛ أخرج، فكل شيء يسير سيراً حسناً»

«لا يكفيني قولك «كل شيء يسير سيراً حسناً». إن جوع الذئب

لا تخف من وراثته الكلمات. لعلك لا تشعر بذلك. ولكن أنا أشعر به.

«ان كنت تحبني، اصبر. انظر الى الأشجار. أتراها متعجلة لانضاج ثمارها؟»

قال ذو اللحية الحمراء معترضاً. وقد اقترب منه «أنا لست شجرة، أنا إنسان. والإنسان مفلوظ على الاستعجال. انني أعمل وفق قوانيني الخاصة»

«إن قانون الرب واحد، ينطبق على الأشجار كما على الناس يا يهوذا»

صرّ ذو اللحية الحمراء بأسنانه، وسأله ساخراً «ماذا يسمى ذاك القانون؟»

«الزمن»
وقف يهوذا ساكناً وشد على قبضته. إنه لا يقبل ذلك القانون. فابقاعه بطيء جداً. في حين ليس لديه لحظة واحدة يضيعها. إن أعماق كيانه متعلقة بقانون آخر، قانونه هو، المناقض لقانون الزمن..

هتف «الرب يعيش سنين عديدة. إنه سرمدي. لذا يمكنه أن يصبر وينتظر. أما أنا فأقول لك اني بشر، ومفلوظ على الاستعجال. لا أريد أن أموت قبل أن أرى بعيني مايجول الآن فقط في خلدي - ولا أريد فقط أن أراه، بل وأن المسه بيدي»
أجاب يهوع، وهو يلوح بيده ليهذهئ من روعه «سوف تراه، سوف تراه وتلمسه يا يهوذا يا أخي - كن مؤمناً. الى اللقاء. إن الرب بانتظاري في الصحراء»
«سأتي معك»
«الصحراء لا تتسع لاثنتين. عد أدراجك»

هرّ ذو اللحية الحمراء وكشّر عن أسنانه ككلب القطيع حين يسمع صوت سيده. أخفض رأسه واستدار عائداً وهو يسير بخطى متثاقلة، عابراً الجمر. محدثاً نفسه. تذكر حين كان يجوب الجبال مع باراباس - ياركة الرب! - وبقية المتمردين. كم كان جواً مفعماً بالعنف والحرية! وكان رب إسرائيل هو القائد الرائع لمجموعة من السفاحين! إنهم بحاجة الى مثل ذاك القائد. لماذا تراه يتبع هذا المستبصر الذي يخشع الدماء ويهتف «المحبة! المحبة!» كفتاة صغيرة مثلهفة؟ ولكن صبراً، يا يهوذا لتر ماذا سيحب مع من الصحراء!

ولج يسوع الصحراء، وكان كلما تقدم أكثر زاد احساسه بأنه انما يلج عرين أسد. بدأ يرتعش، ليس من الخوف، بل بفعل فرح غامض لم يفهم كنهه. كان سعيداً. لماذا لا تفسير لديه. وفجأة، تذكر. تذكر حلماً كان قد رآه ذات ليلة وهو مايزال طفلاً بالكاد يستطيع الكلام. وكان ذلك حدث قبل آلاف السنين: كان أقدم حلم يستطيع أن يتذكره. رأى أنه يغذ السير داخل كهف عميق فوجد - ليؤة وضعت لثوها وكانت ترضع أشبالها. حين رآها شعر بالجوع والعطش، فاضطجع وأخذ يرضع مع الأشبال. بعد ذلك يبدو أنهم جميعاً خرجوا الى مرج أخضر وراحوا يلعبون تحت أشعة الشمس، ولكن بينما هم يطفرون مرحاً هكذا، اذا بهريم، أمه، تظهر له في الحلم، ورأته وسط الأسود فصرخت. أفلق من نومه ورعى أمه النائمة الى جواره بنظرة غاضبة، وصرخ بها، لماذا أبقتني؟ لقد كنت مع أخوتي وأمي!

الآن بت أظهم لماذا أنا سعيد، انني ألج كهف الأم، كهف اللبوة، كهف العزلة...

سمع هسيس أفاع يثير القلق، وصوت الرياح الحارة التي تهب من بين الصخور، وأصوات أرواح الصحراء الخفية.

مال يسوع وتحدث الى روحه «يا روحي، هنا سأعرف ان كنت خالدة ام لا»

حين سمع وقع خطى خلفه، اصاخ سمعه، فتناهى اليه صوت سحق رمال. ثمة من يسير باتجاهه، يهدوء، وثبات. قال في نفسه، وهو يرتعش، لقد نسيت امرها، لكنها لم تسني. انها قادمة معي، امي قادمة معي... كان يعلم علم اليقين انها اللعنة، لكنه كان يناديها بأمي منذ وقت طويل.

واصل المسير، وهو يبعد افكاره عن الامر. تذكر الجماعة البرية. شعركان طائراً وحشياً محبوساً داخله - ام هل هي روح تندفع تبغي الهروب؟ لعلها هربت، لعل الحمامة البرية التي كانت تهدل وتطير فوق راسه بحركات دائرية طوال فترة تعميده كانت هي روحه، وليست طائراً أو سيراً، بل روحه هو.

هذا هو الجواب. وانطلق من جديد، يهدوء. وسمع وقع خطى تسحق الرمال خلفه. لكن قلبه أصبح ثابتاً الآن، وبماكانه أخيراً أن يتحمل كل شيء بكرامة. وقال في نفسه، ان روح الانسان قوية جداً، وبات بماكانها الآن أن تتخذ أي شكل تريد. وفي تلك اللحظة اتخذت شكل طائر وطارت فوقه... ولكن بينما هو يواصل السير بطمأنينة، اذا به فجأة يطلق صرخة ويتوقف. فقد خطر له أنه ربما كانت الحمامة وهماً، طمأنينة في ذهنه، تدوياً في الهواء - لأنه تذكر كيف ومضى، وأثار وكان كامل القدرة، كالروح، وكيف كان يسمع كل عارغب في سماعه؛ ويرى كل مارغب في رؤيته... لقد بنى قصوراً في الهواء وعظمهم «يا رب، يا رب، الآن وقد بتنا وحدنا، قل لي الحقيقة، ولا تخدعني. لقد مللت سماع الأصوات في الهواء»

غذ سيره ومعه الشمس التي وصلت أخيراً الى عنان السماء، فوق راسه مباشرة. كانت قدماء تخترقان بالرمال الملتهبة. استطاع

المكان من حوله بحثاً عن ظل. فلم يجد، وسمع زقزقة أجنحة تحوم فوقه ورأى سرياً من الغريان تشدفع نحو حضرة فيها شيء أسود نث يتفشخ.

سد أنفه واقترب، كانت الغريان قد انقضت على جيفة، وغرزت مخالبها فيها، وبدأت تاكل. وحين رأت انساناً يقترب طارت بغضب. وكل منها يحمل بمخالبه مقدار لقمة من اللحم. وشكلت في الجو دائرة، وراحت تدعو الدخيل الى الرحيل. مال يسوع فرأى البطن المفتوحة، والجلد الأسود، شبه المسلوخ، والقرنين القصيرين المعقودين بأنشوجة، وخيرط التناغم ملتفة حول العنق المتمغن.

تمتم وهو يرتعش الماعز المقدس الذي يحمل آثام الناس. لقد لوحق من قرية الى قرية، ومن جبل الى جبل، وأخيراً وصل الى الصعراء، حيث اختفى

انحنى وأخذ يحفر في الرمل بيديه أعمق ما استطاع، ثم طمر الجثة.

قال «يا أخي، لقد كنت بريئاً ونقياً، ككل حيوان آخر. أما الناس الجبناء فأجبروك على حمل آثامهم، وقتلوك. تعفن في سلام: لا تحقد عليهم. ان البشر، المساكين الضعفاء، لا يملكون الشجاعة اللازمة ليتحملوا أنفسهم تبعاً آثامهم، بل يرمون بها على كاهل من لا اثم له. يا أخي، عوضهم عن آثامهم، ووداعاً»

تابع سيره لكنه بعد بضعة لحظات عاد فتوقف، وقد شعر بالانزعاج، ولوح بيده، ونادى «الى الملتقى»

أخذت الغريان تلاحقه بهياج، فقد حرمتها من الجثة اللذيذة وهي الآن تلاحقه، تنتظره كي يختفي بدوره ولكي تنتفخ البطن وتعاود الأكل. بأي حق يسبب لها هذا الظلم؟ ألم يخلق الرب الغريان لتاكل الجثث؟ يجب أن يدفع الثمن!

نهض واقفاً، ويعود القصب رسم دائرة حول الصخرة التي كان
نائماً عليها.

قال بصوت عالٍ، لكي تسمعه القوى الخفية الكامنة بانتظاره
«لن أغادر أرض هذا البيدر، لن أغادر أرض هذا البيدر حتى أسمع
صوت الرب. ولكن يجب أن أسمعه بوضوح، ولن أرضى فقط
بالمهمة أو بالهذر المقلل المعتاد، أو يقصف الرعد. أريد منه أن
يكلمني بوضوح، بكلمات إنسانية، وأن يخبرني بما يريد مني وما
أستطيع عمله، وما يجب عليّ عمله. عندئذ فقط سوف أنهض
وأغادر هذا البيدر عائداً إلى رجالي، إذا أمرني بذلك، أو أموت،
إذا شاء ذلك. سوف أفعل كل ما يرغبه، ولكن يجب أن أعرف ما هو
باسم الرب»

ركع على الصخرة ووجهه ميم نحو الشمس، نحو الصحراء
الشاسعة، أغمض عينيه، ولملم أفكاره التي كانت تدور حول
الناصر، ومجدلة، وكفرناحوم، ويثر يعقوب ونهر الأردن، وبدأ
يشكلها بتنظيم هجوم، كان يتهيأ للحرب.

ثبّت عنقه وأغمض عينيه، وغاص في أعماق نفسه. سمع
هدير مياه، وحفيف عيدان قصب، وأناساً يتدبّون، ومن نهر الأردن
تتاهت موجة بعد موجة من الصراخ، والرعب وأعمال رؤيوية نائية.
وأول ما عاد إلى مخيلته الليالي الثلاث التي أمضاها على الصخرة
مع الزاهد المتوحش. فقد انطلقا وهما في كامل عدتهما إلى
الصحراء ليشن الحرب لصالحه.

الليلة الأولى انقضت عليه من أعلى كانهضاض جراده عملاقة
ذات عينين وجناحين وحشية لونها بلون القمع، أنفاسها كأنفاس
البحر الميت، وقد كتبت أحرف خضراء غريبة على يطنها. تشبّثت
به، وبدأ جناحها يمزقان الهواء بعنف. أطلق يسوع صرخة والتفت.

أخيراً سيحل الليل. هذه التعب، فجلس القرفساء على صخرة
ضخمة ومستديرة كحجر الرخ، وهم قائلون «لن أبعد أكثر من
ذلك. هنا على هذه الصخرة ساقم حصني وأشن معركتي».
أنهمرت الظلمة سريعاً من السماء، وتساعدت من الأرض، وغطت
العالم. ومع الظلام جاء الصقيع. اصطكت أسنانه فشدّ رداءه
الأبيض عليه، وتكوّم على شكل كرة وأغمض عينيه، لكنه بعد أن
أغمضهما ازداد خوفه. تذكر الغريان، سمع أبناء آوى الجائعين وقد
أخذوا يعمون من كل حذب، وشعر بالصحراء تجوس متحركة من
حوله كوحش ضار، فعاد وقّح عينيه من الخوف. كانت السماء قد
ترصعت بالنجوم، وشعر بارتياح. لقد خرجت السيراتيفات لتتنس
وحدثي، هذا ما قاله لنفسه. انها الأنوار السداسية الأجنحة التي
ترتل المزامير حول عرش الرب، لكنها بعيدة جداً، شديدة البعد
حتى أننا لا نسمعها... أضواء عقله بنور النجوم، فتسي أمر
احساسه بالجوع وبالبرد. هو أيضاً كائن حي، نار للاسترشاد وسط
الظلام سريعة الانطفاء؛ هو أيضاً رتل المزامير للرب، أن روحه
منارة صغيرة، هي شقيقة الملائكة، المسكينة، الرثة الملابس... ثبت
قلبه حين أخذ يفكر في نسبه الراقي، ورأى أن روحه تقف مع
الملائكة حول عرش الرب، بعد ذلك، ويكل سكينه ودون خوف،
أغمض عينيه ونام.

حين أفاق رفع وجهه ناحية الشرق فرأى الشمس، وكأنها قرن
ينفث وهجاً رهيباً، ترتفع فوق الرمال. فكر، وهو يظلل عينيه بكف
يده لكي يتقي الانبهار، هذا هو وجه الرب، ثم همس «يا رب، أنا
حبة رمل، فهل تراني وأنا وسط هذه الصحراء؟ أنا حبة رمل تتكلم
وتتنفس وتحبك. تحبك وتتاديك يا أبي. انني لا أملك غير سلاح
الحب، وبه جئت لأشن معركتي. فأعني»

كان المعمداني واقفاً بجواره وزارعه النخيلة تشير في قلب الظلام
الدامس باتجاه اورشليم.
«انظر، ماذا ترى؟»

«لاشيء»

«تقول لا شيء؟ امامك تمثل اورشليم المقدسة، العاهرة، الا
تراها؟ انها جالسة على ركبتي الروماني السمينتين وتقهقه، والرب
يهتف «لا اريدها، اهدء زوجتي؟ لا اريدها» أنا أيضاً، مثل كلب
قابع عند قدمي الرب، أنبح، وأنبح عليها «عاهرة عاهرة». ان لها
أربع بوابات ضخمة حصينة. عند الأولى يجلس الجوع، وعند
الثانية يجلس الخوف، وعند الثالثة يجلس الجور، وعند الرابعة،
الشمالية، يجلس الخزي. ادخل، وأجوب شوارعها: اقترب من أهلها
واتفحصهم، أتأمل وجوههم، فأجد ثلاثة منهم ثقلين، ضخمين،
متخمين، وثلاثة آلاف مهزولين من الجوع. متى يغتمني عالم بأكمله؟
ثلاثة من السادة فيه متخمون بالأكل وشعب يُعد ثلاثة آلاف نسمة
يموت من الجوع. انظر الى وجوههم مرة أخرى. ان الخوف يجثم
عليهم جميعاً؛ فتحات أنوفهم ترتجف، انهم يشعرون بقدوم يوم
الرب. انظر الى النسوة. حتى الأشد شرفاً بينهن تسترق النظرات
الى عبدها، وتلعب شفيتها وتومئ اليه: تعال!

«ها أنا أكشف عما بداخل قصورهم. انظر. الملك يحضن
زوجة أخيه وهي على ركبته ويداعب جسدها العاري. ماذا يقول
الكتاب المقدس؟ «ان من ينظر الى جسد زوجة أخيه العاري - فعليه
الموت». ليس هو، الملك السافح، من سيقتل، بل أنا، الزاهد، لماذا -
لأن يوم الرب قد حان!»

طوال تلك الليلة الأولى ظل يسوع جالساً عند قدمي المعمداني
يراقب الجوع، والخوف، والجور، والخزي داخلين خارجين من

بوابات اورشليم الأربع المفتوحة. وكانت الفيوم تتلبد فوق العاهرة
المقدسة محملة بالغضب والبرد.

في الليلة الثانية من المعمداني مرة أخرى يده الشبيهة بعود
قصب بحركة سريعة مخترقاً بها الزمن والمدي. «أنصت، ماذا
تسمع؟»

«لاشيء»

«لاشيء؟ الا تسمع صوت الاثم، الكلبة التي ارتقت دون أي
احساس بالخجل الى السماء وراحت تتبج على باب الرب؟ ألم تتجول
في اورشليم فترة كافية، ألم تر الكهنة يعمون، وكبار الكهنة، والكتبة
والفريسيين الذين يحيطون بالهيكل؟ لكن الرب لم يعد يتحمل وقاحة
أهل الأرض. لقد ثار، وهو ينزل من سفوح الجبال قادماً إلينا، أمامه
الغضب، ومن خلفه كلاب السماء الثلاثة، النار، والجذام، والجنون،
أين هو الهيكل ذو الأنفة، والأعمدة المطعمة بالذهب التي تدعّمه،
وتتادي: سرمدي! سرمدي! المعبد رماد، والكهنة، وكبار
الكتبة، والكتبة، والفريسيون رماد، وتماثيلهم المقدسة، وغفاراتهم
الحريرية وأقراطهم الذهبية رماد! رماد! رماد!

«أين هي اورشليم؟ انني أحمل مصباحاً مضاءً، وأفتش في
الجبال وسط ظلام الرب، وأصرخ «اورشليم لا يا اورشليم»، وحيداً،
منبوذاً من الجميع: لا أسمع حتى صوت غراب يجيبني - فالغريان
قد أكلت، ورحلت. وغصت بين الجماجم والعظام حتى ركبتي،
والدموع تترقق في عيني، لكنني دفعت العظام بعيداً عن طريقي،
ضحككت، وانحنيت وانتقيت أطولها، وصنعت منها ناباً ورحت أعزف
نجد الرب»

طوال الليلة الثانية كان المعمداني يضحك، وقف وسط ظلام
الرب وراح يمدح النار، والجذام والجنون. أمسك يسوع بركبة النبي،

وسأله «ألا يمكن أن يأتي الخلاص إلى العالم بواسطة المحبة؟
بواسطة المحبة، والفرح، والرحمة؟»

أجاب المعمداني، دون أن يلتفت إليه «ألم تقرأ الكتاب المقدس
قطعة؟ إن المخلص يسحق عورتنا، ويكسر أسنانتنا، ويقذف نيراناً
على حقولنا ويحرقها - وكل هذا من أجل أن يبذر - وهو ينزع
الأشواك، والأعشاب العفنة، والقراص. فكيف يمكنك أن تحو
زيفنا، وعارنا وجورنا عن وجه العالم إذا لم يسنّصل الكذابين،
والظالمين، والجبنا - يجب تنظيف الأرض - لا ترثي لها - نظفها،
اعدها لزراعة بذور جديدة»

ومرت الليلة الثانية، ولم يفهم يسوع بكلمة. كان بانتظار الليلة
الثالثة: لعل صوت النبي يرق.

في الليلة الثالثة تقلقل المعمداني على الصخرة وتقلب من
القلق، ودون أن يضحك، ودون أن يتكلم، راح يتأمل يسوع مكروباً،
وتلمس ذراعيه ويديه، وكتفيه وركبتيه، ثم هز رأسه ولزم الصمت،
ينفخ الهواء. شع وجهه، من ضياء نور النجوم، يتلألأ تارة باللون
الأخضر، وطوراً بالأصفر، وجرى عرق ممزوج بالدم من جبينه
المسفوح بحرارة الشمس. وأخيراً، عند انبلاج النهار، وحين سقط
عليهما ضياء الفجر، أمسك بيد يسوع، ونظر في عينيه، وعبس.

«حين رايتك لأول مرة تبرز من بين عيدان القصب على ضفاف
نهر الأردن وتتقدم نحوي مباشرة، قفز قلبي قفز عجل صغير. أنتخيل
كيف طفر قلب سموييل حين رأى للمرة الأولى الراعي الأمرد ذا
الشعر الأحمر داوود؟ هكذا طفر قلبي. لكن القلب من لحم ولا يعيش
إلا لحم، وأنا لا أثق به. في الليلة الفائتة تفحصتُك، وشممتك وكأني
كنت أراك للمرة الأولى، لكنني لم أجد السكينة. نظرت إلى يديك. لم
تكونا يدي قاطع أخشاب، أو مخلص. فقد كانتا شديدي الرقة،

تقيضان بالرحمة. فكيف يسعهما أن تضربا بالأس؟ ونظرت إلى
عينيك، فلم أجدهما عيني مخلص - انهما مشغمتان بالعطف،
فنهضت وتهدت، وغمغمت، يا رب، أساليبك مبهمة وغامضة، أنت
قادر على إرسال حمامة بيضاء لتحرق العالم وتحوله رماداً. اننا
نراقب السموات، متوقعين حدوث صواعق، أو هبوط نسر أو غراب -
فاذا بك ترسل لنا حمامة بيضاء. مافائدة التساؤل والمقاومة إذن لتكن
مشيئتك، ونشر ذراعيه وعانق يسوع، وقبله على كتفه الأيمن، ثم على
كتفه الأيسر. قال «إن كنت من أنتظره، فانك لم تأت على الصورة التي
تخيلها. أكان عبثاً إذن حملي للأس ووضعه عند جذور الشجرة؟ أم
هل تحسن المحبة أيضاً استخدام الأس؟» ثم تفكر قليلاً، وأخيراً
تعمم قائلاً «لا أستطيع أن أقرر. سوف أموت دون أن أصل إلى نتيجة.
لا يهم، هذا هو قدري، وهو قدر قاس - لكنه يعجبني!»، وشد على يد
يسوع «أذهب، وحظاً سعيداً. أذهب وكلم الرب في الصحراء. ولكن
أسرع بالعودة، لكي لا يبق العالم وحيداً»

فتح يسوع عينيه. نهر الأردن، والمعمداني والمعمدون، والجمال
والنائحون من الناس - كلهم تبخروا في الهواء وتلاشوا، الآن لم يعد
يمتد أمامه غير الصحراء. وكانت الشمس قد ارتفعت عالياً واحتدم
لظاها، فالأحجار تطلق بخاراً كإرغفة من الخبز. وشعر بأحشائه
تتمزق من شدة الجوع. غمغم وهو ينظر إلى الأحجار «أنا جائع،
جائع»، وتذكر الخبز الذي قدمته له السامرية العجوز: كم كان
لذيذاً حلواً كالعسل! وتذكر العسل، والزيتون المشقوق والتمر الذي
كان يقدم له كلما مرّ بإحدى القرى، والعشاء المقدس الذي تناولوه
على ضفاف بحيرة جنيسمارت، حيث جلسوا ورفعوا المشواة، بما
عليها من شواء السمك الذكي الرائحة، عن منصب النار. وبعد ذلك
راودت مخيلته ثمار الثين، والعنب والرمان، مما زاد من اناره جوعه.

جف حلقه ويس من العطش. كم من نهر يتدفق في العالم! وكل تلك المياه تتفاقر من صخرة الى صخرة، وتجري من أحد أطراف أرض إسرائيل الى الطرف الآخر، ثم تصب في البحر الميت وتختفي. وليس لديه قطرة ماء واحدة ليشربها! أصابه الدوار، وزهرت عيناه، برز أمامه من قلب الرمال الملتهية شيطانان مكرران على صورة أرنيين صغيرين وقفا على قوائمهما الخلفية وراحا يرقصان، والتفتا، فشاهدا هذا الناسك، وزعما يسعادة وأخذا يقتربان منه قفزاً. ارتقيا ركبتيه ثم قفزا على كتفيه، كان أحدهما بارداً كالماء، والثاني دافئاً ويفوح بالشدى، مثل رغيف خبز، لكنه حين مد يديه تواقاً للامساك بهما، تلاشيا في الهواء بقفزة واحدة. اغمض عينيه واستجمع أفكاره التي بددها احساسه بالجوع والعطش وخطر الرب على ياله، فلم يعد جائعاً ولا ظمآن، وأخذ يفكر في تخليص العالم. آه، ليت بالامكان أن يأتي يوم بمعونة المحبة وحدها! ليس الرب كلي القدرة؟ فلم لم يات بمعجزة ويلمسه واحدة يجعل قلوب البشر تزهر! انظر كيف تتفتح في كل عام في عيد الفصح السويقات الجرداء، والمروج والأشواك بلمسة منه. ليت الناس يستيقظون ذات يوم ليجدوا ذواتهم الأعمق وقد أزهرت! ابتسم. كان العالم في أفكاره قد أزهر: فالملك الخليع قد عُمد، وتطهرت روحه، وأعاد زوجة أخيه هيرودياس الى زوجها، وفتح كيار الكهان والنبلاء مخازن أغذيتهم وخزائن نفائسهم. ووزعوا الأغذية على الفقراء: فعاد الفقراء من جديد يتفلسون نسيم الحرية وينبذون الحقد والحسد والخوف من قلوبهم... نظر يسوع الى يديه، فوجد أن الناس سلمه له السابق قد أزهر: أصبح يستقر في كفه الآن غصن لوز مزهر.

بهذا الشعور المريح انتهى النهار، فتمدد على الصخرة واستغرق

في النوم. وطوال الليل كان يسمع في منامه خرير ماء يجري، وأرانب صغيرة تتراقص وصوت حفيف غريب، وفتحتي أنف رطبتين تتفحصانه. وخيل اليه قرابة منتصف الليل أن ابن أوى جائع اقترب منه وأخذ يشمه. ووقف الحيوان برهة من الوقت يتسائل، أهذه جيفة، أم لا؟ دون أن يستقر على قرار، وأشفق عليه يسوع، في منامه. أراد أن يشق لأجله صدره ويقدمه طعاماً له، لكنه كبح نفسه، انه يحتفظ بلحمه للبشر.

أفاق قبيل بزوغ الفجر. كانت كوكبة هائلة من النجوم تغطي صفحة السماء، والقضاء زغبياً وأزرق اللون. قال في نفسه، ان الديكة تستيقظ في هذه الساعة، والمزارعون استيقظوا، والرجال يفتحون عيونهم وينظرون من خلال الكوة الى التوهج العائد من جديد. ويستيقظ الأولاد بدورهم، ويبدأ الصراخ العالي وتقترب الأمهات ليقدمن لهم أئداءهن... ولبرهة من الزمن يمتاوج العالم فوق الصحراء بأناسه ومنازله وديكته وأطفاله وأمهاته - المغزولين كلهم من صقيع الفجر ونسيمه. ولكن سوف ترتفع الشمس الآن وتبتلعهم، أفلتت نبضة من قلب الزاهد. قال في نفسه، ليت بمقدوري أن أجعل هذا الصقيع أبدياً لكن عقل الرب لاقرار له، وحيه شفا هاوية مرعبة. انه يزرع عالماً، ويدمره حالماً بيداً بالانمار، ومن ثم يزرع آخر. وتذكر كلمات الممداني: «من يدري، فلعل المحبة تحمل فأساً...»

وارتعث جسمه، أرسل بصره في الصحراء. كان احمرارها وحشياً، تتهادى تحت أشعة الشمس التي ارتفعت بغضب، مستنقطة بمصاصفة. هبت الرياح، ووصلت الى أنفه رائحة قار وكبريت، وتذكر... سدوم وعمورة - بتصورهما، ومسارحهما، وحنائهما، وعاهراتهما - وهما غارقتان في القار. وكان ابراهيم قد هتف قائلاً

«الرحمة يا رب، لا تحرقهما. الست طيباً؟ اذن، فاشفق على مخلوقاتك»، فأجاب الرب قائلاً «أنا عادل، وسأحرقهما معاً»
 أكان ذلك، إذن، هو أسلوب الرب؟ ان كان الأمر كذلك، فضفاقة عظمى من القلب - كتلة اللين الطرية تلك - أن ينهض ويهتف: توقف!... وسأعلم، ماهو واجبنا؟ انه أن ننظر الى أسفل، ننقص آثار أقدام الرب على التراب ومن ثم نتبعها. وها أنا أنظر الى الأرض، وأرى بجلاء بصمات الرب مطبوعة على سدوم وعمورة، أن البحر الميت كله هو بصمة الرب، وطأ بقدمه، وإذا بالقصور، والمسارح، والحانات، وبيوت الدعارة - أو سدوم وعمورة بأكملهما - تقوص وسوف يطأ مرة أخرى، ومرة أخرى ستخفس الأرض جميعاً - بملوكها، وكبار كهنتها، وفيرسيتها، وسدوقيتها - الى أسفل السافلين.

ويدأ دون وعي منه يصرخ، كان عقله يهوى غضباً. حاول أن ينهض وقد نسي أن ركبتيه غير قادرتين على حمله لينطلق في إثر الرب، لكنه انهيار مثبطحاً على الأرض، مقطوع الأنفاس. رفع ناظره الى السماء الملتهبة، وصرخ «انتي عاجز! ألا تراني؟ أنا عاجز، فلم اخترتني؟ لا طاقة لي على الاحتمال!»، وبينما كان يصرخ، رأى كتلة سوداء على الرمال أمامه: انه الماعز، منزوع الأحشاء، وقوائمه محسوبة الى الأعلى. تذكر كيف انحنى فشاهد انعكاس وجهه هو في العينين الكئيبتين، فغمغم قائلاً «أنا الماعز، لقد وضعه الرب في طريقي ليريني من أنا والى أين أنا ذاهب...». وفجأة بدأ يبكي.. وتمتم «لا أريد... لا أريد... لا أريد أن أكون وحيداً، ساعدني»

وبينما هو كذلك منعياً يبكي هبّت نسمة منعشة، وتبددت رائحة القار والجيفة الكريهة وانتشر في الدنيا عبق عطر ذكي.

وسمع الزاهد خريز ماء، ورنين أساور وضحكاً عن بعد وكان يقترب، وأحس بالانغماس في جفنيه وأبطيه وحجزته. رفع ناظره ف رأى أمامه على صخرة حية لها عينا وصدر امرأة تلعب شفيتها وتحقق اليه. خطا الزاهد الى الخلف، وقد مسه الرب. أنكلك افعل، أم امرأة، أم أحد شياطين الصحراء الماكرين؟ مثل هذه الأفعى التفت حول الشجرة المحرمة في الجنة وأغوت الرجل الأول والمرأة الأولى بالاتحاد وبيد الأثم. سمع ضحكاً وضوت امرأة عذياً متعلقباً: «انتي أرثي لحالك يا ابن مريم، انك تهتف «لا أريد أن أكون وحيداً، ساعدوني»، انني أرثي لحالك، وهافت أثبت. كيف أستطيع مساعدتك؟»

«لا أريدك، أنا لم أنادك، من أنت؟»

«أنا روحك»

هتف يسوع مندهشاً «روحي!»، وأغمض عينيه من شدة

الرب.

«نعم، روحك، أنت تخاف أن تبقى وحيداً، جندك الأكبر آدم انتابه خوف مشابه، هو أيضاً سرخ طالياً المساعدة. فأتحد جسده وروحه وخرجت امرأة من ضلعه لتسليه»

«لا أريدك، لا أريدك انتي اذكر التفاحة التي أطعمتها لأدم، اذكر الملاك ذا السيف المعقوف»

«أنت تذكر، ولهذا تراك متألماً وتصرخ وتعجز عن العثور على طريقك. سوف أريك اياه، أعطني يدك، لا تنتظر خلقك، لا تذكر أي شيء. انظر الى ثديي وهما سيقودانك، اتبعهما، يا زوجي، انهما يفرغان الطريق معرفة تامة»

«انك متقوديني أيضاً الى الاثم اللذيذ والى الجحيم. لن آتي ان سبيلي سبيل آخر»

قهقهت الأفعى شاحرة، مكشرة عن أنيابها الحادة السامة
«تريد أن تقتني خطي الرب، خطي النسر - يا لك من دودة! أنت، يا
ابن النجار، تريد أن تحمل آثام البشرية جمعاء! ألا تكفيك آثامك؟
يا لصفاقتك اذ تعتقد أن من واجبك أن تتخذ العالم»
فكر الزاهد، وهو يرتعش... أنها محقة... محقة. أي صفاقة
هي أن أرغب في انقاذ العالم!

قالت الأفعى بصوت عذب، وعيناها تبرقان «سأهضي اليك
بسر يا ابن مريم»، وانزلت نازلة عن الصخرة كجريان الماء وأخذت
تزحف اليه، بزخارفها الفنية، وحين وصلت عند قدميه صعدت الى
ركبته، وتابعت طريقها الى أعلى بحركة ملتفة وبقسوة واحدة
وصلت الى فخذه، فغورته، فصدره وأخيراً اتكأت على كتفه. أمال
الزاهد رأسه مضطراً ليسمعها. لعقت الأفعى أذن يسوع بلسانها،
وكان صوتها مغرياً ونائياً: وكأنه قادم من الجليل، من أطراف بحيرة
جنيسارت: «أنا المجدلية... المجدلية... المجدلية...»

قال يسوع، مرتعشاً «ماذا؟ ماخطب المجدلية؟»

هستت الأفعى بلهجة أمرة «... المجدلية هي التي يجب أن
تتخذها! وليس الأرض - انسأ أمر الأرض. انها هي، المجدلية، التي
يجب انقاذها»

حاول يسوع أن ينفذ الأفعى لابعادها عن رأسه، لكنها
أقحمت نفسها الى الامام وهزت لسانها في أذنه «إن جسدي
جميل، هادئ، وتام الأوصاف. كل الأمم مرت عليه، ولكن كتب عليك
في يد الرب ومنذ طفولتك أن تكون هي من نصيبك. خذها، الرب
خلق الرجل والمرأة ليشاوجا، تزاوج المفتاح والقفل. افتحها، ان
أطفالك يجلسون رابضين معاً غافين داخلها، ينتظرونك كي تنفض
عنهم خدرهم لكي نهضوا ويخرجوا ويسيروا تحت نور الشمس.

اتسمع ما أقوله لك؟ ارفع ناظريك، أعطني إشارة. فقط أومن
برأسك، يا حبيبي وسأحضر لك الساعة، على فراش وتير -
زوجتك»

«زوجتي؟»

«زوجتك. انظر كيف تزوج الرب من العاهرة أورشليم. لقد
مرت عليها الأم كافة لكنه تزوجها ليخلصها. انظر كيف تزوج
النبي هوشع من العاهرة جومر ابنه ديلام، بالطريقة نفسها يأمرك
الرب أن تضاجع مريم المجدلية، زوجتك، لتنجبا أطفالاً وتخلصها»
هنا ضغطت الأفعى صدرها القاسي، البارد، المستدير على
صدر يسوع وراحت تتلرق ببطء، وحركة متمعجة، وتلف حوله،
فشعب لون يسوع وأغمض عينيه، فرأى جسد المجدلية القوي ذا
الردفين العاليين، يتلوى على ضفاف بحيرة جنيسارت، رآها تحديق
باتجاه نهر الأردن وتتند، ثم مدت يدها - كانت تبحث عنه، وكان
حضنها مملوفاً بالأطفال: أطفاله هو. كل ماكان عليه أن يفعله هو
أن يملف بزواية عينه، أن يتهد، وعلى الفور تحل السعادة الغامرة!
وتتغير حياته، تصبح أحلى، وأكثر إنسانية. هذا هو الدرب
الصحيح، هذا! سوف يعود الى الناصرة، الى منزل والدته، سوف
يتصالح مع أخويه. كان محض حماقة شباب - بل جنون - أن يرغب
بتخليص العالم ويموت اكراماً للإنسانية. ولكن الفضل يعود
للمجدلية، بوركت، في شفائه! سوف يعود الى ورشته، وينخرط من
جديد في مهنته الحبيبة، سيعود لصناعة المحارث والمهود،
والمعالف! سوف ينجب أطفالاً ويصبح كائناً بشرياً، سيد بيت،
وسيحترمه الفلاحون ويقفون كلما مر بهم. سوف يعمل طوال أيام
الاسبوع وفي يوم السبت سوف يتوجه الى الكنيس مرتدياً ثياباً
نظيفة نسجتها له زوجته المجدلية من خيوط الكتان والحبر،

ويربط رأسه بمتدليل غالي الثمن، ويضع في أصبعه خاتم زواج ذهبي، ويتخذ له مقعداً مع كبار القوم، فيجلس وينصت بسكينة ولا ميالة للكتابة والفريسيين المهتاجين، أنصاف المجانين، وهم يتصبيون عرقاً ويرتجفون وهم يؤولون ماجاء في الكتاب المقدس، فيضحك ضحكاً مكبوتاً ويلقي عليهم نظرة عطف، الى ما سينتهي هؤلاء اللاهوتيون؟ لقد كان باتخاذ زوجة، وأنجاب الأطفال، وصناعة المحارث، والمهود والمعالف، أما يعمل على تفسير الكتاب المقدس بهدوء وطمأنينة... فتح عينيه فرأى الصحراء، أين ذهب النهار؟ كانت الشمس قد مالت مرة أخرى نحو الأفق، والأفق تنتظر وصدرها ملتصق بصدرة، تهس بهدوء وبطريقة مغرية. وانساب عبر أثير المساء تهوية ناعمة، كثيفة، اهتزت الصحراء برمتها وهودت كأنها أم.

هست الأفق هساً مثيراً «انتي أنتظر... أنتظر... لقد أدركنا الليل... أنا أشعر بالبرد، قرر، أعطني إيماءة، وستفتح لك أبواب الجنة. قرر يا حبيبي. المجدلية تنظروا...»

ثل الخوف الزاهد، وحين أوشك أن يفتح فمه ليقول نعم، شعر بوجود شخص فوقه ينظر اليه، فهزّ الرعب ورفع رأسه فرأى عينين معلقتين في الهواء، فقط عينين، سوداوين سواد الليل، وحاجبين أبيضين يتحركان ويومئان اليه أن : لا لا لا لا لا فأنكمش قلب يسوع، ومرة أخرى رفع الى أعلى نظرة توسل، وكأنه يود لو أنه يصرخ قائلاً : دعني وشأني! اسمع لي، ولا تغضب مني! لكن العينين كانتا مملوءتين بالحنق، والحاجبين يهترآن مهديين.

صرخ يسوع «لا لا لا لا»، وطرقت دمعان كبيرتان من عينيه، على الفور ثلّوت الأفق وتراخت عنه ثم أطلقت زعقة مكبوتة وانفجرت، واتخم الهواء برائحة كريهة.

انبطح يسوع على وجهه، فامتلا فمه، ومنخرأه وعيناه بالرمال، وأضحى كل شيء من ذهنه، أخذ يبكي، ونسي أمر جوعه وعطشه. بكى وكان زوجه وكل أطفاله قد ماتوا، وكان حياته برمتها قد تحطمت.

تتم، وهو يعرض الرمال «رب، رب، آيت، ألا ترحمني؟ فلنكن مشيئتك : كم من مرة قلت هذا حتى الآن، وكم من مرة سأقوله في المستقبل؟ سأظل طوال حياتي أرتجف، وأقاوم وأقول : فلنكن مشيئتك!»

ظل هكذا، يتمم ويبتلع الرمال، حتى استغرق في النوم؛ وبينما كانت عيناه جسده مغمضتين، كانت عيناه مفتوحتين ورأى شبح الأفق واضحاً كجسد إنسان متطاوّل من أول الليل الى آخره، كانت تمتد على أرض الرمال وقمها الواسع، الأحمر البراق مفتوحاً بجواره، وقبالة هذا الفم قفز طائر حجل منمق، يرتجف، يجاهد عيباً كي ينشر جناحيه ويهرب، ترنح وهو يتقدم مطلقاً صرخات قصيرة ضعيفة. وقد انتصب ريشه من الفزع، ثبّت الأفق التي لا تبدي حراكاً عينيهما عليه، فاعرة فمها، لم تكن على عجلة من أمرها، لأنها كانت واثقة من الليل من فريستها، تقدم طائر الحجل الى الأمام شيئاً فشيئاً متوجهاً مباشرة الى الفم المفتوح، وهو يتعثر بساقيه المعقوفين، ووقف يسوع ساكناً يراقب، ويرتجف مثل طائر الحجل، عند انبلاج النهار كان طائر قد وصل أخيراً الى الفم الفاجر، ارتعش برهة، ثم ألقي نظرة سريعة حوله وكأنه يفتش عن نجدة، وضجة مد عنقه وأدخل أولاً رأسه، ثم قدميه الالشتين، وأغلق الفم، واستطاع يسوع أن يرى طائر الحجل، كتلة من الريش واللحم وقدمين بلون الياقوت، يدخل شيئاً فشيئاً الى بطن التنين.

قفز من الرعب، كانت الصحراء كتلة من الأمواج العالية وردية اللون.

كانت الشمس ترتفع. تمت، وهو يرتجف «إنه الرب، وملائر
الحجل هو...»

هنا اختفى صوته، لم يكن يملك الشجاعة الكافية ليكمل
الصورة المتخيلة. ولكنه من الداخل كان يقول «... هو روح الإنسان.
إن «ملائر الحجل هو روح الإنسان»

ظل مستغرقاً في خيالاته ساعات طويلة. ارتفعت عين الشمس
والتهبت الرمال؛ واحترقت قمة رأس يسوع، ونفذت إلى داخله وجففت
دماغه، وحلقه وصدره. وتدلّت أحشائه وكأنها عناقيد من العنب
المتبقي بعد قطف فصل الخريف، والتصق لسانه بعنقه، وتشقق
جلده، وبرزت عظامه، وأصبح لون أطراف أصابعه بأكملها أزرق.

صار الزمن، في داخله، صغيراً كقبضة قلب، وكبيراً كاللوت، لم
يعد جائعاً ولا ظمآن، لم يعد يرغب بالأولاد والزوجة. لقد تركزت
روحه في عينيه. لقد رأى - هذا كل شيء - رأى. ولكن عند منتصف
الظهيرة عشي بصره؛ تلاشى العالم، وأمامه تمثل قم عملاق فاغر،
فكه السفلي هو الأرض، وفكه العلوي السموات. جرجر نفسه ببطء
وهو يرتجف باتجاه القم الفاغر، وعنقه مشرب...

تعاقت الأيام والليالي كومض لمع أبيض وأسود. وفي منتصف
ليل أحد الأيام جاء أسد ووقف أمامه، وهو يهز عرقه بكبرياء. كان
صوته أشبه بصوت رجل، وهو يقول «أهلاً بك في عريني»، أيها
الزاهد الظاهر، أنني أحبي الرجل الذي قهر القضايل الصغرى،
والمتع الوضيعة، والسعادة! أننا لا نحب ماهو سهل ومؤكد! إن
أنظارنا مثبتة على الأشياء الصعبة. والمجدلية ليست زوجة عظيمة
بالتشكل الذي يناسبنا: نحن نريد أن نتزوج من الأرض بأكملها، أيها
العريس، إن العروس تتهد، وأضيئت مصابيح السماوات، ووصل
الضيوف: فهيا بنا»

«من أنت؟»

«أنا ذاك - الأسد الجائع الكامن في قلبك وفي عورتك والذي
يجوس ليلاً حول زرائب الغنم، ممالك هذا العالم، ويتردد بين أن
يقفز إلى الداخل ويأكل أو لا يفعل. أنني أنطلق من بابل إلى
أورشليم، ومن أورشليم إلى الاسكندرية، ومن الاسكندرية إلى روما،
وأهتف أنا جائع، كل شيء ملكي! وعند انبلاج النهار أعود فأدخل
صدرك وأتكشم، والأسد الذي يبيت الرعب في القلوب يغدو حملاً.
أنني ألعب دور الزاهد المتواضع الذي لا يرغب في أي شيء، ويبدو
قادراً على العيش بحبة قمح، ورشفة ماء، ويرب وديع، لطيف المعشر
يحاول أن يتملقه بمناداته يا أبت، لكنني في السر، في قرارة قلبي،
أشعر بالخجل، وأغدو عنيفاً وأشتاق لهبوط الليل لأخلع عني لبوس
الحمل وأبدأ من جديد بالزئير، وأجوس في الليل وأطأ بقوائمي
الأربع أرض بابل، وأورشليم، والاسكندرية وروما...»

«لا أعرف من أنت. وأنا لم أرغب قط في مملكة هذا العالم.
تكفيني مملكة السماء»

«إنها لا تكفي. وأنت تخدع نفسك. يا صديقي، انها لا تكفيك.
انك لا تجرؤ على التحديق في أعماقك، في أعماق عورتك وقلبك
- بحثاً عني... لماذا تنظر إليّ شذراً وتسيء الظن بي؟ أنظن أنني
أمثل الغواية، وأنتي أجتسم لحساب الشر، وأنتي أتيت لأضلك؟
أيها الزاهد الأحق، أي قوة يمكن للغواية الخارجية أن تحظى بها؟
إن الحصن لا يقهر إلا من الداخل. أنا أعمق صوت لذاتك الأعمق،
أنا الأسد الكامن داخلك. لقد لبست لبوس حمل لبثت الشجاعة في
الناس ليقتربوا منك، وبذا تتمكن من التهامهم. تذكر، حين كنت
طفلاً صغيراً نظرت عرافة كلدانية في راحة يدك. وقالت: «أرى
نجوماً لا تحصى، وصلباناً كثيرة. سوف تصبح ملكاً». فلماذا تدعي

النسيان؟ انه في ذاكرتك ليل نهار. هاتهض، يا ابن داوود، وادخل مملكتك!»

انصت يسوع وهو مطرق، وشيئاً فشيئاً اخذ يتعرف على الصوت، وشيئاً فشيئاً تذكر انه سمعه في وقت ما في احلامه وسمعه مرة حين كان طفلاً بعد ان جلده يهوذا، ومرة اخرى بعد ان غادر منزله وراح يجول في الحقول لايام وليال طوال، يقرصه الجوع، ثم عاد مخذولاً الى البيت، ليستقبله اخواه، سمعان الأعرج ويعقوب الورع، بصيحات السخيرية وهما يسدان عليه الباب، ثم، الحق يقال، سمع زئير الأسد داخله... منذ وقت قريب، حين حمل الصليب لصلب الزيلوت ومرّ أمام الحشد العاصف، وراح الجميع يرمونه بنظرات الاشمشاز ويتعدون عن طريقه، مرة أخرى قفز الأسد داخله بقوة كبيرة حتى انه انطرح أرضاً.

والآن، وسط قلب الليل الموحش هذا - انظروا هاهو الأسد الزائر، الذي كان كامناً داخله قد خرج ووقف قبالة. حك نفسه به، واختفى ثم عاد فظهر، وكأنه يلح فيه ومن ثم يخرج منه، ويربت عليه بذيله عابثاً... شعر يسوع بقلبه يزداد عنفاً أكثر فأكثر. وقال في نفسه، ان الأسد على حق تماماً، لقد سئمت كل هذا، سئمت كوني جائعاً، ورغبتي في أن ألعب لعبة المذلة، وتقديم خدي الآخر ليصفع. سئمت تملق هذا الرب الأكل للبشر. بمناداته أبت لأتزلّف له فيترقق بي، سئمت سماع أخوي يلعناني، وأمي تبكي، والرجال يضحكون مني لدى مروري بهم، سئمت المسير حافي القدمين، وعجزي عن شراء العسل، والخمر والنسوة اللواتي أشاهدن لدى مروري بالسوق، وكوني لا أجِد الشجاعة الا في منامي لأطلب من الرب أن يزودني بهم، لأتذوق الهواء الخاوي وأعانقه! سئمت كل شيء! سوف أنهض، وأتمنلق بسيف الأسلاف - ألسنت ابن داوود؟ -

وادخل مملكتي! إن الأسد محق، كفاني أفكاراً وأوهاماً وممالك سماوية. الحجارة والتراب واللحم - تلك هي مملكتي! نهض واقفاً. وبشكل ما وجد القدرة على القفز والتمنطق، التمنطق الى الأبد بسيف خفي، وزار كالأسد، انه مستعد. وصرخ «الى الامام»، والتفت لكن الأسد كان قد اختفى. وسمع ضحكاً يتردد من فوقه وصوتاً يقول «انظروا». وشق قلب الليل ومض برق فجعد في مكانه لا يتحرك. وتحف بكل هذا سهول، وجبال، وبحر، كانت بأبل وساحات، وأناس، وتحف بكل هذا السهول، وجبال، وبحر، كانت بأبل تقع الى اليمين، وأورشليم والاسكندرية الى اليسار، وعبر البحر كانت روما، ومرة أخرى سمع من يقول: «انظروا».

رفع يسوع ناظره، فرأى ملاكاً بجناحين أصفرين يهبط باندفاع انقباضني من السماء. وسمع عويلاً: كان الناس في الممالك الأربع يرفعون أذرعهم الى السماء، لكن أيديهم كانت قد تساقطت من أماكنها بعد أن تآكلت بسبب الجذام. وكانوا يباعدون ما بين شفاههم يريدون أن يصرخوا «ساعدونا»، لكن شفاههم سقطت، نهشها الجذام. وكانت الطرقات مملوءة بالأيدي والأنوف والأفواه.

بينما كان يسوع يصرخ رافعاً ذراعيه الى أعلى «الرحمة، يا رب، أراف بالبشر!» انقضّ ملاك آخر، بجناحين أرقطين، تحيط بقدميه وعنقه أجراس، هابئاً من السماء. وعلى الفور ضجت في أرجاء الأرض كلها أصوات ضحكات وقهقهات: كان المجذومون الذين ضميرهم الجنون يتراكمضون شئراً مذنّباً. وما تبقى من أجسادهم كان ينفجر في نوبات من الضحك..

سَدَّ يسوع أذنيه وهو يرتجف لكي لا يسمع. ثم انقضّ ملاك ثالث، أحمر الجناحين، كانشهاب من السماء، وتجمعت أربع نوافير من نار، وأربعة أعمدة من الدخان، وخبت النجوم من ندرة الهواء.

هب نسيم رقيق، مبدداً الأدخنة، آمنن يسوع النظر، شالقي أن
الممالك الأربع قد أضحت أربع حفنات من الرماد.

مرة أخرى تردد الصوت قائلاً : «هذه، أيها البائس، هي ممالك
هذا العالم التي تسعى لامتلاكها، وأولئك هم ملائكتي الثلاثة
الأحياء : الجذام، والجئون، والنار. لقد حان يوم الرب - يومي،
خاصتي». ومع قصف الرعد الأخير هذا اختفى البرق.

وجد الفجر يسوع منبطحاً ووجهه غائص في الرمال، لا بد أنه
أثناء الليل تدحرج عن الصخرة وأخذ يبكي ويبكي، لأن عينيه كانتا
متورمتين وتؤلّمانه. نظر فيما حوله، أيمكن أن تكون هذه الرمال
اللامتناهية هي روحه؟ كانت الصحراء تبدل، تدب فيها الحياة.
سمع صراخاً حاداً، وضجحات ساخرة، وبكاءاً. وثمة حيوانات
صغيرة تشبه الأرانب، والسناجب، وأبناء عرس، وكلها ذات عين
بلون أحمر ياقوتي، تتقدم منه قفزاً، قال في نفسه، انه جنون،
جنون، جاء ليفترسني. أطلق صرخة، فاخفتت الحيوانات، ومثل
أمامه شامخاً ملاك مهيب يتدلى من عنقه هلال ويشع من بين
حاجبيه نجم مبهج، ونشر جناحيه الأخضرين.

ظل يسوع عينيه درءاً لل نور المهر، وهمس «ملاك مهيب»
طوي الملاك المهيب جناحيه وابتسم. قال ألم تعرفني؟ ألا
تذكرني؟

«لا، لا من أنت؟ ابتعد قليلاً أيها الملاك المهيب. إن نورك
يعميّني»

«ألا تذكر حين كنت طفلاً غير قادر على المشي، كيف تمسكت
ببواب منزلكم وبملايس أملك حتى لا تقع، ومصرخت من داخلك،
صرخت بصوت عالٍ «رب، اجعلني ربياً! رب، اجعلني ربياً! رب،
اجعلني ربياً!»

«لا تذكرني بكفري المشين ذاك. انتي لا أزال أذكرك!»

«انتني أنا ذاك الصوت الداخلي. أنا الذي صرخ عندئذ، ولا
أزال أصرخ، لكنك خائف وتنتظر بأنك لا تسمع. أما الآن
فستتصمت إلي، شئت أم أبيت. لقد حانت الساعة. لقد اخترتك
حتى من قبل أن تولد - أنت، من بين كل البشر. انتي تعمل وأومض
داخلك، وأمنعك من السقوط في الفضائل الثانوية، والمنع الصغيرة،
في السعادة. انظر كيف عملت الآن على إبعاد المرأة التي جاءت إلى
الصحراء حيث جلبتك. كم من مملكة قامت، ثم أقصيتها. هذا من
فعلي أنا، لا أنت. انتي أدخرك لصير أهم بكثير، وأصعب»

«أكثر أهمية... وصعوبة...»

«الأم كنت تصيبو وأنت صفيبرة إلى أن تكون ربياً. وهذا
ماستكونه»

«لا تكلمش، لا تثن. هذا ما ستكونه، هذا ما أصبحته فعلاً.
ماهي باعتقادك الكلمات التي ألقتها عليك اليمامة البرية في نهر
الأردن؟»

«قل لي! قل لي!»

«أنت ابني، أنت ابني الوحيد! هذه هي الرسالة التي حملتها
إليك اليمامة البرية. لكنك لم تكن يمامة برية، بل كان جبرائيل
الملاك الجليل. لذا فأنا أحييك. يا ابن الرب، ابنه الوحيد!»

خفق جناحان داخل صدر يسوع، وشعر بنجم صباحي كبير.
متعرد، يتلظى بين حاجبيه، وتضاعدت صرخة داخله: لست إنساناً،
ولا ملاكاً، ولا عبيدك، يا أدوناي - أنا ابنك. سوف أترع على
عرشك لأحاسب الأحياء والموتى. سوف أحمل بيدي اليماني كوكباً -
هو العالم - وألهو به. فافصح لي مكاناً لأجلس!

سمع يسوع جلجلة ضحك في الهواء، فأجفل. كان الملاك قد

اختفى. أطلق صرخة ثاقبة «ابليس!» وسقط منكباً على وجهه على الرمال.

قال صوت ساخراً «سارك ثانية. سنقابل من جديد ذات يوم - قريباً»

ولول يسوع، ورأسه مطمور في الرمال «أبدأ، أبدأ، أيها الشيطان!»

ردد الصوت «قريباً» في عيد الفصح. أيها اليائس التعس! أخذ يسوع ينتحب، وانهمرت دموعه سخية على الرمال، تغسل وجهه، وتشطفها، وتطهرها. وقرابة المساء هبت نسائم منعشة، ورفقت أشعة الشمس وصبغت الجبال الثانية باللون القزويني. ثم سمع يسوع صوتاً رحيماً يأمره، وشعر بيد خفية تلمس كتفه.

«انهض. فقد حان يوم الرب. أسرع واحمل الرسالة الى البشرية منادياً: «أنا قائم»

الفصل الثامن عشر

ما أسرع ما قطع الصحراء، ووصل الى البحر الميت ودار حوله ومرة أخرى وطأ أرضاً محروثة وتشتق هواءاً مشبعاً يعمق الرجال! كان يسير مستعينا بعضاً - والا فمن أين كان سيستمد العون؟ كانت هناك يدان خفيتان ترفعانه من تحت ابطنيه. تلذت الغيمة الرقيقة التي تشكلت فوق الصحراء. واسودت، واحتلت صفحة السماء. ثم قصفت الرعد، وتبعته القطرات الأولى من المطر. اظلمت الأرض، وأضحت الدروب، وفجأة تدفقت شلالات السماء. جمع يسوع كفيه معاً، فامتلاً بالماء، وشرب. توقف برهة، يتساءل في أي طريق يسير. شق البرق الفضاء. وأضيء وجه الأرض لبرهة من الزمن بلون أصفر مزرق خفيف، ومن جديد عاد فجأة فغرق في الظلمة. أي طريق تؤدي الى اورشليم، وأيها يوصل الى يوحنا المعمدان؟ وماذا عن رفاقه الذين ينتظرونه بين عيدان القصب في النهر؟ همس «الرب يثيرني، يرسل صاعقة، يبين لي طريقي؟» وبينما كان يتكلم شق وميض الفضاء أمامه مباشرة. لقد أرسل له الرب إشارة، فتابع سيره بخطى وثقة في الاتجاه الذي عُيِّن له.

كانت تمطر مدراراً. تدفقت مياه السماء الذكورية وامتزجت مع مياه الأنهار والبحيرة، المياه الأنثوية للأرض. اتحدت الأرض والسماء والمطر، وراحت تلحق به، توجهه نحو البشرية. أخذ يغوص في الطين، فيشتبك في الجذور والأغصان، ويعبر الحفر. وعلى سطوع ومض البرق رأى شجيرة رمان مثقلة بشمارها. قطف رمانة: فامتألت يده بحبات الياقوت، وترطب حلقه. وقطف أخرى، فأخري: أكل، وبارك اليد التي زرعت الشجرة. وعاد ينطلق بطافة جديدة ويسير ويسير، الدنيا ظلام. هل الوقت نهار؟ أم ليل؟ ثقلت قدماء بالطين، وأحس بأنه يرفع الأرض برمتها مع كل خطوة، وفجأة وعلى هدى ومض البرق رأى أمامه قرية صغيرة جاثمة في أعلى أحد التلال. أشعل البرق المنازل البيضاء، ثم عاد فاطفاها. وطفرف قلبه فرحاً. ان الناس يجلسون في تلك المنازل - أخوة. ورغب في أن يلمس يداً إنسانية، أن يتنفس أنفاساً إنسانية، أن ياكل خبزاً، وأن يشرب خمراً، ويتحدث. منذ زمن وهو يتوق إلى العزلة، جاب الحقول والجبال، تحدث مع الطيور، والطرائد، لا يرغب في ملاقات البشر! أما الآن، يا حبيذاً لو يتاح له أن يلمس يداً إنسانية.

حس خطاه صاعداً المرتقى المرصوف بالحصى. وقد وجد القدرة لفعل ذلك، لأنه الآن بات يعرف وجهته، المكان الذي سيفضي إليه الدرب الذي يئنه له الرب. أثناء صعوده ترققت السحب وظهرت بقعة من السماء، وبانت الشمس قبيل غروبها، سمع دكة القرية تصيح، والكلاب تتبح، والنسوة فوق أسطح منازلهن يتخاطبن بالصياح. وتساعد دخان أزرق من المداخن. وتمكن من شم رائحة الخشب المحترق.

غمغم وهو يمر بأول منازل القرية ويسمع من داخله حديثاً إنسانياً «بوركت ذرية الانسان...»

الحجارة، والمياه، والبيوت كانت تشع - لا، لا تشع، بل تضحك. فقد أطفأت الأرض عطشها. لقد أفزع الفيضان الحيوانات والبشر معاً، ولكن السحب أخذت تتبعثر، كاشفة عن سماء زرقاء داكنة والشمس التي كانت قد حُجبت عادت من جديد وجلبت معها الطمأنينة إلى العالم. اخترق يسوع، منقوعاً وسعيداً، الأزقة الضيقة التي تفرق فيها المياه، وظهرت فتاة شابة تجر معزة كبيرة الضروع لترعاها.

سألها يسوع مبتسماً «ما اسم قريتك؟»
«بيت عنيا»

«وأي باب أطرق لأجد مكاناً أنام فيه؟ أنا غريب هنا»
أجابت الفتاة ضاحكة «أنتما وجدت باباً مفتوحاً، ادخل»

أنتما وجدت باباً أدخله. قال يسوع في نفسه، أهل هذه القرية شفقون، مضيافون، ثم تقدم باحثاً عن باب مفتوح. كانت الأزقة قد تحولت إلى أنهار صغيرة، لكن الأحجار الأكبر حجماً ارتفعت فوق مستوى الماء، فواصل يسوع تقدمه بالقفز من حجر إلى حجر. كانت أبواب المنازل سوداء كالحة جراء المطر، وموصدة. انعطف عند أول زاوية، فوجد باباً صغيراً مقوساً، مصبوغاً بصباغ أزرق، مفتوحاً على آخره. وكانت هناك امرأة شابة، قصيرة ولحيمة، بذهن كثيفة الدهن وشفتين غليظتين، واقفة عند المدخل. وكان يمكن رؤية امرأة شابة أخرى داخل المنزل ذي الاضاءة الباهتة. كانت جالسة على المغزل تتسج وتغني بصوت خافت.

اقترب يسوع، وتوقف عند عتبة الدار ثم وضع يده على قلبه إشارة التحية. قال «أنا غريب، جليلي. وأنا جائع وبرود. ولا مأوى لي، وأنا رجل شريف. اسمحي لي بقضاء الليل عنديكم. لقد أفييت الباب مفتوحاً، فدخلت. اعذريني»

التفتت المرأة الشاب إلى يدها ما تزال مملوءة بطعام الدجاج،
تأملته من رأسه إلى قدميه بهدوء، ثم ابتسمت، قالت «نحن في
خدمتك. أهلاً بك، ادخل»

تخلت الناصجة عن المغزل وخرجت إلى الفناء. كانت نحيلة
العظام، شاحبة، وجدائل شعرها الأسود مربوطة بشكل كعكة على
رأسها. كانت عيناها كبيرتين وغائمتين وحزبتين، وتحيط جبهتها
الرقيق بقلادة من القيروز كتعويذة ضد اللامة. نظرت إلى الزائر
فاحمرت خجلاً، قالت «نحن وحدنا. أخونا اليعازر ليس هنا. خرج
إلى نهر الأردن ليُعبد»

قالت الأخرى «مامم أن كنا وحدنا؟ إنه لن يأكلنا. ادخل أيها
الرجل الطيب. لا تصغ إليها: إنها تخاف من ظلها. سوف تنادي
على أهل القرية ليأتسوك، وسيأتي كبار السن ليسألك من أنت،
والى أين أنت ذاهب وعن الأخبار التي تحملها إلينا. فادخل أرجوك
إلى بيتنا المتواضع. ماذا بك؟ أنت تشعر بالبرد؟»

أجاب يسوع، وهو يعبر الغتية «أنا برود، وجائع، ونعسان»
قالت «سوف نعالج الأمور الثلاثة، فلا تخف. والآن أريدك أن
تعرف أن اسمي هو مرثا، وهذه أختي مريم. ما اسمك أنت؟»
«يسوع الناصري»

قالت مرثا ضاحكة، لتضايقه «وهل أنت صالح حقاً؟»
أجابها يسوع، وعلى وجهه سيماء قاسية «نعم، صالح. صالح
قدر ما أستطيع يا مرثا، يا أختاه»

دخل الكوخ. أشعلت مريم المصباح وعلّقته في مكانه ليضيء
الغرفة وجدرانها النظيفة المبيضة. كان هناك صندوقان من خشب
السرو المنقوش، وعدة مقاعد بلا ظهر، وعلى طول الجدار مدت
على مصطبة طويلة خشبية حشايا ووسائد ووضع المغزل في أحد

الأركان، وفي الآخر كان هناك جرتان خزفيتان لحفظ الزيتون
والزيت، ووضع إبريق من الماء البارد في مكانه على الرف إلى يمين
المدخل، وإلى جواره علّقت منشفة طويلة من الكتان على مشجب.
وكان يعلأ المنزل شذا خشب السرو والسفرجل. وفي الخلف كان
هناك موقد واسع خامد وأواني الطبخ معلّقة حوله.

«وسأضرم النار لكي تجف. اجلس»، وأحضرت مرثا مقعداً
ووضعت أمام الموقد، ثم أسرعت إلى فناء الدار وجلبت ملء ذراع
من أماليد الكرمة، وأغصان الغار وزندين من خشب الزيتون.
جلست أقرقضاء وأعدت الضرم على شكل كوخ صغير، وأشعلته.

جلس يسوع راكباً، واضعاً رأسه بين راحتي يديه، ومرفقيه
على ركبتيه، يراقبهما. قال في نفسه، يا لها من طقوس مقدسة أن
تعد الحطب وتشعل النار في يوم بارد. ثم يرتفع الذهب وكأنه أخت
رحيمة ليدفئك. وتدخل بيتاً غريباً، وأنت جائع وتعب، فتري أختين
أخريين لك، غريبتين، فتأثبان وتسهران على راحتك... ترغرت
عيناه بالدمع.

نهضت مرثا، وذهبت إلى غرفة المؤونة وجلبت خبزاً وعسلأ
ووعاء نحاسياً من الخمر، وضعتها عند قدمي الغريب، وقالت
«هذا فاتح للشهية، والآن سأضع الوعاء على النار لتذوق شيئاً
ساخناً، وتستعيد قواك. اعتقد أنك قادم من مسافة بعيدة»

أجابها «من أطراف الدنيا» وانكبّ بلهفة على تناول
الخبز والزيتون والعسل. ما أروعها، وما ألذها! ما أكرم الرب إذ
يهبها للبشره وراح يأكل ويأكل، حامداً الرب.

كانت مريم طوال الوقت واقفة عند حامل المصباح وهي تراقب
بصمت النار أولاً، ثم الضيف المفاجئ، ثم أختها التي غمرها القرح
لاستضافتهما رجل في بيتهما وأكرامه، وكانما نيت لها جناحان.

رفع يسوع قدر الخمر ونظر الى المراتين. قال «يا مرثا ومريم، يا أختي، لا بد انكما سمعنما عن القيصان الذي حدث زمن نوح. لقد كان كل الناس آمنين، وهكذا غرق الجميع ما عدا القلة الفاضلة التي ركبت السفينة وأنقذت. يا مرثا ومريم، أقسم لكم انه لو وقع فيضان آخر، ولو كان الأمر بيدي لأدعوكم لركوب السفينة، فسوف أفلح. يا أختي، لأنه في هذا المساء وصل الى باب داركم صيف رث الثياب، غريب، حاقي القدمين، فاضرمتم ناراً لأجله فتدفأ، وقدمتما له خبزاً فأكل حتى شبع، وأحسنتما الكلام معه فهبطت مملكة السماء وسكنت قلبه. سأشرب في صحتكما، يا أختي. انني ميتج لمقابلتكما»

اقتربت مريم وجلست عند قدميه، قالت وقد علت وجهها حمرة شديدة «لا أكاد أسمع صوتك جيداً، أيها الغريب حدثنا أيضاً»

وضعت مرثا الوعاء على النار، وأعدت المائدة، وسحبت ماءً بارداً من البئر في الفناء ثم أرسلت صبياً من الجيران ليعلم لعجائز القرية الثلاثة انها ترغب (لو يطلطفون) هي أن تدعوهم الى منزلها، لأن زائراً حل عليها وعلى أختها.

كررت مريم، وقد رأت سكوت يسوع «حدثنا أيضاً»

سأله يسوع «ماذا تريدان مني أن أقول يا مريم؟»، ولس جدائل شعرها الأسود مساً خفيفاً «الصمت مستحب، فهو يقول كل شيء»

«الصمت لا يرضي المرأة. ان النساء، لهني عليهن، يحتجن الى أكثر من الكلمة الطيبة»

قاطعتها مرثا، وكانت تزود المصباح بالزيت، فقد أوشك كبار القوم على الوصول وسوف ينخرطون مع الزائر في نقاش عميق، قالت «لا تنصت إليها حتى الكلمة الطيبة لا ترضي المرأة. حتى

الكلمة الطيبة لا ترضي جنس النساء. المرأة ترغب بسماع زوجها يهز المنزل بوقع خطواته. تريد أن ترضع وليدها حتى يسكن ما يعتلج في صدرها. تريد أشياء مثيرة، أيها اليسوع الجليلي، كثيرة. ولكن ماذا تعرفون أنتم الرجال عن مثل هذه الأمور»

حاولت أن تضحك فلم تستطع. كانت في الثلاثين من عمرها وغير متزوجة.

خيم عليهم الصمت، وهم ينصتون الى النار تلتهم زناد خشب الزيتون وتلقق الوعاء الخزفي الذي كان يغلي. وكانت عيون الأشخاص الثلاثة سارحة في اللهب.

أخيراً تكلمت مريم «ليتك فقط تعرف ما يجري في خاطر المرأة وهي جالسة تسج! لو تعرف لأشفتك عليه، يا يسوع الناصري»

قال يسوع مبتسماً «أنا أعرف. أنا أيضاً كنت امرأة يوماً، في حياة أخرى. وكنت أنسج»

«وأي كنت تفكر؟»

«بالرب، لأشيء آخر غير الرب يا مريم. وأنت؟»

لم تجب مريم، لكن صدرها كان يخفق، وسمعت مرثا حديثهما وتنهدت، لكنها أحجمت عن الكلام. وأخيراً لم تعد تقوى على الاحتمال.

قالت، وقد غدا صوتها فجأة أجشاً «لا تخف، فمريم وأنا، وكل النساء غير المتزوجات في العالم، نفكر في الرب. نحمله على ركبنا وكأنه زوج لنا»

أطرق يسوع رأسه ولم يتكلم. رفعت مرثا القدر من النار. وأعد طعام العشاء. وتوجهت الى غرفة المؤونة لكي تحضر صحافاً من الخزف لتقديم الطعام فيها.

قالت مريم همساً، لكي لا تسمعها أختها وهي في غرفة المؤونة

«أريد أن أقول لك شيئاً خطر بيالي ذات مرة بينما كنت أنسج. أنا أيضاً كنت أفكر في الرب في ذلك اليوم، وتحدثت إليه. قلت «يا رب، إذا سالتزلت ودخلت بيتاً المتواضع، فسوف تكون سيده، وسنكون ضيوفاً عليك». الآن... هنا اختلقت كلماتها، وصمتت. قال يسوع، وهو يميل إلى الأمام ليسمع، «والآن ماذا؟». وظهرت مرثا مع السعاف.

همست مريم «لاشيء»، ونهضت. قالت مرثا «تعالى وكلي، سيمصل الكبراء قريباً، لا يجب أن يرونا ونحن نتناول الطعام». جلس الثلاثة على الأرض، تناول يسوع الخبز، ورفعه عالياً وأخذ يلهج بحمد الرب بحرارة شديدة وتأثر كبير أدهش الأختين فالتفتتا إليه وحذقتا إليه. وحين وقع بصرهما عليه أصابهما الرعب، لأن وجهه كان يشع والهواء حول رأسه كان متوهجاً ويهتز. مدت مريم يدها، وصرخت «رب، أنت السيد ونحن الضيوف ونحن ملوعون أمرك».

ظالمًا يسوع رأسه لكي لا تريان مدى اضطرابه. كانت تلك هي الصرخة الأولى، المرة الأولى التي تتعرف فيها روح عليه. نهضوا عن المائدة المنخفضة حالما بدأت الظلمة تسد ممر الباب، ثم ظهر رجل عجوز عملاق القامة على العتبة. كانت لحيته تجري كمياه النهر، وعظامه ضخمة، وذراعاه قويتين، وصدره كثيف الشعر ككيش. وكان يمسك بعصا معقوفة أطول منه، ولم يكن يحملها ليتكئ عليها، بل ليضرب بها الآخرين ويحافظ على النظام في القرية.

قالت المرأتان معاً وهما تتحيان باحترام «أهلاً بك في منزلنا المتواضع أيها الأب ملكي صادق».

دخل، فظهر بعده عجوز ثان على العتبة الخالية. هذا الأخير كان نحيلاً، ذا رأس طويل، شبيه برأس حصان ذي فم أدرد. كان اللهب يتطاير من عينيه الصغيرتين، وكان من المستحيل النظر إليه مطولاً. ويقال إن سم الأفعى كامن خلف عينيها، أما خلف عيني ذلك الرجل فكانت النار، وخلف النار عقل غريب الأموار، منحرف التفكير.

انحنى المرأتان له باحترام، ورحبتا به، وولج بدوره إلى الداخل. ثم ظهر العجوز الثالث، وكان أعمى، قصيراً، وسميناً كخنزير. كان يمد عصاه إلى الأمام، فتقوده عيناه وتقيه من التعثر أثناء المشي. كان طيباً، ويجب القاء التكات، وحين يحكم بين القرويين لم يكن يطاوعه قلبه على انزال العقاب بأي منهم، ويقول «لست الرب، إن كل من يحكم سيحكم عليه. حلوا خلافاتكم، يا أولادي، حتى لا أقع في الحرج في الدار الآخرة»، أحياناً كان يدفع قيمة التعويض من جيبه الخاص، وتارة كان يودع نفسه السجن لينقذ المتعدي. وكان البعض يصفونه بالأحمق، والبعض الآخر بالقديس، أما الأب ملكي صادق فلم يكن يطبق رؤيته. ولكن ما حيلته، أنه يتعامل مع رجل متحدر من سلالة هارون المهيبة، وهو أكفأ رب بيت في القرية.

قال ملكي صادق، الذي كانت عصاه تصل حتى عوارض السقف «مرثا، أين الغريب الذي نزل بالقرية؟»

برز يسوع من الركن المجاور للمدخنة حيث كان يمكث، صامتاً يراقب تلطي النار.

قال العجوز، وهو يديق فيه من رأسه وحتى قدميه «أنت؟»

أجاب يسوع «نعم، أنا، وجئت من الناصرة».

غمغم العجوز الثاني، الحقود، بضمه الأدرد «جليلي؟ لا خير يأتي من الناصرة. هذا مايقوله الكتاب المقدس صراحة».

قاطعه العجوز الأعمى «لا تغفقه، أيها الأب صموئيل. صديح
أن الجليليين ثرثارون، حمقى، وقرويون أجلاف، لكنهم شرفاء. أن
ضيغنا هذا المساء هو رجل شريف، استشف ذلك من صوته». ثم
التفت إلى يسوع «أهلاً بك يا ولدي»

سأله ملكي صادق «هل أنت تاجر؟ ماذا تبيع؟»
بينما كان العجائز يتكلمون دخل الرجال المرموقون في القرية
- الملاك المحترمون - لما وجدوا الباب مفتوحاً. كانوا قد علموا بأمر
وصول غريب، فارتدوا أفخم ملابسهم وجاءوا ليزجوا الوقت
بالترحيب به، والاستعلام عن المكان الذي جاء منه وسماع أقواله.
دخلوا وركعوا على الأرض خلف العجائز الثلاثة.
قال يسوع «أنني لا أبيع أي شيء». كنت في السابق نجاراً في
القرية. لكني تخليت عن عملي، وغادرت منزل أُمِّي وكُرست نفسي
للرب»

قال الرجل الأعمى «أحسنت عملاً بالهرب من العالم، يا
ولدي. ولكن احذر، فأنت الآن، أيها المسكين، متورط مع شيطان
رجيم هذا الرب الذي ذكرته. فكيف ستغفل منه؟ ثم انفجر
ضاحكاً.

لدى سماع ملكي صادق العجوز هذا الكلام أوشك أن ينفجر
في نوبة غضب عارم. لكنه لزم الصمت.
قال العجوز الثاني بصوت كالهسيس الساخر «أأنت راهب؟
أتراك أحد أولئك اللاويين؟ أو الزيلوت؟ أم نبي زائف؟»
أجاب يسوع، متزعجاً «لا، لا، يا أبت. لا، لا»
«ما أنت إذن؟»

كانت نساء القرية قد دخلن الآن متزينات بما لديهن من حلي
لكي يرين الغريب ويبرهن. هل هو عجوز، أم شاب، ووسيم؟ ماذا

يبيع؟ أم لعله متقدم لطلب يد إحدى هاتين الجميلتين وأن كانتا
مسننتين، مرنّتا أو مريم؟ لقد مرّ زمن طويل جداً منذ أن عانق أيّاً
منهما رجل؛ ستفقدان عقليهما، المسكينتان... هيا بنا لنعرف!
جنّ متزينات، ووقفن صفّاً واحداً خلف الرجال.
ومرة أخرى سأله العجوز الخبيث «ما أنت، إذن؟»

فجأة شعر يسوع ببرودة تسري فيه فعدّ يديه أمام النار،
وتصاعد البخار من ملابسه التي كانت ماتزال رطبة. ظل فترة من
الوقت صامتاً، يتفكر. قال في نفسه، هذه فرصة طيبة للافصاح،
لحظة طيبة لأفشاء الكلمة التي أودعها الرب لديه ولايقاظ الرب
الهاجع داخل هؤلاء الرجال والنساء الذين دمروا أنفسهم في
السمعي وراء اهتمامات تافهة. ويسألونني ماذا أبيع؟ سوف أجيبهم
قائلاً: أبيع مملكة السماء، خلاص الروح، والحياة الأبدية.
فليخلعوا ملابسهم عن أجسادهم ليشتروا بها هذه اللؤلؤة النفيسة.
ألقي نظرة سريعة حوله، فلم ير غير الوجوه على ضوء المصباح
وعلى وهج النار؛ وجوها بشعة، مأكرة، شاخت بفعل الاهتمامات
الحقيرة، المهلكة؛ ذبلت من الخوف. أحس بالشفقة عليهم وأراد أن
ينهض واقفاً ويتكلم فيهم، لكنه هذا المساء كان مرهقاً جداً. لقد
مرت عليه أيام عديدة منذ أن نام تحت سقف منزل مخصص
للبيشر أو أراح رأسه على وسادة، فأتكا على جدار المدخنة المدخن
وقد غلبه النعاس، وأغمض عينيه.

تدخلت مريم قائلة، وهي تنظر نظرة توسل إلى العجائز «انه
تعب أيها السادة، فلا تعذبوه»

دمدم ملكي صادق قائلاً، وهو يتكئ على عصاه، وينهض
استعداداً للمغادرة «أنت محقة! محقة تماماً يا مريم. لقد تكلمنا
معه وكأننا قضائته، وننسى...» هنا التفت إلى العجوز الثاني «- لقد

أصدر ملكي صادق أمره قائلاً «هيا بنا، لقد أضعنا وقتنا بتحملنا مشقة المجيء الى هنا. لقد غلب النعاس الزائر. انهضوا، أيها العجائز، وهيا بنا»، وأخذ يشق طريقه بين الرجال والنساء مستعيناً بعصاه ليتمكن من المرور.

ولكن ما إن وصل الى الباب حتى سمع وقع خطى مستعجلة هي الفناء، ثم اندفع الى الداخل رجل يعلو سحنه الشحوب، ثم انهار كتلة واحدة أمام موقد النار، وقد انقطعت أنفاسه. هزعت الأختان اليه وعانتاه.

هتفتا «أخي، ماذا حدث لك؟ من الذي يطاردك؟» توقف ملكي صادق ولمس الواهدين الجديد بعصاه. قال «اليعازر، يا ابن مناحيم، ان كان لديك نيا غير سار فلتغادر النسوة المكان ويبقى الرجال، حتى نسمعه».

هتف اليعازر بنفس واحد «قبض الملك على يوحنا المعبداني وقطع رأسه».

ثم نهض واقفاً وهو يرتجف، كان مريضاً باليرقان، لونه بلون التربة، ووجنتاه مترهلتين أشبه ببشمطينين، وكانت عيناه ذاتي اللون الأخضر الفاتح تلتمعان أمام النار مثل عيني قطة بريّة.

قال العجوز الأعمى بسعادة «أمسيتا لم تذهب هباءاً. ففي الفترة الممتدة من الصباح الباكر وحتى الآن، ونحن نوشك أن نذهب للنوم، على الأقل حدث شيء أخيراً: العالم تحرك. فلنجلس إذن وننصت، أحب سماع الأخبار، حتى وإن كانت مقبضة».

ثم مال على اليعازر، وقال «تكلم، من فضلك، أيها الرجل الطيب، حدثنا متى وقع هذا الأمر المريع. وكيف ولماذا. رتب أفكارك ولا تتعجل - ان ذلك سيزجي وقتنا. احبسوا أنفاسكم... نحن منصتون».

نسيت، أيها الأب صموئيل، ان الملائكة كثيراً ما تهبط الى الأرض متخذة هيئة الفقراء، لا يرتدون غير رداء واحد متواضع ولا يمسكون بعصا، أو يحملون كيس نقود أو يتعلون حذاءً - مثل هذا الرجل. لذا يستحسن أن نعامل الغريب ونهتم به كما لو كان ملاكاً. وهذا ببساطة تصرف سليم».

عاد العجوز الأعمى يسخر، يضحك قائلاً «هذا أيضاً ببساطة كلام أحمق. أنا أقول اننا يجب أن نعتبر كل انسان ملاكاً، كل انسان، نعم، حتى العجوز صموئيل».

استشاط غضب العجوز الحشود، وكاد يفتح فمه، لكنه بعد تفكير غير رايه. لقد كان الأعمى الحقير ثرياً، وقد يحتاج اليه ذات يوم. من الأفضل التظاهر بالسقم - هذا أيضاً كان ببساطة من قبيل التصرف السليم.

سقط وهج النار الجميل على شعر يسوع ووجهه المنعب وعلى صدره المكشوف، والقي فجأة حزمة من الأشعة الزرقاء على اللحية الجعدة، السوداء الفاحمة.

قالت السيدات احداهن للأخرى خلسة «ما الذا، بالرغم من فقره. هل لاحظت عيناه انهما أرقى ما رأيت، أرق حتى من عيني زوجي وهو يضمني بين ذراعيه».

فقاطعتها أخرى «لم أر قط مثيلاً لهما في الضراوة. ان الرعب يسكنهما، تشعيرين برغبة في التخلي عن كل شيء واللجوء الى التلال».

«وهل رأيت مرثاً وهي تلتهمه بعينيها، يا عزيزتي؟ مسكينة، سوف تجن هذا المساء».

وقالت سيدة أخرى «لكنه يسرق النظر الى مريم. وهذا المساء سوف تحسم الفتاتان الأمر بينهما، ومثرتين. أنا جارتهما، وسأسمع زعيقتهما».

ياشر اليعازر بالقول «كنت في طريقي لأتعمد مع غيري من الناس، وكنت أمل أن يحسن ذلك صحتي، وكما تعلمون، فضحتي لم تكن على مايرام في الفترة الأخيرة، بل ان حالتي في الحقيقة كانت تسير من سيء الى أسوأ، فالدوار ينتابني، وبصري يعشى، وكليتي - قال المعجوز الأعمى هائلاً «حسن، حسن، نحن نعرف كل هذا. انتقل الى الأمر الهام»

«وصلت الى نهر الأردن ووقفت بالقرب من الجسر حيث تجمع الحشد استعداداً للتعميد. قسّمت صراخاً وبكاءاً فقلت للنفسى «انه لاشيء، لعلم الناس يعترفون بأثامهم ويكون»، وتقدمت أكثر قليلاً، فماذا أرى غير رجال ونساء غيططين على وجوههم في ملين النهر، يندبون، فسألت «ماذا حدث، يا أخوتي؟ لماذا نبيكون؟»

«لقد اغتيل النبي»

«ومن اغتاله؟»

«المجرم الآثم - هيرود»

«كيف، متى؟»

«كان ثملاً وكانت ابنة زوجته الشائلة سالومه ترقص أمامه عارية تماماً، وأطاش جمالها صواب الفاسق المعجوز. ثم اجلسها في حضنه وسألها ماذا تريد منه أن يعطيها، أتريد نصف مملكته؟ فقالت لا، ماذا تريد إذن؟ فقالت رأس يوحنا المعمدان، فقال لها، لك ما طلبت، وأحضره لها على طبق من فضة»

انهار اليعازر مرة أخرى على الأرض، وقد أرفقه الكلام، لم يتكلم أحد، يقيق لهب المصباح وخفق وكاد يخمد. نهضت مرثا واطقة وأعادت ملأه بالزيت، فعاد يشع من جديد.

كرر ملكي صادق المعجوز القول بعد صمت طويل «انها نهاية العالم»، وكان طوال الوقت يداعب لحيته بصمت ويتفكر في جور

كان يسوع قد نهض مجدلاً، وأخذ ينظر الى اليعازر وشفتاه ترتجفان، هذه إشارة جديدة أرسلها الرب. لقد غادر المسابق العالم، ولم تعد ثمة حاجة به، لقد مهد السبيل ورحل، وأدّى واجبه. قال يسوع وهو يرتعد، لقد حانت ساعتى... حانت ساعتى. لكنه لزم الصمت، وتسفرت عيناه على شفتي اليعازر ذاتي اللون الأخضر الفاتح.

دمدم المعجوز ملكي صادق قائلاً، وهو يدق الأرض غاضباً بعصاه بقوة «اذن فقد قتله؟ يا لها من حالة وصلنا اليها، بتنا نرى الفاسقين سفاحي المحارم يقتلون القديسين، والمنحلين يقتلون النساك! انها نهاية العالم»

استولى الرعب على النساء وأخذن يصرخن، فأشفق المعجوز الأعمى عليهن، قال «أنت تبألغ يا ملكي صادق، العالم ثابت القديمين. لا تخشين شيئاً أيتها النسوة»

قال اليعازر منتحباً، والدموع تجري سخية من عينيه «لقد نُحر عنق العالم، وأخمد صوت الصحراء، من الذي سيتوجه الى الرب باسمنا نحن الخاطئين؟ لقد يُثم العالم»

قال المعجوز الثاني بصوته الهاس «لا يجب أن ترفعوا أيديكم في وجه السلطة، مهما فعل أولو الأمر. أغمضوا عيونكم ولا تتطروا - الرب يرى كل شيء. كان على المعمدان أن يلتفت الى شؤوننا الخاصة، لقد نال ما يستحق»

هدر ملكي صادق قائلاً «هل أنتم عبيد؟ أنستطيعون أن نقولوا لي لماذا منعنا الرب أيدي؟ أنا أقولكم لكم: لكي نرفعها في وجوه الطفافة»

قال المعجوز الأعمى ساخطاً «صمتاً، أيها الآباء، حتى نسمع كيف وقع هذا الحادث الشرير، نكلم يا اليعازر»

العالم وخزيه. وكانت كثيراً ما تأتي أخبار من اورشليم تفيد بأن الوثنيين يذبحون الهيكل المقدس، ففي كل صباح يذبح الكهنة ثوراً وحملين كأضحية ليس لرب اسرائيل وإنما للإمبراطور الروماني الكافر، اللعين. ويفتح الأثرياء أبوابهم في الصباح ليجدوا أناساً ماتوا عند عتبات منازلهم جوعاً أثناء الليل، فيرفعون أطراف أثوابهم الحريرية ويتخلطون الجثث ليذهبوا ويستعرضوا أنفسهم في الممرات المقنطرة المحيطة بالهيكل... تفكر ملكي صادق في كل ما جال في خاطره، ثم وصل الى قرار: انها دون شك نهاية العالم. التفت الى يسموع، وقال «وانت، ماذا لديك تقوله حول هذا كله؟»

اجاب يسوع بصوت أصبح فجأة أعمق بكثير حتى أن الجميع التفتوا اليه وحذقوا اليه «لقد جئت من الصحراء وهناك رأيتهم. نعم، ثلاثة من الملائكة غادروا السموات ليحلوا على الأرض. رأيتهم يعني، ظاهرين عند أطراف السماء. انهم قادمون، الأول هو الجنام، والثاني الجنون، والثالث، أشدهم رحمة، النار. وسمعت صوتاً يقول «يا ابن النجار، ابن سفينة، وضع فيها أكبر عدد ممكن من البشر الفاضلين، ولكن أسرع»، ان يوم الرب جاء - يومي أنا. أنا قادم!»

انكشف العجايز الثلاثة، أما البقية فنهضوا من مجلسهم القرفصاء على الأرض، وأسنانهم تصطك. والتفتت النسوة، اللواتي أصرن بالبحر، نحو الباب بحركة واحدة. وتقدمت مريم وميرنا ووقفنا بجوار يسوع، وكأنهما تلتزمان حمايته. ألم يقسم بأن يأخذهما في سفينته؟ وما قد حان الوقت. جفف العجوز ملكي صادق العرق الذي تقصد من سبلتيه البيضاءين وهتف «الرجل الغريب يقول الحق، الحق! اسمعوا يا

اخوتي هذه المعجزة: عندما استيقظت هذا الصباح، فتحت الكتاب المقدس كعادتي فوقعت على كلمات النبي يوشيل: «اضربوا باليوق في صهيون صوتوا في جبل قدسي. ليرتعد جميع سكان الأرض لأن يوم الرب قادم لأنه قريب. يوم ظلام وقاتم... قدأمة نار تأكل وظلمة لهب يحرق... ومثل الأفراس يركضون، كحسريف المركبات على رؤوس الجبال يثبون كزفير لهب نار تأكل قشاً... هكذا يعمل يوم الرب»^(١). قرأت هذه الرسالة المريعة مرتين أو ثلاث وأخذت أنشدتها وأرقص حاضي القدمين في فناء داري. ثم انبطحت على وجهي وصرخت «يا رب اذا نويت أن تأتي قريباً فابعث لي إشارة، فيجب أن أستعد. يجب أن أشفق على المساكين، وأفتح خزائن مسؤولتي وأدفع ثمن أثامي. أرسل صاعقة، أو صوتاً، أو رجلاً ليحذرنى، لأكون على بيئة من الوقت المحدد»

ثم التفت الى يسوع «أنت هي الإشارة الرب أرسلك، فهل مازال أمامي وقت؟ متى ستفتح أبواب السموات، يا ولدي؟» اجابه يسوع «ان كل لحظة تمر يا أبت هي سماء قد تفتح. في كل لحظة يتقدم الجنام، والجنون، والنار، خطوة أخرى. أجنحتهم تكاد تلمس شعري.

كان اليعازر قد فتح عينيه ذاتي اللون الأخضر الفاتح وأسمعاً، وأخذ يحذق الى يسوع، وتقدم خطوة متعشرة نحوه.

سأله «أيمكن أن تكون أنت يسوع الناصري؟ يقولون انه حين قبض الكافر على الساطور ليقطع به رأس الممعداني، مد النبي يده مشيراً بها الى المصحراء. صرخ «يا يسوع الناصري، غادر الصحراء. عد الى الانسانية، تعال. لا تتغلى عن العالم». فإذا كنت

١ - سفر يوشيل : من الاصحاح الثاني.

انت يسوع الناصري، بوزكت الأرض التي تمشي عليها، لقد تطهر منزلي، وأنا عمتد وشفيت. ها أنا آخر وأمجد قدسيك»
بعد أن قال هذا مسجد ليقيم قدمي يسوع اللتين كانتا مثخنتين بالرضوض.

لكن العجوز الماكر صموئيل سرعان ما تماثل نفسه، وكان قد فقد توازنه وتداعى برهة، لكنه أسرع فثبت قدمه على الأرض، وقال في نفسه، اننا نجد في أسفار الأنبياء كل ما تلهج به قلوبنا. فشي صالحة يستشيط الرب غضباً على شعبه ويرفع قبضته مهديداً بمعقهم، وفي صفحة أخرى يكون شديد العنوية، وهكذا نعثر على النبوة التي توافق مزاجنا المشرق - فلندع القلق جانباً... هز رأسه الشبيه برأس حصان وتكلف ابتسامة وسط لحيته، لكنه لم يقل شيئاً، فليخف الناس كما يشاؤون، الخوف يفيدهم، فبدون الخوف... يزداد الناس عدداً وقوة. ونضيق نحن!

لهذا لزم الصمت والقي نظرة اشمزاز على اليعازر الذي كان يعمّر قدمي الزائر ويقول له :
«أن كان الجليليون الذين قابلتهم على ضفاف نهر الأردن هم تلاميذك يا معلم، فقد سلموني رسالة أوصلها اليك في حال قابلتك. يقولون فيها انهم راحلون، وانهم سينتظرونك في اورشليم، عند بوابة داود، في حانة سمعان القيرواني. ومن الواضح أن الخوف تملكهم بعد قتل النبي قهرىوا بغية الاختباء. لقد بدأ الاضطهاد»

في تلك الأثناء التصقت النسوة بأزواجهن، وكن يحاولن جرّهم للمغادرة، لقد فهمن كل شيء، وكن يقلن لأنفسهن، هذا الأجنبي له عين أفعى، ينظر اليك فتفقد صوابك، ويتكلم فينهار العالم. هيا بنا نرحل!

أشفق العجوز الأعمى عليهن، فهتف «تشجعن، يا بناتي. ان ما أسمعته لأمر رهيب، ولكن لا تخفن، كل شيء سيعود بسلام الى نصابه من جديد - وسترين، ان العالم ثابت، أساسه متين وسيظل كذلك مادام الرب موجوداً، لا تصغين الى المبصرين؛ أصغين اليّ أنا، الأعمى، الذي يرى أفضل منكم جميعاً. ان بني اسرائيل خالدون، لقد وقعوا اتفاقية مع الرب : الرب وضع ختمه عليها ووهبنا الأرض كلها. فلا تخفن. كاد الليل ينتصف - هيا بنا الى النوم، ثم مد عصاه ومشى بخط مستقيم نحو الباب.

العجائز الثلاثة كانوا أول المغادرين، بعدهم خرج بقية الرجال، وأخيراً خرجت النساء - وهكذا خلا المنزل من الناس. أعدت الأختان سريراً للزائر على منصة خشبية. وفتحت مريم صندوقها وأخرجت منه الملاءات الحريرية والكتانية التي كان مقررأ لها أن تستخدمها في ليلة عرسها. وأحضرت مرثا اللعاف المساتان المحشو بالريش وكانت تحتفظ به منذ ستين طويلة لم يمسه أحد، بانتظار الليلة الموعودة التي ستغطيها فيها مع زوجها. وأحضرت أيضاً أعشاباً معطرة - كالحبق والنعناع - وحشت بها وسادته حتى عمرت.

قالت مرثا وهي تتهد «سينام الليلة وكأنه عريس»، وتتهدّت مريم بدورها، لكنها لم تقل شيئاً. وغفمت لنفسها فائتلة، أغلق أذنيك يا رب. العالم طيب بالرغم من تهدياتي، نعم، طيب، لكني شديدة الخوف من الوحدة، وهذا الزائر يعجيني كثيراً...

دخلت الأختان الى الغرفة الداخلية الصغيرة واضطجعتا على الفراشين القاسيين. ونام الرجلان على المنصة الخشبية، كل من جهة، وتلامست أقدامهما. كان اليعازر سعيداً. يا للطهارة والغبطة اللتين تخيمان على المنزل بكامله! كان يتنفس بهدوء وعمق، وشدّ

أخمصني قدميه بلطف على الأخمصين المقدسين فشمع بقوة غامضة، ييقن علوي، يتصاعد وينتشر على كامل جسمه. لم تعد كليته تؤلمه، وكف قلبه عن الوجيب، وتهدق دمه بسلام، وطمانينة من رأسه إلى أطراف أصابع قدميه وروى جسمه المريض بالبرقان. قال في نفسه، هذه هي المعمودية الحقّة، هذه الليلة عُمدنا جميعاً - أنا، والمنزل، وشقيقتي. لقد مرّ نهر الأردن من منزلنا، ولكن هيهات أن يداعب النوم عيون الشقيقتين! فمئذ سنين عديدة لم يتم رجل غريب تحت سقف منزلهم. كان الزوار غالباً ما ينزلون عند أحد وجهاء القرية، ولا يفكر أحدهم قط بالنزول في كوخهم المتواضع، المنعزل، ثم أن أخاهم المريض، الغريب الأطوار لم يكن اجتماعياً. أما هذه الليلة فأي فرح مفاجئ حلّ عليهم! كانت فتحات أنفيهما تتحرك تشم الهواء. كم تغيّرا، كم أصبح عطراً! - ليس يعطر الحبق والنعناع وإنما يعبق رجل.

«يقول إن الرب أرسله ليبيّن سفينة، وقد وعد بأن يستقبلنا فيها. أسمعني يا مريم، أم أنك نمت؟»

أجابت مريم «لست نائمة». كانت تضم ندييها براحتي كفيها، فقد كانا يؤلمانها.

تابعت مرثا قائلة «يا رب، فلتحل نهاية العالم سريعاً، حتى نتمكن من الانضمام إلى السفينة معه. سوف أخدمه، لا يهمني، وأنت يا مريم ستلازمينه. سوف تبحر السفينة وتبحر إلى الأبد، وسوف أخدمه على الدوام. وسوف تجلسين طوال الوقت عند قدميه وتلازمينه. هكذا أتخيل الفريديس. وأنت كذلك، يا مريم؟»

أجابت مريم، وهي تغمض عينيها «نعم»

كانتا تتحدثان وتتهدأن. وفي تلك الأثناء كان يسوع يجلس منتصباً، مع أنه ما يزال مستغرقاً في النوم، شعر أنه لم يكن نائماً

على الإطلاق وإنما واقفاً جسداً وروحاً وسط مياه نهر الأردن، ينتعش، وقد تخلص جسده من رمال الصحراء، وتخلصت روحه من فضائل البشرية وشروها - وعاد طاهراً من جديد. وتراءى له وهو نائم أنه خرج من مياه نهر الأردن، ثم سلك درباً مكسواً بالعشب لم تطأه قدم ودخل بستاناً كثيف الأشجار ملآن بالأزاهير والثمار. وكأنه لم يعد هو نفسه، يسوع ابن مريم الناصرية، بل آدم أول الخليقة. لقد خرج من بين يدي الرب في تلك اللحظة بالذات - ولحمه ما يزال طيناً طرياً - واضطلع على العشب المزهر ليحف تحت أشعة الشمس ولكي تقوى عظامه، وتسري الحيوية في وجهه، وتتماسك مفاصل جسده والأشنان والسيون فيتمكن من الانتصاب والسير. وبينما هو مسطلق لينضج تحت الشمس، أخذت الطيور ترقرق بأجنحتها فوق رأسه، وتتنقل من شجرة إلى شجرة، وتنتزه على العشب الربيعي وتتسامر فيما بينها، تزرق، تنظر إلى هذا المخلوق الجديد المضطجع على العشب، تتفحصه بفضول ويقول كل منها مألديه ومن ثم يعاود طيرانه، وبما أنه كان ضليعاً بلغتها فقد أبهجها سماعها.

تمشّى الطاووس، الفخور بقرش ريشه، ذهاياً وإياباً، وهو يلفي نظرات منحرفة، مغوية على هذا الأدم المتمدد على الأرض، وشرح له وضعه «أنا كنت أسلاً دجاجة، لكني وقعت في حب سلاك فأصبحت طاووساً. هل رأيت قط طائراً أجمل مني مطلقاً؟»

وتنقل طائر القمريّة من شجرة إلى شجرة، ورفع حنجرتة نحو السماء وصرخ «الحب! الحب! الحب!»، وصرخ طائر السمّنة «من بين كل الطيور أنا فقط أغرد وأبقى دافئاً في أشد حالات الجو ضيقاً»، وقال السنونو «لولا، ما ازهرت الأشجار»، وقال الديك «لولا، ما أشرق الصبح»، وقالت القبرة «عند الشجر حين أنطلق

في السماء لأعرد، أودع فراخي لأنني لا أعرف ان كنت سأعود بعد
أداء غنائي، حية أرزق»، وقال العنديل «لا تنظر إلي وأنا على
حالي الآن، بملاسي الرثة، أنا أيضاً كان لي جناحان كبيران
براقان، لكنني حولتهما إلى أغنية»، ثم جاء شحور طويل المنقار
وتعلق بكثف الانسان الأول، ومال على أذنه وكلمه بصوت خافت،
وكانه يودع لديه سرّاً عظيماً «بوابتا الجنة والجحيم قريبتان،
ومتشابهتان: كلتاها خضراء، وكلتاها جميلة. حذار، يا آدم!
حذار! حذار!»

عندئذ بالضبط، عند الفجر، ولا يزال غناء الشحور يتردد في
أذنه، استيقظ يسوع.

الفصل التاسع عشر

تحدث الأمور العظيمة حين يتحد الرب بالانسان. فبدون
الانسان لن يكون للرب اهتمام بهذه الأرض بحيث يفكر بمخلوقاته
بشكل واضح، ويختبر، بخوف ولكن بصفاقة، قدرته الكلية
الحكيمة. لن تكون به رغبة على هذه الأرض في أن يأسي هموم
الآخرين وفي أن يجهد على أن يوجد فضائل واهتمامات، اما لأنه
لا يريد، أو نسيها، أو يخشى أن يصوغها، الا أنه نفخ في روح
الانسان واهباً آية القوة والجرأة لمواصلة الخلق.

انطلق في الصباح الباكر على الطريق الموصلة إلى اورشليم،
وكان الرب يكتفه من يمينه ومن يساره، حتى كاد يتمكن من لمس
بمرفقيه. كانا يسيران معاً، يجمع بينهما هم واحد، فالعالم قد ضل
طريقه وبدل أن يرتقي نحو السماء اذا به يتحدر إلى الجحيم،
وعليهما معاً، الرب وابن الرب، أن يجتهدا كي يعيدا إلى جادة
الصواب. لهذا كنت ترى يسوع في عجلة من أمره كبيرة. كان يلتهم
الطريق بخطوات واسعة، تواقاً للقاء رفاهه وليباشروا مشوار الكفاح.
وكانت الشمس، وهي تبزغ من البحر الميت، والطيور التي سقطت عليها

الضوء الجديد وأخذت تغرد، وأوراق الأشجار المرتعشة، والدرب
البهضاء التي امتدت حتى وصلت إلى أسوار أورشليم وحملته معها -
كلها كانت تهف له «عجل! عجل! اننا نقتني!»

أجابها يسوع «أعرف، أعرف، وما أنا قادم!»

في ذلك الصباح نفسه، بعد طلوع الفجر، كان الرفاق يتحدرون
بمحاذاة أسوار أورشليم التي كانت أزقتها مازال مقفرة؛ لم يسيروا
كلهم معاً، بل متفرقين أزواجاً - بطرس مع انداروس، ويعقوب مع
يوحنا، ويهوذا وحده يتقدمهم كانوا يركضون يحدوهم الخوف وهم
ينظرون من زوايا عيونهم في كل اتجاه ليروا أن كان ثمة من يتبعهم.
ثم ظهرت أمامهم بوابة الحصن التي تحمل اسم داوود. سلكوا أول
زقاق متجه يساراً ثم تسللوا إلى حانة سمعان القيرواني.

كان صاحب الحان السمين، الأحنب، ما يزال نصف نائم بما
أنه كان قد غادر لتو فراش القش. وكانت عيناه وأنفه حمراء
ومتورمة، لأنه ظل يجرع الخمر مع زبائنه السكارى طوال ساعات
الليل، يرفع عقيرته بالقناء، وبالكلام البذي، ولم يلجأ إلى فراشه إلا
في وقت متأخر جداً. وهاهو الآن متكاسل وعكر المزاج، ينظف
منصة البيع، ويمسح عنها آثار القصف. وبالرغم من أنه واقف على
قدميه إلا أنه لم يستطيع بعد - كان يتعباً له أنه باشر تنظيف
طاولة البيع في اللحم بالأسفنجة. ولكن بينما هو يعمل بين النوم
واليقظة سمع لهاث رجال يدخلون حانته، التفت، وعيناه مازالتان
تؤلمان. ويستشعر المرأة في فمه، ولحيته ممثلة بقشور بذور
اليقطين المحمصة.

جار بصوت خشن «اللعنة، من هنالك؟ دعوني وحدي! أراكم
جئتم باكراً جداً لتأكلوا وتشربوا، هه؟ حسن، است في مزاج حسن،
هارجلوا فوراً!»

لكن صراخه عمل بالتدريج على إيقافه، وبدأ شيئاً فشيئاً
يتعرف على صديقه القديم بطرس وعلى بقية الجليليين، فتقدم
وراح يتفحصهم عن قرب، ثم انفجر ضاحكاً. قال «ياه، يا لهذه
الخطم التي أراها! أعيديوا السمكة إلى أفواهكم - يا شباب!
أمسكوا أزوار بطونكم قبل أن تتسبب من الخوف، يا لكم من
مجموعة فخورة، يا أصدقائي الجليليين!

«أكراماً للرب يا سمعان، لا توقظ العالم كله بصراخك». كان
هذا جواب بطرس، وهو يضع يده على فم سمعان، وتابع «أغلق
الباب. لقد قتل الملك يوحنا المعمدان، ألم تسمع بهذا بعد؟ قطع
رأسه ووضع في طبق»

«أحسن صنعاً بفعلته هذه. لقد أزعجه المعمدان كثيراً بأقواله
عن أبنه زوجته، لا يهمني! انه الملك، فليفعل ما يشاء. وبعد ذلك
يبيني وبينكم - لقد أزعجني أنا أيضاً بصراخه «توبوا! توبوا!»،
رياه، أنا أريد أن أترك وشأني!»

«لكنهم يقولون انه سيقتل كل من عُمد - سيقطع رؤوسهم
ونحن مُعمدون. ألا تفهم قصدي؟»

«من قال لكم أن تتعمدوا أيها البلهاء! تستأهلون!»
وتخه بطرس قائلاً «ولكن أنت أيضاً تعمدت، يا ابريق الخمر!»
أنت أخبرتنا بذلك، فما الداعي لتعنيفنا؟»

«الأمر مختلف، أيها الصياد المدعي، أنا لم أُعمد. أنتمي ذلك
تعميداً! لقد عصمت في الماء بغية السباحة. وكل ما رثه النبي
الزائف دخل من إحدى أذني وخرج من الأخرى، كما يحدث مع كل
من يسمتع بحسن سليم. أما أنتم، أنتم أيها المغفلون... فلتك
الشعوزات تقول لكم انها تستطيع أن تحلب تيساً في منخل. وأنتم
أول من يصدقها. تأمركم بالغوص في الماء و - بوف! تغوصون على

الفور وتصايون بذات الرثة، وثامركم بأن لا تقتلوا براغيثكم في يوم السبت - لأنه اثم عظيم، فلا تقتلونها، وتقتلكم هي، ولا تدفعوا ضريبة الرأس، فلا تدفعون، وهوب! يُقطع رأسكم. تستأهلون! اجلسوا الآن وستشرب كأساً معاً. أنتم بحاجة الى الثياب وأنا بحاجة للاستيقاظ!»

بدا للعيان برميان ضخمان أسودان في أعماق الحان. رُسم على أحدهما رسم بالزيت لديك أحمر، وعلى الآخر رسم لخنزير باللونين الأسود والرمادي. ملأ ابريقاً بالخمر من برميل الديك، وجلب ستة كؤوس غمرها في حوض من الماء القذر بغرض تنظيفها. وحين وصلته رائحة الخمر انتعش.

ظهر رجل أعمى على باب الحان. كان يضع عصاه بين ساقيه ويبدن بلحن قديم وهو يسعل سعالاً جافاً ويبصق ليتطف حنجرته، كان ذلك هو الباقيم، الذي كان في شبابه حادي جمال، وذات ظهيرة بينما كان يعبر الصحراء شاهد امرأة عارية تقتل في تجمع للمياه تحت شجرة نخيل. وبدل أن يغض بصره، ثبت الرجل ناظره على البهوية الجميلة، ويشاء الحظ أن يكون زوجها جالساً القرقصاء خلف صخرة يضرم النار من أجل طبخ الطعام. وحين رأى حادي الجمال يقترب من زوجته ويلتهم عريها بتحديده، اندفع نحوه حاملاً جمرتين مشتعلتين وأطفاهما في محجري عيني منتهك الحرمان، ومنذ ذلك اليوم والياقيم يهيم برنم ويفني. وكان يدور على حانات اورشليم ومنازلها مع عوده، تارة يسبح بحمد الرب، وطوراً يتغنى بأجساد النساء العارية. فيتلقى قطعة خبز يابس، أو حفنة من التمر، أو يضع حبات من الزيتون، ومن ثم يواصل طريقه. دوزن عوده، وتلحنج، ورفع عقيرته وصدح باتقان نغمي مغنياً مزموه المفضل:

ارحمني يا رب، حسب رحمتك.
حسب كثرة رافتك امح معاصي.

في تلك اللحظة ظهر صاحب الحان مع ابريق من الخمر وكؤوس لشرب الخمر. وسمع ترتيل المزموه فاستشاط غضبه، وانفجر قائلاً «كفى لكفى! ما أنت غير شخص آخر جاء ليزعجني. ودائماً ترتل اللحن ذاته: «ارحمني... ارحمني...» اذهب الى الجحيم، يا، أكنت أنا الخاطيء؟ أكنت أنا من رفع بصره ليحقق في زوجة رجل آخر أثناء استحمامها؟ لقد وهبنا الرب عيوناً لتبقيها مغمضة. ألم تفهم هذا بعد؟ حسن، تستأهل، هيا، أخرج من هنا، اذهب وازعج شخصاً آخر» مرة أخرى أمسك الأعمى بعصاه، وحمل عوده تحت ابطه، ورجل دون أن ينطق بكلمة. وردد صاحب الحان الهائج «ارحمني يا رب... ارحمني يا رب...» لقد كان داوود يرنو بهيام الى زوجات أناس آخرين، وهذا الأبله الكفيف يفعل الشيء نفسه - ولا يئانا نحن الا العذاب... يا رب، أنا لا أريد الا أن أترك وشائي!» أخيراً ملأ الكؤوس، وشربوا. وأعاد ملء كأسه وجرجه، ثم قال «سأذهب الآن لأضع رأس حمل في الفرن لأجلكم، صنف أول! جديرٌ بأم أن تسرقه من قم وليدها»، وانطلق الى الفناء حيث يوجد فرنٌ صغير كان قد بناه بنفسه، وجلب أماليد وأغصان الكرمة، وأشعل الفرن، وأدخل فيه المقلاة وعليها رأس الحمل، ثم عاد الى أصحابه، كان تواقاً لشرب الخمر ولتبادل أطراف الحديث، لكن الأصحاب لم يكونوا في مزاج حسن. فقد تجمعوا حول النار وغمغموا ببعض الكلمات دون حماس، ثم خيم الصمت عليهم من جديد. كانوا وكأنما يسيرون على جمر مشتعل. ونظروا الى الباب، متلهفين للمغادرة، نهض يهوذا واقفاً وذهب ليوقف على العتبة، كارهها منظر هؤلاء الجبناء الذين قلب الاحساس بالخوف كيانهم. انظر كيف

كانوا يركضون، وما أسرع ما وصلوا الى اورشليم عبر نهر الأردن! انظر كيف عمّدوا، وقلوبهم مخلوعة من الخوف الى الاختباء في هذا الحان المنعزل! وهامهم الآن، يرهفون أسماعهم كالآرانب، يرتجفون ويقفون على أطراف أصابع أقدامهم، استعداداً للفسار... الى الجحيم، أيها الجليليون الشجعان، هذا ما قاله لنفسه، شكراً لك يا رب اسرائيل، لأنك لم تجعلني على صورتهم. أنا ولدت في الصحراء، خلقت من صوان بدوي، وليس من تربة جليلية رخوة، كلكم تملّصتموه وأسرفتم في اغداقه بالتعهدات والقبيلات، في حين أنكم الآن لا تريدون غير أن تلتزموا مخابنكم وتقولوا «لا نخذلاني يا قديمي»، أما أنا - الهمجي، الشيطان، السفاح - فلن أتخلّى عنه. سوف أنتظرونا حتى يعود من صحراء الأردن، لأسمع مآلديه ليقوله، وبعد ذلك سأأخذ قراراً. لا يهمني أن أختبئ، ثمة شيء واحد يؤرقني، هو معاناة أرض اسرائيل.

سمع من الداخل نقاشاً يدور بأصوات منخفضة، قالت:

قال بطرس «رايبي أن نعود الى الجليل حيث الأمان. لا تنسوا بحيرتنا يا شباب» ثم تهدد وترأى له قاريه الأخضر يتهادى فوق الأمواج الزرقاء، فامتلاً قلبه بالفخر. تراءت له الحصى، ونبات الدقلى، والشباك المثلثة بالأسمالك، ترغرغت عيناه بالدمع، وقال «فلتذهب يا شباب، هيا بنا نذهب»

قال يعقوب «لقد وعدناه أن ننتظره في هذا الحان، ومن الحق أن نفي بوعدنا»

اقترح بطرس قائلاً «يمكننا أن تدبّر الأمور بأن نكلّف القيرواني باختباره، اذا مجاء، أن - اعترض اندراوس «لا! كيف نتخلّى عنه في هذه المدينة البربرية؟ سوف ننتظره هنا»

كرر بطرس القول بعناد «أقول اننا يجب أن نعود الى الجليل» أخذ يوحنا يشد على أيدي الآخرين واكتافهم، وتوسل اليهم قائلاً «يا اخوتي، تفكروا في كلمات المعمداني الأخيرة. لقد رفع ذراعيه من فوق سيف السيف وصرخ «يا يسوع الناصري، أترك الصحراء. انني راحل. عُد الى الانسانية، تعال، لا تتخلّ عن العالم». تلك الكلمات لها مغزى عميق يا أصدقائي. سامحني يا رب اذا نطقت كفراً، ولكن....»

كفّ قلبه عن الوجيب، فأمسك اندراوس بيده.

«تكلم يا يوحنا، ماهو الهاجس الرهيب الذي لا تجرؤ على الكشف عنه؟»

تلعثم قائلاً «ولكن ان كان معلتما هو ال...»

«هو ماذا؟»

كان صوت يوحنا منخفضاً، لاهتاً، ملؤه الرعب: «... المسيح»

سرت الرعدة في الجميع. المسيح! لقد لازموه فترة طويلة جداً، لكن الفكرة لم ترد الى أذهانهم! في أول الأمر اعتبروه مجرد رجل طيب، قديساً يحضّ على المحبة في العالم، ثم وجدوا فيه نبياً، ليس غنياً كسابقيه من الأنبياء، وانما مرحاً وأليفاً. كان ينزل مملكة السماء الى الأرض. بكلمات أخرى، كان يشيع العدل، أسلوباً في الحياة مريحاً وقائماً. كان يخاطب رب اسرائيل القديم بـ «أبت»، وحالما فعل ذلك رفقت ملايح يهوه الضخم الرقية، العنيد، وأصبح الجميع أبناء... أما الآن، ماذا كانت تلك الكلمة التي أقلت من بين شفتي يوحنا؟ المسيح! بعبارة أخرى: هو سيف داوود، قدرة اسرائيل الكلية، الحرب! أما هم، مريدوه، فأول التابعين: انهم المجموعة الارستقراطية، أمراء ثانويون وأكابر الناس ملتفون حول عرشه! وكما ان الملائكة ورؤساء الملائكة يحيطون بالرب في

السماء، كذلك هم. المريدون، حكماء وشيوخ على الأرض!
ولمعت عيونهم.

هتف بطرس، وقد علا الاحمرار الشديد وجهه «انتي أسحب
كلامي، يا شباب. لن أتركه مطلقاً»

«ولا أنا»

«ولا أنا»

«ولا أنا»

بصق يهوذا بغضب وضرب قبضة يده بعنف على الباب وصرخ
بهم «يا لكم من شجعان ملاعين! حين كنتم تعتقدون انه سقيم
ضعيف لم تكونوا تقوون على المضي بعيداً. أما الآن وقد شممتم
رائحة العظمة، وتقولون «لن أتركه مطلقاً» فسيأتي يوم تتخلون فيه
جميعاً عنه. تذكروا كلامي - وسأبقى أنا وحدي الذي لا يخونه. يا
سمعان الفيرواني، كن شاهداً»

كان صاحب الحان يمتص اليهم، ويضحك ضحكاً مكبوتاً من
خلف شاربه المتدلي، وتلاقت عينه مع عين يهوذا، فقال «ياه، انظر
اليهم! ويقولون انهم يريدون تخليص العالم»
لكن منخريه اشتتاً رائحة صادرة من الفرن، فصرخ «الرأس
يحترق!»، وبقشرة واحدة أصبح في الفناء.

تبادل الصحب الحائرون النظرات.
قال بطرس وهو يربت على جبينه «لهذا، اذن، تجمّد المعداني

حين رآه»

أخذ الاحساس بالكبر يزداد باضطراب في رؤوسهم.
«وهل رأيتم جميعاً الحماسة التي حامت فوق رأسه أثناء
تعميده؟»

«لم تكن تلك حماسة، بل وميض برق»

«لا، لا - بل حماسة، وكانت تهدل»

«لم تكن تهدل، بل تتكلم. سمعتها بأذني وهي تقول «قدوس! قدوس! قدوس!»

قال بطرس، وقد امتلأت عيناه بأجنحة ذهبية «انه الروح
القدس. لقد هبط الروح القدس من السماء وتجمدنا جميعاً، ألا
تذكرون! أردت أن أخطو خطوة واقترب، لكن قدمي شلت - فكيف
كان لي أن أتحرلك! وأردت أن أصرخ، لكن شفتي لم تتفرجاً.
وسكنت الريح، تحولت نباتات القصب، والنهر، والناس، والطيور -
وكل المخلوقات الى رخام من الخوف، وكانت يد المعداني هي
الشيء الوحيد المتحرك: وببطء، وببطء، عمدته»

قال يهوذا غاضباً «أنا لم أر شيئاً ولم أسمع شيئاً. لقد كانت
عيونكم وأذانكم سكرى»

عنقه بطرس «أنت لم تر، يا ذا اللحية الحمراء، لأنك لم تكن
ترغب بالرؤية»

«وسياذك، ياذا اللحية القشية، رأيت لأنك أردت أن ترى.
كانت لديك رغبة قوية في رؤية الروح القدس، فكان أن شاهدت
الروح القدس. وزيادة على ذلك، الآن ها أنت تقنع هؤلاء الحمقى
بأنهم رأوه. وعليك أن تتحمل عواقب ذلك»

ظل يعقوب، حتى ذلك الحين، يقرض أظافر أصابعه، منصتاً.
دون أن يقول شيئاً. الا أنه الآن لم يعد قادراً على تمالك نفسه.
فقال «مهلاً يا شباب، لا تتفجروا هكذا. هيا، فلنناقش الأمر بتعقل.
أعتقدون حقاً أن المعداني قال تلك الكلمات قبيل قطع رأسه؟ ان
ذلك يبدو لي مستبعداً. أولاً، من منا كان معه وسمعه؟ ثم هناك أمر
آخر: حتى لو كان قد قال لنفسه تلك الكلمات، فهو لم يجهر بها
قط - لأنه كان سيعرف أن الملك سيسمعه، وأنه سيبيع جواسيسه

لليبحث عن هذا الرجل، هذا اليمسوع القابع في الصحراء، فيقبض عليه ويعمل أيضاً على قطع رأسه. وكما يقول والذي، اثنان واثنان يساوي أربعة، إذن، فلتجنّب فرط الكثير»
استشاط بطرس غضباً. قال «اثنان واثنان يساوي أربعة عشر، هذا رايب، واللعنة طليقل المنطق وعقولنا ماتت. أعطينا شيئاً نشره يا اندراوس. سوف نفرق عقولنا لنجلو بصيرتنا»
اندفع رجل طويل القامة ويشع، ذو وجنتين منكشنتين، حافي القدمين، يرتدي قميصاً أبيض، ملتأاً حوله، ويعلق عقداً من التمام من عنقه، اندفع داخل الحان ووضع راحة يده على صدره دلالة النقاء التحية.

«الوداع يا أصدقائي، أنا راحل، ذاهب الى الرب. فهل لديكم ما تكلفوني به؟»

وبدون أن ينتظر جواباً غادر ركضاً، ودخل المنزل المجاور.
في هذه اللحظة ظهر صاحب الحان حاملاً الصحن، وغزا المكان عميق رائحة لذينة. ووقع بصره على المعنوه المهرول. فنادى عليه قائلاً «أتمنى لك رحلة طيبة، مع أطيب تمنياتنا... هاكم واحد آخر، وضحك، بهاء، حقاً لقد حانت نهاية العالم : أصبح الهووسون يملأون المكان. هذا يقول انه رأى الرب قبل ليلتين وهو خارج ليتبول. فكيف يتنازل من الآن فصاعداً ويعيش! بل انه يرفض أن يأكل، ويقول «لقد نوديت من السماء، وسأتناول طعامي هناك»، ثم يتدثر بكفنه ويقوم بجولة سريعة على الأبواب كلها، يتقبل التفويضات، ويقول وداعاً، ثم يرحل. أترون ما يحدث حين تقتربون من الرب خذوا حذركم يا شباب - ها أنا أقولها لصالحكم - لا تقتربوا كثيراً منه. انني أتعبد سموه، ولكن عن بعد - ابقوا بعيدين»
وضع الصحن الذي يحمل رأس الحمل في وسط المائدة. وكان

كل شيء فيه يضحك، شفتاه، وعيناه، وأذناه. ونادى قائلاً:

«رأس طازج! رأس يوحنا المعمدان! كلوا هنيئاً!»

شعر يوحنا بالتقرّز وتراجع. واندراوس، الذي كان قد مد يده، أوقفها. كان الرأس، الموضوع على الصحن، ينظر اليهم واحداً واحداً، نظرة مبهمة، بعينه الجامدتين المفتوحتين واسعاً.

هتف بطرس «سمعان، أيها الوغد لقد أثرت اشمئزازنا وأذهبت شهيتنا! كيف يمكنني الآن أن أخرج العينين؟ كنت أرغب في أن أبداً بهما نفتح الشهية، لكن ذلك سيبدو وكأنني أكل عيني المعمدان»

انفجر صاحب الحان ضاحكاً. قال «لا تقلق يا عزيزي بطرس، سوف أكلهما أنا - ولكن ليس قبل أن أكل اللسان اللذيذ، بورك! وكان يصرخ «توبوا! توبوا! لقد حانت نهاية العالم» ولسوء الحظ حانت ساعة المسكين أولاً»

أخرج سكيناً، وقطع اللسان وأزدرده بلقمة واحدة، وجرع محتوى كأس كاملة من الخمر، وجلس ينظر الى برميليه باعجاب.
«حسن، فلتنس الأمر يا شباب، انني أرثي لكم. سأغير الموضوع لكي تخرج صورة رأس المعمدان من رؤوسكم وتستطيعوا الاستمتاع بتناول رأس الحمل.. حسن، إذن، هل يمكنكم أن تتخللوا من الذي رسم تلك الدرة التي تمثل الديك والخنزير التي تتأملونها على البرميلين؟ انه مضيقكم الكريم، بيديه هو، بلا فخر، وهل تعرفون لماذا كان رسماً لديك وخنزيرة وكيف لكم أن تعرفوا، أيها الجليليون الباهلاء! ولهذا أنا مضطرب أن أحل لكم اللغز وأثير عقولكم المتأهية الصغراء»

نظر بطرس الى الرأس وراح يتلمّط بشفتيه، لكنه ظل لا يجرؤ على مد يده لأخذ العينين لياكلهما. لكن صورة المعمدان كانت تلح

على مخيلته. لقد كانت عينا النبي تجحطان بالمطريقة نفسها وهما تتاملان شؤون البشرية.

تابع صاحب الحان كلامه قائلاً: «اسمعوا، اذن، وأنيروا بكلامي عقولكم المتأهية في الصغر... بعد أن أنهى الرب خلق العالم (ولا أدري لماذا تجشم هذا المبارك عناء ذلك) وغسل عن يديه الطين، دعا كل المخلوقات الوليدة وسألها باعتزاز «قولوا لي أيها الطيور، والحيوانات، ما رأيكم في الكون الذي خلقته؟ هل ترون فيه أي خلل؟» فأخذ الجميع على الفور بالتفاء، والتهيق، والخوار، والمواء، والسقسقة، قائلين «لاشيء! لاشيء! لاشيء!»

«وقال الرب: «بوركتكم بأيمانكم بي، أنا أيضاً لا أجد فيه أي خلل. ان يدي تستحقان الثنونة»، لكنه لاحظ أن الديك والخنزير ظلا مطرقتين، لا يتطقان بكلمة، فصرخ الرب «مرحباً أيها الخنزير! وأنت، ثباجة الديك، لماذا لا تتطقان؟ أيعقل أن خلقي لا يسركما أم هل ثمة شيء ناقص؟». لكنهما لم ينطقا بكلمة. لاشك بأن الشيطان قد همن بتعليماته في أذانهما قائلاً: «قولا له ان هناك بالفعل شيئاً ناقصاً - نبات قصير القامة يثمر عنباً تهرسونه، وتملأون منه براميل فتتحول الى خمر»

«صرخ الرب من جديد: «لماذا لا تتطقان، أيها الحيواناتان؟» رافعاً يده العملاقة. وأخيراً رفع كلاهما (بعد أن نفخ الشيطان فيهما الشجاعة) رأسيهما وقالا: «أيها الرب الماهر، ماذا يسعنا أن نقول؟ تهانينا ليديك، وكونك رائداً - أممك الخشب! ولكن ينقصه نبات واحد! قصير القامة يثمر عنباً يهرس، ويملأ منه براميل فتتحول الى خمر»

قال الرب في نوبة غضبه «آه، هكذا اذن سأريكما الآن، أيها الوجودان، اذن تريدان مني خمرأ، وسكرأ، وعريدة وهيثأ؟ هلكن

الكرمة!»، وشمر عن ساعديه وتناول حفنة من طين، ثم جعلها نبات الكرمة، وزرعها. قال «لتنزل لغنتي على كل من يسرق في شرب، وليغد عقله كعقل ديك ويصبح أنه كخظم الخنزير»

انفجر الصاحب ضاحكين، وقد نسوا أمر المعدادني وانهمكوا في التهام الرأس المشوي. وكان يهوذا أوّلهم جميعاً، كسر الجمجمة الى قسمين، وملاً كفه بمغ الحمل حين رأى صاحب الحان انه قد سلب تملكه الرب، فقال في نفسه، لن يتركوا لي عظمة واحدة. هتف «لا بأس عليكم يا شباب، ان تاكلوا وتشربوا، ولكن لا تنسوا المرحوم يوحنا المعدادني، آه، يا لرأسه المسكين!»

جمدت حركة الجميع وحسبهم ماتزال في أيديهم، واختلق بطرس الذي كان قد مضغ العين ويستعد لابتلاعها. من المقرز أن يبتلعها ولكن خسارة أن يبصقها، ماذا يفعل؟ وحده يهوذا من بينهم جميعاً، لم يتأثر. وملاً صاحب الحان الكؤوس.

«فلتبقي ذكراه طويلاً في البنا، واحسرتاه! على رأسه المسكين المقطوع... ولكن لنشرب نخبكم يا شباب!»

قال بطرس، وهو يبتلع العين «ونخبك أيها الماكر العجوز» أجابه صاحب الحان «لا تقلق، انني لست خائفاً البتة، انني أبتعد عن شؤون الرب ولا أبه بأمر تخليص العالم! أنا صاحب حانة، ولست ملاكاً أو رئيس ملائكة كما تدعون سيادتكم. على الأقل انا أنقذت نفسي من ذاك المصير». قال هذا واستولى على ماتبقى من الرأس.

فتح بطرس فمه، لكنه حبس أنفاسه فجأة، فقد ظهر عند عتية الباب رجل ضخم الجثة، همجي مجدور، وأخذ ينظر الى الداخل. تراجع الأصحاب الى الزاوية. واختبأ بطرس خلف كنف يمشوب العريضين.

جار يهوذا عابساً «باراياس» ادخل»

ثم ياراياس رقبته الغليظة وأخذ يثبتي المريدين على النور الخفيف، ثم ضحكت تعابير وجهه القبيح ساخرة، وقال «يسعدني أن ألقاكم، يا حملاني. لقد قطعت نصف الطريق الى الصين بحثاً عنكم» نهض صاحب الحان واقفاً، مبدئاً تدمره، وجلب قدحاً، وغمغم: «أنت بالضبط من نحتاج اليه، أيها القبطان ياراياس». وكان يكنى له ضغينة لأنه في كل مرة يأتي فيها الى حانه يسكر، ويتشاجر مع العابرين من الجنود الرومان، وتقع المصيبة على رأس صاحب الحان. «يا لك أن تبدأ بممارسة خدعك القديمة من جديد، أيها الخنزير - الديك»

«اسمع، طالما أن النجسين يطأون أرض اسرائيل، سأظل أرفع قبضتي في وجوههم، لذا اطرح أية فكرة أخرى من رأسك. هات الطعام، يا جلد الفرس القذرة»

دفع صاحب الحان بالصحن المملوء بالعظام الى الأمام. قال «كل، فان لك أسنان كانياب الكلب: تقرض العظام»

جرع ياراياس ما في كأسه بجرعة واحدة، وهتل شاربه ثم التفت الى الصاحب قائلاً «وأي الراعي الطيب، يا حملاني؟ ثمة حساب قديم أصفيه معه»، وكانت عيناه تقذفان شراً.

قال له يهوذا بقسوة «لقد سكرت حتى قيل أن تبدأ بالشرب، ومأثرك الباسلة قد سببت لنا حتى الآن مايكفي من الازعاج»

وتجراً يوحنا على سؤاله «لماذا تتحامل علينا؟ انه رجل ورع. حين يسير ينظر الى الأرض حتى لا يطلأ التمل»

«تقصد حتى لا تطأ نملة. انه خائف. هل هو رجل؟»

وتشجع يعقوب فقال «لقد أنقذ المجدلية من بين أنيابك، وما أنت الآن تبكي على الحليب المراق»

جار ياراياس، وقد غطت الغشاوة عينيه «لقد عارضني، عارضني، وسوف يدفع الثمن»

قبض عليه يهوذا من ذراعه وتحنى به جانباً، وقال له بصوت خافت، وسريع، وغاضب «ما شأنك في هذا المكان؟ لماذا غادرت جبال الجليل؟ لقد اختارتها المنظمة لتكون مخبأ لك. وثمة آخرون مخصص لهم مكان هنا في اورشليم»

اعترض ياراياس حائقاً «هل تحارب من أجل الحرية أم لا؟ اذا كنت تفعل فإننا حر في أن أفعل ما يخطر ببالي. لقد أثبت لأرى بنفسي هذا المعداني وما يتنبا به من اشارات وما يقوم به من عجائب عظيمة. وقلت في نفسي، لعله المختار الذي ننتظره. فاذا كان كذلك فليأت دون تأخير، وليستلم القيادة، ويباشر المذبة، لكنني وصلت متأخراً. لقد قطعوا رأسه... يا يهوذا، أنت قائد - ماذا لديك تقوله؟»

«أقول انهض وإرحل. ولا تقم نفسك في شؤون الناس»

«إرحل؟ أنت جاد؟ لقد أثبت أيغي المعداني فلقيت ابن النجار. انني الاحقه منذ زمن بعيد، والآن وقد وضعه الرب أمام أنفي مباشرة تقول ان علي أن أدعه وشأنه؟»

امر يهوذا «إرحل! هذا شائي، ولا تقم يدك فيه،

«ما غرضك؟ لمعلوماتك، المنظمة تريد قتله. انه جاسوس للرومان، انهم يدفعون له ليهتف بكلام حول مملكة السماء وبذا يتخدع الناس وينسون ما على الأرض وما نحن عليه من عبودية. أما أنت، قل لي... ماهو هدفك؟»

«لاشيء. لدي حساب أصفيه. إرحل»

التقت ياراياس وألقى نظرة أخيرة على الصاحب، الذين كانوا ينصتون ويرهقون أسماعهم. ثم صرخ بهم بخبث «الى المتنق، يا

حملاني. لا أحد يقلت من باراباس بسهولة. سترون، سنعود من جديد لمناقشة موضوعنا، ثم أختفى باتجاه بوابة داوود. غمز صاحب الحان بعينه الى بطرس، وقال له بصوت منخفض «لقد أصدر اليه أوامره. ويسمعون هذا أخوة! هم يقتلون رومانياً واحداً والرومان يقتلون عشرة من الاسرائيليين. ليس عشرة، بل خمسة عشر! فاحذروا يا شباب!»
مال على بطرس وهمس له في أذنه : «اسمع : لا تثق ييهودا الاسخريوطي. ان ذوي اللحى الحمراء قد عاد وجلس على لكنه سكت. فقد كان ذو اللحية الحمراء

مقعد. اضطرب يوحنا، فنهض ووقف في ممر الباب وراح ينظر الى جهتي الطريق، لا اثر للمعلم. لقد طلع النهار، وامتلات الشوارع بالناس، وكل مايقع بعيداً عن بوابة داوود يبدو متبذواً؛ حصص، ورماح، ولا ورقة خضراء تظهر للعين - لاشيء غير أحجار بيضاء منتصبه؛ شواهد قبور، الهواء يقوح بنبثانة جثث الكلاب والجمال. الهمجية الزائدة تخيف يوحنا. كل شيء هنا أصبح كالنجاسة : وجوه الناس قذت من الحجر، وقتلويهم منحجرة، والرب الذي يعبدون مصنوع من الحجر. أين هو الآب الرحيم الذي جلبه المعلم لهم! آه، متى سيظهر السيد الحبيب حتى يعودوا الى الجليل! نهض بطرس. لقد وصلت قدرته على التحمل منهاها. قال «يا أخوتي، هيا بنا! انه لن يأتي»

همس يوحنا في خوف «انني أسمعه يقترب»
قال يعقوب، ولم يكن يأبه بخيالات أخيه الوهمية «أأين سمعته أيتها المستبصر؟» ومثل بطرس كان شديد التوق للعودة الى البحيرة، الى قواربه من جديد «أأين سمعته، ألا تقول لي؟»

أجاب الأخ الأصغر «في قلبي، فهو أول من يسمع، وأول من يرى»

هز يعقوب وبطرس اكتافيهما لامبالاة، لكن صاحب الحان تدخل بعدة «لا تسخر، الفتى على حق، لقد سمعت أن... أنتظر، ذاك الشيء الذي يقال له سقينة نوح، ماذا تظن انه يمثل؟ انه قلب الانسان طبعاً! وداخله يجلس الرب مع كل مخلوقاته، ويغرق كل شيء، ويفوض الى القاع بينما يطفو وحده فوق المياه بحمولته. قلب الانسان هذا يعرف كل شيء - نعم لا تضحك - كل شيء!»

دوت أصوات الأيواف، وارتفع الضجيج، وأفسح الناس في الشوارع السبيل، فانتابت الريبة المسحب وانطفؤا الى الباب، كان هناك صبية مراهقون يتمتعون بالجمال والرشاقة يحملون حفنة من زخرفة بالذهب يضطجع فيها رجل بدين من الأعيان ويداعب لحيته. يرتدي ملابس من الحرير ويضع خواتيم من الذهب ووجهه دهني بفعل العيش الرخي.

قال صاحب الحان «انه قيافا، رئيس الكهنة الخليلع! سدوا أنوفكم يا شباب. إن أول جزء ينتن من السمكة هو رأسها، وضغط على فتحتي أنفه ويصق، وتابع «انه في طريقه من جديد الى حديثه ليأكل ويشرب ويعبث مع نسائه وصبيانته المليحين. اللعنة، ليتني كنت الرب... ان العالم معلق من خيط واحد، وكنت سأقطع ذلك الخيط - نعم وحق خمري - كنت أقطعه وأترك العالم يذهب الى الجحيم»

عاد بطرس يقول «هيا بنا نذهب. المكان هنا غير آمن. إن قلبي له عيون وأذان، وهو يصرخ بي «ارحلوا... ارحلوا جميعاً، أيتها المخلوقات البائسة!»
قال انه سمع قلبه يقول هذا الكلام، سمعه بالفعل. وتولاه

الفرع، فقفز واقفاً وقبض على عصا وجدها في الركن. رآه الآخرون يفعل هذا فقفزوا جميعاً بدورهم، وقد أصابتهم عدوى فزعته.

اصدر بطرس امره «أنت تعرفه يا سمعان. اذا جاء قتل له اننا رحلنا الى الجليل»
قال صاحب الحان قلقاً «ومن الذي سيدفع ثمن الرأس، والخمر...»

سأله بطرس «هل تؤمن بالحياة الآخرة يا سمعان القيرواني؟»
«طبعاً أؤمن»

«حسن، أقسم لك بأنني سادع لك هناك. واذا شئت أعطيك سكاً به»

حك صاحب الحان رأسه.

قال بطرس بحدة «ماذا؟ ألا تؤمن بالحياة الآخرة؟»
«أؤمن يا بطرس. اللعنة، أؤمن - ولكن ليس كثيراً...»

الفصل العشرون

ولكن بينما هم يتحدثون سقط فجأة ظل أزرق على عتبة الباب فركبوا جميعاً. وأذا يسوع يمثل في ممر الباب! قدماء ملطختان بالدم، وثيابه مغطاة بالطين، ووجهه لا يكاد يُميز. من هذا، أهو المعلم الرقيق أو المعمداني الهمجي؟ كان شعره منسدلاً بخصلات مفتولة حتى كتفيه، وقد باتت بشرته الآن ملفوحة خشنة، وغارت وجنتاه. واتسعت عيناه كثيراً حتى اختلنا كامل وجهه. لقد كانت قبضة يده المشدودة بقوة، وشعره، ووجنتاه وعيناه تشبه تماماً تلك التي للمعمداني. وراح المريدون الفاسغرو الأفواه ينظرون إليه بصمت. أيمن أن يكون الرجلان قد امتزجا في واحد؟

قال يهوذا في نفسه وهو يتخفى جانباً ليفسح الطريق للقادم المضطرب: إنه هو الذي قتل المعمداني، هو... هو... ولاحظ كيف تخطى يسوع عتبة الباب، كيف حذق إلى كل منهم بقسوة، وكيف عض على شفثيه... لقد أخذ منه كل شيء، كل شيء؛ سُرِق جسده. ولكن ماذا عن روحه، وكلامه العنيف؟ سوف يتكلم الآن، وسوف نرى...

لزموا الصمت لبعض الوقت، وتبدل جو الحانة. جلس صاحب الحان القرفصاء في الركن دون أن يفوه بكلمة راح يحدق بعينين جاحظتين الى يسوع الذي تقدم بخطى بطيئة وهو بعض على شفته، وقد انتفخت عروق صدغيه. وفجأة سمعوا كلهم صوته الخشن العنيف، فأخذتهم الرجفة، لم يكن ذلك صوته، بل صوت النبي المخيف، المعمداني.

«أكنتم راحلين؟»

لم يجب أحد. كانوا قد وقفوا كالمتراس، الواحد خلف الآخر.

أعاد السؤال بغضب «أكنتم راحلين؟ تكلم يا بطرس!»

أجاب بطرس بصوت متردد «يا معلم، لقد سمع يوحنا وقع خطاك في قلبه وكنا خارجين لاستقبالك»

عيس يسوع، لقد غمره احساس بالمرارة والغضب، لكنه ثمالك نفسه.

قال، مستديراً نحو الباب «فلنذهب»، وراى يهوذا المتخفي مكاناً بعيداً يرمقه بعينه الزرقاوين القاسيتين.

سأله «ألسنت قادمًا يا يهوذا؟»

«أنا معك حتى الموت. وأنت تعلم ذلك»

«لا يكفي! أسمعني - لا يكفي، بل حتى ما بعد الموت...» هيا بنا!»

قفز صاحب الحان من مريضه بين براميل الخمر، وهتف «حظاً سعيداً يا شباب، وخلصاً سعيداً! أمنى لكم رحلة موفقة أيها الجليليون، وعندما يحين الزمن السعيد وتدخلون الجنة، لا تسوا الخمر الذي قدمته لكم - والرأس!»

أجابه بطرس «أعدك»، وكان وجهه يعبر عن الجدوة والهم. كان يشعر بالخجل لأنه كذب على المعلم بدافع الخوف، إن عيسوس

اليسوع الغاضب كان دلالة أكيدة على أنه كشف الكذبة. كان يؤنب نفسه بصمت: يا بطرس، أنت جبان، وكذاب، وخائن! اللغة، متى ستفقد رجلاً؟ متى ستغلب على الخوف؟ متى ستكف عن الدوران - يا طاحونة الهواء؟»

توقف بطرس عند ممر باب الحان، ينتظر ليرى في أي اتجاه سيمير المعلم. لكن يسوع الذي لم يبد حراكاً كان يرهف سمعه ويُصت الى لحن أغنية رثية تنطوي على احساس بالمرارة تشدو به أصوات عالية النبرة، جُشَاء، خارج بوابة داوود. إنهم المجدومون. كانوا منتشرين على الأرض الترابية مائنين أذرعهم المقطوعة للمارة وهم يسبحون برقة بمجد داوود وبرحمة الرب الذي منحهم الجذام ليتمكنوا من التكفير عن آثامهم وهم على الأرض، لكي تيسى وجوههم غداً في الحياة الآخرة وضاعة كشع كالشمس والى أبد الأبد.

ازداد احساس يسوع بالمرارة، والغضب باتجاه المدينة. كانت المحال التجارية، وورشات العمل والحانات قد فتحت أبوابها، وامتلاأت الشوارع بالناس، ما أكثر ما يركضون ويصرخون، وكم تتعرق أجسادهم! وسمع أصواتاً جؤارة مخيفة لأحصنة، ورجال، وأبواق وأنفار: بدت له المدينة وحشاً مخيفاً، سقيماً، أحشائه مملوءة بالجذام، والجنون والموت.

تواصل الجؤار في الشوارع وتعاطم، وازداد ركض الناس هنا وهناك. وتسأل يسوع، ما داعي استعجالهم؟ لماذا يركضون هكذا، الى أين هم ذاهبون؟ تهدد، كلهم، كلهم - الى الجحيم! اضطرب قليلاً، هل من واجبه أن يبقى في هذه المدينة أكلة البشر، أن يصعد الى سطح الهيكل ويصرخ «توبوا، فيوم الرب آت؟» إن هؤلاء الناس التعسفين، اللاهثين، الذين يهرعون في الشوارع

صعوداً وهبوطاً هم في أمس الحاجة للتوبة وللمواساة من صيادي السمك وفلاحيّ الجليل الهانئي البال، وقال يسوع لنفسه سأعكث هنا. هنا سأعلن أولاً عن دمار العالم، وحلول مملكة السماء.

لم يقو اندراوس على إخفاء حزنه، فاقترب من يسوع وقال «يا معلم، لقد قبضوا على المعمدانى وقتلوه»

أجاب يسوع بهدوء «لا يهم، لقد توفر للمعمدانى الوقت الكافي للقيام بواجبه، فلنأمل يا اندراوس أن يتوفر لنا الوقت الكافي لأداء واجبنا نحن». ورأى عينيّ تلميذ السابق السالف تقيضان بالدمع، فربت يسوع على كتفه وقال له «لا تحزن يا اندراوس، إنه لم يمض الذين يموتون هم الذين تأخروا على الخلود، أما هو فلم يتأخر، فقد منحه الرب الوقت الكافي»

بينما هو يقول هذا أضاء عقله. حقاً، إن كل شيء في هذا العالم يعتمد على الزمن. الزمن ينضج كل شيء، اذا توفر لك الوقت فإنك تنجح في معالجة الطين الانساني الداخلي وتحويله الى روح. بعدئذ لا تعود تخشى الموت. واذا لم يتوفر لك الوقت، تقنى... وأخذ يسوع يتخضرع للرب قائلاً، يا رب امنحني الوقت الكافي، هذا كل ما أطلبه منك. امنحني الوقت... شعر أنه ما يزال في داخله الكثير من الطين، الكثير من الانسان. ما يزال عرضة لنوبات الغضب، والخوف، والغيرة، وحين يفكر في المجدية تترقق عيناه بالدموع، وفي الليلة الفائتة فقط، بينما كان ينظر خلصة الى مريم أخت اليعازر...

احمرّ وجهه خجلاً، وعلى الفور اتخذ قراره، سوف يغادر هذه المدينة. إن ساعة موته لم تكن بعد، وليس مستعداً لها بعد... وعاد يتضرع الى الرب، يا رب امنحني الوقت، الوقت ولا شيء آخر... وأشار الى الصليب «تعالوا، يا انصاري، فلنعد الى الجليل، باسم الرب»

تسابق الصبح مسرعين ييغون بحيرة جنيسارت كأحصنة متوجعة، جائعة، عائدة الى اسطبلها الحبيب. وعاد يهوذا ذو اللحية الحمراء الى موقع القيادة. كان يصتّر، لم يشعر قلبه بمثل هذه الراحة منذ سنين طويلة. وأشاعت تعابير وجه المعلم، وصوته، وعنفه، التي لاحظها عليه منذ عودته من الصحراء، سروراً عظيماً فيه. وظل يقول لنفسه مراراً وتكراراً، هو الذي قتل المعمداني، لقد ضمه الى مجموعته، امنح الحمل والأسد في واحد. أيمكن للمسيح أن يكون جميلاً وأسدً معاً، كوحوش الأزمان الغابرة... وواصل مسيره وهو يصفرّ وينتظر. وقال في باله، هذا الصمت لا يمكن أن يستمر. في ليلة من الليالي وقبل أن نصل الى البحيرة، سوف يفتح فمه ويتكلم. سيوح لنا بالسرا ماذا فعل في الصحراء، هل شاهد رب اسرائيل أم لا. وما هو الحديث الذي دار بينهما، وبعدئذ سأحكم بنفسي.

ومرت الليلة الأولى. مكث يسوع يحدق الى النجوم، دون أن يتكلم، وحوله الصبح المتعبون نيام. لكن عينيّ يهوذا الزرقاوين كانتا تلمعان في الظلام، وظل هو ويسوع يقظان طوال الليل، يواجه أحدهما الآخر، ولكن دون أن ينطقا كلمة واحدة.

عند الفجر انطلقوا من جديد، مخلفين وراءهم حجارة اليهودية، ثم وصلا الى تربة السامرة البيضاء. كانت بشر يعقوب مهجورة: لم تأت امرأة واحدة لتسحب الماء لهم وتتغشهم، فعبروا على عجل الأرض المهرطقة وشاهدوا جبالهم الحبيبة - حرعمون الممتوج بالثلوج، والطور الجميل، والكرمل المقدس.

اقترب المساء، فاضطجعوا تحت شجرة أرز وارضه وراحوا يتابعون غروب الشمس. وأخذ يوحنا يتلو صلاة المساء: «يا رب، افتح أمامنا الأبواب. النهار ينصرم، والشمس تغيب، وتختفي، وها

نحن واقفون بأبوابك يا رب، فافتحها في وجوهنا، أيها
السرمدى. نتضرع اليك أن تغفر لنا، أيها السرمدى، نتضرع اليك أن
ترحمنا. أيها السرمدى، خلصنا!

كان الهواء أزرق غامقاً، وفقدت السماء الشمس ولم تعثر بعد
على النجوم، وحطت على الأرض مجرّدة من زخارفها، ضغطت يدا
يسوع اللدنتين الطويلتي الأصابع، التربة البيضاء اللامعة في الضوء
الخافت الغامض. وكانت صلاة المساء ما تزال تدور داخله وتفعّل
فعلها. وسمع أيادي مرتجفة لرجال تطرق بيّاس أبواب الرب، ولا
تفتح لهم. كان الرجال يطرقون ويصرخون. بماذا كانوا يصرخون؟

أغمض عينيه ليسمع بجلاء. طيور النهار عادت إلى أعشاشها،
وطيور الليل لم تفتح عيونها بعد. قرى البشر بعيدة جداً؛ إنه لا يسمع
ضجيج الناس ولا نباح الكلاب. تمتص المسحبتان صلات المساء.
لكن النوم يغالبهم، والكلمات المقدسة تغوص داخلهم دون أن يصدر
لها صدى. إلا أن يسوع سمع داخله أناساً يدقون أبواب الرب. قلبه
هو. يدقون قلبه الانساني الحاني ويصرخون «افتح! افتح! خلصنا!»

شد يسوع على صدره وكأنه هو أيضاً يدق قلبه ويتوسل إليه أن
ينفتح. وبينما هو كذلك يصرخ، معتقداً أنه وحده، شعر بوجود
شخص يراقبه من الخلف. انفتحت فإذا عينا يهوذا الباردتان
المتلهيتان مثبتتان عليه، أجفل يسوع، ذو اللحية الحمراء هذا وحش
متكبر، غير مروّض، شعر أنه من بين كل صعبه هو الأقرب إليه
وأيضاً أتاهم عنه. ويبدو أنه ليس هناك إلا هو ليفضني إليه بما
يكن. مدّ يده اليمنى وقال:

«يهوذا يا أخي، انظر! أترى ما أحمله؟»

مدّ يهوذا عنقه وسط النور الباهت ليتمكن من الرؤية، وأجاب
«لا أرى شيئاً، لا أرى أي شيء»

قال يسوع وهو يبتسم «ستراه قريباً»

قال اندراوس «إنه مملكة السماء»

قال يوحنا «إنها البنور. أتذكر يا معلم ما قلته لنا عند البحيرة
حين تكلمت لأول مرة وحدثتنا؟ قلت «لقد جاء الباذر ليهبذ
بذور»...»

سأل يسوع «وأنت، يا بطرس؟»

«ماذا يسعني أن أقول لك يا معلم؟ إذا سألت عيني قالتا: لا
شيء، وإذا سألت قلبي قال: كل شيء. وبين الجوابين يتذبذب عقلي
كالنفاقوس»

«وأنت يا يعقوب؟»

«لا شيء. سامعني يا معلم، لكلك لا تحمل أي شيء»

قال يسوع «انظروا!» ورفع ذراعه بعنف. وحين رفعها عالياً ثم
أنزلها بقوة إلى أسفل انتاب الخوف الصعب، وفرح يهوذا كثيراً
وأحمر مثل وردة نضرة وأشرق وجهه كله.

ثم قبض على يد يسوع وقبلها.

هتف «يا معلم، أنا رأيت! رأيت! أنت تحمل فأس المعداني!»

لكنه سرعان ما شعر بالخجل والغضب لأنه لم يتمكن من
ضبط حركته، فتراجع من جديد واتكأ على جذع شجرة الأرض.

سمع صوت يسوع هادئاً ورصيناً وهو يقول «لقد أحضره إليّ
ووضعه عند جذور الشجرة النخرة، لهذا خلق ليحملها إليّ. ولم
يكن يوسعه أن يفعل ما هو أكثر. وأتيت، وانحنيت، التقطت الفأس -
ولهذا خلقت أنا، الآن يبدأ أداء واجبي: أن أقطع الشجرة النخرة.
كنت أحسبني عريساً، وأنتي أحمل غصن لوز يزهر في يدي، لكنني
طوال الوقت كنت قاطع أخشاب. أتذكرون كيف رقصنا وتزهدنا في
الجليل ننادي بجمال العالم، ووحدرة السماء والأرض، وكيف أن

الفردوس سرعان ما سيفتح لنا ويدخله؟ يا أصدقائي، لقد كان كل ذلك حلمًا. وها نحن قد أقمنا منه»

صرخ بطرس في رعب «أذن فلا وجود لمملكة السماء؟»

«موجودة، يا بطرس، موجودة - ولكن داخلنا. مملكة السماء هي في داخلنا، ومملكة الشيطان في الخارج، والملكوتان تتقاتلان. الحرب! الحرب! إن واجبنا الأول هو أن نقطع دابر الشيطان بهذه اللس»

«أي شيطان؟»

«هذا العالم المحيط بنا، تشجعوا يا أصدقاء - لقد دعوتكم لشن الحرب، وليس لحمل زفاف، سامحوني، لأنني لم أكن أعرف نفسي. ولكن على كل من يفكر منكم بزوجة، أو أطفال، أو حقول، أو سعادة، أن يفادر ولا داعي لأن يغفل، فلينهض، ويودعنا بهدوء ويرحل. مصحوباً ببركتنا، ما زال هناك وقت»

سمت. ومرار يصمر على صحبه. لم يتحرك أحد. درجت نجمة المساء الشبيهة بقطرة ماء ضخمة، خلف اغضان الأرزاء السوداء. نفخت طيور الليل أجنتها الحالكة واستيقظت، وهب نسيم متعش متحدرًا من الجبال. وفجأة، وسط عذوبة المساء، اندفع بطرس الى الأمام وهتف «يا معلم، أنا معك في هذه الحرب كظلك - وحتى الموت»

«هذا كلام متبجح يا بطرس - إذ من يرغب في خلاص نفسه؟ متى نهض نبي ليخلص الناس دون أن يرحمهم حتى الموت؟ إننا نسير على درب طويلة وعرة، تمسك بروحك بقوة يا بطرس - يجب ألا تضر منك. إن اللحم ضعيف، فلا تثق به... أسمع؟ إنني أكلمك أنت يا بطرس»

فجأة ترقرقرت عينا بطرس بالدموع وتمتم «ألا تثق بي يا

معلم؟ إن الرجل الذي ترمقه هكذا ولا تثق به سيأتي عليه يوم ويموت فداءً لك»

وضع يسوع يده على ركبة بطرس وداعبها، وقال متمثلاً «ربما... ربما... سامحني يا بطرس يا أعز الناس»

التفت الى الآخرين. قال «إن يوحنا المعمدان كان يعمد بالماء فقتلوه. أما أنا فمساعد بالتار. إنني أوضح لكم هذا الأمر هذا المساء لتكونوا على يئنة ولا تتذمروا حين تداهمننا الأوقات العصيبة. وها أنا أعرفكم، قبل أن تنطلق، بالطريق التي سنسلكها: إننا نسير الى الموت - ويعد أن نموت، يكون الخلود. هذه هي الطريق. فهل أنتم مستعدون؟»

بدا الصبح وكأنهم مخدرون. هذا الصوت قاس. لم يعد يمرح ويضعك إنه يدعوكهم لحمل السلاح. إذن فعليهم أن يسلكوا طريق الموت إذا أرادوا أن يدخلوا مملكة السماء؟ أما من سبيل آخر؟ إنهم أناس بسطاء، أميون مساكين يكدحون طوال النهار، والعالم ثري وكامل السلطان. فكيف يسعهم أن يرفعوا السلاح في وجهه؟ ليت الملائكة تهبط من السماء وتساعدهم! ولكن لم يكن أي من المريدين قد رأى قط ملاكاً يمشي على الأرض ويساعد المساكين والمظلومين. لذا لزموا الصمت وهم يشربون ويعيدون تقدير حجم الخطر. وكان يهوذا يتابعهم من زاوية عينه ويقهقه شاعراً بالفخر. هو وحده لم يكن يجري حساباته، كان متوجهاً الى الموت محتقراً الموت، غير آبه بجسده أو بروحه، ولا يحمل في جنباته غير هوى عظيم، وسيكون من قبيل الفرح المطلق أن يدمر نفسه اكراماً لذلك الهوى.

أخيراً فتح بطرس فمه، وكان أول المتكلمين، قال «يا معلم، هل ستهبط الملائكة من السماء لتساعدنا؟»

أجابته يسوع «نحن ملائكة الرب على الأرض يا بطرس، ولا

سال يهوه: «ولكن انظن اننا سنوفق وحدنا يا معلم؟»
 نهض يسوع. كان جسر انفه يرتجف، وصرخ «ارحلوا، اتركوني!»

هتف يوحنا: «لن اتخلي عنك يا معلم. انا معك حتى الموت، وهتف انداء أوس وهو يعانق ركبتي المعلم «وانا أيضاً يا معلم»
 انحدرت دمعان كبيرتان من عيني بطرس، لكنه لم يتكلم، وأطرق يعقوب، الشاب الضخم القوي، رأسه خجلاً.
 سال يسوع: «وقد لاحظ أن ذا اللحية الحمراء الصامت يحذق الى الآخرين بنشرة ضارية «وانت، يا يهوذا، يا أخي؟»

قال يهوذا: «منع!» لا تهمني الكلمات، ولا أحب الثرثرة مثل بطرس. ما دمت حمل الفأس، فانا معك. واذا تركتها، اتركك. انني لا اتبعك انت، كما تعرف جيداً. انني اتبع الفأس»

قال بطرس: «لا تخجل من كلامك هذا مع المعلم؟»
 لكن يسوع كان سعيداً. قال «يهوذا على حق يا اصدقائي، انا ايضاً اتبع الفأس»

جلسوا جميعاً على الأرض، وظهورهم مستندة الى جذع الأرز. وفي السماء تضاعفت أعداد النجوم.

قال يسوع: «من هذه اللحظة فصاعداً سننشر راية الرب وننتقل لنشن الحرب، وعلى راية الرب طرز نجم وصليب، الرب معنا»

ران عليهم الصمت، وقد استقروا على قرارهم، واضطربت قلوبهم.

خاض يسوع الحرب، وكان الظلام قد حجبهم تماماً «مرة أخرى سأحدثك يوم لأمثولات. أمثلة أخيرة قبل أن ننطلق لنشن

معركتنا... اعلّموا أن الأرض مثبتة على سبعة أعمدة، والأعمدة مثبتة على الماء، والماء على السحب والسحب على الرياح والرياح على العاصفة، والعاصفة على الصاعقة، والصاعقة تستقر عند قدمي الرب، كالفأس»

قال يوحنا وقد احمر خجلاً: «انني لا افهم»

اجاب يسوع، وهو يداعب شعر صاحبه المحبوب «يا يوحنا، يا ابن الصاعقة! سوف تفهم حين تكبر وتذهب لتصبح ناسكاً على إحدى الجزر وتتفتح أبواب السموات من فوقك ويتلظى عقلك ناراً»
 وصمت. كانت تلك المرة الأولى التي يدرك فيها بوضوح كنه صاعقة الرب: إنها فأس تلتهب عند قدمي الآله، ومن هذه الفأس تتدلى العاصفة، والرياح، والسحاب والماء كحبات مسيحة: تمثل الأرض برمتها، ومع أنه عاش سنين طويلة مع الناس، وعاش طويلاً الكتاب المقدس، فلم يكشف له قط هذا السر الرهيب: وما هو السر: هو أن الصاعقة هي ابن الرب، المسيح، المسيح هو الذي سيظهر العالم.

قال - وكان بطرس قد شاهد فرعين من اللهب، أشبه بقرنين، يتطايران فجأة من جبينه - «يا أنصاري، لقد ذهبت الى الصحراء، كما تعلمون، لأقابل الرب. كنت جائعاً وظمآن، وأغلي من الحرارة. فجلست رابضاً فوق صخرة، أدعو الرب ليظهر. وأخذ الشياطين يتوافدون عليّ أمواجاً أمواجاً، وأثاروا فوقي ضجيجاً وتكسيراً، وأزبدوا، ومن ثم استداروا على أعقابهم وعادوا من حيث أتوا. في أول الأمر جاء شياطين الجسد، ثم شياطين العقل، وأخيراً شياطين القلب الجبابرة. لكنني وضعت الرب نصب عينيّ كترس من البرونز، وفاحت الرمال من حولي براحة مخابيهم وأنبايهم وقرونهم. ثم سمعت صوتاً هادراً فوقي يقول «انهض، خذ الفأس التي أحضرها لك السابق، واضرب»»

هتف بطرس «أين يتم خلاص أحد؟»

لكن يسوع لم يسمعه، وتابع «وعلى حين غرة ثقلت ذراعي وكان ثمة من أقحم خامساً في قبضة يدي. وبدأت أنهض، ولكن بينما أنا أفضل سمعت الصوت مرة أخرى يقول «يا ابن النجار، هناك فيضآن آخر يتداح بقوة، هذه المرة هو ليس ماء، بل نار. ابن سفينة جديدة، وانتقأ أظهر الناس وضمهم في داخلها»، وها قد بدأ الانتقاء يا أصدقائي، السفينة جاهزة، بابها مفتوح، فادخلوا»

تحركوا جميعاً، زحفوا متقدمين، وتجمعوا حول يسوع وكأنه السفينة وهم يحاولون الدخول إليها.

«وسمعت الصوت ثانية يقول «يا ابن داوود، حلما يخمد اللهب وترسو السفينة في اورشليم الجديدة، اغتسل عرش أجدادك واحكم الانسانية! ستكون الأرض القديمة قد تلاشت، والسماء القديمة قد اختشت. وستمتد سماء جديدة فوق رؤوس الأملهار وستلمع النجوم - وعيون الناس - أقوى من ذي قبل بسبع مرات»

عاد بطرس بهتف «يا معلم، نحن الذين قاتلنا معك يجب أن لا نموت قبل أن نشهد ذاك النهار ونجلس محيطين بعرشك من اليمين وعن اليسار»

لكن يسوع لم يسمعه، وتابع كلامه مستغرقاً في رؤى الصحراء المحمومة. قال «وللمرة الأخيرة سمعت الصوت من فوق يقول «يا ابن الرب، رافقتك مباركتي»

ابن الرب! ابن الرب! هكذا هتف كل في نفسه، ولكن لم يجرؤ أحد على قول كلمة واحدة.

كانت النجوم قد طلعت كلها الآن. كانت منخفضة هذه الليلة، معلقة في منتصف المسافة بين السماء والبشر.

سأل اندراوس «والآن، يا معلم، أين سنبدأ حياتنا العسكرية؟»

أجابه يسوع «الرب أخذ حفنة من تراب الناصرة وشكل جسدي هذا، لذا من واجبي أن أبدا الحرب من الناصرة. من هناك يجب أن يبدأ جسدي بتحوله الى روح»

قال يعقوب «وبعد ذلك نذهب الى كفرناحوم، الى والدي»

اقترح اندراوس قائلاً «ومن ثم الى مجدلة لنحضر المسكينة المجذلية، ونضمها بدورها الى السفينة»

هتف يوحنا، مشيراً الى الشرق والغرب «ومن ثم ننشر في العالم أجمع»

سمع بطرس كلامهم فضحك. قال «إنني أفكر في بطوننا. ماذا سنأكل في السفينة؟ اقترح أن لا نأخذ معنا إلا الحيوانات التي تؤكل، يحق الرب، ما فائدة الأسود والبعوض لنا؟»

كان جائعاً، وكان عقله وأفكاره منصبة على الطعام. ضحك الجميع.

أنتبه يعقوب، فقال «أنت لا تفكر الا في الطعام. إننا هنا لننتحدث عن خلاص العالم»

اعترض بطرس «إنكم جميعاً تفكرون بالشيء نفسه، لكنكم ترفضون الاعتراف بذلك، إنني أقول صراحة ما يجول في خاطري، خيراً كان أم شراً. يدور ذهني فادور معه. ولهذا يسميني الثرثارون بطاحونة الهواء. هل أنا محق يا معلم أم لا؟»

أشرق وجه يسوع مبسماً، وخطرت بباله أمثلة «كان هناك حبر أراد أن يجد من يُحسِّن نفخ البوق بمهارة وقوة حتى يسمعه المؤمنون فيأتون الى الكديس. فنادى على كل ناضخي الأبواق الجيدين أن يحضروا شخصياً لعرض أدائهم. وكان على الحبر أن ينتقي أفضلهم. فأتى خمسة - هم الأكثر مهارة في البلدة. وتناول كل منهم البوق ونفخ. وبعد أن انتهوا جميعاً، سأل الحبر كلا

منهم «ماذا تفكر، يا ولدي، وأنت تنفخ في البوق؟» فأجاب الأول «بالرب»؛ والثاني «أفكر بتحرير أرض إسرائيل»؛ والثالث «أفكر بالفقراء الجائعين»؛ والرابع «أفكر باليتامى والأرامل». وحده أشدهم رثاءً ظل واقفاً خلف المجموعة في الزاوية ولم يتكلم. فسأله الحبر «أنت يا ولدي، بماذا تفكر وأنت تنفخ في البوق؟» فأجابته وقد احمرّ خجلاً «أنا يا أبت إنسان فقير وأمّي ولدي أربع بنات. وأنا غير قادر على تأمين بائناات تلك المسكينات حتى يتمكنّ من الزواج كثيرهن من البنات، لذا، فعندما أنفخ في البوق أقول للنفسى: يا رب، أنت ترى كيف أكّد وأكدج لأجلك، فأرجوك أرسل أربعة أزواج الى بناتي». فقال الحبر «بوركت، لقد أنقيتك»

التفت يسوع الى بطرس وضحك. قال «إنني أباركك وأنقيتك. أنت تفكر في الطعام، وتحدث عن الطعام. وحين تفكر في الرب سوف تحدث عن الرب. أحسنت! لهذا يدعوك الناس بطاحونة الهواء. أنا أنقيتك. أنت طاحونة الهواء التي ستطحن القمح ليغدو خبزاً ويأكله الناس»

وكان معهم قطعة خبز واحدة قسمها يسوع. ولم يكن نصيب كل منهم غير مقدار لقمة، لكن المعلم باركها. وشبعوا. بعد ذلك اتكأوا على أكتاف بعضهم بعضاً وناموا.

في الليل يهيج كل شيء، يسترخي وينمو - حتى الحجارة، والماء، والأرواح. وحين استفاق الضعب في الصباح، كانت أرواحهم قد نما لها أغصان غطت كامل أجسادهم، وملأتها ثمة وفرحاً.

انطلقوا قبيل الفجر. كان الهواء في ذلك اليوم بارداً، وتلبدت فيه السحب - إنه جو الخريف. طارت فوقهم طيور كراكي تأخرت في الرحيل، حاملة ما يملأ أفواهها ومتجهة جنوباً. وراح المريدون

الخالون من الهم يلتهمون الطريق؛ وقد اجتمعت السماء والأرض في قلوبهم. وحتى أصغر حجر كان يتلألاً، مملوءاً بروح الرب. سار يسوع وحده في المقدمة، وفكره متوائماً: استقر على التفكير في رحمة الرب. كان يعلم أنه قد أحرق جسوره خلفه أخيراً ولم يعد بإمكانه أن يتراجع، أصبح مصيره أمامه وهو يتبعه. وما يشاؤه الرب، سيكون... مصيره؟ فجأة بدأ يسمع وقع خطى الغامض الذي ظل يلاحقه دون رحمة منذ وقت طويل، أرهف سمعه وأنصت. كان سريعاً، ثقيلاً وحاسماً. ولكن الآن لم يكن خلفه؛ كان أمامه ويقوده... قال لنفسه، هذا أفضل، أفضل، لن اضيع طريقي بعد الآن...

من خطاه، وقد ملأه الحبور، وخيل إليه أن قدميه تسرعان من تلقاء ذاتهما، فأسرع معهما، تقدم وهو يهمس للمرشد الخفي «الى الأسام! الى الأسام!»، كان يركض، مستعسراً في خطاه على الصخور ويقتز عبث القنوات. وفجأة أطلق صرخة، شعر بألم رهيب في يديه وقدميه، وكان مسامير اخترقتها. تهاوى على إحدى الصخرات، والعرق يتقصد بارداً من كل جسمه. أصابه الدوار برهة من الوقت، وغاصت الأرض من تحت قدميه وامتد أمام ناظريه خضمٌ هائج حالك، خال الا من قارب أحمر اللون يطفو مبحراً بجراً، وأشرعته منتفخة تكاد تتمزق... أمعن يسوع النظر وأطال، ثم ابتسم. غمغم «إنه قلبي، إنه قلبي...» ثم عاد الهدوء الى رأسه، وخمد الألم، وحين وصل مريدوه وجدوه جالساً بسكينة على صخرة ويبتسم.

قال، وهو ينهض «الى الأسام يا شباب، أسرعوا»

الفصل الواحد والعشرون

يقال أن يوم السبت هو فتي حسن التغذية يرتاح على ركبتي الرب، ومعها ترتاح المياه، وتحجم الطيور عن بناء أعشاشها، ويتوقف الناس عن العمل، ويلبسون الثياب القشبية استعداداً للذهاب للكنيس لمشاهدة الحبر وهو يفتح اللقيضة المقدسة المدونة فيها ناموس الرب بحروف حمراء وسوداء، وليسمعوا العالم وهو يمحّص كل كلمة، وكل مقطع صوتي ويكشف - بمهارة عظيمة - عن إرادة الرب.

واليوم هو السبت، وهي هذه اللحظة بالذات يفادر المؤمنون كنيس الناصرة، وعيونهم ما زالت مبهورة بالرؤى التي استحضروها شمعون، الحبر العجوز، أمامهم. ويكون تأثير النور من القوة على عيونهم حتى أنهم جميعاً يتعثرون في مشيهم كالعمي. ويتفرقون في أرجاء ساحة القرية؛ يتزهون بخطى متعجلة تحت أشجار النخيل الباسقة ليستعيدوا توازنهم.

اليوم فتح الحبر الكتاب المقدس لا على التعيين، فإذا به سفر النبي ناحوم. ثم وضع أصبعه، أيضاً لا على التعيين، فوقعت على

النص المقدس التالي: «هوذا على الجبال قدما مبشر مناد بالسلام»

قرأ الحبر المعجوز هذه الكلمات، وأعاد قراءتها، وهو يزداد حرارة، ثم صرخ «إنه المسيح. هو قادم. انظروا فيما حولكم. وانظروا داخلكم. إن دلائل سجيته في كل مكان. في داخلنا؛ غضب، خجل، أمل وهتاف «كفانا ما لنا!»... وخارجنا: انظروا! الشيطان يتربع على عرش الكون، يضع على إحدى ركبتيه جسد الانسان العفن ويداعبه، وعلى الأخرى روح الانسان العاهرة. لقد حان زمن نبوءات الانبياء - والرب هو الذي يتكلم من خلال أفواه الانبياء. افتحوا الكتاب المقدس. ماذا يقول «حين سيطاح بإسرائيل عن عرشها وتطأ تراب أرضنا الطاهر اقدام البرابرة، ستكون نهاية العالم»، ويقول أيضاً «وسيكون آخر ملوكها فاسقاً، هاتكاً للحرمان، وكافراً، وسيكون أولاده فاسدين وسيسقط التاج عن رأس إسرائيل». وما قد أتاها الملك الفاسق، هاتك الحرمان: هيرود! لقد رأيته بعيني رأسي حين دعائي للمجيء الى أريحا لشفاؤه. وأخذت معي أعشاب السرية - وكنت أعرف كل شيء عن هذا العلم - وذهبت. ذهبت، ومنذ ذلك اليوم ونفسي تعاف أكل اللحم، لأنني رأيت لحم جسمه المتعفن، وعافت نفسي شرب الخمر، لأنني رأيت دمه يعج فيه الدود، وظلت عفونته ملازمة لأنفي طوال أكثر من ثلاثين عاماً... ثم مات، وتفتحت جثته. وجاء أبناؤه: فإذا بهم حثالة تافهة، فاسدة، وسقط التاج عن رؤوسهم...»

«اذن، فقد تحققت النبوءات: حانت نهاية العالم! وتردد صدى صوت على ضفاف نهر الأردن «إنه آت»، وتردد صدى صوت داخلنا: «إنه آت». واليوم أفتح الكتاب المقدس فتحتشد الكلمات معاً وتصرخ «إنه آت»، لقد أدركني العجز، واعتمت عيني،

وسقطت أسناني، وتراخت ركبتي، إنني مبتهج! مبتهج لأن الرب أوفى بوعده. قال لي: «يا سمعون، لن تموت قبل أن ترى المسيح». وهكذا كلما اقتربت من الموت، اقترب من المسيح أكثر، تشجعوا يا أولادي. لم تعد هناك عبودية، ولا شيطان، ولا رومان. ليس هناك غير المسيح، وهو قادم! أيها الرجال، شمروا عن سواعدكم: إنها الحرب أيتها النسوة، أضنن المصابيح، فقد وصل العريس! لا نعرف بالدقة في أي ساعة أو دقيقة - قد يصل اليوم، وربما غداً - ابقوا يقظين! إنني أسمع الحجارة في الجبال القريبة تتطير تحت وطأة قدميه. إنه قادم! اخرجوا، فليعلمكم ترونه!»

خرج الناس وانتشروا تحت أشجار النخيل الباسقة. لقد كانت كلمات الحبر مفككة كلياً، وجاهد المستمعون كي ينسوها تماماً لتخمد ألسنة اللهب المستعرة وتتمكن أرواحهم من العودة لتسوية أمور عالقة، وبينما هم يتزهون، ينتظرون بقلق حلول ساعة الظهيرة ليعودوا الى منازلهم ويعملوا على تسيان الكلمات المقدمة بالتحدث والتشاجر وتناول الطعام - وفجأة يظهر ابن مريم بلباسه الرثة، وقدميه الحافيتين، ووجه كومض البرق، والمريدون الأربعة منضمون في خوف خلفه، ويهوذا ذو اللحية الحمراء، والعينين الفاحمتين، الانطوائي، يسير في المؤخرة.

غمرت الدهشة أهل البلدة. من أين أتى هؤلاء الرعا - ثم ليس ذلك هو ابن مريم الذي يتقدمهم؟

«انظر كيف يمشي، إنه يعد ذراعيه ويلوح بهما كجناحين. لقد أصابه الرب بالغرور وهو يحاول أن يلير»

«إنه يعتلي صخرة ويومئ. سوف يتكلم،

«هيا بنا نذهب وننسل»

حقاً كان يسوع قد اعتلى صخرة في منتصف الساحة، وتجمع

الناس حوله ضاحكين، سعداء لظهور هذا المستبصر. والآن سيتمكنون من نسيان كلمات الحبر الوقور. لقد قال لهم «إنها الحرب. ابتقوا يقطن، إنه قادم». إنه يدمم بهذه الترتيلة في أذانهم منذ سنين عديدة، وقد ملوا سماعها. والآن، شكراً للرب، سيعينهم ابن مريم على اراحة بالهم.

لوح يسوع بذراعيه مشيراً إليهم أن يتجمعوا حوله. كان المكان يعبأ بأصحاب اللحن، والقلنسوات الضيقة، والأردية المخططة. وبعض المحتشدين كان يعضغ التمر ليخضع به جوعه، وآخرون يعضفون عباد الشمس، والشيوخ منهم والأكثر خشية من الرب كانوا يستبحون بسبحات طويلة ذات خرزات مصنوعة من عقد صغيرة من القماش الأزرق اللون تحتوي على نصوص من الكتاب المقدس.

ومضت عينا يسوع. وعلى الرغم من أنه كان يقف أمام حشد غفير من الناس، إلا أن قلبه لم يستشعر الخوف. باعد ما بين شفتيه، وصرخ «يا اخوتي، افتحوا أذانكم، وافتحوا قلوبكم، واسمعوا ما سأقول. لقد هتف أشعيا. قال «روح السيد الرب علي لأن الرب مسحني لأبشر المساكين، أرسلني لأعصب منكسري القلوب»، وها أن اليوم الموعود قد جاء يا اخوتي، أرسلني رب اسرائيل لأبلغ البشارة. مسحني هناك في الصحراء اليهودية، ومن هناك آيت! أودع لدي سرّاً عظيماً، فثقلت على السهول والجبال - ألم تسمعوا خطي قديمي على سفوح التلال؟ - هزعت الى هذه القرية، مسقط رأسي، لأعلن النبا السعيد للمرة الأولى. فهاهو هذا النبا السعيد! إن مملكة السماء قد حلت!

رفع رجل عجوز ذو حذبتين كما الجمل مسبحته وقهقه قائلاً: «كلماتك التي تنفثوها بها كلمات غامضة، يا ابن النجار، غامضة. ولا أساس لها. «مملكة السماء»، «العدالة»، «الحرية» وانزعوا قدر ما

تستطيعون يا شباب، فكل شيء مباح. لقد طلع كيلى! معجزات! معجزات! أريد منك أن تقوم بشيء هنا والآن. قم ببعض المعجزات لنؤمن بك. والا، فالزم الصمت».

أجاب يسوع «إن كل شيء هو معجزة، أيها العجوز، أية معجزات أخرى تريد؟ انظر تحتك: حتى أبسط ورقة عشب لها ملاكها الحارس يلازمها ويعينها على النمو. وانظر فوقك، ما أروع معجزة السماء المرصعة بالنجوم! وإذا أضمت عينيك، أيها العجوز، فما أروع معجزة العالم الكامن داخلنا! ما أشبه قلبنا بسما مرصعة بالنجوم!».

سمعوه، ذهلوا، وتبادلوا النظرات «ليس هذا ابن مريم؟ كيف توصل الى أن يتكلم يمثل هذه القوة والثقة؟» «إنه الشيطان يتكلم مستخدماً فمه. أين اخوته ليوثقوه لثلاث بعض أحدى؟»

«ها هو يفتح فمه من جديد، صمّأ».

«إن يوم الرب قد جاء يا اخوتي. فهل أنتم مستعدون؟ لم يتبق أمامنا إلا بضع ساعات. نادوا على الفقراء ووزعوا عليهم ممتلكاتكم. ما اهتمامكم بمتاع هذه الأرض؟ النار قادمة لتحرقه كله! قليل ملكوت السماء سيأتي ملكوت النار. وفي يوم الرب سوف تنهض حجارة منازل الأثرياء وتسحق ساكنيها! وسوف تنقصد قطع الذهب في خزائن الأثرياء عرقاً، وسوف يتدفق عرق الفقراء ودمائهم على الموسرين. سوف تنشق السماوات، وتصب سيولاً ودماء. وستطغو السفينة الجديدة فوق أسنة اللهب. إن المفاتيح سعي وسافتح السفينة واختار. يا اخوتي في الناصرة، سأبدا بكم، وأنتم أول من أدعوهم. تعالوا ادخلوا، إن لهب الرب قد بدأ بالهبوط فعلاً».

أخذ الحشد يصيح مستهجنًا وسط نوبات الضحك «يوه يوه»
ابن مريم جاء لينقذنا، وأنحنى عدد من الناس، وسألوا أيديهم
بالحجارة، وانتظروا.

ظهر شخص يركض عند أطراف المساحة. كان فيلبس،
الراعي. جاء مسرعاً حاملاً سمع عن وصول أصحابه. كانت عيناه
متورمتين وملتهبتين كأنهما من كثرة البكاء، وغارت وجنتاه. ففي
اليوم نفسه الذي ودّع يسوع وصاحبه عند البحيرة وقال لهم ضاحكاً
«لن آتي معكم، لدي أغنام، فأين أضعها؟» هبط عليه لصوص
قادمين من لبنان وسرقوها، ولم يتركوا له غير عصاه. ولا زال
يحتفظ بها، وراح ينقل من قرية إلى قرية. ومن جبل إلى جبل،
كملك غير متوج، يبحث عن قطيعه، وتهدد وتوعد، وشحن خنجره
المريض وقال أنه ذاهب إلى أرض لبنان. لكنه أثناء الليل وهو
وحيد، أخذ يكي... وما هو الآن يهرع للانضمام إلى أصدقائه
وليحكي لهم عن معاناته لينطلقوا معاً إلى لبنان. سمع تصاعد
نوبات الضحك، فغمغم «ماذا يحدث هناك؟ لماذا يضحكون؟»
واقترب.

عندئذ كان يسوع قد استشاط غضباً، فصرخ «علام تضحكون؟
لماذا تجمعون الحجارة لترجموا بها ابن الإنسان؟ لماذا تتباهون
بمنازلكم وكرور زيتونكم وعنبكم؟ كله رماداً ورماداً وأبنائكم وبنايتكم؛
رماداً اللهب واللصوص سوف يندفعون هابطين من الجبال وينهبون
أغنامكم»

دمدم فيلبس، وكان ينصت وذقنه معتمدة على عصاه «أي
لصوص. أية أغنام؟ وما ذاك اللهب الذي ستنزله علينا الآن؟»
بينما كان يسوع يتكلم وصل المزيد فالمزيد من الفقراء السمر
الذين سمعوا عن ظهور نبي جديد يتصر البؤساء فهرعوا إليه.

وقيل أنه كان يحمل في إحدى يديه ناراً علوية ليحرق بها الأثرياء،
وبالأخرى ميزاناً لتقسيم ممتلكاتهم على الفقراء. إنه موسى جديد،
جالب ناموس جديد وأكثر عدالة. انتصب الناس وأنصتوا إليه،
ماسورين. لقد جاءت، جاءت! مملكة الفقراء جاءت!
ولكن حين همّ يسوع ثابته بالكلام، حطّت أربع أذرع عليه،
وأمسكت به وأنزلته عن الصخرة، وبسرعة التف حبل حوله. التفت
يسوع فرأى ولديّ يوسف وشقيقه هو: سمعان الأعرج ويعقوب
الورع.

زعقا، وهما يجراانه بسرعة «إلى المنزل، إلى المنزل - أدخل!
أنت ممسوس بالشياطين!»

صرخ يسوع «لا بيت لي، أطلقوني. هذا هو بيتي، وهؤلاء هم
أخوتي!» قال هذا مشيراً إلى الحشد.

وهتف الأهالي بدورهم وهم يضحكون «أذهب إلى البيت، إلى
البيت!»، ورفع أحدهم ذراعه وقذف بالحجر الذي كان يحمله،
فكشط جبين يسوع، وجرت منه أول قطرة من الدم.

صرخ العجوز ذو الحدية المزودجة «الموت! الموت! إنه ساحر،
إنه يرمينا بتعاويذه، ويستنزل علينا النار لتشويننا - وسوف تنزل!»
وسمع من قال «الموت! الموت!»

تقدم بطرس بسرعة، وهتف «عار عليكم جميعاً. ماذا فعل
لكم؟ إنه بريء!»

اندفع شاب قوي البنية نحوه، وقال وهو يطبق على نحره،
«بيدو أنك تقف إلى جانبه، هه؟»

صرخ بطرس «لا! لا! لست كذلك»، وهو يكافح ليخلص
خنجرته من اليد الضخمة.

استولى الذعر على أصحاب يسوع الثلاثة الآخرين. تنحى كل

من يعسوب واندراوس جانباً، ليقبّروا حجم قوتهم، وترقرقت عيناً
يوحنا بالدمع. لكن يهوذا شق طريقه بين الحشد الغفير ودفع
الأخوين الثائرين بعيداً عن المعلم، وهكذا.

صرخ بهما «ابتعدا، والا ستكون مشكلتكما معي! اغربا»
زعق سمعان الأعرج إذا أردت أن تصدرا أوامر فارحل إلى بلدك»
«أنا أصدر أوامري أينما تكون قبضتاي، فإذا المساق
القصيرة»، ثم التفت إلى الأنصار الأربعة وقال «ألا تخجلون من
أنفسكم وأنتم تتكرونها منذ الآن! تقدموا! شكّلوا دائرة حوله لكي
لا يمسّه أحد»

شعر الأربعة بالخجل، وقفز الفقراء والمعوّزون إلى الأمام
هاضمين «أيها الأخوة، نحن إلى جانبكم! قتلناهم!»
صرخ صوت هادر «وأنا أيضاً معكم»، لوح فيلبس بعضاه، وشق
طريقه دافعاً المحتشدين من أمامه وأضاف «أنا أيضاً قادم»
أجابته ذو اللحية الحمراء «أهلاً بك يا فيلبس، تعال إلينا!
فالمساكين والمظلومون - كلهم معنا»

حين رأى الأهالي الفقراء يثيرون عليهم، احتاجوا. لقد جاء ابن
التجار ليزرع أفكاراً في رؤوس الفقراء، ويقلب النظام الراسخ للعالم
رأساً على عقب. ألم يقل إنه يجلب ناموساً جديداً؟ الموت! الموت!
هَبُوا كالنار المستعرة واندفعوا إليهم، بعضهم مزود بالعصي
والبعض الآخر بالسكاكين، أو بالحجارة. وتلحى العجائز جانباً
يهتفن مشجعين. واحتسب أصدقاء يسوع خلف أشجار الدلب عند
حواف الساحة، واندفع آخرون خارجين إلى الغراء. أما يسوع نفسه
فتقدم ووقف حائلاً بين الطرفين المتقاتلين. مدّ ذراعيه وصرخ
«أخوتي! أخوتي!»، ولكن لم ينصت إليه أحد. وتطايرت الحجارة
بغضب وعلى الفور سمع آتني أول المصابين.

برزت امرأة بقوة من زقاق ضيق، تعصب وجهها بحزم بمنديل
أرجواني، يغطي كل شيء فيه ما عدا نصف ضمها وعينيها
السوداوين النجلاوين، اللتين كانتا غارقتين بالدمع.

صرخت بصوتها الحاد «أكراماً للرب، لا تقتلوه»

غمغم الناس «إنها مريم، أمه»

ولكن كيف كان بإمكان العجائز أن يראوا بحال الأم وهم على
ما هم عليه من تطرف أعمى. كانوا يجارون «الموت! الموت! لقد جاء
ليثير الناس، ليحثهم على التمرد، لتوزيع ممتلكاتنا على الزعاع
الحفاة. الموت»

هنا أمسك الخصوم بعضهم بتلابيب بعض، وتدرج ولدا
يوسف على الأرض، يجازان، قبض يعقوب على حجر وضرب به
رأسيهما، ووقف يهوذا أمام يسوع شاهراً خنجره، مانعاً أي شخص
من الاقتراب. وتذكر فيلبس أغنامة فلم يعد باستطاعته أن يكبح
زمام نفسه وأخذ يطيح بهراوته دون تمييز على رؤوس خصومه.

ومرة أخرى سمع صوت مريم يقول «باسم الرب، إنه مريض
لقد فقد صوابه، اسفقوا عليه»

لكن صرختها غرقت وسط الصخب. وكان يهوذا عندئذ قد
أمسك بأقوى الشبان ووطأه بقدمه وسلط الخنجر على نحره، لكن
يسوع وصل في الوقت المناسب وأبعد ذراع ذي اللحية الحمراء.

صرخ «يهودا، يا أخي، لا دماء! لا دماء»

صرخ ذو اللحية الحمراء، وقد اضطرم غضبه «ماذا إذن - ماء؟
أنسيت أنك تحمل فاساً؟ لقد حانت الساعة»

حتى بطرس أبدى حنقه، وقد استفزته الضربات التي تلقاها،
فحمل حجراً كبيراً ثقيلاً وهجم على العجائز.

دخلت مريم إلى مركز الشجار واقرت من ابنها. أمسكت بيده

وقالت «ماذا دهالك يا ولدي؟ كيف انحدرت الى هذا الحال؟ عُد الى البيت واغتسل، وبدّل ملابسك واليس صندلك. إن القذارة تسريلك يا ولدي»

قال «لا بيت لي، ولا أم. من أنت؟»

أخذت الأم تيكلي، وتغوّز أظافرها في وجنتيها، ولم تقل شيئاً. طوّح بطرس بالحجر الذي يحمله، فأصاب بقوة قدم الرجل العجوز ذا الحذبة المزدوجة، عوى المصاب من الألم وراح يقفز، منتقلاً خلال الأزقة باتجاه منزله. ولكن الحبر ظهر في تلك الآونة، وهو يلهث، فقد سمع الصخب فقفز عن طاولته التي كان منكباً عندها على قراءة الكتاب المقدس يجتهد لاستخلاص إرادة الرب من الكلمات والمقاطع الصوتية. ولكن حين سمع الضجيج تناول صولجانه وهرع ليرى ما يحدث. وكان قد قابل على طوال الطريق عدة جرحى وعرف كل شيء. وها هو يشق طريقه بين الحشد حتى وصل الى ابن مريم.

قال بصوت قاس «ما معنى كل هذا يا يسوع؟ أهذا أنت، حامل لواء المحبة؟ أهذه هي المحبة التي جلبتها معك؟ ألا تخجل من نفسك؟»

ثم التفت الى الجمهور، وقال «يا أبنائي، عودوا الى منازلكم. هذا ابن أخي. إنه رجل مريض بأثس، وهو مريض منذ زمن طويل. لا تكونوا له ضغينة جراء ما قاله. اغضروا له. ليس هو من يتكلم، بل شخص آخر يستخدم فمه»

هتف يسوع «يا رب!»

قال الحبر بلهجة لاذعة «اصمت أنت»، ولسه بصولجانه مؤثماً. مرة أخرى التفت نحو الحشد، وقال «دعوه وشأنه، يا أبنائي. لا تكونوا له الضغينة، لأنه لا يعرف ماذا يقول. إننا جميعاً - أغنياء وفقراء - منحدرين من سلالة إبراهيم. لا تتقاتلوا فيما بينكم. لقد

انتقضت الظهيرة، عودوا الى منازلكم، وسوف أتولى شفاء هذا الرجل النعس»

والتفت الى مريم «أذهبي الى المنزل يا مريم. وسنلحق بك في الحال»

ألقت الأم نظرة أخيرة على ولدها، نظرة شوق طويلة، وكأنها تودعه وداعاً أبدياً. تهتدت، وعضت على منديلها، ثم اختفت في الأزقة الضيقة.

بينما كان الناس يتدأبحون غطت السحب صفحة السماء، واستعدت الأمطار للهطول وانعاش الأرض. ثم هبت الريح، وانفصلت آخر أوراق أشجار الدلب والتين عن أغصانها وتناثرت الأوراق على الأرض. وخلت الساحة من الناس.

التفت يسوع الى فيلبس ومد له يده. قال «فيلبس، يا أخي، أهلاً بك»

أجاب الآخر، وهو يضغط على يد يسوع «تسعدني رؤيتك يا معلم»، ثم سلمه عصاه، وقال «خذ هذه لتتكنّى عليها»

قال يسوع «هيا، أيها الأنصار، لنذهب. انفضوا التراب عن أقدامكم. الوداع يا ناصرة!»

قال الحبر العجوز «سأرافقكم حتى أطراف القرية حتى لا يتعرض لكم أحد»

أمسك بيد يسوع، وسارا معاً في المقدمة. وشعر الحبر بكف يسوع تلتهب في قبضته قال «يا بني، لا تحمل هموم الآخرين على عاتقك، والا افترسوك»

«لا هموم شخصية لدى يا أبت - فلتفترسني هموم الآخرين» وصلوا الى نهاية الناصرة، ولاحت البساتين في الأفق. ومن خلفها الحقول. توقف المريدون في المؤخرة برهة لغسل جراحهم في

نبي للماء. وكان معهم عدد كبير من الفقراء والمعاقين، بالإضافة الى اثنين من العميان - وكانوا جميعاً يتعاهدون وينتظرون النبي الجديد كي يقوم بمعجزاته. كانوا فرحين مرحبين، وكانهم عائدون من معركة عظيمة.

لكن المريدين الأربعة تابعوا المسير صامتين. أسرعوا متلهفين للاقترب من المعلم ليواسيهم. لقد سخرت الناصرة، مستقط رأس سيدهم، منهم وفتتهم: ها قد بدأت الحملة العظمى بداية سيئة! وكانوا يقولون لأنفسهم، إذا ما طردنا أيضاً من قانا ومن كفر ناحوم ومن كل مكان آخر يحيط ببحيرة جنيسارت، ماذا سيكون مآلنا؟ الى أين ستذهب؟ الى من سنعلن كلمة الرب؟ بعد أن أنكرنا شعب اسرائيل وسخر منا، الى من سنتوجه؟ الى الكفرة؟

نظروا الى يسوع، لكن لم يَكنه أي منهم بكلمة، لكن يسوع شاهد الخوف يطل من عيونهم، وأمسك بيد بطرس.

قال «بطرس، يا قليل الايمان، ثمة حيوان أسود اللون منتصب الشعر يجلس متكشفاً يرتعش داخل يؤذي عينيكَ. إنه الخوف يا بطرس، الخوف. أنت خائف؟»

«حين أكون بعيداً عنك يا معلم، نعم، أخاف. لهذا تراني اقتربت منك، ولهذا اقتربنا جميعاً. حدثنا وثبت قلوبنا»
ابتسم يسوع، ثم قال «حين أغوص عميقاً في روحي لا أعرف كيف تثبتي الحقيقة دائماً من داخلي على شكل أمثلة ولماذا. لهذا يا أصدقائي، سأحدثكم مرة أخرى بلغة الأمثولات:

«امر نبييل رفيع المقام ذات مرة بأعداد وليمة في قصره بمناسبة حفل زفاف ولده وبعد أن ذهبت الشيران ومُدت الموائد، أرسل خدمه ليعلموا للمدعوين «كل شيء جاهز، تفضلوا، اذا شئتم، الى حفل الزفاف». لكن كلاً من المدعوين بحث عن ذريعة للاحجام

عن المجيء». فقال أحدهم «لقد اشتريت حقلاً ويجب أن أراه»، وقال آخر «لقد تزوجت حديثاً ولا يمكنني أن أحضر»، وكان عذر التالي «لقد ابتعت خمسة أزواج من الشيران وأنا متوجه لأخضعها للاختبار» وعاد الخدم وقالوا لسيدهم «لن يتمكن أحد من المدعوين من الحضور، فكلهم مشغول». فغضب النبييل وأمرهم قائللاً «أسرعوا الى الساحات ومفترق الطرق، واجمعوا من تجدونه من فقراء، ومعاقين، وعميان ومشوهين واحضروهم الى هنا. لقد دعوت أصدقائي لكتهم رفضوا دعوتي. لذا سأملأ بيتي بغير المدعوين لكي يأكلوا ويشربوا ويبتغوا في حفل زفاف ابني»
هنا سكن يسوع. كان قد بدأ كلامه بنبرة هادئة، لكنه كلما تكلم أكثر فكر أكثر بالناصريين وباليهود. واحتدم الغضب بين عينيهِ. وأدهش مظهره المريدين.

قال بطرس، وهو يحك رأسه في يأس «من هم المدعوون، ومن غير المدعوين، وما مغزى الزواج؟ اغفر لنا يا معلم، لكننا لا نفهم»
قال يسوع «سوف تفهمون حين استدعي المدعوين لدخول السفينة فيرفضون لأنهم كما يقولون لديهم حقول، وكروم غني، وزوجات، ولأن عيونهم وأذانهم وشفاههم وأنوفهم وأيديهم هي الأزواج الخمسة من الشيران التي تحرث - تحرث ماذا؟ جهنم التي لا قرار لها»

تهدد. شعر وهو ينظر الى رفاقه بأنه منبؤ تماماً. تمت «ها أنا اتكلم، ولكن لمن؟ للفضاء. انني الوحيد الذي يتصت. متى ستنبئ الصعراء أذناً تسمعني بها؟»

كرر بطرس القول «اغفر لنا يا معلم، لكن عقولنا ما هي الا كتل من الطين. فاصبر: سوف تزهري»
التفت يسوع ونظر الى الحبر، لكن العجز كان يحدق إلى

الأرض. كان لديه هاجس مشؤوم حول المعنى الرهيب الخفي، وكانت عيناه الهرمتان الخاليتان من الرموش تترققان بالدمع.

عند أطراف الناصرة، وأمام سقيفة خشبية، وقف موظف الجمارك الذي يجمع المكوس، وكان اسمه متى. وكان على كل التجار الذين يلجئون القرية أو يغادرونها أن يدفعوا مكوساً للرومان. كان قصيراً، وجسمياً، وعصاباً بالبرقان؛ فبداه صفراً وأن ورخوتان، وأصابه ملوثة بالحبر، وأظافر يديه سوداء اللون: كان ذا أذنين طويلتين شعراوين وصوت رقيق كصوت خصي. وكان أهل القرية جميعاً يجدونه مثيراً للتعزز، وكرهوه. ولم يكن أحد يصادفه، وكان كل من يمر بالسقيفة يشيح ببصره عنه. ألا يقول الكتاب المقدس «واجبنا أن ندفع المكوس للرب وحده، وليس للناس؟» وهذا الرجل جابي ضرائب، جامع مكوس يعمل لخدمة الطاغية. لقد انتهك الناموس، ويعتاش من طريق غير مشروعة. وكان الهواء من حوله ملوثاً وعلى بعد سبعة أميال،

قال بطرس «أسرعوا يا شباب، احبسوا أنفاسكم. أشيخوا بوجوهكم!»

توقف يسوع عن المسير. كان متى واقفاً خارج السقيفة يحمل الريشة التي يكتب بها بين أسنانه. أخذت أنفاسه تتلاحق، لا يدري ماذا يفعل. كان يخشى أن يظل واقفاً في مكانه، إلا أنه لم يكن يرغب بالولوج إلى داخل السقيفة. منذ زمن طويل وهو يتوق لآلقاء نظرة عن قرب على النبي الجديد الذي يدعي أن كل الناس أخوة. اليس هو من قال «الرب يحب العاصي الذي يتوب أكثر مما يحب من لم يعص قط»، وفي وقت آخر، ألم يقل «لقد جئت إلى الدنيا ليس من أجل الصالحين بل من أجل العصاة» مع هؤلاء أحب أن أتكلم وأتناول الطعام؟ وقبل أيام سئل «يا معلم، ما اسم الرب الحقيقي؟»، فأجاب «المحبة».

ظل متى يقلب هذه الكلمات في قلبه مراراً وتكراراً وعلى مدى أيام، ويقول وهو يتهد «متى سأراه، متى سأخبره عند قدميه». والآن ما هو يقف أمامه، لكن متى يخجل أن يرفع بصره لينظر إليه. وقف لا يبدي حراكاً، مطأطئ الرأس، وانتظر. ماذا كان ينتظر؟ سوف يمضي النبي الآن، وسيفقد إلى الأبد.

خطأ يسوع خطوة نحوه وقال «متى»، بصوت غاية في الصفاء والرفعة، حتى أن جابي الضرائب أحس بقلبه يذوب، ورفع عينيه. كان يسوع مائلاً أمامه، ينظر إليه. كانت نظرتيه رقيقة ومسيطرّة تماماً: اختترقت الموظف حتى أحشائه، وانزلت السكنة إلى قلبه وأثارت عقله. ارتعشت أعضاؤه الحيوية، لكن الشمس سقطت عليها وأدغمتها. ما أروع هذا الفرح، هذا اليقين، وهذه الصداقة! أيعقل أن العالم بهذه البساطة وأن الخلاص بهذا اليسر؟

ولج متى إلى الداخل. أغلق دفتاره، وتباطئ دهنراً فارغاً، وأقحم محبرته البرونزية في حزامه ووضع ريشته خلف أذنه. بعد ذلك أخرج مفتاحاً من حزامه، وأغلق باب السقيفة ورمى بالمفتاح إلى الحديقة. بعد أن انتهى اقتراب من يسوع بساقيين ترتجفان، ثم توقف. أيتقدم أم لا؟ هل سيعد له المعلم يده؟ رفع إلى يسوع عينين تتوسلان إليه أن أرفق بي.

ابتسم له يسوع وقدم يده. قال «أهلاً بك يا متى. تعال معي» انزعج المريدون وتبعوا جاثياً. مال الحبر المعجوز على أذن يسوع وقال له «يا ولدي، إنه جابي ضرائب هذا إثم عظيم، اتبع ما يقوله الناموس» أجابه يسوع «أبت، إنني اتبع ما يقوله ناموس قلبي»

تجاوزوا منطقة الناصرة، مارين باليساتين، حتى وصلوا إلى الحقول. كانت تهب ريح صرصر. ولج جبل حرمون وسط الظلام وقد تآثرت عليه أول تباشير الثلوج.

مرة أخرى أمسك الحبر بيد يسوع، أراد أن يتحدث إليه قبل أن يفترقا، ولكن ماذا يقول له؟ من أين يبدأ؟ إن يسوع يدعي أن الرب في الصعراء اليهودية اثمنه فوضع النار في إحدى يديه والبذرة في اليد الأخرى. قال أنه سوف يحرق هذا العالم ومن ثم سيوزع عالمًا جديدًا... وأخذ الحبر يرمقه خلسة، هل يصدقها؟ ألم يقل الكتاب المقدس أن من اختاره الرب سوف يُبَنِّد ويُطَرَّد كشجرة ذابلة شطأت بين الحجارة؟ إذن يمكن أن يكون هذا الرجل هو المختار...

مال الحبر على يسوع وسأله بصوت منخفض، حتى لا يسمعه الآخرون «من تكون؟»

«لقد عايشته زمنًا طويلاً، يا عمي شمعون - منذ الساعة الأولى لمولدي - وما زلت لا تعرفني؟»

توقف قلب الرجل العجوز عن الخفقان، غمغم «هذا يفوق قدرة عقلي على الاستيعاب، يفوق قدرته على الاستيعاب...»

«وماذا عن قلبك، يا عمي شمعون؟»

«يا ولدي، إنني لا أنصت إلى قلبي، فهو يقود المرء إلى الهاوية» قال يسوع وهو يلقي على العجوز نظرة عطف «إنها هاوية الرب - الخلاص»، ثم أرفف على الفور «ألا تذكر يا أبت الحلم الذي رآه النبي دانيال ذات ليلة في بابل عن سلالة بني إسرائيل؟ رأى القديم الأيام جالسا على عرشه، لباسه أبيض كالثلج، وشعر رأسه كصوف خروف نقي. عرشه لهيب نار، ونهر من نار يتدفق عند قدميه، وتربع القضاة عن يمينه وعن يساره، ثم فتحت أبواب السماوات وهبط على متن السحب - من؟ أتذكر يا أبت؟»

أجابه الحبر العجوز الذي أمضى أجيالاً طويلة يقاتل على هذا الحلم «ابن الانسان». بل لقد مرت عليه ليلال كان يعلم خلالها بالحلم نفسه.

«ومن هو ابن الانسان يا أبت؟»

تداعت ركبتا الحبر العجوز، ونظر إلى الشاب وقد تملأه الرعب. همس وبصره معلق بشفتي يسوع «من؟ من؟»
أجابه يسوع بصفاء «أنا»، ووضع يده على رأس العجوز، وكأنه يباركه.

وذا الحبر العجوز لو يتكلم لكنه لم يقوَ على فتح فمه.
قال يسوع، ماداً يده «وداعاً يا أبت. لا بد أنك رجل سعيد يا شمعون، لأن الرب أوفى بعهده ووجدك جديراً أن ترى. قيل أن تلقى منيَّك، ما طالما تقف إلى رؤيته طوال حياتك»

وقف الحبر يصدق إليه بعينين جاحظتين. ما هذا الذي يدور من حوله: عروش، وأجنحة، وابن الانسان على متن السحب؟ أهو يحلم؟ أيكون هذا النبي هو النبي دانيال؟ هل فتحت أبواب المستقبل في وجهه لكي يتمكن من النظر إلى ما بداخلها؟ إنه لا يقف على أرض، بل يطفو فوق الغمام، وهذا الشاب الذي يمد له يده ويبتسم ليس ابن مريم، بل ابن الانسان!

شعر بالدوار، فغرز صولجانه في الأرض واستند عليه لكي لا يقع، ثم أخذ يعلي ناظره من يسوع الذي كان يمر من تحت الأشجار الخريفية ممسكاً بيده عصا رفيقه الراعي. أظلمت السماوات، ولم يتمكن المطر من التروث أكثر في السماء: هطل، نقتعت ملايس الحبر العجوز والتصقت بجسمه، وزرب الماء من شعره. ظل واقفاً وسط الطريق لا يبدي حراكاً، بالرغم من أنه كان يرتش. وكان يسوع قد اختفى بين الأشجار، يتبعه رفاقه. لكن الحبر العجوز الواقف معرضاً للريح والمطر كان يراهم ما يزالون

يتقدمون مسعوداً، إلى أين هم ذاهبون؟ في أي اتجاه؟ أهؤلاء
الحقا، الأعيون، الصعاليك، سيحرقون العالم؟ إن خطط الرب لحج
لا تسير أعماقها...

همس قائلاً، أدوناي، أدوناي...، ويدأت دموعه تنهمر.

الفصل الثاني والعشرون

تجلس روما مهيمنة على كل الأمم هيمنة كاملة وذراعها
النهمتان ممدودتان واسعاً لتتلقى القوارب، والقوافل والآلهة وكل ما
ينتجه العالم والبحار. ومع أنها لا تؤمن بأي إله إلا أنها تستقبل دون
وجل ويتعطف يثير السخرية كل الآلهة في قصورها: ضمن بلاد
فارس البعيدة عابدة النار يأتي مئراً حامل وجه الشمس ابن أهورا
مازدا، يمتطي ظهر الثور المقدس الذي سرعان ما يموت؛ ومن أرض
النيل الكثيرة الضروع، تأتي أبزيس التي تنطلق في الربيع تبحث في
الحقول المزهرة عن القطع الأربع عشرة لزوجها وأخيها أوزيريس
الذي قطع تايغون أوصاله؛ ومن أرض سوريا يأتي أدونيس، وسط
مناحات تقطع نياط القلوب؛ ومن أرض فريجيا يأتي أتيس، ممدداً
داخل تابوت ومغطى بأزهار بنفسج ذابلة؛ ومن أرض فينيقيا الشائنة
تأتي عشتروت التي لها ألف زوج: وكل آلهة آسيا وأفريقيا
وشياطينهما؛ ومن أرض اليونان يأتي أولمبوس المتوج بالبياض،
وهادس السوداء.

إنها تستقبل كل الآلهة؛ فقد شقت الطرق، وحررت البحار من

القراصنة واليابسة من اللصوص وفرضت السلام والنظام على العالم. لا أحد يعلم عليها، ولا حتى الإله. وتحتها - الجميع. الآلهة والناس كلهم مواطنو روما وعبيد لها. والزمن والفراغ لفيثتان غنيتان بالزخارف والألوان مضمومتان في قبضتها. إنها تتبجح قائلة، أنا أبدية، وهي تداعب النسر ذا الرأسين الجالس مستكيناً، بعد أن طوى جناحيه الملتصقين بالدماغ، عند قدمي سيده. وتقول روما في نفسها، أية روعة وأية بهجة مقيمة أن أكون كئيبة القدرة وخالدة؛ وتقر وجهها السمين المرقب بالمساحيق البتسامة واسعة دهنية. يتسسم، راضية... وتسسى. لَنْ شقت الطرق البحرية والبرية، من أجل مَنْ ظلت تكدح على مدى قرون لتجعل الأمان والسلام يسودان العالم؟ لم يخطر ببالها قط أن تطرح على نفسها هذا السؤال. لقد سادت، وسنت القوانين، وأضحت ثرية، وامتدت حتى شملت الكون كله - ولكن من أجل من، من أجل من؟

إنه من أجل الحافي القدمين الذي يتقدم في هذه اللحظة على الطريق المقشرة، المعتدة بين الناصرة وقانا، يتبعه حشد من الصعاليك. إنه لا يجد مكاناً يأوي إليه، ولا شيء يلبسه أو يأكله. إن كل مخازنه وأحصنته، وأوابه الحيرية ما زالت في السماء - لكنها كانت قد بدأت تنزل.

إنه يسير متكئاً على عصا الراعي بين الغبار والحجارة، قدمين مدعأتين، أحياناً يتوقف، ويميل على عصاه ويمسح ببصره دون أن يتكلم الجبال وينتقل منها إلى منبع ضيائه؛ إلى الرب المتربع في الأعالي يسهر على البشر، ويرفع عصاه، يحييه، ومن ثم يواصل رحلته...

أخيراً وصل إلى قانا. عند البئر في موقع خارج القرية كانت امرأة شابة شاحبة منتفخة الرحم تسحب الماء بسعادة وتملأ به

جرتها، تعرفوا عليها، إنها الفتاة التي حضروا حفل زفافها في الصيف. وكانوا في ذلك الوقت قد تنموا لها أن تنجب ولداً.

قال لها يسوع مبتسماً «لقد تحققت أميتنا، فاحمرت خجلًا وسألتهن إن كانوا عظامشي، فقالوا لا، فوضعت الجرة على رأسها ويمعت شطر القرية ثم اختفت.

سار بطرس في المقدمة وأخذ يشرع كل الأبواب، هارعاً من عتبة دار إلى أخرى، مدفوعاً بشعالة غامضة. وصرخ وهو يرقص «افتحوا! افتحوا!»

فتحت الأبواب وأطلت منها نسوة. كان الليل يهبط. والمزارعون عائدين من حقولهم. فسألوه مدهوشين: «ما الأمر يا صديق؟ لماذا تدق الأبواب؟»

أجاب بطرس «لقد جاء يوم الرب، إنه الطوفان يا رجال! إننا نفد المسقنة الجديدة بالمؤمن. فليا كل المؤمنين؛ ادخلوها. انظروا! السيد يحمل المفتاح. خفوا خطوكم الآن!»

استبد الخوف بالنساء، اقترب الرجال من يسوع. وكان قد جلس عندئذ على صخرة يحفر بعصاه رسوم صلبان ونجوم على التربة.

وتحلّق المرضى والمعاقون قادمين من كل أرجاء القرية حوله.

«يا معلم، المسنا حتى نشفى. قل لنا كلمة طيبة لكي ننسى أننا عميان. ومعاقون ومجدومون»

هتفت سيدة عجوز مشوقة القائمة، ارستقراطية الهيئة متشحة كلها بالسواد «كان لي ابن فضلبوه. أقمه من بين الموتى!»

من تلك العجوز التبيلة؟ والتفت المزارعون المدهوشون إليها. لم يكن قد صلب أحد من قريتهم. نظروا ليهيبوا من أين أتى الصوت - لكن السيدة العجوز كانت قد اختفت في ضوء الغسق.

كان يسوع متجنباً على التربة يحفر رسوم الصليبان والنجوم وينصت الى نفيهم الحرب المتناهي من التل المقابل. ثم سمع وقع خطى ثقيلة، منتظمة. وفجأة التمتع التروس والخوذات البرونزية تحت ضوء شمس المساء. التفت القرويون. وقد اكفهرت وجوههم.

«الصيدا اللعين عائد من رحلة صيده. لقد خرج من جديد للقبض على المتمردين»

«يقول إنه احضر ابنته المشلوله الى قريتنا لمعالجتها بالهواء النقي. لكن رب اسرائيل لديه دفتر حساب وسجلات ولا يسامح. وسوف تدفن في تراب قانا»

«لا ترفعوا اصواتكم، ايها النساء - ها قد وصل»

مر ثلاثة من الخيالة من امامهم. في الوسط كان روفوس، قائد المئة في الناصرة. اقترب من حشد الفلاحين وهو ينخس مطيته. وصرخ بهم وهو يشير سوطه «لماذا تجتمعون؟ تفرقوا» وكان الاسى بادياً على وجهه. ففي غضون بضعة أشهر أصبح عجوزاً، وغزا الشيب شعره. لقد حطمت نوبات الألم على ابنته الوحيدة التي وجدت نفسها فجأة ذات صباح مشلوله وهي في سريرها. وأثناء تعنيفه القرويين وتفريقهم لمح يسوع جالساً بعيداً متجنباً على صخرة، وفجأة أشرق وجهه، ونخس فرسه واقترب منه.

قال «يا ابن التجار ها قد جئت من اليهودية - فاهلاً بك! لقد كنت أبحث عنك»

ثم التفت الى القرويين. وقال «لدي ما أقوله له. ابتعدوا»

ورأى الميريين والفقراء الذين تبعوه من الناصرة. وتعرف على العديد منهم. وعبس.

قال «يا ابن التجار، لقد سبق لك أن ساعدت في صلب

الآخرين، فاحذر لئلا تصلب أنت نفسك. لا تقرب الناس، ولا تدخل الأفكار الى رؤوسهم. إن يدي باطشة. وروما خالدة»

ابتسم يسوع. كان يعلم جيداً أن روما ليست خالدة، لكنه لم يقه بكلمة.

كان المزارعون المتذمرون قد تفرقوا، ووقفوا بعيداً يحدقون الى المتمردين الثلاثة - كانوا رجالاً عجوزاً طويل القامة ذا لحية مدببة مع وتديس - قبض عليهم أفراد الفيلق وها هم يسوقونهم مكبلين بالسلسل. وكان الثلاثة برؤوس شامخة، يحدقون من فوق الخوذ الرومانية. محاولين أن يشاهدوا الحشد، لكنهم لم يروا شيئاً، لا شيء غير رب اسرائيل منتصباً في الجو، غاضباً.

تعرف يهوذا عليهم. كان قد هائل جنياً الى جنب معهم. أوما لهم لكنهم لم يروه، لأنهم كانوا مبهورين بروعة الرب.

قال قائد المئة. وهو ينحني كثيراً لأنه ما يزال يعطي فرسه «يا ابن التجار، هناك آلهة تكرهنا وتقتلنا. وآلهة أخرى لا تتنازل بالنظر نحونا لترانا، ولكن هناك آلهة تتخذ موقفاً ودياً منا وهي رحيمة باستمرار. وتعمل على شفاء الياثسين من أمراضهم. يا ابن التجار، الى أي من هذه الفئات ينتمي ريك؟»

أجاب يسوع «ليس هناك غير رب واحد. فلا تكفر يا هائد المائة»

هز روفوس رأسه، وقال «إنني لا أبغي أن ادخل في نقاش لاهوتي معك. إنني أمقت اليهود، واعتزلي اذا قلت لك انكم جميعاً تضررون دون انقطاع على وتر الرب. إن ما أريد معرفته هو ما يلي: ألا يستطيع ريك أن...»

هنا سكوت. كان خجلاً من الهبوط الى مستوى طلب معروف من يهودي. ولكن على الفور تمثلت في مخيلته صورة سرير ضيق

ظاهر، يتمدد عليه جسد شاحب لا حراك به لفتاة صغيرة ذات عيتين خضراوين كبيرتين تنظران اليه، وتطيلان النظر، متوسلة اليه...

تتأزل عن كبريائه ومال أشد من ذي قبل من فوق سرجه، وقال «يا ابن النجار، ألا يقدر ربك على شفاء المرضى؟» سلط إلى يسوع نظرة ملؤها العذاب، وعاد يسأله من جديد، لما طال صمته «ألا يقدرة؟»

وببطء، نهض يسوع عن الصخرة التي كان يجلس عليها وأقترب من الفارس، قال «الآباء يأكلون الحصرم والأولاد يضرسون». هذا هو ناموس ربي»

صرخ قائد المائة وقد أصابته الرعدة «هذا ظلم!» عارضه يسوع قائلاً «لا، بل عدل! الأب والابن هما من جذر واحد، وهما يرتفعان معاً إلى السماء، ومعاً ينحدران إلى الجحيم. فإذا ضربت أحدهما، جرح الاثنان معاً، وإذا ارتكب أحدهما خطأ، عوقب الاثنان معاً. وأنت، يا قائد المائة، تطاردنا وتقتلنا، ورب إسرائيل ينزل ضربه على ابنتك فيشلها»

«يا ابن النجار، إن وقع هذه الكلمات ثقيل. كنت قد سمعتك ذات مرة تتكلم في الناصرة، وبدت كلماتك عندئذ أرق مما اعتاد أي روماني سماعه. أما الآن...»

«عندئذ كانت مملكة السماء هي التي تتكلم، أما الآن فإنها نهاية العالم. ومنذ أن سمعتي، يا قائد المائة، جلس القاضي العادل على عرشه، وفتح دفتار حسابه ونادى على العدالة، فمثلت بين يديه والسيف في يدها، ووقفت إلى جواره»

صاح قائد المائة ساخناً «هل ربك، إذن، هو رب أقصص ما بوسع عمله إقامة العدل؟ أمنا يتوقف عمله؟ ماذا إذن عن الدعوة

الجديدة للمحبة التي ناديت بها في الصيف الفائت في الجليل؟ إن ابنتي ليست بحاجة إلى عدالة الرب، بل إلى محبته. إنني أبحث عن رب يذهب إلى أبعد من إقامة العدالة ويمكنه أن يشفي ابنتي. لهذا ثرائني قلبت كل حجر في أرض إسرائيل بحثاً عنك... أريد المحبة - أسمع؟ المحبة، لا العدالة»

«يا قائد المائة الروماني، يا عديم المحبة والرحمة، من لئن فمك الهمجي هذه الكلمات؟»

«معاناتي، ومحبتني لابنتي. إنني أبحث عن رب يشفي ابنتي. حتى أؤمن به»

«طوبى لمن يؤمنون بالرب دون أن يطلبوا المعجزات»
«نعم، طوبى، لكني رجل قاس وليس من السهل اقتناعي. لقد رأيت الكثير من الأرباب في روما - لدينا منهم الآلاف محبسون في أقفاص - وقد سئمتم!»
«وأي ابنتك؟»

«هنا، إنها في حديقة تقع في أعلى مكان في القرية»
«هيا بنا إليها»

دبت الهمّة في قائد المائة فقفز مترجلاً عن حصانه، ومشى هو ويسوع في المقدمة، ومن خلفهما على مسافة تبعهما المريدون، وأبعد منهم سار الفلاحون. في تلك اللحظة ظهر توما، يظفر من الفرح، من خلف حرس مؤخرة الفيالق. كان يشغل خلف جنوده، يبيعهم سلعه بريح وافر.

هتف به المريدون «هيه، توما، أما زلت لا تريد أن ترافقنا؟ الآن سترى المعجزة بعينيك وستؤمن»

أجاب توما «يجب أن أرى أولاً، وأن المس»
«تلمس ماذا، أيها التاجر الداهية»

«الحقيقة»

«وهل للحقيقة جسد؟ ما هذا الهراء الذي تقول، أيها

الأحمق!»

قال توما ضاحكاً «إذا لم يكن لها جسد، فما حاجتي بها؟ إنني بحاجة إلى أن ألمس الأشياء. إنني لا أثق بعيني ولا بأذني، بل أثق بيدي»

وصلوا إلى أعلى مكان في القرية ودخلوا منزلاً مبهضاً بماء الكلس، يبهج النظر.

كانت هناك فتاة في نحو الثانية عشرة من عمرها مستلقية على سرير أبيض، وعيناها الكبيرتان الخضراوان مفتوحتين. وحين رأت والدها أشرق وجهها، ارتعشت روحها بقوة، وهي تحاول أن ترفع جسدها المشلول، ولكن عبثاً، وخبا الضرع عن وجهها. مال يسوع على الفتاة وأمسك بيدها. وتجمعت كل قواه في كفه - كل ما به من قوة ومحبة ورحمة. وثبت عينيه، دون أن يتكلم، في العينين الخضراوين وشعر بروحه تدفع بقوة من أطراف أصابعه لتنتقل إلى جسد الفتاة. فرمقته بنظرة متقدة وشفتاها متباعدتان ترسم عليهما ابتسامة.

دخل المريدون الغرفة على أطراف أصابع أقدامهم، وكان توما الأول والأسبق بينهم، يحمل كيس سلعه على ظهره ويوقه تحت حزامه. وتوزع الفلاحون في أرجاء الحديقة وفي الزقاق الضيق. كان الجميع يحبسون أنفاسهم وينتظرون. وانكأ قائد المائة على الجدار، يراقب ابنه ويجاهد كي يخفي ألمه.

شيئاً فشيئاً أخذت الفتاة تتوردان، وصدرها يخفق، وكان خبز لذيذ يتغلغل فيها منتقلاً من يدها إلى قلبها. ومن قلبها حتى أخمصي قدميها. وأصدر متخراها حفيفاً واهتزازاً كأوراق شجر

البحر هبت عليه نسائم لطيفة. شعر يسوع بيد الفتاة تنبض وكأنها قلب وتعود إلى الحياة وهي في كفه. عندئذ فقط، فتح فمه وتكلم.

قال بلهجة أمرة رقيقة «انهضي، يا ابنتي!»

تحركت الفتاة بهدوء، وكأنها تستعيد وعيها بعد خدر، وتمطعت كالستيقظ من النوم، ثم أسندت يديها على السرير، ورفعت جسدها - وبقفزة واحدة أصبحت بين أحضان والدها. وجعلت عينا توما المدورتان من رأسه، مدّ يده ولمس الفتاة رغبة منه كما بدا في أن يتأكد من أنها حقيقية. وصعق المريدون دهشة وخوفاً. وأطلق الحشد المحيط من كل جانب صرخة عالية لبرهه، ويمعدها على الفور عقد الربع السنه. ولم يعد يسمع غير ضحك الفتاة المنعش وهي تعانق والدها وتمطره بالقبل.

تقدم يهوذا من سيده، ووجهه ملؤه الغضب والشر. قال «إنك تبذل قواك على الكافرين، وتساعد أعدائنا. أهذه هي نهاية العالم التي بشرتايها؟ أهذا هو اللهب؟»

إلا أن يسوع، المحوّم بعيداً في أجواء مظلمة، لم يسمعه. لقد كان أشد خوفاً من الجميع لمراى الفتاة وهي تقفز خارج سريرها. وشكل المريدون، الذين لم يعد باستطاعتهم كبت قرحهم، حلقة وراحوا يرقصون حوله. اذن - فقد أحسنوا عملاً بالتخلي عن كل شيء والانضمام إليه. إنه الشخص الحقيقي: إنه يقوم بالمعجزات. تخيل توما ميزاناً وزاح يزن الأمور. وضع في إحدى الكفتين سلعه، وفي الأخرى مملكة السماء. تذبذبت الكفتان لبعض الوقت وأخيراً استقرتا. لقد رجحت كفة مملكة السماء. نعم. إنها مجازفة رائعة: سأعطي خمسة، فقد أحصل على ألف، اذن، باسم الرب، وإلى الأمام! اقترب من السيد وقال له «يا معلم، أكراماً لخاطرك الغالي سأوزع سلعي على الفقراء. فأرجوك لا تنس ذلك عندما حين تحل

مملكة السماء. إنني أضحي بكل شيء لكي أراضك، فالיום رأيت الحقيقة ولسنتها»

لكن يسوع كان ما يزال شاردًا. لقد سمعه لكنه لم يدلّ بجواب. تابع التاجر الألف الذكر قائلاً: «سأحتفظ فقط بيسوحي لكي أنفخ فيه وأجمع الناس وأنادي فيهم: إننا نبيع سلعةً جديدة، تدوم أبداً - ومجاناً!»

تقدم قائد المائة، وما يزال يحمل ابنته بين ذراعيه، من يسوع وقال: «أيتها الورع، لقد أعدت الحياة إلى ابنتي. ماذا أستطيع أن أفعل لأجلك؟»

أجاب يسوع: «لقد حررت ابنتك من قيود الشيطان، فحمر أنت، يا قائد المائة، هؤلاء المتمردين الثلاثة من قيود روما»

طامطاً ورفوس رأسه وتتهدد غمغم بحزن «لا أستطيع. حقاً، لا أستطيع. لقد أخذت عهداً على نفسي أمام الامبراطورية الرومانية، تماماً كما أخذت أنت عهداً على نفسك أمام الرب الذي تعبد، فهل يجوز أن نخون عهدنا؟ أطلب مني أي معروف آخر تريد. إنني مغادر إلى اورشليم بعد غد وأود أن أرى لك معروفك قبل أن أذهب» أجاب يسوع: «يا قائد المائة، ذات يوم سنتقابل في اورشليم المقدسة في ظرف صعب، وعندئذ سأطلب منك المعروف. وحتى ذلك الحين، صبراً»

وضع يده على شعر الفتاة الأنثى وأبقاها فترة طويلة، وأغمض عينيه، شعر بشفء الرأس، بتعومة الشعر، بعذوبة الأنوثة. أخيراً قال، بعد أن فتح عينيه «يا طفلي، سأقول لك شيئاً لا أريدك أن تسميه، خذي بيد والدك وقودي إلى الطريق الصحيحة» فسالته الفتاة «وما هي الطريق الصحيحة، أيها الورع؟» «المحبة»

أعطى قائد المائة أوامره، فأحضر الطعام والشراب، وأعدت المائدة.

قال مخاطباً يسوع ومريديه «أنتم ضيوفي، هذا المساء ستاكلون وتشربون في هذا المنزل، لأنني احتفل بعودة ابنتي إلى الحياة. لم أسعد هكذا منذ سنين عديدة. واليوم قلبي ملآن حتى الزبى بالفرح: فأهلاً بكم!»

ثم مال على يسوع، وقال: «إنني أدين بقدر عظيم من الامتثال للرب الذي تعبد، فأعطني إياه حتى أرسله إلى روما وأضعه إلى باقي الأرياب»

أجاب يسوع «سيصل إلى هناك وحده»، ثم خرج إلى الفناء ليستشق بعض الهواء.

هبط الليل، وأخذت النجوم ترصع قبة السماء. وفي الأسفل في القرية الصغيرة أضيئت المصابيح ولتعت عيون الناس. وفي هذا المساء ارتفعت نيرة حديثهم اليومي درجة أعلى من المعتاد، فقد كانوا يشعرون أن الرب دخل إلى قريتهم، ويربض فيها كأسد أليف. أعدت المائدة، وجلس يسوع بين مريديه ووزع الخبز ولكن دون أن يتكلم. فشي داخله كانت روحه ما تزال ترعرف بجناحيها بقلق وكأنها أفلتت من خطر داهم أو أكملت أداء مائدة عظيمة وغير متوقعة، ومريدهو الجالسون حوله أيضاً لم يتكلموا، لكن قلوبهم كانت تطفر من شدة الفرح. إن كل ما قاله عن نهاية العالم وعن مملكة السماء لم يكن مجرد أضغاث أحلام ولحظات إثارة، بل هو الحقيقة، وهذا الشاب الأسمر الحافي، الجالس إلى جوارهم، الذي ياكل، ويتحدث ويضحك وينام مثلهم جميعاً كان حقاً رسول الرب. بعد أن انتهوا من تناول الطعام واستلقوا ليناموا، رجع متى تحت المصباح، وأخرج الدفتر الفارغ من تحت قميصه، وتناول

ريشته من خلف أذنه، ومال على الصفحات الخاوية وظل هكذا يتأملها زمناً طويلاً. كيف يبدأ؟ ومن أين يبدأ؟ لقد وضعه الرب الى جوار هذا الرجل التقى لكي يسجل بأمانة الكلمات التي يقولها والمعجزات التي يقوم بها، حتى لا تندثر ولكي تتعرف عليها الأجيال القادمة وتختار بدورها درب الخلاص، حقاً هذا هو الواجب الذي أوكله الرب بأدائه. إنه يعرف القراءة والكتابة، لذا تقع على عاتقه مسؤولية ثقيلة: أن يجمع بقلمه كل ما يوشك أن يندثر، وأن يعمل على تخليده، بتدوينه. فليعقته المريدون، فليغفروا من مجلسه لأنه كان ذات يوم جابي ضرائب. سوف يريهم الآن أن العاصي التائب أفضل ممن لم يرتكب معصية.

شمس ريشته في المحبرة البرونزية وسمع زهرفة أجنحة عن يمينه، وكان ملاكاً أتى يهمس في أذنه ويعلي عليه. وبدأ يكتب بيد واثقة سريعة: «كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داوود ابن ابراهيم. ابراهيم ولد...»

وراح يكتب ويكتب حتى اصططح الشروق بوهج أبيض مزرق وسمع أول صباح لديك.

وغادروا، وسار توما في المقدمة مع بوقه. نفخ فيه فاستيقظت القرية برمتها، وأخذ يصيح «وداعاً، أراكم في مملكة السماء» وتقدم يسوع من المؤخرة مع المريدين وجموع صعاليك، ومعاقبي الناصرة، الذين كانوا ما يزالون يتبعونه، وقد ازداد عددهم بعد انضمام آخرين جدد من قانا، كانوا ينتظرونه قائلين لأنفسهم، لا يمكن أن ينسانا. ستحين الساعة المباركة التي يلتفت فيها إلينا أيضاً، ويخلصنا من الجوع والمرض... وفي هذا اليوم ظل يهوذا في آخر الموكب. كان قد عثر على مجموعة من أكياس السفر الكبيرة وكان يقف أمام كل باب ويتكلم مع ربات البيوت بثبرة ما بين التوسل والتهديد، «إننا نعمل

لأجلكم، أيها المساكين، لكي نخلصكم، أما أنتم فعليكم أن تساعدونا. ابعادوا عنا شبح الموت جوعاً. يجب أن تعلموا أنه حتى القديسين عليهم أن يأكلوا ليقووا على تخليص الانسانية. أعطونا بعض الخبز، والجبن، والزبيب، والتمر، وحفنة من الزيتون؛ مهما كانت الكمية فإنها ستدوّن عند الرب وتجزوّن من أجلها في العالم الآخر. أعطونا شقاً من حبة زيتون فيجازيكم الرب ببستان كامل منه.

فإذا ما توانت إحدى ربات البيوت عن فتح مخازنها، صرخ بها لماذا أنت شديدة البخل يا سيّدة؟ غداً أو بعد غد، أو حتى هذا المساء، ستُفتح أبواب السماوات، وتصب نار جهنم وتذهب كل مخزوناتك هباءً ما عدا ما وهبتنا إياه. فإذا ما تم خلاصك، أيتها المخلوقة التعمسة، فإن ذلك مرجعه الى الخبز والزيتون وزجاجة الزيت التي وهبتها»

تفتح النسوة المذعورات مخازنهن، وفيل أن يصل يهوذا الى أطراف القرية تكون أكياسه قد قاضت بما تحمله من صدقات.

كان الشتاء قد بدأ؛ والأرض ترتعش. وكثير من الأشجار التي تعرت تماماً كانت تشعر بالبرد. وأخرى - كالزيتون والتخيل، والسرو - باركها الله واحتفظت بحلها القشبية سليمة لم تمس صيفاً وشتاءً. وكذا الأمر مع الناس: كل الفقراء كانوا يرتعدون من البرد. كالأشجار العارية... وكان يوحنا قد دثر يسوع بردائه الصوفي، فازدعت قرائمه وأخذ يحث خطاه متعجلاً الوصول الى كضر ناحوم ليفتح صناديق أمه. فقد كانت العجوز سالومه على مدى حياتها قد تسجت أشياء كثيرة، وكان قلبها مفعماً بالنبل والكرم. سوف يوزع الملابس الدفيئة على أصحابه، ولن يأبه لتذمر زیدی العجوز البخيل، لأن سالومه بكل عنادها وعدوتها، كانت هي صاحبة الأمر وانتهى في المنزل.

فيايأس أيضاً كان متعجلاً، يفكر في صديقه الحميم نثائيل، المنكفي طوال نهاره في كفرناحوم، يخطط الصنادل والأخفاف ويرقعها، وقد ضاعت حياته بهذه الطريقة. ليت لديه متسعاً من الوقت ليجمعه يرفع عقله نحو الرب، ليستند سلم يعقوب على السماوات ليصعد! وكان يتساءل آه، متى أصل الى هناك لاكتشف عن السر لليانس المسكين، حتى يحظى هو أيضاً بالخلاص!

انعطفوا، مخلّفين طبريا وراءهم الى اليسار - طبريا، المزدرة من الرب، يحاكمها قاتل المعداني الموعود بنار جهنم. اقترب متى من بطرس ليسأله حول كل ما يذكره عن نهر الأردن وعن المعداني، لكي يدونه حديثاً بعد حديث، لكن بطرس تكص وأشاح بوجهه جانباً ليتجنب استئشاق أنفاس جابي الضرائب. حزن متى، وثابت دفتره نصف الملأ، وتلكأ في خطواته حتى أصبح في المؤخرة، وقابل سائقي عربتين كانا يترددان على طبريا، فاستجوبيهما ليعلم منهما - ويدون في دفتره - كيف ارتكبت الجريمة الشنيعة. أحتأ أن الحاكم شرب حتى ثمل وأن سالومه ابنة زوجته رقست أمامه عارية؟ كان على متى أن يعرف كل التفاصيل ليُدونها ويخلدها كتابة.

في ذلك الوقت كانوا قد وصلوا الى بئر كبيرة واقعة خارج بلدة مجدلة. كانت المسح تغطي عين الشمس، وأسدل على وجه الأرض خمار رقيق من الظلمة، وبدأت تهطل خيوط رقيقة من المطر، واصله السماء بالأرض... رفعت المجدلية عينها الى منور بيتها فرات السماوات تكفهر، فغمغت «الشتاء حل بنا، ويجب أن أسرع، وأدارت البكرة وبدأت تغزل الصوف الممتاز النوعية الذي عثرت عليه بسرعة كبيرة، كانت تنوي أن تنسج عباءة دفنة لمحبيوها ليدرا بها عنه البرد، وكانت بين الفينة والأخرى تلقي نظرة على

الفناء وتُعجب بشجيرات الضخمة من الرمان ويحملها الوافر من الثمار. لقد رعت شجيرات الرمان ولم تقطعها، فقد ذُرت كلها جميعاً ليسوع. وقالت في نفسها، إن رحمة الرب لا نهاية لها. وذات يوم سوف يمر محبوبي مرة أخرى من هذا الدرب الضيق، وعندئذ سوف أملاً ذراعني بثمار الرمان وأضعها عند قدميه. وسوف يشني، ويأخذ واحدة ويتلذذ بأكلها... وبينما هي تغزل، وتعجب بشجيرات الرمان، قلبت في ذهنها كل مراحل حياتها، ووجدت أنها قد بدأت وانتهت مع يسوع، ابن مريم. ما أشد حزنها، وما أكبر فرحها! لماذا تركها جالسة تفتح بابها على ذاك الليل اللانهائي ليفر مثل اللصوص؟ الى أين يذهب؟ ترى أما يزال يصارع الأشياح بدل أن يحرق الأرض، ويشكل الخشب أو يصطاد السمك، بدل أن يتخذ له زوجة (النساء أيضاً من خلق الرب) وينام الى جوارها؟ آه، ليته فقط يمر من مجدلة لتهرع وتضع رماناتها عند قدميه لتعشه بأكلها!

بينما هي تتفكر في كل هذا وتدبر البكرة بيدها الماهرة السريعة، سمعت هتافاً، ووقع أقدام ثقيلة في الطريق. تغير بوق - مرحباً!! اليس هذا توما البائع المتجول الأحول - ومن ثم سمعت صوتاً حاداً يقول:

«افتحوا، افتحوا أبوابكم. لقد جاءت مملكة السماء!»

قفزت المجدلية واقفة، وقلبها يخفق من الفرح. لقد جاء! جاء! وشاعت في كل جسمها رعشة دافئة. اندفعت الى الخارج، ناسية أن تضع المتديل على رأسها، وشعرها مسترسل على كتفيها. اجتازت الفناء وظهرت على عتبة البيت، ثم رأت السيد. فاطلقت صرخة الفرح وخررت عند قدميه، وهمست «يا معلم، يا معلم، أهلاً بك!»

كانت قد نسيت أمر الرمان ونذرهما. عانقت الركبتين
للمقدستين وانتشر شعرهما، الذي كان ما يزال يفوح بعيق عطوره
القديمة الملعونة، على الأرض.

همست «يا معلم، يا معلم، أهلاً بك». ثم راحت تجره برفق نحو
بيتها البائس.

انحنى يسوع، وأمسك بها بيده وأنهضها. أمسك بها، بخجل
وافقتان، تماماً كما أمسك عريس غير خبير بعروسه. تغلقت
البهجة في كل جسمه وحتى جذوره. لم تكن المجدلية من أنهضها
عن الأرض، بل روح الانسان - وكان هو عريسها. ارتفعت المجدلية،
واحمرت خجلاً، وأرسلت شعرها على صدرها لتستره. ونظر إليها
الجميع دهشين. كم نعلت، وشعب لونها! وكانت تحيط بعينيها
حلقتان أرجوانيتان، وذبلت شفاتها الصارمتان المثلثتان كزهرة لم
تروء بالماء. وكانت هي ويسوع يسيران يداً بيد ويحلمان. ويدل أن
بطلاً الأرض كانا يرتفعان في الهواء ويتقدمان. أليكون هذا عرساً؟
أليكون الحشد الرث الذي يتبعهما، ويملا الطريق كلها، موكب
عرس؟ وشجيرة الرمان التي شوهدت في الفناء تتواء بحملها من
الشمار، أليمكن أن تكون روحاً لطيفة، أو إلهة تحرس المنزل، أو ربما
امرأة بسيطة محظوظة جداً، أنجبت صبياناً وبنات، وها هي الآن
تقف وسط فناء دارها تتألمهم بأعجاب؟

قال يسوع بصوت منخفض «يا مجدلية، لقد غفرت لك كل
آثامك، لأن قلبك مملوء بالحمية»

مالته إلى الأسفل، تشيع في جنباتها سعادة غامرة، وذت لو
تقول، أنا بتول! لكن الفرح كان يغلبها، فلم تتمكن من فتح فيها.
هرعت وسلبت شجرة الرمان ثمارها، وملأت مشربها منها
وشكلت برجاً من الشمار الحمراء الرطبية عند قدمي محبوبها. وما

حدث إثر ذلك هو بالضبط ما كانت ترغب بحدوثه رغبة عارمة.
فقد انحنى يسوع والتقط زمانة، وشقها، وملأ يده بجباتها، ورطب
بها حلقه. ومن ثم أخذ المريدون يتحنون كل بدوره ويأخذ كل منهم
رمانة وينتمش بآكلها.

قال يسوع «يا مجدلية، لماذا تنظرين إليّ بهاتين العينين
القلقتين، وكأنك تلقين عليّ نظرة الوداع؟»

«يا محبوبي، إنني أرحب بك وأودعك في كل لحظة منذ يوم
مولدي». تكلمت بصوت شديد الانخفاض حتى أنه لم يتمكن من
سماعها غير يسوع ويوحنا، الأقرب منها.

وبعد برهة من الصمت، ثابتة قائلة «يجب أن أُملي ناظري من
مراكب، لأن المرأة خلقت من جسد رجل وما زالت لا تقوى على فصل
جسدها عن جسده. أما أنت فيجب أن تحنق إلى السماء، لأنك

رجل، والرجل خلقه الرب. فدعني أُملي ناظري منك، يا بني»
تفوهت بالكلمة الخطيرة «يا بني» بصوت منخفض بدرجة لم
تسمع حتى ليسوع بسماعها. لكن لديها كان عامراً بما يحتويه،
وينتفض بحركة وكأنها ترضع وليدها.

سادت غمغمة بين الحشد. فقد وصل فجأة فوج جديد من
المرضى واحتل الفناء بكامله.

قال بطرس «يا معلم، إن الناس يتذمرون وضائق صدورهم»
«ماذا يطلبون؟»

«كلمة طيبة! معجزة. انظر إليهم»

التفت يسوع فشاهد وسط الجو المضطرب المنذر بالمطر حشداً
غفيراً من الأخوان نصف الفاغرة توقفاً، وعيوناً تحديق إليه بالمل.
وتقدم عجوز من بين الحشد، وكانت رموشه قد سقطت: أصبحت
عيناه أشبه بجرحين. وقد أحاط عنقه الشبيه بالهيكل العظمي

بعشر من التلاميذ، وكل منها يحتوي على إحدى الوصايا العشر. ثم اتكأ على عصاه المدببة الطرف واقفاً على عتبة البيت.

قال بصوت ملؤه الحزن والتألم «يا معلم، انتي أبلغ المائة من العمر، وحول عنقي أعلق وصايا الرب العشر، لتكون مثالة أمام عيشتي. وأنا لم أعص أي واحدة منها. وفي كل عام أذهب إلى اورشليم وأقدم كبشاً أضحية لرب الجنود المقدس، وأضيء شموعاً وأحرق بخوراً غطيراً، وفي الليل، بدل أن أغط في النوم، أرتل المزامير. أحياناً تراني أهدق إلى النجوم، وحيناً إلى الجبال - وانتظر، وانتظر أن يهبط عليّ الرب وأراه. وهذا هو التعويض الوحيد الذي أتمناه. لقد انتظرت حتى الآن سنين عديدة، ولكن عبثاً. إنني أضع قدماً في القبر، ولم أره حتى الآن. لماذا، لماذا إن حزني لا يضاهيه حزن يا معلم. متى سأرى الرب، متى سأجد السكينة؟»

كان غضبه يتعاضم كلما تكلم أكثر، حتى أنه أخذ يضرب بعصاه المدببة الطرف الأرض ويصرخ.

ابتسم يسوع. ثم أجاب «أيها العجوز، كان يا ملكان في قديم الزمان عرش من الرخام قائم عند البوابة الشرقية لمدينة عظيمة. وكان يتربع على هذا العرش ألف ملك عيونهم اليمنى عوراء، وألف ملك آخرون عيونهم اليسرى عوراء وألف ملك أيضاً سليمو البصر تماماً. ونادوا جميعاً الرب كي يظهر لهم وبروء. ولكن ماتوا جميعاً دون أن تتحقق آمانياتهم. وبعد أن مات الملوك جاء رجل فقير، حافي القدمين وجائع، وجلس على العرش، وهمس «يا رب، إن عيون البشر لا تقوى على التحديق مباشرة في عين الشمس، لأن أبصارهم تبهت وتعمى. فكيف يمكنهم، يا كلي القدرة، أن ينظروا إليك مباشرة؟ أرفق بي، يا رب، اضبط قوتك، أبعد روعتك عني

حتى أتمكن، أنا الفقير المبتل، من رؤيتك». ثم - انتبه أيها العجوز! - صار الرب قطعة خبز، وكأساً من الماء المنعش، ورداءاً داخلاً، وكوخاً، وأمام الكوخ جلست امرأة ترضع وليداً. مد الفقير ذراعيه وابتسم بسعادة، وهمس «شكراً لك، يا رب، لقد تواضعت أكراماً لي. أصبحت خبزاً، وماء، ورداءاً داخلاً وزوجتي ووليدي حتى أراك. وها أنا أراك. إنني أسجد لوجهك المتعدد الوجوه وأعبده!»

لم ينطق أحد بكلمة. أطلق العجوز تهيدة أشبه بزفير ثور، ثم مدّ عصاه المدببة إلى الأمام واختفى بين الجمع الفقير. بعد ذلك رفع شاب صغير، متزوج حديثاً، قبضة يده وصرخ «يقولون أنك تحمل ناراً سوف تحرق العالم برمته - وستحرق منازلنا وأطفالنا. أهذه هي المحبة التي تدعي أنك تجليها إلينا؟ أهذه هي العدالة، التارة؟»

امتلات عينا يسوع بالدموع، وأشقق على ذلك الشاب المتزوج حديثاً. حقاً، أهذه هي العدالة التي جلبها، النار؟ أما من سبيل آخر للوصول إلى الخلاص.

وهشفت ربة منزل كانت عندئذ تشق طريقها خلال الجمع لتقترب وتسمع الجواب بشكل أفضل، بما أنه كان من الصعب سماع صوته. قالت «أخبرتنا بوضوح ماذا علينا أن نفعل لنحظى بالخلاص»

قال يسوع بصوت هادر «افتحوا قلوبكم، افتحوا خراشكم، ووزعوا ممتلكاتكم بين الفقراء! لقد جاء يوم الرب! إن كل من يبخل برغيف من الخبز، أو بإناء من الزيت أو بقطعة أرض حتى يوم مماته فسوف يجد هذا الخبز وذاك الإناء وتلك التربة معلقة حول عنقه وتجره إلى أعماق جهنم»

قال صاحب المنزل «أذناني تطفان. اعذروني إذا غادرت، ولكنني أشعر بدوار»

وخرج حائشاً يبقي منزله المرفقة، وحث خطاه وهو يغمغم لنفسه
ويلعن «اسمعوا هذا تؤزع أرزاقنا بين الرعاع الوضيعين! أهذه هي
العدالة؟ فليذهب الى الجحيم»

راقبه يسوع وهو يبتعد، فتشهد وقال «واسعة هي بوابة جهنم،
واسع الدرب، ومضيق بالأزاهير. أما بوابة مملكة الرب فضيقة،
والدرب إليها ضيقة. وما دنا أحياء فيعشرون أن نخشع، فالحياة
تعني الحرية. ولكن حين يأتي الموت، فهو القدر المحتوم ولا انعتاق منه،
وصرخ رجل يمشي على عكاز «إذا اردتني أن أؤمن بك، فقم
بمعجزة واشقني. أيعقل أن أدخل مملكة الرب وأنا أعرج؟»

«وأنا مجذوم؟»

«وأنا أكتع؟»

«وأنا أعمى؟»

وتقدم المعاقون كتلة واحدة ووقفوا أمامه وقفة تهديد وأخذوا
يصرخون بعد أن فقدوا قدوتهم على ضبط النفس.
رفع رجل عجوز أعمى عصاه وجاز «اشفنا والا لن ندعك تقادر

قريتنا وأنت حي!»
انترج بطرس العصا من يد العجوز قائلاً «إن من يحمل أرواحاً
كأرواحكم، أيها البلهاء، لن يرى النور دهره»
انضم المعاقون وأصبحوا أشد ضراوة، وكذا كان حال المريدين
وقد تجمعوا حول يسوع، ارتفعت الجدلية، ومدت يدها تيغي رنج
الباب، لكن يسوع منعهما.

قال «يا مجدلية، يا أخنأ، هذا جيل عائر الحظ - ليس غير
أبدان. تسحق أرواحه عادات وآثام وشحهم. إنني أبعد اللحم
والعظام، والأحشاء، فلا أجد أي شيء. وأسفاه، أعتقد أن العلاج
الوحيد هو النار»

التفت نحو الحشد الغفير، وقد نضبت مقلناه من الدمع وخلصنا
من الشفقة، قال:

«إننا مثلما نمنع القرية قبل يذر الحب لكي تجعل الحب الجيد
ينمو بقوة، هكذا سيسفع الرب الأرض. إنه لا يرحم الشوك، أو
البيقية، أو الطرخون، هذا هو مغزى العدالة. الوداع». ثم التفت
الى توما، وقال «انفخ في بوقك. سوف تغادروا،

مدّ عصاه أمامه، فأفسح الناس الذين خيم على رؤوسهم
الطير الطريق فمر بينهم. هرعت الجدلية تدخل منزلها، وتناولت
منديلها ثم رمت بمفتاح الباب الى عرض الطريق - تاركة الصوف
غير مكتمل الغزل، والقدر الفخاري على رف الموقد والدواجن في
الفناء دون طعام، ودون أن تنظر خلفها تبعث ابن مريم متلفعة بشدة
بمنديلها.

الفصل الثالث والعشرون

كان الليل في أوله حين وصلوا إلى كفرناحوم. وكان المطر المصحوب بالريح قد هطل على رؤوسهم، ثم دفعت به الريح الشمالية نحو الجنوب.

قال ابننا زبدي «سوف نأوي جميعاً في منزلنا، إنه كبير، وثمة مكان لكل واحد منا. يجب أن نحدث رجالنا هناك.

قال بطرس ضاحكاً «وماذا عن زبدي العجوز؟ لن يعطي قطرة ماء حتى للملاك»

احمرّ وجه يوحنا. قال «ضعوا ثقتكم بالمعلم، سيكون لأنفاسه أثر جيد عليه، وسوف تروون»

لكن يسوع لم يسمع هذا الكلام. كان يمشي في المقدمة، وعيناه مترعتين بمنظر العميان، والعرج، والمجنون... وكان يقول في قلبه، آم، ليت باستطاعتي أن أنفخ على كل روح، وأصرخ بها، استيقظي! فإذا استيقظت سيغدو الجسد روحاً ويشفى.

بينما هم يخترقون القرية التجارية الكبيرة أقحم توما البوق بين شفتيه ينوي أن ينفخ فيه، لكن يسوع مدّ يده وقال «لا تفعل،

انتي متعب...، والحق يقال، كان شاحب الوجه وقد حال لون اللحم المحيط بعينه الى الأزرق. طرقت المجدلية أول باب طالبة كأساً من الماء، وشرب يسوع واستعاد قواه.

قال لها مبتسماً «إنني أدب لك بكأس من الماء يا مجدلية» وتذكر ما كان قاله للمرأة الأخرى، السامرية، عند يثر يعقوب. ثم أضاف «سوف أسدد لك الدين بكأس من ماء الخلود» أجابته المجدلية وقد احمرت خجلاً «لقد أعطيتني إياه منذ زمن طويل، يا معلم»

ومروا بكوخ نثنائيل. كان الباب مفتوحاً وسيد المنزل ما يزال في الفناء جالماً تحت شجرة التين، يقص أغصان الشجرة الميتة بخطاف التشذيب، وسرعان ما انفصل فيلبس عن جماعة المسافرين ودخل. قال «لدي ما أقوله لك يا نثنائيل. كَفَّ عن التشذيب» ودخل المنزل. تبعه نثنائيل وأشعل المصباح. قال له فيلبس «إنس أمر مصابيحك، وأشجار التين ومنزلك وتعال»

«إلى أين؟»

«تقول إلى أين؟ ألم تسمع بالثيا؟ لقد حانت نهاية العالم! اليوم أو غداً ستشق السماوات ويصبح العالم رماداً. تحرك بسرعة وادخل السفينة حتى تحظى بالخلاص»

«آية سفينة؟»

«حضن ابن مريم، ابن داود - معلمنا الناصري. لقد عاد لثوب من الصحراء حيث قايل الرب. وتحدثنا سوياً، وقرراً تدمير العالم وتخليصه. وضع الرب يده على شعر المعلم وقال له «ذهب واختر من سيتم خلاصهم. أنت نوح الجديد. انظر، هاك مفتاح السفينة الذي سيفتحها ويفلقها»، ثم أعطاه مفتاحاً من الذهب. إنه يعلقه من عنقه، لكن العين الانسانية غير قادرة على رؤيته».

«وضع كلامك يا فيلبس. لقد تشوش عقلي. متى حدثت كل هذه العجائب؟»

«منذ وقت قريب، أؤكد لك، في الصحراء الاردنية. لقد قتلوا المجداني، وتلبست روحه جسد المعلم. حين تراه لن تتعرف عليه. لقد تغير - أصبح عنيفاً، ويداه يتطاير منهما الشرر. وقبل وقت قصير لمس في قانا ابنة قائد المائة الناصري المقعدة، وعلى الفور قفزت واقفة على قدميها وراحت ترقص. نعم، أقسم على ذلك بصداقتنا! يجب أن لا تضيع الوقت. هيا»

تهدد نثنائيل وقال «اسمع يا فيلبس. إنني في أحسن حال ولدي العديد من المهام المطلوبة. انظر، انظر الى هذه الصنادل والأحذية، كلها تنتظر إنهاءها. ان عملي يسير بأقصى سرعة، والآن... ورمس نظرة مطولة فيما حوله، الى أدواته الحبيبة، وإلى المقعد الذي طلما جلس عليه ورُقِع، وإلى سكين الاسكافي، الى المشاقب وخيوط التشميع، وإلى المسامير الخشبية... وعاد يتهدد، وغغم «كيف أتركها؟»

«لا تقلق، سوف تجد فوق في الأعالي أدوات من الذهب. سوف ترتفع صنادل ذهبية للملائكة، وسيكون لديك مهام مطلوبة لا تعد ولا تحصى تعمل بها الى الأبد. سوف تخيط، وتمزق، ولن تقتقر الى العمل. فقط اسرع، وتعال وقل للمعلم «أنا معك».. وكفى. قل «أنا معك وسأتبعك حيثما ذهبت - وحتى الموت»، وهذا ما أقسمنا عليه جميعاً»

قال الاسكافي، وهو يرتعش «حتى الموت»، وكان هائل الجسم ولكن كان لديه قلب طحان.

قال الراعي ليطشمنه «إنه مجرد أسلوب في التعبير أيها المسكين. فهذا ما أقسمنا عليه جميعاً، فلا تخف - إننا جميعاً

نسعى الى المجد، وليس الى الموت. هذا الرجل، يا صديقي، ليس رجلاً عادياً، لا، إنه ابن الانسان!»

«والأمراة ليسا متشابهين، ههه»

«متشابهان؟ ألا تخجل من قولك هذا؟ ألم تسمع قط أحداً يقرأ في سفر النبي دانيال؟ إن عبارة «ابن الانسان» تعني المسيح - وبعبارة أخرى، الملك! سوف يتربع قريباً على عرش الكون، أما نحن - الذين بقدر ما نكون أذكاء، يزداد عددنا المتضم إلى - فسنقوم بتوزيع مراتب الشرف والثروات. لن نسير حافي القدمين بعد الآن. سوف تشعل صندلاً ذهبياً وسوف نتعني الملائكة لتشد لك الرياطة. أوكد لك يا نشائيل، إنها صفقة رابحة. فلا تدعها تفلت من بين يديك. ماذا أقول لك أكثر من أن توما انضم إلينا. لقد أحسن ابن الحرام ذلك أن في الأمر شيئاً جيداً، وتصدق بقميصه الذي يرتديه لأحد الفقراء وأسرع بالانضمام. فافعل مثله أنت أيضاً. إنه الآن في منزل زبدي. تعال، هيا بنا»

لكن نشائيل أحجم، عاجزاً عن اتخاذ قرار. أخيراً قال «اسمع يا فيليبس، أحذرك، سيكون عليك أن تتحمل تبعه الأمر: إذا وجدت الوضع صعباً فسوف أترككم الى الأبد. انتي مستعد لأي شيء، الا أن أتعرض للصلب»

قال فيليبس «حسن، حسن، في هذه الحالة سنتركهم نحن الاثنان. انظرنني جنتت الى هذا الحد... موافق؟ هيا بنا»

«حسن إذن - باسم الرب» وأوصد الباب، ثم وضع المفتاح تحت قميصه. وسار الاثنان متشابكي الذراعين ببيغان منزل زبدي..

جلس يسوع ومريدوه يتدافعون أمام النار المضرة بينما سالومه العجوز تدخل وتخرج. وقد غمرها الفرح. لقد فارقتها كل أمراضها. وهما هي تدخل وتخرج وتعد المائدة، واقتنارها بولديها

وبخدهمها للرجل المبارك الذي سيجترع مملكة السماء لا حدود له. سال يوحنا وهمس في أذن أمه بشيء. وينظرة منه انقشاعاً على المريدون لغت نظرها الى شدة احساسهم بالبرد، بما أنهم كانوا ما يزالون يرتدون ملابس الصيف. ابتسمت الأم، ثم ولجت الى الداخل، وفتحت صناديقها وأخرجت منها ثياباً صوفية. وعملت بسرعة - وقبل أن يعود زوجها - على توزيعها بين الرفاق. أما أثقل الثواب، المصنوع من الصوف الأبيض الناصع، فرمته برشق على كتفي يسوع.

التفت وقد أشرق وجهه بابتسامه. قال «بورك أيتها الأم سالومه. من الحق والعدل أن تهتمي بأمور الجسد، فالجسد هو الجِسم الذي تمتطيه الروح لتجرب به الصحراء. فاعتني به، ليكون قادراً على تحمل المشاق»

دخل عليهم العجوز زبدي ورأى الضيوف غير المتوقعين، فرحب بهم من أعماق قلبه. ثم جلس في الركن. هؤلاء اللصوص (هكذا كان يسميهم) يزعجونه كثيراً. من دعاهم للحضور واحتلال منزله؟ وهذه الزوجة المبذرة قدمت لهم للتو وليمة فاخرة اللعنة على اليوم الذي ظهر فيه هذا المقتصب الجديد. ولم يكفه سوءاً أنه سرق منه ولديه لا، بل وقعت مشاحنات دامت أياماً بطولها مع زوجته الحمقاء المخاظة الى ولديه. فهي تقول أنهما أحسنا التصرف. وهذا الرجل نبي حقيقي: سوف يصبح ملكاً. ويطرد الرومان ومن ثم سيتربع على عرش إسرائيل، وسيجلس يوحنا الى يمينه، ويعقوب الى يساره - ويصيحان من السادة العظام، ليس مجرد صيادين في قاريي تجذيف، بل سيدين مهمين! انظن أنهما كانا سيمضيان حياتهما يتعقنان فوق الماء؟ وكانت العجوز البلهاء تقض مضجع زبدي ليل نهار بمثل هذا الكلام - وغيره - وهي تدق قدمها في

الأرض وتصرخ. أحياناً كان يصب لعناته على ما يصادفه في طريقه ويهشّمه. وتارة يستسلم يباس ويخرج ليتجول على شاطئ البحيرة كالمجنون. وفي آخر المطاف أدمن على شرب الخمر. والآن - ماذا بعد؟ هاهم أولئك المنتهكون للقانون قد احتلوا بيته: تسعة أهواء واسعة؛ ومعهم تلك العاهرة المجذلية التي تلقت ألف قبلة وقبلة؛ تحلقوا حول المائدة ولم يزعموا أنفسهم حتى بالالتفات نحوه - هو، سيد المنزل - ولا حتى استأذنوا منه. هذا هو الحال الذي لنا إليه! أمن أجل هؤلاء الطفيليين استعبد هو وأسلافه طوال سنين عديدة؟ هنا استعر غضبه، ففقر واقفاً وصرخ «تمهلوا، يا شباب - بيت من هذا، بيتكم أم بيتي؟ اثنان واثنان يساوي أربعة. هلا أخبرتموني من فضلكم؟»

أجابه بطرس، وقد جرّع عدة كؤوس من الشراب وأصبح مرج المزاج «إنه بيت الرب، بيت الرب يا زبدي. ألم تسمع بالتي؟ لم يعد أي شيء ملكك أو ملكي؛ بل كل شيء ملك للرب»
بأشر زبدي بالقول «إن ناموس موسى...، لكن بطرس شاطعه قبل أن يتصاعد غضبه.

«ماذا اسمع - تقول ناموس موسى؟ لقد فات أوانه يا زبدي، انتهى، ذهب في نزهة جميلة ولن يعود منها قط. الآن لدينا ناموس ابن الإنسان، أنفهم؟ نحن جميعاً أخوة! لقد اتسعت قلوبنا، ومع قلوبنا اتسع صدر الناموس. أصبح الآن يشمل البشرية جمعاء. والعالم كله هو الأرض الموعودة، لقد زالت الحدود! وأنا، الذي تراه مثلاً أمامك يا زبدي، سوف يعلن كلمة الرب على الأمم. سأذهب حتى روما - نعم، لا تضحك - وسأقضي على الإمبراطور من حنجرتي وأطرحه أرضاً ثم أتربع على العرش، ولم لا! وكما قال المعلم، إننا لم نعد صيادين مثلكم. نحن لا نضطاد سمكاً؛ بل نحن

صيادو بشر. ونقولها نصيحة للحكماء: تقربوا منا، أعطونا الكثير من الخمر والزاد، لأننا ذات يوم - وهو قريب جداً - سنغدو سادة عظاماً. أعطونا قطعة خبز يابسة، فتكافئكم بعد بضعة أيام بملء قرن من الخبز. وأية أرغفة خالدة! سوف تأكلون وتأكلون ولا تنفد» جاز زبدي قائلًا، وكان قد تراجع من جديد إلى ركنه، «أيها المسكين، أكاد أتخيلكم منذ الآن مصلوبين رأساً على عقب». وبعد أن سمع كلمات بطرس أخذ الخوف يتسرب إليه، وقال لنفسه، الأفضل أن أئزم الصمت. فمن يدري ماذا سيحدث. العالم مدور، وهو يدور. ومن الممكن تماماً ذات يوم أن هؤلاء المجانين... فلائزم جانب السلامة، إذن مهما حدث!

ضحك المريدون من بين تلاميذه. كانوا يعلمون جيداً أن بطرس طروب ويمزح؛ ولكن في دواخلهم - وعلى الرغم من أنهم لم يثملوا إلى الحد الذي يطلق السنتم - كانت تراودهم الأفكار نفسها سراً. قوة التأثير، والمكانة المرموقة، والملابس الحريرية، والخواتيم الذهبية، ووفرة الطعام - والاحساس بالعالم صلباً تحت القدم اليهودية: هذه هي مملكة السماء.

تتاول العجوز زبدي كأساً أخرى من الشراب واستجمع شجاعته، وقال «وانت، يا معلم، أنت تفهم بشيء؟ أنت من بدأ كل هذا، وما أنت جالس باسترخاء كخياره هادئة بينما نحن الآخرون نجتهد في مناقشة الأمر... اسمع، هلا أخبرتي باسم الهك لماذا عليّ أن أرى ممتلكاتي تتبدد دون أن أصرخ مستفسراً عن السبب؟ أجاب يسوع «يا زبدي. كان يا مكان في قديم الزمان رجل فاحش الثراء، حصد قمحه، وقطف عنبه، وجمع زيتونه، وملاً أباريقه، وأكل حتى أتخم، ومن ثم تمدد على ظهره في فناء داره، وقال «يا روحي، ما أكثر رغباتك. فكلني، واشربي وامرحي!»، ولكن

بعد أن قال هذا سمع صوتاً قادماً من السماء يقول «يا أحمق، يا أحمق - في هذه الليلة ستذهب روحك إلى الجحيم. فماذا ستفعل بكل المؤمن التي كدستها؟» إن لديك أذنين يا زبدي، وانت تسمع ما أقوله لك، ولك عقل، وتفهم ما أرمي إليه. قد يكون هذا الصوت الساموي مخيفاً فوقك يا زبدي، ليل نهاراً

أطرق صاحب المكان العجوز ولم يتكلم بعد ذلك.

في تلك اللحظة فتح الباب وظهر فيلبس على العتبة. ومن خلفه وقف نشايل الشبيه بسويقة يقول خرقاء ضخمة. لم يعد قلبه يديق دقتين معاً. لقد اتخذ قراره. اقترب من يسوع، ثم انحنى وقبل قدميه.

قال «يا سيدي، أنا معك حتى الموت»

وضع يسوع راحته يده على الرأس الجعد الشعر كراسي ثور، وقال له «أهلاً بك يا نشايل. إنك تصنع الصنادل لكل الناس، وسير أنت حافتي القدمين، وهذا يسميني أيها سرور، انضم إلي» وأجلسه إلى يمينه وأعطاه قطعة خبز وكأساً من النبيذ. قال «لكني تصبح تابعاً لي كل هذه اللقمة من الخبز واشرب هذا الكأس من النبيذ»

أكل نشايل الخبز، وشرب النبيذ وعلى الفور شعر بالقوة تتغلغل في عظامه وفي روحه. ارتفع النبيذ كما الشمس وأضاء عقله بنور ذهبي، فأصبح النبيذ، والخبز والروح كلاً واحداً. كان كمن يجلس على جمر مشتعل، أراد أن يتكلم لكنه كان شديد الحياء.

قال له السيد «تكلم يا نشايل، افتح قلبك وأرح نفسك» أجاب «يا معلم، أريدك أن تعلم أنني كنت دائماً فقيراً. لقد عشت وأكلت يوماً بيوم، ولم يتح لي قط الوقت للتفكير في التاموس.

إنني أعمى، يا معلم، اغفر لي... هذا ما أردت أن تعرفه. ما قد يحث بما في نفسي وارتحت»

لمس يسوع كفتي الرجل المهدي حديثاً العريضين مداعباً. وقال ضاحكاً «لا بأس عليك يا نشايل، ثمة طريقان تؤديان إلى كنف الرب. أولاهما طريق العقل، والثانية طريق القلب. اسمع هذه الأمثلة:

«مات رجل فقير، وآخر ثري، وآخر فاسق في يوم واحد، ومثلوا أمام قضاء الرب في ساعة واحدة. ولم يكن أي منهم قد تنكّر في التاموس. عيس الرب وسأل الفقير «لماذا لم تتفكر في التاموس في حياتك؟»، فأجاب «يا رب، لقد كنت فقيراً وجائعاً. كدحت ليل نهار لأطعم زوجتي وأولادي. فلم يتح لي الوقت»، فسأله الرب غاضباً «أكنت أشد فقراً من عبيدي المخلص هليل^١؟ فهو لم يكن لديه مال يدفعه ليدخل إلى الكنيس ليسمع تأويل التاموس، فارتقى إلى السطح. ثم تمدد وأخذ ينصت من خلال المنور. لكن الدنيا انثجت وكان مستقرها أيما استغراق فيما سمعه حتى أنه لم ينتبه للثج. وفي الصباح حين دخل الحبر الكنيس وجد أن المكان مظلم. رفع عينيه فاكتشف أن ثمة جسد رجل متمدد فوق المنور. صعد إلى السطح، وأزاح الثلج وأخرج من تحتها جسد هليل، حمله بين ذراعيه، وهبط به، ثم أضرم ناراً وأعاد إليه الحياة: بعدئذ أصبح يسمح له بالدخول والانصات دون أن يدفع نقوداً، وأصبح هليل حبراً مشهوراً طبقت شهرته العالم كله... فما رأيك بهذا؟» «غمغم الرجل الفقير «لا شيء يا ربي»، ثم أجهد باكياً.

١- هليل، أو حليل (٦٠ ق م - ٩ م): حبر ولد في بابل. كان رئيساً للشهدريم (المجلس الأعلى عند اليهود)، أول من وضع أسس التأويل الاتجيلي.

«والتفت الرب الى الرجل الثري وقال «وأنت، لماذا لم تتفكر في التاموس في حياتك؟»، فقال «لقد كنت فاحش الثراء. كان لدي بساتين، والكثير من العبيد، والكثير من الهوم. فكيف كان يسعني أن أوفق بين كل هذا؟»، فقال الرب مؤنباً «أكنت أكثر ثراءً من أنعازر ابن حرمصوم، الذي ورث ألف قرية وألف سفينة؟ لكنه تغلى عنها جميعاً حين علم بمكان وجود رجل حكيم يشرح التاموس، فماذا تقول لتدافع عن نفسك؟»

«غمغم الرجل الثري بدوره «لا شيء ياربي» وأجهش باكياً. ثم التفت الرب الى الرجل الفاسق وقال «وأنت، أيها الوسيم، لماذا لم تتفكر في التاموس؟»، فقال «لقد كنت أزداد وسامة باضطهاد وكانت النساء تنراى عليّ. فكيف كان يمكن أن أجد وقتاً مع كل التسليّة التي توفرت لي، لأتفكر في التاموس؟»، فأجابه الرب «أكنت أكثر جمالاً من يوسف، الذي عشفته زوجة فوطيفار؟ وكان فائق الجمال الى حد أنه كان يقول للشمس «أشرفي أيها الشمس حتى أشرق مثلك». وحين كان يفتح صفحات التاموس تفتح الحروف أمامه كالأبواب وتخرج المعاني ملفعة بالنور والنار. فماذا لديك تقوله؟»

«غمغم الفاسق قائلاً «لا شيء ياربي»، ثم أجهش أيضاً باكياً. «صنف الرب يديه ونادى على هليل، والعازز، ويوسف من الجنة. وحين مثلوا بين يديه قال «احكموا على هؤلاء الرجال الذين لم يتفكروا بالتاموس بسبب الفقر، والفنى، والجمال. تكلم يا هليل. انطق بحكمك على الفقير! فأجاب هليل «كيف يمكن يا رب أن أدبني؟ أنا أعرف ماذا يعني الفقر، أعرف ماذا يعني الجوع. إنني أعفو عنه!»

«قال الرب «وأنت يا العازز؟ هاك الرجل الفنى، إنني أكل أمره

إليك»

«أجاب العازز «يا رب، كيف أدبني؟ أنا أعرف ما معنى أن يكون المرء غنياً - إنه الموت! إنني أعفو عنه!»

«وأنت يا يوسف؟ جاء دورك. إليك هذا الوسيم»

«كيف أدبني يا رب؟ أنا أعرف ما يمر به المرء من صراع، وعذاب مقيم في قهره لجمال الجسد. إنني أعفو عنه»

صمت يسوع، وأبتسم ونظر الى نشأئيل، لكن الاسكافي شعر بقلق.

سأله «حسن، وماذا فعل الرب بعد ذلك؟»

أجابه يسوع ضاحكاً «تماماً ما كان يمكن أن تفعله أنت»

ضحك الاسكافي البسيط بدوره. قال «هذا يعني اني نلت الخلاص! وأمسك بكلتا يدي السيد وشد عليهما بقوة، وهتف «يا معلم، إنني أظهم. لقد قلت أن ثمة طريقين تؤديان الى كنف الرب، طريق العقل وطريق القلب، وأنا سلكت طريق القلب فعثرت عليك!، نهض يسوع واقفاً، ومضى نحو الباب. كانت تهب ريح قوية؛ والبحيرة تعوى. وبدت النجوم في السماء كحبات دقيقة من الرمل لا يحصيها عدّ. وتذكر الصحراء، فسرت فيه الرعدة، وأغلق الباب. قال «الليل هبة عظيمة من الرب. إنه أم الانسان، تأتي بهدوء ورقة وتدره. تضع يدها الباردة على جبينه وتزيل هموم النهار عن جسمه وروحه. يا اخوتي، حان وقت الاستسلام لعناق الليل»

سمعت العجوز سالومه فنهضت. وكذا فعلت المجدلية من ركنها بجوار النار، حيث كانت تنصت بسعادة، وهي تميل للأمام، الى صوت المحبوب. مدت المراتان الفرش وأحضرتا الأغطية. خرج يعقوب الى الفناء، ثم عاد حاملاً له ذراع من خشب الزيتون وكؤمه فوق النار. رفع يسوع، الواقف منتصباً في وسط الدار، مديراً وجهه

شطر اورشليم، رفع يديه وأخذ يتلو بصوت عميق صلاة المساء: «يا رب، افتح أبوابك في وجوهنا. لقد انصرم النهار، الشمس تقرب، الشمس تختفي، أيها السرمدي، إننا نقف على أبوابك. نتضرع إليك: اغفر لنا. تتوسل إليك: ارحمنا. خلّصنا»
أضاف بطرس: «وأرسل إلينا أحلاماً سعيدة يا رب. دعني يا رب أرى في منامي قاريبي الأخضر العتيق وقد أصبح جديداً تماماً ومزوداً بشراع أحمر اللون»، كان قد أفرط في الشرب وأصبح مزاجه مرحاً.

اضطلع يسوع في الوسط، وأحاط به مريدوه. وشغلوا كامل المنزل طويلاً وعرضاً. ولما لم يجد زبدي وزوجته مكاناً لهما انتقلا إلى مبنى إضافي منفصل، ومعهما المجدلية. دلمع العجوز متذمراً لأنه حرم من وسائل راحته. والتفت إلى زوجته حانقاً. قال بصوت عال حتى تسمعه المجدلية: «ماذا سيحدث بعد! ها قد رميتنا عصابة من الأجانب خارج منزلنا الخاص. انظري إلى أي حال وصلنا!» لكن العجوز أشاحت بوجهها صوب الجدار ولم ترد عليه.
في تلك الليلة جافى النوم من جديد متى. فجثم تحت المصباح، وأخرج الدفتر نصف الملآن بالملاحظات من تحت قميصه وأخذ يدرن - كيف دخل يسوع كفرناحوم، وكيف انضمت المجدلية إليهم، والأمثلة التي قصها السيد: كان يا مكان في قديم الزمان رجل فاحش الثراء... وبعد أن انتهى من الكتابة أطفأ المصباح وأوى بدوره إلى الفراش، ولكنه تحنى قليلاً جانباً، لأن المريدين لم يكونوا قد اعتادوا على أنفاسه.

حالما أغمض بطرس عينيه غاص في النوم، وسرعان ما هبط ملاك من السماء، وبهدوء فتح صدغيه وولج إلى داخله على شكل حلم، فترأى له جمهور غفير تجتمع على شاطئ البحيرة. وكان

المعلم موجوداً بينهم أيضاً، يبدى إعجابه بقارب جديد تماماً، أخضر اللون وذو شرع أحمر، ينعاب فوق صفحة الماء. وعلى الجزء الخلفي لمقدمة القارب لمع رسم لسمكة عظيمة، تشبه تماماً السمكة المشؤمة على صدر بطرس. سأل يسوع «لن هذا القارب الجميل؟» فقال بطرس بفخر «إنه لي» فقال يسوع «اذهب يا بطرس وخذ معك بقية الرشاقي وابحر إلى عرض المياه حتى أتياهي بشجاعتك!»

قال بطرس «بكل سرور، يا معلم»، ثم حل المرساة، وقفز بقية الصبح إلى القارب، وهبت ريح موافقة على مؤخره، وانتفخ الشرع ودخلوا عرض البحر وهم يفتنون.

ولكن فجأة هبت زويعة، فأخذ القارب يدور حول نفسه، وهيكله صار يتصدع، وبدأ الماء يتسرب إليه ويفرقه. انبطح المريدون على وجوههم على ظهر القارب، وهم يقولون عويلًا هائلاً. قبض بطرس على السارية وصرخ «يا معلم، يا معلم، تجنأ»، وإذا به فجأة يتبين وسط الظلام الدامس المعلم المسيريل بالرداء الأبيض يسير فوق سطح الماء. رفع المريدون رؤوسهم وراودهم. هتفوا وهم يرتعشون «إنه شبح! شبح!»

قال لهم يسوع «لا تجزعوا، هذا أنا»

أجابته بطرس «يا سيدي، إن كنت أنت حقاً، مرتني أنا أيضاً أن أمشي على الأمواج لأقترب وأقابلك»

فأمره يسوع «تعال»

قفز بطرس خارج القارب، وخبط على الماء، وبدأ بالسير. ولكن حين شاهد البحر المضطرب شلت حركته من الخوف، وأخذ يغوص. فصرخ «خلصني، يا سيدي. إنني أغرق!»

مد يسوع يده وسحبته إلى أعلى. قال «يا قليل الايمان، لم

أغمض عينيه ليتفكر ويجد الجواب. لكن التوم يادره وأخذه معه.

في اليوم التالي استمر المطر الغزير بهطل مع رياح عاتية، ولم يخرج الصيادون إلى البحر. أغلقوا عليهم أبواب أكواخهم وجلسوا يرققون شباكهم ويتحدثون عن الزائر الغريب الأطوار الذي ينزل في بيت العجوز زيدى، كأنه يوحنا المعمدان عاد إلى الحياة، وكان الجلاد بعد أن ضرب ضربه مباشرة انحس الممعداني والتقط رأسه عن الأرض وأعادته إلى مكانه على عنقه واختفى في لمح البصر. ولكي يمنع هيرودوس من القبض عليه ثانية وقطع رأسه مرة أخرى ذهب وحل في جسد ابن النجار الناصري وأصبح شخصاً واحداً. وحين تراه تكاد تنفد عقلك، أهو واحد، أم اثنان؟ أمر محير. إذا نظرت إلى وجهه مباشرة تراه رجلاً بسيطاً يتسم لك، فإذا تحركت قليلاً ترى ان إحدى عينيه يملأها الغضب وتود لو تأكلك، والأخرى تشجعك على الاقتراب منها. وتقترب فتصاب بالدوار، وقبل أن تعرف ماذا يحدث لك تتخلى عن بيتك وعن أولادك وتتبعه!

سمع صياد سمك عجوز كل هذا الكلام وهز رأسه. قال «هذا ما يحدث لأولئك الذي لا يتزوجون، إن كل ما يريدون فعله هو تخليص العالم بأية وسيلة. إن منيهم يصعد إلى رؤوسهم ويهاجم عقولهم. حباً بالرب، نصيحة لكم جميعاً: تزوجوا، انقضوا قواكم على النساء وانجبوا أطفالاً لتهداً سريرتكم».

كان يونان العجوز قد سمع بالنبا في الليلة السابقة وراح ينتظر في كوخه. وقال في نفسه، لا يمكن لهذا الأمر ان يستمر. لا شك بأن ولدي سيأتيان ليبريا إن كنت ميتاً أم حياً. ظل ينتظر طوال الليل يحدهو الأمل، ومن ثم فقد هذا الأمل، وفي الصباح انتعل حذاء

فرزعت؟ ألا شق بي؟ انظروا، ورفع يده فوق الأمواج وأمرها قائلاً «اهدأي» ولتو خمدت الرياح، وسكنت المياه. انفجر بطرس في نوبة من البكاء. لقد امتلئت روحه هذه المرة أيضاً، ومرة أخرى ظهرت بصورة مشينة. استيقظ مطلقاً صرخة مدوية. كانت لحيته مبللة بالدموع، انتصب في جلسته على الحشية، وأسند ظهره إلى الجدار وتهدأ. سمعه متى الذي كان ما يزال يقظاً. سألته «ماذا تتهدأ يا بطرس؟»

قرر بطرس برهة من الوقت أن يتظاهر بالصمم ولا يجيبه. فهو حتماً لا يميل إلى فتح أحاديث مع الحياة، لكن الحلم كان يخنقه وشعر بأنه يجب أن يفصح عنه ويخلف عما في نفسه. لذا زحف مقترباً من متى وبدأ يسرده عليه، وكلما تقدم في السرد، أكثر من زخرفة الكلام، وأنصت متى بنهم، مسجلاً كل شيء في ذهنه. وغداً صباحاً، إن شاء الرب، سيدونه في دفتره.

انتهى بطرس، لكن قلبه كان ما يزال يتأرجح. مثل القارب الذي تبدى له في الحلم. وفجأة هذه الخوف «أيمن أن السيد قد جاء في الليل وصحبته إلى عرض البحر ليختبره؟ لم أر قط في حياتي بحراً أشد حيوية، وزورقاً أكثر واقعية ولا أثنائي خوف محسوس أكثر من هذا، لعله لم يكن حُلماً... ما رأيك يا متى؟»

أجابته متى «لم يكن حُلماً بلا ريب. إن هذه المعجزة قد وقعت حتماً». وراح يفكر عميقاً في الأسلوب الذي سيدونه به على الورق في اليوم التالي. سيكون الأمر شديد الصعوبة لأنه ليس متأكداً تماماً من أنه كان حُلماً، ولا هو متأكد تماماً من أنه الحقيقة. إنه كلامها معاً. المعجزة وقعت، ولكن ليس على هذه الأرض، ليس في هذا البحر. في مكان آخر - ولكن أين؟

القيطان العالي الرقبة الذي صنع بمناسبة زواجه ولم يكن ينتعله إلا في المناسبات الخطيرة، ثم تلغى بمشمع ممزق وانطلق تحت المطر يبغي منزل صديقه زبدي. ووجد الباب مفتوحاً، فدخل.

كانت النار مضجرة، وقد جلس ما يقارب العشرة من الرجال وامراتان القرقصاء أمام النار. تعرف على إحدى المراتين - العجوز سالومه. الأخرى كانت صغيرة السن، سبق له أن رآها في مكان ما. لكنه لا يتذكر أين. كانت الغرفة شبه مظلمة، وميّز لديه بطرس وأندراوس حين التفتا برهة ورأى وجهيهما اللذين أضاءهما وهج النار. ولكن لم يسمعه أحد وهو يدخل ولم يلتفت أحد ليراه. كانوا ينصتون ورؤوسهم مشرعية إلى الأمام وأصواتهم شاغرة لشخص يواجهه مباشرة. ماذا كان يقول؟ فتح يونان العجوز فاه وأنصت. بين الحين والآخر كان يلتقط كلمات «عدل»، «الرب»، «مملكة السماء...». الكلمات نفسها ودائماً نفسها - طالما سمعها عبر السنين! لقد سمعها. فبدل أن يخبروك كيف تصطاد سمكة، أو ترتق شبكة، أو تلغظ قارياً، أو كيف تتجنب الإصابة بالبرد أو بالبلل أو بالجوع، تراهم يجلسون ويتكلمون عن السماء! اللعنة، اليس لديهم أي شيء يقولونه عن الأرض والبحر؟ واحتدم غضب يونان لديهم. وسعل ليسمعوه ويلفتوا إليه. فلم يفعل أحد، فرفع قدمه الضخمة وضرب بشوة حذاء القيطان على الأرض. ولكن عبثاً. لقد كان انتباههم معلقاً على شفتي المتكلم الشاحب.

العجوز سالومه وحدها التفتت. نظرت إليه لكنها لم تره. عندئذ تقدم العجوز يونان وجلس القرقصاء أمام موقد النار، خلف ولديه مباشرة، مد يده الضخمة ولمس بطرس من كتفه وهزه. التفت بطرس ورأى والده، فوضع أصبعه على شفتيه كإشارة له بأن يلزم الصمت، وعاد يلتفت نحو الشاب الشاحب. وكأنه ليس يونان.

والده، وكأنما لم تمر شهور طويلة منذ أن رآه آخر مرة. في أول الأمر شعر يونان بالحزن، ثم بالغضب. فخلع حذاءه الطويل (الذي بدأ يضغط عليه ويؤلمه) ليبرمه في وجه المعلم، لعله يخرسه أخيراً ويتاح له أن يكلم ولديه. وكان قد رفع حذاءه الطويل الرقبة وأخذ يلوح به ليستجمع زخماً وإذا به يشعر بيد تمنعه من الخلف. التفت ف رأى العجوز زبدي.

همس صديقه في أذنه «انهض يا يونان، هيا بنا إلى الداخل. لدي ما أقوله لك يا مسكين»

تابط الصياد العجوز حذاءه الطويل وتبع زبدي. انتقلا إلى الجزء الداخلي من المنزل وجلسا متجاورين على الصندوق الخاص بسالومه.

يادر زبدي بالقول متلعثماً، لأنه كان قد اضطر في الشراب في محاولة لاغراق حنقه «يونان، يا صديقي، أيها المناضل العتيق، لقد كان لديك ولدان - احذفهما من حياتك. أنا أيضاً كان لدي ولدان، وحنقتهما - يبدو أن الرب هو والدهم، فلم نتدخل؟ انهم ينظرون إلينا وكأنهم يسألوننا «من أنتم؟، أيها العجوزان؟»... إنها نهاية العالم، يا صديقي المسكين يونان!»

«أنا أيضاً غضبت أول الأمر. شعرت برغبة في أن أمسك برمح الصيد وأرميها به. لكني بعد ذلك وجدت أنه ليس هناك حل. لذا تكسنت متراجعاً إلى قوقعتي وسلمتتهما زمام الأمور، زوجتي المسكينه توافقهما على طول الخط. اعتقد أنها بدأت تحرق. فتش عن الأم، أيها العجوز زبدي، فتش عن الأم، أيها العجوز يونان - هذا ما كنت أروم قوله لك. ما فائدة الكذب على أنفسنا؟ اثنان واثنان أربعة: لقد هُزمناء»

مرة أخرى انتعل العجوز يونان حذاءه الطويل الرقبة وتلفع

بالشمع، ثم حرق إلى زبدى ليسرى أن تبقى لديه ما يزيد. لا شيء لديه. لذا فتح يونان الباب، وألقى نظرة على السماء، ونظرة أخرى إلى الأرض: الظلام دامس؛ ومطر، وبرد... تحركت شفتاه «لقد هُزمتنا، هُزمتنا»، وانطلق مثيراً رشاش الطين عائداً إلى كوخه.

بينما يونان يواصل مسيره لاهثاً، كان ابن مريم يمد راحتي يديه نحو النار وكأنه يسبح بروح الرب الكامنة في اللهب وتمنح الناس الدفء. لقد انفتحت مغاليق قلبه، فمد راحتي كفيّه وتكلم:

«لا تظنوا أنني جئت لألقي التاموس والأنبياء؛ إنني لم أت لألقي الوصايا القديمة بل لأوسع مجالها. لقد رأيتم منقوشاً في لوائح موسى: لا تقتل! أما أنا فأقول لكم إن كل من يغضب على أخيه ويرفع يده في وجهه، أو حتى يقول له كلمة جارحة، يكون مستحقاً نار جهنم. وقد رأيتم أنه نقش في لوائح موسى: لا تزن. وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتتها فقد زنى بها في قلبه. إن النظرة غير الطاهرة ترمي بالفاسق إلى نار جهنم...

«إن التاموس العتيق يأمركم أن تجلوا الأب والأم؛ أما أنا فأقول، لا تحبس قلبك داخل بيت والديك، فليخرج للملا وليدخل كل البيوت، وليعانق أرض إسرائيل برمتها من جبل حرمون إلى صحراء أدوميه وحتى ما بعدها؛ شرقاً وغرباً - الكون كله. إن أبانا هو الرب، وأما الأرض، نصفنا تراب والنصف الآخر من السماء. إن اجلالكم للأُم وللأب معناه، اجلالكم للسماء والأرض»

تهتدت «سألومه العجوز. قالت «كلماتك قاسية أيها المعلم، قاسية على الأم»

أجابها يسوع «إن كلمة الرب دائماً قاسية»
تمتعت الأم العجوز، وهي تشبك يديها معاً «خذ ولدي، خذهما؛ هما لك»

سمع يسوع الأم التكللى فشعر بأن أبناء العالم وبناته كلهم معلقين من عنقه. وتذكر التيس الأسود الذي رآه في الصحراء والذي يتدلى من عنقه كل آثام الناس مودعة داخل تعانم زرقاء اللون. ودون أن يتكلم مال على العجوز سألومه التي وهبت ولديها، وكأنه يقول لها، انظري، هذا عنقي، علقي ولديك حوله...

رمى بحفنة من أغصان الكرمة في النار، فأتى عليها اللهب. راقب يسوع ولفترة طويلة النار تهس وهي تلتهم الأغصان؛ ثم عاد فالتفت إلى أصحابه. قال:

«إن كل من يحب أباه وأمه أكثر مني لا يستحق أن يرافقتي، وكل من يحب ابنه أو ابنته أكثر مني لا يستحق أن يرافقتي. إن الوصايا القديمة لم تعد شاملة كضاية لتتسع لنا؛ ولا أهواننا القديمة»

سمعت برهة، ثم تابع: «الإنسان تخم، عنده تنتهي الأرض وتبدأ السماء. لكن هذا التخم لا يكف أبداً عن الانتقال والتقدم نحو السماء. ومعه تنتقل وصايا الرب وتتقدم. إنني أهمل وصايا الرب عن لوائح موسى وأوسع مجالها، أحنها على التقدم»

سأله يوحنا مدهوشاً «اذن، هل تتغير إرادة الرب، أيها المعلم؟»
«لأبنا يوحنا الحبيب. لكن قلب الإنسان يتسع ويصبح أقدر على استيعاب المزيد من إرادة الرب»

هتف يوحنا وهو يقفز واقفاً «إلى الامام، اذن. ما جلوسنا؟ هلنطلق وننشر الوصايا الجديدة في العالم»

هس توما ساخراً «انتظر حتى يتوقف هطل المطر حتى لا نبتل!»

هز يهوذا رأسه حائثاً. قال «علينا أولاً أن نطرد الرومان. علينا أن نحرق أجسادنا قبل أن نحرق أرواحنا - بالترتيب، يجب أن لا

تبدأ البناء من السقف وإلى الأسفل. بل علينا أولاً أن نرمي الأساس»

«الأساس هو الروح يا يهوذا»

«أما أنا فأقول أن الأساس هو الجسد»

«إذا لم تتغير الروح داخلنا يا يهوذا فكل يتغير العالم من حولنا أبداً. إن العدو هو في الداخل. الرومان موجودون داخلنا، والخلاص يبدأ من الداخل»

فقرز يهوذا واقفاً، وهو يقلي من الغضب، منذ زمن بعيد وهو يكظم ما يعتلج في قلبه. كان ينصت وينصت، ويخترن كل شيء في صدره. والآن لم يعد بمقدوره أن يحتمل أكثر.

صرخ مرة أخرى بصوت مخنوق «أولاً نظرد الرومان! الرومان أولاً»

سأل نثائيل «ولكن كيف يسعنا أن نظردهم؟». وكان قد بدأ القلق يتسرب اليه وأصبح يرمي نظرات جانبية إلى الباب «هلا قلت لنا يا اسخريوطي؟»

«بالثورة! تذكروا المكابيين لقد طردوا اليونانيين. الآن جاء دورنا، حان الوقت للمكابيين الجدد ليطردوا الرومان. بعد ذلك، بعد أن نقبض على زمام الأمور من جديد، يمكننا أن نصفي الأمور بين الأغنياء والفقراء، بين المضطهدين والمضطهدين»

لم يفه أحد بكلمة. لم يكن المريدون متأكدين من الطريق الواجب سلوكها. فهدقوا إلى المعلم وانتظروا. كان ينظر إلى اللهب متأملاً... متى سيفهم الناس أنه لا يوجد إلا درب واحد في كلا العالمين المرئي واللامرئي - إنه الروح!

نهض بطرس واقفاً، قال «اعزروني هذه نقاشات معقدة وأنا لا أفهم شيئاً. سوف نعلمنا الشجرة أيهما الأساس. فلننتظر ونرى

ماذا يحدث. يا معلم، امنحنا التفويض لنخرج وحدنا وننشر البشارة بين الناس. ونحن نعود نقاش الموضوع من جديد»

رفع يسوع رأسه ومسح المريدين بنظره، ثم أومأ لبطرس ويوحنا ويعقوب فتقدموا منه وضغط بيديه بقوة على رؤوسهم.

قال «انهبوا، تصحبكم بركتي. اعلنوا البشارة للناس. لا تخافوا، سوف يحفظكم الرب في راحة يده ويقيكم من القناء. لا يسقط عصفور دوري واحد من السماء إلا بإرادته، وأنتم تعادلون عدداً كبيراً من عصافير الدوري. الرب معكم! عودوا سريعاً، فلتحط بأعناقكم آلاف الأرواح. أنتم رسلي»

تلقى الرسل الثلاثة التبريك، وفتحوا الباب وخرجوا إلى قلب العاصفة، واتخذ كل منهم درياً مختلفاً.

ومرت الأيام. كان خلالها قناء بيت زبدي يمثل بالناس في الصباح ويخلو في المساء. قياتي المرضى، والمعاقون، والممسوسون بالشياطين، من كل حذب وصوب، بعضهم كان يبكي، وآخرون يغضبون ويصرخون في ابن الإنسان ليقوم بمعجزة ويشقيهم. أليس من أجل ذلك بعثه الرب؟ فليخرج إذن إلى القناء...!

وكان يسوع يسمعهم يوماً بعد يوم، ويغليه الحزن. فيخرج اليهم في القناء ويلمس كلأ منهم. قاتلاً «هناك نوعان من المعجزة يا اخوتي، معجزات الجسد ومعجزات الروح. آمنوا فقط في معجزات الروح. توبوا وطهروا أرواحكم، فتتطهر أجسادكم. الروح شجرة، والمرض والصحة. والجنة والجحيم، هي ثمارها»

وكان الايمان يدخل قلوب العديد منهم وحالما يؤمنون يشعرون بالدم يتفجر فيهم ويشيع في أجسادهم الخدرة، فيطرحون عكازاتهم ويقفزون واقفين. ويمرر يسوع يده على عيون البعض المطفأة، فيشعرون بالنور يتدفق من أطراف أصابعه، فيرفعون

أجفانهم ويهتفون من شدة الفرح. فقد بات بإمكانهم الآن أن يروا العالم!

ظل متى مسلحاً بريشته وأبقى عينيه وأذنيه مفتوحة. ولم يسمح حتى لكلمة واحدة تسقط منه على الأرض. بل جمع كل شيء ودوَّنه على الورق. وهكذا، شيئاً فشيئاً، ويوماً بعد يوم، كان الإنجيل - البشارة - يتكوَّن. أصبحت له جذور، وأنبت أغصاناً وغدا شجرة تحمل ثماراً يتغذى عليها المولودون والذين سيولدون فيما بعد. وكان متى يحفظ محتوى الكتاب المقدس غيباً.

ولاحظ كيف أن أقوال المعلم وأفعاله تتطابق مع ما كان يطالب به الأنبياء. قبل قرون. فإذا حدث أحياناً ولم تكن التنبؤات تتماشى تماماً مع حياة يسوع، فذلك لأن عقل الإنسان لم يكن توافقاً لفهم المعنى الكامن في النص المقدس. إن لكلمة الرب سبع طبقات من المعنى، وكان متى يجاهد كي يكتشف الطبقة التي تجد عندها العناصر المتناظرة قرينات لها. وحتى حين كان أحياناً يقرن الأشياء معاً قسراً. كان الرب يغفر وهو ليس فقط يغفر، بل يحب ذلك. ثم ألم يكن يأتي سلاك ويميل على أذن متى، كلما أمسك بريشته، ليملي عليه ما يكتبه؟

واليوم، فهم متى لأول مرة وبوضوح من أين يبدأ بسرد حياة يسوع وعصره، وكيف يتناولها. أولاً، أين ولد ومن هم آباؤه وأجداده، وعلى مدى أربعة عشر جيلاً. لقد ولد في الناصرة من أبوين فقيرين - ليوسف النجار ومريم، ابنة يواكيم وحنه... تناول متى ريشته ودعا الرب بصمت أن ينير عقله ويمنحه القوة. ولكن حين همَّ بخط الكلمات الأولى على الورق بحروف جميلة تصلَّبت أصابعه. أمسك به الملاك، منع أجنحة تضرب الهواء بغضب. دوى صوت في أذنه «إنه ليس ابن يوسف! ألم تسمع ما قاله النبي

أشعيا: «ها العذراء تحبل وتلد ابناً»(١)... بل اكتب: كانت مريم عذراء. وهبط سيد الملائكة جبرائيل إلى منزلها قبل أن يلمسها أي رجل، وقال لها «ليكن سلام لك يا مريم، أيتها الفاضلة، الرب معك»، ولتو حملت أحشائها الثمرة... أسمع؟ هذا ما منكته. هو لم يولد في الناصرة، لا، ليس في الناصرة، لا تنس ما قاله النبي ميخا: «أما أنت يا بيت لحم أقرانه وأنت صغيرة أن تكوني بين ألوف يهوذا فمَنك يخرج لي الذي يكون متسلطاً على إسرائيل ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل»(٢).

لذا فيمسيح ولد في بيت لحم، وفي زريبة. ألا تذكر ما يقوله المزمور المعصوم عن الخطأ: «واختار داود عبده وأخذه من حظائر الغنم، من خلف المروضات أتى به ليرعى يعقوب شعبه»(٣). لماذا توقفت؟ لقد أطلقت يدك - اكتب!

لكن متى غضب، فالتفت نحو الجناحين اللامرئيين إلى يمينه وجار بصوت خفيض، حتى لا يسمعه المريدون النيام: «هذا غير صحيح. أنا لا أريد أن أكتب، ولن أفعل!»

سمع رنين ضحك ساخر في القضاء، وصوتاً يقول: «وما أدراك ما الحقيقة، يا حفنة التراب؟ للحقيقة سبع طبقات. على الطبقة الأعلى تتربع حقيقة الرب، والتي لا تشبه بأي حال حقيقة البشر. هذه الحقيقة، يا متى الانجيلي، هي التي أرثم بها في أذنك... اكتب: «وقدم ثلاثة من المجوس، على هدى نجم كبير، ليمسجدوا للطفل...»

١- أشعيا: ١٤/٧

٢- ميخا: ٥/٢

٣- المزموير: ٧٨/٧١-٧٠

تقصّد العرق غزيراً من جبين متى، وصرخ «لن أكتب! لن أكتب!»، لكن يده كانت تتحرك بسرعة على الورق، وتكتب.
سمع يسموع صراع متى أثناء نومه ففتح عينيه، ورآه منحنيّاً تحت المصباح يلهث، وكانت الريشة تصرّ وهي تجري بحنق على الصفحة وتوشك أن تنكسر.

قال له بهدوء «يا متى، يا أخي، لماذا تنه؟ مالذي يثقل عليك؟، أجاه، وريشته ما تزال تجري على الورقة» لا تسألني يا معلم، إنني مستعجل، أخلد أنت إلى النوم»
وكان يسوع يشعر مسبقاً بأن الرب يخيم عليه، فأغمض عينيه حتى لا يزعج سير العملية المقدسة.

الفصل الرابع والعشرون

مرت أيام كثيرة وليال. وطلع قمر وغاب؛ وطلع القمر التالي. هطل مطر، وحل برد، وأشعلت نيران في الموقد؛ وأقيمت صلوات مسائية ورعة في منزل سالومه العجوز... وثواقف فقراء كضناحوم وحزانها في كل مساء بعد انتهاء عمل النهار ليستمعوا المغزى الجديد، كانوا يأتون فقراء حزانى، ويعودون إلى أكواخهم الزرية أغنياء متعزّزين. كان يرفع كروم عندهم وقواربهم وأقراهم من الأرض إلى عنان السماء ويشرح لهم كيف أن السماء مضمونة أكثر بكثير من الأرض. وتمتلئ قلوب البؤساء بالصبر والأمل. حتى قلب زبدى الهمجي بدأ يستأنس. ونفذت فيه كلمات يسوع شيئاً فشيئاً، وأسكرت عقله قليلاً. وبهت هذا العالم حتى التلاشي وخيم فوق رأسه عالم جديد قوامه الخلود والثراء الذي لا ينضب... في هذا العالم الجديد الغريب سيعيش زبدى وولده والعجوز سالومه وحتى قواربه الشراعية الخمس وصناديق نفائسه المترعة، إلى الأبد. لذا، الأفضل عدم التذمر وهو يرى هؤلاء الضيوف غير المدعويين يمكنون

نهاراً وليلاً في منزله أو يتحلقون حول مائدته . وسيحين وقت
التعويض ، سيحين .

وفي منتصف الشتاء مرت أيام رائقة مفعمة بضياء الشمس .
تلايلات خلالها الشمس . وأشاعت الدفء في عظام الأرض العارية .
خددت شجرة اللوز النامية في وسط فناء دار زبدى : حسبت أن
الربيع قد جاء فأخذت تثبت البراعم . وكانت طيور الرقراق تنتظر
هذه الأيام الدافئة الرحيمة ، لأنها تريد أن تودع بيوضها بين
الصخور . إن كل باقي طيور الرب تتكاثر في الربيع ، إلا الرقراق في
منتصف الشتاء . فأشفق عليها الرب ووعد بالسماح للشمس لتغدو
ساطعة تشيع الدفء بضعة أيام خلال الشتاء فقط أكراماً لها . وها
هي ذي عتادل البحر تحلق مبتهجة فوق مياه بحيرة جنيسارت
وصخورها وتصدح بالشكر للرب لأنه أوفى مرة أخرى بوعده .

خلال هذه الأيام الجميلة توزع من تبقى من المريدين على
قوارب الصيد والقري المجاورة لكي يدربوا بنورهم أجنحتهم على
الطيران . انطلق فيلثس ونثائيل في البر ليلتقوا بأصدقائهم من
المزارعين والرعاة ويعلموا عليهم كلمة الرب . واتجه اندراوس وتوما
الى البحيرة ليلتقوا بالصيادين . أما يهوذا المتوحد فخرج وحده
متطلقاً الى الجبل لينفّس عن غضبه . إن أغلب تصرفات سيده
تجبه ، ولكن ثمة بعض الأشياء التي ببساطة لا يقوى على هضمها .
أحياناً يسمع المعمدان العنيف يهدر من بين شفّتي يسوع ، وتارة
أخرى يرى ابن النجار القديم نفسه لا يزال يشغوه هاتفاً : المحبة !
المحبة !... آية محبة ، أيها المستبصر ! ومن نحب العالم مصاب

بالغفريّة ولا يشفيه غير أعمال السكين فيه . هذا ما أراه أنا !
كان متى الوحيد الذي لزم المنزل . لم يرغب في المغادرة ، فقد
يتكلم المعلم في هذه الأثناء ، وعلى متى أن لا يدع الرياح تذرو كلمته ،

وقد يقوم بإحدى المعجزات ، وعلى متى أن يراها بأم عينه لبروينا .
ثم ، الى أين يذهب ، الى من يتحدث ؟ لن يقبل أحد الاقتراب منه ،
لأنه في وقت من الأوقات كان جابي ضرائب قذراً . لذا لزم المنزل
وزاح من ركنه يختلس النظر الى يسوع ، الجالس في الفناء تحت
شجرة اللوز المتبرعمة ، والمجدلية جاثمة عند قدميه وهو يكلمها
بصوت منخفض فأرهف متى أذنه الكبيرة ليلتقط كلمة ، ولكن عبثاً .
وكان أفضى ما استطاع عمله هو أن يراقب وجه المعلم القاسي
التعابير والمحزون ويديه اللتين كثيراً ما كانتا تنزلان على شعر
المجدلية .

كان يوم سبت وقد خرج الحجيج في الصباح الباكر من قرى
ثائية - مزارعون من طبريا ، وصيادون من جنيسارت ، ورعاة من
الحيال - قدموا لسماع النبي الجديد وهو يكلمهم عن القديس
والجحيم ، والبشرية التعمسة ، وعن رحمة الرب . وكانوا عادة
يصحبونه - بعد أن تسطع الشمس ، ويبدو النهار رائعاً - الى سفح
الجبل المخضوض وهناك يفترشون العشب الدافئ ليستمعوا اليه .
وقد يداعب النوم اللذيذ أعضائهم فيستسلمون له على المرج
الريعي . تجمعوا خارجاً في الطريق ، لأن الباب كان موصداً .
وهتقوا يطلبون ظهور المعلم .

قال يسوع : « مجدلية ، يا اختاه ، اسمعي ، لقد جاء الناس
ليرافقوني »

لكن المجدلية ، الثائثة في عيني المعلم ، لم تسمعه . بل إنها لم
تسمع شيئاً مما كان يقوله لها منذ زمن طويل . كانت تبتهج لجرد
سماع زنين صوته : فالصوت وحده يخبرها بكل شيء . إنها ليست
رجلاً ، ولا تحتاج للكلمات . وذات مرة قالت له « يا معلم ، لماذا تكلمني
عن الحياة القادمة ؟ لست رجلاً ، ولا حاجة بي الى حياة أخرى

أيديها. أنا امرأة. وبالنسبة لنا معشر النساء إن لحظة واحدة مع الرجل الذي نحب هي فردوس سرمدى، ولحظة واحدة بعيداً عن الرجل الذي نحب هي جحيم مقيم. هنا على هذه الأرض نعيش نحن النساء حياتنا الأبدية.

كرر يسوع ما قاله لها «مجدلية يا أختاه، جاء الناس لمرافقتي. يجب أن أذهب». ونهض وقوفاً وفتح الباب، كانت الطريق مملوءة بالعيون الملتهبة بالحماس والأفواء الهائفة، وبالمرضى الأثين الماديين أيديهم...

ظهرت المجدلية عند الباب ووضعت يدها على فمها حتى لا تفلت منها صرخة، وغمغممت وهي تراقبه سائراً في المقدمة، والجمع من وراءه يجازرون، «الناس أشبه بالوحوش الضارية. وحوش ضارية متعطشة للدماء ويمكن أن يلتهموه»

تقدم يسوع بخطى واسعة، رصينة باتجاه الجبل المطل على البحيرة، الجبل الذي كان قد اعتلاه ذات مرة وفتح ذراعيه أمام الحشود الفقيرة وهتف بهم، المحبة! المحبة! ولكن بين ذلك اليوم وهذا أصبح عقله أشد عنفاً. لقد قست الصحراء قلبه، وما زال يشعر بملس شفتي المعدناني وكأنهما جمرتان مشتعلتان على شفثيه. كانت التنبؤات تومض وتتطفئ داخله، وعادت الصيحات القديمة اللاإنسانية تنبض بالحياة ورأى بنات الرب الثلاث، الجذام، والجنون، والنار، تشق عنان السماء وتهبط.

حين وصل إلى قمة التل وفتح فمه ليتكلم، فمز النبي القديم من داخله وأخذ يصرخ: «الجيش المربع أت من أطراف الأرض يجازر، أت رهيباً. سريع الحركة، ليس فيه محارب واحد يعرج من التعب، أو ناعس أو حتى يتنام أصلاً. لا ترون نطاقاً رخواً أو سير خذاء واحد مكسور. السهام حادة النصال، وأوتار الأقواس

مشدودة، وخوافر الخيل قاسية كالحجر، ودواليب العريات تدور كالزوايح. إنه يزأر مهدداً كاللؤة، وكل ما يقع بين مخالبها ترفعه بين أنيابها ولا أمل في خلاصه»

هتف رجل عجوز وقد انتصب شعره الأبيض «أي جيش هذا؟» «أتسألون أي جيش هذا؟ أياكم من شعب أصم، أعمى، أحمق!». ثم رفع يده نحو السماء وقال «إنه جيش الرب، أيها النساء! إن محاربي الرب يبدون عن بعد وكأنهم ملائكة، ولكن عن قرب تجدونهم لهيباً يتلظى. أنا نفسي خدعت بهم فتراؤوا لي ملائكة خلال الصيف الفائت من على قمة هذه الصخرة ذاتها التي أقف عليها الآن، وصرخت المحبة! المحبة! لكن رب الصحراء فتح عيني الآن. وأبصرتهم. إنهم لهب يتلظى! وصرخ الرب «لم أعد قادراً على تحمُّلكم. سأهبط!»، وسمع العويل في اورشليم وفي روما، وعويل فوق ذرى الجبال وهي المقابر. كانت الأرض تكي أولادها. وهبطت الملائكة إلى الأرض المحروقة، وراحت تبحث على ضوء مصابيحها للعثور على موقع روما. وموقع اورشليم. وكانت تسحق بين أصابعها الرماد ثم تشمه، وتقول لا بد أن هذه كانت روما، وهذه اورشليم، وترمي بالرماد إلى الريح.

وهتفت أم شابة، وهي تشد وليدها إلى صدرها «أما من خلاص؟ انتي لا أتكلم عن نفسي، بل عن ابني» أجابها يسوع «يوجد خلاص! فعند كل طوفان يوظف الرب سفينة، ويودع فيها خميرة لعالم المستقبل، والمفتاح معي»

وهتف عجوز آخر وفكه الأمطل يرتعش «ومن سيكون الخميرة؟ من الذي ستخلصه؟ وهل لدينا ما يكفي من الوقت؟»

«الكون يمر من أمامي وأنا أختار منه. على أحد الجانبين يوجد المتخمون بالطعام، والشراب، والقبل. وعلى الجانب الآخر

المحرومين، والمضطهدين في العالم. وأنا أختار هؤلاء الأخيرين، المحرومين والمضطهدين. إنهم الحجارة التي سباني بها اورشليم الجديدة.

«نعم، اورشليم الجديدة. أنا نفسي لم أكن أصرفها الى أن أفضى اليّ الرب بالسفر في الصحراء. لا تأتي المحبة الا بعد اللهب. أولاً سيحال هذا العالم الى رماد ومن ثم يزرع الرب كرمه الجديد، لا شيء يضاهي الرماد كمخصّب»

وتردد صدى صوت أجش «لا شيء يضاهي الرماد كمخصّب». كان صوتاً فرحاً أشبه بصوته، غير أنه أعمق وأشد فرحاً. التفت يسوع، ولدهشته رأى وجه يهوذا خلفه، شعر بالخوف، فقد كان وجه ذي اللحية الحمراء يومض كالبرق، وكان اللهب القادم قد سقط عليه للثو.

اندفع يهوذا وقبض على يد يسوع، وهمس له برقة غير متوقعة «يا معلم، يا معلّمى...»

لم يكن قد سبق ليهوذا قط أن كلّم أحداً يمثل تلك البرقة. وشعر بالخجل. ومال عليه متظاهراً بأنه يسأل عن أمر ما. مع أنه لم يكن يدري ماذا يسأله، ثم وجد زهرة شقائق النعمان صغيرة متفتحة قبل الأوان، فانتزعها من جذورها.

في المساء يعد عودة يسوع وجلسه مرة أخرى على مقعده أمام الموقد وتحديثه الى النار، شعر فجأة أن ربه الكامن داخله على عجلة من أمره وأنه لن يسمع له بالانتظار أكثر من ذلك. لقد تغلب عليه الحزن، والسخط والخجل. لقد تحدث من جديد هذا اليوم وأرسل لهبه فوق رؤوس الناس. انتاب الخوف البسيطاء من الصيادين والمزارعين برهة من الزمن، لكنهم سرعان ما تماكوا أنفسهم وهادوا. لقد بدت لهم كل تلك التهديدات أشبه بقصة

خرافية، وغالب العديد منهم النوم فاستسلموا له على العش الدافئ، يهددهم صوته.

أخذ يراقب النار بصمت وكان قلقاً، ووقفت المجدلية في الركن تنظر اليه، كانت ترغب بالتحدث اليه ولكنها لم تجرؤ على ذلك. أحياناً كلام المرأة يسعد الرجل، وأحياناً يثير غضبه، وكانت المجدلية تعرف ذلك فلزمت الصمت.

الدنيا سكون. المنزل يفوح برائحة السمك ونبات اكليل الجبل. النافذة المطلّة على فناء الدار مشرعة. لا بد أن ثمة أشجاراً مثمرة مزهرة في مكان قريب، فارجيها، الطيب اللاذع، متغلغل في نسيم المساء.

نهض يسوع وأغلق النافذة. إن كل هذه الروائح الربيعية العطرة هي من أنفاس الغواية؛ إنها ليست الجو الملائم لروحه. لقد حان الوقت الملائم للانطلاق والبحث عن هواء يناسبه؛ الرب في عجلة عن أمره.

فتح الباب، ودخل يهوذا ونقل عينيه الزرقاوين في أنحاء القرفة. رأى المعلم وعيناه مثبتتان على النار، رأى المجدلية ذات الردين المرتفعين، وزبدى، الفارق في النوم يغط، وتحت المصباح رأى الكاتب يواصل خريشته ويعمل ورقته بالبقع... وهز رأسه. أتكون هذه هي آخر حملاتهم الكبرى؟ أهكذا سينطلقون للسيطرة على العالم؟ واحد مستبصر، وآخر أمين سر، وأسكافي وبنّاع متجول - وكلهم يستريحون في كثرناحوم! وتكّوم في أحد الأركان. وكانت العجوز سالومه قد أعدت المائدة.

جار قائلاً «لست جائعاً. أريد أن أنام»، وأغمض عينيه حتى لا يرى الآخرين الذين سرعان ما جلسوا لتناول طعام العشاء. ثم دخلت فراشة من الباب، تخفق بجناحيها حائمة حول لهب المصباح.

نظمت هكذا برهة من الزمن ومن ثم، رهرفت في شعر يسوع، ثم انطلقت تدور في الغرفة.

قالت العجوز سالومه «سوف يأتينا زائر، وستسر بزيارته»
بارك يسوع الخبز ووزعه، وياشروا الأكل. لم يتكلم أحد وشعر العجوز زيدي، الذي استيقظ لتناول الطعام، بالاختناق من ثقل وطأة الصمت. ولم يعد بمقدوره التحمل أكثر من ذلك.

قال وهو يخبط قبضة يده على المائدة «تكلّموا يا شباب، ما خطبكم؟ أترون أمامكم جثة هامدة؟ ألم تسمعوا القول المأثور: إذا اجتمع ثلاثة أشخاص أو أربعة لتناول الطعام ولم يأتوا على ذكر الرب، كأنهم جالسون على مائدة خائزية. هذا ما أخبرني به حبر الناصرة العجوز ذات مرة - يورك - ولا أزال أحفظه. فاضع يا ابن مريم، أعد الرب إلى منزلي! اعذرني إذا خاطبتك يا ابن مريم، البعض ينادونك يا ابن النجار، وآخرون يا ابن داوود، أو ابن الرب، أو ابن الإنسان، الجميع مضطربون. من الواضح أن العالم لم يتخذ قراره بعد بهذا الشأن»

أجاب يسوع «يا زيدي العجوز، إن حشوداً لا تحصى من الملائكة تحوم حول عرش الرب. أصواتها كخريف ماء صاف فضي وذهبي، تسبح باسم الرب - ولكن عن بُعد، لا يجرؤ أي ملاك على الاقتراب كثيراً، ما عدا واحداً»

سأل زيدي، وهو يجحظ بعينه المترعتين بالخمر «أيها؟»

أجاب يسوع «ملاك الصمت»، ولم يزد.

غص سيد المنزل، فملاكه بالخمر ثم عبه رفعة واحدة.

قال في نفسه، هذا الزائر هو قاتل المسرة دون شك. يشعر المرء وكأنه جالس على مائدة أسد... ما إن خطر بباله هذه الفكرة حتى انتابه الخوف، ونفض واقفاً.

قال، وهو يتجه صوب الباب «أنا ذاهب لأبحث عن العجوز يونان حتى أتبادل معه حديث بشري. ولكن في تلك اللحظة سمع وقع خطي خفيفة في الفناء».

قالت العجوز سالومه وهي تنهض «ها قد وصل زائرنا». التفتوا جميعاً، وإذا بحبر الناصرة يظهر على عتبة الدار.

كم أصبح عجوزاً وكم ذوى لم يبق منه غير حفنة من العظام ملقعة بجلد لفحته أشعة الشمس - بقدر بالكاد يكفي لتجد الروح شيئاً تعلق به حتى لا تفاديه. ففي الفترة الأخيرة لم يكن الحبر يجد سبيلاً إلى النوم، وحين يأتيه النوم أحياناً، عند الفجر، يكون مصحوباً بأحلام غريبة: ملائكة ولهب... وأورشليم تتخذ شكل حيوان جريح يعوي من فوق جبل صهيون. وقبل أيام راوده الحلم ثانية ولم يعد بمقدوره الاحتمال، فقفز وغادر منزله، وسار حتى وصل الحقول، واجتاز سهل يزرعيل حتى واجه جبل الكرمل، موطن الرب، ماثلاً أمامه. لا شك بأن النبي أيليا واقف على قمته، وهو الذي حث خطي الحبر ومنحه القدرة على الارتقاء. حين وصل العجوز إلى قمة الجبل كانت الشمس قد غربت. وكان يعلم أن ثمة ثلاث صنخور عظيمة، قائمة على شكل مذبح فوق القمة المقدسة. وأن حولها عظام وقرون الأضاحي. ولكن بينما هو يقترب رفع عينيه، وشوق: لقد اختفت الصنخور! في مساء ذلك اليوم وقف ثلاثة رجال بأجساد عملاقة فوق القمة، مسرلين بأردية بيضاء كالنلج، ووجوههم يشع منها الضياء. وكان يسوع ابن مريم يتوسطهم. إلى يساره وقف النبي أيليا يقيض في كفه على جمر مشتعل: وإلى يمينه موسى ذو القرنين الملتويين يحمل لوحين عليهما كتابة بأحرف من نار... وسقط الحبر منطرحاً على وجهه. همس وهو يرتجف «أدوتاي! أدوتاي!»، كان يعرف أن أيليا وموسى لم

يموتاً، وأنهما سيظهران من جديد على الأرض في يوم الرب المخيف. إنها إشارة إلى أن نهاية العالم قد حانت. لقد ظهرنا من جديد - وهامنا! - وأخذ الحبر يرتعش من شدة الخوف. ثم رفع عينيه لينظر، فرأى الصخور العملاقة الثلاثة تومض بغطيتها نور الغسق.

منذ سنين عديدة والحبر يفتح الكتاب المقدس، ويستنشق أنفاس يهوه، وتعلم كيف يعثر على الفحوى الخفي الذي يبثه الرب خلف المرثي واللامرثي - بات يفهم الآن، تناول صولجانه عن الأرض - ترى من أين استمد هذا الجسد المتهاك القدرة على فعل ذلك؟ - وانطلق يروم الناصرة، وقانا ومجدلة، وكفرناحوم - وكل مكان - بحثاً عن ابن مريم. كان قد سمع بخبر عودته من الصحراء اليهودية. وهامو الآن بينما يقتفي أثره في كل أنحاء الجليل يرى كيف بدأ المزارعون والصيدون يؤلفون أسطورة النبي الجديد: حول المعجزات التي قام بها، والكلمات التي نطق بها، والصخرة التي اعتلاها ليتكلم من فوقها، وكيف اكتست الصخرة فجأة بالأزهار... واستجوب رجلاً عجوزاً قابله في الطريق، فرفع العجوز يديه نحو السماء وقال «كنت أعمى فمسح على جفني وأعاد إلي البصر. ومع أنه أمرني بأن لا أحدث بهذا الأمر أحداً، إلا أنني أطوف بين القرى وأخبر الجميع به»

«وهل تستطيع أن تخبرني بالمكان الذي يوجد فيه الآن أيها العجوز؟»

«لقد تركته في منزل زبدي، في كفر ناحوم. عجل والحق به قبل أن يرتقي إلى السماء»

حث الحبر خطاه، وأدركه الليل، ووصل إلى منزل العجوز زبدي تحت جنح الظلام. ودخل، وخضت سالومه للترحيب به.

قال الحبر وهو يجتاز عتبة الدار «سالومه، فليحل السلام على هذا المنزل. ولتغدق خيرات إبراهيم واسحق على أصحابه»

ثم التفت فبهره مرأى يسوع.

قال «كم من طير مر من فوقي وحمل إلي نبالك. إن الدرب التي اخترتها، يا ولدي، وعرة ولا نهاية لها. ليصحبك الرب»

أجابه صوت يسوع الرصين «آمين»

وضع العجوز زبدي يده على قلبه ورخَّب بالزائر وسأله «أي ربح حملتك إلي داري يا أبت؟»

لكن الحبر - لعله لم يسمع - جلس بجوار النار دون أن يجيب. كان مرهقاً، ومقروراً، وجائعاً. ولكن لم تكن لديه رغبة بتناول الطعام. كانت تمتد أمامه ثلاثة دروب، ولا يدري أيها يسلك. لماذا غادر منزله وجاء؟ ليكشف ليسوع عن رؤياه. ولكن ماذا لو أن هذه الرؤيا ليست من عند الرب؟ إن الحبر يعلم جيداً أن بإمكان الشيطان المغوي أن يتلبس وجه الرب ليضل البشر. وإذا كشف ليسوع عما رآه، قد يتلبس شيطان العجرفة روحه فيضيع وسيكون عليه هو، الحبر، أن يعطي رداً على ذلك، فهل يكتف سره ويتبعه إلى حيث يذهب؟ ولكن أليبق به هو، حبر الناصرة، أن يتبع أشد الثوريين جرأة، رجلاً يفخر بأنه سيحدث ناموساً جديداً؟ ألم يجد الآن، في طريقه إلى هنا، قانا تسودها الفوضى بسبب شيء قاله يسوع يخالف الناموس؟ ويبدو أنه كان قد ذهب في يوم السبت المقدس إلى الحقول ورأى أحدهم يعمل في تنظيف الحفر وفي ري حديقته. فقال له «أيها الرجل، إن كنت تعرف ماذا تفعل فلتحل عليك السعادة؛ وإذا لم تكن تعرف فلتحل عليك اللعنة؛ لأنك بذلك تثبهك الناموس». وحين سمع الحبر هذا الكلام اضطرب، وقال في نفسه، إن هذا المتمرد خطير. أسرع يا شمعون، والا وجدت نفسك ملعوناً - وأنت بهذا السن؟

اقترب يسوع وجلس بجواره. كان يهوذا مضطجعاً على الأرض، وقد أغمض عينيّه. وكان متى قد لجأ الى مكانه تحت المصباح وجلس ينتظر، والريشة في يده. لكن يسوع لم يتكلم. أخذ يراقب النار وهي تلتهم الخشب ويشعر بالحبر الجالس الى جواره يلهث وكأنه ما يزال يسير على الطريق.

في تلك الأثناء أعتت سالومه العجوز سريراً للحبر! فهو رجل عجوز ويجب اعداد حشية وثيرة ووسادة، ووضعت أيضاً ابريقاً صغيراً من الماء بجوار السرير حتى لا يعطش أثناء الليل وأدرك زبدى العجوز أن الزائر الجديد لم يأت لأجله، فتناول هراوته وانطلق يبحث عن يونان ليستشق من جديد أنفاس كائن بشري - فمئزله مملوء بالأسود، وانسحبت المجدلية وسالومه الى الغرفة الداخلية حتى ينفرد يسوع بالحبر. كان لدهما حدس بأن الرجلين لديهما أسرار كثيرة يتناقشان بشأنها.

لكن يسوع والحبر لم يتبالا الحديث. كان كلاهما يفهم تماماً أن الكلمات لا يمكنها أبداً أن تخفف عما في قلب الانسان وترجعه. الصمت وحده قادر على فعل ذلك، فلزما الصمت.

ومرت الساعات. غلب النعاس متى فنام والريشة ما تزال في يده، وعاد زبدى بعد أن شبع من الكلام واضطجع بجانب زوجته العجوز. انتصف الليل. وشبع الحبر بدوره - من الصمت. نهض. همس «لقد قلنا الكثير هذه الليلة يا يسوع. سنكمل في الغد»، وانسحب الى سريره على ركبتيين متداعيتين.

ارتفعت الشمس وتسلّمت قبة السماء. وانتصف النهار. لكن الحبر لم يكن قد فتح عينيّه. كان يسوع قد ذهب الى شاطئ البحيرة ليتحدث الى الصيادين، واستقل قارب يونان ليساعده في صيده. وجال يهوذا في المكان بلا هدف، وحده، ككلب القطيع.

مالت سالومه على الحبر محاولة أن تسمع إن كان ما يزال يتنفس، فوجدته، ثم غمغمته: «المجد للرب، مازال حياً»، وهمت بالابتعاد فإذا بالحبر العجوز يفتح عينيّه، ورأها منكبة فوقه. فقهق، وابتنم.

قال «لا تخافي يا سالومه، لم أمت، لم تحن ساعتى بعد» أجابته سالومه بلهجة قاسية «كلانا أصبح عجوزاً. إننا نبتعد أكثر فأكثر عن الناس ونقترب من الرب. لا أحد يعرف متى تحين الساعة أو اللحظة. أعتقد أنه من الالتم القول «لم تحن ساعتى بعد» ألح العجوز على القول «بل لم تحن ساعتى بعد، أيتها العزيزة سالومه. لقد وعدني رب اسرائيل بذلك. قال: «يا سمعون، إن تموت الا بعد أن ترى المسيح»»

لكنه حين قال هذا جحظت عيناها من الخوف. أيمكن أن يكون قد شاهد المسيح لتوه؟ أيمكن أن يكون يسوع هو المسيح؟ أيمكن أن تكون رؤيا جبل الكرمل هي رؤيا من الرب؟ إذا كان الأمر كذلك فقد حانت ساعة موته! وتصيب العرق حتى أغرق جسده كله. لم يدر أيبتهج أم يندب. أما روحه فقد ابتهجت هاتفة: المسيح جاء! وأما جسده المتداعي فلم يرغب بالموت. نهض وهو يلهث، وزحف حتى الباب، ثم جلس على العتبة ليتشمس، واستغرق في التفكير.

عاد يسوع قراية الليل، مرهقاً. كان قد أمضى النهار يصطاد السمك مع يونان. وامتلاً القارب حتى فاض بمحتواه من السمك، وهرج يونان أيما هرج. وفتح فمه يبغى الكلام لكنه غير رأيه وأخذ يخوض حتى ركبتيه في كومة السمك المنتفض، وينظر الى يسوع - ويضحك.

في تلك الليلة بالذات عاد المريدون من تجوالهم في القرى المجاورة، وجلسوا القرفصاء حول يسوع وبدأوا يسردون عليه كل ما

راوه وفعلوه. قالوا أنهم أعلنوا اقتراب يوم الرب بأصوات عمقوها حتى يبنوا الرهبة في قلوب المزارعين وصيادي السمك، لكن المستمعين اليهم واصلوا يهدؤ ترميم شياهم أو حرث حداثهم. وكانوا بين الحين والآخر يهزون رؤوسهم، ويقولون «سنرى... سنرى...» ومن ثم يغيرون موضوع الحديث.

وبينما المريدون يحكون هذا، اذا بالرسل الثلاثة يعودون فجأة. ولم يمالك يهوذا، الذي كان منتحياً جانباً، نفسه من الضحك، لدى رؤيتهم.

هتف «ما هذه القوضى التي انتم بها، أيها الرسل. يا مساكين، لا شك بأنهم ضربوكم ضرباً مبرحاً».

وهذا حق. فقد كانت عين بطرس اليمنى متورمة وتترف، وكانت وجنتا يوحنا مملوءتين بالخدوش وملطختين بالدم، وكان يعقوب يمزج.

قال بطرس متهدداً «يا معلم، إن كلمة الرب تجلب الكثير من المتاعب، متاعب كثيرة جداً».

وانخرطوا جميعاً في الضحك، أما يسوع فكان يتأملهم مستكراً.

ثم واصل بطرس، الذي كان متعجلاً يريد أن يكشف الأمر كله ليريح ذهنه، فقال «لقد ضربونا ضرباً مبرحاً. في أول الأمر قلنا أن على كل منا أن يملك طريقاً مختلفة، ثم تولانا الخوف من فكرة أن يبقى كل منا وحده، فاجتمعنا نحن الثلاثة من جديد ورحنا نعتق الناس. فكنت أنا أعطي صخرة أو شجرة قائمة في ساحة القرية، وأصفق بيدي أو أضع أصابعي في فمي وأصفر، فيجتمع الناس. وكان يوحنا يتولى الكلام كلما رأى تجمعاً من النساء. ولهذا ترون وجنتيه مملوءتين بالخدوش، وحين يكون عدد الرجال هو الغالب،

يتولى يعقوب، بصوته العميق، الكلام؛ فاذا ما يح صوته استلم أنا المهمة. فماذا كنا نقول؟ الأشياء نفسها التي تقولها أنت ولكنهم كانوا يتلقونها بالليمون العفن وصيحات الاستنكار لأننا نبشّر، كما قالوا، بخراب العالم. وانقضت علينا النساء بأظافرهن، والرجال يقبضناهم، والآن انظر، فقط انظر الى الحالة التي بنتا عليها» مرة أخرى قهقهه يهوذا، لكن يسوع التفت اليه ورماء بنظرة قاسية أخرجت فمه الوقح.

قال «أعلم أنني أرسلكم بوصفكم حملاناً بين الذئاب. سوف يسبونكم، ويرجمونكم ويجردونكم من الاخلاق لأنكم تشنون حرياً على الفسوق، وسيفترون عليكم، قائلين إنكم تبغون ابطال فكرة الايمان والعائلة، وأرض الأجداد، لأن ايماننا أنقى، وبيتنا أرحب، وأرض أجدادنا هي العالم كله! تحصنوا جيداً أيها الرفاق. قولوا وداعاً للخبز والفرح وللأمان. نحن ذاهبون لنخوض حرباً».

التفت نشايل والقى على فيلبس نظرة قلقة. لكن فيلبس أشار اليه وكأنما ليقول له، لا تخش شيئاً - انه يتكلم هكذا فقط ليختبرنا.

كان الحبر العجوز شديد التعب، وكان قد عاد يضطجع على سريريه، لكن عقله ظل مفتوحاً على آخره: فرأى وسمع كل شيء. وقد توصل الآن الى قرار وهدأت غلواؤه. وعلا صوت من داخله - أصوته هو؟ أم صوت الرب؟ ولعله كلاهما - يأمرة: يا سمعون، اتبعه، حيثما يذهب!

هم بطرس بفتح فمه مرة أخرى. لقد كان لديه ما يريده، لكن يسوع مد يده وقال «يكفي!».

نهض واقفاً. فتمثلت اورشليم أمام ناظرية: متوحشة، مسريلة بالدماء، وفي ذروة ياسها - هناك يبدأ الأمل. وتلاشت كفرناحوم،

بصياديهما البسطاء وفلاحيهما، وغاصت بحيرة جنيسارت مستخفية داخله، وضاق به منزل زبدي - تقاربت الجدران حتى لامسته. شعر بالاختناق، ففتح الباب.

لماذا يمكث هنا، يأكل ويشرب، وتُضرم لأجله النار، وتُعد له المائدة ظهراً ومساءً؟ إنه يبدد الوقت هباءً، أهكذا يخلص العالم؟ ألا يخجل من نفسه؟

خرج إلى الفناء. كانت تهب ريح دافئة تحمل معها أريج الأشجار المتبرعمة. وكانت النجوم عقوداً من اللؤلؤ تحيط بجيد الليل وذراعيه. وفي الأسفل، عند قدميه شعر بالأرض تخزه وخزاً خفيفاً وكان ألف فم يرشعون من أدناهما.

يتم وجهه شطر الجنوب، شطر اورشليم المقدسة. وكأنه كان ينصت بانتباه، ويحاول أن يتبين في الظلام وجهها الحجري القاسي الملطخ بالدماء. وبينما تفكيره، المتقد واليأس، يتدفق كالنهر ماراً بالجبال والسهول ويكاد يلمس في آخر المطاف المدينة المقدسة، خيل إليه فجأة أنه شاهد شبحاً هائلاً يتحرك في الفناء تحت شجرة اللوز المتبرعمة. وللتو برز من قلب الظلام شيء أشد حلقة من الليل (هكذا تبدى له). إنها رقيقة سفره العملاقة. وسمع بوضوح في هدأة من الليل لنفسها العميق، لكنه لم يخف. لقد اعتاد مع مرور الزمن على سماع أنفاسها. انتظر، ثم قال، ببطء، وبهيرة أسرة، ويصوت هادئ خرج من تحت شجرة اللوز «هيا بنا».

عندئذ ظهر يوحنا عند المدخل، مضطرباً. خيل إليه أنه سمع صوتاً في الظلام، فهمس «يا معلم، مع من تتكلم؟»

ولج يسوع المنزل، ومد يده وتناول عصا الراعي من الركن. قال «أيها الأصدقاء، هلموا بنا»، وسار باتجاه الباب دون أن ينظر خلفه ليرى إن كان أحد يتبعه.

قفز الحبر العجوز خارجاً من سريره، وشد عليه حزامه وقبض على صولجانه. قال «أنا أت معك يا ولدي». وكان أول المنطلقين نحو الباب.

كانت العجوز سالومه تغزل. هي أيضاً نهضت واقفة، ووضعت فلكة المغزل على صندوقها وقالت «أنا أيضاً قادمة. إنني أودع لديك المفاتيح يا زبدي. الوداع!». وحلّت المفاتيح عن خصرها وسلمتها لزوجها. ثم تلفعت جيداً بمنديلها، وألقت نظرة شاملة على منزلها وبإيماءة من رأسها ألقت تحية الوداع، وفجأة أصبح قلبها قلب فتاة في العشرين من عمرها.

المجدلية أيضاً نهضت، بصمت وجبور، ونهض المريدون الذين دبت فيهم الحماسة وتبادلوا النظرات.

سأل توما، وهو يعلق بوقه على حزامه «إلى أين نحن ذاهبون؟» قال ثنثايل «أهني مثل هذا الوقت من الليل؟ لم العجلة؟ ألا يصح أن نتطلق في صباح الغد؟» ورمى فيليس بنظرة متجهمة. لكن يسوع كان قد اجتاز الفناء بخطواته الواسعة وبدأ يسير جهة الجنوب.

الفصل الخامس والعشرون

أركان العالم تهتز لأن قلب الإنسان يرتعش، رازحاً تحت وطأة
الحجارة التي يسميها البشر اورشليم، تحت وطأة التنبؤات، وكثرة
الكلام عن العود الثاني، ولعنات الكنيسة، والفريسيين والصدوقيين،
والأغنياء المتخمين، والفقراء الجائعين، تحت وطأة الرب يهوه الذي
تسيل من بين لحيته وشاربه دماء البشر منذ قرون طويلة، وبيتلعها
اللحج، وأينما لمست هذا الرب يعوى، وإذا ألقيت على مسمعه كلمة
طيبة يرفع قبضة يده ويصرخ «أريد لحماً»، وإذا قدمت له خَمَلاً أو
ابنك المولود حديثاً كأضحية يزعم «لا أريد لحماً، لا تمزقوا
ملابسكم بل مزقوا قلوبكم، حولوا لحكمكم إلى روح، وأرواحكم إلى
صلوات، وأنثروها في مهب الريح»

قلب الإنسان رازح تحت وطأة وصايا الناموس العبراني
الستمائة والثلاثين المدونة بالإضافة إلى آلاف غيرها غير مدونة -
الا أنه لم يحرك ساكناً؛ رازح تحت وطأة التكوين، واللاويين،
والعدد، والقضاة، والملوك^(١) - ولم يحرك ساكناً، ثم فجأة، وفي

١- أسماء لأسماء في الكتاب المقدس (التوراة).

لحظة أبعد ما تكون عن التوقع هبت نسمة رقيقة، ليس من السماء، بل من أسفل، من الأرض. فاهتزت حجيرات قلب الإنسان جميعاً. وعلى الفور تداعى القضاة، والملوك، والقبوأت، ولعنات الكنيسة، والفريسيون، والصدوقيون والحجارة التي يسعها البشر اورشليم وتقوضت وأخذت تهتز - أولاً من داخل القلب، ومن ثم في العقل وأخيراً على الأرض نفسها. ومرة أخرى ربط يهود المتعجرف حوله منزرة الجلدي ليمارس براعته الخاصة، ومرة أخرى تناول مسواته ومسطرته وهبط إلى الأرض ووقف جنباً إلى جنب مع البشر ليباشر بنفسه مساعدتهم على القضاء على الماضي وبناء المستقبل. لكنه قبل كل شيء بدأ بتشديد هيكل اليهود في اورشليم.

كان يسوع يذهب في كل يوم ويقف على حجارة الرصيف الملطخة بالدماء، ويتأمل هذا الهيكل المثقل ويشعر وكأن ضربات قلبه تدق لتتقوض أركانه. إلا أنه ظل قائماً، يلعب تحت أشعة الشمس كثور ذي قرنين ذهبيين يتوجها أكليل من الزهور. جذرائه المكسوة حتى السطح بطبقة من الرخام الأبيض تتخلله خطوط زرقاء زرقاء البحر. كان الهيكل يطفو فوق متن محيط مضطرب. وارتفعت أمام ناظره ثلاث طبقات من الغرف، واحدة فوق الأخرى. أسفلها وأفسحها مخصصة للوثنيين، والوسطى لشعب إسرائيل، والعليا مخصصة للاربيين الذين يقبلون المصابيح وينصرفون عنها، ويشعلونها، ويطفئونها، ويتخفون أرجاء الهيكل. وتتحرق سبعة أنواع من البخور نهاراً وليلاً، ويكون الدخان من الكثافة حتى أن الماعز يشم عبقة من مسافة سبعة أميال.

كانت السفينة المتواضعة المودع فيها الناموس، سفينة الأسلاف التي مخر أجدادهم البدو بها الصحراء، قد رست على قمة جبل صهيون هذه، وضربت جذورها، وأنبئت، واكتست بغابات السرو،

وبالذهب والرخام وأضحت هيكلًا. في أول الأمر لم يتنازل رب الصحراء الهمجى بسكنى البيت، لكن أعجابه الشديد بأريج غابة السرو والبخور والعيق المنيعت من الحيوانات المذبوحة حثه ذات يوم فرفع قدمه ودخل.

مرّ حتى الآن شهران على وصول يسوع من كفرناحوم. وفي كل يوم يذهب ويقف أمام الهيكل ويتأمل، وفي كل يوم يبدو وكأنه يراه للمرة الأولى. وكأنه يتوقع كل يوم أن يجده مقوضاً على الأرض حتى يطأه بقدميه من أدناه إلى أقصاه. لم يعد يرضى في رؤيته قائماً أكثر من ذلك، ولا كان يفضاه. لقد تقوضت أركانه في قلبه فعلاً. وذات يوم حين سألته الحبر المعجوز لماذا لا يدخله ويتعبد، هز رأسه وأجاب: «منذ سنين وأنا أدور في فلك الهيكل، والآن جاء دوره ليدور في فلكي»

قال الحبر معترضاً، وهو يشرب بعنفه المعجوز بعيداً عن صدره «هذه كلمات متبجحّة يا يسوع. ألا تخاف؟»

أجاب يسوع «عندما أقول «أنا» فإننا لا أقصد هذا الجسد - الذي هو تراب، ولا أقصد ابن مريم - فهو أيضاً تراب، يتخلله قيس صغير، صغير جداً من النار. إن كلمة «أنا» حين تخرج من فمي أيها الحبر فإنها تعني الرب»

هتف الحبر «إن هذا الكلام تجديف أشد شناعة»، وغطى وجهه.

أجابه يسوع وهو يضعك «أنا مجدّف قديس، فلا تنس هذا» حين رأى ذات يوم مريدته واقفين أمام الصرح المهيب فاغربي الأفواه من فرط الاعجاب، انتابه الغضب. قال لهم ساخراً «أراكم تجدون الهيكل مثيراً لدهشتكم؟ كم سنة استغرق بناؤه يا ترى؟ عشرون عاماً؟ وعشرة آلاف عاملاً؟ أنا سادمره في غضون ثلاثة

أيام. امعنوا النظر فيه - وللمرة الأخيرة، ودُعوه الوداع الأخير. فلن يبقى فيه حجر على حجر إلا وينهار!»

ابتعد المريدون خطوة إلى الوراء من هول ما سمعوا. أيمن أن يكون المعلم قد أصيب بمكره في دماغه؟ لقد أصبح مؤخراً حاد الطباع وغريب الأطوار، وشديد العناد. كأنما كانت تهب عليه ريح غربية، متواترة، تارة يتألق وجهه كالشمس المشرقة ويستضيء كل ما حوله بنوره، وأحياناً تكفر نظرتة، ويملأ اليأس عينيه.

غامر يوحنا بالقول «ألا تأسف عليه يا معلم؟»

«على ماذا؟»

«الهيكل. لماذا تريد أن تهدمه؟»

«لكي أبني آخر جديداً. سوف أبني آخر جديداً في غضون ثلاثة أيام. ولكن يجب أولاً أن نخلي الأرض»

تناول عصا الراعي التي قدمها له فيلبس وضرب بها الطريق. وبدأت رياح الغضب تهب عليه. راح ينظر إلى الفريسيين السائرين بخطى متعثرة يرتطمون بالجدار ويجرحون أنفسهم. وكان واضحاً أن بهاء الرب الضافي يعميهم. وصرخ بهم «أيها المنافقون، لو يشق الرب قلوبكم يسكن لخرجت منها أفاع، وعقارب وقذارة»، وسمعه الفريسيون فتملكهم الهلع، وقرروا سراً أن يسدوا هذا الفم الذي لا يعرف الخوف بالأقدار.

وضع الحجر المعجوز راحة يده على شفتي يسوع ليسكته. وذات يوم سأله، والدموع تترقق في عينيه «أتلاطف الموت؟ ألا تعني أن الكتبة والفريسيين يهرعون دائماً إلى بيلاطس ويطالبونه برأسك؟» أجاب يسوع «أعرف يا أبت، لكنني أعرف ما هو أكثر من ذلك، أكثر بكثير....»

طلب من توما أن ينفخ في البوق، وارتقى منصته المعتادة فوق

شرقة سليمان ومرة أخرى أخذ ينادي «لقد جاء، يوم الرب جاء، وكل يوم من الصباح وحتى الغروب كان يصرخ ليحجر السماوات على أن تتفتح وتكشف حممها - لأن صوت الإنسان، كما يعرف جيداً، يتحلى بسحر طاغ. يكفي أن تصرخ «تعال!» للنار أو للندى، للجحيم أو للفرديوس، فيأتي، وهكذا كان يستنزل الحمم لتظهر الأرض وتمهد الطريق لمقدم المحبة. إن قدمي المحبة دائماً تحيان السير على الرماد...»

سأله أندراوس ذات يوم «يا معلم، لماذا لم نعد نراك تضحك، لماذا لست مرحاً، كما كنت في السابق؟ لماذا تغدو عتيقاً باضطراب؟» لكن يسوع لم يدل بجواب. ماذا يسعه أن يقول، وكيف يمكن لقلب أندراوس الساذج أن يفهم؟ وفكر، يجب تدمير هذا العالم ونزعه من جذوره إذا أردنا إقامة عالم جديد. ويجب تمزيق التاموس القديم، وأنا من سيفعل ذلك. ويجب نقش ناموس جديد على ألواح القلب، وأنا من سيقوم بالنقش. سأجعل التاموس رحيماً يسع الأصدقاء والأعداء، اليهود والوثنيين؛ سوف تنفلق الوصايا العشر وتخرج براعم! لهذا جئت إلى هنا إلى اورشليم. هنا ستشق السماوات، ماذا سيهبط من السماء - أمعجزة عظمى، أم الموت؟ هل يمكن ما يشاؤه الرب. أنا مستعد للعروج إلى السماء أو النزول إلى لجة الجحيم. فقرر يا رب!

اقترب عيد الفصح، وغمرت وجه اليهودية القاسي حلاوة ربيعية غير متوقعة، وفتحت طرق البر والبحر، ووصل المتعبدون من أركان العالم اليهودي الأربعة. وفاحت مدرجات الهيكل التي تضج بأصوات تجار بروائح البشر، والدواب المذبوحة والثروت.

اليوم تجمع عدد غفير من المعدمين والمعاقين خارج شرقة سليمان، يرمقون بوجوههم الشاحبة التي تتم عن شدة الجوع،

ويعيونهم الملتهبة، الصدوقين المتخمين والأثرياء، والمواطنين المرحين
وزوجاتهم المثقلات بالأساور الذهبية، بنظرة حقود.
زَعَق أحدهم قائلاً: «الى متى في اعتقادكم ستظلون تضحكون؟
قريباً سننحر أعناقكم، لقد قال المعلم: سوف يقتل الفقراء الأغنياء
ويتقاسمون ممتلكاتهم»

قال رجل شاحب يعينين وشعر كالخروف، غامزاً: «أنت لم
تسمعه جيداً يا منسى، بل لن يكون هناك فقراء وأغنياء بعد الآن،
سوف يتساوون. هذا هو معنى مملكة السماء»

قاطعه رجل أخرق أشبه بنبتة يقول: «إن مملكة السماء تعني أن
الرومان سيرحلون، فلا يمكن مجيء مملكة السماء بوجود الرومان»
أجاب رجل وقور ذو شفتين كشفتي أرنب، وهو يهز رأسه الأصلع
«أنت لم تفهم أي شيء مما قاله المعلم يا هارون، فلا وجود للإسرائيليين
أو الرومان، أو اليونانيين أو الكلدانيين، أو حتى للبدو، فكلنا أخوة،
وهتف آخر: «كلنا رماد! هذا ما فهمته أنا، سمعت ذلك بأذني».

لقد قال المعلم: «سوف تفتح أبواب السموات، الفيضان الأول كان
من الماء؛ وهذا سيكون من النار، والجسميح - أغنياء وفقراء،
إسرائيليون ورومان - سيصير رماداً»

«سوف تهز شجرة الزيتون، ولكن ستبقى في أعلاها حبتان أو
ثلاث حبات زيتون، وثلاث حبات أو أربع في أعلى الأفتان» هذا ما
قاله النبي أشعيا... فتشجعوا يا رجال، سنكون نحن حبات الزيتون
المتبقية. وكل ما علينا أن نفعله هو أن نلزم المعلم، حتى لا يغيب
عن أنظارنا». هذه الكلمات قالها رجل بشرته بلون قدر متفحم،
وعيناه مستديرتان، جاحظتان تحدقان إلى الطريق البيضاء المقبرة
المؤدية إلى بيت عتيا، ثم دمدم: «لقد تأخر اليوم، تأخر... خذوا
حذركم يا شباب لا تدعوه يغيب عن عيونكم»

سأل ذو الشفة الأرنبية العجوز: «الى أين يمكن أن يذهب؟ لقد
طلب منه الرب أن يقاتل في اورشليم، وما هنا ساحة قتاله»

كانت الشمس تتبوأ كيد المساء، وحجارة الطريق تتبخر؛
واستفحلت الروائح النتنة مع ازدياد شدة القيظ، ظهر يعقوب
الفريسي، وذراعاه مثقلتان بما تحمله من ثنائيم، ينادي معلناً
الفضيلة الخاصة لكل منها: هذه تشفي من الجذري، والمغص،
والحمرة، وهذه تطرد الشياطين، أما أقواها جميعاً وأغلاها فتقتل
أعداءك... ولا حظ وجود الصعاليك، والمعاقين، وتعرّف عليهم.
فقوّق بحسد يشمه المسعوم: «أذهبوا إلى الشياطين!»، ويصق ثلاث
مرات في الهواء ليتخلص منهم.

وبينما الصعاليك يتشاجرون، وكل منهم يحوّر كلمات المعلم على
هواء، مثل أمام الجميع فجأة رجل ضخم الجثة، وقور، يحمل عصا
طويلة ويتصيب عرقاً، معتفر الثياب، ووجهه الواسع الذي لم تتسلل
إليه التجاعيد، يلمع.

هتف العجوز ذو الشفة الأرنبية: «ملكي صادق! ماذا تحمل إلينا
من أخبار طيبة من بيت عتيا؟ ان وجهك يشع بالضياء»

هتف العجوز الجليل: «ابتهجوا وافرحوا أيها الناس»، وكان
طوال الوقت يكيّ ويعانق الناس كلهم، «لقد بُعث أحد الموتى؛ رأيته
بأم عيني. نهض وقام من قبره وسار! ثم أعطوه ماءً فشرّب،
وأعطوه خبزاً فأكله، وتكلم»

«من؟ من الذي بُعث من موته، من الذي قام؟»، هكذا راحوا
يتساءلون جميعاً ويتهاقثون على الرئيس العجوز، وسمعهم
الجالسون في الأزقة المنقطرة المجاورة، فهرع اليهم رجال ونساء،
واقترب أيضاً العديد من اللاويين والفريسيين، وكان باراباس ماراً
بهم والتقطت أذناه الجلية، فانضم إلى الحشد.

فرح ملكي صادق برؤية تلك الأعداد الغفيرة مشدودة الى ما يتوله . فقال على عصاه ويأمر الكلام باعتزاز «إنه اليعازر، ابن الباقيم . هل يعرفه أحد منكم؟ لقد مات قبل أيام قليلة ونحن دفناه . ومن يوم، ويومان، وثلاثة أيام . ونسينا أمره . وفجأة في اليوم الرابع، سمعنا هتافاً في الشارع، فظهرت ورايت يسوع، ابن مريم الناصري، وأختي اليعازر ساجدين تقبلان قدميه، وتقبلان أخيهما . وكانتا تصرخان وهما تولولان طوال الوقت، وتشدان شعرهما «لو كنت معك يا معلم ما كان مات . أعده من مثوى الأموات يا معلم . نادمه فيأتي!» «أمسك يسوع بيديهما وأنفضهما، وقال «هيا بنا»

هرعنا جميعاً خلفهم حتى وصلنا الى قبر . وهناك توقف يسوع، وتصاعد الدم كله الى رأسه، ودارت عيناه ثم غابتا، فلم نعد نرى غير بياضهما . ثم أطلق جواراً رهيباً حتى ظننا أن ثمة ثورة داخله، وتعلكتنا الذعر جميعاً . فجأة، بينما هو كذلك، يرتعش من رأسه الى أخمصيه، صرخ صرخة عنيفة، صرخة غريبة، وكأنها صادرة من العالم الآخر . لا بد أن رؤساء الملائكة يصرخون بتلك الطريقة عندما يفضيرون... ثم هتف «يا اليعازر، هُلم» . وعلى الأثر سمعنا أرض الحدث تهتز وتتصدع . وإذا بشاهد القبر يبدأ بالتحرك! كان هناك من يدفعه الى أعلى ييمناه . وساد الرعب والرجفان... لم أعرف دهري خوفاً من الموت يبلغ مقدار خوفي من ذلك البعث، وأقسم أنني لو خيّرْتُ بين أن أشاهد أسداً أو بعثاً لاخترت مشاهدة الأسد .

وصرخ الناس وهم يكونون «ارحمنا يا رب! ارحمنا يا رب! تكلم . تكلم . تكلم»

«وأخذت النسوة تزحفن، واختبأ العديد من الرجال خلف الصخور، وأما من بقي منا فكان يرتعش . وارتفع الشاهد شيئاً فشيئاً، ثم رأينا ذراعين يعلوهما الشحوب، ومن ثم رأساً يعلوه

الاحضرار، منشقاً وتسريله القذارة، وأخيراً الجسد الشبيه بالهيكل العظمي الملغ بالكفن، أخرج أحدي قدميه، ثم الأخرى، وخرج . كان اليعازر»

سكت الرثيس العجوز ليخفف عرقه بكمه العريض . وكان الناس المحيطون به من كل جانب يولولون . بعضهم يبكي، وآخرون يرقصون .

رفع باراباس يده انغزيرة الشعر، وهتف «أكاذيب! أكاذيب! إنه مغشّ من الرومان وهو الذي لُفّق كل هذا بالتعاون مع اليعازر . فليسقط الخونة!»

صرخ صوت بريري من خلفه «أخرس! عن أي رومان تتكلم؟» التفتوا جميعاً ثم تكسوا للثو . كان روفوس قائد المائة يقترب من باراباس رافعاً سوطه . تشبّث فتاة شاحبة شقراء الشعر، بزرعيه، وكانت طوال الوقت وأفضة تنصت الى ما يقوله ملكي صادق العجوز، والدموع تنهمر غزيرة من عينيها الخضراوين الكبيرتين . تسلل باراباس مندمجاً في الحشد الانساني، ثم اختفى، وهرع خلفه يعقوب القريسي مع تلاميذه، وأدركه خلف أحد الأعمدة . وهناك كمن الاثنان وأخذتا يتحدثان ورأساهما ملتصقان معاً؛ أصبح قاطع الطريق والفريسي أخوين .

بادر باراباس بالكلام . سأل يلق «أتظن أنه صحيح؟» «ماذا؟»

«ما يقولونه عن أنه أعاد الحياة الى جثة»

«اسمع ما سأقوله لك . أنا فريسي، وأنت زيلوت . حتى الآن كنت دائماً أقول أنه لن يخلص اسرائيل الا الصلاة والصوم، والناموس المقدس . أما الآن...»

سأله الزيلوت، وعيناه تومضان «الآن؟»

«الآن، أيها الزيلوت، بدأت أرى الأشياء بمنظاريك. لا يكفي الصلاة والصوم، هنا يجب الاستعانة بالخنجر. اتفهمني؟»
 فقهه ياراباس وسأله «إنساني أنا؟ لا صلاة أفضل من نصل الخنجر. ماذا بعد؟»
 «فلنبدأ به»
 «بمن ؟ أوضح»

«بأليعازر. من الأهمية بمكان أن ننزله مرة أخرى إلى بطن الأرض. فمادام الناس يرونه أمامهم سيقولون «لقد مات وأعاده ابن مريم إلى الحياة». وهكذا سيداع صيت النبي الزائف... أنت محق يا ياراباس، إنه المفوض من قبل الرومان ليهتف ويقول «لا تهتموا بملكمة الأرض، وضعوا السماء نصب عيونكم». وهكذا - بينما نحن نضيع وقتنا في البحث عن المفتاح يجهّم الرومان على أعناقنا. اتفهم؟»
 «ماذا تعني؟ أتريد منا أن نقتله أيضاً، وهو أخوك؟»
 صرخ الفريسي، متظاهراً بأنه يمزق ثيابه «إنه ليس أخي، لا أريد أن تكون لي أي صلة به! إنه لكم!»

بعد أن قال هذا ابتعد عن العمود وياشر من جديد المناداة على طلاسمة. وخرج لأن خدعته انطلت تماماً على ياراباس.
 يش حشد الفقراء المتجمع خارج شرفة سليمان من وصول يسوع، وبدأوا يتفرقون، ابتاع المعجوز ملكي صادق حمامتين بيضاوين ليقدّمهما كأضحية شكر لرب إسرائيل لمسيحه ورحمته أخيراً على الشعب وأرساله لهم، بعد سنين كثيرة من الانتظار، نبياً جديداً.
 كانت الحجارة تنطلق في الحر، وتلاشت وجوه الناس وسط الضياء المبهر، وفجأة ارتفعت محابة من الغبار على الطريق القادمة من بيت عنيا وسمعت هتافات فرح: لقد أغلق أهل القرية برمتهم محلاتهم وهام قادمون. ظهر أولاً الأطفال حاملين سعف

النخيل وأكاليل الغار، وخلف سعف النخيل ظهر يسوع، بوجه مشرق؛ وبعده كان المريدون، بوجوه متوردة تتصبب عرقاً وكان كل واحد منهم يعث ميتاً من قبره؛ وآخر الجميع جاء أهل بيت عنيا، وقد بحثت أصواتهم تماماً من عزم الهتاف. وكانوا جميعاً مندفعين نحو الهيكل. ارتقى يسوع الدرج مشى، وقطع المدرج الأول ووصل إلى الثاني، شغ وجهه وبداه بضياء وحشي حتى لم يكن أحد يحتمل الاقتراب منه. وحاول الحبر العجوز الذي هرب خلفه لاهث الأنفاس، ليرهة من الوقت أن يخترق الفراغ غير المرئي المحيط بالمعلم، لكنه سرعان ما أحجم وكانما لسعته أسنة من اللهب.

كان يسوع قد خرج لثوه من أتون الرب وكان دمه مايزال يغلي بعنف. وهو لا يكاد يصدق، ولا يريد أن يصدق: أيمن أن تشمت الروح بهذه القوة؟ أيمن أن تأسر الجبال بالتحرك، فتتحرك؟ مستحيل! أيمن أن تشق قلب الأرض وتخرج منها الموتى، وتدمر العالم في غضون ثلاثة أيام وتعيد بناءه في غضون ثلاثة أيام؟ ولكن إذا كانت الروح بهذه القوة الفائقة، فإن عبء الهلاك الأبدى أو الخلاص يقع على عاتق الإنسانية، وتمحي الحدود بين الرب والانسان... يا لها من فكرة مرعبة وخطيرة. وأخذ صدغاً يسوع يقرعان كما الطبول.

كان قد ترك أليعازر واقفاً وهو مايزال في كفنه فوق قبره، وانطلق بسرعة فائقة يبغي الهيكل في أورشليم. وكانت تلك المرة الأولى التي يتيقن فيها دون أدنى شك بأنه يجب إقناء هذا العالم وأن على أورشليم جديدة أن تنهض من بين الموتى. وهالقد حانت اللحظة المناسبة. وهاهي ذي الإشارة التي طالما انتظرها. العالم الذي قد ولا أمل فيه هو أليعازر. وقد جاء الوقت المناسب ليصرخ «أيها العالم انهض!»، لقد كان يحمل التزاماً على عاتقه، والشيء

الأكثر إثارة للرب، كما أصبح يدرك الآن، أنه يتمتع بالقوة اللازمة لذلك. ثم بعد بوسعه أن يتهرب فيقول، أنا غير قادر! أنه قادر، وإذا لم ينل العالم خلاصه، فالذنوب كل الذنوب يجب أن يقع عليه.

ارتفع الدم إلى رأسه، وكان أينما نظر يقابله تحديد المضطهدين من الصعاليك، المعلقة آمالهم كلها عليه. وأطلق صرخة قوية ثم قفز معتلياً أحد المنابر فتجمهر الناس من حوله، والأغنياء أيضاً المتخمون توقفوا وهم يتكفون الابتسام لينصتوا إليه. فالتفت يسوع ورأهم، ورفع قبضة يده في وجوهم.

قال «اسمعوا، أيها الأغنياء، اسمعوا، يا سادة هذا العالم. لن يكون هناك ظلم، أو فسق، أو جوع يعد الآن! الرب ذلك شفتي بجمر ملتهب، وها أنا أصرخ بكم إلى متى ستظلون تضطجعون على أسرة من عاج وحشاي وثيرة؟ إلى متى ستظلون تهشون لحم الفقراء، وترشون عرقهم ودمائهم ودموعهم؟ إن ربي يصرخ «لم أعد أحتمل»، النار تقترب، والموتى يُبعثون، وحانت نهاية العالم!»
رفعه رجلان ضخما الجثة من الصعاليك فوق رأسيهما، وتجمهر الدماء من حوله، ملوِّحين بالسعف. وتساعد البخار من رأس النبي الملتهب.

قال «جئت لا لأجلب السلام إلى العالم، بل السيف. سابت الشقاق في البيوت. سيرفع الابن يده ليضرب بها والده، وترفع الابنة يدها في وجه أمها، وكذا الكتبة في وجه حماةها - أكراماً لي. إن من يتبعني عليه أن يتخلي عن كل شيء. إن من يسعى لانشاد حياته على هذه الأرض، سيفقدها، ومن يفقد حياته الثانية أكراماً لي سيفوز بحياة أبدية»

ثم صرخ صوت وحشي «ماذا يقول الناموس، أيها المتمرد؟ ماذا يقول الكتاب المقدس، يا شيطان؟»

أجابه يسوع، وعيناه تبرقان «ماذا يقول النبيان العظيمان أرميا وحزقيا؟ سوف ألقي الناموس المنقوش على ألواح موسى وأنقش ناموساً جديداً في قلب الإنسان. سأزيل القلب الحجري الذي يحمله البشر بين أضلاعهم وأهبهم قلباً من لحم؛ وفي هذا القلب سأزرع أملاً جديداً أنا من سينقش الناموس الجديد في القلوب الجديدة. وأنا أيضاً سأهب الأمل الجديد! وأنا سأنشر المحبة، انني أفتح بوابات الرب الأربعة العظيمة، الشرق، والغرب، والشمال، والجنوب، لتدخل منها الأمم كافة، إن حضن الرب ليس مخصصاً فقط لليهود، بل ليحضن به العالم كله! الرب ليس إسرائيلياً، إنه روح مقدسة سرمدية!»

غطى الحبر العجوز وجهه بيديه. ودّ لو يهتف، أصمت يا يسوع، إن هذا كفر عظيم! لكن الألوان كان قد فاتت، وانطلقت هتافات الفرح، وصاح الفقراء ابتهاجاً؛ وأطلق اللاويون صيحات الاستكثار، ومزق يعقوب الفريسي ثيابه ونبصق في الهواء. واستسلم الحبر العجوز يأساً، وغادر المكان وهو يبكي، وتمتم وهو يسير «لقد انتهت، انتهى! أي شيطان، أي رب يصرخ من داخله؟»

وأصل سيره وقد هدأ التعب حتى أنه كان يعط قدميه خطأ، فبعد كل هذه الأيام والأسابيع التي أمضاها يهرع خلف يسوع، مجاهداً كي يفهم كنهه، ذوى جسمه المهالك تماماً. بل لم يتبق منه الآن غير جلد مسفوع بأشعة الشمس يلف عظامه تتشيب به الروح وتنتظر. سيكون هذا الرجل هو المسيح الذي وعده به الرب أم لا؟ إن كل المعجزات التي قام بها يمكن أيضاً أن يقوم بها الشيطان، الذي بمقدوره أن يبعث الموتى، لذا فالحبر لم يعتبر أن المعجزات تشكل أساساً سليماً لاصدار حكم، ولا النبوءات - الشيطان ملاك وتيس ماهر وشديد البأس ومن أجل أن يخدع البشر بإمكانه أن يجعل

كلماته وأفعاله تتطابق مع النبوءات المقدسة تطابقاً كاملاً. ولهذا كان الحبر يبقى طوال الليل أرقاً يتضرع الى الرب كي يرفق به ويريه إشارة واضحة... أية إشارة؟ كان الحبر يعرف بدقة ماهي : انها الموت، موته هو، وحين تمثل هذه الإشارة في ذهنه أصابته الرجفة. واصل سيره المضطرب وسط سحابة من الغبار، ثم ظهرت بيت عنيا فوق قمة التل للعيان، مستسلمة بكاملها لأشعة الشمس. وياشر الصعود وهو يلهث بشدة.

باب بيت اليعازر مفتوح، وأهل القرية يهرعون داخلين خارجين لمشاهدوا الرجل العائد الى الحياة ويلمسوه، لينصتوا بكل انتباه الى أنفاسه. ليتأكدوا من أنه يستطيع أن يتكلم ومن أنه حي حقاً أو إن كان ربما شبحاً! وكان اليعازر جالساً، تعباً، متكئاً، في الركن الأشد ظلمة من بيته، لأن التور كان يزعجه. وكانت ساقاه وذراعاها وبطنه متورمة وخضراء اللون، مثل جثة ميتة مضى عليها أربعة أيام. وكان وجهه المنتفخ مشققاً كله ويتجلب سائلاً أبيض مائلاً للصفار لوث الكفن الأبيض الذي مازال يلتف به : كان ملتصقاً بجسمه ويتعسر نزعه. في البداية كان يفوح برائحة فظيعة، وكان علي كل من يشرب منه أن يسد أنفه، لكن الرائحة الكريهة أخذت تخف شيئاً فشيئاً، الى أن أصبح الآن لا يشتم منه الا رائحة التراب والبخور. وكان بين النقية والأخرى يحرك يده ويترع العشب المشبك بشعره ولحيته. وكانت أختاه مرتا ومريم تنظفانه من التراب ومن دود الأرض العالق به، وأحضرن له جاز ودود دجاجة، والعجوز سالومه الجالسة القرفصاء بالقرب من موقد النار، تطبخها في الوقت الحالي حتى يشرب العائد الى الحياة المرق ويستعيد قواه. وأنى الفلاحون ولم يمتكنوا الا هنيئات ليتفحصوه عن قرب ويتكلموا معه. وأجاب عن أسئلتهم بضجر بكلمة نعم أو لا مقتضبة، ثم جاء آخرون

من القرية أو من البلدان المجاورة. واليوم جاء أيضاً شيخ القرية الضرير، ومد يده وراح يتحسسه بشرة. ثم سألته ضاحكاً «هل أمضيت وقتاً ممتعاً في الجحيم؟ أنت محظوظ يا اليعازر: الآن بت تعرف كل أسرار العالم السفلي». ولكن اياك أن تكشف عنها أيها الياثس، والا أصيب الجميع بالجنون». ثم مال على أذنه وقال بين الهزل والخوف «وجدت ديدان، هه؟ لاشي» غير الديدان أليس كذلك؟». وانتظر فترة طويلة، لكن اليعازر لم يدل بجواب. استشاط الضرير من الغضب فأمسك بعصاه وغادر.

وقفت المجدلية في ممر الباب وراحت تحقق على طول الطريق المؤدية الى اورشليم. كان قلبها يصرخ كطفل صغير. في كل ليلة كانت ترى كواييس : رأت يسوع يتزوج، وتفسيره الموت. فقبل ذلك خيل اليها أنه تراءى لها على شكل سمكة طائرة فتحت زعانفها، ثم قفزت خارجة من الماء وسقطت على اليابسة. وأخذت تتنفض بحركات مثنجة على حصياء الشاطئ، وهي تكافح عبثاً لتفتح زعانفها مرة أخرى. وبدأت عنانها تقريان من الاختناق. فالتفت نحوها، وقامت بجهد مهلك لتمسك بها وتعيدها الى المحيط. الا أنها حين انحنت وأمسكت بها بيدها كانت قد ماتت، لكنها طوال فترة حملها لها وهي تتوح عليها وتفسلها بدموعها كانت تنمو، وامتلاً بها حضنها وأضحت رجلاً ميتاً.

تمتعت «لن أدعه يعود الى اورشليم... لن أدعه...». وأطلقت تهيدة وحدثت في امتداد الدرب الأبيض علّه يظهر.

لكن الذي ظهر على الدرب قادماً من اورشليم لم يكن يسوع، وبدلاً عنه شاهدت المجدلية والدها العجوز، متهاكاً ويرتجف. قالت لنفسها، يا للعجوز الذواي المسكين. لماذا يريد وهو في هذه الحالة المزرية أن يتبع معلماً أينما توجه، ككلب عجوز مخلص؟

انني اسمعه وهو يقوم أثناء الليل ويخرج الى القناء، ويسجد ويكي
ويتضرع الى الرب قائلاً «انقذني اعطني اشارة»، لكن الرب يتركه
يتعذب، ويبدو انه يعاقبه لأنه يحبه : بهذه الطريقة يتعزى الرجل
المسكين.

والآن أخذت تراقبه وهو يرتقي، متكئاً على عصاه، وكثيراً ما كان
يتوقف، وينظر خلفه جهة اورشليم ويفتح ذراعيه وأسمعاً ليلتقط
أنفاسه... وطوال تلك الأيام اجتمع هذا الوالد وتلك الابنة في بيت
عتيا ونسيا ما حدث في الماضي وعادا يتبادلان الحديث، وسامح
الحبر ابنته بعد أن وجد انها قد تغفلت عن سبيل الشر، كان يعرف أن
الآثام كلها تغسل بالدموع، وكانت المجدلية قد بكت بكاءً سخياً.
وصل العجوز مقطوع الأنفاس، فتتحت المجدلية ليمر من
الباب، لكنه توقف وأمسك بيدها وقال يناشدها «مجدلية يا ابنتي،
أنت امرأة: في دموعك ولمساتك الرقيقة قوة عظيمة، خيري على
قدميه، توسلي اليه أن يعود الى اورشليم. لقد أصبح الكتبة
والفريسيون اليوم أشد ضراوة. أنا رأيتهم يتحدثون سرراً قيعا
بينهم، والسُّم يقطر من أفواههم. انهم يخططون لاغتiale.
هفتت المجدلية «اغتياله»، وأحسَّت قلبها ينسحق، ولكن
أبمرت، يا أبت؟»

نظر الحبر العجوز الى ابنته وابتسم بمرارة، ثم غمغم «هذا
ما نقوله دائماً عنَّ نحبهم»، وصمت.
قالت المجدلية ببيرة يائسة «لكن المعلم ليس رجلاً كبقية
الرجال، لا، ليس مثلهم! ليس مثلهم! ليس مثلهم!»، كررتها مراراً
لكي تبعد عنها المخاوف.
سألها العجوز «وكيف لك أن تعرفي؟»، وطفر قلبه من بين
اضلعه، لأنه كان يؤمن بأحاسيس النساء المسبقة.

أجابت المجدلية «أنا أعرف، ولا تسألني كيف. أنا متأكدة من
ذلك، لا تخف يا أبت، من سيجرؤ على لمسه الآن بعد أن يبعث اليعازر
من الموت؟»

«الآن بعد أن يبعث اليعازر من الموت أصبحوا أكثر شراسة من ذي
قبل. في السابق كانوا ينصتوا الى وعظه ويهزؤون أكتافهم. أما الآن
ويعد أن عُرِفَت المعجزة على الملأ، أصبح الناس يجدون الشجاعة
ليهتفوا «انه المسيح، لقد أعاد الحياة الى الميت، انه يستمد قوته من
الرب. هيا بنا ننضم اليه». أصبح الرجال والنساء يحملون سعف
النخيل ويهرعون خلفه، ويحمل المقعدون عكازاتهم ويرفعونها مهددين،
وجمع الفقراء، ورأى الكتبة والفريسيون كل هذا واستشاطوا من
الغضب الهستيرى، وقالوا «إذا تركناه يتمادي أكثر من ذلك فسيفضي
علينا»، فذهبوا الى حنَّان، ومن حنَّان الى قيافا، ومن قيافا الى بيلاطس
دون توقف، وخططوا لقتله. مجدلية يا ابنتي، نشيشي بركيتيه، لا
تدعيه قط يدخل اورشليم ثانية. يجب أن نعود جميعاً الى الجليل»
وتذكر وجهاً كثيباً، مجدوراً. فقال «وأنا في طريقي الى هنا يا
مجدلية رأيت باراباس يحوم في المكان، وجهه متجه كوجه شارون.
وحين سمع وقع خطاي اختبأ بين الدغل، وهذه دلالة شؤم»
تراخى جسمه الضعيف، فاحتوته ابنته بين ذراعيها وأدخلته.
ثم أحضرت مقعداً بلا ظهر وأجلسته، وركعت الى جانبه.

سألته «أين هو الآن؟ أين تركته يا أبت؟»
«في الهيكل، كان يصرخ والشرر يتطاير من عينيه متوعداً بأنه
سيحضر النار فيه! ويا للكلمات التي تقوه بها- رحماك يا رب على
الكفر الذي قاله! لقد قال انه سوف يلقي ناموس موسى ويضع
ناموساً جديداً، إنه لا يريد أن يذهب لمقابلة الرب فوق قمة جبل
سيناء، وسيقابله داخل قلبه».

أخفض المجوز صوته وهو يقول مرتعداً «أحياناً يا ابنتي أخاف أن أفقد عقلي، أو ربما كان سيد الشياطين -»
قالت المجذلية بنبرة امرأة «سمتاً»، ووضعت كلتا يديها على شفتي المجوز.
كانا مايزالان يتحدثان حين ظهر المريدون، واحداً إثر آخر، على عتبة الباب. انفضت المجذلية واقفة وبحث فلم تجد يسوع بينهم.

سألت بصوت يفتت الأكباد «المعلم، أين المعلم؟»
أجابها بطرس متجهماً «لا تخافي، قادم في الحال»
انفضت مريم بدورها من مكانها تاركة أخاها، واقتربت بقلق من المريدن الذين كانت وجوههم مكشوفة مضطربة، وعيونهم باهتة. وانكأت على الجدار.

تمتمت بوهن «المعلم؟»
أجابها يوحنا «انه قادم في الحال يا مريم، قادم. لو كان حدث له أي خطب، هل كنا تركناه؟»

توزع المريدون العائسون في أرجاء المنزل، متباعدين، تخرج متى أوراقه من تحت قميصه ونهياً للكتابة.
قال الحبر المجوز «أفصح يا متى، قل شيئاً، ولك مباركتي»
أجاب متى «يا أبت، الآن وقيل عودتنا معاً، باغتتا روفوس قائد المائة عند بوابة أورشليم وصرخ بنا «توقفوا» لدي أوامر أمليها عليكم». فشلتنا الخوف. لكن المعلم مد يده بكل هدوء للروماني وقال له «اهلاً بك أيها الصديق. ماذا تريد مني؟»
أجاب روفوس «لست أنا من يريد بل بيلاطس، تعال معي من فضلك»

«قال يسوع يهدوء «ها أنا قادم»، وأخذ يسير باتجاه أورشليم.

لكننا جميعاً انقضضنا عليه صارخين «إلى أين أنت ذاهب يا معلم، لن ندعك تذهب»

«وقفت قائد المائة حائلاً بيننا، فقال «لا تخشوا شيئاً، أعدكم بأنه سيكون بخيراً»

فقال لنا المعلم أمراً «أذهبوا، ولا تخافوا. ان الساعة لم تحن بعد»
«لكن يهوذا قاضله قائلاً «أنا سأأتي معك يا معلم، لن أتركك»
«قال المعلم «تعال، وأنا أيضاً لن أتركك». وانطلقوا يرومون أورشليم، الاثنان في المقدمة ويهوذا يسير خلفهما ككلب حراسة القطيع»

بينما كان متى يتكلم، اقترب المريدون، دون أن يتكلم أي منهم، وركعوا على الأرض.

قال الحبر «وجوهكم مضطربة. انتم تخفون أمراً عنا»
قال بطرس متلعثماً «لدينا أمور أخرى تقلقنا يا أبت، أمور أخرى...» ثم عاد إلى صمته من جديد.

والحق أنهم للتو، وهم في طريقهم، تلبسهم شياطين شريرة. لقد بدأ قيام الموتى. بات واضعاً أن يوم الرب قد اقترب، وسوف يشريع المعلم على عرشه. لذا فقد حان الوقت ليوزعوا الغنائم، وعندئذ، عند توزيع الغنائم، بدأ المريدون بالتشاجر.

قال أحدهم «أنا سأجلس إلى يمينه، هأنا الأثير لديه»
«هتدافعوا جميعاً وهتقوا، لا، بل أنا أنا»

«أنا»

«أنا»

قال انداروس «كنت أنا أول من ناداه بمعلم»
اعترض بطرس قائلاً «كان يزورني في أحلامي أكثر من أي منكم»

قال يوحنا «انه يخاطبني بـ «أيها الحبيب»
«وانا أيضاً»
«وانا»

بدأ دم بطرس يغلي، فصرخ «ابتعدوا - كلكم! ألم يقل لي قبل
مدة «أنت الصخرة يا بطرس، وعليك سأبني أورشليم الجديدة؟»
أعلن متى «انه لم يقل «أورشليم الجديدة» كلماته مدونة هنا»
وريت على الدهش القابع تحت قميصه .
قال بطرس بغضب «ماذا قال لي إذن، أيها المخريش؟ أنا أذكر
عما سمعته!»

«لقد قال «أنت بطرس، وعلى هذه الصخرة سأبني كنيسة»
قال «كنيسة» وليس «أورشليم» - ثمة فرق شاسع»
صرخ بطرس «بماذا وعدني أيضاً؟ لماذا توقفت؟ لن يكون من
صالحك أن تتابع، هه؟ وماذا عن المفاتيح؟ حسن، تكلم!»
تداول متى دفتره، دون أن يتقابه الكثير من الغضب، وفتحته، ثم
قرأ : «وسأعطيك مفاتيح مملكة السماء»
هتف بطرس بانتصار «تابع! تابع!»
ابتلع متى لعابه وانكب من جديد على دفتره «وكل ماتريظة في
الأرض سيُربط لك في السماء» وكل ماتعقده على الأرض ستعقده
في السماء... هالك - هذا كل شيء»

«وهل تراه أمراً يستهان به؟ إن المفاتيح - واسمعوا كلكم - هي
بحوذتي ! إنني أنا من يفتح أبواب الجنة ويفلقها . ان شئت أدخلكم،
وان لم أشأ لا أفعل»
هنا ماج المريدون بالغضب وكانوا حتماً سيتبادلون الضربات لو
لم يكونوا قد اقتربوا من بيت عنيا، واخلجوا من أنفسهم أمام أهل
القرية، فكظموها غيظهم. الا أن وجوههم ظلت مكفهرة.

الفصل السادس والعشرون

في تلك الأثناء سار يسوع مع قائد المائة، متبوعاً بيهودا، كلب
الحراسة، توغلوا في أزقة أورشليم الملتوية الضيقة وتقدموا باتجاه
الهيكل يبعثون البرج الذي يؤلف قصر بيلاطس البنطي.
بادر قائد المئة بالكلام فقال بانفعال عاطفي «يا معلم، ان ابنتي
هي أحسن حال وتذكرك دائماً، وكلما علمت أنك تخطب في الناس
تترك المنزل سراً وتهرع لتنصت الى كلامك، واليوم كنا معاً ننصت
اليك وأنت في الهيكل، وقد قبضت بقوة على يدها لأنها أرادت أن
تكلم على قدميك لتقبلنهما»

سأله يسوع «ولماذا لم تسمح لها؟ إن لحظة واحدة كافية لانقاذ
روح انسان، لماذا ضيَّعت عليها تلك اللحظة؟»
فتاة رومانية تقبل قديمي يهودي! هذا ماخطر بفكر روفوس مع
إحساس بالعار، لكنه لم يتكلم .

أجبر بسوط قصير يحمله بيده الحشد الضاح على إفساح
الطريق له، وكان الجو شديد الحرارة حتى ليكاد المرء يغمى عليه،
وحامت سحب من الذباب. وشعر قائد المائة بالتقزز حين تنفس

الجو اليهودي، لقد مكث في فلسطين سنين عديدة، ومع ذلك لم يعتد على العيش بين اليهود... هم الآن يعمرون من ساحة السوق العامة المغطاة بالقش، الجو هنا أكثر برودة، فأبطأوا خطاهم. سأل قائد المائة «كيف يمكنك أن تخاطب هذا الحشد من الكلاب؟»

احتقن وجه يسوع وقال «انهم ليمسوا كلاباً، بل أرواح تشع يقبس من الرب. نار تتلظى، يا قائد المائة، وكل روح هي قيس جدير بأن يحظى باحترامك»

أجاب روفوس «أنا روماني، وربي روماني، يشق الطرقات، وينسي التكنات، ويجلب المياه إلى المدن، ويرتدي الرداء البيروني ويذهب إلى الحرب. هو يقودنا ونحن نتبعه. أما الجسد والروح اللذان تتحدث عنهما فهما شيء واحد بالنسبة لنا، موسوم بختم روما. وحين تموت تموت الروح والجسد معاً. لكن أولادنا يبقون. وهذا مانعني بالخلود. أنا أسف، ولكن ماتتله حول معالك السماء يبدو لنا من قبيل الخرافة»

وبعد فترة صمت، تابع قائلاً «نحن الرومان خلقنا لنحكم الناس، والناس لا يحكمون بالمحبة»

قال يسوع وهو يحدق إلى عيني قائد المائة الزرقاوين بنظرتيهما الباردة، وإلى خدييه المحلوقين حديثاً وإلى يديه السمينتين القصيرتي الأصابع. «المحبة ليست عزلاً.. المحبة أيضاً تشن الحرب وهي سريعة الانقضاء»

قال قائد المائة «أذن، فهي ليست محبة»
أطرق يسوع برأسه، وقال لنفسه، يجب أن أعثر على زقاق (١)

١- زقاق، جمع زق: وعاء من جلد الحيوان لاحتواء الخمر.

جديدة إذا أردت أن أصب خمرأً جديداً. زقاق جديدة، كلمات جديدة...

وأخيراً وصلوا. فقد ارتفع أمامهم شامخاً البرج، الذي هو حصن وقصر معاً، يحمي خلف جدرانه الحاكم الروماني المنتعطر، بيلاطس البنطي. كان يمقت العرق اليهودي ويسد أنفه بمنديل مضنخ بالعطركلما سار في أزقة أورشليم أو اضطرر للتحديث مع بعض العبرانيين. ولم يكن يؤمن بالآلهة أو بالناس - ولا ببيلاطس البنطي، ولا بأي شيء. وكنت ترى دائماً سلسلة دقيقة من الذهب تتدلى من رقبته معلق بها موسى حادة، يحتفظ بها ليقطع بها عروقه حين يسام من كثرة الأكل والشرب وممارسة الحكم، أو حين ينقيه الامبراطور. كان كثيراً ما يسمع اليهود يهتفون من أعماقهم منادين على المسيح كي يأتي ويحررهم - فيضحك منهم، ويشير إلى الموسى الحادة ويقول لزوجته «انظري، هذا هو مسيحي، محرري». لكن زوجته كانت تشيح بوجهها عنه دون أن تدلي بجواب.

توقف يسوع خارج بوابة البرج العظيمة، وقال «يا قائد المائة، أنت مدين لي بمعروف. أتذكرك وقد حان الوقت لكي أطلب منك رده لي»

«يا يسوع الناصري، انني أدين لك بكل ما في حياتي من فرح، تكلم، وسأعمل ما بوسعني»

«إذا ألقوا القبض عليّ، إذا زجوا بي في السجن، إذا قتلوتي - فلا تفعل أي شيء. لا تقاذي. أتعذري؟»

كانوا يعبرون بوابات البرج، فرغ الحرس أيديهم تحية لقائد المائة.

قال روفوس مذهولاً «هل ماتطلب مني يعتبر معروفاً؟ انني لا أفهمكم يا معشر اليهود»

كان هناك اثنان من الحرس الزوج يحرسان باب بيلاطس.

قال يسوع «نعم، هو معروف، يا قائد المائة. أتعدني؟»

أوما روقوس للزنجيين كي يفتح الباب.

كان بيلاطس متريفاً على عرش مرتفع مزين بنقش لثنتين من ضخمين. رفع رأسه، التضرع، الحليق الذفن، المنقوش الجبين، القاسمي العينين الرماديتين، وذا الششتين الرقيقتين كحد السيف، لينظر الى يسوع المائل أمامه.

قال كعن يهوس، يبغى مضايقتة، وهو يضع المنديل المضمخ بالعطر على أنفه «أأنت يسوع الناصري، ملك اليهود؟»

أجابه يسوع «لست بملك»

«ماذا؟ أأنت المسيح، اليس المسيح هو من ينتظره مواطنوك أتباع ابراهيم منذ أجيال طويلة جداً. ينتظرونه ليحررهم، ليترفع على عرش اسرائيل ويطردها نحن الرومان؟ فلم أذن تقول أنك لست ملكاً؟» «ملكتي ليست على الأرض»

سأله بيلاطس، وهو ينفجر ضاحكاً «أين إذن؟ أهني الماء، أم في الهواء؟»

أجاب يسوع يهدوء «هي السماء»

قال بيلاطس «رائع، اعتبر السماء هدية مني لك، ولكن لا تلمس الأرض»

خلع الخاتم الضخم الذي يضعه في ابهامه، ورفع عاليه في وجه النور وراح يتأمل لون الحجر الكريم الأحمر. كان محفوراً عليه جمجمة مكتوب حولها «كل واشرب، وامرح، لأنك ستموت غداً».

قال «أنا أجد اليهود مثيرين للتشزز، فهم لا يفتسلون قط، ويتصورون الرب على صورتهم: طويل الشعر، قدراً، جشعاً، متبجحاً وحقوداً كجمل»

قال يسوع، أيضاً يهدوء «أعلم أن الرب قد سدّد لتوه قبضته

الى روما»

أجابه بيلاطس وهو يتأثب «روما خالدة»

«روما صنم هائل الحجم، تمثّل للنبى دانيال في رؤاه»

«صنم؟ أي صنم؟ إن ما تتوقون اليه يا معشر اليهود وأنتم صاحون ترونه في مناسكم، تعيشون وتموتون في الرؤى»

«هكذا يبدأ الانسان حملته - بالرؤى. وشيئاً فشيئاً يتكثف الطيف ويصلب، وتكتسي الروح لحماً ثم تهبط الى الأرض. لقد رأى النبي دانيال رؤاه، ولهذا بُدّ الأمر استلبس الروح لحماً، ستهبط الى الأرض، لتدمر روما»

«يا يسوع الناصري، أنا معجب بجراتك أم هل أقول بلاهتك؟ يبدو أنك لا تخشى الموت، ولهذا أراك تتكلم بكل حرية ... انني معجب بك، حسن، أحك لي عن رؤيا دانيال»

«تراءى للنبي دانيال ذات ليلة صنم هائل الحجم، رأسه من ذهب، وذدياء وذراعا من فضة، وبطنه وفخذه من البرونز، وقصبتها ساقيه من الحديد، أما قدماء، من أخمصيهما، فمن القضار. وفجأة اذ بيد خفية تقذف بحجر على القدمين الترابيين وتقتسمهما، وعلى السور تقوُض الصنم كله الذهب، والفضة، والبرونز، والحديد. وانهار على الأرض ... ان اليد الخفية، يا بيلاطس البنطي، هي رب اسرائيل، وأنا الحجر، أما الصنم فهو روما»

تثأب بيلاطس مرة أخرى، وقال بضجر «أنا أفهم لعبتك، يا يسوع الناصري، يا ملك اليهود. أنك تهين روما لثثير غضبي فأصليك وترقى أنت الى مصاف الأبطال. لقد أعددت كل شيء ببراعة شديدة، بل لقد سمعت أنك بدأت بيعك الموتى: نعم، أنت تمهد السبيل، وبالطريقة نفسها سيعكف مريدوك فيما بعد على

اشاعة أنك لم تمت وأنتك بعثت من الموت وعرجت الى السماء.
ولكن يا عزيزي الوغد، لقد فالتك القارب، الاعيبك أصبحت عتيقة،
لذا يجمل بك أن تبحث عن غيرها جديدة. لن أقتلك، ولن أجعل
منك بطلاً. أنت لن تصبح ريداً فاطروح هذه الفكرة من رأسك»

لم يفه يسوع بكلمة، وراح يتأمل، عبر النافذة، هيكل يهوه
الضخم يومض تحت أشعة الشمس كوحش أكل البشر ساكن. تمنع
من حوله أسراب متعددة الألوان من البشر وتلج داخل شاه المظلم
الفاغر، وواصل بيلاطس عبثه بسلسلته الذهبية الدقيقة ولم يتكلم
بدوره. كان يخجل أن يطلب معروفاً من يهودي، لكنه كان قد وعد
زوجته بأنه سيفعل، ولم يعد أمامه مجال للاختيار.

سأله يسوع «أهذا كل شيء؟»، واستدار ليتوجه الى الباب.
فنهض بيلاطس، وقال «لا تغادر. لدي ما أقوله لك وهو سبب
استدعائي لك. تقول زوجتي إنها تحلم بك في كل ليلة، وبسببك
باتت لا تجرؤ على اغماض عينيها، وتقول إنك تشتكي لها من أن
مواطنتك حنان وقيافا يسعيان لقتلك وأنتك تتوسل اليها في كل ليلة
كي تكلمني وتقنعني بأن لا ادعهما يقتلانك، وفي الليلة الفائتة
أطلقت زوجتي صرخة وأفاقت مجفلة وأخذت تبكي، يبدو أنها
تشفق عليك (لا أدري لماذا؛ أنا لا أ تدخل في سخافات النساء)،
وهكذا، خرت على قدمي متوسلة لأستدعيك وأقول لك أن ترحل
وتتخذ نفسك. ان جو أورشليم لا يواتي صحتك يا يسوع الناصري؛
عُد الى الجليل! لا أريد أن أستخدم القوة معك انني أكلّمك
كصديق. عُد الى الجليل!»

أجابه يسوع بالتصميم نفسه، ودائماً بصوت هادئ «الحياة
حرباً؛ وأنت تعلم ذلك، لأنك جندي روماني. أما ما لا تعلمه فهو
عائلي: الرب هو الأمر ونحن جنوده. فمئذ لحظة ولادة الانسان،

ببره الرب الأرض وفوق الأرض مدينة، أو قرية، أو جبل، أو بحر أو
صحراء، ويقول له «هنا ستشن حرباً». فيا حاكم اليهودية، لقد
قبض الرب عليّ من شعري ذات ليلة ثم رفعني عالياً، وأحضرني
الى أورشليم، وحطني أمام الهيكل وقال «هنا ستشن الحرب»، وأنا
لست من الصحراء، يا حاكم اليهودية. وسأشن حربي هنا»

هز بيلاطس كتفيه، وقد ندّم لتوه لأنه طلب منه معروفاً وكشف
عن سر من أسرار بيته ليهودي. وكعادته قام بحركة غسل يديه.
قال «أفعل ماتشاء، أما أنا فماأغسل يدي من الموضوع كله.
أذهب»

رفع يسوع ذراعه واستأذن بالرحيل، ولكن بينما هو يعتاز
العتبة، ناداه بيلاطس بطريقة استغرافية شائلاً، هيه، يا مسيح،
ماهو هذا الخبر المريع الذي سمعتُ أنك بشرت به العالم؟
أجابه يسوع، يهدوئه المعهود «بالتار، بالثار، بالثار التي ستطهر
الأرض»

«من الرومان؟»

«لا، بل من الكفار. من الظالمين، والفاسقين، والمتخمين»

«ثم ماذا؟»

«من ثم ستبنى أورشليم الجديدة على الأرض المحروقة،
المطهرة»

«ومن الذي سيقوم ببناء أورشليم الجديدة؟»

«أنا»

انفجر بيلاطس في نوبة من الضحك «مرحى، مرحى، لقد
كنتُ على حق حين قلت لزوجتي أنك مجنون. يجب أن تزورني بين
حين وآخر. سوف يعينني ذلك على تزجية الوقت. حسن إذن؟
أذهب! لقد سئمتك»

صفق بيديه، فدخل الزنجيان العملاقان ورافقا يسوع حتى

الباب.

كان يهوذا منتظراً بقلق خارج البرج. لقد كانت تتكلم المعلم مؤخراً هموم خفية. وفي كل يوم تزداد تعابير وجهه عبوساً وغتفاً؛ وكلماته حزناً وتهديداً أكثر فأكثر. كان غالباً ما يذهب ليمكث وحده لساعات طويلة فوق الجلجلة، وهي تلة تقع خارج أورشليم يُصلب عليها الرومان العصاة؛ وبالقدر الذي يرى فيه الكهنة وكبار الكهنة من حوله مهتاجين ويهددون بقتله، بالقدر نفسه وربما أكثر. كان يهاجمهم ويصفهم بكانزي المال الحقودين، وبالكذابين، والمنافقين الذين يرتعدون استمرازا من فكرة ابتلاع بعوضة ومن ثم يعضون في ابتلاع جمل! كان في كل يوم يقف من الفجر وحتى الغسق خارج الهيكل ويتلفظ بكلمات عنيفة وكأنه يسعى عن عمد إلى حثه، وذات يوم حين سأل يهوذا متى سي طرح عنه أخيراً ثوب الحمل حتى يظهر من تحته الأسد الأسامة، اكفى بهز رأسه، ولم ير يهوذا في حياته ابتسامته على شفطي انسان تفوق ابتسامته في مرارتها، ومنذ ذلك الحين بات يهوذا لا يشارقه. حتى حين رآه يصعد الجلجلة، سار خلفه خلسة مخافة أن يعتدي عليه عدو كافر.

راح يهوذا يمشي جيئةً وذهاباً خارج البرج الملعون ويرمي الحرس الروماني الساكن الحركة بدروعه النحاسية ووجوهه الخشنة الجلفة بنظرات صارمة، وينظر إلى راية الكفر المرفرفة، بنسورها، خلفاً وأماماً فوق قمة السارية العالية. وتساءل، ماذا يريد بيلاطس منه، ولماذا أرسل في طلبه؟ ما كان يعرفه يهوذا - فقد كان زيلوت أورشليم يزودونه بالأخبار - أن حثان وقيافا يترددان باستمرار على هذا البرج وأنهما اتهما يسوع بنيتة باشتعال نار الفتنة ليطرد الرومان وينصب نفسه ملكاً. لكن بيلاطس لم يوافقهما وكان يقول

«انه منجنون جنوناً مطبقاً، وهو لا يتدخل في شؤون روما. وقد أرسلت ذات مرة ومن عمد بعض الرجال ليسألوه «هل يريد منا رب اسرائيل أن ندفع الضرائب للرومان - ما رأيك؟» فأجاب هو، وكان محقاً تماماً، وبارعاً في جوابه. قال «اعطوا ما لقيصر لقيصر، وما للرب للرب؛ ان جنونه ليس جنون قديس». هذا ما كان يسأله بيلاطس ضاحكاً. وكان دائماً يقول لهما «إنه مصاب بهوس القداسة. اذا تناول على دياتنكم، عاقبوه - أنا غسلت يدي من المسألة كلها. لكن روما ليست مهتمة بأمره». ومن ثم يصرفهما عنه. أما الآن... أيعقل أنه غير رايه؟

توقف يهوذا واستند إلى الجدار المقابل للبرج، وهو يشد بعصبية على قبضتيه ثم يرخيها.

وقد انفضض مجفلاً. فقد أطلق نفير، وأفسح الحشد الطريق، فاقترب أربعة من اللاويين ووضعوا يرفق محفة مطعمة بالذهب أمام بوابة البرج. ثم بوعد ما بين شقي الستارة الحديدية وترجل منها قيافا ذو البشرة الرقيقة ببطة. مرتدياً ثوباً كله من الحرير الأصفر اللون. كان من البدانة بحيث أن تراكماً ذهبياً تشكل حول عينيه كما الشرائق، فتحت البوابة الضخمة المزبوجة في الوقت الذي كان يسوع فيه خارجاً، وتقابل الرجلان وجهاً لوجه عند العتبة. توقف يسوع. كان حافياً، ورذاؤه الأبيض ملاناً بالبقع. وقف لا يبدي أي حركة ويحدق عيقاً إلى عيني الكاهن الأعلى. فرفع الآخر جفنيه الثقيلين، وتعرق عليه، وشمله بنظرة سريعة من رأسه إلى أخمصه، وتباعدت شفثاه العنزيتان ليقول «ماذا تفعل هنا أيها المتمرّد؟»

لكن يسوع، ولا يزال لا يبدي أية حركة، ردعه بنظرة قاسية من عينيه الكبيرتين المحزنتين، وأجاب «لست خائفاً منك، يا كبير كهنة الشيطان».

زغق قيافا في حاملتي محفّته الأربعة «ارموا به خارجاً»، ثم تقدم إلى القناء، أشبه بشم بدّين، مقوس الساقين، وموخرته الضخمة تكاد تلامس الأرض.

أحاط اللاويون الأربعة بيسوع، لكن يهوذا اندفع إلى الأمام، وجار «أبعدوا أيديكم» ودفعهم بعيداً، ثم أمسك بالمعلم من يده، وقال «هيا، هيا بنا»

شق يهوذا الطريق خلال الجمال، والناس، والمواشي مُفسحاً المجال لتقدم يسوع. اجتازا بوابة المدينة المحصنة، ثم انحدر إلى وادي قدرون، وارتقيا المنحدر المقابل وسلكا الدرب المؤدي إلى بيت عنيا.

سأل يهوذا، وهو يشد على ذراع المعلم مكروباً «ماذا يريد منك؟»

أجاب يسوع بعد صمت عميق «سأفضي اليك يا يهوذا بسر رهيب»

قرّب يهوذا رأسه ذا الشعر الأحمر وانتظر فأعزّاه «أنت أقوى الصعّب جميعاً. وأعتقد أنه لن يعرف به غيرك، فأننا لم أقل أي شيء للآخرين، ولن أفعل. فلا طاقة لديهم للاحتمال».

احمرّ وجه يهوذا سروراً. قال «شكراً لك يا معلم على ثقّتك بي. تكلم، وسترى: لن أخذلك»

«أتعلم يا يهوذا لماذا غادرت موطني الحبيب في الجليل لأتي إلى اورشليم؟»

أجابه يهوذا «نعم، لأن هنا سيحدث ما يجب أن يحدث»
«هذا صحيح، لهب الرب سينطلق من هنا. لم يعد النوم يراودني، اتني أستيقظ مجفلاً في منتصف الليل فأحدّق إلى

السماء. ألم تشق بعد؟ ألا يتدفق الלהب؟ ويتيلج الفجر فأهرع إلى الهيكل، أتكلّم، أتوعّد، أشير إلى السماء، أصدر أوامري، أتضرع، أحث النار على الهبوط. لكن صوتي دائماً يضيع، وتبقى أبواب السماء من فوق موصدة، خرساء يلتها السكون. وفجأة ذات يوم... وسكت صوته. مال يهوذا فوقه ليمسّعه لكنه لم يلتقط غير صوت تنفس مكظوم وصريز أسنان يسوع.

قال يهوذا مثلها «تابع «تابع «تابع»

التقط يسوع أنفاسه وتابع قائلاً ذات يوم بينما كنت مستلقياً وحيداً فوق قمة الجبلّة تخيلت بعين عقلي النبي أشعيا - لا، لا، ليس بعين عقلي - بل رأيتّه مائلاً أمامي بجسده على صخور الجبلّة، وكان يحمل جلد عاجز مُخاطاً ومتفخّاً، كان أشبه بالتيّس الأسود الذي قابلته في الصحراء. وقد خُطت على الجلد أحرف. فأمرني، ماداً جلد الماعز تحوي «اقرأ» ولكن بعد أن سمعت الصوت، اختفى النبي وجلد الماعز ولم يبق غير الأحرف معلقة في الفضاء، أحرف كبيرة سوداء، وحمراء»

رفع يسوع ناظريه نحو النور، وقد شخب لونه. ثم شد على ذراع يهوذا متشبّثاً به، وهمس، وقد ملأه الرعب «هاهي! إنها تملأ الفضاء!»

قال يهوذا، الذي أخذ يرتجف «اقرأها!»

بدأ يسوع وهو يلهث بتهجئة الأحرف بصوت مبجوح. كانت الأحرف أشبه بالوحوش الحية: فكان يصطادها وهي تقاومه، وكان طوال ما هو يقرأ يمسح عنه العرق: «لقد حمل عنا وزر أخطائنا! وجرح تكفيراً عن آثامنا وعذاباً لنا أدته. كان مكروباً، لكنه لم يقه بكلمة. وتابع تقدّمه، مطروداً من يهوذا من الجميع، دون أن يبدي مقاومة، كحمل مُقاد إلى الذبح»

لم يزد يسوع كلمة واحدة، وعلاء شحوب الموت.
قال يهوذا، جامداً في مكانه يضرب الحصى باصبع قدمه
الكبرى «أنا لا أفهم» من هو الحمل المضاد الى الذبيح؟ من الذي
سيموت؟

اجاب يسوع ببطء «يهوذا، يهوذا يا أخي، أنا هو الذي سيموت»
قال يهوذا متراجعاً «أنت؟ اذن هلست المسيح؟»
«أنا هو»

كرر يهوذا القول «أنا لا أفهم»، وهو يؤدي اصبع قدمه بضرب
الحصى.

«لا تغضب يا يهوذا هذا هو السبيل المرسوم، فلنكن يتم خلاص
العالم، يجب أن أموت أنا بملء ارادتي . أنا نفسي لم أفهم في أول
الأمر. كان الرب يرسل لي الاشارات عبثاً : تارة على شكل رؤى في
الفضاء، وطوراً على صورة أحلام ليلية، أو على شكل جثة الماعز
في الصحراء تحيط بمنقها آثام الناس كلهم. ومنذ أن غادرت منزل
أمي، وثمة شيخ يتبعني ككلب. وأحياناً يسبقني ليقودني على
الدرب. وأي درب؟ انه درب الصليب»

ألقى يسوع نظرة متفهلة فيما حوله. خلفه اورشليم، جبل من
الجماجم البيضاء الناصعة، وأمامه صخور وأشجار زيتون مكتسية
ببيضة أوراق فضية اللون، وأشجار أرز سوداء. وبدأت الشمس
المضرجة بالدم تغرب.

كان يهوذا ينتفخ شعر لحيته ويرميه . لقد توقع مجيء مسيح
مختلف، مسيح يمشق سيفاً، مسيح تبعث صرخة منه كل أجيال
الموتى من قبورها القابعة في وادي يوشافاط وتندمج بالأحياء.
وتتبعش خبول اليهود وجمالهم كلها في وقت واحد، ويندفع الجميع
قُدماً مشاة وفرسان لذبح الرومان. ويتربع المسيح على عرش

داوود ويربح قدميه على الكون، وكأنه وسادة، هذا هو، هذا هو
المسيح الذي توقع يهوذا الاسخريوطي مجيئه. أما الآن...

رمى يسوع بشظرة ضارية وعض على شفتيه ليعنع اهلات كلمة
قاسية من بينهما. ومن جديد بدأ يضرب الحصى، هذه المرة بمقب
قدمه. ولاحظ يسوع حركاته فاشتق عليه .

قال، مرفقاً بكرة صوته «تشجع يا يهوذا يا أخي، هكذا فعلت
أنا، ولا سبيل آخر، هذه هي الطريق»

سال يهوذا، محدقاً الى الصخور «وبعد ذلك؟»
«سأعود وأنا في ذروة مجدي لأصدر حكمي على الأحياء

والأموات»

«متى؟»

«سيموت الكثير من أبناء الجيل الحالي قبل أن يروني»

قال يهوذا «هيا بنا»، وحث خطأ . واجتهد يسوع ليلحق به
وهو يلهث. ستغيب الشمس أخيراً خلف جبال اليهودية. ومن
البعيد، من البحر الميت، سمع عواء أول من استيقظ من أبناء آوى.

أسرع يهوذا متقدماً وهو يرمجر . لقد كان في داخله زلزال:
كل شيء فيه ينهار. لم يكن يؤمن بالموت - انه بالنسبة له أسوأ
السبل قاطبة، وألعاقر القائم من بين الموتى، الذي بدا له أشد موتاً
وقذاراً من كل الموتى: كان يثير تقزز، والمسيح نفسه كيف يمكنه
الفوز في هذا الصراع مع شارون؟ لا، لا، لا، إن يهوذا لا يؤمن بالموت
كسبيل.

التفت اليه. أراد أن يبيدي اعتراضه، أن يرمي في وجهه
الكلمات الصارمة التي تحرق لسانه، لعلها تقنعه بتغيير دربه
والامتناع عن السير في طريق الموت. إلا أنه حين التفت أطلق
صرخة رغب، لقد رأى ان الظل الذي يرميه جسد يسوع كان هائل

الحجم. إنه ليس ظلاً لرجل بل لصليب ضخم، تشبث بيد يسوع وقال وهو يشير «انظروا»

أصابك يسوع الرعدة «إهدأ، يا يهوذا يا أخي. لا تتكلم»

وهكذا أخذوا، صامتين، متشابكي الذراعين، يرتقيان المنحدر غير الحاد باتجاه بيت عنيا. تراخت ركبنا يسوع فدعاه يهوذا. ولم يتكلما. ومرة أخرى انحنى يسوع واتقنط حجراً دافئاً وظل يحمله فترة طويلة قابضاً عليه بشدة بين راحتي يديه. أكان هذا حجراً، أم يد شخص محبوب؟ وأخذ يثقلت فيما حوله. كل هذه التربة التي ظلت مواتاً خلال الشتاء، كم أصبحت تثبت العشب الآن، كم ازهرت الآن!

قال «يهوذا يا أخي، لا تحزن، انظر كيف تخرج الحنطة من الأرض، وكيف يرسل الرب المطر وكيف تحيل الأرض وترتفع سنابل القمح فوق التربة المزبدة لتطعم بني البشر. فلو لم تمت حبة القمح، فهل كانت السنابل تثبت من جديد؟ الأمر نفسه يحدث لابن الإنسان»

لم يتعزَّ يهوذا، وواصل صعوده دون أن يتكلم. غربت الشمس خلف الجبال، وتساعد الليل من التربة، وخفقت أوائل المصاييح المشتعلة فوق قمة التل.

قال يسوع «تذكر اليعازر...». لكن يهوذا شعر بالتقزز، وخفاً في سيره وهو يصمق.

* * *

اشعلت مارتا المصباح، فغطى اليعازر عينيه بيده. لأنه كان ما يزال يتأذى من الضوء. أمسك بطرس متى من ذراعه وجلس

الاشان تحت المصباح. وكانت العجوز سالومة قد عثرت على صرة تحتوي على صوف أسود اللون فجلمت تغزله وتكر في ولديها. يا رب، ألن يأتي اليوم أبداً الذي ستراهما فيه في أبهى حللهما، يعصيان شعرهما بشريط ذهبي، اليوم الذي تصبح فيه بحيرة جتيسارت كلها ملكهما؟...

وكانت المجدلية قد نزلت الى الطريق. لقد تأخر المعلم، وهي تعاني أقصى المعاناة، وأصبحت لا تطيق المكوث في المنزل، فنزلت الى الشارع آملة أن تقابل محبوبها، وجلس التلاميذ القرفصاء في القناء، ينظرون من أطراف عيونهم الى الباب الخارجي دون أن يتكلموا. وما يزال الغضب يغلي داخلهم. والسكنية تلف أرجاء المنزل، لا يُسمع فيه تردد نفس واحد. وحانت اللحظة المناسبة لبطرس، فمئذ أيام طويلة وهو يتوق لمعرفة ما يكتبه جابي الضرائب في دفتره في كل مساء. وهذه الليلة، بعد شجاره مع الآخرين، لم يعد يحتمل الانتظار؛ يجب أن يعرف ما قاله متى عنه، هؤلاء المخدشون عصبة شائنة وعليه أن يحرص على أن لا يتعرض للسخرية أمام الأجيال القادمة. فإذا تجرأ متى وفعل ما يشبه هذا فسوف يرمي بالدفتر. القلم وملحقاته - الى النار. نعم، في هذا المساء بالذات... فأمسك بذراع جابي الضرائب متعلقاً، وركع الاشان تحت المصباح.

ثم طلب منه قائلاً «اقرأ لي يا متى. وإذا كان لا بد أن تعرف السبب فأنا أريد أن أعرف ماذا تكتب عن المعلم»

متر متى لسمع هذا، ثم أخرج الدفتر ببطء من موضعه بالقرب من صدره. وكان قد لفته بمنديل نسائي مطرز قدمته له أخت اليعازر مريم. والآن حله بعناية وكأنه كائن حي مصاب بجرح. وفتححه. وأخذ جسمه يميل الى الأمام ثم يعود الى الخلف، واستجمع زخمه وباشر مابين القراءة والترنيم يوتل :

«كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داوود ابن ابراهيم، ابراهيم ولد اسحق، واسحق ولد يعقوب، ويعقوب ولد يهوذا واخوته. ويهوذا ولد فارص وزارح....»

أغمض بطرس عينيه وزاح يستمع. مرت أجيال العبرانيين من أمامه: من ابراهيم حتى داوود، أربعة عشر جيلاً. ومن داود حتى سبي بابل، أربعة عشر جيلاً. ومن سبي بابل وحتى المسيح، أربعة عشر جيلاً... يا له من حشد غفير، جرار، خالد، وأي قرح عظيم، وأي فخر أن يكون فرداً من اليهود! أراح بطرس رأسه على الجدار وأخذ يصغي. وثابت الأجيال مسيرتها، حتى وصلت إلى زمن يسوع، وأنصت بطرس. كم من معجزة حدثت، ولم يكن يعرف عنها أي شيء! إذن... فقد ولد يسوع في بيت لحم، وأبوه ليس يوسف النجار بل الروح القدس. وجاء ثلاثة من المجوس ليسجدوا له، وعند التعميد، ماذا كانت تلك الكلمات التي ألقت بها الحمامة من السماء؟ إن بطرس نفسه لم يسمع بها، من الذي أخبرها متى، الذي لم يكن موجوداً عندئذ؟ شيئاً فشيئاً لم يعد بطرس يسمع الكلمات، بات يسمع فقط تنغيماً مهدداً، رتيباً وحزيباً. ومن ثم، ويهدوء، استغرق في النوم. وهناك، في النوم، سمع التفتيم والكلمات معاً بجلاء تام. بدت له كل كلمة في منامه أشبه برماتة كتلك الرماتات التي أكلها قبل عام في أريحا. انفلقت وانفتحت لتنتشر في الهواء نارة لهباً، وطوراً ملائكة، وأجنحة وأبواق...

وضجأة، وسط نومه العميق اللذيذ، سمع جلبة صراخ فرح، استيقظ مجفلاً. فرأى أمامه متى، ما يزال يقرأ، والتدفتر على ركبتيه. وتذكر، فحجل لأنه أغفى، ثم ارتقى بين ذراعين جاببي الضرائب وقبّل فمه.

قال «سامحني يا أخي متى، ولكن بينما كنت أصغي إليك ولجت الجنة».

ظهر يسوع عند الباب، تتبعه المجدلية. كانت متوردة فرحاً، واللهب يتطاير من بين شفثيها، وعينيها، ومن جيدها العاري. وحين شاهد يسوع بطرس يعانق جاببي الضرائب ويقبّله، انبسطت أسنانه وأشار إلى المتعانقين قائلاً «هذه هي مملكة السماء» اقترب من أليعازر، همّ بالنهوض، لكن حوضه صرّ وخشي أن ينكسر، فعاد إلى مجلسه. ثم مد ذراعه ولس يد يسوع بأطراف أصابعه فأصابته الرعشة يسوع. لقد كانت يد أليعازر باردة جداً، سوداء اللون، وتفوح منها رائحة التربة.

خرج يسوع مرة أخرى إلى قنّاء ليستششق الهواء. إن هذا الرجل المنبعث مازال يتأرجح بين الحياة والموت، لم يتمكن الرب بعد من التغلب على العفونة الكامنة داخله، ولم يسبق للموت أن أبدى قوته الحقيقية كما يفعل في هذا الرجل. واستولى الخوف والحزن الشديد على يسوع.

اقتربت العجوز سالومه من يسوع، وفلّكة مغزلها تحت إبطها، ومشّت على أطراف أصابع قدميها لتهمس في أذنه، وباشرت قائلة «يا معلم»

فقال نحوها ليسمعها «تكلمي يا سالومه»
«يا معلم، حين ستخرج إلى السماء، أريد منك معروفاً. وها أنت ترى كم فعلنا من أجلك»

انقبض قلب يسوع فجأة «أفصحني يا سالومه...»، وتساءل، متى يدرك الناس أن الأعمال الخيرة لا تتجدد قط إلى مستوى قبول تعويض.

«والآن وقد بات من المؤكد أنك ستترفع على عرشك يا ولدي، فضع ولدي يوحنا ويعقوب عن يمينك وعن يسارك»
عض على شفثيه حتى لا ينطق، ثم أطرّق.

«أسمعتي يا ولدي؟ يوحنا...»

ويخطوة واسعة ولج يسوع الى المنزل. رأى متى ملازماً للمصباح ولا يزال يحمل دفتره المفتوح على ركبتيه. توقف. كان متى مغمض العينين: ما يزال مستغرقاً فيما كان قد قرأه.

قال يسوع «يا متى، أحضر دفترك الى هنا. ماذا تكتب؟»

نهض متى واقفاً وسلم يسوع كتاباته، وكاد يطير من الفرح.

قال «يا معلم، انني احكي هنا قصة حياتك وانجازاتك، لكي

يطلع عليها أناس المستقبل».

ركع يسوع تحت المصباح وأخذ يقرأ. وبعد أن قرأ الكلمات الأولى، انتفض مجثلاً. وراح يقلب الصفحات بعنف ويقرأ بسرعة كبيرة، واحمر وجهه غضباً. ولما رأى متى هكذا ربيض في إحدى الزوايا وقد ملأه الخوف، وانتظر. وأصل يسوع تصفح الدفتر، ولما نفذت طاقته على التهكم في نفسه نهض واقفاً ورمى انجيل متى بسخط على الأرض.

صرخ «ما هذا؟ إنها أكاذيب! أكاذيب! أكاذيب! إن المسيح ليس بحاجة للقيام بمعجزات. انه هو المعجزة. ولا حاجة لمعجزات أخرى! أنا ولدت في الناصرة، وليس في بيت لحم، بل ان قدمي لم نطأ أرض بيت لحم؛ ولا أذكر أياً من المجوس. ولم أذهب مرة في حياتي الى مصر؛ وما تكتبه عن أن ثمة حمامة قالت «هذا هو ابني الحبيب» عند تعميدي من الذي قاله لك؟ أنا نفسي لم أسمع ما قالته بوضوح، فكيف، لك أنت أن تعرف، وأنت حتى لم تكن هناك؟» أجابه متى وهو يرتجف «الملاك كشف الأمر لي»

«ملاك؟ أي ملاك؟»

«الذي يأتي في كل مساء حين أمسك بالقلم، إنه يعمل على

أذني ويعلي عليّ ما كتبه»

قال يسوع مضطرباً «ملاك؟ ملاك يملئ عليك ما تكتبه؟»

استجمع متى شجاعته وقال «نعم، ملاك، بل انني أحياناً أراه.

ودائماً أسمعه: تلمس شفتاه أذني اليمنى، وأحس بجناحيه

يرقرقران حولي، فأتدثر بجناحي الملاك كطفل وأبشر الكتابة؛ لا،

انني لا أكتب بل أنسخ ما يأمرنى به. فما رأيك؟ أيعقل أن أكون قد

دوّنت كل هذه المعجزات من لقاء ذاتي؟»

عاد يسوع يتعمق «ملاك؟»، ثم غرق في التأمل. بيت لحم،

المجوس، مصر، و «أنت هو ابني الحبيب» - ماذا لو أن كل هذا هو

الحقيقة المطلقة... ماذا لو أن هذا هو أعلى مراتب الحقيقة، التي

لا يبلغها الا رب العالمين... ماذا لو أن ما تسميه نحن الحقيقة،

يسميه الرب أكاذيب...»

ثم يفه بكلمة. وانعنى وأخذ يجمع بعناية الأوراق التي نشرها

على الأرض وأعطاهام لمتى، الذي أعاد ربطها بالمتدليل المطرز

وأخفاها تحت قميصه، وألصقتها بجلده.

قال يسوع «اكتب كل ما يملئ عليك الملاك، ثم يعد يحيى لي

أن...، لكنه ترك جملته ناقصة.

في تلك الأثناء شكّل التسلاميذ في القناء دائرة حول يهوذا

وطلبوا منه أن يخبرهم عما كان بيلاطس يريد من المعلم. لكن

يهوذا تلمس من بينهم، حتى دون أن يوليهم التفاتة، ووقف عند ممر

الباب الخارجي. كان يبغض مرآهم وأصواتهم؛ لم يعد بإمكانه أن

يتكلم من الآن فصاعداً الا مع المعلم. إن «سراً رهيباً» يشريهما من

بعضهما ويبعدهما عن البقية... راقب يهوذا الليل وهو يلتهم العالم،

وأوائل النجوم من فوقه، تشبه مصابيح أيقونة صغيرة بدأت تنوهج

لتوها.

غمغم من داخله «يا رب اسرائيل ساعدني، والا فقدت صوابي»

اضطربت المجدليلة، فاقترعت ووقفت الى جواره . وهم
بالمغادرة، لكنها تثبتت بطرف رداءه . قالت :

«يمكنك أن تقضي بالسر التي يا يهوذا دون أن تخشى شيئاً .
أنت تعرفني»

«أي سر؟ لقد استدعاه بيلاطس ليقول له ان يأخذ حذره . ثم
ان قياها-»

«ليس هذا، الآخر»

«أي آخر؟ ها أنت تلتهمين من جديد يا مجدليلة . إن عينيك
متوهجتان كجمرتين» وضحك بمتور «إيكي، إيكي . إن دموعك
ستملئكما»

لكن المجدليلة عضت على منديلها ومزقته باستانها . وتمتمت
«لماذا اختارك أنت، أنت، يا يهوذا الاسخريوطي؟»

هنا انساب الغضب ذا اللحية الحمراء . فضغط بقوة بيده على
ذراع المجدليلة . قال «ومن كنت تسمنين ، يا مريم المجدليلة، منه أن
يختار- بطرس طاحونة الهواء . أم ذلك الأبله يوحنا... أم لعلك كنت
تودين لو أنه اختارك أنت أنت، المرأة أنا قطعة من حجر الصوان
قُدت من الصحراء : أقاوم البلى . لهذا اختارني له»

تقرعرت عينا المجدليلة بالدمع، وغمغمت «أنت على حق، أنا
امرأة : مخلوق عاجز جريح...» ثم ولجت الى الداخل وريخت
منكورة بجوار النار .

أعدت مرثا المائدة لتناول طعام العشاء . وجاء التلاميذ من
الفناء، وجلسوا ركوعاً . وكان اليعازر قد شرب مرق الدجاج الذي
يتحول الى دم يجري في عروقه، وكف عن التحديق الى الأرضي .
وشيثاً فشيئاً، مع وجود الهواء والنور والغذاء، أخذ جسده المشفق
يجلف ويقتوي .

فُتح الباب الداخلي وظهر منه الحبر العجوز، صاحب اللون
كثيف الشعر، أشبه بشيخ منكناً بكل ثقله على عصاه لأن ركبتيه
أصبحتا ترفضان دعمه . وحين رأى يسوع أوماً اليه بحركة تقيد
بأنه يرغب بالتحدث اليه، فنهض يسوع واقفاً، وأمسك باليعازر،
وأجلسه . ثم جلس هو بدوره الى جوار اليعازر .
قال «أنا أيضاً أود التحدث إليك يا أبت»

قال الحبر العجوز، وهو يرنو بنظرة ملؤها الرقة المتجهمة
«لدي اليوم ما أشتكيه منك يا ولدي، ها أنا أقولها صريحة أمام
الجميع . فلتسمعها جميعاً - رجالاً ونساءً : واليعازر، الذي لا بد اطلع
على الكثير من الأسرار وهو في القبر . فليسمع الجميع وليحكموا»
أجاب يسوع «وماذا يعرف البشر؟ ثمة ملاك يرقرف داخل هذا
المنزل وينصت الى مايقال - اسأل متى . فليحكم هو، ما الذي
يحزنك يا أبت؟»

«لماذا تريد أن تلغي التاموس المقدس؟ كنت حتى الآن تحترمه،
كما يحترم الابن أباه العجوز . لكلك اليوم، وأمام الهيكل، رفعت
رايتك الخاصة، الى أي مدى ستهذب بتمردك هذا؟»

«الى المحبة، يا أبت، عند قدمي الرب، هناك سيجد الدعم
والراحة»

«الا تصل الى هذه البغية بالتاموس المقدس؟ الا تعلم مايقوله
كتابتنا المقدس؟ إن التاموس كتب قيل أن يقيم الرب العالم بتسع مائة
وأربعة عشر جيلاً . لكنه لم يدوّن على ورق نقبس، لأنه في ذلك الوقت
لم تكن هناك حيوانات لتعطي جلودها؛ ولا على الخشب لأنه لم تكن
هناك أشجار؛ ولا على الحجر، لأنه لم تكن هناك أحجار بعد . لقد
كُتب بلهب أسود فوق نار بيضاء على الذراع اليسرى للرب . واعلم ان
الرب خلق العالم وفقاً لهذا التاموس المقدس»

صرخ يسوع. وقد نفذ صبره «لا، لا، وألف لا»

أمسك الحبر العجوز يده برفق، وقال لماذا تصرخ هكذا، يا

يني؟

شعر يسوع بالخجل، واحمر وجهه. لقد أظلت الزمام من بين يديه ولم يعد يتحكم في روحه. وكأنه مثخن بالجراح من رأسه إلى أخمصه. وأينما تلمسه، وإن ممسكاً خفيفاً، كان دائماً يصرخ مثلاً. هذه المرة أيضاً صرخ، ثم هذا. أمسك بيد العجوز، وأخفض صوته وهو يقول «الكتاب المقدس يا أبت صفحاته محسورة في قلابي، وأنا مزقت كل الأوراق الأخرى»

لكنه بعد أن قال هذا عاد فيدبلك فكره، وقال «ليس أنا... ليس

أنا، إنه الرب، هو الذي أرسلني»

شعر الحبر العجوز، الحالس بجوار يسوع، وكان شديد القرب منه حتى أن ركبهما تلاصقت. شعر بقوة نازية لا تحتل تبعث من جسم يسوع؛ وكما تهب فجأة ربح قوية من خلال النافذة المفتوحة لتطغى نور المصباح، رأى الحبر في قلب الظلام ابن مريم يشع بالضياء كعمود من نار، منتصباً في وسط الغرفة. وتلفت يميناً ويساراً علّه يرى أيضاً موسى وإيليا يعودان للظهور، لكنه لم يز أياً منهما. كان يسوع وحيداً وسط ضيائه. وقد وصل رأسه حتى السقف المكسو بعيان القصب، ونشر وجهه عليه. وكادت صرخة تفلت من الحبر العجوز فإذا بيسوع يمد ذراعيه على طولهما ليصبح صليباً تلعبه ألسنة اللهب.

نهضت مرتاً واقفة وأعادت اضاءة المصباح. وعلى الفور عاد كل شيء إلى طبيعته. كان يسوع ما يزال جالساً مطرقاً، يفكر. تلتفت الحبر فيما حوله، فادرك أن لا أحد غيره رأى ما رآه وسط الظلام. فقد تحلق الآخرون حول المائدة وهم يستعدون بهدوء لتناول طعام

العشاء. فقال الحبر لنفسه، إن الرب يحملني بين يديه ويلاعنني، إن لتحقيق سيع مراتب، وهو يرفعني وينقلني من مرتبة إلى مرتبة، حتى أصاب بالدوار...

لم يكن يسوع يشعر بالجوع، ولم يجلس ليتناول الطعام. وكان حال الحبر العجوز. فلا معاً ملازمين لأيمارز، الذي أغضض عينيه وكأنه مستغرق في النوم، لكنه لم يكن نائماً، كان يفكر. ماذا كان ذلك الحلم الذي رآه؟ ونساء، هل حقاً مات، هل مُدَّت تحت الأرض، وهل سمع عندئذ فجأة صوتاً رهيباً يقول «يا أيمارز، قم»، وهل انتفض وهو في كفته واستيقظ ليجد نفسه ملفعاً بالكفن نفسه الذي رآه في الحلم؟ أم لعله لم يكن حلاً. - أعتقد أن يكون قد هبط إلى العالم السفلي؟

«لماذا أخرجته من القبر يا ولدي؟»

أجاب يسوع بهدوء «لم أرد ذلك، لم أرد ذلك يا أبت. عندما رأيته يرفع شاهد القبر أصابني الرعب، وددت لو أهرب، لكنني خجلت من نفسي، فبقيت في مكاني وأنا أرتجف.

قال الحبر «يمكنني أن أحتمل أي شيء، أي شيء، ما عدا ثنائية جسد يتعفن. هذه هي المرة الثانية التي أشهد فيها تفسخ جسد فطيع وهو ما يزال حياً، يأكل، ويتكلم، ويتنفس. إنه الملك هيرودوس، روح عظيمة حكم عليها بالهبوط إلى الجحيم. لقد قتل ماريانا الجميلة، محبوبته، وقتل أصدقاءه، وقادته، وأبنائه. استولى على الممالك، وبنى الأبراج، والقصور، والمدن، وهيكلاً أورشليم المقدس. وهو أشد فظامة حتى من هيكلاً سليمان العريق، حفر اسمه عميقاً على الحجارة بحروف من برونز وذهب: كان متعششاً للخلود. وفجأة، وفي قمة مجده لمست إصبع الرب عنقه، وللتو بدأ يتعفن. كان دائم الاحساس بالجوع، يأكل دون انقطاع لكنه لم يشبع قط.

كانت أفعالهم جرحاً واحداً فاسداً لا يلتئم: كان جوعه لا يشبع، ويسمع أبناء أوى عوايه في الليل فيترعشون خوفاً. وأخذ بطنه، وقدماءه، وأبطاءه، تنتفخ، وخرجت الديدان من خصيتيه. وكانت أول ماضد فيه. وكانت رائحته كريهة إلى حد لم يحتمل معه أي كائن بشري الاقتراب منه. وكان خدعه يصابون بالاعياء. وكان يحمل إلى الثناييع الدافئة في كالبرهو، بالقرب من نهر الأردن، لكن حالته ازدادت سوءاً. وفي تلك الأثناء ذاع سيطلي كشاف من الأمراض وطارد للأرواح الشريرة. فعلم الملك بأمري فاستدعاني، وكان عندئذ قد حمل إلى أريحا، إلى الحدائق، وكانت رائحته الكريهة تصل من اورشليم إلى نهر الأردن. وحين مثلت أمامه للمرة الأولى أصبت بالاعياء. ثم صنعت بعض المراهم ودهنته بها. وكنت سرّاً أخفض رأسي وأتقيأ. وتساءلت: أهذا ملك؟ أهذا هو الانسان: قذارة وعفونة؟ أين الروح إذن لتضع الأمور في نصابها؟

كان الحبر يتكلم بصوت منخفض جداً، فليس من اللائق أن يسمع الآخرون مثل هذا الكلام أثناء تناولهم الطعام. أنصت يسوع إليه. وهو مطرق قائم، هذا هو بالضبط المعروف الذي كان يتوي أن يطلبه من الحبر هذا المساء: أن يتحدث معه عن الموت، حتى يستجمع قواه. كان عليه هذه المرة أن يضع الموت دائماً نصب عينيه، حتى يعتاد عليه. أما الآن... ودّ لو يعد يده ويسكت الحبر العجوز، ينهره قائلاً: يكفي هذا! ولكن كيف يمكنه أن يسكت الرجل العجوز بعد أن وصل إلى هذا الحد؟ إن الحبر لا يطيق صبراً على تأجيل سرد كل القذارة، كي يخرجها من ذاكرته وينتظر منها.

«لم يكن لمراهمي أي نفع: كان الدود يلتهمها هي أيضاً. لكن الشيطان كان ما يزال يتربع على تلك القذارة ويصدر أوامره. أمر كل أثرياء اسرائيل وأصحاب النفوذ فيها بالاجتماع. ثم زربهم في

فناء قصره. وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة نادى على أخته سالومه وقال لها: «حلماً أسلم الروح، اقتلهم جميعاً، حتى لا يفرحوا لموتي!». ثم مات. هيرودوس العظيم قنيد هاشد حانت الساعة المباركة، الساعة المباركة التي تنبأ بها موسى في عهد: «وفي النهاية سيأتي ملك فاسق داغر، أبناؤه فاسدون، وستزحف من الغرب جيوش همجية وملك ليحتلوا الأرض المقدسة. عندئذ، ستحل نهاية العالم». هذا ما تنبأ به النبي موسى. وقد تحقّق كله. لقد حلت نهاية العالم.

انقض يسوع مجفلاً. كانت تلك المرة الأولى التي يسمع فيها هذه النبوة. فتهتف: «أين دؤنت؟ ومن هو النبي؟ هذه أول مرة أسمع بها».

«قبل سنين ليمست عديدة عشر راهب في كهف في الصحراء اليهودية على رق عتيق داخل جرة غضارية. فتحها فوجد مكتوباً في أعلاها بأحرف حمراء: «عهد موسى». فقبل وفاة الشيخ الجليل استدعى خليفته، يشوع بن نون، وأملى عليه كل ماسيق في المستقبل. وانظر هاشد وصلنا إلى السنين التي تنبأ بها. الملك الفاسق هو هيرودوس، والجيوش الهمجية هي الرومان: أما عن نهاية العالم، فإذا رفعت رأسك، فسترها تدخل من خلال الباب». نهض يسوع واقفاً. أصبح المنزل يقبده. فتجاوز أصحابه الجالسين على مائدة الطعام، خائين من الهموم، وخرج إلى الفناء. وهناك، رفع رأسه. كان القمر في ذلك الحين قد برز، كبيراً يثير الشجن، من خلف جبال موآب. كاد يغدو بداراً بحيث يكتمل في عيد الفصح.

حرق إليه، مذهولاً، وكأنه يراه لأول مرة في حياته. وتساءل ماهو القمر، هذا القمر الذي يبرز من خلف الجبال فيجعل الكلاب

الخائفة تقحم أذيالها بين سيقانها وتنبع في وجهه؟ إنه يسطع، صامتاً، وسط الصمت المرعب، ويقطر سماً. ويصير قلب الإنسان حفرة تمتلئ بالسم... شعر يسوع بلسان مسموم يجري على وجنتيه وعنقه وذراعيه، يلعته، يحيط وجهه وجسمه كله بهالة من النور الأبيض، بكتن أبيض.

كان يوحنا يشعر مسبقاً بمعاناة يسوع. فخرج إلى الفناء ورآه، غارقاً كله في نور القمر. قال، متكلماً بصوت منخفض حتى لا يخيفه، «يا معلم...»، وتقدم على رؤوس أصابع قدميه.

التفت يسوع ونظر إليه. لم يعد الفتى الرقيق، الأمرد، بل وجد أمامه في وسط الفناء رجلاً عجوزاً، عجوزاً جداً، معرضاً لضوء القمر. يحمل باحدى يديه كتاباً مفتوحاً، خالياً من الكتابة، وبالأخرى ريشة كتابة، طويلة، أغبه بريح ذي نصل نحاسي. ولحيته البيضاء تماماً مسترسلة لتصل حتى ركبتيه.

هتف يسوع، بعد أن تمالك نفسه «يا ابن البرق، اكتب: أنا الألف والياء، الكائن والذي كان والذي سيأتي. أنا رب الجنود» ألم تسمع نفيراً عالياً كأنفخ في البوق؟

ارتعد يوحنا. أن عقل المعلم بدأ يختل! كان يعلم أن القمر يُسكّر. ولهذا تراه خرج إلى الفناء: ليعيد يسوع إلى الداخل. ولكن واحسرتاه! لقد وصل متأخراً. قال «اهداً يا معلم، أنا يوحنا، محبوبك. هيا بنا إلى الداخل. هذا منزل اليعازر»

عاد يسوع يصدر أمره «اكتب! هناك سبعة من الملائكة يكتبون عرش الرب، كل منهم يضع يوقاً على فمه، ألا تراه، يا ابن البرق؟ اكتسب «الملاك الأول نزل إلى الأرض، برداً وناراً، ممزوجين بالدم. فاحترق ثلث الأرض، وثلث الأشجار، وثلث العشب الأخضر. والملاك الثاني نفخ في بوقه، فسقط جبل من نار إلى البحر. فتحول ثلث

البحر إلى دماء، ومات ثلث السمك، وغرق ثلث السفن. ونفخ الملاك الثالث في بوقه، فسقط نجم عظيم من السماء فتسبب ثلث الأنهار، والبحيرات والينابيع. ونفخ الرابع في بوقه، فظلم ثلث قرص الشمس، وثلث قرص القمر، وثلث النجوم. ونفخ الخامس في بوقه، فسقط نجم آخر، وقفر الجحيم لجثته مطلقاً سحباً من الدخان، ومع الدخان جراد أندفع يهاجم، ليس العشب والأشجار، بل الناس! له شعر طويل كشعر النساء، وأسنانه كأسنان الأسود. وهو مسلح بدروع حديدية، وأجنحته تدوي كمبريات كثيرة الخيل تندفع إلى المعركة. ونفخ السادس في بوقه...»

لكن يوحنا لم يعد يحتمل المزيد. فانتفجر في نوبة بكاء وارتدى عند قدمي يسوع، وصرخ «معلمي، اهداً... اهداً...»

سمع يسوع بكاءه. فانتفض، وانحنى قرأى تلميذه الحبيب عند قدميه. قال «يوحنا، أيها الحبيب، لماذا تبكي؟»

خجل يوحنا من التصريح بأن عقل المعلم، ولبرهة من الزمن، وتحت ضوء القمر، اختل. قال «هيا بنا إلى الداخل يا معلم، العجوز يتساءل عما ألم بك، وتلاميذك يرغبون برؤيتك»

«ولهذا تبكي، يا يوحنا الحبيب؟ ... هيا بنا إلى الداخل» دخل وعاد إلى مجلسه بجوار الحبر العجوز. كان شديد الإرهاق، ويدها تتفصدان عرقاً، وكان يغلي من شدة الحرارة. إلا أنه كان يرتعش.

حدق الحبر العجوز إليه، وقد تملكه الخوف. قال وهو يشد على يد يسوع التي تقطر «يا بني، لا تنظر إلى القمر. يقال أنه حَلَمَهُ معشوق الشيطان الأول، الليل، وأنه يفيض بال...»

لكن تفكير يسوع كان منصباً على الموت. قال «أعتقد يا أيت أنك أسأت الكلام عن الموت. إن الموت لا يتلبس وجهه هيرودوس، لا،

انه سيد عظيم. خارس مفاتيح الرب، وهو الذي يفتح الباب. حاول أن تتذكر ميثاق أخرى يا أبت، وواسني»

كان التلاميذ قد فرغوا من تناول وجبتهم، وقطعوا حبل مسامرتهم لينصتوا. نطفت مرثا المائدة، وجثمت المريثمان عند قدمي يسوع. وبين الفينة والأخرى كانت كل منهما تنظر خلسة إلى ذراعي، وصدر، وعيني وهم وشعر الأخرى، وهي تقدر بقلق أبيهما أبهى جمالاً.

قال العجوز «أنت على حق يا ولدي، لقد أسأت الكلام عن كبير ملائكة الرب القائمة. أنه دائماً يتلبس وجه المحتضر. فإذا مات هيرودوس يصبح هو هيرودوس! ولكن إذا مات قديس فإن وجهه يشع كسبع شموس. إنه سيد عظيم يأتي بعريته ويرفع القديس عن الأرض ويحمله إلى السماء. أتود أن ترى الوجه الذي سيكون لك في الأبدية؟ انظر إذن لترى كيف سيظهر أمامك الموت في الساعة الأخيرة»

كانوا جميعاً منصتين شاعري الأفواه، وكل منهم، بينه وبين نفسه، يزن بقلق قدر روحه. وخيم الصمت فترة طويلة فوقهم، وكان كلاً منهم يجاهد ليزي وجه موته.

أخيراً فتح يسوع فمه وتكلم. «ذات يوم يا أبت، حين كنت في الثانية عشرة من عمري، ذهبت إلى الكنيس واستمعت إليك تحكي قصة استشهاد النبي اشعيا وموته لأهل الناصرة. لكن هذا حدث قبل زمن طويل، ونسيتها. وهذه الليلة أنا شديد التوق لأسمع مرة أخرى قصة نهايته، فقد تهدأ غلواء روحي وأتصالح مع الموت : لقد أثرت غضب روحي الشديد يا أبت بكلامك عن هيرودوس»

«لماذا تريدنا أن نتحدث فقط عن الموت في هذه الأمسية يا ولدي؟ أهذا هو المعروف الذي رغبته بطلبه مني؟»

«هو بالضبط. ولاشيء أكبر منه». ثم التفت إلى التلاميذ وقال «لا تخشوا الموت يا رفاق. بورلدا! قلو لم يكن هناك موت، كيف كنا سنصل إلى الرب ونبقى معه إلى الأبد؟ الحق أقول لكم، الموت يجعل مفاتيح الباب المؤدي إليه»

رسمه الحبر العجوز بدهشة. وقال «يا يسوع، كيف تستطيع أن تتكلم عن الموت بكل هذا الحب والثقة؟ منذ وقت طويل لم أسمع صوتك يتكلم بمثل هذه الرقة»

«احك لنا عن موت النبي اشعيا، وسترى أنني على حق»

انتقل الحبر العجوز من مكانه ليتجنب لمس اليعازر.

«نسي الملك منسى وصايا أبيه حزقيال الذي يخاف الرب، ودخله الشيطان وتملكه. ولم يعد منسى يحتمل سماع اشعيا، صوت الرب، لذا بعث بالقتلة إلى كل أرجاء اليهودية للعثور عليه وذبحه حتى لا يتكلم بعد ذلك. لكن اشعيا كان موجوداً في بيت لحم، مختبئاً داخل شجرة أرز ضخمة، وصار يصلي ويصوم لكي يواف الرب بأسرائيل ويخلصها. وذات يوم مر رجل سامري خارج عن القانون به وكان يصلي وقد برزت يده من الشجرة، رآها السامري المتعبد ففرغ من فوره إلى الملك وأخبره عن مكانه. فقبض على النبي واقتيد إلى الملك. فأمر الملعون قائلاً «أحضروا المنشار التي تقطع به الأشجار، وانثروه إلى نصفين». فشدوه على الأرض، ثم أمسك رجلان بطرفي المنشار وأخذوا ينشران. صرخ الملك «تبراً من نبوءةك وسامنعك الحياة!». لكن اشعيا كان قد انتقل إلى الفردوس. ولم يعد يسمع الأصوات الأرضية. وعاد الملك يصرخ «أنكر الرب، وسأجعل رعاياي يسجدون لك ويعبدونك».

«عندئذ أجابه النبي «لا قدرة لك على قتل جسدي. ولا قدرة لك على النيل من روحي. ولا على خلق صوتي. فكلاهما خالد،

أحدهما يصعد إلى الرب، والآخر، أي صوتي، سيبقى إلى الأبد على الأرض ليعظه. بعد أن قال هذا جاء ملاك الموت على عربة من نار، يتوج شعر رأسه تاج من نبات الأرز المذهب، وأخذته نهض يسوع واقفاً، وعيناه تشعان. وكانت هناك عربة من نار معلقة فوقه.

قال، وهو ينقل ناظره من تلميذه إلى آخر: يا أصدقائي، يا رفاق ترحالي الأحياء: إن كنتم تحبونني فاسمعوا الكلمات التي سأقولها لكم هذه الليلة. يجب أن تظلوا دائماً على أتم الاستعداد والتأهب - فمن لديه خف، فبالخف يتسلح، ومن لديه هراوة، فبالهراوة استعدادوا للرحلة العظمى. فما الجسد؟ إنه خيمة الروح، وعليكم أن تهتفوا في كل لحظة «ستطوي خيامنا ونرحل! نحن راحلون، عائدون إلى وطننا الأم»، وما هو وطننا الأم؟ إنه السماء له «إليكم، يا أصدقائي، كلمتي الأخيرة التي أود أن أقولها لكم هذه الليلة. حين تجدون أنفسكم أمام جدث انسان محبوب لديكم، فلا تذرفوا الدمع، وتذكروا هذا العزاء العظيم: الموت باب يؤدي إلى الخلود؛ ولا باب آخر. إن محبوبكم لم يمت - بل حظي بالخلود»

الفصل السابع والعشرون

كان الربيع طوال النهار، بدءاً من انبلاج الفجر الرائع، ولكن بشكل أكبر خلال الليل بعيداً عن كل رقيب، كان الربيع يهدوء ينحني الصخور والثرية جانباً ليطلع على أرض اسرائيل. وفي ليلة واحدة امتلأت سهول سارون في السامرة ويزدعيل في الجليل بأزهار الربيع الصفراء والزئبق البري، ونبتت أزهار شقائق النعمان القصيرة العمر - كبقع من الدم - بين صخور اليهودية المتجعدة. وظهرت على الكرمة عيون جاحظة كعيون السرطان. وفي كل من هذه البراعم الزهرية والخضراء كانت العناقيد الشجيرة، والعنب الناضج والتين الجديد تستجمع زخمها لتتجسس: وفي مكان أعمق، في قلب كل برعم، كمنّت أغاني الناس. وعند كل وريقة خضراء وقف ملاك حارس ليساعدها على النمو. وتظن بأن الأيام الأولى للخلقة عائدة، حين تمثل كل كلمة يقولها الرب وتقع على الثرية المحروثة حديثاً بالأشجار، وبالأزهار البرية وبالخضرة.

هذا الصباح وعند سفح جبل جريزيم المقدس كانت المرأة السامرية تملأ من جديد ابريقها من بئر يعقوب وتنظر على طول

الدرب المؤدي الى الجليل، وكأنها كانت ماتزال تتوق لرؤية الشاب الشاحب الذي حدثها ذات مرة عن الماء الخالد، والآن وقد حل فصل الربيع كشفت هذه الأرملة المحبة للمتعة أكثر من ذي قبل عن استدارتي لثديها المبللين بالعرق.

في هذه الأمسية الربيعية تحولت روح اسرائيل الخالدة، أصبحت عذلياً راضياً على النافذة المشرقة لكل صبيّة يهودية بتول وأبقاها مستيقظة حتى الفجر بغناؤه، ويزقزق، مؤنباً إياها، لم تأوين الى النوم وحدك؟ لم باعتقادك منحتك شعراً طويلاً وثديين وكفّلين عريضين مستديرين؟ انهضي، وتزيّني بحليّك، وأطلي من نافذتك، قفي على عتبة دارك عند انبلاج الفجر، واحملي ابريقك واذهي الى البئر واعبئي مع غُراب اليهود الذين تصادفنيهم في سبيلك، وانجبي معهم أطفالاً لأجلي. نحن معشر العبرانيين أعداؤنا كُثُر، ولكن طالما أن بناتي يهينني أطفالاً أظل خالداً، أكره الحشود غير المحروثة والأشجار غير الملقحة في أرض اسرائيل - وأكره العذارى.

في صحراء أدوميه، بالقرب من جبل حبرون الذي يحميه الرب وحول قبر ابراهيم المجلل بالقدسية، استيقظ الأطفال اليهود في الصباح الباكر وراحوا يلعبون لعبة المسيح، فصنعوا أقواساً من أغصان الصفصاف وأخذوا يطلقون سهاماً مصنوعة من عيدان القصب الى السماء، وينادون على المسيح - ملك اسرائيل - ليهب، بعد طول انتظار معتسماً سيفاً طويلاً ومعتماً خوذة ذهبية، وصنعوا له عرشاً ليتربع عليه وذلك بنشر جلد خروف على الجذث المقدس، وأنشدوا أغنية خاصة لأجله، وصفقوا له بأيديهم ليظهر لهم - وطفحة، ومن خلف الجذث، تعالى متاف الفرع وقرع الطبول، ثم خرج المسيح يسير مختالاً وهو يصيح، بلحية وشارب مصنوعين من شرابات الذرة، ووجه صارم مدهون، وكان يحمل سيفاً طويلاً

من غصن نخيل وراح يضرب الأولاد واحداً بعد آخر على رقبتيه، وكانوا جميعاً يسقطون صرعى.

طلع النهار أيضاً على منزل اليعازر في بيت عنها، لكن عيني يسوع لم تغمض بعد، رفض كربه أن يغف، إنه لا يجد نفسه غير درب واحد سالك الموت، وكان يسأل نفسه، إن النبوءات تسببت، غني، انني الحمل الذي سيأخذ على عاتقه آثام العالم ويذبح من عيد الفصح القادم، فلماذا الحمل الآن قبل مواعده يساعة، اللحم ضعيف، ولا ثقة لي به، وقد ينشابه الجبن في الدقيقه - حديد فلهيات الموت الآن مادمت لا أزال أشعر بروحي منتصه ... أم، متى تشرق الشمس حتى أتوجه الى الهيكل، يجب أن أذهب حداً شيء - اليوم!

بعد أن أخذ قراره، اطمأن باله بعض الشيء، فما كان واستغرق في النوم، ورأى حلمًا: تراءت له السماء بسناهاً محافاً بسياج مقضب ملأه بحيوانات برية، هو أيضاً كان حيواناً برياً ويغفر ويمرح مع البقية، وأثناء طفره قفز عبر السياج ووقع على الأرض. عندما رآه الناس تولاهم الذعر، صرخت النسوة وجعلن أطفالهن من الشوارع حتى لا ياكلهن الوحش. وحمل الرجال الرماح، والحجارة، والسيوف، وبدأوا يطاردونه... كانت السماء تمل من كل أنحاء جسمه، وفجأة وقع على الأرض منبطحاً على وجهه. ثم بدا وكان مجموعة من القضاة تجفعت حوله لكي تحاكمه، الا أنهم لم يكونوا بشرًا، بل كانوا ثعالب، وكلاباً، وخنازير، وثأباً، حاكموه، وحكموا عليه بالموت، ولكن بينما هم يقودونه الى الاعدام تذكر انه لا يمكن أن يموت : انه حيوان قدسي، خالد، وحين تذكر ذلك أمسكت امرأة بيده، فإذا بها مريم المجدلية. خرجت معه من المنيعة الى الحقول، وقالت له «لا تصعد الى السماء، لقد حل الربيع: ابق

معناه وساراً وساراً، الى أن بلغا مشارف السامرة. هناك التقى المرأة السامرية، وأبريقها على كتفها. فقدمته له وشرب، بعد ذلك أمسكت هي الأخرى بيده وصحبته، دون أن تتكلم، حتى مشارف الجليل. ثم برزت أمه من تحت أشجار الزيتون العتيقة المزهرة. كانت تتدثر بشال أسود وتكي. وحين رأت جروحها والدماء التي تغطي كل جسمه وأكليل الشوك يتوج شعره، رفعت يديها وقالت له «قائمك الرب كما عذبتني، لقد جعلت اسمي مضطرب في أقواف الناس؛ والعالم كله يتهاشم عني. لقد ثرت ضد أرض الآباء، وعلى اللاموس، وعلى رب إسرائيل، ألا تخشى الرب، ألا تشعر بالخجل أمام الناس؟ ألا تفكر في أمك وأبيك؟ اللعنة عليك!». وبعد أن قالت هذا، اختفت.

استيقظ بارتجاجة، وهو يتصيب بالعرق، وكان تلاميذه متمددين حوله، يشخرون. وفي الفناء الخارجي صاح الديك. سمع بطرس الصباح ففتح عينيه نصف فتحة، فرأى يسوع واقفاً. قال «يا معلم، حين صاح الديك كنت أرى حلماً. رايتك تمسك بلوح خشب متصالبين، فتحوّل بين يديك الى قيثارة وقوس، فأخذت تمزق وتغني. فتجمعت الحيوانات البرية من كل أركان الأرض لتتصت اليك... فما تفسيره؟ سوف أسأل الحبر العجوز» أجابه يسوع «الحلم لا ينتهي عند ذاك الحد يا بطرس، لماذا استعجلت في الاستيقاظ؟ ان للحلم بقية»

«بقية؟ لا أفهم. أتراك حلمت به أنت نفسك، يا معلم - كله؟» «حين سمعت الحيوانات البرية الأغنية اندفعت الى الأمام واقتربت المغني»

جحظت عينا بطرس، وتكهّن قلبه بالفحوى، لكن عقله تعطل. فقال «أنا لا أفهم»

أجاب يسوع «ستفهم في صباح يوم آخر حين ستسمع مرة أخرى صياح الديك»

أخذ يلکز أصحابه بقدمه واحداً بعد آخر، ويقول «استيقظوا أيها العظام الكسولة. لدينا اليوم الكثير من العمل» سأل فيلبس وهو يفرك عينيه «أنحن راحلون؟ رأيي أن تعود الى الجليل، الى الأمان»

صرّ يهوذا أسنانه ولكن لم يفه بكلمة. استيقظت النسوة في الغرفة الداخلية وأخذن يشرثن. وخرجت سالومة العجوز لتضرم النار، وكان التلاميذ قد اجتمعوا في الفناء، ينتظرون يسوع الذي مال على الحبر العجوز وأخذ يكلمه بصوت خافت. وكان الحبر العجوز، الذي اشتدت عليه وطأة المرض، طريح الفراش في الزاوية الخلفية من المنزل.

سأله الحبر «الى أين أنت ذاهب الآن يا ولدي؟ الى أين ستقود جيشك؟ ستعود من جديد الى اورشليم؟ هل سترفع يدك مرة أخرى لتهدم الهيكل؟ وكما تعلم، تصبح الكلمة فعلاً حين تصدر عن روح عظيمة - وروحك روح عظيمة. وأنت موثوق فيما تقول، فإذا أعلنت أن الهيكل سيُدمر، فسيُدمر حقاً ذات يوم. لذا، زن كلامك»

«هذا ما أفعله يا أبت، انني أفكر في العالم كله حين أتكلم، أختار ماسبيشي وما سيُدمر. انني أخذ المسؤولية على عاتقي» «آه، ليتني فقط أبقى على قيد الحياة مدة كافية لأعرف من تكون! لكني عجوز، والعالم أصبح خيلاً يحوم حول رأسي، يريد أن يلج - لكن كل الأبواب مسدودة»

«حاول أن تصمد بضعة أيام آخر يا أبت. حتى عيد الفصح. تمسك بروحك التي تهفو للحياة العزيزة، وستعرف. الساعة لم تحن بعد»

هز الحبر رأسه، وقال شاكياً «متى سنأتي تلك الجماعة؟ هل خدعني الرب؟ ماذا حل بوعده؟ إنني احتضرت، احتضرت - فأين المسيح؟». وقبض على كتفي يسوع بكل ما تبقى لديه من قوة. «ابق حتى عيد الفصح يا أبت، وسأبشر أن الرب يفي بوعده». وتخلص يسوع من قبضة الرجل العجوز، ثم خرج إلى أرض الفناء. قال «يا نثنائيل، وأنت يا فيلبس: اذهبا إلى القرية، إلى آخر منزل فيها، هناك ستجدان أتانا ومعها جحشها مريوطين إلى مشبك الباب، فحلاهما، واتيااني بها. فإذا سألكما أحد إلى أين تأخذانهما، فأجيبا «العلم يحتاجها وسوف نعيدها».

همس نثنائيل إلى صديقه «سوف نتورط في المشاكل» قال فيلبس «هيا بنا، إفلع ما يأمرك به، وليكن ما يكون!».

كان متى قد تناول قلمه منذ الصباح الباكر واستقر عينيه وأذنيه، وقال في نفسه، يا رب إسرائيل، انظر كيف تم البناء بأكمله كما أعدته له الأنبياء، ذوو الاستشارة القدسية، ماذا يقول النبي زكريا؟ «ابتهجي جداً يا ابنة صهيون اهتفي يا بنت اورشليم. هوذا ملكك يأتي إليك هو عادل ومتصور وديع وراكب على حمار وعلى جحش ابن أتان!».

قال متى ليخبر المعلم «يا معلم، يبدو لي أنك تعب ولا تقوى على السير إلى اورشليم مشياً على الأقدام».

أجابه يسوع «لا، لست تعباً، لماذا تسأل؟ لقد انتابتي فجأة رغبة بالركوب».

قاطعه بطرس «يجب أن تمتطي فرساً أبيض! أنت ملك إسرائيل، اليس كذلك؟ لذا يجب أن تدخل إلى عاصمتك على ظهر فرس أبيض».

ألقى يسوع نظرة سريعة على يهوذا ولم يدل بجواب.

في تلك الأثناء كانت المجادلة قد خرجت وجلست على عتبة الدار. كانت عينها منتفختين لأنها لم تفز بأي قسط من النوم طوال الليل، انكأت على قائم الباب وراحت تملأ ناظرها بالنظر إلى يسوع بعنف، دون أن تحظى بالعزاء، وكأنها ستفاد به إلى الأبد، ودت لو تطلب منه أن لا يرحل، لكنها شعرت وكأن خنجرتها قد سدت، ورأها متى تفتح فمها وتقلقه دون أن تقدر على اخراج كلمة واحدة، وفهم الأمر، وقال لنفسه، ان الأنبياء لا يسمحون لها بالكلام، لا يسمحون لها بأن تعيق انجاز المعلم لما تنبأوا به. سوف يمتطي الأتان ويرحل إلى اورشليم شاءت المجادلة أم أبت، شاء هو نفسه أم أبي. انه قدر مكتوب!

في تلك اللحظة وصل فيلبس ونثنائيل، يجران خلفهما بفرح الأتان وجحشها غير المسرح بعيل واحد. هتف فيلبس قائلاً «لقد صحت ماقلت يا معلم، امتطر وهيا بنا».

التفت يسوع ليلقي نظرة على المنزل، كانت النسوة واقفات يراقبنه وهن يشكن أيديهن، حزينات ولكن صامعات، ووقفت سالومه العجوز مع الأختين، ووقفت المجادلة في المقدمة...

سأل يسوع «هل لديكم سوط في المنزل يا مرتا؟»

أجابت مرتا «لا، يا معلم. لا يوجد غير مهماز الثور».

«أعطنيه».

كان التلاميذ قد وضعوا ملابسهم على الحيوان المطواع ليعتدوا مجلساً ليلاً للمعلم، وفوقها جميعاً فرش المجادلة ملاء حمراء من نسجها، مطرزة على حوافها رسوم لأشجار سرو صغيرة سوداء.

سأل يسوع «هل الجميع مستعدون؟ هل كل قلب فيكم ودود؟»

أجابه بطرس الذي سار في المقدمة «نعم»، وقاد الطريق وهو يمسك بزمام الحيوان.

سمع أهالي بيت عنيا المجموعة أثناء مرورهم ففتحوا أبوابهم،
وسألوهم : «إلى أين أنتم ذاهبون يا شباب؟ ولماذا ترى النبي راكباً
اليوم؟»

مال عليهم التلاميذ وأفضوا إليهم بالسر قائلين «انه متوجه
ليترفع على عرشه»
«أي عرش، يا صاح؟»

«شش، إنه سر. الرجل الذي ترونه أمامكم هو ملك إسرائيل»
فهتقت الصبايا قائلات «حقاً! هيا ننضم إليه». وشيئاً فشيئاً
تجمهر الناس من حوله .

كان الأطفال يتقلعون سعف النخيل ويمشون في المقدسة، يغنون
بفرح «بورك القادم باسم الرب»، ويقلع الرجال ستراتهم
ويفرشونها على طول الطريق ليمر من فوقها، وكم ركضوا ! وكم
كان ربيعاً زاهراً! ما أطول الأزهار هذا العام، وما أجمل غناء
العصافير وما أروع طيرانها خلف الموكب، في طريقه الى اورشليم !
مال يعقوب على أخيه، وهمس له «بالأمس تحدثت اليه أمنا،
قالت ان عليه أن يجلسنا عن يمينه ويساره بعد أن يترفع على عرش
المجد. لكنه لم يجيبنا. لعله غضب. قالت ان وجهه اكفر»

أجاب يوحنا «غضب بالطبع. ماكان يجب أن تفعل ذلك»

«ماذا إذن ؟ أيتركنا كما نحن ومن ثم - من يدري؟ - يمتح
الأفضلية ليهوذا الاسخريوطي ؟ ألم تلاحظ كيف كانا طوال تلك
الأيام السابطة يتحدثان سرا؟ انهما لا يفترقان. خذ حذرَكَ يا
يوحنا. اذهب اليه وكلّمه بنفسك حتى لا تصيبنا الخسارة. لقد
حانت الساعة لتوزيع مراتب الشرف»
لكن يوحنا هز رأسه معترضاً، وقال «يا أخي، انظر كم هو ميثل
وكانه ذاهب ليلقي حقنه»

تساءل متى وهو يسير وحده خلف الآخرين، أود لو أعرف
مايخبئه القدر. ان الأنبياء لا يقدمون تفسير واضحة. بعضهم
يقول إنه العرش، وآخرون يقولون انه الموت. فأي النبوءتين
سيتحقق؟ لا أحد يمكنه أن يفسر نبوءة ما الا بعد تحققها. عندئذ
فقط تفهم فعوى النبوءة . لذا - لنصبر وننتظر لنرى ما سيحدث -
من باب التيقن. سوف ندون كل شيء هذه الليلة بعد رجوعنا.

في تلك الأثناء كانت البشارة قد وصلت على جناح السرعة الى
القرى المجاورة والى الأكواخ المنتشرة بين كروم الزيتون والكرمة .
فهرع الضالّاحون من كل حذب وصوب ليفرشوا أريقتهم أو عناديلهم
على الأرض ليمر النبي من فوقها، وكان هناك أيضاً العديد من
المقعدين والمرضى، والمعمّنين، وبين الفينة والأخرى كان يسوع يلتفت
خلفه لينظر الى جيشه. وفضاءً شعر بوحدة هائلة، فالتفت ونادى «يا
يهوذا»، لكن التلميذ الانطوائي كان يسير آخر الجميع ولم يسمعه.

عاد يسوع يهتف بيأس «يهوذا!»

فأجابه ذو اللحية الحمراء «أنا هنا»، وراح يدفع بالسلاميد
جانباً ليمر من بينهم.

«لييك يا معلم؟»

«ابق بجانبني يا يهوذا، لا زمني»

«لا تقلق يا معلم. لن أتركك»، وتناول الحبل من يد بطرس
وتولى القيادة.

عاد يسوع يقول «لا تتخلي عني يا يهوذا، يا أخي»

«ولماذا أتخلي عنك يا معلم؟ ألم تنفق جميعاً على كل هذا؟»

أخيراً اقتربوا من اورشليم. المدينة المقدسة، بيضاء وضياء
تحت أشعة الشمس التي لا ترحم، تلمع أمامهم فوق جبل صهيون،
اخترقوا قرية جبلية صغيرة، كانت يتردد في أرجائها، من أقصاها

الى اذناها ترجيع ترنيمة حزينة، هادئة عذبة، كصوت همل مطر ربيعي دافئ.

سأل يسوع وقد انتابته رعشة «على من يندبون؟ من الذي مات؟»

لكن القرويين الذين كانوا يترامسون خلفه اكتفوا بالضحك. «لا عليك يا معلم لم يمض أحد. ان فتيات القرية يرتلون ترنيمة أثناء ملحنهن بالطاحونة اليدوية»

«ولكن لماذا؟»

«ليعتدن على ذلك يا معلم. ليعرفن كيف يندبن عند اللزوم» ارتقوا الزقاق المرسوف بالحصى حتى ولجوا المدينة أكلة البشر: أسراب صاخبة، بملابس غنية الزخارف من كل بقعة من العالم - كل منهم يحمل معه روائحه المحلية وقذارته - يتبادلون العناق والقبل بعد يومين يقام الاحتفال الخالد، ويصبح كل اليهود أخوة! حين رأوا يسوع يمتطي أتاناً متواضعة والحشود تتبعه ملوحين بسعف النخيل، ضحكوا.

«من يكون هذا يا ترى؟»

إلا أن المتعبدن والمرضى والمعدمين رفعوا قبضات أيديهم في وجوههم مهتدين «سوف ترون الآن لهذا يسوع الناصري ملك اليهود!»

ترجل يسوع وأخذ يرتقي على عجل درجات الهيكل اثنتين اثنتين، حتى وصل الى رواق سليمان، قنوقف عنده، وجد عنده أكشاكاً للبيع قد نُصبت، وآلاف الناس يبيعون ويشتررون، يشامرون، يتناقشون، ينادون على سلعهم: تجار، صياغة، أصحاب حانات، عاهرات، فتصاعد الغضب الى عينيه، وتولاه حق مقدس، فرقع مهماز الثور وراح ينزل به على كل كشك يبيع الخمر، وعلى أكشاك

بيع المربطيات، وأماكن صتمعها قلب الطاولات، وضرب التجار بهممازه، وهو يصرخ «ابعدوا! اخرجوا من هنا»، ملوحاً بهمماز الثور ومتقدماً. وكان من داخله يتضرع بهدوء ومرارة: ربي، ما شتته يجب أن يحدث، فليحدث - ولكن بسرعة، انني لا أسالك أي فضل آخر. أسرع - ماضت ما أزال محتفظاً بقواي.

اندفع القوغاء خلفه يصرخون مهتاجين «اخرجوا من هنا! اخرجوا من هنا!»، وينهبون الأكشاك. توقف يسوع عند الممر الملكي المقططر، المطل على وادي قدرون. كان الدخان يتصاعد من كامل جسده ومن شعره الطويل الأسود الفاحم، وينهمر على كتفيه. وكانت عيناه تطلق لهباً. صرخ «لقد جئت لأضرم النار في العالم. في الصحراء نادى يوحنا قائلاً «توبوا! توبوا! فليوم الرب يات قريباً». أما أنا فأقول لكم، لم يعد لديكم وقت لتتوبوا. لقد جاء». جاء. أنا هو يوم الرب! في الصحراء كان يوحنا يعمد بالماء، أما أنا فأعمد بالنار. أنا أعمد الناس، والجبال، والمدن، والقوارب، انني أرى النار منذ الآن تطوق أركان الأرض الأربعة. أركان الروح الأربعة فابتهج. لقد جاء يوم الرب: يومي أنا!»

وصرخ القوغاء «النار! النار! أنزل النار، أحرق العالم!»

حمل اللاويون رماحهم وسيوفهم، وسار يعقوب، أخو يسوع، في المقدمة، وتعاويذه تتدلى من عنقه، واندفعوا يبعون القبض على يسوع، لكن غضب الناس استشاط، واستجمع التلاميذ شجاعتهم واندفعوا كجسد واحد وهم يزارون لينضموا للآخرين في الشجار. وغالياً فوق برج القصر كان الحراس الرومان يراقبونهم ويضحكون.

أخذ بطرس مشعلاً مضاءً من أحد الأكشاك، وصرخ «وراعهم يا أخوة. النار، يا شباب، لقد حانت الساعة!»

كان يمكن أن تراق الكثير من الدماء في بيت الرب لو لم يتردد رجع نفخ الأبواق الرومانية مهدداً صادراً عن برج بيلاطس. ثم خرج قيافا الكاهن الأكبر الجليل من الهيكل وأمر اللاويين بانزال أسلحتهم. وكان قد حفر بنفسه، ويكثر من البراعة فخاً ليقع فيه المتطرد حتماً - وبلا صخب.

تحلق التلاميذ حول يسوع وراحوا يرمقونه بالمد شديد. هل سيعطي إشارة البدء أم لا؟ لماذا يتلکأ، ولماذا، بدل أن يرفع يده نحو السماء، يكتفي بالتعديق الى الأرض؟ إنه حتماً ليس بحاجة للاستعجال. أما هم - هم فقراء ضحوا بكل شيء، وقد حان الوقت لينالوا الثمن المقابل.

قال بطرس، أحمر الوجه ويتصبب عرقاً «قرر، يا معلم! اعطِ الإشارة!»

كان يسوع قد أغمض عينيه، دون أن ياتي بحركة، ونقصند جبينه خبات من العرق. وردد بينه وبين نفسه، يومك قادم يا رب، لقد حانت نهاية العالم. أنا أعرف أنني سأعمل على وقوعها - أنا - ولكن بموتي... وأخذ يردد هذا الكلام مراراً وتكراراً مستمداً منه الشجاعة.

صعد يوحنا أيضاً اليه. لمس كتفه ثم هزه ليدفعه إلى فتح عينيه، وقال «إذا لم تعطِ الإشارة الآن سينتهي أمرنا. ان مافعلته اليوم يعني الموت» انضم اليهما توما قائلاً «يعني الموت، وأعلم أننا لا نرغب بالموت»

هتف فيلبس ونثنائيل معاً وقد أحفلا «نموت؟ ولكننا قدّمنا الى هنا لتكون لنا الغلبة!»

مال يوحنا على صدر يسوع، وسأله «فيم تفكر يا معلم؟»

لكن يسوع دفعه جانباً، وقال «يهودا، تعال الى جوارى»، ثم انكأ على ذراع ذي اللحية الحمراء الضخمة.

همس له يهوذا «تشجع، يا معلم، فالساعة لم تحن بعد؛ ولا يجب أن نخذلهم»

حدق يعقوب بعقد الى يهوذا. في السابق لم يكن المعلم حتى يلتفت لينظر اليه، أما الآن، سامعني هذه الصداقة والتهامس السري؟ «هناك أمر يدبّر بين الرجلين، ما رأيك يا متى؟» «لا أرى شيئاً. إنني أتصت الى كل ماثولونه جميعاً وما تفعلونه، ثم أدوّه. هذا هو عملي»

ضغط يسوع على ذراع يهوذا، فقد شعر فجأة بدوار، فدعاه يهوذا، وسأله «أنت متعب يا معلم؟»

«نعم، متعب»

أجابته ذو اللحية الحمراء «فكر في الرب وستشعر بالانتعاش» استعاد يسوع توازنه ثم التفت الى تلاميذه، وقال «هيا، لنرحل»

لكن التلاميذ لم يبرحوا مكانهم. لا يريدون الرحيل. الى أين؟ الى بيت عنيا من جديد؟ ثم الى متى؟ لقد سئموا هذا الانتقال المكوكي ذهاباً وإياباً.

لفت نثنائيل يهدوء انتباه أصدقائه بالقول «أعتقد انه يغيظنا. لن أترجّح من مكاني». قال هذا وتبع بقية التلاميذ الذين يمشوا بالتحرك تكدين في طريق العودة الى بيت عنيا.

من خلفهم سمعوا اللاويين والفريسيين يهتفون، وعمد لاوي حتى، بشع المنظر مربوع الكتفين، الى قذف قشرة ليمونة، فأصابته بطرس أصابة مباشرة في وجهه.

«ضربة موفقة يا شاؤول! لقد أصبت الهدف!»

هم بطرس بالاستندارة ليشبع اللاوي ضرباً، لكن اندراوس كبحه. وقال له «صبراً يا أخي، سيأتي دورنا»
دمدم بطرس «متى؟ اللعنة، متى يا اندراوس؟ ألا ترى القوضى التي وقعنا فيها؟»

ساروا على الدرب، مدلين صامتتين. وكان الحشد من خلفهم قد تفرق وهم يسبون. لم يعد أحد يتبعهم، لم يعد أحد يفرش ثوبه الرث للمعلم ليمشي عليه. بات فيلبس الآن هو الذي يقود الأتان بينما أمسك نشايل من الخلف بالذيل. كان كلاهما تواق لإعادة الحيوان إلى صاحبه حتى لا يقع في المشاكل. كانت الشمس تلتهب؛ وهباً نعيم دافئاً؛ ونصاعيد سخاية من الغبار وكادت تغرقهم. حين اقتربوا من بيت عنيا وجدوا أمامهم باراباس مع اثنين من أصحابه التهمجين. يشاربيهما الضمخمين.

صرخ «إلى أين تأخذون معلمكم؟ الرحمة، انه خائف حتى الموت!»

أجاب رفيقاً باراباس وقد انفجرا يتهقها «انهم يأخذونه ليعيد أليعازر إلى الحياة!»

حين وصلوا إلى بيت عنيا ودخلوا إلى المنزل وجدوا أن الحبر العجوز يلفظ أنفاسه الأخيرة. وكانت النسوة راكعات حوله. يراقبن رحيله بوجوم ودون أن تند عنهن أية حركة. كن يعرفن أن ليس يوسعهن أن يفعلن أي شيء ليعدنه إلى الحياة. اقترب يسوع ووضع يده على جبين الرجل العجوز، فابتسم الحبر لكنه لم يفتح عينيه. جلس التلاميذ القرفصاء في فناء الدار وهم يعانون من الاحساس بالمراة. ولم يتكلموا.

أوما يسوع إلى يهوذا، وقال «يا يهوذا، يا أخي، لقد حانت الساعة. هل أنت مستعد؟»

«ها أنا أسألك مرة أخرى يا معلم: لماذا اخترتني؟»
«أنت تعرف أنك الأقوى. الآخرون لا طاقة لديهم على الاحتمال... هل تحدثت إلى الكاهن الأعلى قيافا؟»
«نعم، يقول انه يريد أن يعرف متى وأين»

«قل له عشية عيد الفصح بعد تناول العشاء الفصحى، في جسيماني. تشجع يا يهوذا، يا أخي. أنا أيضاً أحاول أن أستجمع شجاعتي»

هز يهوذا رأسه ودون أن يقول شيئاً خرج إلى الطريق لكي ينتظر طلوع القمر.

سألت سالومه العجوز ولديها «ماذا حدث في اورشليم؟ ماذا حصل معكم يجعل الوجوم يخيم عليكم؟»

أجابها يعقوب «أعتقد يا أمه أننا بتينا بيتنا على الرمال. لقد حصل الانهيار» «والمعلم، وفخامته، وأثواب الحرير الموشاة بالذهب، والعروش؟ خدعكم إذن؟»

نظرت السيدة العجوز إلى ولديها وضربت كفاً بكف، ولكن أياً منهما لم يعطها جواباً.

طلع القمر من خلف الجبال الموايية، حزناً وهدراً. توقف برهة متردداً بالقرب من قمم الجبال، يتأمل العالم، ومن ثم أخذ قراره فجأة وابتعد عن التري، وبدأ بالطلوع. فتوهجت خودة اليعازر الداكنة ببياض براق، وكأنها ظليت فجأة بماء الكلس.

عند الفجر تجمهر التلاميذ حول المعلم. لم يتكلموا بل راح ينقل بصره من واحد إلى آخر وكأنه يراهم للمرة الأولى، أو الأخيرة. وقرابة منتصف النهار فتح فمه وقال «يا أسدقائي، أود أن احتفل بعيد الفصح المقدس معكم. ففي يوم كهذا رحل أسلافنا، خلّفوا وراءهم أرض العبودية وولجوا بحرية المسعراء. نحن أيضاً

خرجنا لأول مرة في عيد الفصح هذا، من عبودية إلى أخرى
وولجنا حرية أخرى، فليسمع كل من له أذنان!

لم يتلق أحد منهم. هذه الكلمات مبهمة. ماهي العبودية
الجديدة، وماهي الحرية الجديدة؟ لم يفهموا. وبعد قليل قال
بطرس «ثمة شيء لا أفهمه يا معلم. إن عيد الفصح بلا حمل
مستحيل. أين سجد الحمل؟»

ابتسم يسوع بمرارة. قال «الحمل مستعد يا بطرس. في هذه
اللحظة بالذات هو يتقدم من تلقاء ذاته إلى ذابحه، حتى يتمكن فقراء
العالم من الاحتفال بعيد الفصح الجديد. لذا، لا تقلق بشأن الحمل»
نهض اليعازر، الذي كان جالساً واجماً في الركن، واقفاً، ثم
وضع يده الشبيهة بالهيكل العظمي على صدره وقال «يا معلم، أنا
أدين لك بحياتي، وبالرغم من سوء أحوالها إلا أنها تظل أفضل من
ظلمة الجحيم. لذا سأحضر لكم حمل عيد الفصح هبة مني، أن لي
صديقاً راعي غنم في الجبل. وداعاً، أنا ذاهب إليه»

نظر إليه التلاميذ وقد تولتهم الدهشة. من أين لهذا الحي
الميت بالقوة على النهوض والتحرك نحو الباب! اندفعت نحوه
الأختان لتمنعهما من الخروج، لكنه دفعهما جانباً، وتناول عصاه
ليبتكئ عليها، واجتاز العتبة.

تقدم مباشرة خلال أزقة القرية. كانت الأبواب على طول
الطريق مفتحة. وتظهر منها النساء المزعزعات، المدهشات، يتعجبين من
قدرة ساقيه المزهولين على السير، ومن عدم انكسار وسطه الرخو
وعلى الرغم من ثأله إلا أنه شد عزيمته وكان بين الحين والآخر
يكافح ليصغر لكي يؤكد استعادته لحيوية شبابه. إلا أن شفتيه لم
تتضما تماماً. لذا تخطى عن فكرة الصغير ويدا، يسيما جادة،
يرتقي سفح الجبل، قاصداً زريبة غنم صديقه.

غير أنه ما إن صار على مرمى حجر من المكان حتى قفز أمامه
باراباس خارجاً من بين أغصان وزال مزهرة. كم من الأيام أمضاها
يتجول في القرية بانتظار هذه اللحظة، بانتظار اللعين الذي عاد إلى
الحياة حتى يخرج من منزله لكي يقتله؟ يجب أن يمنع الناس من
رؤيته ومن تذكر المعجزة. لا بد أن ابن مريم قد جمع حوله، منذ أن
أعادته إلى الحياة، أتباعاً كثيراً؛ لذا يجب أن يعود اليعازر إلى القبر
لكي يتخلص منه إلى الأبد.

صرخ به «اللعة عليك يا تارك الجحيم وما أسعدني بلقياك!
قل لي، هل أمضيت وقتاً ممتعاً في الأسفل هناك، بجوار الرب!
وايهما أفضل، الحياة أم الموت؟»

أجاب اليعازر «أعطي سنة للأولى، ونصف دزينة للآخر، وهم
بالمرور لكن باراباس مدّ ذراعه وسد بها الطريق.

قال «اعذرني، يا عزيزي الشبح. لكن عيد الفصح قادم، وليس
لدي حمل. وهذا الصباح أقسمت للرب بأنني بدل الحمل ساذيج
أول كائن حي أصادفه على الطريق، لأحتفل بعيد الفصح. وشاء
الحظ أن تكون أنت، مدّ عنقك. ستكون أضحتي للرب»

أخذ اليعازر يصرخ، فقبض باراباس عليه من تقاحة آدم ولكن
سرعان ما استولى عليه الذعر، فقد وجد أنه أمسك بشيء شديد
النعومة، كملبس القطن، لا - بل أكثر نعومة، كالهواء. اخترقته
أظافر أصابعه وخرجت ثانية دون أن تتزف منه قطرة واحدة من
الدم. وقال في نفسه، لعله شبح، وازداد شحوب وجهه المملوء
بندوب الجدري.

فسأله «ألا تتألم؟»

أجاب اليعازر، متعلصاً من قبضة باراباس يبغى الفرار «لا.
زعق باراباس «قضاء» وقبض عليه هذه المرة من شعره. لكن

الشعر مع جلدة الرأس بقيا في يده. ولعلت الجمجمة تحت ضوء الشمس بلونها الأبيض المصفر.

غمغم باراباس وهو يرتجف «اللعة عليك! اللعة، أأنت شيخ؟» ثم قبض على ذراع اليعازر اليمنى وهزها بعنف «قل إنك شيخ وسأتركك»

لكنه حين هز الذراع، انطلقت وبقيت في يده. تملكه الرعب قرمى بالذراع النخرة إلى شجيرة الوزال المجاورة وبسق تقززاً. كان رعبه شديداً حتى أن شعر رأسه انتصب حتى آخره. فقبض على خنجره وبقي القخشاء عليه على عجل، والتخلص منه، ثم أمسك به بعناية من قفا رقبته وأسند خنجرته على حجر وأخذ يذبّه. حزّ وحزّ، لكن السكين لم يخترقه، وكأنه يحز حزمة من الصوف. برد الدم في عروق باراباس، وتساءل، أبعل أنني أذبح جثة ميت؟ وهم بالانحدار أسفل التل هرباً لكنه رأى أن اليعازر ما يزال يتحرك وخشي أن يجده صديقه اللعين فيعيده إلى الحياة مرة أخرى. فتقلب على خوفه وأمسك به من طرفيه، تماماً كما يفعل المرء حين يعصر ثوباً ميلاً قبل أن ينشره على حبل الغسيل، وعصره ثم نفضه بقوة. فتشككت فقراته وانفصل عند الوسط إلى قطعتين، فأخفاهما باراباس داخل شجيرة الوزال، ثم هزّ هارباً. وراح يركض ويركس. أنها المرة الأولى في حياته التي يصاب فيها بالذعر. ولم يجروا على النظر إلى الخلف، وغمغم «آه، ليتني أصل إلى اورشليم في الوقت المناسب لأرى يعقوب! سوف يعطيني تيمعة تطرد عني الشيطان!»

في منزل اليعازر في تلك الأثناء كان يسوع يعيل على تلامذته، يجاهد لينير عقولهم أكثر قليلاً حتى لا يخافوا مما هم مقدسون على مشاهدته فيشتتهم.

قال لهم «أنا الطريق، والمنزل الذي يسكن فيه الإنسان. وأنا أيضاً الدليل الذي يخرج المرء لملاقاته، عليكم جميعاً أن تؤمنوا بي. مهما ترون لا تخافوا، فأنا لا أموت، اتسمعون - أنا لا أموت» ظل يهودا وحده في الفناء، كان يحفر الحصى بطرف أصبع قدمه الكبير. وكثيراً ما كان يسوع يلتفت ليلتظر إليه، فتخيم على وجهه سحابة من الحزن الغامض.

قال يوحنا متذمراً «يا معلم لماذا تدعوه دائماً ليلازمك؟ إنك لو نظرت إلى بؤي عينية فستري سكيناً عاضياً» أجابه يسوع «لا، يا يوحنا، أيها الحبيب، ليس سكيناً - بل صليباً»

تبادل التلاميذ نظرات محذقة، واضطرب حالهم. هتف يوحنا، وهو يندفع إلى صدر يسوع «صليب! ومن الذي سيصلب يا معلم؟»

«كل من يقترب من تينك العينين وينظر فيهما سيور وجهه مرسوماً على الصليب. أنا نظرت، فرأيت وجهي» لكن التلاميذ لم يفهموا. وضحك العديد منهم. قال توما مارحاً «ماقلته لنا حسن يا معلم. أما أنا فلن أنظر في عيني ذي اللحية الحمراء مادمت حياً»

قال يسوع «أولادك يا توما وأحفادك سينظرون». وأرسل بصره عبر النافذة إلى يهودا، الواقف عندئذ على درجة الباب يحرق صوب اورشليم.

تذمر متى قائلاً «كلماتك غامضة يا معلم. كيف تتوقع مني أن أسجلها في دفتر؟» وطوال ذلك الوقت كان ممسكاً بقلمه معلقاً في الهواء، غير قادر على فهم أي شيء أو على الكتابة. أجابه يسوع بمرارة «أنا لا أتكلّم لكي تدون ما أقول يا متى»

أنتم الكتبة يسمونكم بالديكة عن حق؛ تظنون أن الشمس لن تشرق إلا إذا صبحتم. أود لو أخذ منك قلمك وأوراقك وأزمت بهم إلى النار!»

وبسرعة جمع مئتي كتاباته ونشر مبتعداً.
لكن غضب يسوع لم يخمد «انتي أقول شيئاً، وأنت تكتب شيئاً آخر، والذين يقرأونك يفهمون بدورهم شيئاً آخر تماماً! أنا أقول صليب، موت، مملكة السماء، الرب... فماذا تفهمون؟ إن كلاً منكم يقرن معاناته الخاصة، واهتماماته ورغباته بكل من هذه الكلمات المقدسة، فتتلاشى كلماتي، وتتبدد روحي. لم أعد قادراً على التحمل!»

نهض واقفاً، يكاد يختنق، وشجاة شعره وكأن عقلة وقلبه مملوءان بالرمل.

اتكلم التلاميذ خائفين، وكان المعلم ما يزال يمسك بهما من الشور ويتخسهم به، وكأنهم ثيران كسولة ترفض أن تتزحزح من أماكنها. كان العالم عرية وهم موثوقون إليها، ويسوع يتخسهم باستمرار، وهم يتعلمون تحت وطأة ثيهرهم دون أن يتزحزحوا من أماكنهم. تأملهم يسوع وشعر بأنه استفد كل قواه معهم. إن الطريق الواصلة بين الأرض والسماء طويلة جداً، وهم لا يأتون بأي حركة.

صرخ بهم «إلى متى ستستمسكون ببشائي معكم؟ من يضمم سؤالاً خطيئياً في نفسه، فليسرع ويطرحة عليّ. ومن لديه كلمة رقيقة يقولها لي، فليقلها بسرعة؛ سوف تريحتني. قلها، حتى لا تلوم نفسك بعد رجولي، لأنك لم تتنهز فرصة التملك بكلمة مليحة لي، ولأنك لم تدعني أعرف مدى حيك لي، عندئذ سيكون الأوان قد فات.»

انصتت النسوة، وكن مستكومات في أحد الأركان، وذقونهن

مقحمة بين ركبهن. وبين القينة والقينة يتهدن. كن يفهم كل شيء، لكنهن لم يقلن شيئاً. وفجأة أطلقت المجدلية صيحة. كانت أول من تكهن بالأمر وتنجرت في داخلها مناحة جنازية. ففرزت واقفة ودخلت إلى الغرفة الداخلية. راحت تفتش تحت وسادتها حتى عثرت على قنينة زجاجية كانت قد أحضرها معها. كانت مملوءة بطيب عربي وقد حصلت عليها من عاشق سابق مقابل قضاء ليلة معها. وكانت تحملها معها على الدوام أثناء سيرها مع يسوع، المسكينة، وتقول لنفسها: الرب عظيم، من يدري فقد يأتي يوم يتاح لي فيه أن يقف إلى جوار كعريس، تلك هي الرغبات المكبوتة في صدرها؛ أما الآن فهي ترى خلف جسد محبوبها الموت - ليس إله الحب، بل الموت، هو أيضاً. كالزواج، يحتاج إلى الطيبوب، أخرجت القنينة الزجاجية من تحت وسادتها، وضمتها إلى صدرها وأخذت تبكي، شدتها إلى صدرها وراحت تهددها كطفل وليد، بكت بهدوء، حتى لا يسمعها أحد. ثم مسحت عينيها، وخرجت وخرت عند قدمي يسوع. وقيل أن ينحني لينهضها كسرت القنينة فتضوعت قدماها المقدستان بعقب الحجر. ثم فترشت شعرها، وهي تبكي، ومسحت به القدمين المعطرتين، وبما تبقى من الطيب غسلت رأس محبوبها. ولتو انهارت مرة أخرى على قدمي المعلم وأخذت تقبلهما.

ثار التلاميذ وغضبوا.

قال توما التاجر «عارٌ أن تدع كل هذا القدر من الطيب النفيس يذهب هباءً. لو أننا بعناه لتمكنا من اطعام العديد من الفقراء»

وقال نشاكيل «ولتبرعنا للثمن»

قال فيلبس «ولاشترينا غنماً»

غصم يوحنا متتهداً «إنه نذير شؤم. فبمثل هذا النوع من

حق التلاميذ بعضهم في وجه بعض، وقد اتسعت عيونهم
اعجاباً، كالأطفال.

قال بطرس جاحظ العينين: «أنت جاد يا معلم؟ كل شيء معد؟
الحمل. والسفافيد^(١)، والتبيض - وكل شيء؟»

أجابه يسوع: «كل شيء». اتعبا، تمسكاً بأهداب الإيمان، إننا هنا
جالسون نتحدث، أما الرب فلا يجلس ولا يتحدث، انه يعمل لصالح
البشر»

في هذه اللحظة سمعوا صوت خرخرة من الزاوية الخلفية
للمنزل، التقفوا جميعاً، فتملكهم شعور بالخجل، فخلال تلك الفترة
كلها نسوا الحير العجوز وهو ينازع الآم الاحتضار؛ هربت المجدلية
ومن خلفها ثلاث نساء أخريات، واقترب التلاميذ من السرير. ومرة
أخرى وضع يسوع راحة يده على قم الرجل العجوز البارد كالثلج،
فتح الآخر عينيه، فراء وابتسم. ثم أبعد يده وأشار إلى الرجال
والنساء كي يغادروا المكان. وحين أصبحا وحدهما مال يسوع وقبّل
فمه، وعينيه، وجبينه، نظر العجوز إلى عينيه، فتورّد وجهه.

«رايت الثلاثة مرة أخرى - إيليا وموسى وأنت. بت متأكداً
الآن... أنا راحل»

«باركك الرب يا أبت. هل أنت مسرور؟»

«نعم. دعني أقبّل يدك»

أمسك بيد يسوع والصق شفثيه المتلججتي عليها لفترة طويلة،
ثم نظر إليه نظرة ابتهاج، وكأنه يقول له، دون كلام، وداعاً. لكنه
بعد برهة عاد يقول:

«مضى ستأتي أنت أيضاً - إلى هناك، فوق؟»

١ - السفافيد: جمع سفود، سيخ لشبي اللحم.

الطيب تَضْمَخَ جثث الأثرياء. ماكان يجب أن تفعل هذا يا مريم. لو
أن شارون شم رائحة عطره المفضل فسوف يأتي...»

ابتسم يسوع، وقال: «ستجد الفقراء معك دائماً، ولكنك لن
تتمكن من الاحتفاظ بي دائماً. لذا، لا يهم إذا أهدرت قلينة من
الطيب كراماً لي - هناك أوقات حتى الاسراف يرتقي فيها إلى
السماء، ويجلس إلى جوار أخته الثبالة الكريمة الأصل. فلا تحزن
أنت، يا يوحنا، أيها الحبيب. الموت دائماً يأتي، فيستحسن أن يأتي
والشعر مضْمَخٌ بالطيب»

أصبح المنزل يقوح بعبير جدت مرفّه، ثم ظهر يهوذا وزمق
المعلم بنظرة. أيمن أن يكون قد أفضى بالسر للتلاميذ؟ هل كانوا
يضمخون المحتضر بالمرّ الجنائزي؟

لكن يسوع ابتسم، وقال: «يا يهوذا، يا أخي، ان سرعة طيران
السنونو في الجو أكبر من سرعة الفزال على الأرض؛ وعقل
الانسان يتحرك أسرع من السنونو، أما ماهو أسرع من عقل
الانسان فقلب المرأة». قال هذا وأشار بعينيه إلى المجدلية.

ثم تكلم يوحنا. قال: «لقد تكلمنا كثيراً، لكننا نسينا أهم شيء».
أين سنحتفل بعيد الفصح في اورشليم يا معلم؟ اقترح أن نذهب
إلى حانة سمعان القيرواني»

قال يسوع: «لقد أعدّ الرب الأمر بشكل مختلف، انهض يا
بطرس، خذ يوحنا واذعبا إلى اورشليم. ستقابلان هناك رجلاً
يحمل ابريقاً على كتفه، اتبعاه - سيدخل إلى منزل. ادخلا أنتما
إيضاً وقولا لصاحب الدار: «معلمنا يبعث اليك بتحياته ويسألك، أين
تُعَدُّ الموائد حتى آتي وأتناول طعام عيد الفصح مع تلاميذي؟»،
فيقول لكما: «بلغا تحياتي لمعلمكما - إن كل شيء معد - ونحن ننتطلع
لرؤياه»

«غداً، في عيد الفصح، عندئذ سأراك يا أبت!»
شيك الحير العجوز يديه معاً، وغمغم «يا رب، حرّر عبدك
الآن، لقد رأت عيناى مخلصي!»

الفصل الثامن والعشرون

كانت الشمس قد وصلت إلى خط الأفق وتكاد تغرب، حمراء
براقة. وفي الطرف المقابل من السماء كان قد انتشر وهج مزرق
جهة الشرق. وسرعان ماطلع قمر الفصح، هائل الاتساع وصامناً.
وكانت أشعة الشمس الشاحبة ما تزال تدخل المنزل وتسقط مائلة
على وجه يسوع النحيل، ووصلت حتى جيهاة التلاميذ وأنوفهم.
وأيديهم، وامتدت إلى الركن وداعبت وجه الحير العجوز الساكن،
السعيد، المخلد الآن. وجلست مريم عند مغزلها، في ظل كامل فلم
ير أحد الدموع التي تتحدر بهدوء على وجنتيها وذقنها لتسقط على
الثوب تصبف المنسوج. وكان المنزل ما يزال يعبق بالطيب؛ وأصابع
يسوع تقطر بقطرات من المر.

وقجاة، بينما هم جالسون هكذا، ومع اقتراب الليل، بدأت
قلوبهم يستولي عليها الحزن أكثر فأكثر. ثم انقض طائر سنوئو غير
النافذة كضربة سيف، ودار ثلاثاً فوق رؤوسهم، وزقزق يمرح، ثم
يهم وجهه شطر الشمس وغادر المكان كالسهم المندفع. ولم ينج لهم
الوقت الكافي لرؤية بطنه الأبيض وجناحيه المستنيرين.

وكان تلك كانت الإشارة الغامضة التي كان ينتظروها يسوع،
فتنهض واقفاً. قال «لقد حان الوقت»
اتى نظرة متريشة فيما حوله على موقد النار، وأدوات العمل،
وأدوات المطبخ، والمصباح، وابريق الماء، والمنزل؛ ثم على النسوة
الأربع - سالومه العجوز، ومرثا والمجدلية ومريم وهي تسبح؛ وأخيراً
الرجل العجوز الشاحب الذي انتقل الى الحياة السرمدية.
قال، ملوحاً بيديه «وداعاً»
لم تستطع أي من النسوة الثلاث الأصغر سناً أن تجيبه، إلا أن
سالومه العجوز قالت «لا تتظر إلينا هكذا يا ولدي. وكأنك تودعنا
الى الأبد»

كرر يسوع القول «وداعاً» ثم اقترب من النسوة ووضع راحة
يده أولاً على شعر المجدلية، ثم على شعر مرثا، عندئذ نهضت
الناسجة واقفة واقتربت. وطلّطت رأسها بدورها، شعرت وكأنه
يباركهن ويعانتهن، وكأنه سيصعب الثلاثة معه - ليبقى معه دائماً.
لكن الثلاثة معاً بدأن على الفور بترتيم لحن حزين،
خرجوا الى القناء، وهناك تبعه التلاميذ. على وشيع القناء،
فوق البئر، أزهرت شجيرة صرعة الجدى، التي أخذت تشر
ضوعها الآن بعد هبوط الليل. مد يسوع يده وقطف زهرة ووضعها
بين أسنانه. ودعا في قلبه قائلاً، رب امنحني القوة، امنحني القوة
لاحتفظ بهذه الزهرة الرقيقة بين أسناني خلال آلام الصلب
العظيمة ولا أعضها.

توقف على عتبة الباب الخارجي مرة أخرى، ورفع يده وهتف
بصوت عميق «وداعاً أيها النسوة!»
لم يرد على تحيته أحد. وكان نواحيهن يتردد صدها في أرجاء
أرض القناء.

سار يسوع في المقدمة، وانطلقت المجموعة على الطريق المؤدية
الى اورشليم. طلع القمر بدءاً من خلف جبال موآب، وغربت
الشمس خلف جبال يهودية. توقفت برهة دُرّاً السماء العظيمة
وتبادلنا النظرات، ثم ارتفعت أحدهن، وغاصت الأخرى.

أوما يسوع الى يهوذا، فاقترب وسار الى جواره. لايد أن هناك
أمراراً يتبادلانها، فقد كانا يتحدثان بصوت خافت. أحياناً كان
يسوع يخفض رأسه، وتارة يهوذا؛ وكل منهما يزن كلماته بعناية قبل
أن يجيب الآخر، وكان كل كلمة هي قطعة ذهب.

قال يسوع «أنا أسف، يا يهوذا يا أخي، لكن الأمر ملحاح.

لقد سبق وسألتك يا معلم - أما من سبيل آخر؟»

«لا، يا يهوذا يا أخي، أنا أيضاً كنت أفتنى وجود آخر؛ أنا أيضاً
كنت أمل بوجود سبيل آخر. لقد حلت نهاية العالم، هذا العالم،
مملكة الشيطان هذه، ستزول وتحل محلها مملكة السماء. وأنا
سأجلبها. كبعض يموتي. ولا سبيل آخر. ولا تحف يا يهوذا يا أخي،
فخلال ثلاثة أيام سأقوم من جديد»

«أنت تقول لي هذا لتواسيني وتفسح لي المجال لخيانتك دون
أن يمزق ذلك قلبي. تقول إن لدي طاقة على التحمل - تقول ذلك
لتمنحني القوة. لا، كلما اقتربنا أكثر من اللحظة الرهيبة... لا، يا
معلم، لا طاقة لي على التحمل»

«بل ستتحمل يا يهوذا يا أخي. سوف يهلك الرب القدرة على
ذلك، قدر ما ينقصك، لأنها ضرورية - ضرورية لي لأتحمل قتلي
وضرورية لك لتخونني. علينا نحن الاثنان أن نخلص العالم،
فأعني»

أطرق يهوذا، وبعد قليل سأل «إذا كان عليك أنت أن تخون
معلمك، هل كنت تفعل؟»

تفكر يسوع وقتاً طويلاً. وأخيراً قال «لا، لا أعتقد أنني كنت سأقدر. لهذا أشفق الرب عليّ وأسند إليّ المهمة الأيسر: أن أصلب»

أمسك به يسوع من ذراعه وراح يكلمه بصوت خافت، ليقنعه «لا تتخل عني، - ساعدني. ألم تتحدث إلى الكاهن الأكبر قيفافا؟ اليس عيد الهيكل الذين سيقبضون عليّ مستعدين ومسلحين؟ ألم يحدث كل شيء كما خططنا له يا يهوذا؟ فلنحتفل هذا المساء إذن بعيد الفصح كلنا معاً، ثم سأعطيك إشارة فتتهض وتذهب لتستدعيهم. أيام الحزن لن تستمر أكثر من ثلاثة أيام! ستمر كلمح البرق، وفي اليوم الثالث سوف نبتعث ونرقص كلنا معاً - بعد قيامتي!»

سأله يهوذا، مثييراً بابهامه إلى جمع التلاميذ خلفهما «هل سيعرف الآخرون بالأمر؟»

«سأخبرهم هذا المساء. لا أريدكم أن يُبلوا أية مقاومة عندما سيأتي الجنود واللاويون للقبض عليّ»

ثم يهوذا شفتيه امتعاضاً. قال «يُبدون مقاومة! أين عثرت عليهم يا معلم؟ إن كل واحد منهم أسوأ من صاحبه»

أطرق يسوع ولم ينطق.

ارتفع القمر وقاض بضياؤه على الأرض، يسمح على الحجارة، والأشجار، والناس. وامدت على الأرض ظلال زرقاء قائمة. كان التلاميذ في المؤخرة متكئين معاً ينجذبون أطراف الحديث ويتشاجرون. بعضهم كان يتلمّط بشفتيه لدى التطرّق لذكر وليمة. والبعض الآخر يتحدث باهتمام عن كلمات يسوع النافذة، وجاء توما على ذكر الحبر المعجوز المسكين «لقد مات وانتهى، والعُقبين لنا!»

قال نثنائيل مندهشاً «عاذاً، هل سنموت نحن أيضاً. ألم نقل إن مآلنا هو الخلود؟»

قال بطرس شارحاً «صحيح، ولكن يبدو أن علينا أولاً أن نمر بالموت»

مرّ نثنائيل رأسه وتمتم «إننا نملك طريقاً وعة إلى الخلود، علم على كلامي سوف تجد جهنم مكاناً رهيباً جداً»

هذه المرة كانت اورشليم تشمخ، بيضاء شفاقة كشبح، أمامهم، يسريها ضياء القمر. وبدت المنازل، تحت ضوء القمر، وكأنها منفصلة ومرتفعة عن الأرض. وشيئاً قشياً أخذوا يميزون بوضوح في قلب الليل جلبة مركبة من أناس يرتلون المزامير وأصوات حيوانات تدبح.

كان بطرس ويوحنا واقفين ينتظران عند البوابة الشرقية للحصن، فهرعا ووجهيهما يلتمعان تحت تلافؤ القمر، لاستقبالهم تملأهم السعادة. قال «كل شيء تم كما قلت يا معلم، الموائد مَدّت، وطعام العشاء أعَدّ»

أضاف يوحنا ضاحكاً «وإذا كنت ستسأل عن رب البيت، فقد أعَدّ كل شيء ومن ثم اختفى»

ابتسم يسوع، قال «هذه هي الضيافة المثالية: أن يختفي المضيف»

خفوا جميعاً خطاهم. وكانت الشوارع تحتشد بالناس، وبالمصاييح المضادة وبنيات الأس. وكان مزموز عيد الفصح يتردد بأبتهاج احتفالي من وراء كل باب مغلق:

عند خروج إسرائيل من مصر،

وبيت يعقوب من شعب أعجم

البحر راه فهرب،

الأردن رجع إلى خلف؛

الجبال قفزت مثل الكباش

والأكام مثل حملان الغنم،

مألك أيها البحر قد هربت،

ومألك أيها الأردن قد رجعت إلى الخلف ؟

وما لكن أيتها الجبال قد قفزتن مثل الكباش،

وأيتها التلال مثل حملان الغنم ؟

أيتها الأرض تزلزلي من قدام الرب،

من قدام الله إسرائيل،

المحول الصخرة إلى غدران مياه

والصوان إلى ينابيع مياه. (١)

أنشاء متتابعة التلاميذ سيرهم في الشوارع أخذوا يدورهم

بشاركون في ترتيل مزموير عبيد الفصح. سار بطرس ويوحنا في

المقدمة ليقوداهم. وكانوا جميعاً، ماعدا يسوع ويهوذا، قد نسوا

همومهم ومخاوفهم وغزوا السير إلى الموائد المنتظرة.

توقف بطرس ويوحنا عن السير، ودفعا باباً مفتوحاً عليه

علامات أصابع طيبت يدهما حمل ذبيح، ودخلا. وتبعهما يسوع

وموكب الجياع. عبروا الفناء الخارجي ثم ارتقوا درجاً حجرياً

أوصلهم إلى الطابق العلوي. كانت الموائد ممدودة، وثمة ثلاثة

شمعدانات سباعية الضوء توزع ضياءها على الحمل، والخمر،

والخبز الخالي من الخميرة، والمشهيات، وحتى على العصي التي

يفترض أن يحملوها أثناء تناول الطعام، وكأنهم مهياون للانطلاق

في رحلة طويلة.

قال يسوع «نحن سعداء بليقياك»، ورفع يده ليبارك المضيف

اللامرئي.

ضحك التلاميذ، وقالوا «من الذي تبارك يا معلم ؟»

أجاب يسوع «إنه اللامرئي»، ورمقهم بنظرة قاسية.

ربط منشقة كبيرة حول خصره، وتناول ماءً، ثم ركع فآخذ

يقبل أقدام التلاميذ.

هتف بطرس «إن أدعك مطلقاً فمسل لي قدسي»

«يا بطرس. إذا لم أغسل لك قدميك، فلن ترافقني إلى مملكة

السما»

«حسن، في هذه الحالة. يا معلم، إغسل ليس فقط قدمي بل

ويدي ورأسي أيضاً»

تحلقوا جلوساً حول الموائد. كانوا جوعاً جداً، لكن أخذاً منهم

لم يجروا على مد يده. لقد كان وجه المعلم عيوساً هذا المساء

وشفتاه ترسمان تعبير مرارة شديدة، تقل ناطقيه من تلميذ إلى

آخر؛ تظفر إلى بطرس الجالس إلى يمينه. وإلى يوحنا إلى يساره -

اليهم جميعاً؛ وقبالاته، إلى شريكه في المؤامرة، الرصين، غير

المجامل، ذي اللحية الحمراء.

قال «بادئ ذي بدء، يجب أن تشرب الماء المالح. لننتذكر الدموع

التي ذرفها أبائنا في أرض العبودية»

وتناول إبريق الماء المالح وبدأ بعله كأس يهوذا حتى قاض، ثم

صب مقدار يمنع رشقات في كؤوس الآخرين، وأخيراً ملاً كأسه

هو.

قال «لنتذكر الدموع. والآلام والأسى الذي عاناه الناس في

سبيل الحرية»، ثم جرع ممتلئ كأسه المترعة دفعة واحدة.

شرب الآخرون بأفواه ملوثة. ومثل يسوع شرب يهوذا كأسه

دفعة واحدة، ثم عرضه على المعلم وقبلة رأساً على عقب. لم تبق

فيه قطرة واحدة.

قال يسوع، مَيْتَسِماً، أنت محارب شجاع يا يهوذا، ويمكنك أن تتحمل أقصى مرارة ثم تناول الخبز الخالي من الخميرة ووزعه عليهم، بعد ذلك قدّم لحم الحمل، مدّ كل يده وتناول حصته من الأعشاب المرة التي يوصي الناموس بأكملها: المردقوش والفار والصعتر البري، ثم صُبت صلصة لحم حمراء فوق اللحم لذكرى القرميد الأحمر الذي كان أسلافهم يصنعونه خلال فترة أسرهم. عَجَلُوا في تناول الطعام، كما يوصي الناموس، ثم قبض كل منهم على عصاه ورفع إحدى قدميه في الهواء استعداداً للانطلاق.

راقبهم يسوع وهم يأكلون، وهو نفسه لم يأكل، ثم أمسك بدوره عصاه ورفع قدمه اليمنى في الهواء استعداداً للقيام بالرحلة العظمى. لم يقه أحدهم بكلمة، الصوت الوحيد الذي سمع كان طرطقة الأسنان، ورنين كؤوس الخمر، والألسن وهي تعلق العظام. تسال ضياء القمر اليهم من خلال كوة المنور من فوقهم، فأضيئت نصف الموائد بنور ساطع، وظل النصف الآخر غارقاً في ظلمة قمرية.

بعد صمت عميق فتح يسوع فمه وقال «عيد الفصح، يا رفاقي الأوفياء على الدرب، هو ممر - ممر يؤدي من الظلام إلى النور، من العبودية إلى الحرية، أما عيد الفصح هذا الذي نحتفل به هذا المساء فيتجاوز هذا المعنى بكثير. فعيد الفصح هذا يعني المرور من الموت إلى الحياة الأبدية. وأنا، يا رفاقي، أسير في المقدمة لأهبط لكم الدرب».

أصابته الرجفة بطرس، فقال «يا معلم، ها أنت تتحدث مرة أخرى عن الموت، ومرة أخرى كلماتك لها حدان، إن كان ثمة كارثة ستحل بك، فنكلم بصراحة، نحن رجال»

قال يوحنا «هذا حق يا معلم، كلماتك أشد مرارة من الأعشاب المرة، إرفق بنا وحدشاً بوضوح»

تناول يسوع حصته من الخبز التي لم يكن قد مسّها بعد ووزعها بحيث تكون حصّة كل من التلاميذ مقدار لقمة واحدة.

قال «هذا جسدي، فكلوه»

وتناول أيضاً كأساً من الخمر، وكان ما يزال مترعاً، ومزّره من ثم إلى ثم، فشرّبوا منه جميعاً.

قال «وهذا دمي، فاشربوه»

أكل كل من التلاميذ لقمته من الخبز وشرب رشفة الخمر، أحسوا بدوار، وكان الخمر كان كثيفاً ومالحاً، كمدّاق الدم؛ ونزلت لقمة الخبز كجمرة مشتعلة إلى أحشائهم، وشعروا فجأة، وقد أصابهم الرعب، أن يسوع قد مدّ جذوره فيهم وأخذ ينهش أمعائهم، فاستد بطرس مرفقيه على المائدة وأخذ يبكي.

قال يوحنا على صدر يسوع وأخذ يهيم له مراراً وتكراراً «تريد أن ترحل يا معلم، تريد أن ترحل... أن ترحل...، دون أن يتمكن من التطق بأي شيء آخر.

صرخ اندراوس «لن تذهب إلى أي مكان! قبل أيام قلت لنا «من ليس معه خنجر فليبع رداءه ويشتري ثمنه واحداً»، سوف نبيع ملابسنا، ونسلك، وبعد ذلك فليأت شارون - إن جرؤ - ويلمسك!»

قال يسوع دون تذمر «لكم ستتخلون عني، كلكم»

هتف بطرس وهو يمسح دموعه «لن أفعل أبداً»

«بطرس، يا بطرس، قبل أن يصيح الديك، ستتكرني ثلاث

مرات»

زعق بطرس، وهو يضرب على صدره بقبضتيه «أنا؟ أنا؟ أنا أنكرتك! إنني معك حتى الموت»

قفز كل التلاميذ في نشوة وقالوا متأوهين «حتى الموت»

قال يسوع يهدوء «اجلسوا - لم تحن الساعة بعد، في عيد

الفضيح هذا الذي سر عظيم أفضني به اليكم. افتحوا أذهانكم،
وقلوبكم، ولا تدعوا الخوف يتسلل اليكم،
غمغم يوحنا، وقلبه يرتعش كقصبة في وجه الريح «تكم، يا
معلم»

«هل أكلتم؟ ألم تعودوا جائعين؟ هل امتلأت البطن؟ هل
يستسمح أخيراً لأرواحكم بالانصات باطلسان؟»

تعلقت أنظارهم جميعاً يشفتي يسوع، وهم يرتجفون.
هتف بهم يسوع «أيها الرفاق الأحباب، الوداع! فانا راحل،
شهق التلاميذ وصرخوا، وأرتمى بعضهم عليه وأمسك به لكي
لا يغادر. وكثير منهم بكوا. لكن يسوع التفت بهدوء الى متى.
قال «يا متى، أنت تحفظ الكتاب المقدس غيباً إنهض وأسمعهم
بصوت جهور كلمات النبي اشعيا لتثبت قلوبهم. أنت تذكر قوله :
«نبت قدأمه كفرخ وكعرق من أرض يابسة...»

فرح متى وقفز واقفاً على قدميه. كان معني الكتفين، قصير
الساقين، خاف العود، وأصابه الطويلة النحيلة ملطخة بالسواد
على الدوام؛ ولكن فجأة، ما أغرب استقامة قامته! تضربت وجنتاه
بالاحمرار، وانتفخ عنقه، وتردد صدى كلمات النبي في أرجاء العلية
العالية السقف، ملؤها الحرارة والقوة:

«نبت قدأمه كفرخ وكعرق من أرض يابسة،
لا صورة له ولا جمال فتخطر اليه، ولا منظر فتنتهيه :

محترق ومخدول من الناس،

رجل أوجاع ومحترق الحزن.

وكمست عنه وجوهنا محترق فلم نعتد به.

لكن أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها،

ونحن حسبنا مصاباً مضروباً من الله ومذلولاً.

وهو مجروح لأجل معاصينا مسحوق لأجل آثامنا
تأديب سلامنا عليه ويجبره شفيئنا...

ظلم أما هو فتدلل ولم يفتح فاه،

كشاة تساق الى الذبح... (١)

قال يسوع، مشهداً «يكفي هذا»

ثم التفت الى أصحابه، وقال بهدوء «انه أنا من تكلم عنه النبي
اشعيا: أنا الشاة التي سبقت الى الذبح، ولن أفتح فمي». وبعد فترة
سمعت، تابع «إنهم يسوقونني الى الذبح منذ يوم مولدي»

حرق اليه التلاميذ المذهولون بأضواء ضاغرة، يجاهدون كي
يفهموا ماقاله لهم، وفجأة، اذا بهم جميعاً يخفون وجوههم على
الموائد ويرفعون عقيرتهم بالنواح.

حتى يسوع رق قلبه برهة من الوقت. كيف يمكنه أن يتغلى عن
هؤلاء الأصحاب الناثحين ورفع بصره ونظر الى يهوذا. لكن عيني
هذا الأخير القاسيتين الزرقاوين كانتا مثبتتين على يسوع منذ وقت
طويل. لقد حُسن ماكان يدور في دخيلة المعلم وعرف كم هو سهل
على المحبة أن تشل قواه، تلاقت النظرتان وتصارعتا في الهواء
لجزء من الثانية، واحدة صارعة لا ترحم، والأخرى متضرعة
مكلومة. وبعد جزء من الثانية فقط، هز يسوع رأسه مباشرة وبقوة،
وابتسم يهوذا بمرارة، وعاد يلتفت نحو التلاميذ.

سألهم «لماذا تكون؟ لم تخشون ملاك الموت؟ إنه أرحم ملائكة
الرب، وأشدهم حباً للإنسان. من الضروري أن أستشهد وأصلب
وأن أهدل الى الجحيم. لكني بعد ثلاثة أيام سأخرج من القبر،
وأرتقي نحو السماء لأجلس الى جوار أبي»

١ - سفر اشعيا: اصحاح ٥٢.

هتف يوحنا، وهو يبكي «أفقدنا من جديد؟ خذنا معك الى الجحيم وإلى السماء يا معلم»

«مهتمكم على الأرض أيضاً ثقيلة أيها الحبيب يوحنا. يجب أن تبقوا جميعاً على تراب الأرض. وأن تعملوا. كافحوا، هنا على الأرض: أحبوا، وانتظروا - وسوف أعود»

كان يعقوب قد تألف مع فكرة موت المعلم وأخذ يفكر بما سيفعلونه بعد أن يظلوا على الأرض بدونهم.

«لا يمكننا أن نعارض إرادة الرب وإرادة معلمنا. وكما يقول الأنبياء، أيها المعلم، من واجبك أن تموت، ومن واجبنا أن نعيش نعيش حتى لا تفسد الكلمات التي تقولها. سوف تثبتها بقوة على شكل كتاب مقدس جديد، وسوف نقيم تواميس، ونبنى كنائسنا الخاصة نختار كبار كهنتنا وكتبنا وفرسينا الخاصين بنا»

ارتعد يسوع لهذا القول، فهتف «أنت تصلب الروح يا يعقوب، لا، لا، لا أريد هذا»

أجابته يعقوب «هذه هي الطريقة الوحيدة التي نمنع بها الروح من التحول الى آشور والهرب»

«لكنها لن تعود حرة بعدئذ، لن تكون روحاً»
«لا يهم، سوف تبدو كروح. وهذا يكفي يا معلم بالنسبة لعملنا»
تصحب يسوع عرقاً يارداً، والقي نظرة سريعة على تلامذته، لم يرفع أحد منهم رأسه ليعترض، بل إن بطرس نظر الى ابن زبدي باعجاب، انه يتمتع بعقل خلاق: لقد أخذ عن أبيه، الريان، كل صفاته اللامعة، والآن كما ترى - أوشك أن ينظم كل شيء نيابة عن المعلم ذاته...

رفع يسوع يديه بحركة يائسة، وكأنه يطلب العون «سوف أرسل لكم الروح القدس، روح الحق، وهو الذي سيهدي خطاكم»

هتف يوحنا «أسرع يا رسال الروح القدس حتى لا تفصل ونضيمك ثانية، يا معلم»

هز يعقوب رأسه القاسي العنيد، وقال «هي أيضاً - روح الحق هذه التي تتحدث عنها - هي أيضاً سوف تصلب، يجب أن تعلم يا معلم أن الروح ستصلب طالما وجد البشر، ولكن لا يهم، فدائماً يتبقى شيء. وأؤكد لكم أن هذا يكفي»

هتف يسوع يائساً «لكنه لا يكفي»
اضطرب حال يعقوب حين سمع هذه الصرخة الزاخرة بالألم، فاقترب من المعلم وأمسك بيده. قال «نعم، يا معلم، انه لا يكفيك، لهذا سوف تصلب، اغفر لي معارضي لك»

وضع يسوع يده على الرأس العنيد، وقال «إن كانت هذه هي إرادة الرب، فلنصلب الروح الى الأبد على هذه الأرض. وإيبارك الصليب! فلنحملة بحبة، وصبر وإيمان. ويوماً ما سيتحول الى أجنحة على أكتافنا»

لم ينبس أحد بكلمة. كان القمر قد وصل الى كبد السماء، وانتشر ضياء جنازي على الموائد، وشبك يسوع يديه.

قال «لقد أنجز عمل يوم كامل. أدبت ماعلي، وقلت مألدي. اعتقد أنني قمت بواجبي، وها أنا أشبك يدي»

أوما برأسه قبالة الى يهوذا، فقام وشد حزامه الجلدي وقبض على عصاه المعقوفة، ولوح له يسوع بيده، وكأنه يودعه.

قال «هذا المساء سنصلي تحت شجر الزيتون في الجسمانية، بعد وادي قدرون. إرحل أنت يا يهوذا يا أخي - مع بركة الرب، الرب معك، باعد يهوذا ما بين شفتيه، أراد أن يقول شيئاً، لكنه غيّر رأيه، ثم فتح الباب واندهج الى الخارج. وكان هذه قدميه الكبيرتين يسمع ثقيلًا وهو ينزل الدرج الحجري.

انساب القلق بطرس، فسأل «أين هو ذاهب؟»، وهم
بالتنهؤين يلحق به، لكن يسوع منع.

«لقد بدأ دولا ب الرب بالدوران يا بطرس، فلا تقف في طريقه»
هبة التسليم، وخفق لهب الأفرع السبعة للشمامسة. وقجاة هبت
نمحة شديدة من الريح فانطفت الشموع، وغمر نور القمر الغرفة
بأكملها.

ارتعب نشايل فمال على صديقه، وقال «هذه ليست الريح يا
فيلبس. لقد دخل أحدهم. آه يا ربي! أنظن إنه شارون؟»
أجاباه رضي الغنم «وما همك إن كان هوا إنه لا يبحث عنا
نحن»، وصفع ظهر صديقه، الذي لم يكن قد استعاد توازنه بعد.
قال «سفن كبيرة، عواصف عاتية. شكراً للرب لأننا مجرد
قوارب تجذيف وقشور جوز»

كان القمر قد احتل وجه يسوع والشمعة. لم يبق منه غير عيين
فاحملي السواد. ارتعد يوحنا، فمد يده خلسة الى وجه المعلم ليرى
إن كان ما يزال موجوداً، وغغم «أين أنت يا معلم؟»

أجاباه يسوع «لم أرحل بعد يا يوحنا الحبيب. لقد غبتُ برهة
لأنني كنت أفكر في أمر قاله لي زاهد فوق جبل الكرمل المقدس :
«كنت غارقاً في أحواض جسدي الخمسة، كخنزير»

«فقلت له «وكيف تخلصت منها يا جدي؟ هل كافحت كثيراً؟»
«أجابني «لا أبداً، فذات صباح شاهدتُ شجرة لوز مزهرة
وأنقذتُ»....»

«شجرة لوز مزهرة، يا يوحنا الحبيب : هكذا ظهر لي الموت
الآن للحظة»

ونهض واقفاً. قال «هيا بنا، لقد حان الوقت»، وسار في
المقدمة، يتبعه التلاميذ غارقين في تفكير عميق.

همس نشايل لصديقه «فلترحل. أشم رائحة مشاكل»
أجاب فيلبس «خطر بيالي الشيء نفسه، ولكن لناخذ معنا
أيضاً توما»

وزاحا يبعثان على ضوء القمر عن توما، لكنه كان قد اختفى
في الأزقة، وظلا وحدهما في المؤخرة، وحالما وصلت المجموعة الى
وادي قدرون تركا الآخرين يسبقوهما ومن ثم فرّا ناجين بحياتهما.
هبط يسوع الى وادي قدرون مع الباقيين، ثم ارتقى السفح
المقابل واتخذ الدرب المؤدي الى كرم زيتون الجثمانية، كم من مرة
جلس يقطاً طوال الليل تحت أشجار الزيتون العتيقة تلك وتحدث
عن رحمة الرب وعن خطايا البشر !

توقفوا عن السير، فقد كان التلاميذ قد أكثروا من الأكل
والشرب هذا المساء وغلبهم النوم. مهدوا الأرض بأبعاد الحصى
بأقدامهم، ثم استعدوا للاضطجاع.

قال المعلم، وهو يبحث فيما حوله «ثلاثة منا مفقودون. ماذا
حدث لهم؟»

قال اندراوس بغضب «رحلوا»
ابتسم يسوع، وقال «لا تدينهم يا اندراوس. سوف ترى : ذات
يوم سيعودون ثلاثتهم، يتوج رأس كل منهم أكليل من الشوك، وهي
أجل الأكاليل - ولا تذبل!»، وبعد أن قال هذا اتكأ على شجرة
زيتون، لأنه شعر فجأة بتعب شديد.

وكان التلاميذ قد تمددوا لتوهم، وجدوا حجارة جعلوا منها
وسائد وتمددوا بارتياح، ابتعد يسوع عن الشجرة، وقال بطرس
متثاقباً «تعال يا معلم وتمدد معنا. اندراوس سيحرس المكان»
ابتعد يسوع عن الشجرة وقال «بطرس، ويعقوب، ويوحنا، تعالوا
معى»، وكانت نبرة صوته حزينة وأمرية.

تظاهر بطرس بعدم السماح، فتمدد على الأرض وتثائب من جديد، لكن ابني زبدي أمسكاه من يديه وأنهضاه.

قالا «هيا بنا، ألا تخرج؟»

اقترب بطرس من أخيه، وقال «من يدري ماذا سيحدث يا اندراوس. اعطني خنجرك»

سار يسوع في المقدمة، وخلفوا أشجار الزيتون ورامهم ووصلوا إلى الأرض المفتوحة. لمعت أمامهم اورشليم، التي يخلع عليها ضوء القمر ثوباً أبيض، وكانت السماء من فوقهم ليبيّة، خالية من النجوم، والقمر البدر، الذي كانوا قد شاهدوه في وقت مبكر يطلع مسرعاً، أصبح الآن معلّقاً ساكناً في كبد السماء.

غمغم يسوع «أبي، أبي الذي في السماء، أبي الذي على الأرض: العالم الذي خلقتك جميل، ونحن نراه؛ وجميل أيضاً العالم الذي لا نراه، لا أدري - اغفر لي - لا أدري يا أبي، أيهما الأجمل»

انحنى، وأخذ حفنة من التربة وشمّها، فغاص عبقها عميقاً إلى أحشائه. لا يد أن ثمة شجرة فسدت في مكان قريب، والأرض تقوح برائحة الراتنج والعسل. فرك التربة على خده، وعنقه، وشفتيه، وتمتم «أي عطر، أي دهن، أية أخوة»

أخذ يبيكي وهو يقبض على التربة بكفه، كارهاً أن يشاركها قمل. وغمغم «معاً، معاً سنموت يا أختاه. لا رفيق آخر لدي»

توقف بطرس طويلاً، وقال «أنا مرهق، إلى أين يأخذنا؟ لن أتقدم أكثر من هذا، وسوف أتدّد هنا بالذات»

ولكن بينما هو يبحث فيما حوله عن تجويف مريح يتمدد فيه، رأى يسوع يتقدم منه بخطى وثيدة، فاستعاد على الفور قواه وهرع قبل الآخرين للملاقاة.

قال «كاد ينصف الليل يا معلم، وهذا مكان مناسب للنام فيه»

قال يسوع «يا أبنائي، نفسي حزينة جداً حتى الموت. عودوا أنتم واضطجعوا تحت الأشجار وسامكت أنا هنا في العراء لأصلي. ولكن أرجوكم، لا تغفوا. اسهروا معي هذه الليلة وصلوا معي. ساعدوني، يا أبنائي، ساعدوني على تعضية هذه الساعة العنيفة» والتفت نحو اورشليم، وقال «اذهبوا الآن. دعوني وحدي»

ابتعد التلاميذ مسافة مرمى حجر وتمددوا تحت أشجار الزيتون. لكن يسوع انتهار على الأرض، والصق وجهه بالتربة. إن عقله، وقلبه وشفتيه لا يتقوون على الانفصال عن الأرض - لقد أصبحوا هم الأرض.

غمغم «أبي، أنا هنا بأحسن حال، غبار مع غبار. دعني وشأني. مُرّة، مُرّة كالحنظل، الكأس التي أعطيتها لأجرعها. لا طاقة لي على احتمالها. فإن أمكن، يا أبت، أبعدها عن شفتي»

لزم الصمت، وأخذ ينصت. لعله يسمع صوت الآب في قلب الظلمة. أغمض عينيه. من يدري - الرب طيب، فقد يظهر الآب في داخله ويبتسم له بحب ويومئ له برأسه محبباً. وراح ينتظر وينتظر، ويرتجف، لم يسمع شيئاً، ولم ير شيئاً. ولأنه وحده تفتّ حوله وقد انتابه الخوف، ثم قفز منتصباً وذهب لياقي وفاقه ليثبّت قلبه، فالتقى الثلاثة جميعاً نائمين، فلكر بطرس يقدمه، ثم يوحنا، ثم يعقوب.

وقال لهم بمرارة «ألا تخرجون من أنفسكم؟ ألا تصبّرون وقتاً قصيراً لتصلوا معي؟»

فقال بطرس، وهو لا يقوى على فتح جفنيه «يا معلم، الروح مستعدة ومثلقة لكن اللحم ضعيف. فاغفر لنا»

عاد يسوع إلى الأرض المنفتحة وخرّ على ركبتيه على الصخور، وعاد يهتف «يا أبي، مُرّة، مُرّة كالحنظل الكأس التي أعطيتها. أبعدها عن شفتي»

بينما كان يتكلم شاهد فوقه على ضوء القمر ملاكاً، صارم الملامح وشاحباً، يهبط. جناحه من القمر ويحمل بين راحتيه كأساً فضية. فغطى يسوع وجهه بيديه وأثار على الأرض.

«أهذا هو ربك، يا أبي؟ ألا ترحمني؟»

انتظر بعض الوقت، ثم بدأ قليلاً قليلاً يبعد ما بين أصابعه وهو يرتعد ليرى إن كان الملاك ما يزال فوقه. فوجد أن الزائر السماوي قد هبط أكثر، ثم لامست الكأس شفتيه، فزغق ومد ذراعيه وانطرح على الأرض.

حين أفاق كان القمر قد تحرك مسافة عرض اليد عن ذروة السماء، وكان الملاك قد ذاب في ضياء القمر. وعلى البعد، على الرب المؤدي إلى أورشليم، شاهد أضواء متفرقة تتحرك. كان واضحاً أنها مشاعل. أتراها قادمة نحوه؟ أم هي تبتعد عنه؟ ومرة أخرى غلبه الاحساس بالخوف. اشتاق لرؤية بشر، ليسمع صوتاً بشرياً، أن يلمس يدين يبعيهما، فترك مكانه مسرعاً ليلحق بأصدقائه الثلاثة.

كان الثلاثة قد عادوا إلى النوم، ووجههم الهادئة مقبورة بفيض من ضوء القمر، كان يوحنا يستخدم كتفي يعقوب وسادة له، كذا فعل بطرس بصدر يعقوب. وأسند يعقوب رأسه ذا الشعر الأسود إلى حجر. وكانت ذراعاه، معدودتين واسعاً وكأنه يحتضن السماوات وأسنانه اللامعة تومض من خلال شاربته ولحيته الفاحشي السواد. لابد أنه يتمتع برؤية أحلام معتمة، لأنه كان يبتسم. أشفق يسوع عليهم وأحجم هذه المرة عن لكزهم ليقاظهم، ومشى على أطراف أصابع قدميه، عائداً إلى مكانه. ومرة أخرى انطرح على وجهه وأخذ يهش باليكا.

قال، بصوت خفيض جداً وكأنه لا يريد للرب أن يسمعه «أبي، أبي، لكنك مشيتك. ليس مشيتي يا أبت - بل مشيتك»

ثم نهض ونظر مرة أخرى جهة الطريق المؤدية إلى أورشليم. كانت الأضواء قد اقتربت، وبات يرى بوضوح الظلال المرتعشة المنتشرة حولها ووميض الأسلحة البرونزية.

غمغم «إنهم قادمون... قادمون...»، ولم تعد ركبته تقويان على حمله. وفي تلك اللحظة بالذات ظهر عندليب وجثم داخل شجرة سرو غضة صغيرة قبائنه. ثم نفخ صدره ورفع عقيرته بالغناء، وقد أتمله القمر الهائل الحجم، وعبق الأطياب الربيعية، واللبلل الرطب الدافئ. إن الرب الكلبي القدرة يكمن داخله. الرب ذاته الذي خلق السماء، والأرض وأرواح البشر، رفع يسوع رأسه وأرهف سمعه. أمكن أن يكون هذا الرب الذي أحب البشرية، والعناقات الممتعة والصندور الصغيرة للطيور أن يكون حقاً الرب الحقيقي للبشر؟ وضجاء، وكرداً على دعوة الطائر، ففز عندليب آخر من أعماق روحه وبدأ يصعد بترنيمه الآلام والأفراح السرمدية: الرب، الحب، والأمل...

الطائر غرّد، ويسوع ارتجف. لم يكن مدركاً لوجود مثل هذه الشروة داخله. ولا لكل هذه المسرات والخطايا الخفية الممتعة. وازدهرت أحشائه، وعلق عندليب بالأغصان المزهرة ولم يتمكن. بل لم يرغب، بالافلات منها قط. إلى أين يذهب؟ ولم يرحل هذه الأرض هي القردوس... ولكن بينما يسوع يلج القردوس، متتبعباً الغناء المزدوج. دون أن يفقد جسده، سمع أصواتاً خشنة، واقتربت منه أضواء المشاعل ودروع برونزية، ووسط الوهج والدخان خيل إليه أنه لمح يهوداً، يذراعيه القويين تقبضان عليه واللحية الحمراء وهي تغز وجهه. زعق ثم فقد وعيه لحظة - أو هكذا خيل إليه - ولكن بعد أن شعر بقم يهودا ذي الأنفاس الثقيلة يلصق فمه على فمه وسمع صوتاً أجشاً يأنسأ يقول «مرحباً يا معلم»

كان القمر قد أوشك أن يلمس جبال اليهودية الزرقاء المائلة للبياض. وهبت ريح رطبة تجمد الأطراف حتى ازرققت أطراف أصابع يسوع وشفتيه. وشمخت أورشليم عمياء يعلوها شحوب الموت تحت ضوء القمر.

التفت يسوع ونظر الى الجنود اللاويين. قال «أهلاً بكم عند رسل الرب، هيا بنا»

فجأة، وسط الضجيج، لح بطرس يستل خنجره ليقطع به أذن أحد اللاويين.

فأمره قائلاً «أعد خنجرك الى قرابه. إذا واجهنا الخنجر بالخنجر، فمتى سيتحرر العالم من القتل؟»

الفصل التاسع والعشرون

ألقوا القبض على يسوع، وأخذوا يجرونه، وهم يصرخون به هازئين، فوق الصخور، وبين أكمات السرو وأشجار الزيتون، نزولاً الى وادي قدرون، دخولاً الى أورشليم وأخيراً الى قصر قيافا، حيث يلثم المجمع الكنسي بانتظار اصدار حكمه على المتمرّد.

كان الجو بارداً، والخدم يتدشّون أمام نيران أشعلوها في القنّاء. وكان اللاويون يقدون من الداخل باستمرار حاملين التقارير. لقد كان دليل ادانة يسوع كاف لجعل شعر الرأس ينتصب: فهذا الذي نزلت عليه اللعنة الإلاهية قد تلفظ بالتجديفات كذا وكيت في حق رب إسرائيل، وكذا وكيت في حق ناموس إسرائيل، وقال انه سيدمر الهيكل المقدس ويبدّره بالملح!

تسلل بطرس مشدّراً بملابس ثقيلة، الى القنّاء. قعد خافضاً رأسه أمام الناس ليتدفأ ويستمع وهو يرتجف الى التقارير، مرت خادمة بجواره، وحين رآته توقفت، وقالت «هيه، أيها المعجوز، لماذا تختبئ هنا؟ ارفع رأسك حتى نراك. أظن أنك كنت

معهم

سمع العديد من اللاويين كلامها فاقتربوا.

انتاب الخوف بطرس، شرفع رأسه، وقال: أقسم باني لا أعرفه، وأنسحب باتجاه الباب.

ثم سرت به خادمة أخرى، وراته وهو يحاول الابتعاد، فاعترضته بيدها، وقالت: هيه، أيها العجوز، إلى أين أنت ذاهب؟ أنت كنت معه. لقد رأيته.

صاح بطرس مرة ثانية: أنا لا أعرف الرجل، ونحى الفتاة عن طريقته، وتابع سيره. ولكن عند الباب أوقفه لاويان، وأمسكا به من كتفيه وهزّاه يعنف.

صرخا: لكنتك تقضحك. أنت جليلي. وأخذ التلاميذ.

أخذ بطرس يسب ويلعن، وصرخ: أنا لا أعرف الرجل.

في تلك اللحظة صاح ديك الفناء، فأطلق بطرس أنيناً عالياً، وتذكر كلمات المعلم حين قال «بطرس، يا بطرس، قبل أن يصبح الديك ثلاث مرات، سوف تتكرني ثلاث مرات». فخرج إلى الطريق، وسقط منهراً على الأرض وانفجر في نوبة بكاء.

بدأ النهار يقيلج، وقد تحول لون السماء أحمر دمويّاً.

اندفع لاوي شاحب البشرة خارجاً بسرعة من القصر صاخباً «الكاهن الأعلى يمزق ملابسه. ماذا نظنون المجرم قال لتوه؟ قال «أنا المسيح، ابن الرب»، هانتفخ كبار القوم جميعاً، وأخذوا يمزقون ملابسهم ويصرخون «الموت! الموت!»

ثم ظهر لاوي آخر، وقال «الآن ينون أن يقبضوا عليه ويقودوه إلى بيلاطس، فهو الوحيد الذي يحق له أن يقتله. افسحوا لهم الطريق ليمروا. الأبواب تفتح»

فتحت الأبواب وخرج منها نبلاء بني اسرائيل. خرج أولاً ويغلي وثيدة، الكاهن الأعلى قيافاً يأنقته المفرطة، ومن خلفه

كبار القوم - بلعيهم الكثرة، وعيونهم الخبيثة المشوهة، وأقواهم الدرداء والسنتهم الشريرة، كانوا جميعاً يترنحون من شدة الغضب، وينفثون. ومن ورائهم خرج يسوع، هادئاً وحزيناً، وقد هرب الدم من رأسه، لأنهم كانوا قد ضربوه.

ضج الفناء بصيحات الاستهزاء، والضحك وصب اللعنات. انتفض بطرس وانكأ على عضادة الباب الخارجي، وغيناه تفيضان بالدمع، وغمغم قائلاً: «يا بطرس، يا بطرس، أيها الجبان، الكذاب، الخائن! انهض وأصرخ «أنا معاه» حتى ولو قتلوك». وأسدى النصيحة إلى روحه، أثارها لكن جسمه انكأ، لا يبيدي حراكاً، على عمود الباب وهو يرتجف. تعثر يسوع وترنح عند اجتيازه عتبة القصر، وحين مدّ يده ليتمسك بشيء ما رقت على كتف بطرس.

تحول الآخر إلى تمثال من الرخام ولم يفتس بكلمة، ولم يأت بأي حركة، شعر بيد المعلم تتغرن فيه، وتمنعه من الاهلات، لم يكن ضوء النهار قد ساد تماماً، ولم يستدر يسوع ليرى وسط الظلمة المائلة للزرقة بماذا تشبث ليتجنب السقوط. استعاد توازنه وواصل مسيره - خلف كبار القوم ومحاطاً بالجنود - نحو برج القصر.

كان بيلاطس قد استيقظ من نومه، واغتسل، ومسح نفسه بزيت رومانطيشي الرائحة، ثم أخذ يمشي بعصبية جيئة وذهاباً في الشمس العالي في برجه. كان يكره يوم الفصح هذا، ففيه يسكر اليهود مع ربه، وتصيبهم حالة من الهذيان، ويتشاجرون مع الجنود الرومان - وقد تقع مجزرة أخرى هذا العام، وهو أمر لا تحببه روما. وفي عيد الفصح هذا لديه هم اضافي - فالعبرانيون يريدون صلب الناصري المجنون باي ثمن... يا للأسالة المخزية!

شدّ بيلاطس على قبضته، كانت تتملكه رغبة عنيدة بانقاذ هذا الأحق، ليس لأنه بريء (بريء: مامعنى هذا؟)، ولا لأنه يشفق

عليه (الويل له! إن كان سيبدأ عندئذ بالشفقة على اليهود)، وإنما لكي يثير حنق سلالة العبرانيين المخزية.

سمع بيلاطس جلبة عظيمة تدور تحت نوافذ البرج. أمل إلى الخارج فرأى أن قناء قصره قد امتلأ باليهود، ورأى أيضاً الحشود المسعورة التي فاضت بها أزقة الهيكل ومدرجاته، وقد تداخلت مسلحة بالعصي والمقاليع ترفض يسوع وتصيح هازئة به. وكان الجنود الرومان يحرسونه وهم يشقون طريقهم نحو باب البرج الضخم.

ولج بيلاطس إلى الداخل وتربع على عرشه المنحوت بفضافة. ثم فتح الباب، ودفع الزنحيان الضخمان يسوع إلى الداخل. كانت ملابسه أسمال بالية ووجهه ملطخاً بالدماء، لكنه كان يرفع رأسه عالياً، يلعب في عينيه وميض هادئ، ناثياً عن البشر كافة. ابتسم بيلاطس، وقال «ها أنت تمثل أمامي مرة أخرى يا يسوع الناصري، يا ملك اليهود - يبدو أنهم يريدون أن يقتلك»

حديق يسوع عبر النافذة إلى السماء. كان عقله وجسده قد انفصلا لتوهما. ولم يتكلم.

غضب بيلاطس، فصرخ «دعك من السماء، وانظر إلي! ألا تعلم أن بيدي أن أطلق سراحك أو أصليبك؟»

أجاب يسوع بهدوء «ليس لك أي سلطة عليّ، لا سلطة لأحد إلا للرب»

وفي الأسفل، ضج المكان بالصراخ الهستيري «الموت! الموت!»

سأله بيلاطس «لماذا هم مسعورون هكذا؟ ماذا فعلت لهم؟»

أجاب يسوع «لقد أظهرت لهم الحق»

ابتسم بيلاطس «أي حق؟ ما معنى الحق؟»

انقبض قلب يسوع أسي. هذا هو العالم. وهؤلاء هم حكام العالم. يسألون ماهو الحق، ويضحكون.

وقف بيلاطس مواجهاً النافذة. وتذكر أنهم بالأمس القريب قبضوا على باراباس بتهمة قتل اليعازر، وقد جرت العادة أن يطلق سراح أحد السجناء في عيد الفصح.

فنهث بهم «من تريدون أن أطلق لكم، يسوع ملك اليهود أم باراباس قاطع الطريق؟»

فصرخ الناس «باراباس! باراباس!»

نادى بيلاطس على الحراس وأشار إلى يسوع وقال آمراً «اجلدوه، وتوجوه باكليل من الشوك، وتضعوه بثوب قرمزي واعطوه قسبة طويلة ليحملها كصولجان. إنه ملك - فلبس كملك!»

كان قد تعمّد أن يعرضه على الناس بهذه الصورة المزرية، آملاً أن يثير في قلوبهم الشفقة.

أمسك به الحراس، وربطوه إلى عمود وأخذوا يسوطونه ويصتقون عليه. ثم ضفروا له اكليلاً من الشوك وأقبحوه على رأسه. فانبجس الدم من جبينه وصديقه. ورموا بثوب قرمزي اللون على ظهره، ووضعوا قسبة طويلة بين أصابعه، ثم أعادوه إلى بيلاطس حين رآه القائد الروماني، ثم يتمالك نفسه من الضحك.

قال «أهلاً بجلالتك! تعال، دعني أعرضك على رعاياك»

وقاده من يده حتى وصلا إلى الدكة.

نهث «هذا هو رجلكم!»

فأخذ الناس يجازون «أصلبه! أصلبه!»

أمر بيلاطس باحضار طست وأبريق من الماء، ثم مال وغسل يديه أمام الحشود الفقيرة، وقال إنني أغسل يديّ وأنظفهما من الأمر. لست أنا من أمر بسفك دمه، إنني بريء منه. فليقع الاتم عليكم!

زعم الناس «دمه على رؤوسنا ورؤوس أولادنا!»

قال بيلاطس «خذوه، كفاني ازعاجاً»

فقبضوا عليه، وألقوا بالصليب على ظهره، وصبغوا عليه، وضربوه، ورفضوه ليبحث خطاه إلى الجلجلة. كان الصليب ثقيلًا، وكان ينظر فيما حوله مترنحًا، لعله يجد أحد تلامذته فيوسن إليه كي يشفق عليه. بحث وبحث، لا أحد. وزفر تنهيدة.

تعمت: «بورك الموت، المجد للرب!»

في تلك الأثناء كان التلاميذ قد أختبأوا في حانة سمعان القيرواني، ينتظرون عملية الصلب وهبوط الليل ليتمكنوا من الفرار خفية. جلسوا القرفصاء خلف البراميل، وأخذوا ينصتون مرهفين أسماعهم لمرور الجماهير السعيدة من الشارع. فقد كان أهل المدينة يرمسهم - رجالاً ونساءً - قد بدأوا يهرعون إلى الجلجلة، لقد استمتع الناس بقضاء عيد فصيح رائع، وأكلوا أكثر من حاجاتهم من اللحم، وشربوا فوق طاقتهم من الخمر، والآن هاهي عملية الصلب جاءت ليزجوا بمشاهدتها وقتهم.

هرع الناس، وأنصت التلاميذ إلى ضجيج الشارع وهم يرتجسون خوفاً. وكان يسمع بين الحين والآخر بكاء يوحنا المكبوت. أحياناً كان اندراوس ينهض ويأخذ بالتمشي في أرجاء الحانة وهو يهدد ويتوعد. ولعن بطرس نفسه وعنفها لأنه جبان ولا يتحلى بالشجاعة الكافية لجعله يهرع إلى الخارج ليقتل جنياً إلى جنب مع المعلم، كم من مرة أقسم له قائلاً «معك يا معلم حتى الموت»، والآن وقد ظهر شبح الموت، هاهو يختبئ خلف البراميل.

استعر يعقوب غضباً، قال «كفالك بكاء يا يوحنا - أنت رجل - وأنت، أيها الشهم اندراوس، لا تبرم شاريك. اجلسوا، اجلسوا جميعاً لتتخذ قراراً. لنفرض أنه حقاً المسيح، بأي وجه ستقبله إذا يث بعد ثلاثة أيام؟ ألم يخطر هذا ببالكم قط؟ ماقولك يا بطرس؟»

أجاب بطرس يائساً «إن كان هو المسيح، فقد هلكتنا - هذا رأيي. كما سبق وقلت لكم، لقد أنكرته ثلاث مرات»

قال يعقوب «ولكن حتى لو لم يكن هو المسيح، سنهلك أيضاً. ماقولك يا نشائيل؟»

«أنا أقول إن عليكم أن تخرجوا من هنا. وسواء كان هو المسيح أم لا، نحن هالكون»

قال اندراوس، وقد هم بالاندفاع نحو الباب «وتتركه هكذا، دون حماية؟ كيف تطاوعكم قلوبكم؟»

لكن بطرس شدد من طرف رداه، وقال له «اجلس أيها الباش قبل أن أقطعك إلى ألف قطعة! ولنبحث عن حل آخر»

هسّ نوما قائلاً «منافقون وفريسيون! عن أي حل تتحدثون؟ فلتتصارع دون خجل: نحن عقدنا صفقة تجارية، وخسرنا رأس مالنا كله. نعم: انه عمل! لماذا هذه النظرة الحاقدة التي - هذا

مافعلناه، عقدنا صفقة صغيرة، أنتم تعطوني وأنا أعطيك. أنا أعطيتكم سلعي - أمشاط، بكرات خيطان، مرايا للجيب - مقابل

مملكة السماء. كلكم فعل الشيء نفسه. واحد أعطى قاريه، وآخر غنمه، وثالث راحة باله. والآن أصبحت القضية كلها أثراً بعد عين.

لقد أفلسنا! ذهب رأس مالنا أدراج الرياح. انتبهوا والا فقدنا أرواحنا في هذه الصفقة. أي نصيحة يمكن أن أعطيها بعد ذلك؟ انقذوا أنفسكم مادامت الفرصة سانحة»

صرخ فيلبس ونشائيل معاً «موافق! انقذوا أنفسكم مادامت الفرصة سانحة»

التفت بطرس بقلق نحو متى، الذي كان منزوياً جانباً، ينصت بأذن مرهفة، دون أن يفوه بكلمة. قال بطرس «أكراماً للرب يا متى، لا تدون كل هذا كأنك لم تسمع، لا تجعلنا مثار سخيرة الأيديه جمعاء»

اجابه «لا تقلق. أنا أعرف ماذا أفعل. انني أرى وأسمع الكثير، لكنني أنتقي... الا انني سأقول كلمة لصالحكم : اتخذوا قراراً نبيلاً، يثبتوا مقدار شجاعتهكم - حتى أكتب عنها ، وتحفظون أنتم أيها المساكين بالمجد. أنتم رسل، وهذا شيء لا يستهان به»

في تلك اللحظة فتح سمعان القبرواني باب الحانة بسرعة ودخل. كانت ملابسه ممزقة ، ووجهه وصدره ملطخين بالدم، وعينه اليمنى متورمة تتزف. طرح عنه ما بقي عليه من أسمال بالية وهو يلعن ويدمدم، ثم غمس رأسه في الحوض الذي اعتاد أن ينظف فيه كؤوس الخمر. وتناول منشفة وجفف بها صدره وظهره، وكان طوال الوقت يدمدم ويصق. بعد ذلك، وضع فمه على صنبور البرميل وراح يشرب. وحين سمع حركة البراميل مال فوقها، ولما رأى التلاميذ الرابضين متكومين، جن جنونه.

أخذ يزق فيهم «اغريوا عن وجهي أيها الكلاب القذرة! باء! أ هكذا تلامزون رئيسكم! بتهزيكم من المعركة، هه! أيها الجليليون القذرون، السامريون القذرون، أولاد الحرام القذرون!» غامر بطرس بالقول «يعلم الرب أن أرواحنا كانت راغبة في ذلك، لكن أجسادنا»

«أخرسوا، أيها الشرثارون! باء! حين تريد الروح فلا سلطة للجسد. تصيح الروح هي كل شيء، حتى الهراوة التي في أيديكم، والمعطف الملقى على أكتافكم، والحجارة التي تدوسونها - كل شيء، كل شيء! انظروا أيها الجبناء، انظروا اليّ : مضروب، ملابسي أسمال ممزقة، مُقلنا عينيّ تكادان تسقطان من رأسي، لماذا؟ - لياخذكم الشيطان أيها التلاميذ القذرون! - لأنني، اللعنة، دافعتُ عن معلمكم. قاتلت الناس جميعاً - أنا، أنا، صاحب الحان، القبرواني القذر! ولماذا فعلت هذا؟ لأنني أؤمن بأنه المسيح المنتظر

ولأنه غداً سيجعل شأني عظيماً هاماً؟ البتة، لا، مطلقاً. وإنما لأن احترامي للعين لذاتي يملكتني، وأنا أيضاً لست نادماً على ذلك» أخذ يتمشى في المكان ذهاباً وإياباً، يتعثر بالمقاعد ، ويصق، ويصعب لعناته. وكان متى في أشد حالات القلق، يريد أن يعرف ماذا حدث في قصر قيافا، وماذا حدث في قصر هيرلاطس، وماذا قال المعلم، وماذا هتف الناس، حتى يتمكن من تسجيل كل شيء في دفتره.

قال «إذا كنت تؤمن بالرب يا سمعان، يا أخي، فاهذا واحك لنا ماحدث: كيف، ومتى وأين، وما إذا تكلم المعلم» أجابه سمعان «لقد تكلم حتماً! لعنة الجحيم عليكم أيها التلاميذ! هذا ما قاله ، حسن - اكتب! لماذا تحمل بي؟ تناول قلمك واكتب : «لعنة الجحيم عليكم!»

وتصاعد التحيب من وراء البراميل - كان يوحنا يتدحرج على الأرض ويصرخ فزعاً، ويطرس يضرب برأسه على الجدار، عاد متى يتضرع اليه قائلاً «إن كنت تؤمن بالرب يا سمعان، قل الحقيقة حتى أدونها - ألا تفهم أن مستقبل العالم كله في هذه اللحظة متوقف على ماتقوله؟»

كان بطرس ما يزال يخطب رأسه على الحائط، قال له صاحب الحان «اللغة، لا تياأس يا بطرس، سأقول لك ما يمكنك أن تفعله كي تقوِّز بالمجد الأيدي. اسمع ، بعد قليل سيقدونه من هنا - إنني أسمع جلبتهم منذ الآن. انهض، كن رجلاً وافتح الباب، اذهب واحمل عنه الصليب على كتفيك. اللعنة، كم هو ثقيل، وريك شديد الرقة، ومرهق»

دفع بطرس بقدمه وهو يضحك، وقال «أفعل؟ أريد أن أرى فعلاً، هنا والآن!»

قال بطرس وهو يئن «ساقبل، أقسم لك، إذا لم يكن هناك حشد كبير، لأنهم سيفرموني»

استمع صاحب الحان غضباً وصرخ «الى الجحيم - كلكم! ان يقيم أحد منكم بذلك! ألا تفعل أنت يا نشانيل يا عود البقول؟ وأنت، يا اندراوس أيها السفاح؟ أما من أحد، لا أحد؟ تسوودا الى الجحيم كلكم! أه، يا عزيزي المسيح المسكين، ما أرفع الأفكار التي انتقيتها لتعطينا على قهر العالم! كنت فعلت خيراً لو أنك اخترتني أنا - أنا! لعلني أستحق الشئ أو رفع رأسي فوق وتد، لكني في كل الأحوال أمتنع بشيء من احترام الذات، وحين يتمتع المرء باحترام ذاته لا يهم عندئذ ان كان سكيراً، أو لصاً أو كاذباً؛ فهو يظل رجلاً، وإذا لم تكن تحترم ذاتك، فقد تكون حمامة بريئة. ولكن تسوودا! أنتم لا تساوون رقة حذاء بائسة»

بصق ثانية، ثم فتح الباب ووقف على العتبة، وهو ينفث. كان الشارع قد امتلأ بالناس، رجال ونساء يركضون، ويهتفون «انه قادم! ملك اليهود قادم. بووا! بووا!»

عاد التلاميذ بنزول خلف البراميل، وسمعان يدور كالدوامة، ويقول «ياها! ألا تحترمون أنفسكم؟ لا تريدون أن تخرجوا لتروه هه؟ ألا تريدون حتى أن تمنعوه عزاء القاء نظرة على تلاميذه؟ حسن إذن: أنا سأخرج - سوف ألوح له، سأقول له «هذا أنا، أنا، سمعان القيرواني - موجود»

وبقصة واحدة أصبح في الشارع، مرث الحشود، أمواج تتواجد. في المشددة سار الفرسان الرومان، وخلفهم جاء يسوع حاملاً صليبه. كان ملطخاً كله بالدماء، وملايسه مهلهلة ممزقة، ولم تعد فيه طاقة على السير، ووجهه يعيل أكثر فأكثر الى الاسام، وكان يتعثر في خطاه باستمرار.

ويوشك ان يقع، وهم يعملون باستمرار على نصب قامته ورفسه ليتقدم. وفي المؤخرة مرع العرج، والعميان، والمشوهون، يحدوهم السخط منه لأنه لم يشفيهم. صبوا عليه لعناتهم وكالوا له الضربات بعكازاتهم وعصيهم. وكان هو يثقف على الدوام فيما حوله. ان يظهر أحد من رفاقه الأحبة؟ ماذا ألم بهم؟

حين وصل بالقرب من الحانة التفت فرأى صاحب الحان يلوح له بيده. ابتهج قلبه «وهم بالايحاء له برأسه مودعاً لكنه تعثر بحجر وانهار على الأرض، وسقط الصليب عن ظهره، فأخذ يئن ألماً. اندفع القيرواني بسرعة، فأنهضه ثم رفع الصليب وحمله على ظهره هو. والتفت الى يسوع وابتمس، قال له «تشجع - أنا معك: لا تخف»

انطلقوا من بوابة داوود وأخذوا يرتقون السطح المؤدي الى قمة الجلجلة - الجلجلة: كومة من الحجارة والأشواك والعظام. هنا صلب المتمردون، وتركت بقاياهم طعاماً للصقور، وكان الهواء يقوح بنفثات الجثث.

حمل القيرواني الصليب. وبدأ جنديان بالحفر وطمره بين الصخور. جلس يسوع على حجر وأخذ ينتظر. الشمس معلقة عالياً فوقه، والسموات بيضاء، تتلظى - موصدة - لا يصدر عنها لسان لهب واحد، أو ملاك، ولا حتى إشارة صغيرة تدل على أن ثمة هناك فوق من يراقب الأحداث الجارية على الأرض... وبينما هو جالس ينتظر، فتمت كتلة صغيرة من التراب بين أصابعه. شعر بشخص يمثل أمامه، يحدق اليه. فرفع رأسه ببطء، دون عجلة، فراها وتعرف عليها.

غمغم «أهلاً بك، يا رفيقة الدرب المخلصة. ها هنا تنتهي الرحلة. وهما قد أنجز ما أردته، وما أردته أنا أيضاً أنجز. طوال

حياتي وأنا أكدح لأحوال اللغة الأبدية الى تبريك. وقد فعلت،
وأصبحتنا الآن أسدقاء. وداعاً، أيها الأم الكيري، ولوح بيده يوهن
للشبح المتوحش.

قبض عليه جنديان من كتفيه ، وصرخا به «انهض، يا صاحب
الجلالة، تربع على عرشك»

خلعا عنه أسناله، وكاشفين عن جسده النحيل، الماطخ بالدماء،
كان الحر شديداً ، ووقف الناس وقد علوا من كثرة الصراخ
حتى بعثت أصواتهم، يراقيون بصمت تام.

اقترح أحد الجنود، قال «فلنسبقه خمراً حتى يستعيد قواه»
أبعد يسوع الكأس عنه ومدّ ذراعيه نحو الصليب ، وغغمغ
«فلنكن مشينتك، يا أبي»

هنا أخذ العميان ، والمجدومون والمشوهون يزأرون «كذاب
غشاش! مضلل الناس!»

وزعق الصعاليك «أين مملكة السماء، أين الأفران المملوءة
بارغفة الخبزة، وأعطروه بوابل من شهور الليمون ومن الحجارة.

فتح يسوع ذراعيه واسعاً وفتح فمه ببني أن يهتف يا اخوتي!
لكن الجنود أمسكوا به ورفعوه الى الصليب، ثم نادوا على العجبر
ليحضروا المسامير ، ولكن ما إن ارتفعت المطارق وسمعت أول
طرفة حتى غاب وجه الشمس ، وبعد سماع الطرفة الثانية اكشهرت
السماء وأظلمت وظهرت النجوم : لم تكن نجوماً ، بل هضرات كبيرة
من الدموع انهمرت على الأرض.

غمر الخوف الجماهير ، واشتد صياح الأحصنة التي يمتطيها
الرومان، وراحت تثب وتتقز مسعورة وتدوس اليهود. ومن ثم هجأة
لغأ الأرض والسماء والهواء صمت تام، كما يحدث عادة قبل وقوع
زلزال.

انططح سمعان القيرواني على الحجارة، واهتز العالم عدة
مرات تحت قدميه، وتملكه الرعب، وتتم «يا إيلي! الآن سننشق
الأرض وتبتلعنا جميعاً»

رفع رأسه وتلفت فيما حوله، فبدا له وكان العالم قد أغمي
عليه يعلوه شحوب الموت، وأصبح الآن بالكاد مرئياً وسط الظلمة
المشوبة بالزرقعة، واختفت رؤوس الناس ولم تبق هناك غير عيونهم
- كتشوب سوداء - محفورة في الهواء، وهب سرب حاشد من الغريان
كان قد اشتتم رائحة الدم فاندفع نحو الجليظة، انتفض هارياً من
الرعب، ونذ عن الصليب لهاث شكوى ضعيف. رفع القيرواني عينيه
ونظر، وهو يشد على قلبه حتى لا ينفجر باكياً. وفجأة أفلتت منه
صرخة. لم يكن العجبر هم الذين يسعون على الصليب! لا ،
بل حشد من الملائكة هبط من السماء، حاملاً بأيديهم مطارق
ومسامير، كانت ترضف حول يسوع ، تهال بالمطارق يحيور وتسمر
اليدين والقدمين! بعضها كان يشد جسد الضحية بقوة بحبل ثخين
حتى لا يقع، وحمل ملاك صغير بخدين متوردين وخصلات شعر
ذهبية رمحاً وغرزه في قلب يسوع.

غمغم القيرواني وهو يرتجف «ماهذا؟ انه الرب ذاته، الرب
ذاته يصلبه!»

بعد ذلك - ولم يكن القيرواني قد خبر قط، مثل ذلك الخوف
الشديد أو الألم - شقت القضاة، من الأرض الى السماء، صرخة
عظيمة، فتفت الأكباد ملؤها الشكوى:

«إيلي... إيلي...»

وعجز المتألم عن المتابعة. أراد أن يفعل لكنه لم يقدر : لم يعد
في صدره أنفاس.
تدلى رأس المصلوب - وغاب عن الوعي.

الفصل الثلاثون

رُفَّت رموش عينية فرحاً ودهشة. إنه ليس صليباً؛ بل شجرة ضخمة تمتد من الأرض إلى السماء. لقد حل الربيع: الأزهار تغطي الشجرة برمتها؛ وعلى نهاية طرف كل غصن جلس عصفور على الشفا يقرد... أما هو - هو وقف منتصب القائمة، متكئاً بكامل جسمه على الشجرة المزهرة. رفع رأسه وأخذ يعدّ: واحد، اثنان، ثلاثة...

غمغم «ثلاثة وثلاثون، بعدد سني عمري. ثلاثة وثلاثون عصفوراً، وكلها تقرد»

اتسعت عيناه، تجاوزتا حدودهما، غطتا مساحة كامل وجهه. ودون أن يلتفت استطاع أن يرى العالم مزهراً في كل اتجاه. واستقبلت أذناه، الشبيهتين بصدفتين متممجتين، التجديفات، وبكاء العالم وصغبه، وحولتها إلى غناء. وتدفق الدم من قلبه الذي خرقه رمح.

لم تكن هناك ريح، لكن الشجرة الرحيمة أخذت تنفض عنها الأزهار، واحدة بعد أخرى، فوق شعره المشبك بالشوك وعلى يديه

الدمماتين . وبينما هو يصارع وسط هدير الزلزلة ليتذكر من يكون وأين هو، دُمّ الهواء فجأة، وتكثف، وإذا بملاك يظهر أمامه ... وفي تلك اللحظة، انبج النهار.

كان قد شاهد ملائكة عديدة، في منامه كما في يقظته، ولكن لم ير مثيلاً لهذا الملاك. يا لجمال الانسانى الدافئ، ويا لنعومة الزغب الجعد على وجنتيه وفوق شفته العليا والعينان - كيف تعبثان مرحاً، ملؤهما الغفوان، كعيني شاب صغير عاشق أو صبية عاشقة. جسمه لدن وقوي، ويغطي ساقيه زغب أسود مائل للزرقاء مزعج، ومن القصبين وحتى الفخذين المستديرين، ويفوح من تحت ابطنه رائحة عرق انساني محب.

ارتبك يسوع، وسأله، وقلبه يضرب بقوة «من أنت؟»
ابتسم الملاك، وغمرت وجهه كله حلاوة، كوجه انسان، وطوى جناحيه الأخضرين الكبيرين وكأنه لا يريد أن يبيت الخوف في قلب يسوع أكثر من ذلك.

أجاب «أنا مثلك تماماً، ملائكة الحارس، فكن مؤمناً»
كان صوته عميقاً، مداعباً، رؤوفاً ومألوفاً - تماماً كصوت انساني. وكانت أصوات الملائكة التي سمعها حتى ذلك الحين فاسية، وكانت دائماً توبخه، نظراً، وقد ملأه الحبور، الى الملاك متوسلاً بانتظار أن يقول المزيد.

تكوّن الملاك بما يريده ونزل ميتسماً عند رغبة الانسان. قال :
«أرسلني الرب لأعيد الدعوة الى شفتيك. لقد سقاك البشر الكثير من المرارة، وكذا فعلت السماوات، وقد تأملت كثيراً وصارعت. وطوال حياتك لم تشهد يوم سعادة واحداً. أمك، أخوتك، تلاميذك، الفقراء، المشوهون، والمضطهدون - كلهم، كلهم تغلوا عنك في لحظتك الأخيرة الرهيبة. بقيت وحدك فوق صخرة

الظلام، وحيداً تماماً وأعزل. فأشفق الرب الآب عليك، فنادى عليّ قائلاً «هيه، يا هذا، لم أنت جالس؟ الست ملائكة الحارس؟ اهبط الآن وانتذه. لا أريد أن يُصلب. يكفي عند هذا الحد»
«فاجبته، وأنا أرتجف» يا رب الجيوش، ألم ترسله الى الأرض لكي يُصلب ليخلص البشرية؟ لهذا تراني جالسا مطمئناً : حسب أن تلك هي مشيتك»
«أجابني الرب «فليُصلب في الحلم، فليصدق الخوف نفسه، والألم نفسه»

هتف يسوع، وهو يمسك برأس الملاك يكلتا يديه حتى لا يفلت منه «يا ملاكي الحارس، يا ملاكي الحارس، انتي محتر - ألم أُصلب؟»
وضع الملاك يده الناصعة البياض على قلب يسوع المضطرب ليسكن من غلواته، ثم قال له، وعيناه اللاتنتان ترفرفان «إهدأ، ولا تضطرب، أيها الحبيب. لا، أنت لم تُصلب»
«أكان الصليب، إذن، حلماً - والمسامير، والألم، والشمس التي أظلمت؟»

«نعم، هو حلم. لقد عشت الآلم كلها في حلم. ارتقيت الصليب وسُمرت عليه في حلم. والجروح الخمسة التي في يديك، وقدميك وقلبك أصبت بها في حلم، ولكن بقوة عظيمة الى حد - انظر ! الدماء مازالت تجري»

راح يسوع يحدق فيما حوله في نشوة . أين هو؟ ماهذا السهل بأشجاره الزهرة ومياهه الوفيرة؟ وأورشليم؟ وروحه؟ ثم انتفت الى الملاك ولمس ذراعه. ما أبرد جسمه، وما أقواه!
قال «أيها الملاك الحارس، كلامك يخفف آلام جسدي، ويحول الصليب الى شمع صليب، والمسامير الى أشباح مسامير، ويطفئ الصليب والمصلوب في السماء فوقي، كسحابة،

قال الملك «هيا بنا». وأخذ يسير برشاقة وخطى واسعة فوق
المرج المزهر. «ثمة أفراح عظيمة بانتظارك يا يسوع الناصري. لقد
أعطاني الرب مطلق الحرية في أن أسمح لك بتدقيق كل المتع التي
كنت تتوق إليها سرّاً، أيها الحبيب، إن الأرض طيبة، وسترى. الخمر
والضحك، ومذاق شفتي امرأة، وحضر طفلك الأول مرححاً على
ركبتك. كل هذا طيب. اننا معشر الملائكة كثيراً ما نلذ، ونحن
هناك فوق في السماء، نلذقي نظرة على الأرض (أتصدق؟) - وننتهد
حسرة»

ترقف بجانبه الكبيرين الأخضرين وعانق يسوع. قال
«استدر، وانظر خلفك»

استدار يسوع - فماذا رأى؟ رأى عن بُعد عالياً ثلة الناصرة
تلمع تحت أشعة الشمس الطالعة، وبوابات الحصن مفتوحة،
وحشوداً تعددها بالآلاف - كلهم من عليّة الرجال والنساء -
يخرجون منها، مرتدين ثياباً من الذهب ويمتلطون جياداً بيضاء -
وقد رُفعت رايات ترقف في الهواء من الحرير الأبيض كالثلج
سوشّة برسوم أزهار السوسن بخيوط من ذهب، وأصل الموكب
مسيره نزولاً بين الجبال المرصعة بالأزاهير، مروراً بقلع ضخمة،
وخوضاً في أنهار، متعرجاً بينها، معانقاً سفوح التلال. وسمع
ضجيجاً مركباً من الضحك، وأحاديث تدور بأصوات عالية، ومن
خلف أجمات كثيفة من الأشجار، تأوهات عذبة.

قال يسوع، مرتبكاً «أيها الملك الحارس، ماهذا الحشد من
النبلاء؟ من هؤلاء الملوك والملكات؟ إلى أين هم ذاهبون؟»

أجابته الملك ميتسماً «إنه موكب زواج ملكي. إنهم ذاهبون

لحضور حفل الزفاف»

«من الذي سيتزوج؟»

أجابته «أنت. هذه أول متعة أقدمها لك»

ارتفع الدم إلى رأس يسوع، وحشد فجأة من متكون العروس.
فشدعر بنشوة جسدية، ومن ثم بات ملهوفاً. قال «هيا بنا»
وعلى الفور شعر أنه هو أيضاً يمتطي ظهر حصان أبيض
مطعم بالذهب سرجاً ولجاماً. ونظر إلى نفسه. كانت ريشة زرقاء
ترقف فوق قمة رأسه. ورداؤه الرث المرفق بألف رقعة أصبح كله
من المخمل والذهب.

سأله «أهذه، يا بني، هي مملكة السماء التي أعثنتها للملأ؟»

أجابته الملك، ضاحكاً «لا، لا، بل هذه الأرض»

«كيف تغيرت إلى هذا الحد؟»

«هي لم تتغير، أنت تغيرت. في وقت سابق كان قلبك يرفض
الأرض؛ كان يتصرف عكس إرادتها. والآن أصبح يريدها - وهذا هو
حل السر كله. إنه التقاغم ما بين الأرض والقلب، يا يسوع الناصري؛
هذه هي مملكة السماء... ولكن لم نُصْبِح وقتنا بالكلام؟ تعال،
فالعروس تنتظر»

هنا امتطى الملك حصاناً أبيض، وانطلقا معاً. مخلفاً وراءه
الجيال التي يتردد في جنباتها سهيل موكب الفرسان الملكي يتقدم
نزولاً. وازداد ضحك النساء. وكانت الطيور المرفرفة في الجو تحت
كل شيء للاتجاه جنوباً، وتغرد قائلة «إنه قادم، إنه قادم، إنه قادم»
قلب يسوع أيضاً كان مصفوراً، جاثماً فوق قمة رأسه ويزرقق
«أنا قادم، أنا قادم، أنا قادم»

ولكن بينما كان يسير خيلاً، إذا به فجأة، وفي غمرة فرحه
العارم، يتذكر تلاميذه. فالتفت إلى الوراء، وراح يديق النظر في
جموع السادة والسيدات، علّه يعثر عليهم - ولكن عبثاً.
نظر إلى مرافقه مدهوشاً.

سأله «وماذا عن تلاميذي؟ أنتي لا أراهم. أين عسا هم يكونون؟»

أجابته بضحكة ساخرة «تفرقوا»
«لماذا؟»

«من الخوف»
«حتى يهودا؟»

«كلهم! كلهم! لقد عادوا الى قواربهم الشراعية، واختبأوا داخل أكواخهم، وأقسموا على أن لا يقابلوك قط، وأن لا يتعرفوا عليك... كذاك تنظر خلفك. انسهم. انظر امامك»
غزا الجو عيبير مسكر فاح من أشجار الليمون المزهرة.
قال الملاك، وهو يترجل «هاقد وصلنا»، وتحول حصانه الى ضياء ثم اختفى.

تردد من داخل كرم الزيتون صدى حوار شاك عميق، ملؤه الألم والرقّة، اضطرب يسوع : شعر وكأن أحشائه تصرخ. نظر، فرأى ثوراً سمين الكفلين براقاً، مقدّم رأسه مبّقع باللونين الأسود والأبيض، مريضاً. كان ذيله منتصباً عالياً، وقمة اكليل زواج يتوّج قمرنيه. لم يكن يسوع قد شاهد قط ثوراً يمثل قوته، وروعته، وعضلاته القوية، ولا مثيلاً لسواد عينيه، المملوءتين تشامطاً وقوة. تملكه الخوف. قال في نفسه، هذا ليس ثوراً! إنه أحد أوجه الرب العلي، السمراء الخالدة.

وقف الملاك الى جانبيه وابتسم بمكر. قال «لا تخف يا يسوع الناصري، إنه مجرد ثور، ثور فتى بكر. انظر ما أسرع حركة لسانه ولعقه لأنفه الرطب، وانظر كيف يخفض رأسه وينطح شجرة الزيتون، اشتياقاً لتناولها، وكيف يهز نفسه ليقطع الحبل ويهرب... انظر هناك الى المرج. ماذا ترى؟»

«إنها عجول، عجول غضة. وهي ترعى»

«إنها لا ترعى، بل تنتظر أن يقطع الثور الشو الفضي الحبل. أتصت مرة أخرى كيف يخور. يا لرقته، وتوسله، وقوته! انه يحق أشبه بهاله أسمر جريح... لماذا أصبحت سعنك صارمة يا يسوع الناصري؟ لماذا تنظر اليّ بهاتين العينين الداكنتين المتجهمتين؟»
جار يسوع بصوت منخفض «هيا بنا». وكان صوته مفعماً بالرقّة، والتضرع والقوة.

أجاب الملاك ضاحكاً «سامطلق سراح الثور أولاً، ألا تأنسى له؟»
ثم اقترب وفكّ الحبل، للوهلة الأولى لم يبد الحيوان البكرحراكاً. لكنه فجأة فهم الأمر! إنه حر. وبشرة واحدة اندفع يبغي المرج.

في تلك اللحظة بالذات سمع يسوع رنين أساور وقلائد من داخل بستان الليمون. التفت، فرأى مريم المجدلية متوجّة بأزهار الليمون، ماثلة امامه، حيّة ترتجف.

اندفع يسوع نحوها وعانقها. هتف «المجدلية، المجدلية الحبيبة، آه، كم من سنين، كم من سنين طويلة جداً تقّنت خلالها الى هذه اللحظة! من الذي وقف حائلاً بيننا ورهض أن يدعنا أحراراً - أهو الرب؟... لماذا تبكين؟»

«من فرط فرحي، أيها الحبيب! من فرط اشتياقي. تعال!»
«هيا بنا، قوديني!»

والتفت ليودع رفيقه، لكن الملاك كان قد تلاشى في الأنير. والموكب الملكي الفخم للسادة والسيدات والملوك والخيول البيضاء ورسوم النيك البيضاء الذي كان يسير خلفه تبخّر بدوره، وفي الأسفل على المرج كان الثور يجمع العجول.
«عمن تبحث أيها الحبيب؟ لماذا تحديق خلفك؟ لم يبق غيرنا»

في العالم. وأنا أثقل الجروح الخمسة على قدميك. ويديك،
وقلبك، أي فرح هذا، ما أروعه من فصيح! لقد بُعثَ العالم كله من
جديد تعال»

«إلى أين ؟ اعطني يدك : قوديني . أنا أثق بك»

«إلى بستان كثيف الشجر . لقد طاردوك؛ ويغفون اللقاء القبيح
عليك . كان كل شيء معداً - الصليب، والمسامير، والرعا، وبيلاطس
- ولكن فجأة جاء ملاك واختطفك . هيا - قيل أن ترتفع الشمس
وتراك . لقد أصبحوا مسعورين : يطالبون بموتك»
«ماذا فعلت لهم؟»

«سعيّت لخيرهم، لخلاصهم . فكيف يمكنهم أن يغفروا لك
هذا؟ هات يدك أيها الحبيب . اتبع المرأة . انها دائماً تعرف الطريق
الصحيح دون شك»

أمسكت بيده . وكان خمارها الأحمر الناري يفتخ أشاء سيرها
الحثيث تحت أشجار الليمون المزهرة التي ستطرح ثمارها قريباً .
وكانت أصابعها المتشابكة مع أصابع الرجل تلتهم من الحرارة .
وفمها يعبق برائحة أوراق الليمون .

انقطعت أنفاسها فتوقفت برهة ونظرت إلى يسوع . انتابته
رجفة . فقد رأى عينها تبتس بمرح غاو ، مأكراً ، كعين الملاك . لكنها
ابتسمت له . قالت :

«لا تخش شيئاً أيها الحبيب . منذ سنين وسنين وعلى طرف
لساني شيء أريد قوله ، ولكن لم يكن لدي من الشجاعة ما ي دفعني
لمصارحتك به . والآن سأفعل»

«ما هو ؟ تكلمي ولا تخافي . أيتها الحبيبة»

«إذا كنت في السماء السابعة وطلب منك عابر سبيل كأساً من
الماء . فاهبط إليه من السماء السابعة لتلبي طلبه . وإذا كنت قدسياً

ورعاً وطلبت امرأة منك قبلة . فاهبط من حرمك لتعطيها إياها .
والا فإني لك تال الخلاص»

ضمّهما يسوع إليه . ورضع رأسها ثم قبّلها على فمها .

علا وجهيهما معاً شحوب الموت . ونراخت ركبتهما . ولما لم يعد
بامكانهما أن يتقدما أكثر من ذلك . استلقيا تحت شجرة ليمون
مزهرة وراحا يتدحرجان على الأرض .

ارتفعت الشمس وتوقفت فوقهما . هبت نسمة هواء فوقعت
عدة أزهار ليمون على الجسدين العاريين . والتصقت عظام
خضراء على حجر قبالتهما وأخذت تراقبهما بعينيها المدوّرتين .
الثابتتين . وبين الحين والآخر كان يُسمع خوار الثور عن بعد . وقد
ارتاح الآن وأشبع رغبته . وهطل رذاذ خفيف رطب من حرارة
الجسدين الملتبته وأشاع عبق تربة الأرض .

عانت مريم المجدلية الرجل . وهي تخرخر بسرور . وأبقت
جسدها ملتصقاً بجسده .

«لم يقللي أي رجل آخر من قبل . ولم أتحسس شعر لحية أي
رجل آخر على شفتي ووجنتي . ولا يركبني رجل بين ركبتي . انه يوم
مولدي ... أتبكي يا طفلي؟»

«زوجتي الحبيبة . لم أعرف قط أن العالم بهذا الجمال وأن
الجسد بهذه القداسة . هو أيضاً ابن الرب . شقيق مبارك للروح .
ولم أعرف قط أن متع الجسد ليست أئمة»

«لم انطلقت لتغزو السماء . وتناوّه . وتبحث عن مياه الحياة
الأبدية الاعجوبية؟ أنا هو ذاك الماء . لقد انحنيت . وشريت . ووجدت
السكينة ... أما زلت تناوّه . يا طفلي؟ فيم تفكر؟»

«إن قلبي ورده ذابلة من أريجها انتعشت وتفتحت من جديد حين
وضعت في الماء . المرأة هي نبع ماء الخلود . الآن بت أفهم»

«تتهم ماذا يا طفلي؟»

«أن هذا هو الدرب الصحيح»

«الدرب؟ أي درب، يا يسوع العزيز؟»

«الدرب الذي إذا سار عليه الفاني يقدو خالداً، الدرب الذي يهبط الرب بواسطته إلى الأرض متخذاً هيئة البشر! لقد ضللت لأنني رحت أبحت عن درب غير درب الجسد: أردت أن أتخذ درب السحب، والأفكار العظمى والموت، أغفري لي أيها المرأة، يا رفيقتي العزيزة في صنع الرب، إنني أسجد وأتعبدك، يا أم الرب... ماذا منسماي الولد الذي سننجيه؟»

«خذني إلى نهر الأردن وعمّده كما تشاء؛ إنه ابنك»

«فلنسمه باراقليط، أي المعزّي»

«شش، إنني أسمع شخصاً قادماً خلال الأشجار. لابد أنه عبيدي الصغير الوفي. أمرته أن يقوم بالحراسة حتى لا يقترب أحد. هاموا»

«أنا شاول، يا سيدتي»

رقصت عينا الصبي البيضاء والبراقتان، وكان جسمه اللخيم يرغي ويزيد كله كجسم حصان بعد أن قام بقفزة.

انقضت المجدلية منتصبية ووضعت يدها على فيه «اصمت!»

ثم التفتت إلى يسوع، وقالت «زوجي الحبيب، أنت تعب. نم، وسأعود سريعاً»

لكن يسوع كان قد أغمض عينيه فعلاً، وغمر جفنيه وسبيلتيه نوم هائل، ولم ير المجدلية وهي تبتعد تحت أشجار الليمون وتختفي على الدرب المضمّر.

لكن ذهنه انقض مستيقظاً بارتجاجة، تاركاً جسده نائماً على الأرض. وانطلق في إثر المجدلية، إلى أين هي ذاهبة؟ لماذا تهرقت

عيناهما فجأة بالدمع واكفهرت الدنيا في وجهها؟ خلق ذهنه، كالصقر فوق تينك العينين ولم يدعها تفلت منه.

سار الفتى الزنجي خائفاً يتعثر في المقدمة، اجتاز كرم الزيتون، لم تكن الشمس قد غربت بعد، ثم وطأ أرض المرح. كانت العجول متمدة على العشب، تمضغ جزئها، ثم انحدرت إلى وهد ظليل صخري وهناك سمع نباح كلاب وأصوات رجال تلهث. استولى الرعب على الزنجي الصغير، قال «أنا ذاهب» وانطلق يركض.

بقيت المجدلية وحدها، تلفتت فيما حولها، لا شيء غير صخور، صوآن، ويضع شجيرات علق. امتدت شجرة تين بوية غير مثمرة بشكل أفقي خارج وجه الجرف، لمح غرابان - يحرسان أفضل نقطة من نتوء صخري - المجدلية فبدءا يصرخان كأنهما يستدعيان رفاقهما.

سمعت صوت حجارة تزاح من أماكنها. ثمة رجال يرتسون الجرف، ثم ظهر كلب أسود، مع بقع حمراء، يدلبي لسانه. ثم أصبح الوهد مملوءاً، أشبه بمقبرة، بأشجار السرو والنخيل، وسمع صوت هادئ، ينم عن الرضى «أهلاً»

استدارت المجدلية، وقالت «من يتكلم؟ من يرحب بي؟»

«أنا»

«من أنت؟»

«الرب»

«الرب؟ دعني أعطي شعري وأستر ثديي، أدر وجهك يا رب، لا يليق أن ترى عريي - إنني خجلة. لماذا استدرجتني إلى هذه البرية الموحشة؟ أين أنا؟ انني لا أرى غير أشجار السرو والنخيل»
«صحيح! الموت والخلود... أيتها الشهيدة العظيمة، لقد

استدجرتك بالضبط الى حيث أردت. استعدي لتموتي. يا مجدلية،
حتى يتاح لك أن تصبحي من الخالدين»

«لا أريد أن أموت . لا أريد أن أغدو خائفة. دعني أواصل
الحياة على الأرض. وبعد ذلك، فلتحولني الى رماد»

«الموت قافلة محمكة بالنوايل والمطوّر. لا تخشي شيئاً يا
مجدلية. امطئي الجمل الأسود وادخلي الى صحراء السماء»

«آه، من أولئك المسافرين المهتاجون الذين برزوا من خلف
أشجار السرو؟»

«لا تخافي يا مجدلية، انهم عبّادي من حداة الجمال . ظلي
عينيك بيدك. ألا ترين الجمل الأسود الذي يقودونه ، ذي السرج

المخمل الأحمر الذي ستمتطينه؟ لا تقاومي»
«يا رب، انني لا أخشى الموت، ولكن لدي شكوى أقدمها لك.

الآن فقط، وللمرة الأولى، أصبح جسدي وروحي جديرين بأن يكون
لهما هم واحد! للمرة الأولى، تلتقي كلاهما القبل . فهل يجب أن

أموت؟
«انها اللحظة المثلى بالنسبة لك لتموتي يا مجدلية، ولن

تصادفي مثيلة لها، فلا تقاومي»
«آه، ما تلك الصرخات، والتهديدات، ونوبات الضحك التي

أسمعها؟ يا رب، لا تتخل عني، إنهم قادمون ليقتلوني!»
سمعت الصوت، مازال هادئاً ويتم عن الرضى . لكنه الآن بات

أتياً من بعيد «يا مجدلية، لقد نلت أعظم متع حياتك، ولا يمكنك
أن تنالي أكثر من ذلك، الموت رحمة... الى الملتقى، يا أول

الشهداء»
تلاشى الصوت، وبرز لها غوغاء من اللاويين المسعورين وعبيد

قيافا المتعطشين لسفك الدماء آتين من أحد منعطفات الوهد،

حاملين الخناجر . والفؤوس. وحين رأوا المجدلية انقضوا عليها .
حاملو سواطير وكلاب ورجال.

راحوا يجارون في وجهها وسط نوبات من الضحك «يا مريم
المجدلية، يا عاهرة!»

حجبت عين الشمس سخابة سوداء، وأظلمت الدنيا .
صرخت المرأة التعيسة «امت كذلك، لست كذلك! كنت هكذا

من قبل، ولكن لست كذلك الآن. اليوم ولدت من جديد!»
«مريم المجدلية، عاهرة!»

«كنت من قبل، ولم أعد كذلك الآن، أقسم على هذا . لا
تقتلوني. الرحمة! من أنت، أنت أيها الأصلع ، ذو الكرش الضخمة،

والساقان المقومتان - أنت، أيها الأحب؟ لا تلمسني!»
«مريم المجدلية، أيها العاهرة! أنا شاول . أرسل رب اسرائيل

في طلبي من دمشق ومنحني الحق بقتله»
«قتل من؟»

«عشيقك!»
ثم التفت الى عصابةته.

«اهجموا عليها يا شباب! انها عشيقته، وتعرف مكانه.
أخبرينا، أين أخفيت أيتها الساقطة!»

«لن أخبركم!»
«سأقتلك!»

«هو في بيت غنيا»
«كاذبة! نحن قادمون لتوتا من هناك . أنت أخفيت في مكان ما

قريب. قولي الحقيقة الآن!»
«اترك شعري! لماذا تريد أن تقتله؟ ماذا فعل لكم؟»

«من يعث بالناموس المقدس - جزاؤه الموت!»

العالم. انني انزل الى الموانئ. أشاهد السفن وهي تبخر. ويحترق قلبي شوقاً للوصول الى أطراف الدنيا، ولكن ليس كمعبد يهودي متسول! لا، بل كملك، يمشق سيفاً! أما الآن؟ مستحيل. انني أشعر بالاحباط حتى لأكاد أقتل نفسي. في هذه الأثناء أنفس عن نفسي يقتل الآخرين»

صمت برهة، ثم اقترب أكثر من المرأة، وسألها بصوت خفيض «أين سيدك يا مجدلية؟ أخبريني حتى أعثر عليه وأكلمه. أريد أن يخبرني ماهي المحبة. وأي نوع من المحبة سيفوزو العالم... لماذا تبكين؟»

«لاني بحق أريد أن أكشف عن مكانه. أريد أن أعقد لقاءً بينكما أنتما الاثنين، هو العذوبة المطلقة؛ وأنت النار. ومعاً ستغزوان العالم. لكنني لا أثق بك؛ لا، لا أثق بك يا شاؤول - لهذا تراني أبكي»

كانت مائزال تتكلم حين كسر حجر انطلق يشق صفيره الهواء فكها.

وزعق اللاوي المسلول قائلاً «يا أخوتي - باسم رب ابراهيم، واسحق ويعقوب - اضربوها». وكان هو أول من التفت حجراً وضربها به.

هدرت السماوات بالرعود. وفي الأفق كانت الشمس القارية تستلعم في الدماء.

جار أحد عبيد قيافا «هالك واحداً لشمها ذي الألف قبيلة». وتهشمت أسنان المجدلية وتناثرت على الأرض.

«وهذا لبطنها»

«ولقلبها»

«ولجسر أنفها»

بينما كان الأحذب يتكلم كان ينظر اليها بهيام وأخذ يقترب منها ويقترب، يلهث أنفاساً حارة.

رفضت المجدلية رموش عينيها، وقالت «انظر يا شاؤول الى نهدي، وذراعي، ونحري، أليس خسارة أن ينتهوا؟ لا تقتلهم!»

ظل شاؤول يقترب، وقد اختنق صوته، وأضحى أجشاً وهو يقول «اعترفني بمكان وجوده وساعفوه عتك، أحب نهديك، وذراعيك، ونحرك. اشفقي على جمالك واعتري! لماذا تطهرين إلي هكذا؟ ماذا يدور بخلدك؟»

«كنت أفكر يا شاؤول - وأتحمس - أفكر بالمعجزات التي قد تقوم بها لو أن الرب يضيء فجأة نوره داخلك وترى الحق! لكي يتمكن حبيبي من غزو العالم يحتاج الى أتباع من أمثالك - وليس الى صيادي سمك، وبائعين متجولين، ورعاة غنم - بل الى ألسنة لهب، مثلك يا شاؤول!»

«يغزو العالم! أريد أن يغزو العالم؟ كيف؟ اقصحي يا مجدلية، لأن هذا بالضبط ما أريد معرفته»

«بالمحبة»

«بالمحبة؟»

«اسمع يا شاؤول ما سأقول له لك. تخلص من الآخرين - لا أريدكم أن يسمعوا. ان الرجل الذي تطاردونه وتبغون قتله هو ابن الرب، مخلص العالم، المسيح! نعم، وأقسم بروحي التي ستذهب الى باربيها»

همس لاوي نحيل، مسلول، ذو لحية هزيلة شائبة قائلاً: «شاؤول، يا شاؤول، إن ذراعيها أشراك ذئب. احذرها»

«أغرب عن وجهي!»

وعاد يلتفت الى المجدلية. قال «بالمحبة؟ أنا أيضاً أود أن أغزو

دقت المجذلية رأسها في صدرها لتحميه، وانجمت الدماء من فمها، ونهديها، وفرجها، وبدأت تغرغر خرخرة الموت. صفق الصقر جناحيه. لقد رأت عيناه المستديرتان كل شيء. وعاد أدراجه مطلقاً صرخة تمزق السمع. فالتفت جسده مازال مستلقياً تحت شجرة الليمون، فدخله. وهزته عينا يسوع؛ وانهمرت قطرة مطر كبيرة على شفتيه. استيقظ وانصب في جلسته على الثرى الغنية التي يسكنها الموت، تتقاذفه الأفكار. بماذا كان يعلم؟ انه لا يتذكر. لم يبق في ذاكرته غير صور لحجارة، امرأة ودعاء... أيمكن أن تكون المرأة هي المجذلية؟ كان وجهها في مخيلته متماوجاً، كسطح ماء جارٍ. لا يثبت حتى يراه. وبينما هو يجاهد كي يميزه بدا له وكان الحجارة والدم تتحول الى نول. وثمة امرأة جالسة أمام ألنها تتسج وتقني. كان صوتها غاية في العذوبة، ومشجولاً بالحسرة.

فوق رأسه لمعت ثمار الليمون وكأنها من الذهب بين أوراق شجر الليمون القاتمة، وضغط راحتي يديه على التربة الرملية فتحسس برودتها ودفتها الربيعي. ألقي نظرة سريعة فيما حوله : لا أحد يراقبه. شمال وقيل الأرض.

قال بصوت منخفض «أمام، ضميني إليك، وسأضنمك بدوري. أمام، لم لا تكوني أنت ربي؟»

اهتزت أوراق الليمون، وسمع وطء خطى خفيفة على الأرض الرطبة، وصوت شحور غير مرئي يغرد. رفع يسوع ناظره ف رأى ملاكه الحارس ذا الجناحين الأخضرين مائلاً أمامه، سعيداً مرحباً. كان الزغب الجعد الذي يغطي جسمه يتلألأ تحت أشعة الشمس الفاروية المائلة.

قال يسوع «مرحباً، يبدو وجهك مشرقاً. ماذا تحمل اليّ أيضاً

من أخبار طيبة؟ أنا أثق بك : إن خضرة جناحك تشبه خضرة عشب الأرض.»

ضحك الملاك وطوى جناحيه، وجلس القرقصاء بجوار يسوع ثم سحق زهرة ليمون وأخذ يشمها بشوق، ثم راح يحدق الى الجهة الغربية من السماء، التي أضحت عندئذ بلون القراصيا، وهبت من الأرض نسمات علية، وخشخت أوراق شجرة الليمون فرحاً ورقصت.

قال «ما أسعدكم أنتم بني البشر! أنتم مخلوقون من تراب وماء. لذا تراكم متشاغمون معاً: رجالاً، نساءً، لحماً، خضروات، ثماراً... أنستم من الثرى ذاتها، من الماء ذاته؟ والكل يرغب بالاندفاع في الآخرين. وأقرب مثال على ذلك، أني قبل قليل وأنا في طريقني سمعت امرأة تنادي عليك»

«وماذا كانت تنادي عليّ؟ ماذا تريد؟»

ابتسم الملاك. قال «إن ماءها وتريتها يناديان على مائك وتريتك. انها جالسة الى تولها، تغزل وتقني. أغنيها تغرق الجبال، وتنتشر على الميهول - بحثاً عنك. أنصت. بعد قليل ستصل الى هنا، هنا بين أشجار الليمون، انصت : هاهي. أسمعها حسيها تقني، ولكن لا، انها تندب، أنصت جيداً. ماذا تسمع؟»

«أسمع الطيور عائدة الى أعشاشها؛ فالظلام يسود»

«ولاشيء آخر؟ حاول بكل قواك. أتراك روحك تقادر جسدك

لعلك تسمع»

«ها أنا أسمع! أسمع! انه صوت امرأة، بعيدة جداً، بعيدة جداً... انها تندب، لكني لا أميز الكلمات»

«أنا أسمعها بوضوح تام. أنصت اليها جيداً. على ماذا تندب؟» نهض يسوع وبذل أقصى جهده : غادرت روحه جسده، ووصلت الى الثرى، ودخلت المنزل وتوقفت في فناءه.

قال يسوع، وهو يضع أصبعه على شفثيه «اسمع...
»تكلم»

«يا قبر القضاة، يا قبر الموشى بالذهب،
لا تلتهم شفثية الجمراوين، لا تلتهم عينيه السوداءين
لا تلتهم لسانه الصغير المفرد كالعندليب...»
«ألا تتعرف على صوت النادية يا يسوع الناصري؟»
«نعم»

«إنها مريم، أخت اليعازر. مازالت تسج جهاز عرسها، تعتقد
أنك مت، وتبكيك. نحرها الناصع البياض عار، تتدلى منه على
صدرها قلادة فيروزية. والعرق ينضح من جسدها كله. وتفوح منه
الروائح: أشبه برائحة الخبز الخارج توأ من الفرن، أشبه برائحة
ثمرة أجاص ناضجة، أشبه برائحة تربة الأرض بعد هطل المطر.
انهض. هيا بنا لنواسيها»

صرخ يسوع، وقد تملكه الخوف «والمجدلية؟»
أمسك الملاك به من ذراعه وأجلسه مرة أخرى على الأرض.
قال يهدوء «المجدلية، أه، نعم نسيت أن أقول لك: لقد ماتت»
«ماتت؟»

«قُتلت. هيه، إلى أين أنت ذاهب يا يسوع الناصري وأنت تشد
على قبضتيك هكذا؟ من تتوي أن تقتل - الرب؟ إنه هو الذي قتلها،
اجلس! لقد رمى الكلي القدسية سهماً اخترقها وهي في ذروة
سعادتها، والآن ستبقى هي فوق، مع الخالدين. فهل يمكن لأي
امرأة أن تحظى بمتعة أعظم منها؟ إنها لن تشهد خبو جذوة حبها،
وجبن قلبها، وتغفن جسدها. لقد كنت حاضراً عملية قتلها كلها،
ورأيت تلك السعادة. لقد رفعت يديها إلى السماء وصرخت «الشكر
لك يا رب. هذا ماكنت أصبو إليه»

انفجر غضب يسوع وهو يقول «الكلاب وحدها لديها مثل هذا
الاشتياق للخنوع - الكلاب والملائكة! أنا لست كلباً ولا ملاكاً. أنا
بشر، وما أنا أصرخ هذا ظلم! هذا ظلم! يا رب، ظلم منك أن
تقتلها. حتى أشد قاطعي الأخشاب فتظاظة يرتجف نفوراً من قطع
شجرة مزهرة، والمجدلية كانت مزهرة من جذورها وحتى آخر
أطراف أغصانها»

ضمعه الملاك بين ذراعيه وراح يداعب شعره وكشفه وركبتيه،
ويكلمه يهدوء، ورقة. وأخيراً حل الظلام، هب النسيم، وتبددت
السحب وظهر نجم كبير، لا بد أنه نجم المساء.

قال له «صبراً، سلم بالأمر، ولا تيأس. لا توجد في العالم إلا
امرأة واحدة، امرأة واحدة لها وجوه لا تحصى. يسقط واحد،
فيظهر آخر. أن مريم المجدلية ماتت. ومريم أخت اليعازر حية
ترزق وهي تنتظرنا. تنتظرك أنت، إنها المجدلية ذاتها، ولكن بوجه
آخر. انصت... ها هي تتوح من جديد. هيا بنا لنواسيها. في داخل
رحمها تحمل - تحمل لأجلك يا يسوع الناصري - أعظم المتع قاطبة:
ابناً - ابنك أنت. هيا بنا»

داعب الملاك صديقه برقة ورضعه ببطء عن الأرض. وبات
الاثان يقفان تحت أشجار اللبعمون، وفوقهما كان نجم المساء
ينحدر، وهو يضحك.

هدأت غلواء قلب يسوع شيئاً فشيئاً، وامتزج في ذهنه وسط
شبه الظلمة الرطبة وجها مريم المجدلية، ومريم أخت اليعازر،
وأضحيا وجهاً واحداً. وجاء الليل، مضمخاً بالعطر، وخيم
عليهما.

غمغم الملاك، وهو يحيط خصر يسوع بذراعه المضوطة، التي
يغطيها الرغب «تعال». كانت أنفاسه تعبق برائحة جوز الطيب

والترية الرطبة. همال برأسه عليه، وأغمض عينيّه، وأخذ يستشق
بعمق، يريد أن تنزل أنفاس الملاك الحارس حتى أحشائه.
نشر الملاك أحد جناحيه وهو يبتسم. لقد جاء الليل مصحوباً
بصقيع شديد، فغطى يسوع بجناحيه الأخضرين ليقيه القـر. ومرة
أخرى سمع نواح المرأة، كهطل رذاذ ربيعي رقيق يشق الجو الرطب:
«يا قبر الفضة، يا قبر الذهب...»
قال يسوع «هيا بنا» وأبتسم.

الفصل الحادي والثلاثون

أمضى يسوع الليل كله يتقلب على الأرض متدثراً بالجناحين
الأخضرين معانقاً الملاك من خصره بقوة. وكان قرص القمر الكبير
قد وصل إلى سمت السماء. وفي هذه الليلة كان غريب الأطوار،
سرحاً. ويدل أن يرى على صفحة وجهه قايين وهابيل كنت ترى قماً
واسعاً سعيداً، وعينين رائقتين ووجنتين موزنتين صحتة، يفمرهما
الضياء: أشبه بوجه امرأة عاشقة كامل الاستدارة يطوف في الليل،
واختفت الأشجار، وأخذت الطيور تتكلم كالإنسان. وانشقت الجبال،
وضمّت إليها جوانبي الليل ثم عادت فالتأمّت.
أي سعادة هذه: أن تطير، تتقلب على الأرض تماماً كما ترى
في أحلامنا! لقد أصبحت الحياة حلماً، أيمن أن يكون هذا هو
معنى الجنة... ودّ لو يسأل الملاك لكنه لزم الصمت، لأنه خشي أن
يستيقظ إذا ما تكلم.
تلقت حوله، كم أضحت أرواح الحجارة والهواء، والجبل خفيفة:
كما لو أنك جالس مع أصدقائك، مثقل القلب، ثم قدمت الخمر
وشربتها، وإذا بذهنك يخلق، يطفو، يبحر فوق رأسك، يغدو سحابة
وردية، وتنعكس صورة العالم، ذهبية أثرية، عليها مقلوبة.

مرة أخرى هم بالالتفات نحو الملاك ليكلّمه ، لكن هذا الأخير وضع أصبعه على شفثيه، مبتسماً، وطلب منه برقة أن يلزم الهدوء .
لا بد أنهما كانا قد اقتربا من إحدى القرى ، فقد سمعا صياح الديكة تعلن عن انبلاج الفجر . في ذلك الحين كان قرص القمر قد انحدر خلف الجبال وبدأ ضياء الفجر يثير العالم بسلام . كانت الأرض قد أضحت أكثر رصانة، وعاد الزمن مُدركاً . وعاد الجبل، والقرية، وكرم الزيتون الى الظهور حيث وضعها الرب لتنتظر نهاية العالم . هنا الدرب الحبيب، وهناك قرية بيت عنيا الرحيمة وسط كروم زيتونها وتينها وعنبها . هناك أيضاً منزل الأصدقاء المنعش، وفيه النول المقدس والنار المضرومة والأختان، الشعلتان اللتان لا تعرفان النوم...

قال الملاك «هاقد وصلنا»

كان الدخان يتصاعد من مدخنة السطح . لا بد أن الأختين قد استيقظتا لتوهما وأضرمتا النار .

قال الملاك، رافعاً جناحه عنه «يا يسوع الناصري، لقد أضربت الأختان نارا، وقامتا بالحلب منذ الصباح الباكر وهما الآن تعدّان الحليب لأهلك . ألم تكن تريد ، ونحن على الطريق ، أن تسألني عن معنى الجنة؟ إنها آلاف من المتع الصغيرة، يا يسوع الناصري . هي أن تفرح بآباً ، فتشبع لك امرأة، فتجلس أمام موقد، وأن تراقبها وهي تعد لك المائدة، ويعد أن يسود الظلام الدامس أن تداعبها وتأخذها بين ذراعيك . هكذا يأتي المخلص : بالتدريج . من عناق الى عناق، من ابن الى ابن : هذا هو الدرب»

قال يسوع «فهمت»، وتوقف أمام الباب ذي اللون النيلي، وقبض على المطرقة، لكن الملاك منعه .

قال «لا تتعجل . اسمع، الأفضل أن لا نفترق بعد الآن . انتي

أخاف أن أتركك وحيداً أعزل . لذا سأتي معك، سأظهر على هيئة صبي أسود، ذاك الذي رأيته تحت أشجار الليمون، ويمكنك أن تقول انتي عيد صغير يؤدي لك مهاماً . لا أريدك أن تسلك الطريق الخطأ مرة أخرى وتضل»

ما إن أنهى كلامه حتى رأى يسوع صبياً أسود مائلاً أمامه، رأسه حتى مستوى ركبتي الرجل، أسنانه كبيرة بيضاء، وفي أذنيه قرطان ذهبيان؛ وكان يحمل سلة ملأى حتى الزيا .

قال مبتسماً «هاك يا سيدي، هبات من الأختين . ثياب حريرية أقرط، أساور، مراوح صنعت من ريش نفيس - انها أسلحة أنثوية كاملة العدة . الآن بوسك أن تدق الباب»

قرع يسوع الباب . سمع طرق وقع قبقاب على أرض الفناء ومن ثم صوتاً عذبا ينادي «من هناك؟»

تصاعد الدم الى وجه يسوع حتى استحال قرمزيّاً . لقد تعرّف على صاحبة الصوت: انها مريم . فتح الباب وخرّت الأختان عند قدميه .

«يا معلم، اننا نسجد لآلامك، ونرحب بقيامتك المقدسة . أهلاً بك!» وقالت مريم «اسمح لي أن أمسّ صدرك يا معلم، لأرى ان كنت انت فعلاً»

هفتت مرتاً «انه جسد حقيقي يا مريم . جسد حقيقي، جسد - مثلنا، ألا ترين؟ ثم انظري، ظله مرثم على عتبة دارنا»
أنصت يسوع اليهما وابتسم . شعر بالأختين تتلمسانه، وتشمانه مبهجتين .

«يا مرتاً ومريم ، أيتها الشعلتان : يسعدني أن أراكما . وأنت يا منزل البشر، الهادئ، المتواضع، المضيق : يسعدني أن أراك . مازلتنا أحياء، مازلتنا نجوع، ونعمل، ونبكي . المجد للرب»

وأشاء تبادلته الحديث مع الأختين والتحية كان يتقدم داخل المذبح.

«يسعدني أن أراكم أيها الموقد والنول وأنت يا جرن العجن، ويا مائدة ويا إبريق وأيها المصباح الحبيب ! يا خدام المرأة المخلصين انني أتعني وأسجد لفضلك. ان المرأة حين تصل الى بوابة الجنة تتوقف وتسال «يا رب، هل تسمح لرفاقي أيضاً بالدخول معي؟» ويمسكها الرب «ومن هم رفاقك؟»

«هاهم - الجرن، والمهد، والمصباح، والابريق والنول. فإذا لم يدخلوا، فلن أدخل أنا أيضاً»

«فيجسك الرب الطيب القلب ويقول لها «هل يمكنكني أن أرفس لكن معروفاً أيها النساء؟ ادخلوا جميعكم. الجنة مملأة بالأجران، والمهود، والأنوال، ولم يبق مكان للقديسين» ضحكك المرأتان، ثم التفتتا فرأتا الصبي الأسود يحمل السلة الطافحة.

سألت مريم «من هذا الصبي يا معلم؟ تعجبتني أسنانه» جلس يسوع أمام الموقد، ثم جلبتا الحليب، والغسل، والخبز المصنوع من الدقيق الأسمر الكامل، وترقرقت عينا يسوع بالدمع. قال إن السماوات السبع، والفضائل العظمى السبع، والأفكار العظمى السبع لم تكن تكفي، والآن، ماهذه المعجزة، يا أختاي؟ بات بكفيتي منزل صغير جداً، لقمة من الخبز، وكلمات بسيطة من امرأة.

أخذ يقطع البيت جيئةً وذهاباً كأنه سيده، ثم أحضر ملء ذراعه من أغصان الكرمة من الغناء، وغذى النار. وتصاعد اللهب. وانحنى فوق البئر، وسحب منه ماءً وشرب، ثم مد يديه ووضعهما على كفتي مرثا ومريم وشدهما إليه.

قال «يا أعز مخلوقتين مرثا ومريم، سوف أيدل اسمي، لقد قتلوا أخي الذي يعثته من بين الموتى، لذا ساتي وأجلس في مكانه، هنا في الركن، سوف آخذ مهاز الثور، وسأحرث حقوله، وأبذرهما، وأحصدهما. وحين أعود في المساء سوف تغسل أختاي قديمي المرهقتين وتعداً المائدة لي. بعد ذلك أجلس بجوار نار الموقد، على هذا المقعد. ان اسمي الآن هو اليعازر»

بينما هو يتكلم كان ينظر مفتوناً الى عيني الصبي الأسود النجلاوين. وكلما أطل النظر اليه تبدلت أكثر قسمات وجه يسوع، وجسمه أيضاً: رأسه، وصدره، وفخذه، ويداؤه وقدماءه. وصار يشبه أكثر فأكثر اليعازر؛ اليعازر بالغ، ناضج، ملؤه الصحة والقوة، له عنق ثور، وصدر لؤحته أشعة الشمس ويدان ضخمتان تقطيهما العقد. راقت الأختان هذا التحول على الضوء الخافت وهما ترتجفان.

«لقد تبدل جسدي، وتبدلت روحي. فمرحباً ها أنا أعلن الحرب على الفقر والصوم، الروح حيوان يفسد بالحياة؛ ويرغب بالأكل. وهذا الفم الكامن تحت لحييتي وشاربي هو فم روحي، وهو الفم الوحيد للروح. أعلنها حرباً على العفة. ثمة وليد يقبع أصم خدراً في رحم كل امرأة. افتحوا الأبواب وأطلقوا سراحه! ان كل من لا ينجب، يقتل... أتبكين يا مريم؟»

«ويأت جواب آخر أدلي، يا معلم! نحن معشر النساء لا جواب آخر لدينا»

فتحت مرثا ذراعها وأسماء، وقالت «نحن معشر النساء ذراعان مفتوحتان أبداً، ادخل يا معلمي، اجلس، أصدرك أوامرك. أنت رب هذا البيت.

أشرق وجه يسوع، وقال «لقد انتهيت من صراعي مع الرب، وأصبحنا صديقين. لن أصنع صليباناً بعد الآن. سأصنع أجراناً،

ومهوداً وأسرة. سأبعت برسالة أطلب فيها أدواتي من الناصرة.
وسأبعت أيضاً في طلب أمي المكشوفة، حتى يتاح لها أن تربى
أحفادها وتتوق تلك المسكينة أخيراً حلالة الحياة»

انكأت إحدى المرأتين يصددها على ركبتيه، وأمسكت الأخرى
بيده ولم تتركها. وكان الصبي الأسود قد جلس أمام موقد النار
وأسند وجهه على ركبتيه وتظاهر بالنوم. لكنه كان من بين رموش
عينيه السوداوين الطويلة يراقب يسوع والمرأتين، ترسم عبر وجهه
ابتسامة مأكرة راضية.

كانت مريم، وصددها متكن على ركبتي يسوع، تقول «كنت
جالسة أمام التول يا معلم، أنسج الأملك - صليباً، وآلاف مؤلفة من
طيور السنونو تكتنفه - على قطعة بيضاء. كنت أوشع الخيطان
السوداء والحمراء وأرسل ثريزمية حزينة، فسمعتني، وأشفقت علي
وأثيت»

انتظرت مرثا أختها بهدوء حتى تنتهي، ثم تابعت قائلة «انتي
لا أعرف غير عجن الخبز وغسل الملابس وقول نعم. تلك هي
فضائلي يا معلم، ولدي حدس مسبق بأنك ستختار أختي زوجة لك.
ولكن اسمح لي أن أستنشق هواء الزواج معكما: اسمح لي أن
أرتب سريركما وأهويكما وأتولى جميع حاجاتكما المنزلية»

سكنت، وتهددت. ومن ثم قالت «بنات هريتنا يغنون أغنية
حزينة جداً. يغنينها في فصل الربيع، أثناء حضانة الطيور
لببوسها. اسمح لي أن أغنيها لك بدل أن أتلوها تلاوة، حتى تفهم
فحواها، لأن مرارتها تكمن في لحنها:

هو، أنتم! أيها الشجعان المرد -
تعبت من الربيع، من بيع نفسي
ولا أجد مشتر -

انتي أقدم كل شيء في صفقة، بما فيها نفسي!

المتقدم الأول، ينال الأفضل!

كل من يعطيني بيضة ستونو

أعطيته شفتي؛

ومن يعطيني بيضة نسر،

أعطيته ثدي!

ومن يسد لي طعنة،

أعطيته قلبي!

ترقرقت عينها بالدمع. وأحاطت مريم بذراعيها خصر
الرجل وكأنها تخش أن يؤخذ منها.

شعرت مرثا وكأن خنجرأ يخترق قلبها، لكنها استجمعت
شجاعته وعادت تتكلم. «يا معلم، أريد أن أقول لك شيئاً واحداً
فقط، وبعد ذلك سأنهض وأدعك مع مريم. ذات مرة كان هناك
مالك أرض جبار يدعى يوعز كان يقطن بالقرب من هنا، في بيت
لحم، وكان الوقت صيفاً وقد أنهى عبيده الحصاد، والدرس، والنز
وجمع الحزم في البيدر، القمح إلى اليمين والبن إلى اليسار.
فتمدد بين حزميتين واستغرق في النوم. وفي منتصف الليل جاءت
امرأة فقيرة تدعى راعوث ودخلت بهدوء، حتى لا توقظه، وجلست
عند قدميه. كانت أرملة ولم تنجب أطفالاً وكانت تعاني الأمرين.
شعر الرجل بدفء جسمها عند قدميه، فانزل يده باحثاً، فغثر
عليها ورفعها إلى صدره... أهضمت يا معلم؟»

«نعم، كفاك كلاماً»

قالت مرثا «أنا ذاهية» ونهضت.

بقي الاثنان وحدهما. فأحضرا حشية والملاء المزخرف عليها
رسم الصليب وطيور السنونو، وصعدا إلى سطح المنزل. وكانت

سحابة رحيمة تغطي عين الشمس. اختبأ تحت الملاء المزخرفة حتى لا يراهما الرب، وبدأ يتبادلان المداعبة. ومرة، انزلق الغطاء عنهما لحظة ففتح يسوع عينيه. فرأى الصبي الأسود جالساً عند حافة السطح. كان يحمل مزمارة وينفخ فيه، وعينه تحددان بعيداً باتجاه اورشليم.

في اليوم التالي وقد كل أهل القرية ليعيروا عن اعجابهم باليعازر الجديد. وكان الولد الأسود يهرع لأداء المهام. فيسحب الماء من البئر، ويحلب النعاج، ويساعد مرثا في اضرام النار. ومن ثم تكوّم عند عتبة الدار وأخذ ينفخ في مزمارة. وتوافد أهالي القرية محمّلين بغطايا من كيزان الذرة، والحليب، والتمر والعسل، ليرحبوا بالضيف الغريب الشديد الشبه باليعازر. ورأوا الصبي الأسود جالساً عند عتبة الدار فعبثوا معه وضحكوا، وشاركهم هو أيضاً الضحك.

دخل رئيس القرية الأعمى، ومد يده وأخذ يتلمس ركبتَي يسوع وفخذه وكنتمه متحسّساً. ثم هز رأسه وانفجر ضاحكاً. صرخ في أهل القرية الذين كانوا يملأون الفناء «تباً لكم! أنتم جميعاً عمي؟ هذا ليس اليعازر. رائحة أنفاسه ليست نفسها، وملبس جسمه مختلف، وعظامه يتشبّث بها الكثير من اللحم، ولا يمكن حتى لساطور جزار أن يفصل بينهما»

جلس يسوع في الفناء، يفسر الحقائق والأكاذيب معاً، وضحك. قال «لا تخشوا شيئاً يا أولادي. أنا لست اليعازر. لقد انتهى أمره. وإنما تصادف ان كان اسمي اليعازر؛ المعلم اليعازر - هانا نجار. لقد قادني ملاك ذو جناحين أخضرين الى هذا المنزل فدخلت. ثم نظر الى الصبي الأسود، الذي كان يتلوّى من حرّط الضحك.

تسارع الزمن كمياه سرمدية، وروى العالم. فتضجّت حبات القمح. وبدأت حبات العنب تتلألأ، وامتلأت ثمار الزيتون بالنزيت، وطرحت شجيرات الرمان المزهرة ثماراً. ثم أدركهما الخريف، وحل الشتاء. وولد ابنهما، واستأنفت مريم الناسجة خلال فترة نفاسها تنظر الى الوليد باعجاب لا حدود له، وتقول ميتسمة «ربي، كيف خرجت هذه المعجزة من رحمي؟ لقد شربت من ماء الحياة الخالدة، شربت من ماء الحياة الخالدة: لن أموت»

الليل حالك الظلمة، والدينا تمطر. الأرض القاصرة ضاهها تستقبل السماء بترحاب لتلج أحشاءها، وتحولها الى طين. والمعلم اليعازر متمدد تحت جناح الظلام وسط مهود لم يكتمل صنعها وأجدران بين نشارة الخشب في ورشته، ينصت الى قصص الرعود ويفكر في ابنه الوليد وفي الرب. كان مسروراً. انها المرة الأولى التي يحل فيها الرب في عقله على شكل طفل. هاهو يسمعه يبكي ويضحك في الغرفة المجاورة؛ يسمعه يرقص عند قدمي أمه. قال في نفسه، أيمن أن يكون الرب قريباً الى حد أن يمسد على لحيته السوداء. هل أخضع قدميه الورديان بهذه الرقة، وهل يثائر بالدغدغة، هل يبكي بهذه السهولة، هذا الرب العلي القدير، حين تداعبه أصابع بشرية؟

تسابب الصبي الأسود، متظاهراً بالنوم في الركن الآخر، المجاور للباب. وسمع الأم تعانق ولدها، فايتمسم ابتسامة رضى. والآن، في قلب الليل، حين لا يراه أحد، تحول مرة أخرى الى ملاك وجلس مسترخياً وجناحه الأخضران منشوران فوق نشارة الخشب. وهمس وسط الظلام «هل أنت مستيقظ يا يسوع؟»

تظاهر يسوع بعدم السماع، وأسعد أيعا سعادة أن يظل صامتاً ينصت الى الوليد في هدأة الليل. لكنه ابتسم. لقد أصبح عزيزاً

جداً عند هذا الصبي الأسود. إن الفتى يقوم طوال النهار بأداء المهام له ويساعده في تشكيل الخشب. وفي المساء بعد نهاية يوم عمل يجلس على عتبة الدار ويعزف له. ويتمنى يسوع وهو ينصت تعب النهار، وعندما تطلع أول نجمة يجلسون معاً جميعاً على مائدة واحدة لتناول الطعام، ولا يكف الزنجي عن إطلاق الفكاهات والفحش، ويضايق مرثا ويحرجها بسبب عذريتها.

ويقول، وهو يضحك وينظر إليها نظرة مغناج: «هناك في بلدنا، أثيوبيا، لا نخفي رغباتنا الدفينة وتتناكل قلوبنا كما تفعلون أنتم اليهود: إننا تناقش رغباتنا بصدق، وانفتاح، ونعمل وحقها: فإذا رغبت في أكل موزة - لا يهم إن كانت تخصني أو تخص غيري - فاني أكلها. وإذا رغبت في أن أسبح، أذهب وأسبح. وإذا رغبت في تقبيل امرأة، أقبلها. ولا يؤنبني الرب؛ إنه أسود اللون وهو يجب السود. ويضع أقراناً ذهبية في أذنيه وهو أيضاً يفعل كل ما يحلو له. انه أخونا الكبير، ولكلينا أم واحدة - هي الليل».

وذات مساء سأله مرثا، لتزعجه «ألن يموت ربك؟» أجاب الأسود، وهو يميل ليدغدغ أخمص قدم مرثا «مادام زنجي واحد على قيد الحياة، قريباً لن يموت».

وكان الملاك الحارس في كل مساء، وحالما يخبو نور المصباح، ينشر جناحيه تحت جنح الظلام ويتمدد بجوار صاحبه، ويتحدثان همساً حتى لا يسمعهما أحد، وينفخه الملاك بنسيجة ليعمل بها في اليوم التالي. ومن ثم يعود صبيلاً أسود ثانية، ويزحف فوق نشارة الخشب عائداً إلى مكانه وينام.

الا أن النوم جافاه هذه الليلة، وكرر على مسمعه، رافعاً صوته «يسوع، هل أنت نائم؟». وحين وجد انه لا يتلقى جواباً قفز واقفاً. واقترب من يسوع ولكزه.

«هو، يا معلم اليعازر، أعرف أنك لست نائماً، لم لا ترد؟» قال يسوع، وهو منغمض العينين «لا أرغب بالكلام. أنا سعيد» سأله الملاك، بفخر «أأنت راض عني؟ هل لديك أي شكوى؟» «أبدأ، يا بني، أبدأ» وعمر قلبه بالدفع، فنهض، وغمغم قائلاً «أي طريق شريرة سلكت لأصل إلى الرب، أي متعذر مهجور، كله جروف ونثوءات صخرية! ناديت وناديت، فارتد صوتي من الجبل المقفر فحسبت انه جواب!»

ضحك الملاك، وقال «وحذك لن تتمكن من العثور على الرب. الأمر يلزمه شخصان، رجل وامرأة، أنت لم تكن تعرف هذا - أنا علمتك، وهكذا، وبعد مرور سنين عديدة من بحثك عن الرب عثرت عليه أخيراً - حين اقترنرت بعريم. وها أنت الآن جالس في الظلام تنصت إلى وليدك يبكي ويضحك، فيمثل قلبك بهجة».

تمتم يسوع «هذا هو معنى الرب، هذا هو معنى الانسان. هذا هو الطريق الصحيح» وأغمض عينيه من جديد.

ومرت حياته السابقة في ذهنه كلمع البرق، وأطلق تنهيدة، ثم مد ذراعه. فتلاقت مع يد الملاك. قال برقة «لو لم تات، يا علاكي الحارس، يا بني، لضعت. ابق دائماً يقربي»

«سأفعل، لا تخف، لن أتركك، اني معجب بك»

«إلى متى ستدوم هذه السعادة؟»

«طالما أنا معك وأنت معي، يا يسوع الناصري»

«والى الأبد؟»

ضحك الملاك، «ما الأبد؟ ألم تتمكن بعد من التخلص من الكلمات الطنانة يا يسوع الناصري، من الكلمات الطنانة، والأفكار الضخمة، وممالك السماء؟ وهل يعني هذا انه حتى ابنك لم ينح

في شفتائك؟» وخبط قبضة يده على الأرض. «مملكة السماء هنا: على الأرض. هنا الرب: انه اينك. هنا الأبدية: هي كل لحظة، يا يسوع الناصري، كل لحظة تمر. الا تكفيك اللحظات؟ ان كان الجواب لا فان الأبدية أيضاً لن تكفيك»
لزم الصمت، ثم سمع وقع خطى خفيفة في الفناء لقدمين حافيتين تقتريان منه.

سال يسوع، وهو ينهض «من هناك؟»
اجاب الملاك ميسماً «امراًة»، ومضى ورفع رتاج الباب.
«أي امرأة؟»

هز الملاك اصبعه وكأنها يوبخه. قال «لقد قلت لك من قبل - أنسي؟ لمست هناك غير امرأة واحدة في العالم، واحدة، واحدة تحمل وجوهاً لا حصر لها. واحد تلك الوجوه سيظهر. شأنهض لترحب به. أنا ذاهب»
وكالأفعى، انزلق داخل نشارة الخشب واختفى.

توقف وقع الخطى خارج الباب. فاعمض يسوع عينيه ميمماً وجهه شطر الجدار، متظاهراً بالتوم. دفعت يد الباب فانفتح ودخلت منه امرأة، حابسة أنفاسها، تقدمت ببطء حتى وصلت الى الركن الذي يستلقي فيه يسوع، ودون أن تشوه بكلمة أو تثير أي ضجيج، تكومت عند قدميه.

شعر يسوع بالدقة يتصاعد من أخمص قدميه الى ركبتيه، وفخذه، وقلبه، وعنقه. فانزل يده حتى وصلت الى خصلات الشعر وتلمست وجه المرأة، ونعمرها، ونهديها وسط الظلام. فانحنى وكلها ترقب واستسلام، ولم تتكلم؛ لكن لحمها كان يرتعش وكامل جسدها ينضج بعرق مصقع.

قال الرجل بصوت منخفض، رقيق، ملؤه الحنو «من أنت؟»

ارتعشت المرأة، ولم تدلي بجواب. وندم يسوع لأنه تكلم، لقد نسي مرة أخرى ماقاله له الملاك. ماهم إن لم يعرف اسمها، أو من اين أنت، أو شكل، ولون، وجمال أو قبح وجهها؟ إنه الوجه الأنثوي للأرض. رحمها يكاد يخنقها: ففي داخله أبناء وبنات كثير، يختنقون ولا يتدبرون على الخروج. وقد أتت الى الرجل لعله يشق لهم منفذاً للخروج. وعمر قلب يسوع بالشفقة عليها.

تمتمت المرأة وهي ترتعش «أنا راعوث»
«راعوث؟ أي راعوث؟»
«مرثا»

الفصل الثاني والثلاثون

ومرت الأيام، والشهور، والمئنون، وتضاعف عدد الأبناء والبنات في منزل المعلم اليعازر، وتنافس مرثا ومريم في انجاب الأطفال . والرجل يكافح، تارة في الورشة مع أخشاب السنوبر، وسنديان القرمز والسرور، يطرحها أرضاً ويستخرج منها بالقوة أدوات الرجال؛ وطوراً في الحقول مع الرياح والمناجذ والقراص. وفي المساء يعود، مرهقاً، ليجلس في الفناء، فتثقل عليه زوجته لتفسيلاً له قدميه وريتيه، وتضرم النار، وتعدا المائدة لأجله وتفتح له أذرعها وأسعاً. وكان، كما أنه يعمل في الخشب، محبباً منه المهود الكامنة داخله وكما كان يعمل في الأرض، محبباً منها الأعناب وسنابل القمح التي داخلها، كذلك كان يصنع بالنساء ويطلق من دواخلهن : الرب.

قال يسوع في نفسه، أي سعادة، أي اتصال عميق بين الجسد والروح، بين الأرض والإنسان... وتعد مرثا ومريم أيديهما وتلمسان الرجل اللتان أحبتاه والأطفال اللذين خرجوا من رحمهما ويشبهونه، تلمسانهم لتريا أن كانوا مع كل هذا الفرح والعذوبة حقيقيين. لقد

بدا لهما ان كل هذا الفيض من السعادة كثير عليهما، وأصابتهما الرعدة.

و ذات ليلة حلمت مريم حلماً رهيباً، فنهضت من سريرها وخرجت الى الفناء فأتت يسوع؛ كان قد اغتسل وجلس برضى على الأرض، وراحاً يديه مغروستان في التربة، اقتربت منه وجلست الى جواره، ثم سألت بصوت رقيق «ماهي الأحلام يا معلم؟ مم تتألف؟ ومن يرسلها؟»

أجابها يسوع «لا هي ملائكة ولا شياطين، وعندما بدأ لوسيفر ثورته على الرب، لم تتمكن الأحلام من اتخاذ قرارها بالانضمام الى هذا الجانب أو ذاك، فظل موقعها بين الملائكة والشياطين، وقذف بها الرب الى جحيم التوهم... لماذا تسألين؟ بماذا حلمت يا مريم؟»

انفجرت مريم باكياً ولم تعط جواباً، مسد يسوع عليها، قائلاً «مادمت تحتفظين به في داخلك يا مريم سيظل ينهش أحشائك - اخرجيه الى النور حتى تتخلصني منه»

كادت مريم تبدأ بذلك لكن خوفها كان من الشدة بحيث تعذر عليها التفتس، فداعبها يسوع ليمنعها الشجاعة.

«كان القمر طوال الليل سامعاً بقوة حتى جافاني النوم. ولكن يبدو أنني قرابة الفجر استغرقت في النوم، فعلمت بطائر... لا، لم يكن طائراً؛ كانت له ستة أجنحة من نار - لا بد أنه أحد الميزافيمات التي تحيط بعرش الرب اقترّب، وحوّم بصمت حولي ومن ثم انقضّ فجأة وطلّق رأسي بأجنحته، وأقعّم منقاره في أذني وقال لي... يا معلم، أتوسل اليك، أقتل قدميك، مُرنّي بالصمت»

«تشجعي يا مريم، ألست معك؟ لم أنت خائفة؟... حسن، لقد كلمك. ماذا قال؟»

«قال إن كل هذا يا معلم، هو...»

مرة أخرى تعذّر عليها التفتس، فعانقت ركبتي يسوع وشدّت عليهما بقوة بذراعيها.

«إن كل هذا هو... ماذا، يا مريم العزيزة؟»

انفجرت في نوبة بكاء وهي تقول «حلم»

ارتعدت فرائس يسوع «حلم؟»

«نعم، يا معلم. كل هذا حلم»

«ماذا تعنين بكل هذا؟»

«أنت، وأنا، ومرثا، وعناقنا في الليل... والأطفال... كله، كله - كله أكاذيب! أكاذيب خلقها الغاوي ليضللنا! أخذ النوم، والموت والهواء وصاغها على شكل... خلّصني يا معلم»

أخذت تتقلب على الأرض، ثم اهتزت اهتزازة متشنجة برهة من الزمن، وهجأة تصلبت، هزعت مرثا إليها وهي تحمل بعضاً من خل الورد ودلت به صدغيها، أفاقت مريم، وفتحت عينيها، ولما رأت يسوع تشبّثت بقدميه.

قالت مرثا «لقد حركت شفّتها يا معلم، انحنيت. تريد أن تقول لك شيئاً»

مال يسوع ورفع لها رأسها، فحركت شفّتها.

«ماذا قلت، أيتها الحبيبة مريم؟ انني لا أسمعك»

استجبت مريم كل شجاعتها، وغغمّت «وأنتك أنت يا معلم...

«انني أنا؟ تكلمي!»

«... قد صليت»، قالت هذا ومن ثم تدرجرت مرة أخرى على الأرض وأغمي عليها.

مدّها على السرير، ولازمته مرثا، أما يسوع ففتح الباب وخرج الى الحقول. كان يخطو، وسمع وقع خطى خلفه، التفت، فرأى الفتى الزنجي.

فصرخ به غاضباً «ما الأمر؟ أريد أن أكون وحدي»
 أجابه الزنجي، وعينه تلتمعان «أخاف من أن أتركك وحدك يا
 يسوع الناصري، هذه لحظة شاقة، وقد يضطرب عقلك»
 «هذا ما أريده بالضبط، أحياناً يعيق عقلي الملعون بصيرتي»
 ضحك الزنجي، وقال «أأنت امرأة حتى تؤمن بالأحلام؟ دع
 البكاء للنساء، إنهن أئاث، ولا يحتملن الفرح العارم، فيمكن. أما
 نحن فتحمل، اليس كذلك؟»
 «نعم، أصبحت!»

حُثَّ خطاهما وارتقيا تلة خضراء، تنمو بين أعشابها شقائق
 النعمان وأزهار الربيع، كانت الأرض تقوح برائحة الصنوبر، وكان
 يوسع يسوع أن يشاهد منزله من بين أشجار الزيتون، وكان الدخان
 يتصاعد يهدوء من السقف، وأطمانت روح يسوع، وقال في نفسه،
 لقد استعادت المرأتان قوامهما، وقد جلستا القرفصاء أمام الموقد
 وأضرمتا ناراً... قال للزنجي «هيا بنا نعود دون أن نفه بكلمة، انهما
 امرأتان! ارفق بهما»

ومرت الأيام، وذات مساء ظهر عابر سبيل غريب، شبه ثمل.
 حدث ذلك في يوم السبت، يوم عطلة يسوع عن العمل، وقد جلس
 على عتبة الدار وأجلس أصغر أبنائه وأصغر بناته على ركبتيه،
 يعاينهما، وكانت قد أمطرت في الصباح، لكن الجو صعباً في فترة
 بعد الظهر، ومن ثم طفت سحب رقيقة بلون الكرز متجهة غرباً،
 وتلوئت السماء من بينها بلون أخضر صررق، كما المرج، وكانت
 هناك حمامتان تهدلان على العقف، جلست مريم إلى جوار يسوع،
 ثدياهما متدليان وممتلئان.

توقف ابن السبيل، وألقى نظرة خبيثة على يسوع وضحك، وقال
 وهو يقافئ «لا شك بأنك كنت محظوظاً! مضت السنون من أمام باب

دارك، ورحلت وأنت جالس كالشيخ الجليل يعقوب مع زوجته ليثا
 ورأشيل، وأنت أيضاً لديك زوجتان - مرثا ومريم، أحدهما، كما
 سمعت، مسؤولة عن شؤون المنزل والأخرى تتكفل بك؛ في حين أنك
 مسؤول عن كل شيء: الخشب، والأرض والزوجين - والرب، ولكن
 يجب أن تظهر للملأ قليلاً! أخرج من باب دارك، قلل عينيك من نور
 الشمس وحدق إلى أرجاء العالم لثري مايدور فيه... هل سبق لك أن
 سمعت عن بيلاطس، بيلاطس البنطي؛ ليت عظامه تنشوى بالقار»

تأمل يسوع ابن السبيل شبه الثمل وأبتسم، قال «أهلاً بك، يا
 سمعان القيرواني، يا رجل الرب والخمر! خذ مقعداً واجلس، يا
 مرثا، هاتي كأساً من الخمر لصديقي القديم»

جلس ابن السبيل على المقعد وتناول كأس الخمر براحتي
 كفيه، قال باعتزاز «كل العالم يعرفني، الجميع جاؤا إلى حانتي
 ليتعبدوا، لا بد وأنت أيضاً فعلت، يا معلم اليعازر - ولكن لا تغير
 الموضوع، كنت أسألك إن كنت سمعت ببيلاطس، ببيلاطس البنطي،
 هل رأيته مرة؟»

وظهر الزنجي، وأتكا على قائمة الباب وأخذ يستمع.

قال يسوع، وهو يجاهد ليتذكر «أرى سخاية رقيقة تعبر خيالي
 وعينين باردتين، رماديتي اللون كعيني صقر، وضحكة ملؤها
 السخرية، وخائماً ذهبياً... ولا أذكر أي شيء آخر، آه، نعم - أرى
 طاساً فضياً أحضر إليه ليفسل فيه يديه، ولا شيء آخر، لا بد أنه
 كان حليماً، أو أن العقل تجعد، ارتفع قرص الشمس ومن ثم
 تلاشى... ولكن الآن وقد ذكرتني به، يا قيرواني، هاتني أذكره: لقد
 عذبني أيما عذاب أثناء نومي»

«اللغة عليه! لقد سمعت أن الأحلام في نظر الرب لها تقدير
 أكبر من الواقع اليومي، حسن، لقد عاقب الرب ببيلاطس، لقد صلب»

أطلق يسوع صرخة «صلب»

«ولم الدهشة؟ يستأهل! لقد وجدوه بالأمس ، عند بزوغ الفجر - مصلوباً ، ويبدو أن عقله قد أخذ يخلت. ولم يعد يراوده النوم، فيقوم من سريره ويحضر طاساً ويأخذ يغسل يديه طوال الليل، وهو يصرخ «إنني أغسل يدي وأشطفهما ؛ انني بريء من دمه». لكن الدم يظل عالقاً في يديه، فيحضر مزيداً من الماء ويعاود غسلهما. ومن ثم ينطلق خارجاً ويحجب أنحاء الجلجلة، ولا يجد الراحة، وكل ليلة يأمر اثنين من عبيده المخلصين أن يضربوه بسوطه هو. ثم يجمع بعض الأشواك يجعلها على شكل اكليل ويقعده على رأسه، حتى يجري دمه»

ثمتم يسوع «أذكر... أذكر...»، وبين السفينة والأخرى ينظر خلفه إلى القتي الزنجي الذي جلس متكئاً على قائمة الباب منصتاً بانتباه.

«وبعد ذلك أدمن على شرب الخمر وراح يتقل بين الحانات ، وأصبحت امرأته تتشزز منه ومن ثم هجرته. وبعد ذلك صدرت أوامر من روما يخلعه ... أسمعني ، يا معلم اليعازر؟ لماذا تنتهده؟»

حدق يسوع إلى الأرض ولم يدل بجواب، وأعاد الصبي ملء كأس سمعان وهمس له في أذنه «أصمت! وأرحل!»

لكن سمعان ثار وغضب، وقال «ولم أصمت! باختصار، بالأمس عند الفجر عُثر على صديقك بيلاطس فوق قمة الجلجلة، مصلوباً!»

شعر يسوع فجأة وكان طعنة سددت إلى قلبه، وكان رمحاً اخترقه؛ وتورمت الندوب الزرقاء الأربعة على يديه وقدميه وأحمر لونه.

رأت مريم الشحوب يعلو وجهه، فتقدمت منه وراحت تمسك

على ركبتيه. قالت «أنت متعب يا حبيبي، تعال إلى الداخل واسترح» كانت الشمس قد غربت؛ وبرد الهواء. ثعب القيرواني، الذي أضحى الآن ثعلماً تماماً، من كثرة الكلام ففأص في النوم. أمسك الزنجي به من ذراعه وأنهضه بهركة واحدة وجره خارج القرية. قال له غاضباً ، مشيراً إلى الطريق المؤدية إلى أورشليم «أنت تهذي . أرحل!»

عاد القتي إلى المنزل يخامرهم القلق. كان يسوع متمهداً في ورشته. وعيناه مثبتتان على كوة المنور، وكانت مرثاً تعد طعام العشاء. أما مريم فكانت ترضع أصغر الأطفال وتراقب يسوع بصمت. ثم دخل القتي الزنجي، وشرر الغضب مايزال يتطابر منهما.

قال «لقد رحل. أصبح ثعلماً تماماً، ولم يعد يدري مايقول» التفت يسوع ونظر إلى الزنجي نظرة أسي. وعض على شفتيه حتى لا تجرؤا على الانفراج والبوح. ومرة أخرى التفت إلى الزنجي، وكأنه يطلب منه العون. لكن الصبي وضع أصبعه على شفتيه وأبشم له.

قال «اخذ إلى النوم. اخلد إلى النوم»

أغمض يسوع عينيه. تراخت شفتاه، واختفت تقضنات جبينه، وغرق في النوم. وفي اليوم التالي عند بزوغ الفجر ولدى استيقاظه، شعر بالفرح والارتياح. وكأنه أفلت من خطر داهم. وكان الزنجي أيضاً قد استيقظ، وأخذ يرتب الورشة، وهو يقهقه بينه وبين نفسه.

سأله يسوع وهو يغمز له بعينه «ماذا يضحكك؟»

أجابه بصوت منخفض ، حتى لا تسمعه المراتان «انني أضحك على البشرية يا يسوع الناصري. كم من أمور مرعبة تشكر بها عقولكم البائسة في كل لحظة! تحف بكم جروف سحيقة من

الخلف. ولا ممر لكم الا الى الامام، وهناك تجدون حبلاً ممدوداً فوق الهاوية»

قال يسوع، ضاحكاً بدوره «لقد تعثر عقلي لبرهة من الزمن وهو يسير على حبلك هذا وأوشك أن يسقط، لكنه نجا»
ثم دخلت المراتان، واتخذ الحديث منحى مختلفاً، وأضرمت النار. وبدأ النهار. اندفع حشد من الأطفال الى الفناء وانتشروا يلعبون لعبة القميضة.

قال يسوع ضاحكاً «الدينا كل هذا العدد الفقير من الأطفال يا مريم؟ لقد امتلأ الفناء بهم يا مرثا. فاما أن توسع المنزل أو تكف عن انجاب الأطفال»

اجابته مرثا «سوف توسع المنزل»
«انهم يكادون يتسلقون أسوار الفناء وأشجاره كفتران الحقل والسناجب، لقد أعلنوا الحرب على الموت يا مريم. يوركت أرحام النساء. انها مملأ بالبيوض، كما عند السمك، وفي كل بيضة رجل. لن يتقلب علينا الموت»

اجابت مريم «لا، لن يغلبنا الموت يا حبيبي. فقط اعن نفسك ولكن بأحسن حال»

كان مزاج يسوع حسناً. ورغب بمضايقتها. لقد أشاعت فيه مريم هذا الصياح سروراً عظيماً، وهي نصف مستيقظة، وحين وقعت امامه تمشط شعرها.

قال «الا تفكرين أبداً في الموت يا مريم. الا تلتمسين رحمة الرب، الا تقلقين عما سيحل بك في العالم الآخر؟»

هزت مريم شعرها الطويل. وضحكت. قالت «تلك من اهتمامات الرجل. لا، أنا لا ألتمس رحمة الرب. انني امرأة، والتمس الرحمة من زوجي. وأنا أيضاً لا أطرق على باب الرب:

استجدي منه كالمسولة أن يمنحني متع الفردوس الأزلية. انني أعانق الرجل الذي أحب ولا أرغب في أي فردوس آخر ظننذ المتع الأزلية للرجال»

قال يسوع، مداعباً كنفها المارين «تقولين أن المتع الأزلية هي للرجال؟ يا زوجتي الحبيبة، ان الأرض بيدر ضيق. فكيف يمكنك أن تغلقي على نفسك داخل هذه المساحة ولا ترغبين بالفرار؟»
«إن المرأة لا تسعد إلا ضمن الحدود، كما تعلم يا معلم. المرأة خزان وليست نبعاً»

ودخلت عليهما مرثا على عجل، وقالت «ثمة من يستدل على بيتنا، انه قصير القامة وسمين، أحذب، وذو رأس أصلع أشبه بالبيضة. وهو يحث خطى ساقيه الملتويين وسرعان ما يوصل الى هنا»
واندفع اليهم أيضاً الزنجي لاهثاً ويقول «لا تعجبيني نظراته، سأغلق الباب في وجهه. إنه شخص آخر ينبغي أن يفسد كل شيء»
لقى يسوع على الفتى نظرة صارمة، وسأله «م تخاف؟ من يكون حتى تخاف منه؟ افتح الباب»

غمز الزنجي له بعينه وقال بصوت منخفض «اطرده شر طردة»

«ماذا؟ من يكون؟»
عاد الزنجي يقول «اطرده شر طردة، ودون طرح مزيد من الأسئلة»

تملك يسوع الغضب، وقال «ألست حراً الا أستطيع أن أفعل ما أشاء؟ افتح الباب»

ولكن هذه المرة سُمع صوت وقع أقدام في الطريق. توقفت. ثم قُرب الباب.

سأل يسوع وهو يهرع الى الفناء «من هناك؟»

كان قد استجمع زخماً، ناسياً دوره كمعلم اليعازر، وأخذ يقضي
بسرته لغريب.

تدخل الزوجي المرعوب بينهما ليحوّل مجرى الحديث . قال «لا
تتكلم معي يا معلم . لدي ما أقوله له ، دعني أكلّمه»

ثم التفت الى الغريب مستأنفاً «أنت أنت ، يا شيطان الجحيم ،
الذي قتل ظلماً مريم المجدلية؟ ان يدبك تقطران بالدم . أخرج من
هنا دارنا المحترمة»

قال يسوع وهو يرتعد فرحاً «أنت ؟ أنت؟»

أجاب بولس مع تهيدة عميقة «نعم ، أنا . وأنتي أضرب على
صدري وأمزق ملابسي وأهتف «لقد أنعمت أنت» . كنت أتلقى
رسائل تحتوي على تعليمات بقتل كل من يدين ناموس موسى .
وقلت كل من تمكنت منهم وكنت في طريق عودتي الى دمشق وإذا
بي أرى فجأة ومض برق يشق عنان السماء ويطرخني أرضاً .
وبهرتني شدة الضياء ، فلم أعد أبصر ، لكني سمعت صوتاً مؤنباً أتياً
من فوق يقول «شاول ، شاول ، لماذا تتعقّبي؟ ماذا فعلت لك؟»
«فهتقت من أنت يا سيدي؟»

«قال «أنا يسوع الذي تتعقبه . انهض ، وارحل الى دمشق ،
وهناك سيقول لك المخلصون لي ماذا عليك أن تفعل» . فقفزت
واقفاً وهرائسي ترتعد . كانت عينايا مفتوحتين ، لكني لم أر شيئاً .
فأمسك بي مرافقي من يدي وأحضرني الى دمشق . وجاء أحد
تلاميذ يسوع ، واسمه حنانيا - ياركة الرب - الى الكوخ الذي كنت
أقطنه . وضع يده على رأسي ورثّل «يا مسيح ، أعد له بصره حتى
يتمكن من الترحال في كل أرجاء الدنيا ليعلم البشارة» . وبينما هو
يتكلم سقطت الحراشف من عيني ، واستعدت بصري وعمدت . لقد
عمدت ، أصبحت بولس ، المرسل الى كل الأمم . وأنا أبشر - على

فأجابه صوت أجش ، عالي النبرة «مبعوث من الرب . افتح»
فتح الباب . وعلى عتبة المنزل وقف رجل أحديب ، يدين وقصير ،
مازال شاباً ، لكنه أصلع الرأس . وكانت عيناه يقطاير منهما الشرر .
نكست لمرآة المرأتان اللتان كانتا قد هرعتا لمشاهدته .
قال الزائر ، فاتحاً ذراعيه واسعاً «ابتهجوا وافرحوا يا أخوتي ،
أنني أجلب لكم البشارة»

تأمله يسوع ، باذلاً جهده ليذكر أين رآه . وشعر بقشعريرة ياردة
تجري على طول ظهره . سأله «من أنت؟ أظنني قابلتك في مكان ما ،
في إحدى عمليات الصلب؟»

جرى الفش الزوجي ليحتمي بإحدى زوايا الفناء وهو يقول
سائراً «أنا شاول ، شاول السفاح»

سأله يسوع ، وقد تملكه الرعب «أنت شاول؟»
«كنت كذلك ، ولكني لم أعد شاول السفاح . لقد رأيت نور
الحق . اسمي الآن بولس . لقد نلت الخلاص - المجد للرب - . وها أنا
الآن انطلق لأخلص العالم! ليس اليهودية ، ولا فلسطين ، وإنما العالم
برمته! إن البشارة التي أحملها لا تسعها الا محيطات ومدن
مترامية الأطراف : تحتاج الى أماكن فسيحة . لا تهز رأسك ، يا
معلم اليعازر ، لا تضحك ، ولا تسخرنم ، سأخلص العالم»

أجاب يسوع «يا بني الرائع ، لقد عدت لتوي من حيث تتوجه .
أذكر أنني وأنا شاب مثلك انطلقت أبغي تخلص العالم أليس هذا
هو معني الشباب - ارادة تخلص العالم؟ ورحلت أتجول حافي
القدمين ، أرثدي أسعلاً ، أتمنطق بحزام مملوء بالمسامير ، كما فعل
الأنبياء القدماء . وأخذت أصبح «المحبة المحبة» ، وبأشياء أخرى
لم أعد أرغب بتذكرها . فرشقت بقشور الليمون ، وضربت ، وكنت
قاب قوسين من الصلب . وسيحصل لك الشيء نفسه ، يا بني الرائع»

الياسية، وفي البحر - أبشر بالبخارة... لماذا تنظر إلي هكذا، وعينيك تجحظان من رأسك؟ ولماذا نهضت هكذا مع كل هذه الجلبة يا معلم اليعازر؟

راح يسوع يقطع أرض الفناء، وهو يشد على قبضتيه، ويرغي ويريد، فرأى المراتين الشاحيتين واقفتين في الركن، ورأى الأولاد يصرخون ويتشبثون بثلابيب أمهاتهم، فأمرهم قائلاً «اذهبوا إلى الداخل، دعونا وحدنا». ثم اقترب الزنجي المرهق والمتوتر منه ليكلمه، لكنه دفعه عنه بغضب، وقال «الستُ حرّاً؟ لقد بقيت صامتاً طويلاً. والآن سأتكلم!»

والثفت إلى بولس، وجاز يصوت يرتعش «عن أي بشارة تتكلم؟»

«إن يسوع الناصري - لأبد أنك سمعت به - لم يكن ابن يوسف ومريم؛ كان ابن الرب، هبط إلى الأرض واتخذ شكلاً إنسانياً حتى يخلص البشرية. وقبض عليه الكهنة والقريسون الأشرار وأحضروه إلى بيلاطس وصلبوه. لكنه في اليوم الثالث قام من بين الموتى وصعد إلى السماء. لقد فُهر الموت، يا اخوتي، وشُفرت الذنوب، وفتحت أبواب السموات»

صرخ يسوع «أرايت يسوع الناصري هذا الذي قام؟ رأيتك يأم عينيك؟ صفه لي؟»

«إنه كومض البرق - ومض يرق يتكلم»

«كاذب!»

«تلاميذه رأوه. تجمعوا بعد صليبه في العلية، وأغلّقوا عليهم الباب. وفجأة ظهر لهم وقفز بينهم وقال يخاطبهم «السلام عليكم»، ورأوه جميعاً وذهلوا، لكن توما لم يقتنع، فأدخل أصبعه في جروحه وأعطاه بعض السمك فأكله.»

«كاذب!»

لكن بولس كان قد استشاط غضباً، وتطاير الشر من عينيه، وانتصبت قامته المحدودة. قال «إنه لم يولد من إنسان؛ أمه كانت عذراء. وقد هبط الملاك جبريل من السماء وقال «السلام عليك يا مريم»، وسقطت الكلمة كالبذرة في رحمها. وهكذا ولد هو»

«كاذب! كاذب!»

تعلّكت الدهشة بولس ووقف لا يدي حركة، فتهض الزنجي وأرتج الباب. وكان الجيران حين سمعوا الصراخ قد فتحو أبواب منازلهم نصف فتحة وأصاخوا أسماعهم. وعادت المراتان المذعورتان للظهور في الفناء، لكن الزنجي أعادهما إلى الداخل مرة أخرى. وكان يسوع يغلي من شدة الغضب، ولم يعد بمقدوره أن يهدئ من غلواء قلبه. ثم اقترب من بولس، وأمسك به من كتفيه وراح يهزه بعنف.

صرخ «كاذب! كاذب! أنا يسوع الناصري وأنا لم أصُلب قط، ولم أقم قط. أنا ابن مريم ويوسف نجار الناصرة. لست ابن الرب، أنا ابن الإنسان - كغيري من الناس. أنت كاهن وحق كاذب! أبهتة الأكاذيب، أيها المخادع ستجراً على تخليص العالم؟»

غصم بولس، مرتبكاً «أنت؟ أنت؟». وبينما كان المعلم اليعازر يتكلم، يرغي ويريد، لاحظ بولس وجود ندب المسامير الزرقاء لجراح يديه وقدميه، وجرحاً آخر على قلبه.

صرخ يسوع «لماذا تدبر عينيك هكذا؟ لماذا تحديق إلى يدي وقدمي؟ إن تلك الندوب التي تراها طبعها الرب عليّ أثناء نومي. الرب، أو المغوي: ما أزال لا أعرف أيهما فعل ذلك. لقد حلمت أنني على الصليب أتألم، لكنني أطلقت صراخاً، فاستيقظت، وتلاشى ألمي. والألم الذي كان يجب أن أعانيه وأنا يقظ، عانيته وأنا نائم - ونجوت!»

جار بولس ، وهو يضغط على صدغيه لكي لا ينفجرا «اصمت»
اصمت!»

ولكن كيف يمكن ليسوع أن يلزم الصمت. لقد شعر وكأن تلك الكلمات كانت حبيسة صدره طوال سنين عديدة. والآن هاهو يفتح وتدفق خارجة منه ، قبض الزنجي على ذراعه وقال له «اصمت»
اصمت»، لكن يسوع رماء الى الأرض بدفعة واحدة ثم التفت الى بولس.

«نعم، نعم، سأقول كل شيء». يجب أن أجد الراحة! ماكان ينبغي أن أعانيه وأنا يقظ، عانيته وأنا نائم. لقد نجوت، وأقيت الى هذه القرية الصغيرة تحت اسم مغاير وبجسد مختلف. وهنا عشت حياة انسان: أكلت، وشربت ، وعملت وأنجيت أطفالاً ، وخدم الحريق الهائل ، وأصبحت بدوري ناراً لطيفة هادئة، تكوَّمت داخل الموقد، وكانت زوجتي تلهو وجبات الأطفال. لقد انطلقت أروم قهر العالم لكسي القيت مرساتي في هذا الغور الصغير الاليف، واستقرت أموري - وليس لدي ما أشكو منه. يؤكد لك اني ابن الانسان، وليس ابن الرب... كفالك تجوب العالم كله وتتشر فيه الأكاذيب . سوف أنهض وأعلن الحقيقة!»

ثم حان وقت بولس لينفجر ، فصرخ به وهو يندفع نحوه «أغلق فمك الوقح! اصمت. وإلا سمعك الناس وماتوا خوفاً . وسط هذه العفونة، وجور هذا العالم وفقره، يبقى يسوع الذي صلب ثم قام العزاء النفيس الوحيد للانسان الشريف، الانسان المظلوم. وما همئي! اكان هذا صحيحاً أم زائفاً. يكفي أن يتم خلاص العالم!»
«الأفضل أن يفنى العالم مع الحقيقة على أن تُخلصه الأكاذيب.

ففي قلب مثل هذا الخلاص تكمن البودة الضخمة - الشيطان»
«ماهي (الحقيقة)؟ وماهو (الزيف)؟ إن مايمتحن الناس القدرة

على التحليق، ماينتج الأعمال العظيمة والأرواح العظيمة ويرفعنا الى قامة الانسان على الأرض - هو الحقيقي. وما يقص أجنته الانسان - هو الزائف»

«أراك لا تتوي أن تلزم الصمت، يا ابن الشيطان! الأجنحة التي تتكلم عنها ماهي إلا أجنته ابليس»

«لا، لن أصمت، لا يهمني قط ماهو الحقيقي وماهو الزائف ، أو سواء صلب أم لم يصلب. أنا أخلق الحقيقة، أخلقها بالعداد والتوق والايمان، انتي لا أجاهد لأعثر عليها- بل أبنيها . أبنيها حتى تعلو فوق قامة الانسان وهكذا أجعل الانسان ينمو. فإذا كان لا مناص لك من تخليص العالم فمن الضروري - أسمع - ضرورة مطلقة أن تُصلب، وأنا الذي سأصليك، شئت أم أبيت: ومن الضروري لك أن تُبعث من جديد، وأنا الذي سأبعثك، شئت أم أبيت. لا يهمني ان جلست هنا في قريتك البائسة، تصنع المهود، والأجران وتتجب الأطفال. وأعلمك انني أنوي أن أجبر الهواء على أن يتخذ شكلك: جسديك، واكليل الشوك، والمسماير، والدماء... أصبحت القطع كلها الآن جزءاً من آلية الخلاص- أصبح كل شيء لا هضر عنه. وسوف ترتفع الأبصار في كل ركن من العالم لتشاهدك معلقاً في الهواء مصلياً . سوف ييكون ، وسوف تطهر الدموع أرواحهم من كل آثامها. ولكن في اليوم الثالث سوف أبعثك من بين الموتى ، لأنه لا خلاص بلا قيامة. إن العدو الأخير، والأشد رهبة، هو الموت. وسوف أغي الموت.

كيف؟ ببعثك كيسوع. ابن الرب - المسيح»

«هذا غير صحيح. سوف أقف وأصرخ قائلاً اني لم أُصلب، ولم أقم من بين الموتى، وانني لست الرب! ... لماذا تضحك؟»

«اصرخ كما تشاء، لست خائفاً منك، بل اني لم أعد بحاجة اليك. الدولاب الذي أدبرته اكتسب زخماً: فمن يقدر على كبحه

الآن؟ الحق أقول لك، حين كنت تتكلم هناك وددت لوهلة من الزمن لو انقضت عليك وأخنتك مخافة أن تقوم مضادفة بالكشف عن هويتك، وتبين للبشرية المسكينة أنك لم تصلب. لكنني تماكنت نفسي للنسو، وقلت لنفسمي، ولم لا يصرخ؟ سوف يقبض عليك التلاميذ المخلصون، ويرمون بك الى المحرقة بتهمة الكفر ويحرقونك!»

«أنا لم أقل غير كلمة واحدة، لم أت إلا بدعوة واحدة: المحبة، المحبة - ولا شيء آخر»

«إنك بلفظك لكلمة «المحبة» أطلقت كل الملائكة والسيماطين الذين كانوا غافين في أحشاء الانسانية. فكلمة «المحبة» ليست، كما تخنن، مجرد كلمة بسيطة، وادعة؛ ففيها تكمن جيوش مذبوحة، ومدن محروقة، ودماء مهروقة. انها أنهار من الدماء، وأنهار من الدموع؛ ووجه الأرض وقد تبدل. يمكنك أن تصرخ الآن قدر ما تشاء، يمكنك أن تجعل صوتك يبع وأنت تصرخ «ليس هذا ما قصدت - هذه ليست محبة. لا يقتل بعضكم بعضاً نحن أخوة كفى!... ولكن، أيها البائس، هل بإمكانك أن تكف؟ إن ما كان لا راد له!»

«أنت تضحك كما الشيطان»

«لا، بل كرسول. سوف أصبح رسولك شئت أم أبيت. سوف أوجهك وأوجه حياتك، وتعاليمك، وصلبك، وقيامتك، كما أشاء. إن يوسف النجار لم ينجبك، أنا أنجبك - أنا، بولس الكاتب الطرسوسي، الكيليكي»

«لا لا لا»

«ومن طلب رأيك؟ لا أحتاج الى إذن منك. لماذا تقحم نفسك في شؤوني؟»

انهار يسوع على منصة القضاء الجافة ودهن رأسه بين ركبتيه، يائساً. كيف وقع بين مخالف هذا الشيطان؟

وقف بولس يعلو يسوع المساجد وخاطبيه مؤنباً «كيف يمكن لمثلك أن يخلص العالم يا معلم اليعازر؟ أي قدوة صالحة يمكنك أن تقدمها للعالم لتقنعه باتباعك؟ هل سيتخطى معك، طبيعته، وهل سينبت لروحه جناحان؟ إذا أراد العالم الخلاص، فسيصفي الي»

أخذ يثقلت حوله، الفناء مقفر، كان انزلجي مكمماً في إحدى زواياه، وعيناه البيضاوان اللامعتان تتحركان، يعوي ككلب راع مكبل. وكانت المرأتان مختبئتين، وقد قرأ الجيران هارين. لكن بولس ارتقى المنصة - وكان عينييه تزيانه الفناء مريعاً شامعاً مترامي الأطراف مكتظاً بالناس - ارتقامها بقمرة واحدة وأخذ يلقي موعظة في الحشود اللامرئية.

«يا إخوتي، ارفعوا أبصاركم. انظروا! ترون في هذا الجانب المعلم اليعازر، وفي الجانب المقابل بولس، خادم المسيح. اختاروا! إذا تبعتموه، إذا تبعتم المعلم اليعازر، فسوف تعيشون حياة ضئيلة وعبودية، سوف تعيشون وتموتون كما يعيش الغنم ويموتون - انهم يخلفون وراءهم قليلاً من الصوف، وبعض الثغاء والكثير من الروث، وإذا تبعتموني: فالمحبة، والكفاح، والحرب - سوف نقهر العالم! اختاروا! على هذا الجانب، المسيح، ابن الرب، خلاص العالم؛ وعلى الجانب الآخر، المعلم اليعازر»

كان قد اتقد حماساً، وهو ينقل ناظره المستديرين كعيني صقر بين الحشود اللامرئية. وكان دمه يغلي، وانهارت جذران الفناء، واختفى من أمامه الصبي الأسود والمعلم اليعازر، وسمع صوتاً يتردد في الفضاء :

«يا رسول الأمم، أيها الروح العطيفة، يا من عجنّت الزيف
بدمك ودموعك وحولتته الى حقيقة : أمسك بالزمام وقُدنا الى أي
مدى سنصل؟»

فتح بولس ذراعيه واسعاً، معانقاً العالم كله وهنّف «الى أقصى
امتداد بصر الانسان، بل لما بعده، الى أقصى ما يصبو اليه قلب
الانسان! العالم كبير - المجد للرب! فبعد أرض اسرائيل تقع مصر،
وسوريا، وفينيقيا، وآسيا الصغرى، والجزر الكبيرة القنية، قبرص،
ورودس، وكريت، وأبعد منها : روما. وأبعد أكثر : البرابرة،
بخصلات شعورهم المرسله الشقاء وفؤوسهم ذات الحدين... ما
أبهج أن نطلق في الصباح الباكر، تهب ريح الجبال أو البحر في
وجوهنا، حاملين الصليب لنزرعه في الصخور وفي قلوب الناس -
لنسيطر على العالم! ما أمتع أن تُنبذ، وتُضرب، وترمى في حُفر
عميقة وتُقتل - كله فداءً للمسيح!»

عاد الى وعيه وهذات غلواؤه. وتبرخت الحشود الخفية في
الأنثير، ثم التفت فرأى يسوع، الذي كان عندئذ متكئاً على الجدار
يستمع اليه، وقد علاه الشعوب.

«اكراماً للمسيح... ليس أنت يا معلم اليعازر، بل المسيح
الحقيقي - مسيحي أنا»

لم يتمكن يسوع من كبح نفسه أكثر من ذلك، فانهجر بجيش
باكياً.

فاقترب النفس الأسود منه، وقال له بصوت رقيق «يا يسوع
الناصري، لم تبكي؟»

تتم يسوع «يا صاحبي الصري، كيف يمكن لأي انسان أن يرى
السبيل الوحيد لتخليص العالم دون أن يغليه البكاء؟»

هنا نزل بولس عن المنصة، وكان الشعر الخفيف الذي يغطي

رأسه يتبخّر. خلع صندله، وضربه معاً لينقض عنه الغبار ثم
استدار نحو الباب الخارجي.

قال ليسوع، الذي وقف مرتبكاً، في وسط الفناء «لقد نقضت
غبار بيتك عن صندلي. وداعاً سلامي للطعام الطيب، والخمر
الجيدة، والقبيلات الممتعة، يا معلم اليعازر، وطول عمر رائع!
واياك أن تتدخل في عملي. فإذا فعلت، انتهى أمرك - أسمع، يا
معلم اليعازر - انتهى! ولكن لا ينبغي أن تسميهم ههنا. لقد
أسعدني لقاءك. لقد تحررت، وهذا ماكنت أصبو اليه: أن أتخلص
منك. حسن، هاقد تخلصت منك والآن أنا حر، حر التصرف.
وداعاً»

قال هذا ثم فتح الباب وبفجرة واحدة أصبح في الشارع ميمماً
وجهه شطر أورشليم.

قال الزنجي، وهو يتوجه نحو المخرج ليراقبه بعينين غاضبتين
«كم هو مستعجل! لقد رفع كميّه ويركض كذئب جائع، يركض
ليلتهم العالم»

ثم التفت ليتأمل يسوع وهو يمارس حرفته، وليطرد عنه الروح
الخطورة التي هبطت عليه من السماوات لتزعجه. لكن يسوع كان
قد اجتاز العتبة، ووقف في وسط الطريق يراقب، يعذبه كرب
شديد وتوق. الرسول الغاضب يغيب ركضاً في المدى. واستيقظت
داخله ذكريات رهبة وآمال كان قد نسيتها تماماً.

انتاب الزنجي الخوف، فأمسك به من ذراعه، وقال بصوت
منخفض، ونبرة أمرة «يا يسوع، يا يسوع الناصري، إن تفكيرك
يضطرب، الى ما تتطرق؟ هيا ندخل»

إلا أن يسوع، الصامت والشاحب اللون، هز ذراعه وتخلص
من يد الملاك.

فكرر الآخر بقضب «هيا الى الداخل. يجعل بك أن تتقذ كلامي، أنت تعلم جيداً من أنا»
 هدر يسوع قائلاً «دعني وشأني» وعينه مثبتتان على بولس الذي كاد أخيراً أن يختفي في آخر الدرب.
 «أتريد أن تذهب معه؟»

هدر يسوع مرة أخرى «دعني وشأني»، وكانت أستانه تصطك،
 فقد شعر فجأة ببرد شديد.
 نادى الزنجي «يا مريم، يا مرثا»، وأمسك بيسوع من خصره بقوة ليمنعه من الهروب.

سمعتاه المراتان فهرعتا، وخلفهما جمع الأولاد . وفُتحت الأبواب المجاورة لهم، وأملل الجيران منها وتحلقوا حول يسوع الواقف في وسط الطريق، شاحب اللون كملاءة. وفجأة أسدل جفناه، وتدرج واقفاً، يهدوء، ورفق، على الأرض.

أحس بأنه يرفع، ويوضع الى السرير، وشعر يصدغيه يتلقيان رذاذاً من خلاصة زهر البرتقال، واشتم رائحة خل الورد الذي وضع أمام أنفه. ثم فتح عينيه، قرأى زوجته وابنته. حين لمح الفتى الأسود شد على يده.

قال «تشبَّث بي جيداً، لا تتركني أرحل. إنتي في أحسن حال هنا».

الفصل الثالث والثلاثون

جلس يسوع تحت تعريشة عنب عتيقة في فناء داره، لحيته البيضاء تهمر على صدره المكشوف . انه يوم عيد الفصح، وقد استحم، وملئ شعره، ولحيته، وتحت ابطيه، وارندى ثياباً نظيفة. الباب مغلق، ولا أحد بجواره . كانت زوجته، وأولاده، وأحفاده يضحكون ويمرحون في الجزء الخلفي من المنزل، والزنجي، الذي كان قد اعتلى اقبريز الجدار عند الفجر، محذفاً صوب اورشليم صامتاً وغاضباً.

نظر يسوع الى يديه، أصبحتا سميتين جداً وأمتلأتا بالعقد، عروقهما الحافة ذات اللون الأزرق الداكن بارزة، وبدأ الجرح القديم الغامض المرتسم على ظهر كل يد يتلاشى ويختفي. هز رأسه الأبيض ذا القسمات الخشنة وتهدد.

«ما أسرع انصرام السنين، كم أصبحت عجوزاً وليس فقط أنا، بل زوجتي وأشجار الفناء والأبواب والنوافذ والحجارة التي أطاها»

انتابه الخوف، فأغمض عينيه وشعر بالزمن يجري كجريان

المياه من منبعها في الأعالي - من عقله - هبوطاً الى عنقه، وصدرة،
وعورته وفخذيه، ليصب أخيراً من أخمص قدميه.

سمع وقع خطى في الفناء ففتح عينيه، أنها مريم. رآته
غائصاً في التأمل فاقتربت منه وجلست عند قدميه. وضع يسوع
يده على شعرها، الشعر الأسود الفاحم الذي أصبح الآن، مثل
شعره، أبيض، وتملكته رقة مبهمة، وقال في نفسه، على يدي
غزاها الشيب، على يدي غزاها الشيب...

ثم مال وقال لها «أتذكرين، أيتها الحبيبة مريم، أتذكرين كم من
مرة جاءت طيور السنونو منذ اليوم المبارك الذي اجتزت فيه عتبة
داركم وأصبحت سيداً عليه، ومنذ أن شققت طريقي كزوج لك، الى
رحمك؟ كم من مرة بذرتنا معاً وحصدنا القمح، وقطفنا الكروم،
وجمعنا الزيتون؟ لقد أبيض شعرك، يا أعز الناس مريم، وكذا شعر
مرثا الشجاعة»

أجابته مريم «نعم، أيها الحبيب، أبيض شعرنا. السنون تمضي.
نحن زرعنا هذه الكرمة التي نستظل بظلها الآن، زرعناها في العام
الذي زارنا فيه ذاك الأحذب اللعين، الذي رماك بسحره «أفقدك
وعيك - أتذكره منذ كم من السنين ونحن نأكل من هذا العنب؟»
انزلق الزنجي عن حافة السطح دون أن يحدث صوتاً وتقدم
منهسا، فنهضت مريم وغادرت المكان. لم تكن تحب هذا الابن
المتبني الغريب، فهو لم يكبر، لم يشخ، إنه ليس برجل، بل روح، روح
شريعة دخلت البيت ولم تغادره بعد ذلك. ولم تكن تحب عينيه
المرحتين، الساخرتين، ولا أحاديثه الممرية مع يسوع التي تجري
ليلاً.

اقترب الزنجي، وعيناه ملؤهما السخرية، وأسنانه تلمع، حادة
وبيضاء. قال بصوت منخفض «اقتربت النهاية، يا يسوع الناصري»

التفت اليه يسوع دهشاً «أي نهاية؟»

وضع الزنجي أصبعه على شفتيه وكرر القول «اقتربت النهاية».
ثم جلس القرفصاء قبالة يسوع وأخذ ينظر اليه، ويضحك.
سأله يسوع «هل ستتركني؟»، وشعر فجأة بسعادة غريبة
وارتياح.

«نعم حانت النهاية. لماذا تبتسم يا يسوع الناصري؟»
«أتمنى لك رحلة سعيدة، لقد تلت منك ما أردت: لم أعد
بحاجة اليك»

«أهكذا يكون وداعك لي؟ أيمكن أن تكون بهذا الجحود؟ وكل
سني عمري التي أمضيتها أكن من أجلك - وكل جهودي التي بذلتها
لأمنحك كل متعة ترغب بها: أذهبت كل تلك الجهود سدى؟»
«إن كان هدفك أن تخفني بالعسل، كالنحلة، فإن جهدك قد
ذهب سدى. لقد أكلت كل العسل الذي اشتييته، قدر ما استطعت،
لكني لم أغمس جناحي شيء»

«أي جناحان، أيها المستبصرة؟»

«روحي»

فهمه الزنجي يخيث، وقال «أتظن، أيها البائس، أن لك روحاً؟»
«نعم لدي. وهي ليست بحاجة الى ملائكة حارسة أو قتيان
سود: إنها حرة»

جن جنون الملاك الحارس من الغضب، وعوى «أيها العاصي!»
ثم التقط حجراً عن أرض الفناء وفشتها بين راحتي يديه ونثرها
غياراً في الهواء.

قال «لابأس، سنرى»، ثم اتجه نحو الباب وهو يصب لعناته.



صراخ مسعور، ولولة، نحيب... خيول تصهل: وإذا بالطريق
يمتلئ بأسراب من الراكضين. كانوا يصرخون «أورشليم تحترق لقد
احتلوها! ضعننا!»

كان الرومان قد حاصروا المدينة طوال شهرين، لكن
الاسرائيليين عقدوا آمالهم على يهوه، وأجسوا بالأمان. وقالوا إن
المدينة المقدسة لن تحترق، وأنه ليس لدى المدينة المقدسة ما
يخيفها؛ لأنه يقف على كل بوابة من بواباتها ملاك يمتشق
سيفاً معقوفاً، أما الآن...

اندفعت النسوة إلى الطريق، يصرخن وينتفنن شعرهن، ومزق
الرجال ملابسهم ونادوا على الرب كي يظهر. فنهض يسوع،
وأمسك بمريم ومرثا بيديه، وأدخلهما إلى المنزل ثم أرتج الباب.
قال لهما مشفقاً «لماذا تكيان؟ لماذا تعارضان إرادة الرب؟
اسمعا ما سأقوله لكما، ولا تخشيا شيئاً. الزمن ناز، يا زوجتي
الحبيبتين. الزمن ناز، والرب يتحكم في لهبها، وفي كل عام يشوى
حملاً فضحياً. هذا العام الحمل الفصحى هو أورشليم، وفي العام
المقبل سيكون روما، وفي العام الذي يليه»
صرخت مريم «اصمت، يا معلم، أنت تمنى أننا من النساء،
وضعيفتان»

قال يسوع «اغصري لبي يا مريم، نسيت، حين يسلك القلب
طريقاً صاعدة فاته ينسى، ويغلو من الرحمة»
بينما كان يتكلم سمع وقع خطى ثقيلة خارجاً في الطريق، وأيضاً
صوت أنفاس تلهث، ثم راحت هراوات ضخمة تدق بقوة على الباب.
قفز الزنجي واقفاً، وأمسك برتاج الباب، ثم نظر إلى يسوع
وابتسم ساخراً. سألته وهو يكاد لا يقوى على كبح ضحكته «هل
افتح؟ انهم أصحابك القدامى يا يسوع الناصري»

«أصحابي القدامى؟»

قال الزنجي «سوف تراهمل»، وفتح الباب حتى آخره.
ظهر في ممر الباب جمع من الرجال القميصين العجائز، دلفوا
إلى الفناء يديون دباً، تخبرين لا يمكن التعرف عليهم، يعتمد بعضهم
على بعض. كأنهم ملتصقون معاً ولا يمكن فصلهم.
تقدم يسوع خطوة واحدة ثم توقف. أراد أن يمد لهم يده ويرحب
بهم. لكنه فجأة شعر بروحه تعتمسها مرارة لا تطاق - مرارة، وسخط،
وشفقة، فشد على قبضتيه وانتظر، اشم رائحة ثقيلة لأخشاب يحترق،
وشعر يشيط وجروح لم تتدمل. كان الهواء عابقاً بالروائح الكريهة.
امتلى الزنجي الحصان الخشبي، وأخذ يراقبهم ويضحك.
تقدم يسوع خطوة أخرى، والتفت إلى العجوز الذي دب في
المقدمة، وقال «أنت، الذي في المقدمة، اقترب، قف ثابتاً ريثما أزيل
خطام الزمن لأتعرف عليك. إن قلبي يخفق بشدة، لكن هذا اللحم
المتهدل، وهاتين العينين المملوءتين بالدمع - لا أتعرف عليها»
«ألا تتعرف علي، يا معلمي؟»

«بطرس! الست الصخرة التي أردت في يوم من الأيام خلال
حماقة الشباب أن أبنى عليها كنيسة؟ كم هربت يا ابن يونان ثم
تعد صخرة بل اسفنجة تملؤها الحفراء»
«إنها السنون، يا معلمي...»

«أي سنون؟ الذئب ليس ذنب السنين، فطالما الروح تقف
منتصبه فاتها ترفع الجسد عالياً ولا تسمح للسنين بالنيل منه، إن
روحك هي التي انحطت يا بطرس، روحك»
«لقد أزهقت هموم العالم كاهلي، فقد تزوجت. وأنجبت أولاداً،
وأصبحت بجروح، وشاهدت أورشليم تحترق... أنا إنسان، وكل هذا
حطمني»

تتم يسوع متعاطفاً : نعم، أنت انسان وكل هذا عمل على تحطيمك، أيها المسكين بطرس، وفي حالة العالم كما هي اليوم عليك لكي تقوى على الاحتمال أن تكون الرب والشيطان»
ثم التفت الى التالي، الذي برز من خلف بطرس. وقال له «وأنت؟ لقد جدعوا أنفك: أصبح وجهك أشبه بالجمجمة - كلها ثقوب. كيف تتنظر مني أن أعترف عليك؟ أقصص، أيها الصاحب القديم، تكلم. قل «يا معلم، فلعلني أتذكر من أنت»
أطلق ذو الهيكل المتداعي صرخة مدوية «يا معلم»، ثم طامأ رأسه ولزم السكون .
«يعقوب ابن زبدي الأكبر، ذو الجثة الضخمة، والعقل العنيد الصلب»

قال يعقوب، متباكياً «بل بقاياي، يا معلم. لقد أقعدتني عاصفة عاتية. كسرت رافدة قص المركب، وخرق الهيكل، وسقط الصاري. عدت الى الميناء حطاماً»
«أي ميناء؟»
«ليك، يا معلم»

«وماذا يسعني أن أفعل لأجلك؟ لست مُسفنًا تلجأ اليه. ان ما سأقوله لك يا يعقوب قاس، لكنه عادل : إن ميناءك الوحيد هو قاع البحر. وكما كان يقول والدك، اثنان واثنان يساوي أربعة»

فجأة استولى عليه السخط والحزن الدفين. والتفت الى مجموعة ثانية من العجائز «وانتم الثلاثة؟ هيه، أنت، أنت، يا سويقة البقول الخرقاء : ألم تكن ذات يوم نشائيل؟ لقد ترهلت - انظر الى مؤخرتك، وبمئلك ولغدك، كلها منتفخة ومتهدلة! ماذا فعلت بعضلاتك القوية يا نشائيل؟ أما الآن فما أنت غير هيكل لمنزل من

ثلاث طبقات. نعم، ما أنت غير بقايا منتصبة، ولكن لا تبتس - إن هذا كاف يا نشائيل لتقوّر «بالجنة»

لكن الغضب غلب نشائيل. قال «أي جنة؟ كأنما لم يكفني اني فقدت أذني، وأصابع يدي وأحدى عيني لا، فبالإضافة الى هذا، فإن كل مامزجته هينا : الغرور والخيلاء، والفضامة، ومملكة السماء - كل هذا كان ثمالة وماقد صحنونا منه الآن! مارايك يا فيلبس الست على حق؟»

قال عجوز ضئيل الجسم ضاع في وسط الجمع «ماذا عساي أقول يا نشائيل، ماذا عساي أقول يا أخي هانا المسؤول عن انضمامك اليناء»

هز يسوع رأسه متعاطفاً ثم أمسك بيد هذا العجوز القمي الذي أطلقوا عليه اسم فيلبس وقال له «لقد أحبتك يا فيلبس حباً ملأ جوارحي، يا أخير الرعاية، لأنك لم تك تملك قطيعاً. لم تك تملك الا عصا الراعي وكنت ترعى الهواء. في الليل كنت تطلق سراح الرياح لترعى. وفي خيالك كنت تضرم النار، في خيالك كنت تعد مرجلاً كبيراً، تغلي فيه الحليب ثم تسكيه من أعلى الجبل ليجري الى السهل ويشرب منه الفقراء. كانت ثروتك كلها في قلبك. أما في الخارج : فالفقر، وصبيحات الاستهزاء، والعزلة والجوع. هذا هو معنى أن تكون تلميذاً لي ! أما الآن... فيلبس، يا فيلبس، يا أخير الرعاية، الى أي درك انحدرت! لقد تفت، لهفي عليك، الى قطع حقيقي. قطع بمئتك أن تمسك صوفه، ولحمه، بيدك - هيلكت!»

ردّ فيلبس «لقد نال مني الجوع. ماذا تتوقع مني أن أفعل؟»
أجاب يسوع «فكر يا الرب وسشبع». فجأة عاد قلبه يقسمو.
ثم استدار الى عجوز محني الظهر كان قد انكفأ ووقع في

جبرن الماء وظل هناك يرتجف من البرد. رفع عنه الأسمال التي تغطيه. وأزاح حاجبيه، لكنه لم يتعرف عليه. إلا أنه حين أخذ يبحث تحت الشعر عثر على أذن كبيرة مقحم خلفها ريشة كتابة مكسورة أكل الدهر عليها وشرب. فضحك.

قال، يحييه «أهلاً بالأذن الكبيرة، الضخمة، المنتصبة، المملوءة بالشعر، التي كانت تهتز كاذن الأرنب، ملؤها الخوف، والفضول والنهم. أهلاً بالأصابع الملمطة بالحبر وبانقلب - المحيرة! أما زلت تملأ الصفحات ببقع الحبر، يا متى، يا كاتبي الخاص؟ الريشة مخطمة تماماً، ما زالت خلف أذنك، هل شللت حرياً واستخدمتها كحربة؟»

قال الآخر مستشعراً المرارة «ما هذه النظرة الساخرة؟ ألن تكف عن السخرية منا؟ تذكر الأسلوب الرائع الذي دوّنت به قصة حياتك وعصرك. كان يمكن أن أغدو أنا أيضاً خالد الذكر، جنباً إلى جنب معك. والآن، هاأنا أصبحت كالطاووس الذي فقد ريشه. ولم أكن طاووساً؛ بل دجاجة. يا خمارة اجتهادي!»

شعر يسوع بركبتيه تخذلانه، فطأهما رأسه، لكنه سارع، بغضب، إلى رفعه وأشار بإصبعه مهديداً إلى متى.

قال «اصمت! خسئت!»

برز من بين ساقَي تشابيل رجل عجوز أحول العينين مهزول وأخذ يتهقته. التفت إليه يسوع فراه وتعرف من فوره عليه.

«توما، يا طفلي مولود السبعة أشهر، أهلاً بك! أين نشرت أسنانك؟ ماذا فعلت بالشعرتين اللتين كانتا تتوجان رأسك؟ ومن أي معزة انتزعت هذه اللحية الصغيرة الزيتية المدلاة من ذقنك؟ أنت توما ذو الوجهين، والوجوه السبعة، الشديد المكر، أليس كذلك؟»

«بشحمة ولحمه ماعداً أسناني التي فقدتها - لقد سقطت على طول الطريق - والشعرتين، وكل ماعداً ذلك ظل كما هو»

«والعقل؟»

«ديك حقيقي. يعتلي ثلة الروث وهو يدرك جيداً أنها ليست الثلة التي تشرق من خلفها الشمس. إلا أنه مع ذلك يصيح في كل صباح ويستدعيها - لأنه يعرف التوقيت الصحيح للصباح»

«ألم تقاقل أنت أيضاً يا بطل الأبطال، لانقاذ أورشليم؟»

«أنا أقاقل؟ أغبي أنا؟ أنا ادعيت أنني نبي»

«نبي؟ إذن فقد نبت لذي عقل التلة الصغير جناحان؟ هل نفخ الرب عليك؟»

«وما دخل الرب في هذا؟ أن عقلي وحده هو الذي كشف السر»

«أي سر؟»

«سر النبي. قداسك أيضاً عرفته ذات مرة، لكني اعتقد أنك نسيت»

«ذكّرني إذن، يا توما الماكر - فقد تعود إليّ الذاكرة، من هو النبي؟»

«التي هومن يبقى على الأمل، بعد أن يئس الجميع. وهو من ينتابه اليأس حين يملأ الأمل قلوب الجميع. وسأسألكي لماذا أقول لك لأنه المطلع على السر الأعظم: وهو أن الدولار يدور»

قال يسوع، وهو يقر له بعينه «أن التحدث إليك أمر خطير يا توما، فداخل عينيك الصغيرتين الحولوين السريعتي الحركة أرى ذبلاً، وقرنين - وومضة ضياء يتوهج»

«إنه ضياء حقيقي يتوهج، يا معلم - أنت تعلم ذلك، لكنك تأس على الانسانية. إن القلب يشفق؛ لهذا يجد العالم نفسه غارقاً في الظلام. أما العقل فلا يعرف الشفقة؛ ولهذا يرى العالم يتلظى بالنار... آه، أنت تومئ لي كي أصمت. معك حق، سأصمت. فلا ينبغي أن نقشي مثل هذه الأسرار أمام هذه الأرواح البسيطة. فلا

طاقة لأي منهم على التحمل، ما عدا واحد : هو»
«ومن يكون؟»

دبّ توها حتى وصل إلى الباب الخارجي ثم أشار إلى عملاق،
دون أن يلمسه، كان واقفاً على عتبة النار أشبه بشجرة ذابلة حرقها
صاعقة، وكانت جذور شعر رأسه ولحيته مازالت حمراء اللون.

قال، وهو ينكص إلى الخلف «هو ! يهوذا ! إنه الوحيد الذي
ما زال منتصب القامة، احذر يا معلم . أنه مقعم بالقوة والتصميم .
كلمه برفق، واكسب حظوتك عنده، انظر أن رأسه العنيد يرسل
بخار الغضب الشديد.

«حسن، إذن، ولكي نتجنب أذى أسد الصحراء هذا فلنقبض
عليه بارسال أسد مروض في إثره»، ثم رفع صوته وهو يقول «إلى
هذا الدرك انحدروا ! يا يهوذا يا أخي، ان الزمن نمر جليل مفترس،
ولا يشبعه أكل البشر: انه أيضاً يلتهم المدن، والممالك وأيضاً
(سامحني يا رب) حتى الآلهة (لكنه لم يلمسك أنت - لقد رفض
غضبك العارم أن يهدأ، لا، أنت لم تتهاون مع العالم. ما أزال أرى
الخنجر العنيد ملتصقاً بصدرك، والحق، والحق، والأمل،
انفعالات الشباب الكبرى... أهلاً بك،

غمغم يوحنا، الذي كان قد انهار عند قدمي يسوع، ولم يكن
بالإمكان التعرف عليه، بلحيته البيضاء والجرحين العميقين على
وجنتيه وعنقه، غمغم «لا تسمع يا يهوذا؟ ألا تسمع؟ إن المعلم
يحييك. حيّه بتحية أحسن منها»

قال بطرس «انه عنيد أحرق وحرون كيفل. انه بعض على
شفتيه ليمنع نفسه من الكلام»

ثبّت يسوع نظره على صاحبه المتوحش القديم، وأخذ يكلمه
بصوت رقيق «يهوذا، لقد مرت الطيور المزرقة الناقلة للأخبار من

فوق سطح منزلي وأسقطت الثبا، فمسطح في فثائي، يبدو أنك
التجأت الى الجبال وشنتت حرباً ضد الطغاة، المحليين والأجانب.
ومن ثم هبطت الى اورشليم، وقبضت على الخونة من الصدوقيين،
وربطت حول أعناقهم أشرطة حمراء وذبعتهم ذبح الحملان تقدمة
على مذبح رب اسرائيل. أنت روح بائسة، حزينة عظيمة يا يهوذا.
منذ أن افترقنا لم تشهد يوماً سعيداً واحداً، لقد اشتقت اليك ايما
اشتياق يا أخي، فاهلاً بك»

حدقت عيناً يوحنا المذعورتين الى يهوذا الذي كان ما يزال
يعض على شفتيه ليمنع نفسه من الكلام. ثم غمغم «إن الدخان
الكثيف لا يكف عن التلب فوق رأسه»، وتكس منضماً الى الآخرين.
قال بطرس «احذر يا معلم، انه ينظر اليك من كل زاوية ويقدر
من أين سيباشر الانقضاض عليك»

واصل يسوع كلامه قائلاً «انني أكلّمك يا يهوذا، يا أخي. ألا
تسمعنني؟ إنني أحييك، لكنك لا تضع يدك على قلبك لتقول «أنا
سعيد بلقياك»، هل صدمتك معاناة اورشليم فأخستك؟ لا تعض
على شفتيك. أنت رجل : تجلد، ولا تتحب، لقد أدبت وأجيك
بشجاعة إن الجروح العميقة على ذراعيك، وصدرك، ووجهك -
وكلها في المقدمة - مما يدل على أنك قاتلت كأسد، ولكن ماذا
بمقدور الانسان أن يفعل ضد الرب؟ إنك بقتالك إنخليس
اورشليم، انما كنت تقاتل الرب. فهو يرى ان المدينة المقدسة قد
استحالت الى رماد منذ سنين عديدة بعيدة.

غمغم فيليّس، مذعوراً «انظروا، لقد تقدم خطوة. رأسه غائص
بين كتفيه، كالثور، الآن سيتأهب للهجوم»
قال نثنائيل «هيا ننقل الى الخملوط الجاتبية يا شباب، هاهو
الآن يرفع قبضته»

هتفت كل من مرثا ومريم وهما تتقدمان «يا معلم، يا معلم، خذ حذرك!»

لكن يسوع واصل كلامه. الا ان شفتيه بدأتا ترتجفان بشكل واضح، قال:

«أنا أيضاً أحسنت البلاء في القتال قدر ما استطعت، يا يهوذا يا أخي. ففي شبابي انطلقت، ككل شاب، أبغي تخلص العالم. وبعد ذلك، حين نضج تفكيري، انضمت الى الركب - ركب الرجال، وعدت أنخرط في عملي: حرثت الأرض، وحفرت الآبار، وزرعت أشجار الكرمة والزيتون، ضاجعت أجساد النساء وخلقنا رجالاً - لقد قهرت الموت، أليس هذا ماكنت دائماً أقول بأنني سأفعله؟ حسن، ها قد أوفيت بعهدي: قهرت الموت!»

فجأة اندفع يهوذا بسرعة، مبعداً عن طريقه بطرس والمرأتان، اللذين كانوا قد اعترضوه، وصاح صيحة همجية عظيمة «خائن!» وجمدوا جميعاً في أماكنهم، وعلا الشحوب وجه يسوع ووضع يديه على صدره.

غمغم «أنا؟ أنا، يا يهوذا؟ إن ما نطقك به خطير، اسحب!» «خائن! أبق!»

اصفرت وجوه العجايز القميين، وهموا بالتوجه نحو الباب. وكان توما قد وصل لثوم الى الطريق. وقهرت المرأتان الى الأمام.

وهتفت مريم «أيها الأخوة، لا تتركوا الشيطان يرفع يده في وجه المعلم. سوف يضربه!»

كان بطرس ينسج خلسة الى الباب ينوي الفرار. فتمسكت به مرثا وهي تقول «إلى أين أنت ذاهب؟ هل ستكر، مرة أخرى - مرة أخرى؟»

قال فيلبس «لن أتورط في هذا. ان للاسخريوطي ذراعاً غاشمة، وأنا رجل عجوز. هيا بنا يا نشائيل»

عندئذ كان يهوذا ويسوع واقفين متواجهين، والبحار يتصاعد من جسم يهوذا، وتنفوخ منه رواشح العرق والجراح المتفتنة.

وعاد يجأر «خائن! أبق! مكانك هو على الصليب. هناك وضعك رب اسرائيل لتقاتل. ولكنك جيت، وحين رفع الموت رأسه، لم تتمكن من الاسراع بالفرار! فهرعت ودفنت رأسك في أذيال مرثا ومريم. جبان بل انك بدت وجهك واسمك، يا اليعازر الزائف، لتفعل بجلدك!»

هنا قاطعه بطرس (بتشجيع من المرأتين) بقوله «يهوذا الاسخريوطي، يا يهوذا الاسخريوطي، يا يهوذا الاسخريوطي، أهكذا تخاطب المعلم ألا تبدي أي قدر من الاحترام؟»

عوى الاسخريوطي وهو يهز قبضته مهدداً «أي معلم؟ هو؟ أليست لديك عيتان تريان، وعقل يكرر. أهذا معلم؟ ماذا قال لنا؟ وبماذا وعدنا؟ أين جيش الملائكة الذي كان من المفترض أن يهبط لانقاذ أمة اسرائيل؟ أين الصليب الذي كان من المفترض أن يكون نقطة انطلاقنا الى السماء؟ فحالاً واجه هذا المسيح الدجال الصليب أصابه الدوار وفقد وعيه. ثم تشبثت به المرأتان ووظفتاه لينجب لهما الأطفال. ثم يقول انه قاتل، قاتل ببسالة. نعم، راح يمشي مختالاً كديك جماعة الطيور. لكن موقعك، أيها الأبق، كان على الصليب، وأنت تعلم ذلك. يمكن للأخريين أن يستصلحوا الأرض البور. ويخصبوا النساء العقيمت. كان واجبك أن تعتلي الصليب - هذا رأيي! وتفخر بأنك قهرت الموت. لهني عليك! أهكذا تقهر الموت - بانجاب الأطفال، ليغدو لقمأ لشارون! لقمأ لشارون! هذا هو مصير الطفل - أن يغدو لقمأ سائعة لشارون! لقد أصبحت سوقاً للحم تزود بالأطباق الشهية. خائن! أبق! جبان!»

تعتنم، يسوع وقد بدأ الآن يرتجف من رأسه الى أخمصه «يا
يهودا يا أخي، كن أكثر رافة»
جار يهوذا «لقد حطمت قلبي، يا ابن النجار، كيف تتوقع مني أن
أكلمك برافة؟ أحياناً أرغب في أن أصرخ وأنتحب كأملة وأضرب
رأسي على الصخور لا اللغة على اليوم الذي ولدت فيه، وعلى يوم
مولدي، وعلى الساعة التي قابلتك فيها وملأت قلبي بالأمال! حين
كنت تسير في المقدمة وتجرنا وراءك وتحدثنا عن السماء والأرض، كم
كنت أجد الفرح، والحرية، والثراء! كانت أشجار الكرمة تبدو كفتية
كنت أجد الفرح، والحرية، والثراء! كانت أشجار الكرمة تبدو كفتية
في الثانية عشرة. كنا نشبع من حبة قمح واحدة. وذات يوم حصلنا
على خمسة أرغفة من الخبز: أطعمنا منها جيشاً من آلاف الناس،
وبقي لدينا ملء اثني عشرة سلة. والتجود: ماكان أيهاها، يا لها من
دفق من نور الى السماء! وهي لم تكن نجوماً، بل ملائكة، لا، لم تكن
ملائكة، بل هي نحن - نحن، تلاميذك، فننهض ونطلق، وكنت أنت في
المركز، ثابتاً كنجم الشمال، وكنا نحيط بك من كل جانب، وترقص!
ثم غمرتني بين ذراعيك - أتذكر؟ - وتوسلت اليّ قائلاً «خُني، خُني،
يجب أن أصلب ثم أبعث من جديد حتى تتمكن من تخليص العالم!»
سكنت يهوذا برهة وثأوه. كانت جراحه قد قُتحت من جديد
وأخذت تنز. وراح العجايز القميون المتسقون معاً يبذلون أقصى
جهدهم مطاطني الرؤوس ليتذكروا وليستعيدوا حياتهم.
تكوّنت دمة في عين يهوذا، فمسحها بغضب، ثم عاد يصرخ،
فقلبه لم يفرغ بعد: «وأخذت تثغو قائلاً «أنا حمل الرب، سأذهب
الى الذبح حتى أخلص العالم. يا يهوذا يا أخي، لا تخش شيئاً.
الموت بوابة تقص الى الخلود، ويجب أن أعبر هذه البوابة،
فمساعدني!». ومن شدة حبي لك، ووثوقي بك قلت لك «سأفعل»
وذهبت وأقشيت أمرك. لكنك... لكنك...»

وأرغى وأزبد، وقبض على يسوع من كتفيه وأخذ يهزه بعنف،
منبثاً اياه الى الجدار. ومن جديد أخذ يجار «ماذا تفعل هنا؟ لماذا
لم تصلب؟ جبان! أبق! خائن! ما الذي أنجزته؟ ألا تخجل؟ ها أنا
أرفع قبضتي في وجهك وأسالك: لماذا، لماذا لم تصلب؟»
توسل اليه يسوع قائلاً «صمتاً! صمتاً!، وبدأ الدم ينيجس من
جروحه الخمسة.

قاطعه بطوس من جديد «يا يهوذا الامخريوطي، ألا تشفق
عليه؟ ألا ترى قدميه، ويديه؟ تلمس جنبه بيدك ان كنت لا تصدق،
انه ينزف،

أجبر يهوذا نفسه على الضحك، ثم بصق على الأرض وصرخ
«ايه، يا ابن النجار، لن تتمكن من اثناعي بأي شيء - لا لقد جاء
ملاكك الحارس خلال الليل»

صعق يسوع، وتمتم وهو يرتجف «ملاكي الحارس...»
«نعم، ملاكك الحارس: الشيطان، وطبع بقعاً حمراء على
يديك، وقدميك وجنبك لتخدع بها العالم ولتخدع أنت نفسك، لماذا
تتطر اليّ هكذا؟ لم لا تجيب؟ جبان! أبق! خائن!»

أغمض يسوع عينيه، أحس بالاغشاء لكنه نجح في الاحتفاظ
بتوازنه. قال، بصوت يرتعش «يهودا، لطالما كنت شموساً غنياً، ولم
تقبل قط بالحدود الانسانية، ونسيت ان روح الانسان سهم ينطلق
عالياً قدر ما يستطيع نحو السماء، لكنه دائماً يقع عائداً الى
الأرض. ان الحياة على الأرض تعني ان يتغلى الانسان عن جناحيه»
لدى سماعه هذا الكلام أصيب يهوذا بالهذيان، وزعق «ألا
تخجل؟ أهذا كل ما توصلت اليه، أنت يا ابن داوود، يا ابن الرب، يا
مسيح! إن الحياة على الأرض تعني: أن تأكل خبزاً وتحول الخبز
الى أجنعة، هي أن تشرب ماءً وتحول الماء الى أجنعة. الحياة على

الأرض معناها : شطه أجنحة. هذا ماقلته لنا - أنت، أيها الخائن!
إنها ليست كلماتي ! إنها كلمالك. فإذا كنت قد نسيتهما، فماذا تذكر
بها!

«أين أنت يا متى. أيها الكاتب؟ تعال هنا! تصفح أوراقك
الثقيلة- فانت دائماً حاملاً بالقرب من قلبك، كما أحمل أنا
خنجري- تصفح كتاباتك. لقد تأكلها الزمن، والعث، والعرق، ولكن
مازال بالامكان تمييز بعضاً منها. تصفح كتاباتك يا متى، واقرا
حتى يسمع صاحبنا السيد المحترم ويتذكر. فذات ليلة زارته
شخصية بارزة هامة من اورشليم اسمه نيقوديموس، جاءه سراً
وسأله «من أنت؟ ما هو عملك؟»، وأجبت: أنت، يا ابن النجار قائللاً -
أتذكر؟ - «انني اصنع أجنحة»، وحين قلت هذا شعرنا جميعاً
بأجنحة تشط من ظهورنا، والآن انظر الى أي حال وصلت، أيها
المحتال! ها أنت تئن وتقول «الحياة على الأرض تعني تخلي الانسان
عن أجنحته»، تنووه، أغرب عن وجهي، أيها الجبان! اذا لم تكن
الحياة كلها برق ورعد فما نفعلها لي؟ لا تقشرب مني يا بطرس، يا
طاحونة الهواء، ولا أنت، يا اندراوس الشهم. كفكما صراخاً أيتها
المرأتان، لن أؤذيه. ولم أرفع يدي في وجهه؟ انه ميت منذ زمن
طويل، هو لازال يمشي على قدميه، ويتكلم، ويكي، الا أنه ميت:
جثة. فليتوّل الرب أمر القضاة له - الرب، لأنني لا أستطيع ذلك.
فلتنزل على رأسه دماء اسرائيل، ودموعها، ورمادها!»

فنددت طافة العجايز القميين على التحمل فتداعوا كتلة واحدة
على الأرض. وانثعثت ذكرياتهم، وداؤوا يشعرون بأنهم يعبدون
شباباً، وتذكروا مملكة السماء، والأشواك، والهيبة. وفجأة انطلقوا
يرتلون ترنيمة حزينة، يثنون وينتحبون، ويضربون جباههم على
الحجارة.

وفجأة انفجر يسوع بدوره يجهش بالبكاء، وصرخ «يا يهوذا يا
أخي، سامحني!». وهم بالاندفاع ليرتمي بين ذراعي ذي اللحية
الحمراء. لكن يهوذا انتفض مرتدداً، ومد يديه ليمنعه من الدنو
منه، وصرخ به «لا تلمسني، لم أعد أوّمن بأي شيء، ولا أوّمن بأحد.
لقد حطمت قلبي!»

تلعثم يسوع وراح يثقت باحثاً عن شيء يتمسك به، فوجد
المرأتين اللتين انهارتا على الأرض تتفتان شعرهما وتصرخان،
والتلاميذ يرمونه بنظرات الغضب والكراهية، أما الولد الأسود
فكان قد اختفى.

غمغم قائلاً «أنا خائن، آبق، جبان. الآن بت أدرك ذلك» لقد
ضعت! نعم، نعم، كان يجب أن أصلب، لكنني فقدت شجاعتي
وفررت. سامحوني يا أختي، لقد خدعتكم. أواه، ليت بإمكانني أن
أعيش حياتي من بدايتها!»

انهار على الأرض وهو يتكلم وأخذ يضرب رأسه على حصى
الفناء.

«يا رفاقي، يا أصدقائي القدامى، قولوا لي كلمة طيبة.
واسوني. انني أفنى، أضيع! إنني أمد يدي اليكم. أما من أحد منكم
ينهض ليضع يده في يدي ويقول لي كلمة طيبة؟ الا أحد؟ لا أحد؟
ولا حتى أنت يا يوحنا الحبيب؟ ولا أنت يا بطرس؟»

قال التلميذ الحبيب منتحباً «كيف يسعني أن أتكلم، ماذا أقول؟
أي سحر رميته علينا يا ابن مريم؟»

قال بطرس، وهو يسمع دموعه «لقد خدعتنا، يهوذا على حق:
لقد خنت بوعدك، وذهبت حياتنا هباءً»

وفجأة تصاعد من كتل العجايز القميين جلية أنين جماعي:
«جبان! آبق! خائن!»

«جيان ! أبق ! خائن !»

قال متى متفجعاً «لقد ضاعت حياتي كلها هباءاً، هباءاً، هباءاً ! كم برعْتَ في جعل كلماتك ومنجزاتك خليفة بالأنبياء ! كانت مهمة صعبة جداً، لكنني نجحت في اتمامها، كنت أقول للنفس: إنه في كنائس المستقبل سوف يفتح المؤمنون كتبهم السميكة الموشاة بالذهب ويقولون «درس اليوم نقتطفه من الانجيل المقدس حسب متى» وهذه الفكرة كانت تجعلني أخلق، وأواصل الكتابة. أما الآن، فقد تبخرت كل تلك العظمة، وأنت - أيها العاق ! الجاهل ! الخائن ! - أنت الملولم، كان يجب أن تُصلب. نعم، حتى ولو اكراماً لي، لكي يتم انقاذ هذه الكتابات، كان يجب أن تُصلب !»

مرة أخرى سمع ضجيج الأنين الجماعي من تكتل العجائز القميتين :

«جيان ! أبق ! خائن !»

«جيان ! أبق ! خائن !»

عندئذ اندفع توما ينوي باب الخروج، وهتف «يا معلم، أنا لن أتخلي عنك بعد أن خذلك الجميع وأعلنوك خائناً ! لا، لن أتخلي عنك، ليس أنا، ليس توما الرسول ! لقد قلنا ان دولاب الزمن يدور لهذا لن أتخلي عن مساندتك. وسانتظر دوران دولاب الزمن»
نهض بطرس، وهتف «هيا بنا نرحل ! وأنت يا يهوذا، سر في المقدمة، وقدنا !»

نهض العجائز القميتون واقفين وهم يلهثون . وكان يسوع متمدداً على الأرض، منبطحاً، وذراعاه ممدودتين واسماً . كان يملأ ساحة الفناء كلها ، ورفعوا قبضات أيديهم مهددين وهم يصرخون :

«جيان ! أبق ! خائن !»

«جيان ! أبق ! خائن !»

وتناوبوا بالدور الصراخ «جيان ! أبق ! خائن !» - حتى ابتعدوا .
أدار يسوع عينيه في محجريهما الماء، ونظر حوله . أصبح وحيداً . فناء المنزل، والأشجار، وأبواب بيوت القرية، والقرية ذاتها - كل شيء اختفى . لم يبق غير الحجارة تحت قدميه، حجارة ملطخة بالدماء، وفي مكان أكثر انخفاضاً، وأبعد، شاهد حشداً : الأقاء من الرؤوس يلغها الظلام .

بذل كل مألديه من طاقة ليعرف أين هو، ومن يكون ولماذا يشعر بالألم . أراد أن يكمل يكاءه، أن يصرخ : لِمَ شَبَقْتَنِي... حاول أن يحرك شفتيه فلم يقوَ . وأحس بدوار وأوشك أن يصاب بالاعياء، وكأنه يفوس باندفاع إلى أسفل ويتلاشى .

ولكن فجأة، بينما هو يسقط ويتلاشى، يبدو أن ثمة شخصاً على الأرض أشفق عليه، فرفع اليه قصبته، وشعر بإسفنجة مغموسة بالخل تستقر على شفتيه ومنخريه . استنشق بعمق الرائحة اللاذعة، فانتعش، ونفخ صدره، ونظر إلى السموات وأطلق صرخة تمزق نياط القلب : لِمَ شَبَقْتَنِي !
ثم خذلته قواه، وعلى الفور تراخى رأسه .

أحس بالألم رهيب في يديه وقدميه وقلبه . وصفت بصيرته . فرأى اكليل الشوك، والدم، والصليب، ولمح تحت نور الشمس الفارية قرطين ذهبيين، وصفيين من الأسنان القوية الناصعة البياض، وسمع ضحكاً ساخراً رخياً، وتلاشت صورة القرطين والأسنان، وبقي يسوع معلقاً في الهواء، وحيداً .

ارتعش رأسه . وفجأة تذكر أين هو، ومن هو ولماذا يستشعر الألم . وغمره فرح عارم لا يُقهر . لا، لا، لم يكن جياناً، أو أبقاً، أو خائناً . لا، انه مسمرٌ على الصليب . لقد احتفظ بمكانته بكل شرف وحتى آخر لحظة، وأوفى بوعده . وفي اللحظة التي هتف فيها

«لوي، إلوي» وغاب عن الوعي. تملكته الفؤاية لجزء من الثانية
وأضلته. والمتع، والزيجات والأولاد كانت أكاذيب، والرجال المعانز
المتداعون، التخرون، الذين صرخوا به، جيان، أبق، خائن، كانوا
أكاذيب. كل شيء - كل شيء كان وهماً أرسله الشيطان. وتلاميذه
أحياء مغممون بالقوة، انتشروا يجرأ وأرضاً يعلنون النشارة. لقد
انتهى كل شيء إلى نهايته المنشودة. المجد للرب!
وأطلق صرخة انتصار سدوية : تم إنجاز العمل!
وكانه قال : إنها بداية كل شيء.

